تفسير القرآن الكريم

المسمّى

ضياء التأويل

في

معاني التنزيل

تأليف

العلامة أبي محمد عبد الله بن محمد بن عثمان

الملقب بفودي بن عثمان بن صالح

رحمه الله تعالى

الجزء الثالث

حقوق الطبع محفوظة للناشرين

أحمد حمد أبو السعود و عثمان الطيب

٨٥ شارع الأزهر ـ القاهرة ص . ب . ١٦٩ كانو (نيجريا)

بسم الله الرحمن الرحيم

سورة الكهف

مكية الا « واصبر نفسك .. » الآية
مائة وعشر آيات أو وخمس عشرة آية

﴿ بِسْمِ ٱللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ ﴾ ﴿ الْحَمْدُ ﴾ وهو الوصف بالجميل ثابت ﴿ لِلَّهِ ﴾ والمراد به الإعلام به للإيمان به والثناء به ﴿ الَّذِي أَنْزَلَ عَلَىٰ عَبْدِهِ ﴾ محمد ﴿ الْكِتَابَ ﴾ القرآن ، رتب استحقاق الحمد على إنزاله تنبيهاً على أنه أعظم نعمائه لأنه الهادى إلى ما فيه كمال العباد وصلاح المعاش والمعاد ﴿ وَلَمْ يَجْعَلْ لَهُ ﴾ أى فيه ﴿ عِوَجًا ﴾ اختلافاً فى اللفظ وتنافياً فى المعانى ، والجملة حال من الكتاب والعوج بكسر العين فى المعانى وبفتحها فى الأعيان ﴿ قَيِّمًا ﴾ مستقيما لا زيغ فيه إلى الباطل ولا تفريط ولا إفراط ، أو قيما بمصالح العباد فيكون وصفاً له بالتكميل بعد وصفه بالكمال ، أو على الكتب السابقة يشهد بصحتها وهى حال ثانية مؤكدة على الأول أو معمول لجعل مقدراً ومن حمله على التقدم والتأخر فقد عدل عن الظاهر بغير نكتة . وفى إثبات الاستقامة بعد نفى العوج مبالغة تؤذن أنه فى غاية الاستقامة بدون نقص ما لأنه قد يوصف الشىء بالاستقامة فإذا اعتبر وجد فيه عوج ما ، ويجوز أن يكون قيما بمعنى قائم بأمر الله من النذارة والبشارة كما أشار إليه بقوله ﴿ لِيُنْذِرَ ﴾ ليخوف الكتاب الكافرين ﴿ بَأْسًا ﴾ عذاباً ﴿ شَدِيدًا ﴾ حذف المفعول الأول لدلالة القرينة عليه واقتصاراً على الغرض المسوق إليه وهو إنذار البأس ليرتدع المؤمن والكافر بدليل إعادة الإنذار بعد التبشير مذكوراً معه المنذر ﴿ مِنْ لَدُنْهُ ﴾ بضم الدال وسكون النون وضم الهاء للجمهور وبإسكان الدال وكسر النون والهاء بعده لأبى بكر مع وصل الهاء بياء وابن كثير يصلها بالواو والباقون لا يصلون على أصولهم فى القراءة أى من عند الله وهو فى محل النصب حال أو صفة تهول للعذاب ﴿ وَيُبَشِّرَ الْمُؤْمِنِينَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ الصَّالِحَاتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا حَسَنًا ﴾ هى الجنة ﴿ مَاكِثِينَ فِيهِ ﴾ فى الأجر ﴿ أَبَدًا ﴾ بلا انقطاع ﴿ وَيُنْذِرَ ﴾ من جملة الكافرين ﴿ الَّذِينَ قَالُوا اتَّخَذَ اللَّهُ وَلَدًا ﴾ خصهم بالإنذار بعد التعميم استعظاماً لكفرهم ولم يذكر المنذر به اكتفاء بما تقدم ﴿ مَا لَهُمْ بِهِ ﴾ بهذا المقول

﴿ مِنْ عِلْمٍ ﴾ بل يقولونه بالجهل المفرط والتقليد لما سمعوا من أوائلهم من غير علم بالمعنى الذى أرادوا به فإنهم كانوا يطلقون الأب والابن بمعنى المؤثر والأثر أو ما لهم بالله من علم إذ لو علموه لما جوزوا نسبة الاتخاذ إليه ﴿ وَلَا لِآبَائِهِمْ ﴾ الذين يقولونه بمعنى التبنى ﴿ كَبُرَتْ ﴾ عظمت بمعنى بئس ﴿ كَلِمَةً ﴾ تمييز مفسر للضمير المبهم وقوله ﴿ تَخْرُجُ مِنْ أَفْوَاهِهِمْ ﴾ صفة تفيد استعظام اجترائهم مع تعجيبها كأنه قيل ما أكبرها كلمة لأن ما يكون فيه شين يتعاظم الإنسان أن يتفوه به إذا وسوس إليه الشيطان والمخصوص بالذم محذوف أى مقالتهم المذكورة لما فيها من التشبيه والتشريك وإيهام الحاجة ﴿ إِنْ ﴾ ما ﴿ يَقُولُونَ ﴾ فى ذلك ﴿ إِلَّا ﴾ مقولا ﴿ كَذِبًا ﴾ تصريح بما علم ضمنا وإشارة إلى أن عدم العلم لا يخرج الكلام والمتكلم عن الكذب إذا كان غير مطابق للواقع ﴿ فَلَعَلَّكَ بَاخِعٌ ﴾ مهلك ﴿ نَفْسَكَ ﴾ من البخاع وهو عرق فى صلب الحيوان متصل بعنقة فإذا وقع الذبح إليه كان غاية ﴿ عَلَى آثَارِهِمْ ﴾ بعدهم أى بعد توليهم عنك شبه توليهم عن الإيمان بارتحال أحبة الإنسان عن منازلهم فهو يتلهف عليهم ويقتل نفسه وجداً فكأنهم من فرط إدبارهم عن الإيمان قد بعدوا فهو فى آثارهم يحزن عليهم ﴿ إِنْ لَمْ يُؤْمِنُوا بِهَٰذَا الْحَدِيثِ ﴾ القرآن ﴿ أَسَفًا ﴾ حزناً شديداً ، وهو مصدر فى موضع الحال من فاعل « باخع » أو مفعول له أى متأسفاً عليهم أو للتأسف عليهم بحرصك على إيمانهم ولعل هنا للإشفاق وفيه تسلية للنبى صلى الله عليه وسلم ثم خبر بعظيم ما بسط عليهم مع ذلك الكفر تسكيناً لنبيه ومن تبعه بقوله ﴿ إِنَّا جَعَلْنَا مَا عَلَى الْأَرْضِ ﴾ من الحيوان والنبات والمعادن والأنهار وغير ذلك ﴿ زِينَةً لَهَا ﴾ ولأهلها وهو مفعول ثان لجعل بمعنى صير أو حال أو مفعول له إن كان بمعنى خلق ﴿ لِنَبْلُوَهُمْ ﴾ لنختبر الناس ناظرين إلى ذلك ﴿ أَيُّهُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا ﴾ فى تعاطيه وهو من زهد فيه ولم يغتر به وقنع منه بما يزجى به أيامه وصرفه على ما ينبغى إيثاراً لهم . قال ابن عطية عن أبيه : أحسن العمل أخذ بحق وإنفاق فى حق وأداء الفرائض واجتناب المحارم والإكثار من المندوب إليه . اهـ . وفى الحديث : الدنيا حلوة خضرة وإن الله مستخلفكم فيها فناظر كيف تعملون فاتقوا الدنيا واتقوا النساء . الحديث ، ثم زهد الله فيها بقوله ﴿ وَإِنَّا لَجَاعِلُونَ مَا عَلَيْهَا ﴾ من الزينة ﴿ صَعِيدًا ﴾ تراباً مستوياً بالأرض ﴿ جُرُزًا ﴾ يابساً أملس لا نبات فيه . وقد أحسن من قال يناجى ربه :

فَلَيْتَكَ تحلو والحياة مَريرةٌ * وليتك تَرْضَى والأنامُ غِضابُ
وليتَ الذى بينى وبينك عامر * وبينى وبين العالمين خرابُ
إذا صح منك الود فالكلُّ هينٌ * وكلُّ الذى فوق التراب ترابُ

الأبيات لأبى فراس الحمدانى معشوقة

ولما ذكر أمهات العجائب من أول السورة من تزيين الأرض بما خلق فوقها من الأنواع النباتية الخضر وإعدامها كأن لم تغن بالأمس تمهيداً لقصة أصحاب الكهف التى هى من أعاجيب الدهر ذكرها بقوله ﴿ أَمْ حَسِبْتَ ﴾ الخطاب للنبى والمقصود السائل المتعجب إذ هو صلى الله عليه وسلم يعلم من قدرة الله

ما لا يتعاظم عليه غيره ﴿ أَنَّ أَصْحَابَ الْكَهْفِ ﴾ الغار الواسع فى الجبل ﴿ وَالرَّقِيمِ ﴾ اللوح المرقوم أى المكتوب فيه أسماؤهم وأنسابهم وجعل على باب الكهف وهو رصاصى أو حجرى أو نجعل على باب المدينة حين سد ملكهم باب كهفهم بالبناء ليموتوا فيه جوعاً وعطشاً فيكون قبراً لهم والله أعلم ﴿ كَانُوا ﴾ فى قصتهم فى إبقائهم أحياء مدة مديدة ﴿ مِنْ آيَاتِنَا ﴾ من جملتها من خلق ما على الأرض من الأجناس والأنواع المتباينة تعجب الناظرين من مادة واحدة ثم ردها إليها ﴿ عَجَبًا ﴾ خبر كان وما قبله حال أى كانوا عجباً دون باقى الآيات أو أعجبها ليس الأمر كذلك و «أم» للإضراب الدال على أن ذلك أعجب الآيات إحياء أشخاص بعد الموت مدة متطاولة ، وقيل الرقيم الوادى الذى فيه الكهف ، وقيل اسم قريتهم ، وقيل اسم مكانهم وهو مكان بقرب فلسطين ، وقيل اسم كلبهم ، وقيل أصحاب الرقيم قوم آخرون ثلاثة خرجوا يرتادون لأهلهم فأخذتهم السماء فأووا إلى كهف فانحطت صخرة وسدت بابه فدعوا الله كل بعمله الخالص لله ففرج الله عنهم وقد ذكرت قصتهم فى البخارى وغيره ، وسبب نزول السورة أن قريشاً أرسلوا إلى يهود المدينة يسألونهم عن رسول الله فقالوا سلوه عن ثلاثة أشياء : عن رجل ملك مشارق الأرض ومغاربها وعن طائفة فارقوا قومهم وفروا بدينهم ووصفوا لهم أصحاب الكهف وعن الروح فإن أخبركم عن الاثنين وسكت عن الروح فهو نبى فسألوه فنزلت ﴿ إِذْ ﴾ منصوب باذكر أو بعجباً ﴿ أَوَى الْفِتْيَةُ ﴾ جمع فتى وهو الشاب الكامل ﴿ إِلَى الْكَهْفِ ﴾ خائفين على إيمانهم من قومهم الكفار وكانوا من أشراف الروم وكان ملكهم دقيانوس يأمر بعبادة الأصنام ويقتل من خالفه عليها ﴿ فَقَالُوا رَبَّنَا آتِنَا مِنْ لَدُنْكَ ﴾ من عندك ﴿ رَحْمَةً ﴾ توجب لنا المغفرة والرزق والأمن من العدو ﴿ وَهَيِّئْ ﴾ أصلح ﴿ لَنَا مِنْ أَمْرِنَا ﴾ شأننا الذى نحن بصدده من مفارقة الكفار ﴿ رَشَدًا ﴾ هداية إلى الطريق المؤدى إليه أو اجعل أمرنا كله رشدا وأصل التهيئة إحداث هيئة الشىء قال فى الجواهر وينبغى لكل مؤمن أن يجعل دعاءه فى أمر دنياه هذه الآية الكريمة فقط فإنها كافية . اهـ . ﴿ فَضَرَبْنَا ﴾ الحجاب ﴿ عَلَى آذَانِهِمْ ﴾ يمنع السماع أى أنمناهم إنامة لا تنبههم الأصوات فيها فحذف المفعول كما حذف فى قولهم بنى على امرأته أى القبة ﴿ فِي الْكَهْفِ سِنِينَ ﴾ ظرفان لضربنا ﴿ عَدَدًا ﴾ أى ذوات عدد ووصف سنين به يحتمل التكثير لأن القليل يعرف بدون العد والتقليل لأن الكثير عند الله قليل وإن يوماً عند ربك كألف سنة ﴿ ثُمَّ بَعَثْنَاهُمْ ﴾ أيقظناهم ﴿ لِنَعْلَمَ ﴾ علم مشاهدة ﴿ أَيُّ الْحِزْبَيْنِ ﴾ الفريقين المختلفين فى مدة لبثهم منهم ومن غيرهم ﴿ أَحْصَى ﴾ فعل ماض بمعنى ضبط ﴿ لِمَا لَبِثُوا ﴾ للبثهم متعلق بما بعده ﴿ أَمَدًا ﴾ غاية المعنى أيقظناهم ليتعلق علمنا به تعلقاً حالياً كما كان متعلقاً به تعلقاً استقبالياً أو مجاز عن لازمه وهو التمييز وأى لتضمنه معنى الاستفهام علق عنه العلم فهو مبتدأ وأحصى فعل ماض خبره وما فى لما لبثوا مصدرية وأمدا مفعول به لأحصى والمعنى أيهم ضبط أمد أوقات لبثهم فإنهم لما استيقظوا اختلفوا فى ذلك اختلاف الحزبين من غيرهم وقيل أحصى أفعل تفضيل وفيه ضعف وتكلف بتطويل مالا طائل تحته ولذا أضربنا عنه ﴿ نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ نَبَأَهُمْ ﴾

حديثهم ملتبساً ﴿ بِالْحَقِّ ﴾ بالصدق الثابت فى الواقع إيماء إلى أن ما ينقله أهل الكتاب من قصتهم لم يسلم من كذب بزيادة ونقصان ﴿ إِنَّهُمْ فِتْيَةٌ ﴾ جمع فتى كصبى وصبية أى شبان ﴿ آمَنُوا بِرَبِّهِمْ ﴾ مدح لهم لأن الشباب فى العادة مظنة الجهل وإنما نالوا علم الدين من حوارى عيسى إن كانت الواقعة بعده ومن دين الأمم الماضية إن كانت قبله على اختلاف التواريخ ﴿ وَزِدْنَاهُمْ هُدًى ﴾ بالتثبت والعمل الصالح والزهد عن الدنيا والانقطاع إلى الله وقيل بكلام الكتاب ﴿ وَرَبَطْنَا عَلَى قُلُوبِهِمْ ﴾ قويناها بالصبر على هجر الوطن والأهل والمال والجرأة على إظهار الحق والرد على ملكهم الجبار دقيانوس ﴿ إِذْ قَامُوا ﴾ بين يديه وقد أمرهم بالسجود للأصنام وكان يقتل من خالفه ﴿ فَقَالُوا رَبُّنَا رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ لَنْ نَدْعُوَ مِنْ دُونِهِ ﴾ غيره ﴿ إِلَهًا لَقَدْ قُلْنَا إِذًا ﴾ قولا ﴿ شَطَطًا ﴾ أى ذا إفراط فى الكفر وبعد عن الحق مفرط فى الظلم من شط الدار بعد ثم أنكروا على قومهم فقالوا ﴿ هَؤُلَاءِ ﴾ مبتدأ ﴿ قَوْمُنَا ﴾ عطف بيان ﴿ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ آلِهَةً ﴾ خبر وهو إخبار فى معنى الإنكار ﴿ لَوْلَا ﴾ هلا ﴿ يَأْتُونَ عَلَيْهِمْ بِسُلْطَانٍ بَيِّنٍ ﴾ برهان ظاهر فإن الدين لا يؤخذ إلا به وفيه دليل على أن مالا دليل عليه من الديانة مردود وأن التقليد فيه غير جائز قاله البيضاوى ﴿ فَمَنْ أَظْلَمُ ﴾ لا أحد أظلم ﴿ مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا ﴾ بنسبة الشريك إليه ثم قال بعض الفتية لبعض قيل هو كبيرهم تمليخا ﴿ وَإِذِ اعْتَزَلْتُمُوهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ ﴾ ما موصولة أو مصدرية عطف على الضمير المنصوب أى ومعبودهم أو عبادتهم ﴿ إِلَّا اللَّهَ ﴾ غيره لأنهم يعبدون الله ويشركون معه الأصنام وقيل ما نافية على أنه إخبار من الله عن الفتية بالتوحيد معترض بين إذ وجوابه لتحقيق اعتزالهم ﴿ فَأْوُوا إِلَى الْكَهْفِ ﴾ مأل للعهد الذهنى أو للجنس : الجأوا إليه ﴿ يَنْشُرْ لَكُمْ رَبُّكُمْ ﴾ يبسط ﴿ مِنْ رَحْمَتِهِ ﴾ فى الدارين ﴿ وَيُهَيِّئْ ﴾ ييسر ﴿ لَكُمْ مِنْ أَمْرِكُمْ ﴾ الدينى والدنيوى ﴿ مِرْفَقًا ﴾ بفتح الميم وكسر الفاء لنافع وابن عامر مصدر كمرجع وبكسر الميم وفتح الفاء للباقين آلة أى ما ترتفقون به من غداء وعشاء قالوا ذلك ثقة بالله قال ابن العربى وفيه دليل على العزلة فى الجبال عن الخلق إذا خاف فتنة وجواز الفرار من الظالم وهو سنة الأنبياء والأولياء ﴿ وَتَرَى الشَّمْسَ ﴾ إن حضرت مكانهم : الخطاب للنبى أو لكل أحد ﴿ إِذَا طَلَعَتْ تَزَاوَرُ ﴾ بالتشديد لنافع وابن كثير وأبى عمرو وأصله تتزاور فأدغمت التاء فى الزاى وبالتخفيف بحذفها للكوفيين وكتحمر لابن عامر أى تميل ﴿ عَنْ كَهْفِهِمْ ﴾ لا يقع شعاعها عليهم فيؤذيهم إما لأن الكهف كان جنوبيا ينظر بابه إلى بنات نعش أو لأن الله تعالى زورها عنهم ﴿ ذَاتَ الْيَمِينِ ﴾ جهته ﴿ وَإِذَا غَرَبَتْ تَقْرِضُهُمْ ﴾ أى تقطعهم وتتركهم ﴿ ذَاتَ الشِّمَالِ ﴾ فلا تصيبهم البتة والمراد يمين الكهف وشماله ﴿ وَهُمْ فِي فَجْوَةٍ ﴾ متسع ﴿ مِنْهُ ﴾ من الكهف أى وسطه ينالهم برد الريح ونسيمها ولا يؤذيهم حرها لأن الله حجبها عنهم بقدرته لا لكون الباب إلى جهة توجب ذلك ويؤيده قوله ﴿ ذَلِكَ ﴾ المذكور من حديثهم واختصاصهم بتلك الكرامة ﴿ مِنْ آيَاتِ اللَّهِ ﴾ الدالة على قدرته ﴿ مَنْ يَهْدِ اللَّهُ ﴾ بالتوفيق كأصحاب الكهف ﴿ فَهُوَ

﴿ الْمُهْتَدِ ﴾ إلى الصواب والفلاح ثناء عليهم وتنبيه على أن الآيات كثيرة ولكن المنتفع بها من وفقه الله فهو ثناء عليه تعالى أيضاً ﴿ وَمَنْ يُضْلِلْ ﴾ يخذله ﴿ فَلَنْ تَجِدَ لَهُ وَلِيًّا ﴾ يلي أمره وينصره ﴿ مُرْشِدًا ﴾ له إلى طريق الصواب ﴿ وَتَحْسَبُهُمْ ﴾ لو رأيتهم ﴿ أَيْقَاظًا ﴾ أي منتبهين لأن أعينهم مفتحة جمع يقظ بكسر القاف ولكثرة تقلبهم ﴿ وَهُمْ رُقُودٌ ﴾ والحال أنهم نيام جمع راقد ﴿ وَنُقَلِّبُهُمْ ﴾ في رقدتهم ﴿ ذَاتَ الْيَمِينِ وَذَاتَ الشِّمَالِ ﴾ كي لا تأكل الأرض ما يليها من أبدانهم على طول الزمان قيل كان التقليب بأمر الله وفعل ملائكته مرتين كل سنة وقيل مرة ليلة عاشوراء والله أعلم . ﴿ وَكَلْبُهُمْ ﴾ الذي مروا به وقت فرارهم فتبعهم فطردوه فكلمهم فقال أنا أحب أحباء الله وقيل مروا براع معه كلب فتبعهم ﴿ بَاسِطٌ ﴾ في كل وقت ﴿ ذِرَاعَيْهِ ﴾ يديه حكاية حال ماضية ولذا أعمل اسم الفاعل ﴿ بِالْوَصِيدِ ﴾ فناء الكهف أو الباب أو العتبة يقلب إذا قلبوا وهو مثلهم في النوم واليقظة وفي هذا دليل على أن من أحب أهل الخير نال من بركتهم وهذا كلب أحب أهل الخير وصحبهم فذكره الله معهم في تنزيله ﴿ لَوِ اطَّلَعْتَ عَلَيْهِمْ ﴾ فنظرت إليهم ﴿ لَوَلَّيْتَ ﴾ لفررت ﴿ مِنْهُمْ فِرَارًا ﴾ نصب على المصدر لأنه نوع من التولية أو على العلة أو على الحال ﴿ وَلَمُلِئْتَ ﴾ بتشديد اللام لنافع وابن كثير وبالتخفيف للباقين ﴿ مِنْهُمْ رُعْبًا ﴾ بسكون العين للجمهور وضمها لابن عامر والكسائي ويعقوب خوفاً يملأ صدرك لما ألبسهم الله من الهيبة مع عظم أجرامهم وطول شعورهم وأظفارهم وانفتاح عيونهم ووحشة مكانهم . روي أن معاوية لما غزا الروم مر على الكهف فقال لو كشف لنا عن هؤلاء فنظرنا إليهم وعلمنا خبرهم فقال له ابن عباس قد منع الله من ذلك من هو خير منك فقال لو اطلعت عليهم لوليت منهم فرارا فقال لا أنتهي حتى أعلم حالهم فبعث جماعة فلما دخلوا الغار هبت عليهم ريح فأحرقتهم : قد منع الله بالرعب من دخول أحد عليهم ﴿ وَكَذَٰلِكَ ﴾ أي كما أنمناهم تلك النومة التي تشبه الموت ﴿ بَعَثْنَاهُمْ ﴾ تلك البعثة التي تشبه إحياء الموتى وكما أنمناهم أصحاء كذلك بعثناهم من غير نقص بعد طول المدة ، والبعث التحريك عن سكون أي أيقظناهم ﴿ لِيَتَسَاءَلُوا بَيْنَهُمْ ﴾ ليسأل بعضهم بعضا عن حالهم ومدة لبثهم فإذا علموها ازدادوا شكراً على تلك الكرامة التي صاروا بها ﴿ قَالَ قَائِلٌ مِنْهُمْ ﴾ وهو مكسلمينا ﴿ كَمْ لَبِثْتُمْ قَالُوا لَبِثْنَا يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ ﴾ بناء على غالب الظن لأن العرف أن أقصى ما ينام الإنسان يوم كامل ، وعن الحسن : دخلوا الكهف عند طلوع الشمس وبعثوا عند غروبها فظنوا أنه يوم الدخول . اهـ . فمبنى الكلام على الظن فلا كذب ، ولما نظروا إلى طول أظفارهم وشعورهم وبناء منهدم على باب كهفهم أحالوا العلم إلى الله ﴿ قَالُوا ﴾ متوقفين في ذلك ﴿ رَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَا لَبِثْتُمْ ﴾ ويجوز أن يكون الأول قول بعضهم وهذا إنكار لآخرين ثم لما التبس الأمر عليهم أخذوا فيما بينهم فيما يهمهم وقالوا ﴿ فَابْعَثُوا أَحَدَكُمْ ﴾ قيل هو تمليخا كبيرهم ﴿ بِوَرِقِكُمْ ﴾ بكسر الراء للجمهور وبسكونها لأبي عمرو وحمزة وأبي بكر بفضتكم التي تزودتموها دليل على أن التزود سنة المتوكلين لا ينافي التوكل ﴿ هَٰذِهِ إِلَى الْمَدِينَةِ ﴾ يقال إنها

المسماة الآن طرسوس بفتح الراء واسمها قبل الإسلام أفسوس ﴿ فَلْيَنْظُرْ أَيُّهَا أَزْكَى طَعَامًا ﴾ أي أطعمة المدينة أحل وأطيب أو أكثر وأرخص ﴿ فَلْيَأْتِكُمْ بِرِزْقٍ مِنْهُ ﴾ وفى الآية صحة الوكالة وجوازها متفق عليه لعذر ولغير عذر جائز عند الأكثر خلافاً لأبي حنيفة ﴿ وَلْيَتَلَطَّفْ ﴾ في الشراء حتى لا يغبن، أو فى التخفى حتى لا يعرف ﴿ وَلَا يُشْعِرَنَّ بِكُمْ أَحَدًا ﴾ لا يفعلن ما يؤدى إلى الإشعار، سماه إشعاراً لكونه سبباً له ﴿ إِنَّهُمْ ﴾ جمع الضمير باعتبار معنى أحد ﴿ إِنْ يَظْهَرُوا ﴾ يطلعوا أو يغلبوا ﴿ عَلَيْكُمْ يَرْجُمُوكُمْ ﴾ يقتلوكم بالرجم ﴿ أَوْ يُعِيدُوكُمْ فِي مِلَّتِهِمْ ﴾ يصيروكم فيها وقيل كانوا على دينهم فآمنوا ﴿ وَلَنْ تُفْلِحُوا إِذًا ﴾ إن عدتم فى ملتهم ﴿ أَبَدًا ﴾ فى الدارين. روى أن تمليخا لما خرج من الكهف أنكر البناء المهدوم إذ لم يعرفه بالأمس ثم مشى فجعل ينكر الطريق والمعالم ويتحير وهو فى ذلك لم يتضح له الأمر حتى بلغ باب المدينة فرأى على بابها أمارة الإسلام ولم يميز بشراً من أهلها فازدادت حيرته وظن أنه فقد عقله ثم وصل إلى سوق الطعام فاشترى ودفع دراهم معه كأخفاف الربع فعجب لها البائع ودفعها إلى آخر ثم إلى آخر يتعاطاها الناس وقالوا هذه دراهم عهد فلان الملك من أين وجدت هذا الكنز فقال لهم ما أعرف شيئاً إلا أن الدراهم دراهم خرجت بها أنا وأصحابي بالأمس من هذه المدينة، فقال الناس هذا مجنون فذهبوا به إلى الملك كرهاً يظنه دقيانوس فلما وجد الملك غيره تأنس به وكان الملك صالحاً يسمى تبدوسيس فقال له أين وجدت هذا الكنز فقال إنما خرجت به أنا وأصحابي أمس من هذه القرية. قال أين أصحابك؟ قال إنا لما فررنا من الملك أوينا إلى الكهف الذى فى جبل أنجلوس فلما سمع الملك ذلك وكان أصحابه فى ذلك الوقت اختلفوا فى البعث هل تبعث الأرواح فقط أو مع الأجساد فجعل يدعو الله أن يبين له ذلك فتذكر ما كان معلوماً عندهم فقال لجلسائه إن هؤلاء هم الفتية الذين أرخ أمرهم على عهد دقيانوس وكتب له لوح النحاس بباب المدينة ففرحوا بذلك ثم سار الملك بمن معه إليهم فلما انتهوا إلى الكهف فقال لهم تمليخا قفوا هنا حتى أدخل عليهم وأعلمهم فلما أعلمهم فرحوا بذلك، قيل خرجوا فتلقوا الملك ثم رجعوا إلى كهفهم، وأكثر الروايات أنهم دعوا الله أن يميتهم حين حدثهم تمليخا ما حدثهم لئلا يتغيروا بالعجب فماتوا فلما أبطأ خروجهم دخل الملك مع الناس إليهم فوجدوهم موتى فرعبوا وتنازعوا بحسب ما يأتى. قال فى الجواهر بعد إيراد ما ذكرنا: وفى هذه القصص من الاختلاف ما تضيق به الصحف فاختصرته وذكرت المهم واعتمدت الأصح والله المعين برحمته ﴿ وَكَذَٰلِكَ ﴾ كما أنمناهم وبعثناهم ﴿ أَعْثَرْنَا ﴾ أطلعنا ﴿ عَلَيْهِمْ ﴾ غيرهم ﴿ لِيَعْلَمُوا ﴾ أى المعثرون ﴿ أَنَّ وَعْدَ اللَّهِ ﴾ بالبعث وغيره ﴿ حَقٌّ ﴾ بطريق أن القادر على إقامتهم المدة الطويلة وإبقائهم على حالهم بلا غذاء قادر على إحياء الموتى ﴿ وَأَنَّ السَّاعَةَ لَا رَيْبَ فِيهَا ﴾ فى إمكانها ووقوعها من عطف الخاص على العام توكيداً لوقوعها لأن حال الفتية فى النوم والبعث دليل على جواز الموت والبعث ﴿ إِذْ ﴾ معمول لأعثرنا أو ليعلموا

﴿ يَتَنَازَعُونَ بَيْنَهُمْ أَمْرَهُمْ ﴾ أمر دينهم فى البعث يقول بعضهم تبعث الأرواح مجردة وبعضهم يقول تبعث مع أجسادها . أى أعثرنا عليهم حين يتنازعون ليرتفع الخلاف ويتبين أنهما يبعثان معاً أو ليعلموا ماذكر حين يتنازعون فى أمر الفتية حين أماتهم الله ثانياً هل ماتوا أو ناموا نومهم أول مرة أو فى قول بعضهم نبنى عليهم بنياناً يسكنه الناس ويتخذونه قرية لئلا يتطرق إليهم الناس وقول بعضهم بل نبنى عليهم مسجداً يصلى فيه للتبرك كما قال تعالى ﴿ فَقَالُوا ابْنُوا عَلَيْهِمْ ﴾ أى حولهم ﴿ بُنْيَانًا ﴾ يسترهم كما بنى على قبر رسول الله صلى الله عليه وسلم فى الحجرة الشريفة ﴿ رَبُّهُمْ أَعْلَمُ بِهِمْ ﴾ فى حالهم هل ناموا نومهم أو ماتوا هو من كلام بعض المتنازعين أو اعتراض من كلام الله لرد كلامهم وإحالة العلم إليه تعالى ﴿ قَالَ الَّذِينَ غَلَبُوا عَلَى أَمْرِهِمْ ﴾ وهم الملك وحاشيته ﴿ لَنَتَّخِذَنَّ عَلَيْهِمْ مَسْجِدًا ﴾ يصلى الناس فيه تبركا بمكانهم وفعل ذلك على باب الكهف ﴿ سَيَقُولُونَ ﴾ أى الخائضون فى عددهم زمن النبى صلى الله عليه وسلم وهو إخبار بما سيقع بين أهل الكتاب والمؤمنين فى عدتهم : هم رجال ﴿ ثَلَاثَةٌ رَابِعُهُمْ كَلْبُهُمْ وَيَقُولُونَ ﴾ أى بعضهم هم رجال ﴿ خَمْسَةٌ سَادِسُهُمْ كَلْبُهُمْ ﴾ وقد حضر عند النبى صلى الله عليه وسلم نصارى نجران معهم السيد والعاقب النجرانيان فتذاكروا مع اليهود عدد أصحاب الكهف فقال اليهود هم ثلاثة ووافقهم السيد من نصارى نجران وكان يعقوبيا وقالت النصارى ووافقهم العاقب منهم هم خمسة وكان العاقب نسطوريا ﴿ رَجْمًا بِالْغَيْبِ ﴾ رميا بالخبر الخفى الذى لامطلع لهم عليه أو ظنا بالغيب من قولهم رجم بالظن إذا ظن ، ولم يذكر الثانى بالسين اكتفاء بعطفه على ما هى فيه وقوله رجما راجع إلى القولين معاً ونصبه على المفعول له أى لظنهم ذلك ﴿ وَيَقُولُونَ ﴾ أى المؤمنون بإخبار الرسول لهم عن جبريل عليه السلام هم ﴿ سَبْعَةٌ وَثَامِنُهُمْ كَلْبُهُمْ ﴾ الجملة من مبتدأ وخبره صفة سبعة بزيادة الواو تأكيدا ودلالة على لصق الصفة بالموصوف كما فى قولهم جاءنى رجل ومعه آخر وهو كقولك مررت بزيد وبيده سيف لأن الصفة والحال متقاربان وجدوى هذه المبالغة الإعلام بأن هذه العدة هى الصواب مع وصف الأولين بالرجم دونه ، ولذا أتبعه بقوله ﴿ قُلْ رَبِّي أَعْلَمُ بِعِدَّتِهِمْ مَا يَعْلَمُهُمْ إِلَّا قَلِيلٌ ﴾ قال ابن عباس أنا من القليل فذكرهم سبعة : تمليخاً . ومكسلمينا . ومشلمينا . ومرنوش . ودبرنوش . وشاذنوش . والسابع الراعى : كشططيوش . وكلبهم قطمير . وفى هذه الأسماء اختلاف كثير لا ينضبط والله أعلم . ﴿ فَلَا تُمَارِ ﴾ لا تجادل أهل الكتاب ﴿ فِيهِمْ ﴾ فى أمر الفتية ﴿ إِلَّا مِرَاءً ظَاهِرًا ﴾ لا تعمق فيه بأن تقص عليهم ما فى القرآن من غير تجهيل لهم ولا راد عليهم ﴿ وَلَا تَسْتَفْتِ ﴾ لا تسأل ﴿ فِيهِمْ ﴾ فى أصحاب الكهف ﴿ مِنْهُمْ ﴾ من أهل الكتاب ﴿ أَحَدًا ﴾ عن قصة أصحاب الكهف سؤال مسترشد إذ لا علم لهم بها وفيما أوحى إليك غنية ولا سؤال متعنت يريد تفضيح المسئول عنه لأنه يخل بمكارم الأخلاق ، وفى التبيان : المراء فى العلم منهى عنه لا تؤمن فتنته ولا تفهم حكمته . ولما سأل النبى صلى الله عليه وسلم أهل مكة عن خبر أهل الكهف فقال أخبركم به غداً ولم يقل إن شاء الله : نزل ﴿ وَلَا تَقُولَنَّ لِشَيْءٍ

أى لأجل شىء عزمته ﴿ إِنِّى فَاعِلٌ ذَٰلِكَ غَدًا ﴾ أى فيما يستقبل من الزمان ﴿ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ ٱللَّهُ ﴾ أى إلا ملتبسا بمشيئة الله بأن تقول إن شاء الله أو إلا وقت مشيئة الله ذلك بأن يأذن لك أن تقول ذلك والاستثناء من النهى وهو نهى تأديب من الله لنبيه عليه السلام ﴿ وَٱذْكُرْ رَبَّكَ ﴾ أى مشيئته متعلقا بها أى قل إن شاء الله ﴿ إِذَا نَسِيتَ ﴾ التعلق بها ويكون ذكرها بعد النسيان كذكرها مع القول لما روى أن النبى صلى الله عليه وسلم قال لما نزل «إن شاء الله» قال الحسن وغيره يستثنى إذا ذكر ما دام فى المجلس وعن ابن عباس ولو بعد سنة ما لم يحنث ولذا جوز تأخير الاستثناء عنه وعامة الفقهاء على خلافه لأنه لو صح ذلك لم يتقرر إقرار ولا طلاق ولا عتاق ولم يعلم صدق ولا كذب . روى أن أمير المؤمنين المنصور لما بلغه أن أبا حنيفة خالف ابن عباس فى ذلك دعاه وسأله عن ذلك فقال يا أمير المؤمنين ضرر ذلك عائد إليك فإنك تأخذ البيعة بالأيمان أفترضى أن يخرجوا من عندك ويقولوا استثنينا فاستحسن منه ذلك وقيل معنى «اذكر ربك» أى بالتسبيح والاستغفار إذا نسيت الاستثناء أو اذكر ربك وعقابه إذا تركت ما أمرك به أو اذكره إذا اعتراك النسيان ليذكرك المنسى ﴿ وَقُلْ ﴾ لكفار مكة ﴿ عَسَىٰ ﴾ أرجو ﴿ أَنْ يَهْدِيَنِ رَبِّى لِأَقْرَبَ مِنْ هَٰذَا ﴾ من خبر أهل الكهف فى الدلالة على نبوتى ﴿ رَشَدًا ﴾ هداية وقد فعل الله تعالى ذلك بقصص الأنبياء المتباعد عنه أيامهم والإخبار بالغيوب والحوادث النازلة فى الأعصار المستقبلة إلى قيام الساعة أو المعنى قل عند نسيان شىء لعل ربى أن يهدينى إلى ما هو خير من هذا المنسى لقوله ما ننسخ من آية أو ننسها نأت بخير منها ثم بين الله ما أجمل فى قوله سنين عددا بقوله ﴿ وَلَبِثُوا فِى كَهْفِهِمْ ثَلَٰثَ مِائَةٍ ﴾ بالتنوين للجمهور ﴿ سِنِينَ ﴾ عطف بيان لثلاثمائة ولحمزة والكسائى بالإضافة على وضع الجمع موضع الواحد رجوعا إلى الأصل إذ الأصل فى تمييز مائة الجمع كثلاثة وأربعة وإنما يفرد للتخفيف وهذه السنون الثلاثمائة عند أهل الكتاب شمسية وتزيد القمرية عليها عند العرب تسع سنين وقد ذكرت فى قوله ﴿ وَٱزْدَادُوا تِسْعًا ﴾ أى تسع سنين فالثلثمائة الشمسية ثلثمائة وتسع قمرية وقيل بيان باختلاف أهل الكتاب فى مدة أصحاب الكهف كاختلافهم فى عددهم فقال بعضهم ثلثمائة وقال بعضهم ثلثمائة وتسع والله أعلم . ﴿ قُلِ ٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا لَبِثُوا ﴾ ممن اختلفوا فيه وهو ما أخبرك به وهذا التذييل كالتذييل بقوله « قل ربى أعلم بعدتهم» ﴿ لَهُ غَيْبُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ﴾ أى علمه وأمر أصحاب الكهف نزر منه ﴿ أَبْصِرْ بِهِ ﴾ أى بالله صيغة تعجب ﴿ وَأَسْمِعْ ﴾ به كذلك بمعنى ما أبصره وما أسمعه : أريد بهما تعجيب المخاطبين بأن الله لا يخفى عليه شىء مما يدرك بالبصر والسمع والهاء يعود إلى الله تعالى ومحله الرفع على الفاعلية عند سيبويه والباء مزيدة أصله أبصر أى صار ذا بصر فنقل إلى صيغة الأمر بمعنى الإنشاء فبرز الضمير لعدم قابلية الصيغة له أو النصب على المفعولية عند الأخفش والفاعل ضمير المأمور وهو كل أحد والباء مزيدة إن كانت الهمزة للتعدية ومعدية إن كانت للصيرورة ﴿ مَا لَهُمْ ﴾ الضمير لأهل السموات والأرض ﴿ مِنْ دُونِهِ

مِنْ وَلِيٍّ ﴾ ناصر ﴿ وَلَا يُشْرِكُ فِي حُكْمِهِ أَحَدًا ﴾ لأنه غنى عن الشريك وقرأ ابن عامر لا تشرك بالخطاب على صيغة النهى والجمهور على النفى وهو أبلغ ﴿ وَاتْلُ مَا أُوحِيَ إِلَيْكَ مِنْ كِتَابِ رَبِّكَ ﴾ المشتمل على بيان كل مشكل كقصة أصحاب الكهف فإن تلاوته أقرب الوسائل إليه وأشرف العبادات لديه فلازمه ولازم أصحابه ولا تسمع لمن قال ائت بقرآن غير هذا أو بدله ﴿ لَا مُبَدِّلَ لِكَلِمَاتِهِ ﴾ لا أحد يقدر على تبديلها لكون القرآن معجزاً بخلاف سائر الكتب ولذا وقع فيها التحريف ﴿ وَلَنْ تَجِدَ مِنْ دُونِهِ مُلْتَحَدًا ﴾ ملجأ تميل إليه إن هممت بالتبديل الذى يدعونك إليه ، والملتحد الجانب الذى يمال إليه ومنه اللحد ، ويستحب لتالى القرآن منفردا أن يختمه فى الصلاة ويستحب الختم أول الليل أو أول النهار . وفى الترمذى عن سعد ابن أبى وقاص : إذا وافق ختم القرآن أول الليل صلت عليه الملائكة حتى يصبح وإن وافق أول النهار صلت عليه حتى يمسى أو كما قال ﴿ وَاصْبِرْ نَفْسَكَ ﴾ ثبتها ﴿ مَعَ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ ﴾ فى مجامع أوقاتهم أو فى طرفى النهار أى صلاة الصبح والعصر أو أريد الدعاء فى هذين الوقتين فإنهما أشرف الأوقات وقرأ ابن عامر هنا وفى الأنعام بالغدوة بضم الغين وسكون الدال والواو المفتوحة بدل الألف ﴿ يُرِيدُونَ ﴾ بعبادتهم ﴿ وَجْهَهُ ﴾ رضاه وطاعته لا شيئا من أغراض الدنيا وهم فقراء المؤمنين ﴿ وَلَا تَعْدُ ﴾ لا تتجاوز ﴿ عَيْنَاكَ عَنْهُمْ ﴾ عبر بهما عن صاحبهما أى لا يتجاوزهم نظرك إلى غيرهم لرثاثة زيهم وطراوة زى الأغنياء وعدى بعن لتضمينه معنى تنبو ، وفى إقحام العين وإسناد الفعل مضمناً معنى فعل آخر ليؤدى معنى الفعلين مبالغة لا تخفى ﴿ تُرِيدُ زِينَةَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ﴾ حال من الكاف ﴿ وَلَا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُ عَنْ ذِكْرِنَا ﴾ أى القرآن أى من جعلنا قلبه غافلا عنه من أغفلته إذا صيرته غافلا كأمية بن خلف وأمثاله ممن يقول للنبى صلى الله عليه وسلم إن أردت مجالستنا فأخرج هؤلاء العبيد والصعاليك من عندك ، يريدون بلالا وعمارا وأضرابهما من المماليك والفقراء وفيه تنبيه على أن الداعى له إلى هذا القول غفلة قلبه عن المعقولات وانهماكه فى المحسوسات حتى خفى عليه أن الشرف بتحلية القلب لا بزينة الجسد وأنه لو أطاعه كان مثله فى الغباوة ﴿ وَاتَّبَعَ هَوَاهُ ﴾ ماسولته النفس من الشرك وغيره ﴿ وَكَانَ أَمْرُهُ فُرُطًا ﴾ إسرافاً وتقدماً على الحق ﴿ وَقُلِ ﴾ له ولأصحابه هذا القرآن ﴿ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكُمْ ﴾ والجار والمجرور حال مؤكدة أو خبر ، والحق : مبتدأ : أى الحق هو ما يأتى عن الله لا ما يقتضيه الهوى ﴿ فَمَنْ شَاءَ فَلْيُؤْمِنْ وَمَنْ شَاءَ فَلْيَكْفُرْ ﴾ تهديد لهم أى فمن شاء فليدخل فى زمرة الفائزين بهذه السعادة ومن شاء فليكن فى الهالكين وإبراز الكلام فى صورة التخيير إزاحة للعلل ﴿ إِنَّا أَعْتَدْنَا لِلظَّالِمِينَ ﴾ الكاملين فى الظلم الكافرين ﴿ نَارًا أَحَاطَ بِهِمْ سُرَادِقُهَا ﴾ فسطاطها وهو ما يحيط بالخيم والبيوت شبه به ما يحيط بهم من النار . وفى الزرقانى شرح الموطأ : السرادق هو الذى يحيط بالخيمة وله باب يدخل منه إليها وإنما يعمله الملوك والأكابر . اهـ . وقيل سرادقها دخانها ، وقيل حائط من النار يطيف بهم لا يمكنهم من الخروج ﴿ وَإِنْ يَسْتَغِيثُوا ﴾ من

العطش ﴿ يُغَاثُوا بِمَاءٍ كَالْمُهْلِ ﴾ النحاس المذاب أو دردى الزيت وهو ما يبقى فى أسفله إذا طبخ ، وقيل القيح والصديد ﴿ يَشْوِى الْوُجُوهَ ﴾ إذا قرب إليها للشرب وهو صفة ثانية لماء أو حال من المهل ﴿ بِئْسَ الشَّرَابُ ﴾ المهل ﴿ وَسَاءَتْ ﴾ النار ﴿ مُرْتَفَقًا ﴾ ما يتكأ عليه كالوسادة وهو تمييز محول من الفاعل أى قبح مرتفقها وأصل الارتفاق نصب المرفق تحت الخد ، ذكر لمشاكلة قوله الآتى فى الجنة وحسنت مرتفقا ، وإلا فأى ارتفاق فى النار ﴿ إِنَّ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ إِنَّا لَا نُضِيعُ أَجْرَ مَنْ أَحْسَنَ عَمَلًا ﴾ الجملة خبر إن الذين وفيها إقامة الظاهر مقام المضمر بياناً بأن الذين آمنوا وعملوا الصالحات هم المستحقون باسم من أحسن عملا ، واستغنت الجملة عن العائد لأنها عين المبتدأ معنى أو الراجع محذوف أى منهم أو الخبر هو قوله ﴿ أُولَئِكَ لَهُمْ جَنَّاتُ عَدْنٍ ﴾ إقامة وما بينهما اعتراض وعلى الأول فهو استئناف لبيان الأجر أو خبر آخر ﴿ تَجْرِى مِنْ تَحْتِهِمُ الْأَنْهَارُ يُحَلَّوْنَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ مِنْ ذَهَبٍ ﴾ من الأولى للابتداء أو مزيدة أو تبعيضية والثانية بيان ، والأساور جمع أسورة وتنكيرها لتعظيم حسنها عن الإحاطة به ﴿ وَيَلْبَسُونَ ثِيَابًا خُضْرًا ﴾ لأن الخضرة أحسن الألوان وأكثرها طراوة ، قاله البيضاوى ﴿ مِنْ سُنْدُسٍ ﴾ مارق من الديباج ﴿ وَإِسْتَبْرَقٍ ﴾ ما غلظ منه ، وفى آية الرحمن « بطائنها من إستبرق » والأول الظهائر أو جمع بين النوعين للدلالة على أن فيها ما تشتهى الأنفس وتلذ الأعين ، قاله البيضاوى ، وقيل الإستبرق الحرير المنسوج بالذهب ﴿ مُتَّكِئِينَ فِيهَا عَلَى الْأَرَائِكِ ﴾ جمع أريكة هو السرير فى الحجلة وهى بيت يزين بالثياب والستور للعروس ، وقيل كل ما يتكأ عليه من وسادة أو منصة ﴿ نِعْمَ الثَّوَابُ ﴾ الجزاء الجنة ونعيمها ﴿ وَحَسُنَتْ ﴾ الأرائك ﴿ مُرْتَفَقًا ﴾ متكئاً أى منزلا ﴿ وَاضْرِبْ ﴾ اجعل ﴿ لَهُمْ ﴾ للمفتخرين بزخارف الدنيا القائلين لك لا نجالسك حتى تطرد الفقراء ﴿ مَثَلًا ﴾ أى مثل حالهم وحال هؤلاء الفقراء بحال ﴿ رَجُلَيْنِ ﴾ أى مثل رجلين وهو بدل وهو وما بعده تفسير المثل ورجلين إما مقدرين أو موجودين وهما أخوان من بنى إسرائيل أحدهما كافر واسمه قرطوس والآخر مؤمن اسمه تمليخا أو يهوذا ورثا من أبيهما ثمانية آلاف دينار فتشاطراها فكان كلما أنفق الكافر فى الدور والبساتين والنساء وسائر ما يتمتع به أنفق المؤمن مثله فى سبيل الله وأبواب البر راجياً من الله ثوابه ﴿ جَعَلْنَا لِأَحَدِهِمَا ﴾ الكافر ﴿ جَنَّتَيْنِ ﴾ بساتين ﴿ مِنْ أَعْنَابٍ ﴾ من الكروم ﴿ وَحَفَفْنَاهُمَا بِنَخْلٍ ﴾ أى جعلنا النخل محيطة بهما مؤزراً بها كرومها ﴿ وَجَعَلْنَا بَيْنَهُمَا ﴾ وسطهما ﴿ زَرْعًا ﴾ يقتات به ليكون كل منهما جامعاً للأقوات والفواكه متواصل العمارة على الشكل الحسن والترتيب الأنيق ﴿ كِلْتَا الْجَنَّتَيْنِ ﴾ كلتا مفرد لفظاً مثنى معنى مضاف أبداً واعتبار اللفظ فيه أكثر ولذا قال ﴿ آتَتْ أُكُلَهَا ﴾ بإفراد الضمير أى ثمرها ، وهو بإسكان الكاف لنافع وابن كثير وأبى عمرو والباقون بضمها ، وكلتا مبتدأ وآتت خبره ﴿ وَلَمْ تَظْلِمْ مِنْهُ شَيْئًا ﴾ لم تنقصه كما يعهد فى البساتين تتم عاماً وتنقص عاماً غالباً ﴿ وَفَجَّرْنَا خِلَالَهُمَا نَهَرًا ﴾ يجرى بينهما ليدوم شربهما فإنه ملاك الأمر ومادة

الحسن فى الكروم والبساتين ﴿وَكَانَ لَهُ﴾ مع الجنتين ﴿ثُمُرٌ﴾ بضم الثاء والميم للجمهور : أنواع من المال ، ولأبى عمرو بإسكان الميم تخفيف ، ولعاصم بفتحهما جمع ثمرة ﴿فَقَالَ لِصَاحِبِهِ﴾ المؤمن ﴿وَهُوَ يُحَاوِرُهُ﴾ يراجعه فى الكلام ويفاخره آخذاً بيده يريه شيئاً فشيئاً مفتخراً ﴿أَنَا أَكْثَرُ مِنْكَ مَالًا وَأَعَزُّ نَفَرًا﴾ عشيرة يطلق على الرجال خاصة الذين ينفرون معه من الحشم والأعوان والأبناء الذكور ، ولم يقل أخيه فى الموضعين لأن المؤمن ليس أخاً للكافر وإن اتحد معه نسباً ﴿وَدَخَلَ جَنَّتَهُ﴾ بصاحبه يطوف به فيها ويريه آثارها ولم يقل جنتيه إرادة للروضة لاتصالهما حتى كأنهما جنة واحدة أو اكتفاء بالواحدة أو ما هو جنته من دنياه تنبيهاً على أنه لاجنة له غيرها ولا حظ له فى الجنة التى وعد المتقون ﴿وَهُوَ ظَالِمٌ لِنَفْسِهِ﴾ بالكفر والعجب وغرورها بالفانى وعرضها للعذاب الدائم ﴿قَالَ مَا أَظُنُّ أَنْ تَبِيدَ﴾ أن تفنى ﴿هَذِهِ﴾ الجنة ﴿أَبَدًا﴾ لكمال غفلته وعدم تأمله فى القرون الخالية والقصور الخاوية ﴿وَمَا أَظُنُّ السَّاعَةَ قَائِمَةً﴾ كائنة ﴿وَلَئِنْ رُدِدْتُ إِلَى رَبِّي﴾ فى الآخرة على زعمك ﴿لَأَجِدَنَّ خَيْرًا مِنْهُمَا﴾ بضمير التثنيه لنافع وابن كثير وابن عامر أى من الجنتين وللباقين بضمير الواحدة أى من الجنة ﴿مُنْقَلَبًا﴾ مرجعاً وإنما أقسم على ذلك لاعتقاده أنه تعالى إنما أولاه ما أولاه لكونه أهلا لذلك وهو معه أينما يلقاه ﴿قَالَ لَهُ صَاحِبُهُ وَهُوَ يُحَاوِرُهُ﴾ يجاوبه ﴿أَكَفَرْتَ بِالَّذِي خَلَقَكَ مِنْ تُرَابٍ﴾ لأنه أصل مادتك أو مادة أبيك آدم ﴿ثُمَّ مِنْ نُطْفَةٍ﴾ منىّ ﴿ثُمَّ سَوَّاكَ﴾ عدلك وصيرك ﴿رَجُلًا﴾ وكفره لشكه فى قيام الساعة ﴿لَكِنَّا﴾ أصله لكن أنا ، نقلت حركة الهمزة إلى النون وحذفت الهمزة ثم أدغمت النون فى مثلها ، ولا يجوز أن تكون لكن المشددة العاملة نصباً إذ لا يقع بعدها هو لأنه ضمير مرفوع بل أنا مبتدأ وقوله « هو » ضمير الشأن يفسره الجملة بعده والمعنى أنا أقول ﴿هُوَ اللَّهُ رَبِّي﴾ أو ضمير الشأن مبتدأ ثان وهو وخبره الذى هو جملة خبر أنا أو هو ضمير لله واسم الجلالة بعده بدل منه و «ربى» خبره والجملة خبر أنا ، وأثبت ابن عامر الألف فى الوصل وحذفها الباقون ، والاستدراك من « أكفرت » كأنه قال أنت كافر بالله لكنى مؤمن به ﴿وَلَا أُشْرِكُ بِرَبِّي أَحَدًا . وَلَوْلَا﴾ هلا ﴿إِذْ دَخَلْتَ جَنَّتَكَ قُلْتَ﴾ عند إعجابك بها هذا ﴿مَا شَاءَ اللَّهُ﴾ أو ما شاء الله كائن فعلى الأول ما موصولة خبر مبتدإ محذوف وعلى الثانى شرطية أى أىّ شىء شاء فهو كائن ﴿لَا قُوَّةَ إِلَّا بِاللَّهِ﴾ اعترافاً بالعجز على نفسك والقدرة لله وإن ماتيسر لك من عمارتها وتدابيرها فبمعونته وإقداره وفى الحديث : من أعطى خيراً من أهل أو مال فأعجبه فقال عند ذلك ما شاء الله لا قوة إلا بالله لم ير فيه مكروهاً ، وفى رواية لم يضره . قال مالك : ينبغى لكل من دخل منزله أن يقول ذلك ذكره ابن العربى فى الأحكام . وفى سنن أبى داود والترمذى والنسائى عن أنس قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : «من قال إذا خرج من بيته بسم الله توكلت على الله ولاحول ولاقوة إلا بالله يقال له هديت وكفيت ووقيت وتنحى عنه الشيطان» . وقال لأبى هريرة «أكثر من قول لاحول ولا قوة إلا بالله فإنه من كنز الجنة»

أخرجه الترمذى ﴿ إِنْ تَرَنِ أَنَا ﴾ ضمير فصل بين المفعولين أو تأكيد للمفعول الأول فموضعها نصب ﴿ أَقَلَّ مِنْكَ مَالًا وَوَلَدًا ﴾ وقرئ «أقل» بالرفع على أنه خبر «أنا» والجملة مفعول ثان لترن، وفى قوله وولداً دليل لمن فسر النفر بالأولاد ﴿ فَعَسَى رَبِّى أَنْ يُؤْتِيَنِ خَيْرًا مِنْ جَنَّتِكَ ﴾ دنياك جواب الشرط أى فى الدنيا أو فى الآخرة ﴿ وَيُرْسِلَ عَلَيْهَا ﴾ على جنتك لكفرك ﴿ حُسْبَانًا ﴾ جمع حسبانة أى صواعق ﴿ مِنَ السَّمَاءِ ﴾ أى جائحة سماوية كالصاعقة والريح ﴿ فَتُصْبِحَ صَعِيدًا زَلَقًا ﴾ أرضاً ملساء لا نبات بها لاستئصاله لا يثبت عليها قدم ﴿ أَوْ يُصْبِحَ مَاؤُهَا غَوْرًا ﴾ بمعنى غائر، مصدر وصف به مبالغة كالزلق عطف على «يرسل» دون «تصبح» لأن غور الماء لا يتسبب عن الصواعق ويصبح إما فعل ناقص والمنصوب بعده خبر، وإما بمعنى الدخول فى الصباح فإن طروق العذاب بالليل أشد ﴿ فَلَنْ تَسْتَطِيعَ لَهُ ﴾ للماء الغائر ﴿ طَلَبًا ﴾ حيلة تدركه بها أو جعل طلبه غير مقدور لأن طلب المحال كالمحال لا يصدر عن عاقل ﴿ وَأُحِيطَ بِثَمَرِهِ ﴾ بأوجه الضبط السابقة مع جنته بالهلاك والإحاطة كناية عن الهلاك رأساً لمن أحاط به عدوه بأن أرسل الله ناراً من السماء فأهلكتها وغار ماؤها ﴿ فَأَصْبَحَ يُقَلِّبُ كَفَّيْهِ ﴾ ظهراً لبطن ندماً وتحسراً وتقليبها كناية عن الندم لأن النادم يفعل ذلك ولتضمنه معنى الندم عدى بعلى فى قوله ﴿ عَلَى مَا أَنْفَقَ فِيهَا ﴾ فى عمارة جنته ﴿ وَهِىَ خَاوِيَةٌ ﴾ ساقطة ﴿ عَلَى عُرُوشِهَا ﴾ دعائمها للكروم بأن سقطت عروشها على الأرض ثم سقطت الكروم فوقها لأنه إذا رآها كذلك تزداد حسرته، واختصاص الكروم لأنها أصل الجنة والنخيل الحافة بها كالتوشيح لها ﴿ وَيَقُولُ ﴾ فى نفسه أو جهاراً وهو عطف على يقلب أو حال من ضميره ﴿ يَا ﴾ للتنبيه ﴿ لَيْتَنِى لَمْ أُشْرِكْ بِرَبِّى أَحَدًا ﴾ كأنه تذكر موعظة صاحبه فقال هذا أسفاً على الدنيا لا توبة ولو كان توبة لم تقبل لأنها كانت بعد ظهور الآية قاله فى غاية الأمانى ﴿ وَلَمْ تَكُنْ ﴾ بالتاء للجمهور والياء لحمزة والكسائى ﴿ لَهُ فِئَةٌ ﴾ جماعة ﴿ يَنْصُرُونَهُ مِنْ دُونِ اللَّهِ ﴾ عند هلاكها بدفع الهلاك أو الإتيان بمثله وآثر لفظ الفئة لأن أكثر الانتصار بالشبان الأقوياء فى الشدائد ﴿ وَمَا كَانَ مُنْتَصِرًا ﴾ بنفسه وقوته عن انتقام الله تعالى منه ﴿ هُنَالِكَ ﴾ أى فى ذلك المقام وتلك الحالة التى حل فيها غضب الله أو يوم القيامة ولا يخفى بعده ﴿ الْوَلَايَةُ ﴾ بفتح الواو للجمهور النصرة وبكسرها لحمزة والكسائى الملك ﴿ لِلَّهِ ﴾ لانصرة ولا ملك لأحد غيره فيها وهو تقرير لقوله «ولم تكن له فئة ينصرونه» وهو تنبيه أيضاً على أن قوله «ياليتنى لم أشرك» كان على اضطرار فلا فائدة فيه ﴿ الْحَقِّ ﴾ بالجر للجمهور صفة الجلالة والرفع لأبى عمرو والكسائى صفة الولاية، والأولى أولى لما فى هذه من الفصل بين الموصوف والصفة ﴿ هُوَ خَيْرٌ ثَوَابًا ﴾ لأوليائه من ثواب غيره لو كان يثيب ﴿ وَخَيْرٌ عُقْبًا ﴾ بضم القاف للجمهور وسكونها لعاصم وحمزة لغتان بمعنى العاقبة أى عاقبة للمؤمنين ونصبها على التمييز. ولما ضرب المثل الأول للمغترين بالدنيا أتبعه بما هو أظهر لأن ذلك كان على طريق الحكاية دون المشاهدة وهذه أمور مشاهدة لهم على التوالى بقوله ﴿ وَاضْرِبْ ﴾

صيّر ﴿ لَهُمْ ﴾ للمغترين بالدنيا وزخارفها ﴿ مَثَلَ الْحَيَوٰةِ الدُّنْيَا ﴾ فى زهرتها وسرعة زوالها وهو مفعول أول والثانى ﴿ كَمَاءٍ أَنْزَلْنَاهُ مِنَ السَّمَاءِ فَاخْتَلَطَ بِهِ ﴾ النف وتكاثف بسبب نزول الماء ﴿ نَبَاتُ الْأَرْضِ ﴾ بأن خالط بعضه بعضاً من كثرته أوامتزج الماء بالنبات فروى وحسن . وفى العبارة قلب للمبالغة ، والأصل فاختلط بالنبات ، فعكس مبالغة فى كثرته ﴿ فَأَصْبَحَ ﴾ صار النبات ﴿ هَشِيماً ﴾ يابساً مهشوماً أى مكسوراً متفرقاً أجزاؤه ﴿ تَذْرُوهُ ﴾ تثيره وتفرقه ﴿ الرِّيَاحُ ﴾ فتذهب به كأن لم تغن بالأمس ، والمعنى شبه الدنيا بنبات حسن فيبس فتكسر ففرقته الرياح ﴿ وَكَانَ اللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ ﴾ من الإنشاء والإفناء ﴿ مُقْتَدِراً ﴾ قادراً وذلك من آثار تلك القدرة ﴿ الْمَالُ وَالْبَنُونَ زِينَةُ الْحَيَوٰةِ الدُّنْيَا ﴾ المحقرة فلا تتبعوها نفوسكم لأنها تفنى عن قريب ، خصهما بالذكر لأنهما مناط الغرور : وجعلت له مالا ممدوداً وبنين شهوداً ﴿ وَ ﴾ أعمال الخير ﴿ الْبَاقِيَاتُ ﴾ التى تبقى لصاحبها ثمرتها أبد الآباد ﴿ الصَّالِحَاتُ ﴾ فيندرج فيها ما فسرت به من الصلوات الخمس وسبحان الله والحمد لله ولا إله إلا الله والله أكبر ، وزاد بعضهم : ولا حول ولا قوة إلا بالله العلى العظيم : والكلام الطيب ﴿ خَيْرٌ عِنْدَ رَبِّكَ ثَوَاباً ﴾ من المال والبنين ﴿ وَخَيْرٌ أَمَلاً ﴾ مايؤمله الإنسان ويرجوه عند الله تعالى لعدم الخيبة فيها بخلاف أمل الدنيا . ولما نفّر عن الاغترار بالدنيا وزخارفها بما تقدم أتبعه بأهوال القيامة تأكيداً لذلك فقال ﴿ وَ ﴾ اذكر ﴿ يَوْمَ نُسَيِّرُ الْجِبَالَ ﴾ بالنون وكسر الياء ونصب الجبال لنافع والكوفيين وبالتاء مبنياً للمفعول للباقين نذهب بها عن وجه الأرض فتصير هباء منثوراً ، ويجوز عطف « يوم » على « عند ربك » أى الباقيات الصالحات خير عند الله ويوم القيامة ﴿ وَتَرَى الْأَرْضَ بَارِزَةً ﴾ ظاهرة ليس عليها شىء من جبل ولا غيره ﴿ وَ ﴾ قد ﴿ حَشَرْنَاهُمْ ﴾ المؤمنين والكافرين جمعناهم إلى الموقف ، وآثر الماضى بعد نسير وترى لتحقيق الحشر ﴿ فَلَمْ نُغَادِرْ ﴾ لم نترك ﴿ مِنْهُمْ أَحَداً ﴾ ومنه سمى نقض العهد غدراً لكونه تركا للوفاء ومنه الغدير لما غادره السيل وقرئ بالياء ﴿ وَعُرِضُوا عَلَى رَبِّكَ صَفّاً ﴾ كما تعرض الجنود على الملوك صفّاً صفّاً ، حال أى مصطفين كل أمة صف لا يحجب أحدٌ أحداً . وفى الصحيح « يجمع الله الأولين والآخرين فى صعيد واحد صفوفاً يسمعهم الداعى وينفذهم البصر » الحديث . وفى حديث آخر : « أهل الجنة يوم القيامة مائة وعشرون صفاً أنتم منهم ثمانون صفا » يقال لهم ﴿ لَقَدْ جِئْتُمُونَا فُرَادَىٰ كَمَا خَلَقْنَاكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ ﴾ أى فرادى حفاة عراة غرلا لا مال ولا ولد ، أو أحياء ، ويقال لمنكرى البعث ﴿ بَلْ ﴾ للانتقال إلى ما هو أعظم من التعزز بالأموال وهو إنكار البعث ﴿ زَعَمْتُمْ أَنْ ﴾ مخففة أى أنه ﴿ لَنْ نَجْعَلَ لَكُمْ مَوْعِداً ﴾ للبعث ﴿ وَوُضِعَ الْكِتَابُ ﴾ أى كتاب كل أحد صحيفة عمله فى يمينه للمؤمن وفى شماله للكافر أو فى الميزان ، وقيل هو كناية عن وضع الحساب ﴿ فَتَرَى الْمُجْرِمِينَ ﴾ الكافرين ﴿ مُشْفِقِينَ ﴾ خائفين ﴿ مِمَّا فِيهِ ﴾ من الذنوب ﴿ وَيَقُولُونَ ﴾ عند معاينتهم مافيه من الذنوب ﴿ يَا ﴾ للتنبيه ﴿ وَيْلَتَنَا ﴾ هلكتنا وهو مصدر لا فعل له من لفظه ﴿ مَالِ هَٰذَا الْكِتَابِ ﴾

استئناف للتعجب من شأنه ﴿ لَا يُغَادِرُ ﴾ فى موضع الحال من الكتاب هنة ﴿ صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً ﴾ من ذنوبنا ﴿ إِلَّا أَحْصَاهَا ﴾ أحاط بها وعدها وأثبتها وقدم الصغيرة لأنها محل المسامحة فكانت مظنة عدم الإحصاء ﴿ وَوَجَدُوا مَا عَمِلُوا حَاضِرًا ﴾ مكتوباً فى الصحف ﴿ وَلَا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا ﴾ فيكتب عليه ما لم يفعله أو يعاقبه بغير جرم أو ينقص عليه من ثوابه ، ولما شنع على الافتخار بالدنيا والاغترار بها وبين أحوالها ، وكان سبب ذلك حب الشهوات وتسويل الشيطان نفرهم عن الشيطان بتذكير ما بينه وبينهم من العداوة القديمة فقال ﴿ وَ ﴾ اذكروا ﴿ إِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ كَانَ مِنَ الْجِنِّ ﴾ استئناف يجرى مجرى العلة كأنه قيل : لِمَ لَمْ يسجد ؟ قيل كان جنياً مطبوعا على الفساد ، والاستثناء على الصحيح منقطع لأنه ليس من نوع الملائكة بل هو أبو الجن الله ذرية ذكرت معه بعد ، والملائكة لا ذرية لهم ، وقيل متصل والجن نوع من الملائكة ومعنى الذرية الأتباع ﴿ فَفَسَقَ ﴾ أى خرج بسبب كونه جنياً ﴿ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِ ﴾ طاعته بترك السجود ﴿ أَفَتَتَّخِذُونَهُ وَذُرِّيَّتَهُ ﴾ أولاده أو أتباعه ، والهاء فى الموضعين لإبليس ﴿ أَوْلِيَاءَ ﴾ تطيعونهم بعد ما وجد منه ، والهمزة للإنكار والتعجب ﴿ مِنْ دُونِي ﴾ بدلا منى ﴿ وَهُمْ لَكُمْ عَدُوٌّ ﴾ أى أعداء ، حال تؤكد التوبيخ فإن موالاته بدلا من موالاته تعالى منكر يتعجب منه وظلم عظيم ولذا قال ﴿ بِئْسَ ﴾ هو أى البدل ﴿ لِلظَّالِمِينَ بَدَلًا ﴾ من موالاة الله تعالى طاعة إبليس وذريته ﴿ مَا أَشْهَدْتُهُمْ ﴾ أى إبليس وذريته ﴿ خَلْقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلَا خَلْقَ أَنْفُسِهِمْ ﴾ أى لم يحضروا خلق شىء من المخلوقات فضلا عن الإعانة فى التأثير فكيف يستحقون العبادة ففى إحضارهم ليدل على نفى الاعتضاد بهم كما صرح به فى قوله ﴿ وَمَا كُنْتُ مُتَّخِذَ الْمُضِلِّينَ ﴾ وهم الشياطين ﴿ عَضُدًا ﴾ أى أعواناً فى الخلق فكيف تطيعونهم وضع المضلين موضع الضمير ذما لهم واستبعاداً للاعتضاد بهم وقيل الضمير فى أشهدتهم وما بعده للمشركين أى ما خصصتهم بعلم ما فيهما فيلتفت إلى قولهم أو للناس جميعاً ، قال فى الجواهر : فتتضمن الآية الرد على طوائف من المنجمين وأهل الطبائع والمتحكمين من الأطباء وغيرهم من كل من يتخرص فى الأشياء . اه .

﴿ وَ ﴾ اذكر ﴿ يَوْمَ يَقُولُ ﴾ بالياء للجمهور والنون لحمزة ﴿ نَادُوا شُرَكَائِيَ ﴾ الأوثان أو إبليس وذريته ﴿ الَّذِينَ زَعَمْتُمْ ﴾ أنهم شركاء لى وشفعاء لكم ﴿ فَدَعَوْهُمْ ﴾ للإغاثة ﴿ فَلَمْ يَسْتَجِيبُوا لَهُمْ ﴾ لم يغيثوهم بل تبرأوا منهم ﴿ وَجَعَلْنَا بَيْنَهُمْ ﴾ بين الكفار وآلهتهم ﴿ مَوْبِقًا ﴾ مكان هلاك يشتركون فيه واسم واد من أودية جهنم وبينهم ظرف أو هو بمعنى وصلهم مفعول به أى صيرنا تواصلهم فى الدنيا هلاكا يوم القيامة فالموبق مكان أو مصدر من وبق بالفتح هلك ﴿ وَرَأَى الْمُجْرِمُونَ النَّارَ ﴾ من مكان بعيد لها تغيظ وزفير ﴿ فَظَنُّوا ﴾ أيقنوا ﴿ أَنَّهُمْ مُوَاقِعُوهَا ﴾ مخالطوها الآن لشدة خوفهم قال فى الجواهر أطلق الناس أن الظن هنا بمعنى اليقين قال ابن عطية والعبارة بالظن لا تجىء أبداً فى موضع فى يقين تام قد ناله الحس بل أعظم درجاته أن تجىء فى موضع محقق لكنه لم يقع ذلك المظنون بعد وأما ما يقع ويحس فلا يكاد يوجد

فى كلام العرب العبارة عنه بالظن وتأمل هذه الآية وتأمل كلام العرب . اهـ . قلت انظر هذا مع ضابط ذكره السيوطى فى الإتقان بأن كل ظن محمود إن أتى بعد إنّ المشددة فى القرآن فهو بمعنى اليقين ، وأما المذموم وما بعده المخففة فظن هل يخص الأول بغير التمام فيوافق ما لابن عطية أولا فيخالف لم أر من تعرض له والله أعلم ﴿ وَلَمْ يَجِدُوا عَنْهَا مَصْرِفًا ﴾ مكان ينصرفون إليه ﴿ وَلَقَدْ صَرَّفْنَا ﴾ بينا ﴿ فِي هَٰذَا الْقُرْآنِ لِلنَّاسِ ﴾ مثلا ﴿ مِنْ ﴾ جنس ﴿ كُلِّ مَثَلٍ ﴾ يحتاجون إليه وتقديم القرآن على الناس فى هذه السورة خاصة دون سائرها للاهتمام لأن السورة مصدرة به ﴿ وَكَانَ الْإِنْسَانُ أَكْثَرَ شَيْءٍ ﴾ يتأتى منه الجدل ﴿ جَدَلًا ﴾ خصومة بالباطل أو المعنى وكان جدل الإنسان أكثر شىء فيه فيكون تمييزا منقولا من اسم كان المحذوف ﴿ وَمَا مَنَعَ النَّاسَ ﴾ كفار مكة ﴿ أَنْ يُؤْمِنُوا ﴾ مفعول ثان ﴿ إِذْ جَاءَهُمُ الْهُدَىٰ ﴾ وهو الرسول الداعى أو القرآن المبين ﴿ وَيَسْتَغْفِرُوا رَبَّهُمْ ﴾ أى ومن الاستغفار من الذنوب ﴿ إِلَّا ﴾ طلب أو انتظار ﴿ أَنْ تَأْتِيَهُمْ سُنَّةُ الْأَوَّلِينَ ﴾ فاعل أى سنتنا فيهم وهى الاستئصال فى الدنيا إذ لم يبق لهم عذر ﴿ أَوْ يَأْتِيَهُمُ الْعَذَابُ ﴾ فى الآخرة ﴿ قُبُلًا ﴾ معاينة ، وقرأ الكوفيون بضمتين لغة فيه ، أو جمع قبيل بمعنى أنواع ﴿ وَمَا نُرْسِلُ الْمُرْسَلِينَ إِلَّا مُبَشِّرِينَ ﴾ المؤمنين ﴿ وَمُنْذِرِينَ ﴾ مخوفين الكافرين ﴿ وَيُجَادِلُ الَّذِينَ كَفَرُوا بِالْبَاطِلِ ﴾ عناداً باقتراح الآيات بعد ظهور المعجزات وبقولهم أبعث الله بشرا رسولا ونحوه ﴿ لِيُدْحِضُوا ﴾ ليزيلوا ويبطلوا ﴿ بِهِ ﴾ بجدالهم ﴿ الْحَقَّ ﴾ عن مقره وهو القرآن من إدحاض القدم وهو إزلاقها ﴿ وَاتَّخَذُوا آيَاتِي ﴾ القرآن ﴿ وَمَا أُنْذِرُوا ﴾ وإنذارهم أو الذى أنذروا به من النار ﴿ هُزُوًا ﴾ بضم الزاى استهزاء وحمزة بالسكون لغة ، أو ما يستهزأ به ، وأبدل حفص الهمز واواً وصلا ووقفا وحمزة وقفاً فقط ﴿ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ ذُكِّرَ بِآيَاتِ رَبِّهِ فَأَعْرَضَ عَنْهَا ﴾ ولم يتذكر بها ؟ لا أحد أظلم منه : لأنه كفر بعد ظهور الحق ﴿ وَنَسِيَ مَا قَدَّمَتْ يَدَاهُ ﴾ ما عمل من الكفر والمعاصى ولم يتفكر فى عاقبتها وكان عليه أن يبادر إلى قبولها لأنه يذهب بالذنوب : قل للذين كفروا إن ينتهوا يغفر لهم ما قد سلف ﴿ إِنَّا جَعَلْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً ﴾ أغطية تعليل لإعراضهم ونسيانهم بأنهم مطبوع على قلوبهم ﴿ أَنْ يَفْقَهُوهُ ﴾ كراهة أن يفهموا القرآن المراد بالآيات ولذا ذكر الضمير وأفرده للمعنى ﴿ وَفِي آذَانِهِمْ وَقْرًا ﴾ ثقلا يمنع سماعه ﴿ وَإِنْ تَدْعُهُمْ إِلَى الْهُدَىٰ فَلَنْ يَهْتَدُوا إِذًا ﴾ أى بالجعل المذكور ﴿ أَبَدًا ﴾ لا تحقيقا ولا تقليداً لسد طرق الإدراك عليهم ﴿ وَرَبُّكَ الْغَفُورُ ﴾ البليغ المغفرة ﴿ ذُو الرَّحْمَةِ ﴾ الواسعة ولذا أمهلهم مع إفراطهم فى عداوة رسوله ﴿ لَوْ يُؤَاخِذُهُمْ ﴾ فى الدنيا ﴿ بِمَا كَسَبُوا ﴾ من الكفر والمعاصى ﴿ لَعَجَّلَ لَهُمُ الْعَذَابَ ﴾ فيها : استشهادٌ على ماتقدم ﴿ بَلْ لَهُمْ مَوْعِدٌ ﴾ لإهلاكهم لابد من مجيئه فالتأخير لذلك الموعد إمهال لا إهمال : هو يوم القيامة أو يوم بدر ﴿ لَنْ يَجِدُوا مِنْ دُونِهِ مَوْئِلًا ﴾ منجى أى موضع نجاة أو نجاة من وأل نجا وإن قيل وأل إليه فمعناه التجأ ﴿ وَتِلْكَ الْقُرَىٰ ﴾ أى أهلها كقرى عاد وثمود وأصحاب الأيكة : أشار إليها لأنهم

شاهدوها وهى مبتدأ والخبر ﴿أَهْلَكْنَاهُمْ لَمَّا ظَلَمُوا﴾ كذبوا الرسل كقريش ﴿وَجَعَلْنَا لِمَهْلِكِهِمْ﴾ لإهلاكهم مصدر أضيف إلى المفعول أو لوقت إهلاكهم اسم زمان وقرأ أبو بكر بفتح اللام والميم مصدر هلك أو اسم زمان وحفص بكسر اللام مصدر أو اسم زمان كمرجع ﴿مَوْعِدًا﴾ وقتا معلوما لا يستأخرون عنه ساعة ولا يستقدمون فليعتبروا بهم ولا يغتروا بتأخر العذاب عنهم . ولما امتحن اليهود النبي صلى الله عليه وسلم بسؤال قصة أصحاب الكهف وبينها أتم بيان واستطرد بعدها ما استطرد أورد قصة موسى مع الخضر وإن لم يسألوا عنها استظهاراً لصدق دعواه النبوة ودلالة على جهل الذين امتحنوه حين لم يسألوا عن قصة نبيهم هذه وهى من أعظم وقائعه وهم لا يعرفونها فقال ﴿وَ﴾ اذكر ﴿إِذْ﴾ وقت ﴿قَالَ مُوسَىٰ﴾ بن عمران ﴿لِفَتَاهُ﴾ يوشع بن نون من سبط يوسف بن يعقوب كان يتبع موسى ويأخذ منه العلم وهو ابن أخته وكان يخدم موسى ولذلك سماه فتاه حتى قيل إنه عبده ﴿لَا أَبْرَحُ﴾ لا أزال أسير حذف الخبر الذى هو أسير لدلالة حالة السفر عليه ولقوله ﴿حَتَّىٰ أَبْلُغَ﴾ لأن الغاية تستدعى ما هى غاية له ويجوز أن يكون فعلا تاماً أى لا أزول عما أنا عليه من السير حتى أبلغ ﴿مَجْمَعَ الْبَحْرَيْنِ﴾ ملتقى بحر الروم وبحر فارس مما يلى المشرق أى المكان الجامع لذلك وعد لقاء الخضر فيه وقيل بحر طنجة وقيل افريقيا من بلاد الغرب ، وتفسير البحرين بموسى والخضر باطل ، قاله فى غاية الأمانى ﴿أَوْ أَمْضِيَ﴾ أسير ﴿حُقُبًا﴾ زماناً طويلا نحو ثمانين سنة أتيقن معه فوات مجمع البحرين أو لأحد شيئين أو بمعنى إلا وسبب السير أن موسى عليه السلام خطب فى بنى إسرائيل خطبة بليغة بعد هلاك القبط ودخوله مصر فقيل له هل تعلم أحدا أعلم منك قال لا فأوحى الله إليه بلى عبدنا الخضر وقيل بل قال موسى لربه إن كان فى عبادك أعلم منى فادللنى عليه فأوحى إليه إن لى عبداً بمجمع البحرين هو أعلم منك ـ وكان الخضر موجودا فى أيام افرندون وبقى إلى أيام موسى ـ قال كيف لى به قال تأخذ حوتاً فى مكتل فحيث فقدته فهو هناك فأخذه وانطلق مع فتاه يوشع يمشيان ﴿فَلَمَّا بَلَغَا مَجْمَعَ بَيْنِهِمَا﴾ بين البحرين ظرف أضيف إليه على الاتساع ، أو البين بمعنى الوصل وكانت فى ذلك المحل صخرة فوضع موسى رأسه فنام وفى رواية فوضعا رءوسهما فناما وكان فى أصل الصخرة عين الحياة فأصاب الحوت منها شىء فاضطرب وانسل من المكتل وسقط فى البحر فأمسك الله جرية الماء فصار عليه مثل الطاق ويوشع ينظر فلما استيقظ موسى نسى أن يخبره بالحوت كما قال تعالى ﴿نَسِيَا حُوتَهُمَا﴾ نسى موسى تعرف حاله ويوشع أن يذكر له ما رأى من حياته ووقوعه فى البحر والناسى فتاه وإسناده إلى موسى لأدنى ملابسة وقيل نسيا تفقد أمره وما يكون منه أمارة على الظفر بالمطلوب ﴿فَاتَّخَذَ﴾ الحوت أى جعل ﴿سَبِيلَهُ فِي الْبَحْرِ سَرَبًا﴾ طاقا وهو الشق الطويل لا نفاذ له وذلك أن الله أمسك عن الحوت جرى الماء فانجاب عنه فبقى كالكوة لم يلتئم وجمد ما تحته منه ، وسربا مفعول ثان لاتخذ وفى البحر حال منه أو من السبيل ويجوز تعلقه باتخذ ﴿فَلَمَّا

جَاوَزَا ﴾ مجمع البحرين بالسير إلى وقت الغداء أى الظهر من ثانى يوم ﴿ قَالَ لِفَتَاهُ آتِنَا غَدَاءَنَا ﴾ هو ما يؤكل أول النهار ﴿ لَقَدْ لَقِينَا مِنْ سَفَرِنَا هَٰذَا نَصَبًا ﴾ تعبا وحصوله بعد فقد الحوت ولم ينصب قبله وقيل لم يعى موسى فى سفر غيره ويؤيده التقييد باسم الإشارة والحكمة فى ذلك أن السفر الأول فى طلب العلم وهذا الذى كان بعد مجاوزة الموعد كان خالياً عن الفائدة ﴿ قَالَ أَرَأَيْتَ ﴾ ما دهانى أو بمعنى تنبه ﴿ إِذْ أَوَيْنَا إِلَى الصَّخْرَةِ ﴾ التى رقدت عندها ﴿ فَإِنِّي نَسِيتُ الْحُوتَ ﴾ فقدته أو نسيت ذكر ما رأيت منه ﴿ وَمَا أَنْسَانِيهُ إِلَّا الشَّيْطَانُ ﴾ بوسواسه وقرأ حفص بضم الهاء مراعاة للأصل المرفوض ﴿ أَنْ أَذْكُرَهُ ﴾ بدل من الضمير بدل اشتمال أى أنسانى ذكره ﴿ وَاتَّخَذَ ﴾ الحوت ﴿ سَبِيلَهُ فِي الْبَحْرِ ﴾ من كلام فتاه ﴿ عَجَبًا ﴾ هو كونه كالسرب مفعول ثان أى اتخاذاً عجبا أو مفعول مطلق أى فعجب موسى وفتاه عجبا لما روى البخارى أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال كان البحر للحوت سربا ولموسى وفتاه عجبا الحديث واعتذر فتاه عن نسيانه بشغل الشيطان له بوساويسه وإن كانت الحالة عجيبة لا ينسى مثلها ويحتمل أنه نسى ذلك لاستغراقه فى الاستبصار وانجذابه إلى جناب القدس بمشاهدة الآيات الباهرة لكن نسبه إلى الشيطان هضما لنفسه ﴿ قَالَ ﴾ موسى ﴿ ذَٰلِكَ ﴾ أى فقدنا الحوت ﴿ مَا ﴾ الذى ﴿ كُنَّا نَبْغِ ﴾ نطلبه فإنه علامة لنا على وجود من نطلبه ﴿ فَارْتَدَّا ﴾ رجعا فى الطريق الذى جاءا منه ﴿ عَلَىٰ آثَارِهِمَا ﴾ يقصانها ﴿ قَصَصًا ﴾ من قصصت الأثر اتبعته فأتيا الصخرة ﴿ فَوَجَدَا عَبْدًا مِنْ عِبَادِنَا ﴾ مسجى عليه بثوب فسلم عليه موسى فقال أنى بأرضك السلام قال أنا موسى قال موسى بنى إسرائيل قال نعم وهذا العبد عند الجمهور هو الخضر كما صرح به فى صحيح البخارى وغيره لقب به لأنه جلس فوق فروة الأرض فاخضرت نباتاً واسمه بليا بن ملكان وقيل العبد هو اليسع وقيل إلياس ، والجمهور على بقاء الخضر إلى أن يخرج الدجال وهو الرجل الذى يقتله الدجال واجتماعه مع النبى صلى الله عليه وسلم وتعزيته لأهل بيته مروى من طرق صحاح قاله فى الجواهر وأنكر بقاءه بعد الهجرة البخارى وطائفة من أهل الحديث منهم أبو بكر بن العربى والله أعلم ﴿ آتَيْنَاهُ رَحْمَةً مِنْ عِنْدِنَا ﴾ نبوة فى قول وولاية فى آخر وعليه أكثر العلماء ﴿ وَعَلَّمْنَاهُ ﴾ خصصناه بعلم ﴿ مِنْ لَدُنَّا ﴾ مما يختص بنا ﴿ عِلْمًا ﴾ معلوما مفعول ثان أى من المغيبات مما لا يمكن الوصول إليه بالاكتساب ﴿ قَالَ لَهُ مُوسَىٰ هَلْ أَتَّبِعُكَ عَلَىٰ أَنْ تُعَلِّمَنِ ﴾ على شرط أن تعلمنى ، وهو فى موضع الحال من الكاف وهو دليل على أن المتعلم يتبع من يعلمه ولو كان فوقه فى الرتبة ﴿ مِمَّا عُلِّمْتَ ﴾ أى لا مما تطلب برأيك ﴿ رُشْدًا ﴾ بضم الراء وسكون الشين للجمهور وبفتحهما لأبى عمرو : علماً ذا رشد أى صواب ، سأله ذلك لأن الزيادة فى العلم مطلوبة . وفيه أعظم دليل على أنه ينبغى لكل أحد أن يطلب زيادة علم حيثما كان ممن هو فوقه أو مثله أو دونه مع التواضع وانظر ما راعى موسى فى ذلك مع الخضر بأن استأذنه أولا واستجهل نفسه ورضى أن يكون تابعاً له وسأله أن يرشده بما أنعم الله عليه على غاية التواضع والأدب ﴿ قَالَ إِنَّكَ لَنْ

تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا ﴾ لأنى أرتكب ما لا يوافق شرعك . ولذا أكد نفى الاستطاعة بوجوه حتى كأنه مما لا يصح ولا يستقيم وعلل ذلك واعتذر عنه بقوله ﴿ وَكَيْفَ تَصْبِرُ ﴾ وأنت نبى ﴿ عَلَىٰ مَا لَمْ تُحِطْ بِهِ خُبْرًا ﴾ أى على أمور ظاهرها مناكير وباطنها لم يحط به خبرك . وفى الصحيح أن الخضر قال لموسى يا موسى إنى على علم من علم الله علمنيه لا تعلمه ، وأنت على علم من علم الله علمكه الله لا أعلمه . وقوله خبراً تمييز أو مصدر بمعنى لم تحط أى لم تخبر بحقيقته ﴿ قَالَ سَتَجِدُنِي إِنْ شَاءَ ٱللَّهُ صَابِرًا ﴾ معك غير منكر عليك ﴿ وَلَا أَعْصِي لَكَ أَمْرًا ﴾ تأمرنى به عطف على صابرا أى وغير عاص فهو فى تأويل مفرد أو على ستجدنى مفعولا للقول وقيد بالمشيئة لأنه لم يكن على ثقة من نفسه فيما التزم ، وهذه عادة الأنبياء والأولياء أن لا يثقوا من أنفسهم طرفة عين ولأن الصبر عندهم على ما يخالف الحق بظاهره وإن كان حسناً جميلا باطناً فى غاية الصعوبة ﴿ قَالَ فَإِنِ ٱتَّبَعْتَنِي فَلَا تَسْأَلْنِي ﴾ بفتح اللام وتشديد النون لنافع وابن عامر ، وبالسكون والتخفيف لغيرهما ﴿ عَن شَيْءٍ ﴾ تنكره منى واصبر ﴿ حَتَّىٰ أُحْدِثَ لَكَ مِنْهُ ذِكْرًا ﴾ أى أذكره لك بعلته فقبل موسى شرطه رعاية لأدب المتعلم من العالم لأنه أدرى بحال المتعلم من نفسه كالطبيب من المريض ، ولذلك قال عليه السلام « دعونى ما تركتكم فإذا أمرتكم بشىء فأتوا منه ما استطعتم » ﴿ فَٱنطَلَقَا ﴾ يمشيان على ساحل البحر يطلبان السفينة فمرت بهم سفينة فكلموهم أن يحملوهم فعرفوا الخضر فحملوهم بغير نول أى أجر ﴿ حَتَّىٰ إِذَا رَكِبَا فِي ٱلسَّفِينَةِ ﴾ وبلغت بهم اللج ﴿ خَرَقَهَا ﴾ الخضر بأن اقتلع لوحا أو لوحين منها من جهة البحر بفأس ﴿ قَالَ ﴾ له موسى ﴿ أَخَرَقْتَهَا ﴾ استفهام إنكار ﴿ لِتُغْرِقَ أَهْلَهَا ﴾ ولحمزة والكسائى بفتح التحتية والراء ورفع « أهلها » ﴿ لَقَدْ جِئْتَ شَيْئًا ﴾ منكراً ﴿ إِمْرًا ﴾ عظيما من أمر بكسر الميم عظم وكبر قاله فى غاية الأمانى ، وفى القاموس أمر كفرح أمرا وأمرة كثر وتم فهو أمر والأمر اشتد إلى أن قال : وأمرٌ إمرٌ منكر عجيب . اهـ . وروى أن الماء لم يدخل السفينة ﴿ قَالَ أَلَمْ أَقُلْ لَكَ إِنَّكَ لَن تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا ﴾ تذكير لما ذكره قبل معتذراً إليه ﴿ قَالَ لَا تُؤَاخِذْنِي بِمَا نَسِيتُ ﴾ أى غفلت عن التسليم لك وترك الإنكار عليك فالنسيان مغتفر ، اعتذار بالنسيان أخرجه مخرج النهى عن المؤاخذة مع قيام المانع لها ﴿ وَلَا تُرْهِقْنِي ﴾ تكلفنى ﴿ مِنْ أَمْرِي عُسْرًا ﴾ مشقة فى صحبتى إياك بتكليف ما لا يطاق أى عاملنى فيها بالعفو واليسر وهو مفعول ثان لترهق . وفى الحديث السابق قال النبى عليه السلام : كانت الأولى من موسى نسياناً قال وجاء عصفور فوقع على حرف السفينة فنقر فى البحر نقرة فقال له الخضر : ما علمى وعلمك من علم الله إلا مثل ما نقص هذا العصفور من هذا البحر ﴿ فَٱنطَلَقَا ﴾ بعد خروجهما من السفينة يمشيان على الساحل ﴿ حَتَّىٰ إِذَا لَقِيَا غُلَامًا ﴾ اسمه حيسور أو جيسور لم يبلغ الحنث يلعب مع الصبيان أحسنهم وجها ﴿ فَقَتَلَهُ ﴾ عقب اللقى من غير تروٍ ولا استكشاف حال وجواب إذا ﴿ قَالَ ﴾ له موسى ﴿ أَقَتَلْتَ نَفْسًا زَاكِيَةً ﴾ لنافع وأبى عمرو وابن كثير وللباقين تشديد الياء بلا ألف أى طاهرة لم تبلغ حد

التكليف حتى تقتل أحداً ﴿بِغَيْرِ نَفْسٍ﴾ أى لم تقتل نفساً حتى تقتل قصاصاً ، وعن اليزيدى : الزاكية التى أذنبت وغفرت والزكية التى لم تذنب قط . قال ابن عطية : قيل هذا الغلام لم يبلغ الحلم ولذا قال موسى زاكية . وقالت فرقة : كان بالغاً ، وقوله بغير نفس يقتضى أنه لوكان عن قتل نفس لم يكن بقتله بأس وهذا يقتضى كبر الغلام فلو كان لم يحتلم لم يجب قتله بنفس ولا بغير نفس . اهـ ، وأجاب عنه فى الجواهر بأن هذا إذا كان شرعهم كشرعنا وقد يكون شرعهم أن النفس بالنفس عموماً فى البالغ وغيره وفى العمد والخطأ فلا يلزم من الآية ما ذكر . اهـ . ولما كان القتل أقبح من خرق السفينة فصل الآية بقوله ﴿لَقَدْ جِئْتَ شَيْئاً نُكْرًا﴾ بضم الكاف لنافع وابن عامر فى رواية ابن ذكوان وعاصم فى رواية أبى بكر والباقون بالإسكان ، وهما لغتان أى منكراً . قال ابن عطية : ونصف القرآن بعدد الحروف انتهى إلى النون من قوله نكرا ﴿قَالَ أَلَمْ أَقُلْ لَكَ إِنَّكَ لَنْ تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا﴾ زاد لك على ما قبله لعدم العذر هنا مكافحة بالعتاب على قلة الثبات مع تقدم الوصية ووقوع المخالفة عن قريب ولذا ﴿قَالَ﴾ له موسى ﴿إِنْ سَأَلْتُكَ عَنْ شَيْءٍ بَعْدَهَا﴾ أى بعد هذه المرة ﴿فَلَا تُصَاحِبْنِي﴾ أى لاتتركنى أتبعك ﴿قَدْ بَلَغْتَ مِنْ لَدُنِّي﴾ بالتخفيف لنافع والتشديد لغيره أى من قبلى ﴿عُذْرًا﴾ فى مفارقتك لى لما خالفتك ثلاث مرات وهو مفعول به كقولك بلغت الغرض أى وجدته ﴿فَانْطَلَقَا حَتَّى إِذَا أَتَيَا أَهْلَ قَرْيَةٍ﴾ هى أنطاكية وقيل أيلة وقيل أرمينية ﴿اسْتَطْعَمَا أَهْلَهَا﴾ طلبا منهم الطعام ضيافة ﴿فَأَبَوْا أَنْ يُضَيِّفُوهُمَا﴾ قال ابن عطية : وهذه عبرة مصرّحة بهوان الدنيا على الله ، يقال ضافه نزل به ضيفاً من ضاف السهم إذا مال وضيفه أنزله . وعن أبى هريرة أطعمتهما امرأة من البربر بعد أن ردهما الرجال فدعيا لنسائهم ولعنا رجالهم . وعن قتادة : شر القرى التى لا تضيف الضيف ﴿فَوَجَدَا فِيهَا جِدَارًا﴾ ارتفاعه مائة ذراع ﴿يُرِيدُ أَنْ يَنْقَضَّ﴾ أى يقرب أن يسقط لميلانه انفعل من القض وهو الكسر أو افعل من النقض استعارة تبعية ﴿فَأَقَامَهُ﴾ الخضر بيده ﴿قَالَ﴾ له موسى ﴿لَوْ شِئْتَ لَاتَّخَذْتَ﴾ افتعل من تخذ كاتبع من تبع وليس من الأخذ ولابن كثير وأبى عمرو لتخذت وأظهر ابن كثير وحفص الذال وأدغمه الباقون ﴿عَلَيْهِ أَجْرًا﴾ جعلا حيث لم يضيفونا مع حاجتنا إلى الطعام ، وفيه تعريض بأن فعله فضول لما فى « لو » من النفى كأنه لما رأى الحرمان ومساس الحاجة واشتغاله بما لا يعنيه لم يتمالك نفسه حتى أنكر عليه ذلك ولذا ﴿قَالَ﴾ له الخضر ﴿هَذَا فِرَاقُ بَيْنِي وَبَيْنِكَ﴾ إشارة إلى الفراق الموعود بقوله « فلا تصاحبنى » أو إلى وقته أو إلى الاعتراض الثالث والبين الوصل أى هذا وقت فراق الوصل أو هذا الاعتراض سبب فراقنا أو البين ظرف بمعنى الوسط أضيف إليه المصدر اتساعاً وفيه إضافة بين إلى غير متعدد سوغه تكريره بالعطف بالواو ﴿سَأُنَبِّئُكَ﴾ قبل فراقى لك ﴿بِتَأْوِيلِ مَا لَمْ تَسْتَطِعْ عَلَيْهِ صَبْرًا﴾ لكونه منكراً من حيث الظاهر سأنبئك بخبره الباطن فى هذه الوقائع الثلاث ﴿أَمَّا السَّفِينَةُ فَكَانَتْ لِمَسَاكِينَ﴾ لمحاويج عشرة إخوة خمسة زمنى وخمسة ﴿يَعْمَلُونَ فِي

﴿ الْبَحْرِ ﴾ بالسفينة مؤاجرة لها طلباً للكسب وهو دليل على أن المسكين يطلق على من يملك شيئاً إذا لم يكفه وقيل سموا مساكين لعجزهم عن دفع الملك ﴿ فَأَرَدْتُ أَنْ أَعِيبَهَا ﴾ أجعلها ذات عيب ﴿ وَكَانَ وَرَاءَهُمْ ﴾ أى بعد هذا الزمان إذا رجعوا أو أمامهم الآن ﴿ مَلِكٌ ﴾ كافر اسمه هدد بن بدد كلاهما بوزن صرد أو اسمه جُلندى بن كركر الأزدى والأول هو الذى جاء فى البخارى ﴿ يَأْخُذُ كُلَّ سَفِينَةٍ ﴾ صالحة ﴿ غَصْباً ﴾ نصبه على المصدر المبين لنوع الأخذ فأردت إذا مرت به أن يدعها لعيبها فإذا جاوزوه أصلحوها فانتفعوا بها ﴿ وَأَمَّا الْغُلَامُ ﴾ وتقدم اسمه ﴿ فَكَانَ أَبَوَاهُ مُؤْمِنَيْنِ ﴾ اسم أبيه كازير واسم أمه سهوى ، والغلام كما فى حديث مسلم طبع كافراً ولو عاش لأرهقهما كفراً لمحبتهما له يتبعانه فى ذلك كما قال ﴿ فَخَشِينَا أَنْ يُرْهِقَهُمَا ﴾ يغشيهما ﴿ طُغْيَاناً وَكُفْراً ﴾ إذ حب الولد كثيراً ما يدخل الأبوين فيما هو فيه إلا من عصمه الله ومن ذلك أن يجنى الغلام فيخافا عليه القصاص فيحلفا أنه لم يفعل رقة عليه ﴿ فَأَرَدْنَا أَنْ يُبْدِلَهُمَا ﴾ بالتشديد لنافع وأبى عمرو وبالتخفيف للباقين ﴿ رَبُّهُمَا ﴾ ولداً ﴿ خَيْراً مِنْهُ زَكَاةً ﴾ أى صلاحا وتقى ﴿ وَأَقْرَبَ رُحْماً ﴾ بسكون الحاء للجمهور وبضمها لابن عامر أى رحمة وهى البر بوالديه وانتصابه على التمييز بأفعل التفضيل وكذا زكاة . روى أن الله أبدلهما جارية تزوجت نبياً فولدت نبياً فهدى الله به أمة . وما حكى النقاش من أنها ولدت هى وذريتها سبعين نبياً وذكره المهدوى عن ابن عباس بعيد إذ لا تعرف كثرة الأنبياء إلا فى بنى إسرائيل وهذه المرأة لم تكن فيهم قاله عبد الرحمن فى الجواهر الحسان ﴿ وَأَمَّا الْجِدَارُ فَكَانَ لِغُلَامَيْنِ يَتِيمَيْنِ ﴾ اسمهما صريم وأصرم ﴿ فِي الْمَدِينَةِ وَكَانَ تَحْتَهُ كَنْزٌ ﴾ مال مدفون من ذهب ونضة كما فى حديث الترمذى ﴿ لَهُمَا ﴾ ثم أشار إلى علة حفظهما بقوله ﴿ وَكَانَ أَبُوهُمَا صَالِحاً ﴾ فحفظا بصلاحه فى أنفسهما ومالهما ، قيل اسمه كاشح ﴿ فَأَرَادَ رَبُّكَ أَنْ يَبْلُغَا أَشُدَّهُمَا ﴾ أى الحلم وكمال الرشد وهو ما بين ثمانى عشرة إلى ثلاثين . قيل : جرى كلام بين حسين بن على رضى الله عنه وبين بعض الخوارج فقال الحسين بم حفظ الكنز للغلامين قال بصلاح أبيهما قال أبى وجدى خير منه ﴿ وَيَسْتَخْرِجَا كَنْزَهُمَا رَحْمَةً مِنْ رَبِّكَ ﴾ مفعول له أو مصدر منصوب بأراد لأنه فى معنى رحمهما ﴿ وَمَا فَعَلْتُهُ ﴾ أى ما ذكر من خرق السفينة وقتل الغلام وإقامة الجدار ﴿ عَنْ أَمْرِي ﴾ باختيارى بل بأمر إلهام من الله ﴿ ذَلِكَ ﴾ المذكور من الحكم الخفية ﴿ تَأْوِيلُ مَا لَمْ تَسْطِعْ عَلَيْهِ صَبْراً ﴾ أصله تستطيع فحذف التاء تخفيفا فى هذا وما قبله جمع بين اللغتين واختص هذا المحل به دون الأول لأنه آخر القصة فيدل الاختصار على الاقتصار وهذا من غامض كلامه تعالى كما نوعت العبارة فى فأردت ، فأردنا ، فأراد ربك : رعياً فى كل مقام من المقامات الثلاث مايليق به ، فإن خرق السفينة لما كان عيباً واقعاً بمباشرة الخضر أسنده إلى نفسه وإبدال الغلام بما هو خير منه كان بقتله وإيجاد الله فأسند الإرادة إليهما ، وبلوغ الغلامين وحفظ الكنز لهما لم يكن له فى ذلك مدخل فأسند إليه تعالى ، ويحتمل أن ذلك باعتبار حال العارف فى النظر إلى الوسائط وارتفاعها وهذا أولى والله أعلم .

﴿ وَيَسْئَلُونَكَ ﴾ أى اليهود أو كفار مكة امتحاناً ﴿ عَنْ ذِى الْقَرْنَيْنِ ﴾ هو اسكندز الرومى ولم يكن نبياً على الأصح بل هو ملك عادل صالح أو ولى . قال فى غاية الأمانى وليس هذا ذا القرنين قاتل دارا لأن ذلك كان كافراً فلسفياً تلميذاً لأرسطاليس . اه . قلت هذا هو اليونانى من أولاد يونان بن يافث بن نوح وقد بين أهل الأخبار أنهما اثنان أحدهما كان على عهد إبراهيم عليه السلام والآخر كان قريباً من عهد عيسى عليه السلام والله أعلم وإنما لقب ذا القرنين لأنه ملك فارس والروم أو المشرق والمغرب أو كان فى رأسه قرنان أى ضفيرتان من الشعر ﴿ قُلْ سَأَتْلُوا ﴾ سأقص ﴿ عَلَيْكُمْ مِنْهُ ﴾ من حاله ﴿ ذِكْرًا ﴾ خبرا يذكر الى آخر الدهر ﴿ إِنَّا مَكَّنَّا لَهُ ﴾ أمره أى جعلناه متمكنا يتصرف ﴿ فِى الْأَرْضِ ﴾ كيف شاء بلا مانع مع تسهيل المشى فيها ﴿ وَآتَيْنَاهُ مِنْ كُلِّ شَىْءٍ ﴾ يحتاج اليه وتوجه إليه ﴿ سَبَبًا ﴾ وصلة توصله إليه من العلم والقدرة والآلة ﴿ فَأَتْبَعَ سَبَبًا ﴾ سلك طريقا نحو الغرب ولابن عامر والكوفيين فأتبع من الاتباع بقطع الهمزة معدى إلى مفعول كقوله « فأتبعه شهاب » ﴿ حَتَّى إِذَا بَلَغَ مَغْرِبَ الشَّمْسِ ﴾ أى موضع غروبها ﴿ وَجَدَهَا تَغْرُبُ فِى عَيْنٍ حَمِئَةٍ ﴾ أى ذات حمأة وهى الطين الأسود وقرأ ابن عامر وحمزة والكسائى وأبو بكر حامية من حمى كرضى أى حارة والعين جامعة للوصفين وغروب الشمس فى العين فى رأى العين وإلا فهى أعظم من الدنيا قاله الجلال فى المكمل قال البيضاوى ولعله بلغ ساحل البحر المحيط فرآها كذلك إذ لم يكن فى مطمح بصره غير الماء ولذا قال وجدها تغرب ولم يقل كانت تغرب انتهى لكن ظاهر الآية وحديث أبى ذر عن رسول الله قال : تغرب فى عين حامية خلاف ذلك . وسأل معاوية كعبا كيف تجد فى التوراة أين تغرب الشمس قال نجد فى التوراة أنها تغرب فى ماء وطين ﴿ وَوَجَدَ عِنْدَهَا ﴾ أى العين ﴿ قَوْمًا ﴾ كافرين لباسهم جلود الوحش وطعامهم ما لفظه البحر ﴿ قُلْنَا يَا ذَا الْقَرْنَيْنِ ﴾ نداؤه إن كان بلا واسطة وهو الظاهر فهو نبى وإلا فالهام أو على لسان نبى وهو الأصح ﴿ إِمَّا أَنْ تُعَذِّبَ ﴾ القوم بالقتل على كفرهم ﴿ وَإِمَّا أَنْ تَتَّخِذَ فِيهِمْ حُسْنًا ﴾ بالإرشاد بالرفق وتعليم الشرائع خيره بين القتل أو الدعوة إلى الإسلام فاختار الدعوة كما قال ﴿ قَالَ أَمَّا مَنْ ظَلَمَ ﴾ باستمراره على الكفر بعد الدعوة ﴿ فَسَوْفَ نُعَذِّبُهُ ﴾ بالقتل والأسر أو الجزية ﴿ ثُمَّ يُرَدُّ إِلَى رَبِّهِ فَيُعَذِّبُهُ عَذَابًا نُكْرًا ﴾ عذاب النار الذى لم يعهد مثله ﴿ وَأَمَّا مَنْ آمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا ﴾ وهو ما يقتضيه الإيمان ﴿ فَلَهُ ﴾ فى الدارين ﴿ جَزَاءَ ﴾ فعلته ﴿ الْحُسْنَى ﴾ والإضافة للبيان والحسنى الجنة وقرأ حفص وحمزة والكسائى بنصب جزاء وتنوينه على التمييز بجهة النسبة أو على الحال أو المصدر بفعله المقدر ﴿ وَسَنَقُولُ لَهُ مِنْ أَمْرِنَا يُسْرًا ﴾ أى نأمره بما يسهل عليه ﴿ ثُمَّ أَتْبَعَ سَبَبًا ﴾ نحو الشرق وفى لفظ ثم إشارة إلى أنه إنما توجه نحو الشرق بعد تمهيد جانب الغرب وضبط أحواله ﴿ حَتَّى إِذَا بَلَغَ مَطْلِعَ الشَّمْسِ ﴾ موضع طلوعها أولا من معمورة الأرض ﴿ وَجَدَهَا تَطْلُعُ عَلَى قَوْمٍ ﴾ هم الزنج وهم وراء الصين ﴿ لَمْ نَجْعَلْ لَهُمْ مِنْ دُونِهَا ﴾ أى الشمس ﴿ سِتْرًا ﴾ من لباس ولا بناء لأن أرضهم لا تحمل بناء وهم عراة لهم سروب يغيبون فيها عند طلوع الشمس

فإذا ارتفعت خرجوا إلى معاشهم يرعون كالبهائم ﴿كَذَٰلِكَ﴾ أى أمر ذى القرنين كما وصفنا فى رفعة الشأن أو أمره فيهم كأمره فى أهل المغرب من التخيير والاختيار ويجوز أن يكون صفة قوم أى على قوم مثل أولئك فى الكفر والحكم ﴿وَقَدْ أَحَطْنَا بِمَا لَدَيْهِ﴾ أى عند ذى القرنين من الآلات والجند وغيرهما ﴿خُبْرًا﴾ علما تعلق بظواهره وخفاياه والمراد أن كثرة ذلك بلغت مبلغا لا يحيط به إلا علم اللطيف الخبير فهو على التأويل الأول فى كذلك زيادة تعظيم وعلى الثانى تعظيم للأسباب الموصلة له إلى ذلك المكان الشاسع الذى لم يصل إليه أحد قبله وعلى الثالث تتميم يؤكد أنه سن بهم ما سن بأولئك الذين عند مغرب الشمس وكان ذو القرنين يدوس الأرض بالجيوش الثقال مع السيرة الحميدة والحزم المستيقظ والتأييد المتواصل بتقوى الله عز وجل فما لقى أمة ولا مر بمدينة إلا ذلت له ودخلت فى طاعته وكل من عارضه أو توقف عن أمره جعله عظة وعبرة لغيره وله فى هذا المعنى أخبار كثيرة وغرائب شهيرة محل ذكرها كتب التواريخ ﴿ثُمَّ أَتْبَعَ سَبَبًا﴾ طريقا ثالثا معترضا بين المشرق والمغرب آخذا من الجنوب إلى الشمال ﴿حَتَّىٰ إِذَا بَلَغَ بَيْنَ السَّدَّيْنِ﴾ بضم السين لنافع وابن عامر وحمزة والكسائى وأبى بكر والباقون بفتحها لغتان هما جبلان ينقطع بلاد الترك سد الاسكندر ما بينهما كما يأتى ومن ورائهما يأجوج ومأجوج ﴿وَجَدَ مِن دُونِهِمَا﴾ أى أمامهما ﴿قَوْمًا لَّا يَكَادُونَ يَفْقَهُونَ قَوْلًا﴾ أى لا يفهمونه إلا بعد بطء ولحمزة والكسائى ضم الياء وكسر القاف لفرط جهلهم وغرابة لغتهم وتلعثمهم ﴿قَالُوا﴾ أى بمترجم له ﴿يَا ذَا الْقَرْنَيْنِ إِنَّ يَأْجُوجَ وَمَأْجُوجَ﴾ بترك الهمز للجمهور وبالهمز لعاصم إسمان أعجميان لقبيلتين من ولد يافث بن نوح فلم ينصرفا وقيل يأجوج الذكران ومأجوج الإناث روى أنه لا يموت أحدهم حتى يولد له ألف نفس وأخبارهم تضيق بها الصحف . قال فى الجواهر : والذى يصح من ذلك كثرة عددهم على الجملة انتهى ، وكثر فى كتب الأخبار أنهم ثلاثة أصناف صنف منهم أمثال الأرز وطوله عشرون ومائة ذراع فى السماء وصنف منهم عرضه وطوله كذلك وهؤلاء لا يقوم لهم حجر ولا حديد وصنف منهم أمثال الناس يفترش أحدهم أذنه ويلتحف بالأخرى لا يمرون بفيل ولا وحش إلا أكلوه ومن مات منهم أكلوه كما قال ﴿مُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ﴾ بالقتل والتخريب وإتلاف الزرع عند خروجهم إلينا ، وكانوا يخرجون فى الربيع فلا يتركون أخضر إلا أكلوه ولا يابسا إلا حملوه ويأكلون الناس والحيات والعقارب ﴿فَهَلْ نَجْعَلُ لَكَ خَرْجًا﴾ جعلا نخرجه من أموالنا وقرأ حمزة والكسائى خراجا وكلاهما واحداً كالنول والنوال وقيل الخرج الجعل الذى تبرعت به والخراج مالزمك على الأرض أو غيرها ﴿عَلَىٰ أَن تَجْعَلَ بَيْنَنَا وَبَيْنَهُمْ سَدًّا﴾ بضم السين لنافع وابن عامر وأبى بكر وبفتحها لغيرهم : حاجزا فلا يصلون إلينا ﴿قَالَ مَا مَكَّنِّي فِيهِ رَبِّي﴾ من المال واليسار والملك قرأ ابن كثير بنونين من غير إدغام ﴿خَيْرٌ﴾ من خرجكم الذى تجعلونه لى فلا حاجة بى إليه وأجعل لكم السد تبرعا قال ابن العربى : إذا فرض على الوالى أن يقوم بحماية الخلق وحفظ بيضتهم وسد فرجهم وإصلاح

ثغرهم بأموال الفيء فإن فنيت وأطلعت الحوادث أمورا بذلوا أنفسهم فى ذلك قبل أموالهم فإن لم تغن ذلك فأموالهم تؤخذ منهم على تقدير وتصرف بأحسن تدبير وهذا ذو القرنين لما عرضوا عليه المال قال إنما أحتاج إليكم إذ رأى أن الأموال لا تغنى دونهم وضابط الأمر فيه أنه لا يحل أخذ مال أحد إلا لضرورة تعرض فيؤخذ جهرا لا سرا بالعدل لا بالاستئثار وبرأى الجماعة لا بالاستبداد بالرأى انتهى ومثله قول محمد بن عبد الكريم المقيلى : فان وقع بالناس مصيبة تفتقر لمال ولا شىء فى بيت المال وجبت الإعانة عليهم بحسب أحوالهم من غير أن يستمر ذلك عليهم وذلك كسقوط حصن لهم بمكان خوف لا كمصيبة نزلت بسلطان من قائم عليه لينتزع منه ما بيده انتهى ﴿ فَأَعِينُونِي بِقُوَّةٍ ﴾ من أبدانكم من الصناع والآلات ﴿ أَجْعَلْ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ رَدْمًا ﴾ حاجزا حصينا وهو أكبر من السد ﴿ آتُونِي ﴾ بقطع الهمزة وقرأ شعبة ، بوصلها ﴿ زُبَرَ الْحَدِيدِ ﴾ قطعه على قدر الحجارة التى يبنى بها فبنى بها وجعل بينها الحطب والفحم ، وهذا لا ينافى رد الخراج لأن الإيتاء بمعنى المناولة أو بمعنى الإتيان كقوله « آتنا غداءنا » ويقويه قراءة شعبة فأتوه بالزبر والحطب فجعل بعضها على بعض فلم يزل يجعل الحديد على الحطب والحطب على الحديد ﴿ حَتَّى إِذَا سَاوَى ﴾ ما ذكر ﴿ بَيْنَ الصَّدَفَيْنِ ﴾ بفتح الصاد والدال لنافع وحمزة والكسائى وحفص وبضم الصاد وسكون الدال لأبى بكر وبضمهما للباقين ، أى حافتى الجبلين بتنضيد ما ذكر ووضع المنافخ والنار حول ذلك ﴿ قَالَ ﴾ للعملة ﴿ انْفُخُوا ﴾ النار فى الحديد أو فى الأكوار فنفخوا ﴿ حَتَّى إِذَا جَعَلَهُ ﴾ أى المنفوخ فيه ﴿ نَارًا ﴾ كالنار ﴿ قَالَ آتُونِي ﴾ بقطع الهمزة للجمهور وبوصلها لحمزة وبالوجهين لشعبة ﴿ أُفْرِغْ عَلَيْهِ قِطْرًا ﴾ نحاسا مذابا لأنه يقطر ، تنازع فيه الفعلان وحذف من الأول لإعمال الثانى ولو أعمل الأول لأضمر فى الثانى فأفرغ النحاس المذاب على الحديد المحمى فدخل بين زبره موضع الفحم والحطب فصار شيئا واحدا . روى أنه حفر الأساس حتى بلغ الماء وجعل الأساس من الصخر والنحاس المذاب والبنيان من زبر الحديد بينها الحطب والفحم كما تقدم فاختلط والتصق وصار جبلا صلدا لا يقدرون عليه ، طول ما بين السدين مائة فرسخ وعرض الردم خمسون ذراعا وارتفاعه مائتا ذراع وهو كالبرد المحبر طريقة حمراء وطريقة سوداء والله أعلم ﴿ فَمَا اسْطَاعُوا ﴾ أى يأجوج ومأجوج ﴿ أَنْ يَظْهَرُوهُ ﴾ يعلو ظهره لارتفاعه وملاسته ﴿ وَمَا اسْتَطَاعُوا لَهُ نَقْبًا ﴾ خرقا من أسفله لصلابته وسمكه وقرأ حمزة فما اسطاعوا بالإدغام فى الأول جامعا بين الساكنين على غير حده ﴿ قَالَ ﴾ ذو القرنين ﴿ هَذَا ﴾ السد أى الإقدار عليه ﴿ رَحْمَةٌ مِنْ رَبِّي ﴾ نعمة على عباده لأنه مانع من خروجهم أى ليس لى عليكم منة فيه لأنه من ربى لا منى ﴿ فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ رَبِّي ﴾ أى وقت وعده بخروجهم القريب من البعث ﴿ جَعَلَهُ دَكَّاءَ ﴾ مدكوكا مبسوطا من دككت الشىء سويته بالأرض ، وقرأ الكوفيون دكاء بالمد أى أرضا مستويه ﴿ وَكَانَ وَعْدُ رَبِّي ﴾ بخروجهم وغيره ﴿ حَقًّا ﴾ كائنا لا محالة وهذا آخر حكاية قول ذى القرنين وفيه مع ما بعده حسن التخلص ، قال تعالى ﴿ وَتَرَكْنَا بَعْضَهُمْ ﴾ أى يأجوج ومأجوج

﴿ يَوْمَئِذٍ ﴾ يوم خروجهم ﴿ يَمُوجُ فِي بَعْضٍ ﴾ يختلط به لكثرتهم مزدحمين في البلاد حتى يهلكهم الله ، أو تركنا بعض الخلق يومئذ يختلطون إنسهم وجنهم حيارى ويؤيده ﴿ وَنُفِخَ فِي الصُّورِ ﴾ لقيام الساعة ﴿ فَجَمَعْنَاهُمْ ﴾ أي الخلائق في مكان واحد يوم القيامة ﴿ جَمْعًا ﴾ للحساب والجزاء ﴿ وَعَرَضْنَا جَهَنَّمَ ﴾ أبرزناها وأظهرناها وقربناها ﴿ يَوْمَئِذٍ لِلْكَافِرِينَ عَرْضًا ﴾ يشاهدونها : وبرزت الجحيم لمن يرى ﴿ الَّذِينَ كَانَتْ أَعْيُنُهُمْ ﴾ بدل من الكافرين والأعين كناية عن البصائر ﴿ فِي غِطَاءٍ عَنْ ذِكْرِي ﴾ القرآن أو الآيات في الآفاق والأنفس المؤدية إلى ذكرى بكل جميل من التوحيد والتعظيم ، والغطاء التغافل والإعراض عن التأمل فيها ﴿ وَكَانُوا لَا يَسْتَطِيعُونَ سَمْعًا ﴾ لا يقدرون أن يسمعوا من النبي ما يتلى عليهم بغضاً له فلا يؤمنون به وهذا أبلغ من قوله صم لأن الأصم إذا صيح به قد يستطيع السمع وهؤلاء قد سلب عنهم الاقتدار ﴿ أَفَحَسِبَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنْ يَتَّخِذُوا عِبَادِي ﴾ ملائكتي وعيسى وعزيرا ﴿ مِنْ دُونِي أَوْلِيَاءَ ﴾ معبودين والفاء عاطفة على « كانت » والمعنى أبعد ذلك التعامي والتصامم اعتقدوا أن ولاية من ذكر نافعهم فوضع الظاهر موضع الضمير دلالة على أن منشأ ذلك الحسبان هو الكفر ، و « أولياء » مفعول ثان ليتخذوا والمفعول الثاني لحسب محذوف هو الكفر ، أي ظنوا أن الاتخاذ المذكور نافعهم أو لا أعاقبهم عليه كلا ﴿ إِنَّا أَعْتَدْنَا جَهَنَّمَ لِلْكَافِرِينَ ﴾ هؤلاء وغيرهم ﴿ نُزُلًا ﴾ أي هي معدة لهم كالنزل المعد للضيف وفيه تهكم بهم ﴿ قُلْ هَلْ نُنَبِّئُكُمْ بِالْأَخْسَرِينَ أَعْمَالًا ﴾ تمييز جمع لموافقة المميز وللدلالة على الأنواع وأن كل نوع كاف في زيادة خسرانهم وبينهم بقوله ﴿ الَّذِينَ ضَلَّ سَعْيُهُمْ ﴾ بطل عملهم كالرهبانية وصلة الرحم ﴿ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ﴾ خسروا دنياهم وأخراهم ﴿ وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا ﴾ عملا يجازون عليه باتفاقهم على أنواع العبادات مع فوات شرائطها ﴿ أُولَئِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ ﴾ دلائل توحيده من القرآن وغيره ، مستأنف جار مجرى العلة ﴿ وَلِقَائِهِ ﴾ أي وبالبعث والحساب والثواب والعقاب ﴿ فَحَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ ﴾ بكفرهم فلا يثابون عليها ﴿ فَلَا نُقِيمُ لَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَزْنًا ﴾ ميزاناً لعملهم إذ ليس لسيئاتهم مقابل بخلاف الموحد أو هو كناية عن الازدراء بهم أي لا نجعل لهم قدراً ، يقال ليس لفلان عند الملك وزن أي مقدار . وعن أبي هريرة : إنه ليأتي الرجل العظيم السمين يوم القيامة لا يزن عند الله جناح بعوضة فاقرأوا إن شئتم « فلا نقيم لهم يوم القيامة وزنا » . والحاصل أن وزن أعمال المؤمنين متفق عليه واختلف في الكافرين بسبب اختلاف النصوص « فأما من ثقلت موازينه فأولئك هم المفلحون وأما من خفت موازينه فأولئك الذين خسروا أنفسهم في جهنم خالدون » وغيرها مع هذه « فلا نقيم لهم يوم القيامة وزناً » وجمع بأن عدم الوزن عدم القدر أي سواء وزن أعمالهم وتركه . قال شيخ شيوخنا طاهر ابن إبراهيم في نظم الكبرى

وَوَزْنُ أعمالِ أولي الإيمانِ ٭ بلا نزاعٍ وأولي الكفرانِ

تَعَارُضُ النصوصِ فيهم اقتضا ٭ الخلفَ لكن وجهُ جمعِه أضا

بإنما المنفي نفعُه فعم ٭ بلا نعيمٍ أي سواءٌ والعدم

﴿ ذَٰلِكَ ﴾ أى الأمر الذى ذكرته من حبوط أعمالهم وغيره ﴿ جَزَاؤُهُمْ جَهَنَّمُ ﴾ جملة مبينة لما قبلها ﴿ بِمَا كَفَرُوا وَاتَّخَذُوا آيَاتِي وَرُسُلِي هُزُوًا ﴾ مهزوءاً بهما ﴿ إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ كَانَتْ لَهُمْ ﴾ فى علم الله ﴿ جَنَّاتُ الْفِرْدَوْسِ ﴾ هو أوسط الجنة وأعلاها ، والإضافة إليه للبيان وأصله البستان الذى يجمع الكرم والنخل ﴿ نُزُلًا ﴾ منزلا . روى البخارى ومسلم أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال « إذا سألتم الله الجنة فاسألوه الفردوس فإنه أوسط الجنة ومنه تفجر أنهار الجنة » ﴿ خَالِدِينَ فِيهَا ﴾ حال مقدرة ﴿ لَا يَبْغُونَ ﴾ لا يطلبون ﴿ عَنْهَا حِوَلًا ﴾ تحولا إلى غيرها لانقطاع الأمانى فلا مطلب بعدها إذ لا يجدون أطيب منها ﴿ قُلْ لَوْ كَانَ الْبَحْرُ ﴾ ماؤه ﴿ مِدَادًا ﴾ يكتب به ، أصله ما يمد به الشىء كالحبر للدواة والسليط للسراج ﴿ لِكَلِمَاتِ رَبِّي ﴾ الدالة على حكمه وعجائبه باق يكتب به ﴿ لَنَفِدَ الْبَحْرُ ﴾ لأنه متناه ﴿ قَبْلَ أَنْ تَنْفَدَ ﴾ بالتأنيث للجمهور والتذكير لحمزة والكسائى أى تفرغ ﴿ كَلِمَاتُ رَبِّي ﴾ لأنها غير متناهية ﴿ وَلَوْ جِئْنَا بِمِثْلِهِ ﴾ أى البحر ﴿ مَدَدًا ﴾ زيادة وعوناً فيه لنفد ولم تفرغ هى ونصبه على التمييز ﴿ قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ ﴾ لا أدعى الإحاطة على كلماته حتى آتيكم بجميع ما تسألون ﴿ يُوحَىٰ إِلَيَّ أَنَّمَا إِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَاحِدٌ ﴾ أن المكفوفة بما باقية على مصدريتها ، المعنى : إنما تميزت عنكم بكونى يوحى إلىّ ، وحدانية الإله ﴿ فَمَنْ كَانَ يَرْجُو لِقَاءَ رَبِّهِ ﴾ يأمل حسن لقائه بالبعث والجزاء ﴿ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَالِحًا ﴾ يرتضيه الله ﴿ وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ ﴾ أى فيها بأن يرائى أو يطلب منه أجراً ﴿ أَحَدًا ﴾ روى البخارى أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال « إذا جمع الله الناس يوم القيامة نادى مناد من كان الشرك فى عمله لله فليطلب ثوابه من عند غير الله فإن الله أغنى الشركاء » وروى أن جندب بن زهير قال لرسول الله صلى الله عليه وسلم : إنى لأعمل العمل لله فإذا اطلع عليه سرنى . فقال : إن الله لا يقبل ما شورك فيه . فنزلت الآية تصديقاً له ، وقوله « قل إنما أنا بشر » إلى آخره ردٌّ لطعن الكفار له لما أبطأ فى جواب السؤال الذى هو سبب نزول السورة فانتظم آخرها بأولها والله أعلم . قال الثعالبى فى الجواهر الحسان : ومما جربته من خواص هذه السورة أن من أراد أن يستيقظ أى وقت شاء فليقرأ عند نومه من قوله « أفحسب الذين » إلى آخر السورة فإنه يستيقظ بإذن الله فى الوقت الذى نواه ولتكن قراءته عند آخر ما يغلبه النعاس بحيث لا يتجدد له عقب القراءة خواطر هذا مما لا شك فيه وهو من عجائب القرآن المقطوع بها والله الموفق بفضله .

[تم تفسير سورة الكهف]

سورة مريم

مكية أو إلا سجدتها فمدنية أو إلا «فخلف من بعدهم خلف .. الآيتين»
وهى ثمان أو تسع وتسعون آية

﴿ بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ ۝ كهيعص ﴾ الله أعلم بمراده بذلك . أمال نافع ألف ها ويا بين بين ويشبع المد فى الكاف والصاد اتفاقاً ولا يمد الهاء والياء اتفاقاً وفى العين الوجهان والمد أفضل ، وأظهر نافع وابن كثير وعاصم دال صاد عند الذال والباقون يدغمون . هذا ﴿ ذِكْرُ رَحْمَتِ رَبِّكَ عَبْدَهُ ﴾ وذكر خبر محذوف أى هذا المتلو أو مبتدأ أى حذف خبره فيما يتلى عليك ذكر رحمة ربك ، وعبده مفعول رحمة أو لذكر على أن الرحمة فاعلة على الاتساع كقولك ذكرنى جوذ زيد ﴿ زَكَرِيَّاءَ ﴾ بيان له أو بدل ، وقرأ حمزة والكسائى وحفص بالقصر ﴿ إِذْ ﴾ متعلق برحمة ﴿ نَادَىٰ رَبَّهُ نِدَاءً ﴾ مشتملا على دعاء ﴿ خَفِيًّا ﴾ سراً فى محرابه جوف الليل لأنه أسرع للإجابة وأبعد عن الرياء وأولى بالإخلاص أو لئلا يلام على طلب الولد فى إبان الكبر أو لأن ضعف الهرم أخفى صوته ، والنداء ممدوداً مطلق الصوت والمقيد بالارتفاع هو المقصور فلا ينافى الإخفاء ﴿ قَالَ رَبِّ إِنِّي وَهَنَ الْعَظْمُ مِنِّي ﴾ أى ضعف وأحرى غيره ، وخصه لأنه عمود البدن فإذا وهن كان على غيره أوهن وأفرده لإرادة الجنس وجملة «قال» تفسير للنداء ﴿ وَاشْتَعَلَ الرَّأْسُ ﴾ أى شعره ﴿ شَيْبًا ﴾ تمييز محول من الفاعل أى انتشر الشيب فى شعره كما ينتشر شعاع النار فى الحطب ، شبه الانتشار بالاشتعال بجامع الفشو والظهور وأخرج فى صورة الاستعارة مبالغة ، والقرينة إسناد الاشتعال إلى الرأس أو شبه الشيب بالنار والجامع الانبساط فالاستعارة على كل حال مكنية والاشتعال تخييل ، وإنما أطنب لأن مقام إظهار العجز يقتضيه ولولا ذلك لكفى أن يقول رب شخت وإنى أريد أن أدعوك ﴿ وَلَمْ أَكُن بِدُعَائِكَ ﴾ أى بدعائى إياك ﴿ رَبِّ شَقِيًّا ﴾ أى خائباً فيما مضى فلا تخيبنى فيما يأتى فطلب الولد من مثلى وإن لم يكن معتاداً فإجابتك لى بجودك معتادة عندى . وقف سائل على كريم فقال له من أنت ؟ فقال أنا الذى أحسنت إليه وقت كذا فقال مرحباً بمن توسل إلينا بنا ﴿ وَإِنِّي خِفْتُ الْمَوَالِيَ ﴾ الذين يلون الأمر ﴿ مِن وَرَائِي ﴾ بعد موتى يعنى بنى عمه وكانوا شرار بنى إسرائيل فخاف أن لا يحسنوا خلافته فى أمته ويبدلوا عليهم دينهم كما شهده فى أكثر بنى إسرائيل . وعن ابن كثير المد والقصر بفتح الياء فى «من ورائى» وهو متعلق بمعنى الموالى أو بمحذوف أى فعل الموالى لا بـ «خفت» لفساد المعنى . ﴿ وَكَانَتِ امْرَأَتِي ﴾ وهى أشياع بنت فاقود أخت حنة أم مريم أو أشياع بنت عمران أخت مريم ،

فعليه يحيى ابن خالة عيسى وعلى الأول ابن خالة أمه ويدل على الثانى حديث «فإذا أنا بابنى الخالة» والله أعلم ﴿ عَاقِرًا ﴾ لا تلد فيما مضى ﴿ فَهَبْ لِي مِنْ لَدُنْكَ ﴾ من كمال قدرتك التى تخترع بها الأشياء وإن لم يكن حصول الولد من العاقر والشيخ متعارفا ﴿ وَلِيًّا ﴾ ولدا من صلبى ﴿ يَرِثُنِي وَيَرِثُ ﴾ برفعهما للجمهور صفتان لوليا وبجزمهما لأبى عمرو والكسائى على جواب الأمر أى إن وهبته لى يرثنى ويرث ﴿ مِنْ آلِ يَعْقُوبَ ﴾ ابن اسحاق النبوة والعلم لأن الأنبياء لا يورثون المال ومن للتبعيض لأن آله ليسوا كلهم أنبياء ولا علماء وقيل يعقوب هذا هو ابن ماثان أخو عمران من نسل سليمان عليهم السلام ﴿ وَاجْعَلْهُ رَبِّ رَضِيًّا ﴾ مرضيا عندك قولا وعملا أو راضيا بقضائك قال تعالى فى إجابة طلبه الابن الحاصل به رحمته ﴿ يَا زَكَرِيَّا ﴾ هو ابن برخياء أو آذن وتقدم النسب فى آل عمران ﴿ إِنَّا نُبَشِّرُكَ بِغُلَامٍ ﴾ يرث كما سألت ﴿ اسْمُهُ يَحْيَى ﴾ لأنه يحيى به الدين تولى تسميته تشريفا له وهذه البشارة على لسان الملائكة كما تقدم فى فنادته الملائكة إلى أن الله يبشرك ﴿ لَمْ نَجْعَلْ لَهُ مِنْ قَبْلُ سَمِيًّا ﴾ أى مسمى بيحيى أو شبيها كقوله هل تعلم له سميا لأن المتماثلين يتشاركان فى الاسم ﴿ قَالَ رَبِّ أَنَّى ﴾ كيف ﴿ يَكُونُ لِي غُلَامٌ وَكَانَتِ امْرَأَتِي عَاقِرًا وَقَدْ بَلَغْتُ مِنَ الْكِبَرِ عِتِيًّا ﴾ جساوة وقحولا فى المفاصل من عتى يبس أى بلغ نهاية السن مائة وعشرين سنة وبلغت امرأته ثمانى وتسعين سنة وأصل عتيا عتوو كسر التاء تخفيفا وقلبت الواو الأولى ياء لمناسبة الكسرة والثانية ياء لتدغم فيها الياء . وقرأ حمزة والكسائى وحفص بكسر العين على الاتباع ﴿ قَالَ ﴾ الله أو الملك المبلغ الأمر ﴿ كَذَلِكَ ﴾ من خلق غلام منكما ﴿ قَالَ رَبُّكَ هُوَ عَلَيَّ هَيِّنٌ ﴾ وإن كان مستبعدا عادة ويجوز أن يكون الكاف فى كذلك فى محل نصب مفعول قال الثانى وهو مع مفعوله مفعول الأول وقوله «هو على هين» مفسر لما أشير إليه بذلك والخطاب لزكرياء لقوله ﴿ وَقَدْ خَلَقْتُكَ مِنْ قَبْلُ وَلَمْ تَكُ شَيْئًا ﴾ قبل خلقك وفيه دليل على أن المعدوم ليس بشىء ، وقرأ حمزة والكسائى خلقناك ولإظهار الله هذه القدرة العظيمة ألهمه السؤال ليجاب بما يدل عليها ولما تاقت نفسه إلى سرعة المبشر به ﴿ قَالَ رَبِّ اجْعَلْ لِي آيَةً ﴾ علامة على حمل امرأتى ليتيسر على القيام بشكرك ﴿ قَالَ آيَتُكَ ﴾ عليه ﴿ أَلَّا تُكَلِّمَ النَّاسَ ﴾ أى تمنع من كلامهم بخلاف ذكر الله تعالى ﴿ ثَلَاثَ لَيَالٍ ﴾ مع أيامها كما فى آل عمران ثلاثة أيام ﴿ سَوِيًّا ﴾ صحيحا . لا آفة بك من مرض أو بكم وهو حال من فاعل تكلم ﴿ فَخَرَجَ عَلَى قَوْمِهِ مِنَ الْمِحْرَابِ ﴾ أى المسجد وكانوا ينتظرون فتحه ليصلوا فيه بأمره على العادة فاعتقل لسانه عن الكلام معهم وإذا أراد ذكر الله انطلق لسانه ﴿ فَأَوْحَى إِلَيْهِمْ ﴾ أى أشار لقوله « إلا رمزا » وعن ابن عباس كتب على الأرض قال ابن عطية وكلاهما وحى ﴿ أَنْ سَبِّحُوا ﴾ صلوا أو نزهوا الله ﴿ بُكْرَةً وَعَشِيًّا ﴾ أوائل النهار وأواخره على العادة فعلم بمنعه من كلامهم حملها يحيى وأن مفسرة لأن الوحى فيه معنى القول أو مصدرية . وبعد ولادته وبلوغه حد الفهم قال تعالى له ﴿ يَا يَحْيَى خُذِ الْكِتَابَ ﴾ التوراة ﴿ بِقُوَّةٍ ﴾ بجد واستظهار بالتوفيق ﴿ وَآتَيْنَاهُ الْحُكْمَ ﴾ النبوة

وفهم أحكام التوراة ﴿ صَبِيًّا ﴾ ابن ثلاث سنين قيل دعاه أترابه إلى اللعب فقال ما للعب خلقنا . وعن ابن عباس : من قرأ القرآن قبل أن يحتلم فهو ممن أوتى الحكم صبيا ﴿ وَحَنَانًا ﴾ رحمة للناس ﴿ مِنْ لَدُنَّا ﴾ من عندنا وبركة يتبركون به ﴿ وَزَكَوٰةً ﴾ صدقة عليهم يزكون به أو طهرة لهم يطهرون به من الذنوب أو جعلناه طاهرا ﴿ وَكَانَ تَقِيًّا ﴾ شديد التقى . روى أنه لم يعمل خطيئة ولم يهم بها وطعامه العشب وللدمع فى خده مجار ثابتة ﴿ وَبَرًّا ﴾ شديد البر ﴿ بِوَالِدَيْهِ ﴾ بالإحسان إليهما ﴿ وَلَمْ يَكُنْ جَبَّارًا ﴾ متكبرا يجبر الناس على ما أراده ﴿ عَصِيًّا ﴾ عاصيا لربه نفى صريحا ماعلم ضمنا مبالغة فى وصفه وآثر عصيا على عاصيا مع كونه أوفق مراعاة لرءوس الآى ﴿ وَسَلَامٌ ﴾ منا ﴿ عَلَيْهِ يَوْمَ وُلِدَ ﴾ من أن يناله الشيطان بما ينال به بعض بنى آدم ﴿ وَيَوْمَ يَمُوتُ ﴾ من شدائد الموت وعذاب القبر ﴿ وَيَوْمَ يُبْعَثُ حَيًّا ﴾ من أهوال القيامة وعذاب النار أى هو آمن فى هذه الأيام المخوفة التى يرى فيها الانسان مالم يره قبلها وهو ثناء عليه وإخبار بأن خاتمته على وفق فطرته التى يولد عليها . ثم أتبع قصته بقصة مريم لأنها أغرب ترقيا فقال ﴿ وَاذْكُرْ فِى الْكِتَٰبِ ﴾ القرآن ﴿ مَرْيَمَ ﴾ ابنة عمران أى خبرها ﴿ إِذِ ﴾ حين ﴿ انْتَبَذَتْ ﴾ اعتزلت بدل من مريم بدل اشتمال لأن الأحيان مشتملة على ما فيها أو بدل الكل لأن المراد بمريم قصتها وبالظرف الأمر الواقع فيه وهما واحد وإذ بمعنى أن المصدرية ﴿ مِنْ أَهْلِهَا مَكَانًا شَرْقِيًّا ﴾ فى مكان نحو الشرق من دارها أو من بيت المقدس ولذا اتخذ النصارى المشرق قبلة ﴿ فَاتَّخَذَتْ مِنْ دُونِهِمْ حِجَابًا ﴾ أرسلت سترا تستتر به لتفلى رأسها أو ثيابها أو تغتسل من حيضها وهى الحيضة الثانية منها وكانت تتحول إلى بيت خالتها إذا حاضت وتعود إلى المسجد إذا طهرت ، وقيل اعتزلت لتعبد الله . قال ابن عطية : وهذا أحسن ﴿ فَأَرْسَلْنَا إِلَيْهَا رُوحَنَا ﴾ جبريل ﴿ فَتَمَثَّلَ لَهَا بَشَرًا سَوِيًّا ﴾ تام الخلق إذلو بدا لها فى صورته لم تقدر على رؤيته وسماع كلامه ﴿ قَالَتْ إِنِّى أَعُوذُ بِالرَّحْمَٰنِ مِنكَ ﴾ آثرت اسم الرحمن إذ له موقع لايخفى ﴿ إِنْ كُنتَ تَقِيًّا ﴾ فتنتهى عنى بتعوذى لأن التقوى هى الملاك فى مثل ذلك المقام لبعدها عن الناس أو أعوذ منك إن كنت تقيا فكيف إذا لم تكن كذلك ﴿ قَالَ إِنَّمَا أَنَا رَسُولُ رَبِّكِ ﴾ الذى استعذت به ﴿ لِأَهَبَ لَكِ ﴾ بالياء لورش وقالون بخلاف عنه وأبى عمرو وبالهمزة للباقين ﴿ غُلَٰمًا زَكِيًّا ﴾ بالنبوة أو طاهرا من الذنوب أو ناميا على الخير والصلاح ﴿ قَالَتْ أَنَّىٰ يَكُونُ لِى غُلَٰمٌ وَلَمْ يَمْسَسْنِى بَشَرٌ ﴾ بتزوج ﴿ وَلَمْ أَكُ بَغِيًّا ﴾ زانية فعول إذلو كان فعيلا لقيل بغية ﴿ قَالَ ﴾ الأمر ﴿ كَذَٰلِكِ ﴾ من خلق غلام منك من غير أب ﴿ قَالَ رَبُّكِ هُوَ عَلَىَّ هَيِّنٌ ﴾ أى لأنه على هين وفى إيثار الاسمية دلالة على لزوم الهون إزالة للاستبعاد ولكون ما ذكر فى معنى العلة عطف عليه ﴿ وَلِنَجْعَلَهُ آيَةً لِّلنَّاسِ ﴾ على قدرتنا ﴿ وَرَحْمَةً مِّنَّا ﴾ لمن آمن به ﴿ وَكَانَ أَمْرًا مَّقْضِيًّا ﴾ به فى علمى كائنا لامحالة فهو من تتمة العلة فنفخ جبريل فى جيب درعها نفخا من بعيد فوصل الريح إليها فأحست بالحمل فى بطنها مصورا ﴿ فَحَمَلَتْهُ ﴾ ولها ثلاث عشرة أو عشر سنين أو عشرون ﴿ فَانتَبَذَتْ ﴾ تنحت ﴿ بِهِ ﴾ وهو فى

بطنها والجار والمجرور فى موضع الحال ﴿مَكَانًا قَصِيًّا﴾ بعيدا من أهلها فرارا منهم وحياء ﴿فَأَجَاءَهَا﴾ ألجأها ﴿الْمَخَاضُ﴾ وجع تحرك الولد فى البطن للولادة. ﴿إِلَى جِذْعِ النَّخْلَةِ﴾ لتستتر به وتعتمد عليه عند الولادة وهو ما بين العرق إلى الغصن وكانت نخلة يابسة لا رأس لها ولا خضرة فيها وكان الوقت شتاء والتعريف للجنس أو للعهد إذ لم يكن هناك غيرها فاخضرت وأثمرت رطبا لما اعتمدت عليها وولدت. والحمل والتصوير والولادة فى ساعة وقيل غير ذلك، ولعله تعالى ألهمها اللجأ إليها ليريها من آياته ما يسكن روعها ويطعمها الرطب الذى هو طعامها خرسة النفساء الموافقة لها وشأن النخل أن لا يثمر بدون التلقيح فإذا رأوا ذلك ارتدعوا عن اتهامها وأيقنوا بأن شأنها فى الولادة من غير زوج شأن النخلة من غير تلقيح فى غير أوان الثمر ﴿قَالَتْ يَا﴾ للتنبيه ﴿لَيْتَنِي مِتُّ قَبْلَ هَذَا﴾ الأمر حياء من الناس لا كراهة لحكم الله. وقرأ ابن كثير وأبو عمرو وابن عامر مت بضم الميم من مات يموت ﴿وَكُنْتُ نِسْيًا﴾ بكسر النون للجمهور مامن شأنه أن ينسى لحقارته وبفتحها لحمزة وحفص لغتان أو المفتوح مصدر سمى به ﴿مَنْسِيًّا﴾ متروكا لا يعرف ولا يخطر بالبال تمنت الموت خوفا من أن تفتتن فى دينها بسبب تعيير قومها وتمنى الموت على هذا مباح وعلى هذا الحد تمناه عمر رضى الله عنه. قال الثعالبى رحمه الله ﴿فَنَادَاهَا مِنْ تَحْتِهَا﴾ بكسر الميم حرف جر لنافع وحمزة والكسائى وحفص وفى نادى ضمير جبريل أو عيسى وبفتحها للباقين موصول فاعل نادى أى من كان أسفل منها لأنها كانت فوق جبل وجبريل أسفل منها أو من تحت ثيابها وهو عيسى وقيل الضمير للنخلة فى تحتها ﴿أَنْ لَا تَحْزَنِي﴾ فأن مفسرة أو مصدرية أى لا تحزنى أو بأن لا تحزنى ﴿قَدْ جَعَلَ رَبُّكِ تَحْتَكِ سَرِيًّا﴾ نهر ماء كان انقطع هكذا روى مرفوعا وقيل سيدا من السرو وهو عيسى عليه السلام، وعلى الأول فمعنى جعله تحتها تحت أمرها إن أمرته أن يجرى جرى وإن أمرته بالإمساك أمسك ﴿وَهُزِّي إِلَيْكِ بِجِذْعِ النَّخْلَةِ﴾ أى أميليه إليك والباء صلة للتأكيد أو افعلى الهز به أو هزى الثمرة بهزه وهذا الجذع كان فى بيت لحم اسم مكان معروف، قال ابن العربى فى أحكامه: دخلت بيت لحم سنة خمس وثمانين وأربعمائة فرأيت فى متعبد النصارى غارا عليه جذع يابس كان رهبانهم يذكرون أنه جذع مريم بإجماع منهم فلما كان فى المحرم سنة اثنين وتسعين دخلت بيت لحم قبل استيلاء الروم عليه بستة أشهر فرأيت الغار فى المتعبد خاليا من الجذع فسألت الرهبان عنه فقالوا تحرق وتفتت ﴿تَسَّاقَطْ﴾ أصله تتساقط ادغمت التاء الثانية فى السين وحمزة حذفها وحفص تساقط مضارع ساقط وليعقوب بالياء وقرئ تتساقط وتسقط ويسقط فالتاء للنخلة والياء للجذع ﴿عَلَيْكِ رُطَبًا﴾ تمييز فى بعض القراءات ومفعول فى بعضها ﴿جَنِيًّا﴾ صفته ﴿فَكُلِي﴾ من الرطب، وقيل ما للنفساء خير من الرطب ولا للمريض خير من العسل، وقيل إذا عسر الولادة لم يكن لذات الطلق خير من الرطب ﴿وَاشْرَبِي﴾ من السرى أو من عصير الرطب ﴿وَقَرِّي عَيْنًا﴾ بالولد أو بما تيسر لك من الأكل والشرب تمييز محول من الفاعل أى لتقر عينك به من القر وهو البرد لأن دمعة السرور باردة ودمعة

الحزن حارة ولذا يقال قرة العين للمحبوب وسخنتها للمكروه ﴿ فَإِمَّا ﴾ فيه إدغام نون إن الشرطية فى ما المزيدة ﴿ تَرَيِنَّ ﴾ حذفت منه لام الفعل وعينه وألقيت حركتها على الراء وكسرت ياء الضمير لالتقاء الساكنين ﴿ مِنَ الْبَشَرِ أَحَدًا ﴾ فسألك عن ولدك ﴿ فَقُولِي إِنِّي نَذَرْتُ لِلرَّحْمَٰنِ صَوْمًا ﴾ صمتاً وإمساكا عن الكلام فى شأنه وغيره من الأناس بدليل ﴿ فَلَنْ أُكَلِّمَ الْيَوْمَ إِنْسِيًّا ﴾ بعد أن أخبرتكم بنذرى وإنما أكلم الملائكة وأناجى ربى ، وقيل أخبرتهم بنذرها بالإشارة وأمرها بذلك لكراهة المجادلة والاكتفاء بكلام عيسى فإنه قاطع فى قطع الطاعن ، وقيل صوماً على بابه والكلام حرام عندهم على الصائم ﴿ فَأَتَتْ بِهِ قَوْمَهَا ﴾ حال كونها ﴿ تَحْمِلُهُ ﴾ بعد ما طهرت من النفاس فرأوه ﴿ قَالُوا يَا مَرْيَمُ لَقَدْ جِئْتِ شَيْئًا فَرِيًّا ﴾ منكراً عظيما بديعاً وأصل الفرى القطع كأنها اخترعته من عندها حيث أتت بولد من غير أب ﴿ يَا أُخْتَ هَارُونَ ﴾ أرادوا أخا موسى لأنها كانت من نسله على قول السدى كقولهم يا أخا العرب أى واحداً منهم وبينهما ألف سنة وقيل كان فى زمانها رجل صالح يسمى هارون شبهوها به حقيقة لما علموا قبل من صلاحها أو تهكما أو رجل طالح شتموها به ﴿ مَا كَانَ أَبُوكِ امْرَأَ سَوْءٍ ﴾ زانياً ﴿ وَمَا كَانَتْ أُمُّكِ بَغِيًّا ﴾ زانية فمن أين سرى إليك تقرير بأن ما جاءت به فرى ، وتنبيه على أن الفواحش من أولاد الصالحين أفحش ﴿ فَأَشَارَتْ ﴾ لهم ﴿ إِلَيْهِ ﴾ أن كلموه ليجيبكم ﴿ قَالُوا كَيْفَ نُكَلِّمُ مَنْ كَانَ ﴾ وجد ﴿ فِي الْمَهْدِ صَبِيًّا ﴾ أو كان زائدة والظرف صلة « من » و « صبياً » حال من المستكن فيه ، فلما سمع عيسى كلامهم ترك الرضاع واتكأ على يساره فقال له زكرياء وهو فيهم انطق بحجتك إن كنت أمرت ﴿ قَالَ ﴾ مشيراً بسبابته اليمنى ﴿ إِنِّي عَبْدُ اللَّهِ ﴾ أقر على نفسى بالعبودية له ، كان هذا أول كلامه تكذيباً لمن يدعى فيه الألوهية ﴿ آتَانِيَ الْكِتَابَ ﴾ الإنجيل أى قضاه وينفذه بحكمته ، والتعبير بالماضى لتحقق وقوعه ، وقيل استنبأه فى ذلك الوقت طفلا لظاهر قوله ﴿ وَجَعَلَنِي نَبِيًّا ﴾ فى ذلك الوقت أو فيما يأتى والأكثرون على الأول ﴿ وَجَعَلَنِي مُبَارَكًا ﴾ نفاعا للناس ﴿ أَيْنَمَا كُنْتُ ﴾ حيثما توجهت بأمور الدنيا والدين ﴿ وَأَوْصَانِي ﴾ أمرنى ﴿ بِالصَّلَاةِ ﴾ المفروضة أو الدعاء ﴿ وَالزَّكَاةِ ﴾ للمال أو تطهير النفس عن الرذائل ، وإيثار الإيصاء على الأمر للدلالة على اللزوم حتما ﴿ مَا دُمْتُ حَيًّا ﴾ دوام حياتى ﴿ وَبَرًّا بِوَالِدَتِي ﴾ عطف على مباركا ، وتوسيط الأمر بالصلاة والزكاة للاهتمام أو منصوب بجعلنى مقدراً ﴿ وَلَمْ يَجْعَلْنِي جَبَّارًا ﴾ متكبراً متعاظما على الناس ﴿ شَقِيًّا ﴾ عنده من فرط تكبره يذنب ولا يتوب ﴿ وَالسَّلَامُ ﴾ من الله ﴿ عَلَيَّ يَوْمَ وُلِدْتُ وَيَوْمَ أَمُوتُ وَيَوْمَ أُبْعَثُ حَيًّا ﴾ يقال فيه ما تقدم فى يحيى ، واللام للجنس تعريضاً باللعن على أعدائه كقوله « والسلام على من اتبع الهدى » تعريض بأن العذاب على من كذب وتولى ، فلما كلمهم بهذا الكلام وعلموا براءة أمه مريم سكت ولم يتكلم بعد ذلك حتى بلغ المدة التى يتكلم فيها الصبيان ﴿ ذَٰلِكَ ﴾ المقر بالعبودية الموصوف بصفات الكمال هو ﴿ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ ﴾ لا ما يصفه النصارى بالألوهية ، ولا ما يصفه اليهود بولد الزنا

﴿ قَوْلُ الْحَقِّ ﴾ بالرفع لنافع وابن كثير وأبي عمرو أي كلمة الله وهو خبر بعد خبر أو بدل أو خبر مبتدإ محذوف أي قول ابن مريم قول الحق ، وبالنصب للباقين مصدر مؤكد أي قلت لكم في شأنه قول الصدق ﴿ الَّذِي فِيهِ يَمْتَرُونَ ﴾ يشكون من المرية أو يجادلون أي اليهود والنصارى من المراء في قول اليهود ساحر والنصارى ابن الله ، كذبوا ﴿ مَا كَانَ لِلَّهِ أَنْ يَتَّخِذَ مِنْ وَلَدٍ ﴾ استئناف لتكذيب النصارى ﴿ سُبْحَانَهُ ﴾ تنزيهاً له عن ذلك ﴿ إِذَا قَضَى أَمْرًا ﴾ أراد أن يحدثه ﴿ فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ ﴾ بالرفع للجمهور كما تقدم بتقدير هو ، وبالنصب لابن عامر بتقدير أن على الجواب ، ومن ذلك خلق عيسى ابن مريم بغير أب ، وهذا تبكيت للنصارى بأن من إذا أراد شيئاً أوجده بكن كان منزهاً عن شبه الخلق والحاجة إلى الولد ﴿ وَأَنَّ اللَّهَ رَبِّي وَرَبُّكُمْ فَاعْبُدُوهُ ﴾ بفتح « أن » لنافع وأبي عمرو وابن كثير بتقدير اللام أو عطفاً على الصلاة ، وبكسرها لابن عامر والكوفيين على الاستئناف أو تقدير القول بدليل « ما قلت لهم إلا ما أمرتني به أن اعبدوا الله » ﴿ هَذَا ﴾ المذكور ﴿ صِرَاطٌ مُسْتَقِيمٌ ﴾ لا زيغ فيه مؤد إلى الجنة وما خالفه زائغ مؤد إلى النار ﴿ فَاخْتَلَفَ الْأَحْزَابُ ﴾ لبني إسرائيل ﴿ مِنْ بَيْنِهِمْ ﴾ في تكذيبه وتصديقه أو الذين تحزبوا بعد رفعه وهم النصارى أهو ابن الله أو إله معه أو ثالث ثلاثة فكفروا بذلك ﴿ فَوَيْلٌ ﴾ شدة عذاب ﴿ لِلَّذِينَ كَفَرُوا ﴾ بما ذكر وغيره ﴿ مِنْ مَشْهَدِ ﴾ أي شهود ﴿ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴾ هوله ومشهد مصدر أو زمان أو مكان من الشهود فالإضافة بمعنى في على الاتساع أو مكان الشهود فيه وهو الموقف فالإضافة للملابسة أو وقت الشهود ؛ فالإضافة بمعنى من أو من الشهادة مصدر أو زمان أو مكان والمعنى من شهادة الأنبياء وألسنتهم وأيديهم وأرجلهم عليهم بالمعاصي أو من وقت الشهادة أو من مكانها والإضافة على التفصيل المتقدم ﴿ أَسْمِعْ بِهِمْ وَأَبْصِرْ ﴾ بهم صيغتا تعجب بمعنى ما أسمعهم وأبصرهم ﴿ يَوْمَ يَأْتُونَنَا ﴾ في الآخرة حين لا ينفعهم السمع والبصر لكونهم في الدنيا صما وعميا والمعنى شأنهم حقيق بأن يتعجب منه المتعجبون ، وقيل لا تعجب بل خطاب للنبي صلى الله عليه وسلم أن يسمعهم مواعيد ذلك اليوم ويبصرهم والجار والمجرور على الأول في موضع الرفع وعلى الثاني في موضع النصب ﴿ لَكِنِ الظَّالِمُونَ ﴾ الكاملون في الظلم ﴿ الْيَوْمَ ﴾ أي في الدنيا ﴿ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ ﴾ أي بين به صموا عن سماع الحق وعموا عن إبصاره أوقع الظالمين موقع هم إشعاراً بأنهم ظلموا أنفسهم حيث أغفلوا الاستماع والنظر حين ينفعهم ﴿ وَأَنْذِرْهُمْ يَوْمَ الْحَسْرَةِ ﴾ للمسيء على إساءته والمحسن على عدم زيادة إحسانه هو يوم القيامة أو يوم الموت ﴿ إِذْ قُضِيَ الْأَمْرُ ﴾ فرغ من الحساب وأدخل أهل الجنة الجنة وأهل النار النار وذبح الموت ، وإذ بدل من اليوم أو ظرف للحسرة ﴿ وَهُمْ فِي غَفْلَةٍ ﴾ عنه في الدنيا ﴿ وَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴾ به حال من الضمير في الظرف في قوله « في ضلال » و « أنذرهم » اعتراض يؤكد ما هم فيه من الضلال أو متعلق بأنذرهم أي أنذرهم غافلين غير مؤمنين حالان فيهما معنى التعليل ﴿ إِنَّا نَحْنُ ﴾ تأكيد ﴿ نَرِثُ الْأَرْضَ وَمَنْ عَلَيْهَا ﴾ في ذلك اليوم

لا ملك ولا مُلك فيها لأحد منهم ﴿ وَإِلَيْنَا يُرْجَعُونَ ﴾ فيه للجزاء ثم كذب المشركين من اليهود والنصارى وأهل مكة المنتسبين إلى قدوة الموحدين إبراهيم عليه السلام بقوله ﴿ وَاذْكُرْ ﴾ لهم ﴿ فِي الْكِتَابِ إِبْرَاهِيمَ ﴾ فائل عليهم خبره ليتبين كذبهم فى الاقتداء به ﴿ إِنَّهُ كَانَ صِدِّيقاً ﴾ كثير التصديق لآيات الله وكتبه ورسله ﴿ نَبِيّاً ﴾ مخبراً عن الله ، من باب الترقى لأن النبوة أعلى فذكر له الصديقية تمهيداً لها ﴿ إِذْ قَالَ ﴾ بدل من إبراهيم ، وما بينهما اعتراض. أو متعلق بكان أى كان جامعاً بين الوصفين وقت دعوة أبيه أو بصديقاً وهو دليل على كمال صدقه فى نصحه ﴿ لِأَبِيهِ ﴾ آزر ﴿ يَا أَبَتِ ﴾ تاء تأنيث لحقت المنادى عوضاً عن المضاف إليه وقف عليها ابن كثير وابن عامر بالهاء ونافع والباقون بالتاء مراعاة للرسم ﴿ لِمَ تَعْبُدُ مَا لَا يَسْمَعُ ﴾ فيسمع ذكرك ﴿ وَلَا يُبْصِرُ ﴾ فيرى خضوعك ﴿ وَلَا يُغْنِي عَنْكَ شَيْئاً ﴾ فى جلب نفع ودفع ضر ، لم يصرح لأبيه بخطئه مع كونه موقناً به مراعاة للأدب بل سأله سؤال منبه على تماديه فى الغى مشيراً إلى أن المعبود لو كان سميعاً بصيراً نافعاً ضاراً إلا أنه مخلوق لا يستحق العبادة لأن العبادة غاية الخضوع فلا يستحقها إلا من له غاية الكبرياء والعلو فكيف بجماد لاشعور له بعبادة من يعبده فضلا عن الثواب أو دفع العقاب ، ثم دعاه إلى الحق برفق فقال ﴿ يَا أَبَتِ إِنِّي قَدْ جَاءَنِي مِنَ الْعِلْمِ مَا لَمْ يَأْتِكَ فَاتَّبِعْنِي أَهْدِكَ صِرَاطاً سَوِيّاً ﴾ مستقيما ، لم يسمه جاهلا ولا وصف نفسه بالعلم الفائق بل إن عنده شيئاً من العلم وذلك علم الدلالة على الطريق السوى ، وكأنه قال هب أنى وإياك فى مسير إلى مقصد ولى علم بطريقه فلا تستنكف عن اتباع الدليل فإنه أمر متعارف لم يزل دأب الملوك فى قطع الفيافى والمفاوز يقتدون بالأدانى ولا يرون أن ذلك يعود عليهم بنقص ، ثم ثبطه عن عبادة غير الله بأنه يضر لأنه عبادة الشيطان بقوله ﴿ يَا أَبَتِ لَا تَعْبُدِ الشَّيْطَانَ ﴾ ثم استهجنه بقوله ﴿ إِنَّ الشَّيْطَانَ كَانَ لِلرَّحْمَنِ عَصِيّاً ﴾ كثير العصيان فلا تتخذ عدو الله صديقاً فينتقم منك ولذا عقبه بقوله ﴿ يَا أَبَتِ إِنِّي أَخَافُ أَنْ يَمَسَّكَ عَذَابٌ مِنَ الرَّحْمَنِ ﴾ إن لم تتب ﴿ فَتَكُونَ لِلشَّيْطَانِ وَلِيّاً ﴾ ناصراً وقريناً فى النار ، وعدم جزمه العذاب وذكره بالمس الدال على القلة مع تنكيره تأدبٌ منه لأبيه أو لخفاء العاقبة ﴿ قَالَ أَرَاغِبٌ أَنْتَ عَنْ آلِهَتِي يَا إِبْرَاهِيمُ ﴾ قابل استعطافه فى الإرشاد بالفظاظة وغلظة العناد فناداه باسمه ولم يقل يا ابنى وأخره وقدم الخبر على المبتدأ وصدره بالهمزة لإنكار نفس الرغبة على ضرب من التعجب كأنها مما لا يرغب عنها عاقل فهو أهم رأى عنده . قال فى غاية الأمانى : والأولى جعل « أراغب » مبتدأ و « أنت » فاعل سد مسد الخبر لئلا يقع الفصل بين أراغب ومعموله بالأجنبى . اه . ثم هدده بقوله ﴿ لَئِنْ لَمْ تَنْتَهِ ﴾ عن مقالك فيها أو الرغبة عنها ﴿ لَأَرْجُمَنَّكَ ﴾ لأبعدنك بلسانى بالشتم والذم أو بالحجارة حتى تموت أو تبعد منى ، فاحذرنى ﴿ وَاهْجُرْنِي ﴾ معطوف على محذوف كما قدرنا ﴿ مَلِيّاً ﴾ دهراً طويلا بالذهاب عنى ، من الملاوة ﴿ قَالَ سَلَامٌ عَلَيْكَ ﴾ منى لا أصيبك بمكروه ولا أقول لك بعد ما يؤذيك ، توديع ومقابلة للسيئة بالحسنة

والجهل بالحلم لا بمعنى التحية ، وهذا قول الجمهور لأنهم لا يرون ابتداء الكافر بالسلام فهى مسالمة بالحسنى « وإذا خاطبهم الجاهلون قالوا سلاما » ﴿ سَأَسْتَغْفِرُ لَكَ رَبِّى ﴾ سأطلب أن يوفقك للتوبة وقد وفى بوعده فى قوله « واغفر لأبى » وهذا قبل أن يتبين له أنه عدو لله كما فى براءة ﴿ إِنَّهُ كَانَ بِى حَفِيًّا ﴾ بليغاً فى البر والإلطاف فيجيب دعائى ﴿ وَأَعْتَزِلُكُمْ وَمَا تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ ﴾ بالهجرة بدينى ﴿ وَأَدْعُو رَبِّى ﴾ أعبده وحده ﴿ عَسَىٰ أَنْ لَا أَكُونَ بِدُعَاءِ رَبِّى شَقِيًّا ﴾ خائباً ضائع السعى مثلكم فى دعاء آلهتكم ، وفى إيثار عسى إشارة إلى أن العبادة أمارة النجاة لا جزم معها وفيه هضم النفس مع التعريض ﴿ فَلَمَّا اعْتَزَلَهُمْ ﴾ بأن ذهب من أرض كوثى من العراق إلى الأرض المقدسة مع امرأته سارة وابن أخيه لوط ﴿ وَمَا يَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَهَبْنَا لَهُ إِسْحَٰقَ ﴾ من امرأته سارة بعد إسماعيل من هاجر التى أخدمها الملك الجبار لسارة فى سفرته تلك بالهجرة كما فى الحديث الصحيح الطويل فأعطتها لإبراهيم فولدت له إسماعيل ثم وهب إسحق ﴿ وَيَعْقُوبَ ﴾ بعده ابن إسحق وخصهما بالذكر لأنهما شجرتا الأنبياء أو لأنه أراد أن يذكر إسمعيل بفضله على الانفراد ﴿ وَكُلًّا جَعَلْنَا نَبِيًّا ﴾ أبدله الله لما هاجر من الكفار أولاداً صالحين يتأنس بهم ﴿ وَوَهَبْنَا لَهُمْ ﴾ للثلاثة إبراهيم وابنيه ﴿ مِنْ رَحْمَتِنَا ﴾ النبوة والأولاد والأموال ﴿ وَجَعَلْنَا لَهُمْ لِسَانَ صِدْقٍ ﴾ ثناء حسناً فإن اللسان مظهره ﴿ عَلِيًّا ﴾ رفيعاً فى جميع أهل الأديان وبيته معظم فى جميع الأمم وما من محق ومبطل إلا وهو يدعى أنه من حزبه ﴿ وَاذْكُرْ فِى الْكِتَابِ مُوسَىٰ إِنَّهُ كَانَ مُخْلَصًا ﴾ بكسر اللام للجمهور عمله من الشرك والرياء وبفتحها للكوفيين أخلصه الله من الدنس واختاره ﴿ وَكَانَ رَسُولًا ﴾ إلى الخلق ﴿ نَبِيًّا ﴾ بشيراً ونذيراً أى أرسله الله إلى الخلق فأنبأهم عنه ولذا قدم رسولا مع أنه أخص وأعلى قاله البيضاوى ، ويحتمل أن يكون « نبياً » حالا ﴿ وَنَادَيْنَاهُ ﴾ بقول « يا موسى إنى أنا الله » ﴿ مِنْ جَانِبِ الطُّورِ ﴾ اسم جبل ﴿ الْأَيْمَنِ ﴾ الكثير البركة لسماعه الوحى من جهته أو الذى يلى يمين موسى حين أقبل من مدين إلى مصر ﴿ وَقَرَّبْنَاهُ ﴾ رتبة وشرفاً ﴿ نَجِيًّا ﴾ مناجى بأن أسمعه الله تعالى كلامه فشبه بمن قربه الملك لمناجاته ، وقيل رفع فوق السموات ولا يثبت ، قاله فى غاية الأمانى ﴿ وَوَهَبْنَا لَهُ مِنْ رَحْمَتِنَا ﴾ من أجلها أو بعضها ﴿ أَخَاهُ هَٰرُونَ ﴾ بدل أو بيان أخاه أى مؤازرته إجابة لدعوته « واجعل لى وزيراً من أهلى » وهو مفعول أو بدل على تقدير أن يكون «من» للتبعيض ﴿ نَبِيًّا ﴾ حال منه هى المقصودة بالهبة وكان هرون أسن من موسى بسنتين ﴿ وَاذْكُرْ فِى الْكِتَابِ إِسْمَٰعِيلَ ﴾ ابن إبراهيم ﴿ إِنَّهُ كَانَ صَادِقَ الْوَعْدِ ﴾ لم يعد شيئاً إلا وفى به وناهيك أنه وعد الصبر على الذبح ففى به وانتظر من وعده ثلاثة أيام أو حولا حتى رجع إليه فى مكانه : وصف له بما غلب عليه وفاق به وإن كان جميع الأنبياء مشتركون فى صدق الوعد ﴿ وَكَانَ رَسُولًا نَبِيًّا ﴾ إلى قومه الذين أمهم من جرهم بن قحطان قبيلة من اليمن ، وفيه دليل على أن الرسول لا يلزم أن يكون صاحب كتاب وشريعة مستقلة ، وقدم الرسول لأن الإنباء عن الله موقوف

على الرسالة منه أو ليوافق رءوس الآى ﴿ وَكَانَ يَأْمُرُ أَهْلَهُ ﴾ أمته لأنهم أهل دينه أو أهل بيته خاصة ﴿ بِالصَّلَاةِ وَالزَّكَاةِ ﴾ اشتغالا بالأهم وهو أن يقبل الرجل على نفسه ومن هو أقرب الناس إليه بالتكميل لقوله تعالى «وأنذر عشيرتك الأقربين» فإنهم أولى بالبر والإحسان ولأنهم إذا صلحوا اقتدى بهم غيرهم ولقوله قوا أنفسكم وأهليكم نارا ﴿ وَكَانَ عِنْدَ رَبِّهِ مَرْضِيًّا ﴾ لإتيانه بما يرضيه من الاستقامة فى الأقوال والأفعال ﴿ وَاذْكُرْ فِي الْكِتَابِ إِدْرِيسَ ﴾ وهو سبط شيث وجد أبى نوح عليهما السلام واسمه أخنوخ وإدريس لقب له ثبت له لكثرة درسه ولا يمنعه كونه عجميا لجواز أن يكون من توافق اللغتين . روى أن الله أنزل عليه ثلاثين صحيفة وهو أول من خط بالقلم وخاط الثياب وكانوا يلبسون الجلود قبله وأول من نظر فى علم النجوم والحساب وأول من اتخذ السلاح ﴿ إِنَّهُ كَانَ صِدِّيقًا نَبِيًّا ، وَرَفَعْنَاهُ مَكَانًا عَلِيًّا ﴾ بالنبوة والزلفى أو بالحس وهو حى فى السماء الرابعة أو السادسة أو السابعة وأما مايلفقه القصاص من أنه آخى ملك الموت وأماته وأدخله الجنة فهو فيها فكذب مختلق لأن أول من يدخل الجنة رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وأمته قاله فى غاية الأمانى ﴿ أُولَئِكَ ﴾ المذكورون من زكريا إلى إدريس : مبتدأ ﴿ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ ﴾ بأنواع النعم الدينية والدنيوية صفة للمبتدإ أو خبر له ﴿ مِنَ النَّبِيِّينَ ﴾ بيان للموصول وهو فى معنى الصفة وما بعده إلى جملة الشرط صفة للنبيين وقوله ﴿ مِنْ ذُرِّيَّةِ آدَمَ ﴾ بدل بإعادة الجار أو من تبعيضية لأن ذريته أعم من الأنبياء والكل داخلون فى المنعم عليهم لأنهم أعم من الأنبياء وأخص من الذرية ، أى إدريس عليه السلام ﴿ وَمِمَّنْ حَمَلْنَا مَعَ نُوحٍ ﴾ أى ومن ذرية من حملنا مع نوح فى السفينة يعنى إبراهيم ابن ابنه سام ﴿ وَمِنْ ذُرِّيَّةِ إِبْرَاهِيمَ ﴾ أى الباقون إسماعيل وإسحاق ويعقوب ﴿ وَ ﴾ من ذرية ﴿ إِسْرَائِيلَ ﴾ وهو يعقوب أى موسى وهرون وزكرياء ويحيى وعيسى ، وفيه دليل على أن أولاد البنات من الذرية لأن مريم من ذرية إسرائيل فأولاد فاطمة ذرية رسول الله صلى الله عليه وسلم . وإنما ذكر أنسابهم دلالة على أنهم حازوا فضيلة الحسب والنسب وقدم الحسب لأن من أبطأ به عمله لم يسرع به نسبه ﴿ وَمِمَّنْ هَدَيْنَا وَاجْتَبَيْنَا ﴾ أى من جملتهم زيادة مدح لهم كما تقول زيد من أولاد الأمراء وهو من الصالحين أى هم من جملة من هديناهم إلى الحق واجتبيناهم بالنبوة والكرامة وخبر أولئك على الأول ﴿ إِذَا تُتْلَى عَلَيْهِمْ آيَاتُ الرَّحْمَنِ خَرُّوا سُجَّدًا ﴾ حال مقدرة لأن الخرور قبل السجود ﴿ وَبُكِيًّا ﴾ جمع ساجد وباك أى فكونوا مثلهم وعلى الثانى فجملة إذا تتلى استئناف لبيان اجتبائهم وخشيتهم من الله مع علو درجتهم بالحسب الفاخر والنسب الزاهر . وفى الحديث «إذا تلوتم القرآن فابكوا فإن لم تجدوا البكاء فتباكوا» وقرأ عمر سورة مريم فسجد ثم قال هذا السجود فأين البكى . أى البكاء أو الباكون ، وأصل بكى بكوى قلبت الواو ياء والضمة كسرة وقرأ حمزة والكسائى بكسر الباء إتباعا ﴿ فَخَلَفَ مِنْ بَعْدِهِمْ خَلْفٌ ﴾ عقب سوء يقال خلف صدق بالفتح وخلف سوء بالسكون والمراد بنو إسرائيل من اليهود والنصارى أو أعم فيشمل المشركين من بنى إسماعيل

وغيرهم ﴿أَضَاعُوا الصَّلَوٰةَ﴾ بتركها أو بتأخيرها عن وقتها أو بنقص شيء من أبعاضها كالخشوع ﴿وَاتَّبَعُوا الشَّهَوَاتِ﴾ من المعاصي وغيرها وعن على رضى الله عنه بنوا المشيد وركبوا المنظور ولبسوا المشهور ﴿فَسَوْفَ يَلْقَوْنَ غَيًّا﴾ أى شرا أو جزاء غيّ وقيل واد فى جهنم يقعون فيه تستعيذ منه أوديتها ﴿إِلَّا مَنْ تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا فَأُولَـٰئِكَ يَدْخُلُونَ﴾ بالبناء للفاعل للجمهور والمفعول لابن كثير وأبى عمرو ﴿الْجَنَّةَ وَلَا يُظْلَمُونَ﴾ لا ينقصون ﴿شَيْئًا﴾ أدنى شيء من ثوابهم فإن كان الاستثناء متصلا فإنه يدل على أن ماقبله فى الكفر وإن كان منقطعا فهو بمعنى لكن ﴿جَنَّاتِ عَدْنٍ﴾ إقامة بدل من الجنة وعدن علم للعدن بمعنى الإقامة كأمس وسحر للوقتين، قال فى غاية الأمانى: ولولا ذلك لم يقع جنات المضاف إليه بدلا من الجنة لأن النكرة لا تبدل من المعرفة ولم يوصف بالموصول فى قوله ﴿الَّتِي وَعَدَ الرَّحْمَـٰنُ عِبَادَهُ﴾ أى وعدها إياهم ﴿بِالْغَيْبِ﴾ حال أى غائبين عنها أو غائبة عنهم ﴿إِنَّهُ كَانَ وَعْدُهُ﴾ الذى هو الجنة بمعنى الموعود ﴿مَأْتِيًّا﴾ يأتيها أهلها أو الوعد كان آتيا فكل شيء أتيته فقد أتاك وأصله مأتوى فقلبت الواو ياء والضمة كسرة ﴿لَا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا﴾ ماحقه أن يلغى من فضول الكلام والباطل كاليمين الكاذبة ﴿إِلَّا﴾ لكن يسمعون ﴿سَلَامًا﴾ من الملائكة عليهم أو من بعضهم على بعض أو يسمعون قولا يسلمون فيه من العيب فالاستثناء منقطع ويجوز أن يكون متصلا أى إلا سلاما إن كان يعد لغوا كقوله: ولا عيبَ فيهم غيرَ أن سيوفَهم ٭ بهن فلولٌ من قراعِ الكتائبِ

﴿وَلَهُمْ رِزْقُهُمْ فِيهَا بُكْرَةً وَعَشِيًّا﴾ التوسط بين الزهادة والرغابة إذ ليس فى الجنة ليل ولا نهار يعرف به البكرة والعشى بل ضوء ونور أبدا، وقيل يعرفون وقت النهار برفع الحجب والليل بإرخائها وقيل المراد بهما دوام الرزق كقولك أنا عند فلان صباحا ومساء تريد اتصال الصحبة ﴿تِلْكَ الْجَنَّةُ الَّتِي نُورِثُ﴾ نعطى وننزل ﴿مِنْ عِبَادِنَا مَنْ كَانَ تَقِيًّا﴾ متقيا من الشرك لقوله «ويغفر مادون ذلك» وحديث «من قال لا إله إلا الله دخل الجنة» عبر عن الإدخال بالإيراث لأن الإرث ملك لازم لا يمكن رده وقيل لأنهم يرثون من الكفار منازلهم المعدة لهم لو آمنوا. ولما تأخر الوحى أياما وقال النبى صلى الله عليه وسلم لجبريل: ما يمنعك أن تزورنا أكثر مما تزورنا؟ فقال إنى مشوق إليك لكنى عبد مأمور لا أنزل إلا بأمر، نزل تصديقا له ﴿وَمَا نَتَنَزَّلُ﴾ وقتا بعد وقت لأن التنزل النزول على مهل ﴿إِلَّا بِأَمْرِ رَبِّكَ﴾ على ما يقتضيه حكمته ﴿لَهُ مَا بَيْنَ أَيْدِينَا﴾ من الأزمان والأماكن ﴿وَمَا خَلْفَنَا وَمَا بَيْنَ ذَٰلِكَ﴾ فلا ننتقل إلى مكان ولا ننزل فى زمان دون آخر إلا بأمره ومشيئته ﴿وَمَا كَانَ رَبُّكَ نَسِيًّا﴾ ناسيا لك أى تاركا لك بتأخر الوحى عنك: ردّ لقول المشركين إن ربه ودعه وقيل قوله وما نتنزل حكاية قول المتقين حين يدخلون الجنة، والمعنى وما نتنزل الجنة إلا بأمر الله ولطفه وهو مالك الأمور كلها السالفة والمترقبة والحاضرة مما وجدناه وما نجده من لطفه وفضله وما كان ناسيا لأعمال عباده وما وعد لهم من الثواب عليها، هو ﴿رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا﴾ بيان لامتناع النسيان عليه وهو خبر محذوف أو بدل من

ربك ، وفى إيثار الرب على سائر الأسماء الحسنى إشارة إلى أن ذلك التأخر تربية للنبى وتكميل له وتحته فوائد ﴿ فَاعْبُدْهُ وَاصْطَبِرْ لِعِبَادَتِهِ ﴾ آصبر عليها وعلى أذى تسمعه من الكفار تسلية له عليه السلام وعدى باللام تشبيها للعبادة لشدتها بالقرن كما يقال اصبر لقرنك أو اصبر على الشدائد لأجل العبادة أى لتتمكن من الإتيان بها ﴿ هَلْ تَعْلَمُ لَهُ سَمِيًّا ﴾ شبيها يستحق العبادة أو مسمى بذلك الاسم فإن المشركين وإن سموا الصنم إلها لم يسموه الله قط وذلك لظهور أحديته وكأن ذلك الاسم انعكس إليه أشعة التوحيد فكلت أعين المشركين عن الحوم حوله وهذا تقرير للأمر إذا صح أن لا أحد مثله ولا يستحق العبادة غيره وجب التسليم لأمره والاشتغال بعبادته والاصطبار على مشاقها ﴿ وَيَقُولُ الْإِنْسَانُ ﴾ المنكر للبعث واللام للعهد وهو العاصى بن وائل أو الجنس لوقوع الفعل بينهم كما يقال بنو زيد قتلوا عمراً وقيل هو أبى بن خلف أخذ عظماً باليا ففتها وقال لمحمد صلى الله عليه وسلم أترى ربك يحيى هذا ﴿ أَئِذَا مَا مِتُّ لَسَوْفَ أُخْرَجُ حَيًّا ﴾ من القبر كما يقول محمد ، والاستفهام بمعنى النفى وما زائدة للتأكيد وكذا اللام وقدم الظرف وأولى حرف الإنكار لأن المنكر كون ما بعد الموت وقت الحياة وانتصابه بفعل دل عليه أخرج لا به لأن ما بعد اللام لا يعمل فيما قبلها ورواية ابن ذكوان بهمزة واحدة مكسورة على الخبر ﴿ أَوَلَا يَذْكُرُ ﴾ بسكون الذال وضم الكاف من الذكر لنافع وابن عامر وعاصم وبالتشديد للباقين أصله يتذكر أبدلت التاء ذالا وأدغمت فى الذال ﴿ الْإِنْسَانُ أَنَّا خَلَقْنَاهُ مِنْ قَبْلُ وَلَمْ يَكُ شَيْئًا ﴾ ويذكر عطف على يقول ولو تذكر لاستدل بالابتداء على الإعادة ﴿ فَوَرَبِّكَ لَنَحْشُرَنَّهُمْ ﴾ المنكرين للبعث أقسم بنفسه على تحقيق البعث بعد إقامة البرهان توكيداً لوقوعه وأضافة إلى نبيه تشريفا له وفى إيثار الرب إشارة إلى أن فى الحشر إيصالا له إلى كمال المتوقع وهو المقام المحمود ﴿ وَالشَّيَاطِينَ ﴾ عطف أو مفعول معه وهو أبلغ لما فى الحديث أنهم يحشرون مقرنين فى الأصفاد مع الشياطين مشاة على وجوههم يقرن كل مع شيطانه فى سلسلة ، والضمائر للكفار أو للأناسى عموما لأنهم إذا حشروا وفيهم الكفرة مقرنين فقد حشروا جميعا كذلك فى الاسم والأول أظهر ﴿ ثُمَّ لَنُحْضِرَنَّهُمْ حَوْلَ جَهَنَّمَ ﴾ من خارجها ﴿ جِثِيًّا ﴾ على الركب لهول المطلع وهذا فى الكفار أو الناس جميعا ليرى السعداء ما نجاهم الله منه وأهل الموقف جاثون لقوله تعالى « وترى كل أمة جاثية » والجثو : جلوس الخائف الذليل كالأسير وقرأ حمزة والكسائى بكسر الجيم وأصله جثوو أو جثوى من جثى يجثو ويجثى لغتان ﴿ ثُمَّ لَنَنْزِعَنَّ ﴾ لنأخذن ونخرجن ﴿ مِنْ كُلِّ شِيعَةٍ ﴾ فرقة متفقة على المذهب منهم ﴿ أَيُّهُمْ أَشَدُّ عَلَى الرَّحْمَنِ عِتِيًّا ﴾ جرأة وفجورا فنطرحهم فيها على الترتيب أعتاهم فأعتاهم كرئيسهم إلى أن يحاط بهم وأيهم مبنى على الضم عند سيبويه لأن حقه أن يبنى كسائر الموصولات لكنه أعرب لزوم الإضافة فإذا حذف صدر صلته زاد نقصه فعاد إلى حقه منصوب المحل بننزعن وعند الخليل مرفوع بالابتداء على أنه استفهامى وخبره أشد والجملة محكية أى من كل شيعة الذين يقال فيهم أيهم أشد وعن يونس معلق عنها لننزعن لتضمنه معنى التمييز

لأن النزع سبب التمييز اللازم للعلم لأنه سبب عنه فأجري مجراه والظاهر ماذهب إليه سيبويه ﴿ ثُمَّ لَنَحْنُ أَعْلَمُ بِالَّذِينَ هُمْ أَوْلَى بِهَا ﴾ أحق بجهنم الأشد وغيره منهم ﴿ صِلِيًّا ﴾ دخولا واحتراقا فنبدأ بهم وأصله صلوى من صلى بكسر اللام وفتحها وقرأ حمزة والكسائى وحفص بكسر الصاد ﴿ وَإِنْ مِنْكُمْ ﴾ ما منكم أحد ﴿ إِلَّا وَارِدُهَا ﴾ داخل جهنم بمروره على الصراط أو حاضرها إذ الورود لغة يكون بمعنى الحضور كما فى قوله تعالى ولما ورد ماء مدين إذ لم يدخل الماء فإن كان الضمير للكفار فظاهر وإن كان عاما فائدة ذكره بعد قوله لنحضرنهم المبالغة فى الإنذار ولذا غير الأسلوب من الغيبة إلى الخطاب لأن المكافحة بالوعيد أشد زجرا ثم بالغ فى التوكيد بقوله ﴿ كَانَ عَلَى رَبِّكَ حَتْمًا ﴾ واجبا أوجبه على نفسه ﴿ مَقْضِيًّا ﴾ حكم فى الأزل لا يمكن تبديله والأصح الذى عليه أكثر أهل السنة أن الناس جميعا يدخلون النار ثم يخرج الله منها المؤمنين من غير ضرر بل تكون عليهم بردا وسلاما كما قال ﴿ ثُمَّ نُنَجِّى الَّذِينَ اتَّقَوْا ﴾ الشرك والكفر منها بتشديد ننجى للجمهور وتخفيفه للكسائى أى ننجيهم منها فيساقون إلى الجنة ﴿ وَنَذَرُ الظَّالِمِينَ ﴾ بالكفر ﴿ فِيهَا جِثِيًّا ﴾ على الركب كما كانوا حولها إذ تنهار بهم على هيئاتهم ﴿ وَإِذَا تُتْلَى عَلَيْهِمْ ﴾ أى المؤمنين والكافرين ﴿ آيَاتُنَا ﴾ من القرآن ﴿ بَيِّنَاتٍ ﴾ واضحات حال مؤكدة لأن آيات الله لا تكون إلا بينات ﴿ قَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا ﴾ وقد رجلوا شعورهم ودهنوا رؤسهم ولبسوا أفخر ثيابهم ﴿ لِلَّذِينَ آمَنُوا ﴾ أى لأجلهم أو معهم مواجهة وقد كانت فيهم قشافة وفى عيشهم خشونة وفى ثيابهم رثاثة ﴿ أَىُّ الْفَرِيقَيْنِ ﴾ نحن وأنتم ﴿ خَيْرٌ مَقَامًا ﴾ منزلا ومسكنا بالفتح للجمهور من قام، وبالضم لابن كثير، من أقام: أى موضع قيام أو إقامة ﴿ وَأَحْسَنُ نَدِيًّا ﴾ بمعنى النادى وهو مجتمع القوم يتحدثون فيه يعنون نحن فنكون خيرا منكم والمعنى أنهم إذا سمعوا الآيات وعجزوا عن معارضتها أخذوا فيما لامساس له بالمقام وهو الافتخار بما لهم من حظوظ الدنيا والاستدلال على أن زيادة حظهم فيها يدل على فضلهم وحسن حالهم عند الله تعالى فرد عليهم ذلك مع التهديد بقوله ﴿ وَكَمْ ﴾ أى كثيرا ﴿ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُمْ مِنْ قَرْنٍ ﴾ أمة من الأمم الماضية وكم مفعول أهلكنا ومن بيان لإبهامها وكل أهل عصر قرن لمن بعدهم لأنهم يتقدمونهم كقرن الشىء وهو أعلاه ﴿ هُمْ أَحْسَنُ أَثَاثًا ﴾ مالا أو ماجد من متاع البيت صفة لكم وأثاثا تميز عن النسبة ﴿ وَرِئْيًا ﴾ بالهمز للجمهور منظرا حسنا فعل بمعنى المفعول كالذبح وبإبدالها ياء مع الإدغام لقالون وابن ذكوان بمعنى الأول أو هو من رويت من الماء استعير لحسن المنظر والتنعم فكما أهلكناهم للكفر نهلك هؤلاء ﴿ قُلْ مَنْ كَانَ فِى الضَّلَالَةِ ﴾ بقصر نظره على الفانى واعتزازه به وهو شرط جوابه ﴿ فَلْيَمْدُدْ ﴾ بمعنى الخبر أى يمد ﴿ لَهُ الرَّحْمَنُ ﴾ فى العمر ﴿ مَدًّا ﴾ يستدرجه لئلا يبقى له يوم القيامة عذر حين يقال « أولم نعمركم مايتذكر فيه من تذكر وجاءكم النذير » وإنما أخرج الخبر فى صورة الأمر الدال على الوجوب مبالغة فى المد وقطع العذر، ويحتمل أن يكون دعاء كقوله تعالى « ربنا ليضلوا

عن سبيلك » ﴿ حَتَّىٰ إِذَا رَأَوْا مَا يُوعَدُونَ ﴾ غاية لمد العمر أو لقولهم « أى الفريقين خير » أى يستمر بهم ذلك القول والافتخار إلى أن يروا مايوعدون ﴿ إِمَّا الْعَذَابَ ﴾ فى الدنيا بالقتل والأسر ﴿ وَإِمَّا السَّاعَةَ ﴾ المشتملة على جهنم فيدخلونها بدل ما يوعدون لتفصيل الموعود به والإتيان اعتراض على الثانى للإيقاظ وتوكيد الوعيد وحتى هى تحكى الجمل بعدها ولذلك وقعت الشرطية بعدها وجوابها قوله ﴿ فَسَيَعْلَمُونَ مَنْ هُوَ شَرٌّ مَكَانًا وَأَضْعَفُ جُنْدًا ﴾ هم أم المؤمنون ، وجندهم الشياطين ، وجنود المؤمنين عليهم الملائكة ، أى سيعلمون ذلك عند غلبة المسلمين أو عند انكشاف الغطاء فى القيامة حين يوقنون أن الأمر على عكس ما يقدرونه وأنهم شر مكاناً وأضعف ناصراً . وذكر الجند دل على أن المراد بالندى الجماعة . ولما بين الله تعالى أن إمهال الكافر وتمتيعه بالدنيا ليس لفضله ، بين أن ضد ذلك فى المؤمن ليس لنقصه بل لخير أزاد به عوضه بقوله ﴿ وَيَزِيدُ اللَّهُ الَّذِينَ اهْتَدَوْا ﴾ بالإيمان ﴿ هُدًى ﴾ بما ينزل عليهم من الآيات فيزدادون إيقاناً مع إيقانهم عطف على قوله « فليمدد » لأنه خبر فى المعنى كأنه قيل من كان فى الضلالة يزيده الله ضلالة ويزيد مقابله هدى ، والأولى عطف على من كان ليكون ذكر المقابل محكياً بالقول أصالة ﴿ وَ ﴾ الأعمال ﴿ الْبَاقِيَاتُ ﴾ لصاحبها ﴿ الصَّالِحَاتُ ﴾ وهى الإيمان وسائر الطاعات كالصلوات الخمس وسبحان الله والحمد لله ولا إله إلا الله والله أكبر ﴿ خَيْرٌ عِنْدَ رَبِّكَ ثَوَابًا ﴾ مما متع به الكفرة ﴿ وَخَيْرٌ مَرَدًّا ﴾ ما يرد إليه ويرجع أو مرداً نفعاً مصدر رد نفع ، يقال هذا الأمر أرد له أى أنفع قاله فى غاية الأمانى . واسم التفضيل أريد به مطلق الزيادة أو الخيرية لمقابلة قولهم « أى الفريقين خير مقاما » ولما قص الله أخبار الكفار فى عقائدهم وما يؤولون إليه أتبعها بخبر هذا الكافر مخصصاً له لكونه أعجب لوروده على وجه الاستهزاء بقوله ﴿ أَفَرَأَيْتَ الَّذِي كَفَرَ بِآيَاتِنَا ﴾ وهو العاصى بن وائل السهمى ﴿ وَقَالَ ﴾ لخباب بن الأرت وكان قيناً فى الجاهلية وله على العاصى دين فجاء يتقاضاه . فقال : لا أعطيك حتى تكفر بمحمد فقال : لا أكفر به حتى يميتك الله ويبعثك ، فقال : إنى لمبعوث دعنى حتى أحيى فسأوتى مالا وولداً فأقضيك كما حكى عنه سبحانه بقوله ﴿ لَأُوتَيَنَّ ﴾ على تقدير البعث ﴿ مَالًا وَوَلَدًا ﴾ فأقضيك ، وقرأ حمزة والكسائى بضم الواو وسكون اللام ، وعبر بالرؤية عن الإخبار لأن مشاهدة الأشياء أقوى طرق الإحاطة بها علماً إذ المعنى أخبر بقصة هذا الكافر بعد حديث أولئك ﴿ أَطَّلَعَ الْغَيْبَ ﴾ المخصوص بعلام الغيوب ، استغنى بهمزة الاستفهام عن همزة الوصل فحذفت أى أعلمه وأنه يؤتى ما قاله ﴿ أَمِ اتَّخَذَ عِنْدَ الرَّحْمَٰنِ عَهْدًا ﴾ بذلك فإنه لا يتوصل إلى العلم به إلا بأحد هذين الطريقين ، وقيل العهد كلمة الشهادة والعمل الصالح فإن وعد الله بالثواب عليهما كالعهد عليه ﴿ كَلَّا ﴾ ردع له وتنبيه على أنه مخطئ فيما يعتقده ﴿ سَنَكْتُبُ ﴾ نأمر بكتب أو السين للتأكيد أى كتبنا أو سنظهر له أنا كتبنا قوله فإن نفس الكتب لا يتأخر عن القول ﴿ مَا يَقُولُ وَنَمُدُّ لَهُ مِنَ الْعَذَابِ مَدًّا ﴾ نزيده بذلك عذاباً فوق عذاب كفره ﴿ وَنَرِثُهُ ﴾ بموته ﴿ مَا يَقُولُ ﴾ من المال والولد ﴿ وَيَأْتِينَا ﴾

يوم القيامة ﴿ فَرْداً ﴾ لا مال له ولا ولد ليس له شيء كان له فى الدنيا فضلا عن أن يؤتى ثم زائداً ﴿ وَاتَّخَذُوا ﴾ أى الكفار ﴿ مِنْ دُونِ اللهِ ﴾ الأوثان ﴿ آلِهَةً ﴾ يعبدونهم ﴿ لِيَكُونُوا لَهُمْ عِزًّا ﴾ ليتعززوا بهم بأن يكونوا لهم وصلة إلى الله وشفعاء عنده إن صح البعث لكنهم مشركون ﴿ كَلَّا ﴾ ردع وتكذيب لمقالتهم أى لا مانع من عذابهم ﴿ سَيَكْفُرُونَ ﴾ أى الآلهة ﴿ بِعِبَادَتِهِمْ ﴾ أى ينفونها بقولهم ما كانوا إيانا يعبدون أو المشركون ينكرون عبادتهم « والله ربنا ما كنا مشركين » ﴿ وَيَكُونُونَ عَلَيْهِمْ ضِدًّا ﴾ أى ضد العز أى ذلا تعكيساً لرجائهم أو أعواناً عليهم فى العذاب توقد بهم النار عليهم ، وهذا على التأويل الأول وعلى الثانى فالمعنى يكونون كافرين بهم بعد أن كانوا يعبدونهم ، وتوحيد « ضد » لوحدة المعنى الذى به مضادتهم فإنهم بذلك كالشىء الواحد نظير قوله عليه السلام فى المؤمنين «وهم يد على من سواهم» ﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّا أَرْسَلْنَا الشَّيَاطِينَ ﴾ سلطناهم ﴿ عَلَى الْكَافِرِينَ ﴾ بما تقدم فى « واستفزز من استطعت منهم .. الآية » ﴿ تَؤُزُّهُمْ ﴾ تهيجهم وتزعجهم إلى المعاصى ﴿ أَزًّا ﴾ تحريكا وتشييلا ، من أز النار أوقدها أو أز الشىء حركه شديداً ، وقيل تأزهم تدفعهم بتسويلات وتحبيب الشهوات بعد وضوح الآيات ﴿ فَلَا تَعْجَلْ عَلَيْهِمْ ﴾ بالهلاك لتستريح ﴿ إِنَّمَا نَعُدُّ لَهُمْ ﴾ الأيام والليالى والأنفاس ﴿ عَدًّا ﴾ إلى وقت عذابهم فعن قريب تنقضى ، اذكر ﴿ يَوْمَ نَحْشُرُ الْمُتَّقِينَ ﴾ بإيمانهم ﴿ إِلَى الرَّحْمَنِ ﴾ الذى غمرهم بالبر والإحسان ﴿ وَفْدًا ﴾ جمع وافد وهو الوارد على الملوك بالرسالة المنتظر لعطاياهم ، أى وافدين عليه منتظرين لكرامته وإنعامه ، قال أكثر المفسرين معناه ركباناً إذ الركوب عادة الوفود ، قال ابن عطية : وظاهر هذه الوفادة أنها بعد انقضاء الحساب وهى النهوض إلى الجنة وكذا سوق المجرمين إنما هو لدخول النار . اهـ . قال فى الجواهر : روى أنهم يركبون على النوق وعلى تماثيل من أعمالهم الصالحة . وروى أن كل أحد يركب ما أحب فمنهم من يركب الإبل ومنهم من يركب الخيل ، وقد ورد فى الضحايا أنها مطاياكم إلى الجنة . وأكثر هذه الأحاديث فيه ضعف من جهة الإسناد . اهـ . ﴿ وَنَسُوقُ الْمُجْرِمِينَ ﴾ الكفار والعصاة كما تساق البهائم ﴿ إِلَى جَهَنَّمَ وِرْدًا ﴾ جمع وارد بمعنى ماش عطشان لأن من يرد الماء لا يرده إلا لعطش أو كالدواب التى ترد الماء ﴿ لَا يَمْلِكُونَ ﴾ أى الناس الشامل للفريقين أو المجرمون الشامل للكفار والعصاة ﴿ الشَّفَاعَةَ إِلَّا مَنِ اتَّخَذَ عِنْدَ الرَّحْمَنِ عَهْدًا ﴾ بالإيمان والعمل الصالح أو إذنا من عهد إليه بكذا أذن له فيه ومحل من رفع على البدل من الضمير أو نصب على تقدير مضاف أى إلا شفاعة من اتخذ أو على الاستثناء وهو متصل إن كان ضمير يملكون للناس أو للمجرمين على إرادة الكفار والعصاة أو للمتقين على معنى إلا من كان له منهم عمل صالح يستحق به الشفاعة ، ويجوز حينئذ أن يراد به نبينا صلى الله عليه وسلم ويراد بالشفاعة الكبرى الخاصة به أو منقطع إن أريد المجرمون بالكفار فقط والله أعلم ﴿ وَقَالُوا ﴾ أى المجرمون أو الناس لأنه لما كان مقولا لأبيهم جاز أن ينسب إليهم والمراد القائلون الملائكة بنات الله ﴿ اتَّخَذَ الرَّحْمَنُ وَلَدًا ﴾ بفتح الواو واللام للجمهور

والحمزة والكسائى بضم الواو وسكون اللام لغتان كما تقدم ، قال تعالى لهم ﴿ لَقَدْ جِئْتُمْ شَيْئاً إِدًّا ﴾ منكراً عظيما من آدنى الأمر وأدنى أثقلنى وعمنى والتفت إلى الخطاب للمبالغة فى الذم ﴿ يكادُ ﴾ بالياء لنافع والكسائى وبالتاء للباقين ﴿ السَّمٰوٰتُ يَتَفَطَّرْنَ ﴾ بالتاء بعد الياء وتشديد الطاء لنافع وابن كثير والكسائى وحفص : يتشققن مرة بعد أخرى . وبالنون من الانفطار للباقين ﴿ مِنْهُ ﴾ من ذلك القول فتسقط عليهم ﴿ وَتَنْشَقُّ الْأَرْضُ ﴾ فتخسف بهم ﴿ وَتَخِرُّ الْجِبَالُ ﴾ تنهدم وتهد أى تكسر ﴿ هَدًّا ﴾ أى تهد هداً أو مهدودة فتنطبق عليهم ، وكل هذا تقرير لقوله « إدًّا » ﴿ أَنْ دَعَوْا ﴾ من أجل دعواهم ﴿ لِلرَّحْمٰنِ وَلَداً ﴾ قال ابن عباس فزعت السموات والأرض والجبال وجميع الخلائق إلا الثقلين وكادت أن تزول وغضبت الملائكة وأسعرت جهنم حين قالوا ذلك . قال محمد بن كعب : كاد أعداء الله أن يقيموا علينا الساعة و «أن دعوا» مجرور بدل من الهاء فى « منه » أو منصوب بحذف الجار وإفضاء الفعل إليه علة ليكاد أو لتخروا أو لهذا والدعاء بمعنى التسمية أو النسبة من الدعوة ﴿ وَمَا يَنْبَغِى لِلرَّحْمٰنِ أَنْ يَتَّخِذَ وَلَداً ﴾ لا يليق به لاستحالته باقتضاء المجانسة إن أريد التولد أو الحاجة إن أريد التبنى ، وفى إيثار لفظ الرحمن إشارة إلى أن بقاءهم مع تلك المقالة بمقتضى تلك الرحمانية . ثم قرر ذلك وبيّنه بقوله ﴿ إِنْ ﴾ ما ﴿ كُلُّ مَنْ فِى السَّمٰوٰتِ وَالْأَرْضِ إِلَّا آتِى الرَّحْمٰنِ عَبْداً ﴾ ذليلا خاضعاً يوم القيامة منهم الملائكة وعزير وعيسى والعبودية تنافى الولدية ﴿ لَقَدْ أَحْصَاهُمْ ﴾ حصرهم وأحاط بهم وضبطهم بحيث لا يخرجون عن علمه وقدرته ﴿ وَعَدَّهُمْ عَدًّا ﴾ عد أشخاصهم وأنفاسهم وأفعالهم فلا يخفى عليه أحد منهم : وكل شىء عنده بمقدار ﴿ وَكُلُّهُمْ آتِيهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَرْداً ﴾ منفرداً بلا مال ولا نصير يمنعه ﴿ إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَيَجْعَلُ لَهُمُ الرَّحْمٰنُ وُدًّا ﴾ فيما بينهم يتحابون ويحبهم الله تعالى بخلاف الكفار « تحسبهم جميعاً وقلوبهم شتى » أو يحدث الله لهم فى قلوب عباده محبة من غير تعرض منهم لأسبابها . وفى البخارى عن أبى هريرة عن النبى صلى الله عليه وسلم « إن الله إذا أحب عبداً ينادى جبريل إنى أحب فلاناً فأحبه فيحبه جبريل ثم ينادى جبريل أهل السماء إن الله يحب فلاناً فأحبوه فيحبه أهل السماء ثم يوضع له القبول فى الأرض ..الحديث» وهو فى الموطأ وغيره أيضاً . والسين للتأكيد أو لأن السورة مكية فوعد المؤمنون ذلك بعد عزة الإسلام ﴿ فَإِنَّمَا يَسَّرْنَاهُ ﴾ أى القرآن ﴿ بِلِسَانِكَ ﴾ العربى ، كلام مستأنف أشار به إلى عظم موقع هذه السورة لما فيها من براهين التوحيد والرد على فرق الضالين وبيان دلائل النبوة وأن القرآن كلامه إنما يتلى بتيسير منه رحمة منه فانتظم آخر السورة بأولها والباء بمعنى على أو ضمن التيسير معنى الإنزال ﴿ لِتُبَشِّرَ بِهِ الْمُتَّقِينَ ﴾ بحشرهم إلى الرحمن وفدا ﴿ وَتُنْذِرَ ﴾ تخوف ﴿ بِهِ قَوْماً لُدًّا ﴾ جمع ألد جدل بالباطل وهم الكفار بسوق المجرمين إلى جهنم وردا ﴿ وَكَمْ ﴾ كثيرين ﴿ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُمْ مِنْ قَرْنٍ ﴾ أى أمة من الأمم الماضية بتكذيبهم الرسل ترهيب للكفرة وتشجيع له صلى الله عليه وسلم على التبليغ وإنذارهم ﴿ هَلْ تُحِسُّ ﴾ ترى أو تجد ﴿ مِنْهُمْ مِنْ أَحَدٍ

أَوْ تَسْمَعُ لَهُمْ رِكْزًا ﴾ صوتاً خفيا فضلا عن القوى لا ! فكما أهلكناهم نهلك هؤلاء ، وأصل الركز الخفاء ومنه ركز الرمح إذا غيب طرفه فى الأرض والركاز المال المدفون وإنما علق الرؤية بأحد منهم والسمع بهم مبالغة لأن انتفاء الرؤية عن أحد يستلزم انتفاءها عن الكل والسماع بالعكس والله أعلم بأسرار كتابه .

[تم تفسير سورة مريم]

سورة طه

مكية ـ مائة وخمس وثلاثون أو أربعون آية

﴿ بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ * طه ﴾ الله أعلم بمراده بذلك ، فخم الطاء وحده ورش وأبو عمرو وفخمهما قالون وابن كثير وابن عامر وحفص وأمالهما الباقون ويقصر الطاء ويمد الهاء ﴿ مَا أَنْزَلْنَا عَلَيْكَ الْقُرْآنَ ﴾ يا محمد ﴿ لِتَشْقَىٰ ﴾ لتتعب التعب المفرط الخارج عن حد الاعتدال ، كما فعلت بعد نزوله من طول قيامك بصلاة الليل ، أى خفف عن نفسك أو لتتعب بفرط تأسفك على كفر قريش فما عليك إلا التبليغ ، أو بكثرة الرياضة والعبادة ، فهو رد وتكذيب للكفار فى قولهم لما رأوا كثرة عبادته إنك لتشقى بترك ديننا وإنما أنزل عليك القرآن لتشقى به ﴿ إِلَّا تَذْكِرَةً ﴾ أى لكن أنزلناه تذكرة به ﴿ لِمَنْ يَخْشَىٰ ﴾ الله إذ هو الذى يتأثر به وانتصب تذكرة على الاستثناء المنقطع ولا يجوز أن يكون بدلا من محل «لتشقى» لاختلاف الجنسين . ولا مفعولا له لأنزلنا لأن الفعل الواحد لا يتعدى إلى علتين ، وقيل هى مصدر فى موضع الحال من الكاف أو القرآن أى لا مذكراً أو مفعول له على أن لتشقى متعلق بمحذوف هو صفة لقرآن أى ما أنزلنا عليك القرآن المنزل لتتعب بتبليغه إلا تذكرة فلا يكون الشقاء حينئذ منفياً كقولك ماضربت ابنى للتأديب إلا إشفاقا ﴿ تَنْزِيلًا ﴾ نصب بإضمار فعله أو ليخشى ﴿ مِمَّنْ خَلَقَ الْأَرْضَ وَالسَّمَاوَاتِ الْعُلَىٰ ﴾ جمع عليا كالكبرى وكبر وهذا وما بعده صفات سيقت لتفخيم شأن المنزل بعرض تعظيم المنزل بذكر أفعاله وصفاته على الترتيب الذى هو عند الفعل فبدأ بخلق الأرض والسموات التى هى أصول العالم وقدم الأرض لأنها أقرب إلى الحس ثم وصف السموات بالعلو جبراً لما فاتها من شرف السبق والتفت من التكلم إلى الغيبة لأن هذه الصفات إنما يتأتى سردها مع لفظ الغيبة ولأنه فخم المنزل بإسناده إلى المتكلم أولا على وجه التعظيم

ثم ثنى بالإسناد إلى الموصوف بتلك الصفات فأفاد التفخيم من وجهين ، ثم أشار إلى وجه إحداث الكائنات وتدبير أمرها بأن قصد العرش فأجرى منه الأحكام والتقادير وأنزل منه الأسباب على ترتيب ومقادير حسبما اقتضته حكمته وتعلقت به مشيئته ليدل بذلك على كمال قدرته وإرادته فقال ﴿ الرَّحْمَٰنُ ﴾ رفع على المدح والجملة بعده خبر بعد خبر أو خبر مبتدإ محذوف ﴿ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَىٰ ﴾ كناية عن نفاذ التصرف وإجراء تدبير الكائنات على وفق ما اقتضته حكمته ﴿ لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا ﴾ من الأجزاء الداخلة فيها والموجودات الخارجة عنها ﴿ وَمَا تَحْتَ الثَّرَىٰ ﴾ أى فى الأرض من الموجودات التى لا يحيط بها إلا علمه الشامل ، والثرى هو التراب الندىّ لأن ما فوق الأرض يعتريه اليبس أحياناً فيثرى بالماء ، والمراد بما تحته الأرضون السبع وما فيها لأنها تحته . ولما كانت القدرة تابعة للإرادة وهى لا تنفك عن العلم أشار إلى ثبوته بأكمل طريق فقال ﴿ وَإِنْ تَجْهَرْ بِالْقَوْلِ ﴾ فى ذكر أو دعاء فالله غنىّ عن الجهر لاستواء الحالات عنده ﴿ فَإِنَّهُ يَعْلَمُ السِّرَّ وَأَخْفَى ﴾ منه وهو ما حدثت به النفس وما خطر ولم تحدث به وفيه إيماء إلى أن إخفاء الذكر والدعاء أفضل إلا فى إرادة الاقتداء به ، ثم ذيل الكلام بما يدل على استواء ما به الذكر من أسمائه مع الدلالة على تفرده بالصفات المتقدمة بقوله ﴿ اللَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ لَهُ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَىٰ ﴾ ومنها التسعة والتسعين الوارد بها الحديث فبأى اسم ذكرته فهو ذكر جميل ، والحسنى تأنيث الأحسن لدلالة الأسماء على معان هى أشرف المعانى وأفضلها ، وهذه الآيات من أول السورة إلى هنا هى سبب إسلام عمر بن الخطاب على ما يذكر أهل السير ، والسورة من أوائل ما نزل ولذا ذكر الله فيها قصة موسى ليأتم به رسول الله صلى الله عليه وسلم فى تحمل أعباء النبوة والرسالة والصبر على الشدائد فقال ﴿ وَهَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ مُوسَىٰ ﴾ الاستفهام بمعنى النفى إن كان أول ما تلى عليه من قصة موسى وإن كان قد سبق ذكرها فهو للتقرير أى قد أتاك لتأتم به . روى أن موسى لما قضى الأجل استأذن شعيباً فى زيارة أمه وأخيه بمصر فأذن له فتوجه بأهله وماله من مدين إلى مصر وكان له منها أبناء وكان لا يسير إلا بالليل مخافة أن ترى امرأته ، وقيل مخافة ملوك الشام وامرأته متم فى شهرها لا يدرى ليلا تضع أم نهاراً فلما وصل إلى وادى طوى وفيه الطور فى ليلة شاتية ذات مطر وثلج مظلمة وكانت ليلة الجمعة أخذ زوجته الطلق وقد ضل الطريق وتفرقت ماشيته ولا ماء عنده فطفق يقدح الزند فصلد وهو فى هذه الحالة ﴿ إِذْ رَأَىٰ نَارًا ﴾ من بعيد ظرف للحديث لأنه حديث أو مفعول لاذكر ﴿ فَقَالَ لِأَهْلِهِ امْكُثُوا ﴾ هنا قرأ حمزة بضم الهاء ﴿ إِنِّي آنَسْتُ ﴾ أبصرت ﴿ نَارًا ﴾ إبصاراً لا شبهة فيه وآنس يستعمل فى مظان الوحشة ﴿ لَعَلِّي آتِيكُمْ مِنْهَا بِقَبَسٍ ﴾ شعلة فى رأس فتيلة أو عود ولما كان إبصاره مستيقنا بنى الإخبار على البت والتحقيق والإتيان بالقبس متوقعاً فربما يحول دونه مانع لم يجزم به ﴿ أَوْ أَجِدُ عَلَى النَّارِ هُدًى ﴾ أى هادياً يدلنى على الطريق وكان أخطأها لظلمة الليل كما قدمنا أو هادياً يدلنى على أبواب الدين فإن أفكار الأبرار مائلة إليها فى كل ما يعن لهم ﴿ فَلَمَّا أَتَاهَا ﴾ أى النار وجدها

بيضاء تتقد فى شجرة خضراء ومعنى الاستعلاء الإشراف عليها فى مكان قريب وسمع تسبيح الملائكة حولها ﴿نُودِيَ يَٰمُوسَىٰ﴾ روى أنه لما دنا منها بعدت منه فخاف ورجع فدنت منه فازداد رعبا فألقيت عليه السكينة ثم نودى يا موسى ﴿إِنِّيٓ أَنَا رَبُّكَ﴾ بكسر الهمزة للجمهور على تأويل نودى بقيل وفتحها لابن كثير وأبى عمرو بتقدير الباء وأنا تأكيد لضمير المتكلم لتحقيق المعرفة وإماطة الشبهة التى وسوسها إبليس لعلك تسمع كلام شيطان فقال له موسى عرفت أنه كلام الله بسماعه من جميع الجهات وجميع الأعضاء . قال البيضاوى إشارة إلى أنه تلقى من ربه كلماته تلقيا روحانيا ثم تمثل ذلك الكلام لبدنه وانتقل إلى الحس المشترك فانتقش به من غير اختصاص بعضو وجهة ﴿فَٱخْلَعْ نَعْلَيْكَ﴾ تواضعا وأدبا واحتراما للبقعة كما تحترم المساجد وسائر الأماكن الشريفة كما علله بقوله ﴿إِنَّكَ بِٱلْوَادِ ٱلْمُقَدَّسِ﴾ المطهر أو المبارك ﴿طُوًى﴾ بدل أو عطف بيان بترك الصرف لنافع وابن كثير وأبى عمرو والصرف للباقين باعتبار البقعة مع العلمية واعتبار المكان وقيل نعليك المال والولد وقيل الدارين وذلك نهاية مقامات العارفين ﴿وَأَنَا ٱخْتَرْتُكَ﴾ من قومك بالنبوة وقرأ حمزة «أنا» مشددا بإدخال أن على الضمير و«اخترناك» بالنون ﴿فَٱسْتَمِعْ لِمَا يُوحَىٰٓ﴾ للذى يوحى إليك من الأحكام أو للوحى . واللام تحتمل التعلق بكل من الفعلين ﴿إِنَّنِيٓ أَنَا ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا فَٱعْبُدْنِى﴾ بدل مما يوحى أكد الكلام وجمع فيه بين العقائد والفروع اهتماما وتكميلا للقوى النظرية والعملية ودلالة على أن الوحى مقصور على تقرير التوحيد والأمر بالعبادة ﴿وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ﴾ أفردها بالذكر لأنها أفضل الأعمال بعد التوحيد والعلة التى أناط بها وهى ﴿لِذِكْرِى﴾ فيها الذى هو المقصود من شرع العبادة والذكر هو اللسانى المقرون بذكر القلب وقيل لأذكرك بالثناء عليك أو لأنى ذكرتها فى الكتب المنزلة أو لأوقات ذكرى وهى مواقيت الصلاة أو لذكر صلاتى إذا فاتتك نوما أو نسيانا ، لحديث «من نام عن صلاة أو نسيها فليصلها إذا ذكرها» ثم قرأ الآية ﴿إِنَّ ٱلسَّاعَةَ ءَاتِيَةٌ﴾ جار مجرى التعليل للأمر بأنها وقت المجازاة ﴿أَكَادُ أُخْفِيهَا﴾ أريد إخفاءها ليكونوا على حذر منها أو أبالغ فى إخفائها عن الناس فلا أخبر بالإتيان إجمالا كما لم أخبر بذلك مفصلا أو أكاد أخفيها عن نفسى مبالغة فى إخفائها حتى بنى على أمر مستحيل ولكن هذا بعيد وقرئ أخفيها بفتح الهمزة أى أظهرها ﴿لِتُجْزَىٰ﴾ متعلق بآتية أو بأخفى ﴿كُلُّ نَفْسٍۭ بِمَا تَسْعَىٰ﴾ من خير وشر وفى إيثار تسعى إشارة إلى الجد والمسارعة فى العمل ﴿فَلَا يَصُدَّنَّكَ﴾ يصرفنك ﴿عَنْهَا﴾ عن تصديق الساعة أو عن الإتيان بالصلاة ﴿مَنْ لَّا يُؤْمِنُ بِهَا﴾ بالساعة أو بالصلاة نهى للكافر أن يصد موسى عنها والمراد نهى موسى عن الانصداد عنها إطلاقا للسبب على المسبب أو العكس لأن عدم تصلبه يورث صد الكافر ﴿وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ﴾ فى الصد عنها لأن عدم إيمانه لم يستند إلى برهان بل مجرد هوى ﴿فَتَرْدَىٰ﴾ فتهلك إن انصددت عنها من ردى بالكسر هلك من الردى مقصورا ﴿وَمَا تِلْكَ﴾ مبتدأ وخبر ﴿بِيَمِينِكَ﴾ حال أى كائنة بيمينك والعامل فيه معنى الإشارة ﴿يَٰمُوسَىٰ﴾ نداء استئناس والاستفهام

للاستيقاظ والتقرير ليرتب عليها المعجزة وقد أوقفه على علم أنها عصى كما تقول لرجل وفى يده شىء تريد أن تغيره له ما بيدك ليقر بلسانه ما فى قلبه ﴿ قَالَ هِيَ عَصَايَ ﴾ وقرئ عصى على لغة هذيل وهى التى أخذها من بيت عصى الأنبياء عليهم السلام الذى كان عند شعيب حين اتفقا على الرعى وكانت عصى آدم هبط بها من الجنة وكانت من العير الذى فيه ورق الريحان أى الجسم المستطيل قاله فى الجواهر الحسان ﴿ أَتَوَكَّأُ ﴾ أعتمد ﴿ عَلَيْهَا ﴾ عند الوثوب والمشى وإذا أعييت أو وقفت على رأس القطيع ﴿ وَأَهُشُّ ﴾ أخبط ورق الشجر ﴿ بِهَا ﴾ ليسقط ﴿ عَلَى غَنَمِي ﴾ فتأكله بأن يضع المحجن فى أصل العصى ويحركه فيسقط من الشجر ما يسقط وأصل الهش الخفة واللين ﴿ وَلِيَ فِيهَا مَآرِبُ ﴾ جمع مأربة مثلث الراء : حوائج ﴿ أُخْرَى ﴾ كحمل الزاد والسقاء وطرد السباع والهوام زاد فى الجواب بيان حاجته بها إذ الأصل أن يقول عصى فأطنب لاقتضاء المقام ذلك لأن الكلام يطال مع الأحبة فكيف به والمخاطب رب العزة . قال البيضاوى : وكأنه عليه السلام فهم أن المقصود من السؤال أن يتذكر حقيقتها وما يرى من منافعها حتى إذا رآها بعد ذلك على خلاف تلك الحقيقة ووجد منها خصائص أخرى خارقة للعادة مثل أن تشتعل شعبتاها بالليل كالشمع وتصيرا دلوا عند الاستقاء وتطول طول البئر وتحارب عنه إذا ظهر عدو وينبع الماء بركزها وينضب بنزعها وتورق وتثمر إذا اشتهى ثمرة فركزها : علم أن ذلك آيات باهرة ومعجزات قاهرة أحدثها الله فيها لأجله وليست من خواصها فذكر حقيقتها ومنافعها مفصلا ومجملا على أنها من جنس العصى تنفع منافع أمثالها ليطابق جوابه الغرض الذى فهمه . اهـ . وقال فى غاية الأمانى : والحق أنه لم يقع منه إطناب ، فإنه لم يسأل عن ماهية العصى وحقيقتها بل عما فيها من الأوصاف فإذا ذكرها مستوفاة ثم أوجد الله فيها من الصفات ما يضمحل تلك الصفات بالنظر إليها ازداد طمأنينة بانضمام عين اليقين إلى علم اليقين فهو لم يستوف الصفات تفصيلا بل أجمل بقوله «ولى فيها مآرب أخرى» سالكا طريقة الأدب فى تلك الحضرة التى يحق الخضوع لها . اهـ . ﴿ قَالَ أَلْقِهَا يَا مُوسَى فَأَلْقَاهَا فَإِذَا هِيَ حَيَّةٌ تَسْعَى ﴾ على بطنها سريعاً تبتلع الشجر والحجر ، قيل لما ألقاها انقلبت حية صفراء بغلظ العصى ثم تورمت وغلظت ولذا سماها تارة بالجان وهى الرقيق من الحيات باعتبار المبتدإ وسماها أخرى ثعبانا وهى العظيمة باعتبار المنتهى وتارة باسم الجنس الشامل لهما وهو الحية وقيل لأنها كانت فى ضخامة الثعبان وجلادة الجان ﴿ قَالَ خُذْهَا وَلَا تَخَفْ ﴾ منها لأنه لما رآها تبتلع كل ما تلقى خافها وولى مدبرا ﴿ سَنُعِيدُهَا سِيرَتَهَا ﴾ أي هيئتها وحالتها ﴿ الْأُولَى ﴾ وأصلها الفعلة من السير ثم اتسع فيها فنقلت إلى المذهب والصفة يقال من طابت سريرته حمدت سيرته وانتصابه على نزع الخافض أو على بدل الاشتمال من الضمير أو على المصدر أى سنشئها عصا كما كانت تسير سيرتها الأولى أى تنتفع بها كما كنت تنتفع بها سابقا فاستقبلها موسى وهى فاغرة فاها وأدخل يده فى فمها وأخذ بلحييها فعادت عصا وتبين أن موضع الإدخال موضع مسكها بين شعبتيها وأرى ذلك السيد موسى لئلا يجزع إذا انقلبت حية لدى فرعون

﴿ وَٱضْمُمْ يَدَكَ ﴾ اليمنى بمعنى الكف ﴿ إِلَىٰ جَنَاحِكَ ﴾ جنبك الأيسر تحت العضد إلى الإبط مستعار من جناح الطائر ويقال لكل ناحيتين جناحان كجناحى العسكر ﴿ تَخْرُجْ ﴾ خلاف ما كانت عليه من الأدمة ﴿ بَيْضَاءَ مِنْ غَيْرِ سُوءٍ ﴾ عيب وقبيح كنى به عن البرص لأن الطباع تعافه وتنفر عنه أى تضىء كشعاع الشمس تغشى البصر ﴿ آيَةً أُخْرَىٰ ﴾ معجزة ثانية وهى حال من ضمير تخرج كبيضاء أو من ضميرها أو مفعول بنحو خذ أو بدل من الأولى ومن غير سوء صفة بيضاء أو حال من ضميرها ﴿ لِنُرِيَكَ ﴾ بها إذا فعلت ذلك لإظهارها ﴿ مِنْ آيَاتِنَا ﴾ الآية ﴿ الْكُبْرَىٰ ﴾ أى العظمى على رسالتك والكبرى مفعول نريك ومن آياتنا حال منها أو صفة آياتنا وإذا أراد عودها إلى حالتها الأولى ضمها إلى جناحه كما تقدم وأخرجها وكل ما تقدم لموسى نبوة ، ثم أشار إلى رسالته بقوله ﴿ ٱذْهَبْ ﴾ رسولا ﴿ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ ﴾ ومن معه بهاتين الآيتين وأدعه إلى العبادة ﴿ إِنَّهُ طَغَىٰ ﴾ جاوز الحد فى كفره وتكبره إلى ادعاء الإلهية ﴿ قَالَ ﴾ موسى لما أمره الله بخطب عظيم ﴿ رَبِّ ٱشْرَحْ لِي صَدْرِي ﴾ وسعه لتحمل الرسالة والصبر على مشاقها ﴿ وَيَسِّرْ ﴾ سهل ﴿ لِي أَمْرِي ﴾ لأبلغها بتسهيل الأسباب إلى المطلوب ورفع الموانع وفائدة لى فى الموضعين إبهام المشروح والميسر أولا ثم رفعه بذكر الصدر والأمر تأكيد أو مبالغة فى الإيضاح ﴿ وَٱحْلُلْ عُقْدَةً مِنْ لِسَانِي ﴾ حدثت من احتراقه بجمرة وضعها وهو صغير بفيه حين جربه فرعون و« من لسانى » صفة عقدة أو صلة واحلل ﴿ يَفْقَهُوا ﴾ يفهموا ﴿ قَوْلِي ﴾ عند تبليغ الرسالة فإنما يحسن التبليغ من البليغ و يفقهوا جواب الأمر والمراد باللسان القوة النطقية ﴿ وَٱجْعَلْ لِي وَزِيراً ﴾ معيناً عليها ﴿ مِنْ أَهْلِي هَارُونَ ﴾ والوزير إما من الوزر وهو الثقل لكونه يقوم بأعباء الإمارة أو من الوزر وهو الملجأ لأن الأمير يلجأ إليه فى الآراء والتدبيرات أو من الأزر وهو القوة قلبت همزته واواً لكونه بمعنى الموازرة فقيس عليه ، وهرون مفعول أول قدم عليه الثانى عناية بشأن الوزارة فإنها المطلوب أو وزيرا ولى مفعولان وهرون عطف بيان أو بدل من وزيرا ﴿ أَخِي ﴾ بدل على الوجهين من هرون أو عطف بيان آخر من وزيرا ﴿ ٱشْدُدْ بِهِ ﴾ قوّ به ﴿ أَزْرِي ﴾ ظهرى ﴿ وَأَشْرِكْهُ فِي أَمْرِي ﴾ أى الرسالة والفعلان بصيغتى الأمر للجمهور والمضارع المجزوم جوابا للأمر لابن عامر ﴿ كَيْ نُسَبِّحَكَ ﴾ تسبيحاً ﴿ كَثِيراً وَنَذْكُرَكَ ﴾ ذكراً ﴿ كَثِيراً ﴾ فإن التعاون يهيج الرغبات ويؤدى إلى تكاثر الخير وتزايده بجلب النشاط ولذا شرعت الجمع والجماعات ﴿ إِنَّكَ كُنْتَ بِنَا بَصِيراً ﴾ عالماً فأنعمت بالرسالة علىّ وإن هرون نعم المعين فإنه أكبر سناً منى وأفصح لساناً وأحلم جناناً فأرسله معى ردءاً ﴿ قَالَ قَدْ أُوتِيتَ سُؤْلَكَ ﴾ مسئولك فعل بمعنى مفعول كالخبز بمعنى المخبوز والأكل بمعنى المأكول ﴿ يَا مُوسَىٰ ﴾ منّا عليك ﴿ وَلَقَدْ مَنَنَّا عَلَيْكَ مَرَّةً أُخْرَىٰ ﴾ قبل هذه المرة وهى ﴿ إِذْ ﴾ للتعليل أو ظرف لـ« مَنَنَّا » ﴿ أَوْحَيْنَا إِلَىٰ أُمِّكَ ﴾ مناماً أو إلهاماً ، ومن زاد : أو على لسان نبىّ فى زمانها فقد أبعد إذ لم يكن بمصر زمن فرعون من يدعى النبوة ، نبه عليه فى غاية الأمانى ﴿ مَا يُوحَىٰ ﴾ فى أمرك أى ما لا يعلم إلا بالوحى

لما ولدتك وخافت أن يقتلك فرعون فى جملة من يولد على ما تقدم ﴿ أَنِ اقْذِفِيهِ ﴾ و « أن » بدل مما يوحى مصدرية بمعنى بأن اقذفيه أو تفسيرية أى لأن الوحى بمعنى القول أى ألقيه ﴿ فِي التَّابُوتِ فَاقْذِفِيهِ ﴾ وهو فى التابوت ﴿ فِي الْيَمِّ ﴾ بحر النيل ﴿ فَلْيُلْقِهِ الْيَمُّ بِالسَّاحِلِ ﴾ أى شاطئه والأمر بمعنى الخبر والضمائر كلها لموسى مراعاة للنظم إذ جعل بعضها فى التابوت ينافره ﴿ يَأْخُذْهُ عَدُوٌّ لِي وَعَدُوٌّ لَهُ ﴾ وهو فرعون جواب الأمر ولا تكرار فى « عدو » لاختلاف النسبة فالأول باعتبار الواقع والثانى باعتبار المتوقع فاتخذت تابوتاً وقيرته ثم وضعت قطناً فيه ثم وضعت موسى فيه فألقته فى اليم وكان يشرع منه نهر كبير فى دار فرعون ، فبينا فرعون جالس مع امرأته آسية بنت مزاحم على البركة إذا بتابوت يجىء به الماء فالتقطه غلامه وجاء به إليه ففتح فإذا صبى من أصبح الناس وجها فأحبه فرعون وآسية حبا شديداً كما قال تعالى ﴿ وَأَلْقَيْتُ عَلَيْكَ مَحَبَّةً مِنِّي ﴾ لتحب من الناس ما رآك أحد إلا أحبك و « منى » متعلق بمحبة نعت له أى جعلت حبك فى قلوب الناس أو متعلق بألقيت أى بأن أحببتك ومن أحببته أحبه الخلق ولا ينافيه قوله «عدوٌ لى وعدوٌ له» لأن تلك العداوة شرعية وهذه المحبة طبعية ﴿ وَلِتُصْنَعَ ﴾ تربى ﴿ عَلَى عَيْنِي ﴾ رعايتى وحفظى لك ، عطف على علة مضمرة مثل ليتعطف عليك وفيه استعارة تمثيلية بجعل عنايته بحفظه أمراً لصانع أن يتخذه بحضرته ومرآه وفى إيثار لفظ «على» إشارة إلى كمال العناية كأنه فوق عينيه لا يمكن تجاوز النظر ولا زيغ البصر عنه ﴿ إِذْ تَمْشِي أُخْتُكَ ﴾ مريم لتتعرف خبرك وقد أحضروا المراضع وأنت لم تقبل ثدى واحدة منها ، و «إذ» ظرف لتصنع أو بدل من «إذ أوحينا» على أن المراد بها وقت واسع وهو أولى لما فيه من تعداد النعم فى مقام الامتنان ولا يستقيم تعلقه بألقيت لكونه محبوباً قبله ومحفوظاً ، قاله فى غاية الأمانى معترضاً على البيضاوى . قلت : ويستقيم عندى بكون إلقاء المحبة بعد حصوله عند فرعون ورؤية الناس له إذ لم يعلم بولادته قبل ذلك غير أمه وأخته على أن المراد محبة الناس ويؤيده مافى المكمل للمحلى ، وألقيت بعد أن أخذك عليك محبة منى . والله أعلم فتأمل ﴿ فَتَقُولُ هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَى مَنْ يَكْفُلُهُ ﴾ فأجيبت فجاءت بأمه فقبل ثديها ﴿ فَرَجَعْنَاكَ إِلَى أُمِّكَ ﴾ تصديقاً لقولنا « إنا رادّوه إليك » ﴿ كَيْ تَقَرَّ عَيْنُهَا ﴾ بلقائك ﴿ وَلَا تَحْزَنَ ﴾ هى بفراقك أو أنت بفراقها ﴿ وَقَتَلْتَ نَفْسًا ﴾ هو القبطى الذى استغاثه عليه الإسرائيلى بمصر فاغتممت لقتله من جهة فرعون ﴿ فَنَجَّيْنَاكَ مِنَ الْغَمِّ ﴾ الذى اعتراك بقتله خوفاً من الله وفرعون بأن غفرنا لك وألهمناك الهجرة إلى مدين ﴿ وَفَتَنَّاكَ ﴾ ابتليناك ﴿ فُتُونًا ﴾ ابتلاء أو أنواعا من الابتلاء مصدر أو جمع فتنة أى خلصناك مرة بعد أخرى وهو إجمال لما ناله فى سفره من الهجرة عن الوطن ومفارقة الآلاف والمشى راجلا على حذر وفقد الزاد وعدم علم الطريق إلى غير ذلك ﴿ فَلَبِثْتَ سِنِينَ ﴾ عشراً ﴿ فِي أَهْلِ مَدْيَنَ ﴾ وهو على ثمانى مراحل من مصر بعد مجيئك إليها عند شعيب النبى وتزوجك بابنته صفوراء ﴿ ثُمَّ جِئْتَ عَلَى قَدَرٍ ﴾ قدرته لإرسالك أى على زمان يستتبأ فيه الأنبياء وهو أربعون سنة ﴿ يَا مُوسَى ﴾

كزره عقيب ما هو غاية الحكاية للتنبيه على ذلك ﴿ وَٱصْطَنَعْتُكَ ﴾ اخترتك ﴿ لِنَفْسِى ﴾ مثله بمن استخلصه الملك لنفسه يكل إليه أموره . وفى الجواهر: معناه جعلتك محلا للصنيعة ومقر الإجمال والإحسان . اهـ . ﴿ ٱذْهَبْ أَنْتَ وَأَخُوكَ ﴾ إلى الناس ﴿ بِآيَاتِى ﴾ بمعجزاتى التى أيدتكما بها أو بأحكامى التى أرسلتما بها ﴿ وَلَا تَنِيَا ﴾ لا تفترا ولا تقصرا ﴿ فِى ذِكْرِى ﴾ بتسبيح وغيره : لاتنسيانى ساعة فإن تمشى الأمور ليس إلا بذكرى ﴿ ٱذْهَبَا إِلَى فِرْعَوْنَ ﴾ خصه بالذكر بعد ما قدم إرسالهما مطلقا لأنه القدوة والرعايا تبع له ﴿ إِنَّهُ طَغَى ﴾ بادعائه الربوبية ، قيل أوحى إلى هرون أن يتلقى موسى فتلقاه إلى مرحلة وأخبره بما أوحى الله إليه ﴿ فَقُولَا لَهُ قَوْلًا لَيِّنًا ﴾ مثل «هل لك إلى أن تزكى وأهديك إلى ربك فتخشى » فإنه دعوة فى صورة عرض ومشورة : وعداه بعدم زوال ملكه إن أطاع والمراد لاتغلظا له أولا فإنه أدعى إلى الانقياد كما قيل للرسول صلى الله عليه وسلم «ولوكنت فظا غليظ القلب لانفضوا من حولك» قال ابن العربى فى أحكامه وفى الآية دليل على الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر باللين لمن معه قوة ﴿ لَعَلَّهُ يَتَذَكَّرُ ﴾ فإنه مخلوق عاجز عن إحداث ذرة فأنى له دعوى الألوهية ﴿ أَوْ يَخْشَى ﴾ أن يفضيه الإنكار إلى الهلاك والأول مقام الخاصة ولذا قدمه على مقام العامة والجملة فى محل النصب على الحال إما من الفاعل أى راجيين منه أحد الأمرين أو المفعول أى مرجوا منه ذلك والترجى بالنسبة إليهما لعلمه تعالى بأنه لايرجع وقيل الترجى من الله وهو واجب الوقوع وقد تذكر فرعون وخشى ولكن عاند بأمر هامان وقد ثبت عليه الحجة وانقطع عنه المعذرة وذلك المقصود إذ لم يقل لعله يرجع أو يؤمن والله أعلم . وفى الإسرائيليات أن موسى أقام بباب فرعون سنة لايجد من يبلغ كلامه حتى لقيه حين خرج فجرى له ما قص الله علينا من خبره وذلك تسلية لمن جاء بعد موسى من المؤمنين فى سيرتهم مع الظالمين قاله ابن العربى ﴿ قَالَا رَبَّنَا إِنَّنَا نَخَافُ أَنْ يَفْرُطَ ﴾ يعجل ﴿ عَلَيْنَا ﴾ بالقتل أو العقوبة ولا يصبر إلى تمام الدعوة ولم يكن خوفهما من ضرره بل أن ينسبا إلى التقصير ﴿ أَوْ أَنْ يَطْغَى ﴾ يزداد تكبرا فيقول فيك مالا يليق بجلالك فإن النجس يزداد نتنا بالتحريك وإطلاق «يطغى »من حسن الأدب ﴿ قَالَ لَا تَخَافَا ﴾ ذلك ﴿ إِنَّنِى مَعَكُمَا ﴾ بالحفظ والنصر ﴿ أَسْمَعُ وَأَرَى ﴾ مايجرى بينكما وبينه من قول وفعل فأحدث فى كل حال مايصرف شره عنكما ويوجب نصرتى لكما والأولى أن لايقدر للفعلين مفعول والمعنى إننى حافظكما سامع بصير وإذا كان الحافظ سامعا وبصيرا استقل بالحفظ على أكمل وجه وهو تتميم للكلام الأول ﴿ فَأْتِيَاهُ فَقُولَا إِنَّا رَسُولَا رَبِّكَ فَأَرْسِلْ مَعَنَا بَنِى إِسْرَائِيلَ ﴾ إلى الشام موطن آبائهم ومستقر أسلافهم ﴿ وَلَا تُعَذِّبْهُمْ ﴾ أى خل عنهم من استعمالك إياهم فى الأعمال الشاقة كالحفر والبناء وحمل الثقيل وتعقيب الإتيان بذلك دليل على أن تخليص المؤمنين من الكفرة أهم من دعوتهم إلى الإيمان ، قاله البيضاوى . ولا ينافى إرسالهما لدعوة فرعون أصالة لأن ابتداءهما بقضية بنى إسرائيل من قبيل القول اللين والتدرج من الأهون إلى الأشد ﴿ قَدْ جِئْنَاكَ بِآيَةٍ ﴾ حجة ﴿ مِنْ رَبِّكَ ﴾ على صدقنا

بالرسالة جملة مقررة لما تضمنه الكلام السابق من دعوى الرسالة جارية مجرى التعليل والتفسير لـ «إنا رسولا ربك» لأن دعوى الرسالة إنما تثبت بالحجة ، وإنما وحد الآية وكان معه العصا واليد لأن القصد بيان الحجة لا إظهار كمية البراهين ﴿ وَالسَّلَامُ ﴾ أى سلامة الدارين من العذاب ﴿ عَلَى مَنِ اتَّبَعَ الْهُدَى ﴾ أو السلام بمعنى التحية جريا على العرف فى التسليم عند الفراغ من القول وفيه تعريض على أن العذاب على من لم يتبع وبه صرح فى قوله ﴿ إِنَّا قَدْ أُوحِيَ إِلَيْنَا أَنَّ الْعَذَابَ ﴾ فى الدارين ﴿ عَلَى مَنْ كَذَّبَ ﴾ ما جئنا به ﴿ وَتَوَلَّى ﴾ أعرض عنه ولعل تغيير النظم وتصريح الوعيد والتأكيد فيه لأن التهديد فى أول الأمر أهم وأنجع ومع ذلك سلكا مسلكا لطيفا بديعا فى الدعوة امتثالا لما تقدم حيث عمما الأمر فى الطرفين الهداية والضلالة لئلا يقع مواجهة منهما له بما يكره وذلك سنة رسولنا فى الوعظ أن لا يواجه أحدا بما يكره وإنما ذكرا العذاب مسندا إلى الوحى دون السلام لأنه المقصود أصالة وأكدا أمره بأنه لا مدخل لهما فيه وإنما علماه بالوحى وأن لهما ربا أوحاه إليهما ولذا لما أتياه وقالا له ذلك ﴿ قَالَ فَمَنْ رَبُّكُمَا يَا مُوسَى ﴾ خاطبه وحده لأنه الأصل وهرون وزيره ولا دلالة عليه بالتربية ﴿ قَالَ رَبُّنَا الَّذِي أَعْطَى كُلَّ شَيْءٍ ﴾ من أنواع الخلق ﴿ خَلْقَهُ ﴾ أى صورته وشكله الذى هو عليه فتميز به عن غيره ، والخلق بمعنى التقدير أو أعطى خليقته كل شىء يحتاجون إليه ، قدم المفعول الثانى لأنه أدل على الاقتدار أو أعطى كل شىء نظيره فى الخلق فصار زوجا ليدل على أن الله هو الفرد الذى لا نظير له ﴿ ثُمَّ هَدَى ﴾ بين طريق الرشاد أو هدى كل حيوان كيف يتوصل إلى بقائه وكماله من المطعم والمشرب والمنكح ومنافع الدين ، وهذا الجواب فى غاية البلاغة لاختصاره وتبيينه الموجودات بأسرها على مراتبها ودلالته على أن الغنى القادر بالذات المنعم على الإطلاق هو الله تعالى وأن جميع ما عداه مفتقر إليه منعم عليه فى ذاته وصفاته وأفعاله ولذا بهت الذى كفر لما سمعه ولم ير إلا صرف الكلام عنه إلى سؤال غيره بقوله ﴿ قَالَ فَمَا بَالُ الْقُرُونِ الْأُولَى ﴾ فما حال الأمم الماضية التى كذبوا ولم يعذبوا أو ما حالهم بعد موتهم إذ اعتقاده أن لا عذاب إلا عذاب الدنيا أو ما حالهم فى عبادتهم الأوثان ولم تبعث ولم يوجد أمرك عندها ﴿ قَالَ ﴾ موسى ﴿ عِلْمُهَا ﴾ أى علم حالها محفوظ ﴿ عِنْدَ رَبِّي ﴾ سيجازيهم بذلك يوم القيامة ﴿ فِي كِتَابٍ ﴾ هو اللوح المحفوظ كتب وأثبت لكن أنا عبد مثلك لا أعلم إلا ما أخبرنى به ﴿ لَا يَضِلُّ رَبِّي ﴾ لا يخطئ الشىء فى مكانه ولا يغيب عنه ﴿ وَلَا يَنْسَى ﴾ شيئا ، ردّ لاستبعاد فرعون لإحاطة علم الله بأحوال الأمم الدارجة وتفاصيل الجزئيات المتعلقة بها قياسا على نفسه الخبيثة ، هو ﴿ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ ﴾ فى جملة الخلق ﴿ الْأَرْضَ مِهَادًا ﴾ بالكسر والألف اسم لما يمهد كالبساط والفراش لفظا ومعنى لنافع وابن كثير وأبى عمرو وابن عامر أو جمع كنعل ونعال والباقون بالقصر وعليه رسم المصحف ، والموصول مرفوع صفة لربى أو خبر لمحذوف والأحسن نصبه على المدح ﴿ وَسَلَكَ ﴾ سهل ﴿ لَكُمْ فِيهَا سُبُلًا ﴾ بين الجبال

والأودية والبرارى من أرض إلى أرض تكثيراً للمنافع من سلكت الشيء فى الشيء أدخلته فيه ﴿ وَأَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً ﴾ مطراً ﴿ فَأَخْرَجْنَا بِهِ ﴾ التفت إلى التكلم لأن موسى حاكٍ كلام ربه تعالى بدليل قوله « جعل لكم » دون لنا ، وفيه وراء الافتنان الإشارة بنون العظمة إلى أنه السلطان المطاع الذى لا يخرج عن إرادته وقدرته شيء ولذا أخرج بماء واحد ﴿ أَزْوَاجًا ﴾ أصنافاً ﴿ مِنْ نَبَاتٍ شَتَّى ﴾ صفة أزواجاً أى مختلفة الألوان والطعوم والمنافع والأشكال والروائح ، جمع شتيت كمريض ومرضى من شتّ الأمر تفرق ﴿ كُلُوا ﴾ منها ﴿ وَارْعَوْا أَنْعَامَكُمْ ﴾ فيها جمع نعم هى الإبل والبقر والغنم ، يقال رعت الأنعام ورعيتها ، والأمر للإباحة وتذكير النعمة والجملة حال من ضمير أخرجنا أى مبيحين لكم الأكل ورعى الأنعام ﴿ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ ﴾ المذكور ﴿ لَآيَاتٍ ﴾ لعبراً ﴿ لِأُولِى النُّهَىٰ ﴾ لذوى العقول الناهية عن اتباع الباطل جمع نهية سمى به العقل لأنه ينهى صاحبه عن ارتكاب القبائح والركون إلى ما لا دليل عليه ﴿ مِنْهَا ﴾ من الأرض ﴿ خَلَقْنَاكُمْ ﴾ لأنها أصل آدم ومواد أبدانكم لما فى الخبر : أنه تعالى إذا أراد خلق إنسان من نطفة أمر الملك بأن يأخذها فى كفه ويعجنها بتربة قبره ﴿ وَفِيهَا نُعِيدُكُمْ ﴾ بعد الموت بالدفن أو تفرق الأجزاء ﴿ وَمِنْهَا نُخْرِجُكُمْ ﴾ بعد البعث ﴿ تَارَةً ﴾ مرة ﴿ أُخْرَىٰ ﴾ كما أخرجناكم عند ابتداء خلقكم عدد الله عليهم ما على الأرض من مرافقهم بحيث جعلها لهم فراشاً يتقلبون عليها وسلك لهم فيها سبلا يترددون فيها لنظم مصالحهم وأخرج لهم منها أصناف النبات أقواتاً لهم وعلوفات دوابهم وهى أمهم التى منها تولدوا وهى كفاتهم أحياء وأمواتا . ولذا قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : تمسحوا بالأرض فإنها بكم برة مشيراً إلى معنى الآية وكان صلى الله عليه وسلم يدخل على المريض فيأخذ من ريقه ويخلطه بالتراب ويمسح به المريض ويقول : تربة أرضنا بريقة بعضنا تشفى سقيمنا ﴿ وَلَقَدْ أَرَيْنَاهُ ﴾ أى فرعون ﴿ آيَاتِنَا كُلَّهَا ﴾ تأكيد لشمول الأنواع أو لشمول الأفراد على أن المراد آيات معهودة وهى التسع المختصة بموسى ﴿ فَكَذَّبَ ﴾ بها كلها وزعم أنها سحر ﴿ وَأَبَىٰ ﴾ عن قبول شيء منها أو كذب موسى وأبى عن قبول الحق ﴿ قَالَ أَجِئْتَنَا لِتُخْرِجَنَا مِنْ أَرْضِنَا ﴾ مصر ويكون لك الملك فيها ﴿ بِسِحْرِكَ يَا مُوسَىٰ ﴾ كلام يتلألأ من جبينه أن فرائصه ارتعدت خوفاً منه لإيقانه أنه الرسول الذى لو أشار إلى الجبال لسارت عن مقرها وإلا فما قدر ساحر واحد حتى يخرج ملكا مثله من أرضه بعد ذلك التمكن والعدد والعُدد لكنه عادة كل شقى لا تراه يتشبث عند الإفحام إلا بما يكون هازماً لدليله ﴿ فَلَنَأْتِيَنَّكَ بِسِحْرٍ مِثْلِهِ ﴾ يعارضه ﴿ فَاجْعَلْ بَيْنَنَا وَبَيْنَكَ مَوْعِدًا ﴾ وعداً أو مكانه للاجتماع فيه ، وفيه نوع استخدام لأن قوله ﴿ لَا نُخْلِفُهُ ﴾ يلائم الوعد لا المكان والزمان وقوله موعدكم يلائمهما لا الوعد فتأمل ﴿ نَحْنُ وَلَا أَنْتَ مَكَانًا ﴾ نصب بنزع الخافض ﴿ سِوًى ﴾ بكسر أوله لنافع وابن كثير وأبى عمرو والكسائى وبضمه للباقين أى وسطاً يستوى إليه مسافة الجائى من الطرفين ويحتمل نصب « مكاناً » بفعل دل عليه المصدر على جعل « موعداً » مصدراً لأنه

موصوف أو هو بدل من « موعدا » على تقدير مكان مضاف إليه أو ثانى مفعولى أجعل ﴿ قَالَ مَوْعِدُكُمْ يَوْمُ الزِّينَةِ ﴾ يوم عيد لهم يتزينون فيه ويجتمعون وهذا الجواب يلائم كون موعد زماناً أى يوما معلوما ويوم الزينة يدل على مكان مشتهر باجتماع الناس فيه فى ذلك اليوم ، ويحتمل أن يكون التقدير وعدكم وعد يوم الزينة وهو يوم عاشوراء أو يوم النيروز عندهم ، وإنما عينه ليظهر الحق ويزهق الباطل على رءوس الأشهاد ويشيع ذلك فى جميع البلاد ﴿ وَأَنْ يُحْشَرَ النَّاسُ ﴾ يجمع أهل مصر ﴿ ضُحًى ﴾ وقته للنظر فيما يقع عطف على يوم الزينة على تقدير مضاف أى وقت حشر الناس فيه ﴿ فَتَوَلَّى فِرْعَوْنُ ﴾ أدبر ﴿ فَجَمَعَ كَيْدَهُ ﴾ ما يكيد به موسى من السحرة وآلاتهم من جميع بلاده ﴿ ثُمَّ أَتَى ﴾ بهم الموعد ﴿ قَالَ لَهُمْ ﴾ للسحرة ﴿ مُوسَى ﴾ وهم كثيرون وتقدم ما فى عددهم معهم حبال وعصى ﴿ وَيْلَكُمْ ﴾ ألزمكم الله الويل ﴿ لَا تَفْتَرُوا عَلَى اللَّهِ كَذِبًا ﴾ بنسبة آية الله إلى السحر أو بإشراك أحد معه ﴿ فَيُسْحِتَكُمْ ﴾ بفتح الياء والحاء للجمهور وبضم الياء وكسر الحاء لحمزة والكسائى وحفص : يهلككم ويستأصلكم ﴿ بِعَذَابٍ ﴾ والسحت لغة الحجاز والإسحات لنجد وتميم ﴿ وَقَدْ خَابَ ﴾ خسر ﴿ مَنِ افْتَرَى ﴾ كذباً على الله كما خاب فرعون حين افترى واحتال ليبقى ملكه فلم ينفعه ﴿ فَتَنَازَعُوا ﴾ أى السحرة ﴿ أَمْرَهُمْ ﴾ فى موسى وأخيه ﴿ بَيْنَهُمْ ﴾ أي تشاوروا فيه ، من النزع لا من النزاع ﴿ وَأَسَرُّوا النَّجْوَى ﴾ بأن موسى إن غلبنا اتبعناه حين قال بعضهم ما هذا بكلام ساحر ﴿ قَالُوا ﴾ تفسير للنجوى أى السحرة أو فرعون وقومه ﴿ إِنْ هَذَانِ ﴾ بالألف مع تشديد « إنّ » للجمهور على لغة من يقدر الإعراب على ألف المثنى مطلقاً وهم كنانة وبنو الحارث بن كعب ولأبى عمرو هذين وهو ظاهر ولابن كثير وحفص « إنْ هذان » على تخفيف إن ، واللام فارقة ﴿ لَسَاحِرَانِ ﴾ أظهروا بعد النجوى هذا الكلام تشجيعاً لأنفسهم أو إيهاماً للناس أنهم تحققوا كذب موسى وأخيه وإن كان الضمير لفرعون وقومه فكأنهم تشاوروا فى إظهار هذا حذراً من أن يغلبا السحرة فيتبعهما الناس ﴿ يُرِيدَانِ أَنْ يُخْرِجَاكُمْ مِنْ أَرْضِكُمْ بِسِحْرِهِمَا وَيَذْهَبَا بِطَرِيقَتِكُمُ الْمُثْلَى ﴾ مؤنث أمثل بمعنى أشرف أى بأشرافكم بميلهم إليهما لما سمعوا من قولهما « أن أرسل معنا بنى إسرائيل » أو بمذهبكم الذى هو أفضل المذاهب كقوله إنى أخاف أن يبدل دينكم ﴿ فَأَجْمِعُوا ﴾ من أجمع أحكم للجمهور ومن جمع لأبى عمرو أى لمّ ويؤيده « فجمع كيده » ﴿ كَيْدَكُمْ ﴾ من السحر أحكموه بالاتفاق عليه ﴿ ثُمَّ ائْتُوا صَفًّا ﴾ حال أى مصطفين لأنه أهيب فى صدور الرائين ، وقيل مثلى علم لمكان معروف عندهم ﴿ وَقَدْ أَفْلَحَ الْيَوْمَ مَنِ اسْتَعْلَى ﴾ أى علا وغلب والسين للتأكيد وهو اعتراض ﴿ قَالُوا يَا مُوسَى ﴾ اختر ﴿ إِمَّا أَنْ تُلْقِيَ ﴾ عصاك أولا ﴿ وَإِمَّا أَنْ نَكُونَ أَوَّلَ مَنْ أَلْقَى ﴾ عصاه ، خيروه كما هو شأن الأقران عند المبارزة والأعلام المهرة لدى المناظرة إما لعدم المبالاة أو لإظهار حسن الأدب و « أن » و « ما » نصب مفعول اختر أو رفع خبر محذوف أى الأمر إلقاؤك أو إلقاؤنا أولا ﴿ قَالَ بَلْ أَلْقُوا ﴾ قابلهم بمثل ما بدأوه به بياناً لعدم المبالاة

بسحرهم وإسعافاً إلى ما أوهموا من الميل إلى البدء بذكر لفظ الأول فى شقهم وتغيير النظم إلى وجه أبلغ وليبرزوا أقصى ما معهم ثم يقذف الله بالحق على الباطل فيدمغه فألقوا ﴿ فَإِذَا حِبَالُهُمْ وَعِصِيُّهُمْ ﴾ وهى على ماقيل وقر ثلثمائة بعير ، وأصل عصى عصوو قلبت الواوان ياءين وكسرت العين والصاد ﴿ يُخَيَّلُ ﴾ بالياء للجمهور والتاء لابن عامر من رواية ابن ذكوان ﴿ إِلَيْهِ مِنْ سِحْرِهِمْ أَنَّهَا ﴾ حيات ﴿ تَسْعَى ﴾ على بطونها وإذا للمفاجأة وهى أيضاً على الأصح ظرف زمان تستدعى متعلقاً ينصبها وهو فعل المفاجأة وجملة تضاف إليها وهى ابتدائية ، والمعنى فألقوا ففاجأ موسى تخيله وقت تخييل سعيها أنها وأن مع مافى حيزها قائم مقام فاعل يخيل على قراءة الجمهور وعلى التأنيث مسند إلى ضمير الحبال والعصى وأنها تسعى بدل اشتمال . قال البيضاوى : وذلك أنهم ملأوها بالزئبق يعنى سليطهم فلما حميت عليها الشمس اضطربت فخيل إليه أنها تتحرك ﴿ فَأَوْجَسَ ﴾ أحس وأضمر ﴿ فِى نَفْسِهِ خِيفَةً مُوسَى ﴾ أى خاف من جهته أن سحرهم من جنس معجزته أن يلبس أمره على الناس أو خاف من جهة الطبع ﴿ قُلْنَا لَا تَخَفْ إِنَّكَ أَنْتَ الْأَعْلَى ﴾ عليهم بالغلبة تعليل للنهى مؤكد بالاستئناف وحرف التحقيق وتعريف الخبر وتكرير الضمير ولفظ العلو وصيغة التفضيل ﴿ وَأَلْقِ مَا فِى يَمِينِكَ ﴾ من العصى : أبهمها تعظيما لشأنها ﴿ تَلْقَفْ ﴾ تبتلع ﴿ مَا صَنَعُوا ﴾ من الحبال والعصى وتلقف بالتشديد والجزم للجمهور أصله تتلقف حذف منه إحدى التاءين ، وبالرفع لابن ذكوان على الاستئناف أو الحال المقدرة وبالتخفيف لحفص مضارع لقف وأصل اللقف الخفة وأخذ الشىء بالسرعة ﴿ إِنَّمَا صَنَعُوا كَيْدُ سَاحِرٍ ﴾ أى جنسه ولذا وحده ، وقرأ حمزة والكسائى كيد سحر أى ذى سحر أو الإضافة للبيان كعلم فقه والتنكير لتنكير المضاف لأنه فى نفسه معروف كأنه قيل كيد سحرى ﴿ وَلَا يُفْلِحُ السَّاحِرُ ﴾ أى هذا الجنس ولذا وحد أيضاً ﴿ حَيْثُ أَتَى ﴾ بسحره أو أى مكان سلك فألقى موسى عصاه فتلقفت كل ما صنعوا ﴿ فَأُلْقِيَ السَّحَرَةُ سُجَّدًا ﴾ شكراً لله على أن هداهم لتحققهم أن مارأوا ليس بسحر وأنه من آيات الله . وعن عكرمة : رأوا فى سجودهم الجنة ومنازلهم فيها ﴿ قَالُوا آمَنَّا بِرَبِّ هَارُونَ وَمُوسَى ﴾ قدم هرون للفاصلة أو لكبر سنه أو لأن فرعون ربى موسى فى صغره فلو قدموه ربما أوهم أن المراد فرعون وهرون ذكر على الاستتباع ﴿ قَالَ ﴾ فرعون ﴿ آمَنْتُمْ ﴾ بالاستفهام للجمهور وبالخبر لقنبل وحفص ﴿ لَهُ ﴾ لموسى واللام لتضمين الفعل معنى الإذعان أو الاتباع ﴿ قَبْلَ أَنْ آذَنَ لَكُمْ ﴾ أنا فى الإيمان به ﴿ إِنَّهُ لَكَبِيرُكُمُ ﴾ لعظيمكم وأستاذكم ، لأن أكثر السحرة من بنى إسرائيل ﴿ الَّذِى عَلَّمَكُمُ السِّحْرَ ﴾ وأنتم تواطأتم معه على ما فعلتم ﴿ فَلَأُقَطِّعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُمْ مِنْ خِلَافٍ ﴾ حال بمعنى مختلفة أى الأيدى اليمنى والأرجل اليسرى فمن ابتدائية لأن القطع الواقع على موضع الخلاف ملابس له فكأنه ابتدأ منه ﴿ وَلَأُصَلِّبَنَّكُمْ فِى جُذُوعِ النَّخْلِ ﴾ عليها شبه استعلاء المصلوب باستقرار المظروف فى الظرف بجامع التمكن واللزوم فاستعاره له ، قيل هو أول من صلب واختار النخل لكونه أطول الأشجار فالمصلوب عليه

أظهر وأمره وحاله أشهر ﴿ وَلَتَعْلَمُنَّ أَيُّنَا ﴾ يعنى نفسه ورب موسى أو وموسى لقوله « آمنتم له » ﴿ أَشَدُّ عَذَابًا وَأَبْقَىٰ ﴾ أدوم على مخالفته ﴿ قَالُوا لَن نُّؤْثِرَكَ ﴾ لن نختارك ﴿ عَلَىٰ مَا جَاءَنَا ﴾ موسى به ، ويحتمل أن يكون الضمير لما ﴿ مِنَ الْبَيِّنَاتِ ﴾ المعجزات الواضحة على صدق موسى ، والجمع إما باعتبار أحوال العصى أو لأنهم لما سجدوا انكشف لهم عالم الملكوت فرأوا أموراً خارقة ﴿ وَالَّذِي فَطَرَنَا ﴾ خلقنا قسم أوعطف على « ما » ﴿ فَاقْضِ مَا أَنتَ قَاضٍ ﴾ حاكم به أى اصنع ما قلته أو مدة قضائك وأيام حكمك فما موصولة أو مصدرية ﴿ إِنَّمَا تَقْضِي هَٰذِهِ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا ﴾ النصب على الاتساع أى فيها وتجزى عليه فى الآخرة تعليل لما قبله وتمهيد لما بعده ﴿ إِنَّا آمَنَّا بِرَبِّنَا لِيَغْفِرَ لَنَا خَطَايَانَا ﴾ من الكفر والمعاصى ، وصفوه هنا بربهم إعلاما بأنه الذى أوصلهم إلى ذلك الكمال وأكرمهم بأجزل النوال ﴿ وَمَا أَكْرَهْتَنَا عَلَيْهِ مِنَ السِّحْرِ ﴾ تعللاً وعملا لمعارضة موسى وإنما قالوا « أكرهتنا » لأنهم لما رأوا العصا تحرس موسى وهو نائم قالوا لفرعون إن هذا ليس بساحر فإن الساحر إذا نام بطل سحره فأبى عليهم ﴿ وَاللَّهُ خَيْرٌ ﴾ منك ثواباً إذا أطيع ﴿ وَأَبْقَىٰ ﴾ منك عذاباً إذا عصى ، قال تعالى ﴿ إِنَّهُ ﴾ الشأن ﴿ مَن يَأْتِ رَبَّهُ مُجْرِمًا ﴾ بأن يموت كافراً ﴿ فَإِنَّ لَهُ جَهَنَّمَ لَا يَمُوتُ فِيهَا ﴾ فيستريح ﴿ وَلَا يَحْيَىٰ ﴾ حياة نافعة ﴿ وَمَن يَأْتِهِ مُؤْمِنًا قَدْ عَمِلَ الصَّالِحَاتِ ﴾ الفرائض والنوافل ﴿ فَأُولَٰئِكَ لَهُمُ الدَّرَجَاتُ ﴾ المنازل ﴿ الْعُلَىٰ ﴾ الرفيعة جمع عليا مؤنث أعلى ﴿ جَنَّاتُ عَدْنٍ ﴾ إقامة بيان أو بدل من الدرجات لدلالته على الإقامة ﴿ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا ﴾ حالا والعامل فيهما معنى الإشارة أو الاستقرار ﴿ وَذَٰلِكَ جَزَاءُ مَن تَزَكَّىٰ ﴾ تطهر من الذنوب ، وقوله « من يأت » إلى هنا ابتداء كلام من الله تعالى بعد تمام كلام السحرة ترهيباً وترغيباً أو من كلامهم علموا ذلك من موسى أو تناقلوه من أسلافهم من كلام الأنبياء ﴿ وَلَقَدْ أَوْحَيْنَا إِلَىٰ مُوسَىٰ ﴾ بعد ما عالج فرعون وأراه الآيات ولم يزد إلا طغياناً ﴿ أَنْ أَسْرِ ﴾ بهمز وصل وكسر النون لنافع وابن كثير وبهمز قطع للباقين ، من سرى وأسرى لغتان أى سر ﴿ بِعِبَادِي ﴾ بنى إسرائيل ليلا من مصر ﴿ فَاضْرِبْ ﴾ اجعل ﴿ لَهُمْ ﴾ بالضرب بعصاك ﴿ طَرِيقًا فِي الْبَحْرِ ﴾ من ضرب له فى ماله سهماً أو من ضرب اللبن اتخذها من الطين ﴿ يَبَسًا ﴾ أى يابساً مصدر وصف به مبالغة ، ولذا يوصف به المؤنث كشاة يبس للتى جف لبنها ﴿ لَّا تَخَافُ ﴾ بالرفع للجمهور نفى وبالجزم لحمزة نهى ﴿ دَرَكًا ﴾ من فرعون وجنوده أى لحوقاً ﴿ وَلَا تَخْشَىٰ ﴾ غرقاً من بحر أمامك ، فامتثل موسى ما أمر به فخرج بهم أول الليل فأخبر فرعون بذلك فقص آثارهم ﴿ فَأَتْبَعَهُمْ فِرْعَوْنُ ﴾ أدركهم وقت الشروق ملتبساً ﴿ بِجُنُودِهِ ﴾ يقال اتبع القوم إذا أدركهم بعد سبقهم ﴿ فَغَشِيَهُم مِّنَ الْيَمِّ ﴾ البحر ﴿ مَا غَشِيَهُمْ ﴾ مما لا يمكن الإحاطة بكنهه والضمير لجنوده لأنه ألقى إلى الساحل ، أو لهم وله ، وفيه مبالغة ووجازة أى غشيهم ما سمعت قصته ولا يعرف كنهه إلا الله ﴿ وَأَضَلَّ فِرْعَوْنُ قَوْمَهُ ﴾ عن سبيل الرشاد بدعائهم إلى عبادته ﴿ وَمَا هَدَىٰ ﴾ هم تهكم به فى قوله « وما أهديكم إلا سبيل الرشاد » أو

أضلهم فى البحر وما نجى بقوله لما رآه منفلقاً أدخلوا فإنه قد انفلق خشية منى ﴿يَابَنِي إِسْرَائِيلَ﴾ خطاب لهم بعد غرق فرعون على إضمار قلنا وقيل لأعقابهم زمن نبينا والأول أوجه لأنه فى أثناء قصة موسى وتعداد النعم عليهم ﴿قَدْ أَنْجَيْنَاكُمْ﴾ بالنون للجمهور وحمزة والكسائى بالتاء فيه وفى الفعلين بعد واعدنا ورزقنا ﴿مِنْ عَدُوِّكُمْ﴾ فرعون وقومه ﴿وَوَاعَدْنَاكُمْ جَانِبَ الطُّورِ الْأَيْمَنَ﴾ لمناجاة موسى وإنزال التوراة لتعملوا بها ﴿وَنَزَّلْنَا عَلَيْكُمُ الْمَنَّ وَالسَّلْوَىٰ﴾ فى التيه كما تقدم ﴿كُلُوا مِنْ طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ﴾ لذائذه أو حلالاته ﴿وَلَا تَطْغَوْا فِيهِ﴾ بكفران النعمة ﴿فَيَحِلَّ﴾ بكسر الحاء للجمهور أى يجب من حل الدين وجب أداؤه وبضمها للكسائى أى ينزل ﴿عَلَيْكُمْ غَضَبِي وَمَنْ يَحْلِلْ عَلَيْهِ غَضَبِي فَقَدْ هَوَىٰ﴾ سقط فى النار وهلك، من الهوىّ وهو السقوط من مكان عال، وقيل هوى وقع فى الهاوية ﴿وَإِنِّي لَغَفَّارٌ لِمَنْ تَابَ﴾ من الشرك ﴿وَآمَنَ﴾ بما يجب الإيمان به ﴿وَعَمِلَ صَالِحًا﴾ فرضاً ونفلا ﴿ثُمَّ اهْتَدَىٰ﴾ استقام على الهدى المذكور واستمر عليه إلى موته، ولما واعد الله موسى بعد غرق فرعون أن يكلمه على الطور ويؤتيه كتاباً فيه تبيان كل شىء وأمره باختيار سبعين من نقباء بنى إسرائيل ليسمعوا كلام الله فاختارهم وخلف هرون على بقية بنى إسرائيل وتعجل شوقاً إلى الموعد فسبق القوم: سأله تعالى عن سبب العجلة وسبب التقدم على النقباء بقوله ﴿وَمَا أَعْجَلَكَ عَنْ قَوْمِكَ﴾ لمجىء ميعاد أخذ التوراة ﴿يَا مُوسَىٰ﴾ ولما كان السؤال للإنكار على العجلة التى هى نقيصة فى نفسها يتضمن الإنكار على السبب الباعث عليه أجاب أولا بأن ليس هناك ما يسمى عجلة بقوله ﴿قَالَ هُمْ أُولَاءِ﴾ بالقرب منى يأتون ﴿عَلَىٰ أَثَرِي﴾ ما تقدمتهم إلا بخطى يسيرة كما هو شأن الوفود يكون رئيسهم أمامهم، وأجاب ثانيا عن سببها بقوله ﴿وَعَجِلْتُ إِلَيْكَ رَبِّ لِتَرْضَىٰ﴾ أى زيادة على رضاك فإن المسارعة إلى امتثال أمرك يوجب رضاك، اعتذار بحسب ظنه وتخلف المظنون بما أخبره تعالى بقوله ﴿قَالَ فَإِنَّا قَدْ فَتَنَّا قَوْمَكَ﴾ الذين خلفتهم مع هرون اختبرناهم بما صنعه السامرى أو ألقيناهم فى فتنة بعبادة العجل ﴿مِنْ بَعْدِكَ﴾ أى بعد فراقك لهم ﴿وَأَضَلَّهُمُ السَّامِرِيُّ﴾ باتخاذ العجل والدعاء إلى عبادته، واسم السامرى: موسى بن ظفر، منسوب إلى قبيلة من بنى إسرائيل يقال لهم السامرة يخالفونهم فى بعض الأمور، وقيل كان علجاً من كرمان منافقاً أظهر الإسلام وهو من قوم يعبدون البقر، وتقدم خالص القصة فى الأعراف على ما فى غاية الأمانى لكن فيه شىء وهو كون قومك فى قوله « وما أعجلك عن قومك » هم السبعين والمراد بهم فى « فتنا قومك » هم الذين خلفوا مع هرون، ومقتضى قوله فى غاية الأمانى أنهم لم يؤمروا بالمسير الى الموعد، والظاهر من الكلام أن « قومك » فى الموضعين بمعنى واحد لأن المعرفة إذا تكرر هو عين الأول ولأن قوله فأخلفتم موعدى يقتضى أنه واعدهم بجانب الطور وكذا قوله فى هرون ما منعك أن لا تتبعن أفعصيت أمرى وهذا يقتضى أن موسى خلف هرون على بنى إسرائيل ليسير بهم إلى الموعد وتقدمهم موسى ويؤيده ما فى

الجواهر فى قوله وما أعجلك رأى موسى على جهة الاجتهاد أن يتقدم وحده مبادراً لأمر الله واستخلف على بنى إسرائيل هرون وقال لهم سيروا إلى جانب الطور إلى آخر ما قال وكذا قوله عند قول هرون فاتبعونى أى إلى الطور الذى واعدكم الله تعالى إليه لكن سنبدى للكل احتمالات إن شاء الله والله أعلم بما كان . ﴿ فَرَجَعَ مُوسَىٰ ﴾ بعد أخذ التوراة فى الألواح ﴿ إِلَىٰ قَوْمِهِ غَضْبَانَ ﴾ من جهتهم ﴿ أَسِفًا ﴾ شديد الحزن بما فعلوا ﴿ قَالَ يَا قَوْمِ أَلَمْ يَعِدْكُمْ رَبُّكُمْ وَعْدًا حَسَنًا ﴾ أى صدقة يعطيكم التوراة فيها تبيان كل شىء هدى ونورا ﴿ أَفَطَالَ عَلَيْكُمُ الْعَهْدُ ﴾ مدة مفارقتى إياكم إنكار لذلك أو طال عليكم زمان العافية وتوالى النعم بعد أن كنتم فى أسر فرعون ﴿ أَمْ أَرَدْتُمْ أَنْ يَحِلَّ ﴾ يجب ﴿ عَلَيْكُمْ غَضَبٌ مِنْ رَبِّكُمْ ﴾ بعبادتكم العجل ﴿ فَأَخْلَفْتُمْ مَوْعِدِي ﴾ وتركتم المجىء بعدى ، هذا مافى المكمل . وفى غاية الأمانى وأنوار التنزيل : أى وعدكم إياى بالثبات على الإيمان بالله والقيام على ما أمرتكم به ﴿ قَالُوا مَا أَخْلَفْنَا مَوْعِدَكَ بِمَلْكِنَا ﴾ بفتح الميم لنافع وعاصم وضمها لحمزة والكسائى وكسرها للباقين لغات فى الأصل فى مصدر ملك الشىء - أى بقدرتنا أو بأمرنا ﴿ وَلَٰكِنَّا حُمِّلْنَا ﴾ بضم الحاء وكسر الميم مشدداً لنافع وابن كثير وابن عامر وحفص وبفتح الحاء والميم مخففاً للباقين ﴿ أَوْزَارًا ﴾ أثقالا ﴿ مِنْ زِينَةِ الْقَوْمِ ﴾ أى حلى قوم فرعون استعارها منهم بنو إسرائيل بعلة عرس فبقيت عندهم لم يردوها عند خروجهم مع موسى ليلا لخوف أن يعلم خروجهم وسموها أوزاراً لأن مال المستأمن حرام ولأن الغنائم لم تحل إلا لهذه الأمة ﴿ فَقَذَفْنَاهَا ﴾ طرحناها فى النار بأمر السامرى ﴿ فَكَذَٰلِكَ ﴾ كما ألقينا ﴿ أَلْقَى السَّامِرِيُّ ﴾ ما معه من حليهم ومن التراب الذى أخذه من أثر حافر فرس جبريل على الوجه الآتى بأن أمرهم فحفروا حفرة فقذفوا الحلى فألقى هو تلك التربة وأوهمهم أنه إنما ألقى الحلى ﴿ فَأَخْرَجَ لَهُمْ ﴾ من تلك الحلى المذابة ﴿ عِجْلًا ﴾ أى صورته ﴿ جَسَدًا ﴾ لحماً ودماً ﴿ لَهُ خُوَارٌ ﴾ أى صوت كخوار البقر أى انقلب كذلك بسبب التراب الذى هو أثر الحياة فيما يوضع فيه ﴿ فَقَالُوا ﴾ أى السامرى وأتباعه ممن افتتن به أول مارأوه ﴿ هَٰذَا إِلَٰهُكُمْ وَإِلَٰهُ مُوسَىٰ فَنَسِيَ ﴾ موسى ربه هنا وذهب يطلبه بالطور أو نسى السامرى ماكان عليه من الإسلام وتركه والفاء فصيحة على الوجهين . قال تعالى بياناً لغباوتهم وكفرهم باعتقاد الحلول فى جسم حيوان يضرب بجهله المثل ﴿ أَفَلَا يَرَوْنَ أَنْ ﴾ أنه ﴿ لَا يَرْجِعُ ﴾ لا يرد ﴿ إِلَيْهِمْ قَوْلًا ﴾ جواباً فضلا أن ينشئه ﴿ وَلَا يَمْلِكُ لَهُمْ ضَرًّا ﴾ أى دفعه ﴿ وَلَا نَفْعًا ﴾ أى جلبه فكيف يتخذ إلها ﴿ وَلَقَدْ قَالَ لَهُمْ هَارُونُ مِنْ قَبْلُ ﴾ قبل أن يرجع موسى أو قبل قول السامرى هذا إلهكم محذراً لهم ﴿ يَا قَوْمِ إِنَّمَا فُتِنْتُمْ بِهِ وَإِنَّ رَبَّكُمُ الرَّحْمَٰنُ فَاتَّبِعُونِي ﴾ فى عبادته ﴿ وَأَطِيعُوا أَمْرِي ﴾ بالثبات على الدين أو فاتبعونى إلى الطور الذى واعدكم الله به وأطيعوا أمرى فى ذلك ﴿ قَالُوا لَنْ نَبْرَحَ ﴾ لن نزال ﴿ عَلَيْهِ ﴾ على عبادته ﴿ عَاكِفِينَ ﴾ مقيمين ﴿ حَتَّىٰ يَرْجِعَ إِلَيْنَا مُوسَىٰ ﴾ ولما رجع موسى ﴿ قَالَ يَا هَارُونُ مَا مَنَعَكَ إِذْ رَأَيْتَهُمْ ضَلُّوا ﴾ بعبادته ﴿ أَلَّا تَتَّبِعَنِ ﴾ لازائدة : فى نصرة الدين والغضب لله ومقاتلتهم على كفرهم

وقد علمت أنى لو كنت فيهم ومنعتهم فأبوا لقاتلتهم أو المعنى ما منعك أن تلحقنى فتفارقهم فيكون فراقك لهم زجراً ﴿أَفَعَصَيْتَ أَمْرِى﴾ بالإقامة بين الكفار أو إذ قلت لك أصلح ولا تتبع سبيل المفسدين أو بالصلابة فى الدين والمحاماة عليه ﴿قَالَ﴾ هرون ﴿يَبْنَؤُمَّ﴾ بفتح الميم لنافع وابن كثير وأبى عمرو وحفص وبكسرها للباقين أراد أمى وذكرها أعطف لقلبه لأنهما من أب وأم عند الجمهور ﴿لَا تَأْخُذْ بِلِحْيَتِى﴾ وكان أخذها بشماله ﴿وَلَا بِرَأْسِى﴾ شعره وكان أخذه بيمينه غضبا لله ﴿إِنِّى خَشِيتُ﴾ لو قاتلتهم ببعضهم أو اتبعتك ببعضهم ﴿أَنْ تَقُولَ فَرَّقْتَ بَيْنَ بَنِى إِسْرَائِيلَ﴾ وكان معه ممن لم يعبد العجل اثنا عشر ألفا ﴿وَلَمْ تَرْقُبْ﴾ تنتظر ﴿قَوْلِى﴾ فيما رأيته فى ذلك فإن الإصلاح فى حفظ الدهماء ومداراتهم إلى أن ترجع إليهم لم يقتل بعضهم بعضا فنجتمع على الرأى وتدارك الأمر أرجح عندى قال موسى رب اغفر لى ولأخى وأدخلنا فى رحمتك وأنت أرحم الراحمين . أو ولم ترقب عطف على فرقت أى خشيت أن تقول لى لم ترقب قولى : أى أخلفنى فى قومى وأصلح أى بالرفق ثم أقبل على السامرى ﴿قَالَ﴾ منكراً عليه ﴿فَمَا خَطْبُكَ يَاسَامِرِىُّ﴾ ما غرضك فيما صنعت ، مصدر خطب الشىء طلبه ولا يطلق إلا على أمر عظيم يقع لأجله التخاطب أى ما حملك على هذا ﴿قَالَ بَصُرْتُ بِمَا لَمْ يَبْصُرُوا بِهِ﴾ بالياء للجمهور والتاء لحمزة والكسائى والمخاطب بنو إسرائيل أى علمت ما لم يعلموه وهو أن الرسول الذى جاءك روحانى لا يمس أثره شيئاً إلا حي ﴿فَقَبَضْتُ قَبْضَةً﴾ مرة أريد بها المقبوض ﴿مِنْ﴾ تراب ﴿أَثَرِ﴾ حافر فرس ﴿الرَّسُولِ﴾ جبريل حين أرسل إليك ليذهب بك إلى الطور أو حين أرسل لإغراق فرعون ﴿فَنَبَذْتُهَا﴾ ألقيتها فى صورة العجل المصاغ ﴿وَكَذَٰلِكَ سَوَّلَتْ﴾ زينت ﴿لِى نَفْسِى﴾ وألقى فيها أن آخذ قبضة من تراب ما ذكر وألقيها على ما لا روح له يصير له روح ، ورأيت قومك طلبوا منك أن تجعل لهم إلهاً فحدثتنى نفسى أن يكون ذلك العجل إلههم ﴿قَالَ﴾ له موسى وكان لا يقتل بنى إسرائيل إلا فى حد أو بوحى ولم يوح إليه فى السامرى فعاقبه باجتهاد نفسه بأن أبعده من الناس وأمرهم باجتنابه واجتناب من اتبعه ولا يؤاكلوهم ولا يحادثوهم كما أخبر تعالى بقوله ﴿فَاذْهَبْ﴾ من بيننا طريدا ﴿فَإِنَّ لَكَ﴾ عقوبة على ما فعلت ﴿فِى الْحَيَوٰةِ﴾ أى مدة حياتك ﴿أَنْ تَقُولَ﴾ لمن رأيته ﴿لَا مِسَاسَ﴾ أى لا تقربنى فكان يهيم فى البرية وإذا مس أحداً أو مسه أحد حما جميعا ، قال البغوى : حتى إن بقاياهم اليوم يقولون ذلك ، وإذا مس واحد من غيرهم أحدا منهم حما جميعا فى الوقت . اهـ ﴿وَإِنَّ لَكَ﴾ يا سامرى ﴿مَوْعِدًا﴾ لعذابك ﴿لَّن تُخْلَفَهُ﴾ بالبناء للمفعول للجمهور وللفاعل لابن كثير وأبى عمرو أى بل تبعث إليه ﴿وَانْظُرْ إِلَىٰ إِلَٰهِكَ الَّذِى ظَلْتَ﴾ أصله ظللت بلامين أولاهما مكسورة حذفت تخفيفا أى دمت ﴿عَلَيْهِ عَاكِفًا﴾ أى مقيما تعبده ﴿لَّنُحَرِّقَنَّهُ﴾ بالنار ﴿ثُمَّ لَنَنسِفَنَّهُ﴾ نذرينه ذرى الرماد ﴿فِى الْيَمِّ﴾ هو البحر ﴿نَسْفًا﴾ لا يصادف منه شىء وهذه عقوبة أخرى له ليشاهد معبوده رمادا أذل من التراب فيظهر غباوة المفتتنين به لمن له أدنى بصيرة ، وفعل موسى بعد ذبحه ما ذكر

قال مكى : روى أن موسى كان مع السبعين فى المناجاة حين وقع أمر العجل وأعلم الله موسى ذلك فكتمه منهم حتى رجعوا . اه . وقال ابن عطية : هذه رواية ضعيفة والجمهور على خلافها وإنما تعجل موسى وحده فوقع أمر العجل ثم جاء موسى وصنع ما صنع بالعجل ثم خرج بعد ذلك بالسبعين إلى الطور فكان لموسى نهضتان والله أعلم . اه . حكى كل ذلك عبد الرحمن الثعالبى فى جواهره ﴿ إِنَّمَا إِلَـٰهُكُمُ ﴾ المستحق لعبادتكم ﴿ ٱللَّهُ ٱلَّذِى لَآ إِلَـٰهَ إِلَّا هُوَ وَسِعَ كُلَّ شَىْءٍ عِلْمًا ﴾ تمييز محول من الفاعل أى وسع علمه كل شىء فكيف يمثل بعجل يصاغ ويحرق وهو وإن كان حياً يضرب به المثل فى الغباوة ﴿ كَذَٰلِكَ ﴾ كما قصصنا عليك يا محمد هذه القصة ﴿ نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنۢبَآءِ مَا قَدْ سَبَقَ ﴾ من الأمم على أبلغ نظام تكثيراً لمعجزاتك وتأكيداً للحجة على من عاندك وزيادة استبصار لمن آمن بك وتابعك ﴿ وَقَدْ ءَاتَيْنَـٰكَ ﴾ أعطيناك ﴿ مِن لَّدُنَّا ذِكْرًا ﴾ قرآنا فيه ذكر الوقائع الماضية أو فيه شرفك وفيه الإشارة إلى أن التفكر فيه يورث السعادة ، والتنكير فيه للتعظيم . ﴿ مَّنْ أَعْرَضَ عَنْهُ ﴾ فلم يؤمن به ﴿ فَإِنَّهُۥ يَحْمِلُ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ وِزْرًا ﴾ حملا ثقيلا أى عقوبة سميت وزراً لأنها جزاؤه ﴿ خَـٰلِدِينَ فِيهِ ﴾ أى فى عذاب الوزر ﴿ وَسَآءَ لَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ حِمْلًا ﴾ تمييز مفسر للضمير فى ساء والمخصوص بالذم محذوف أى وزرهم واللام للبيان ويبدل من يوم القيامة ﴿ يَوْمَ يُنفَخُ فِى ٱلصُّورِ ﴾ القرن النفخة الثانية ، وقرأ أبو عمرو بالنون على بناء الفاعل ﴿ وَنَحْشُرُ ٱلْمُجْرِمِينَ ﴾ الكافرين ﴿ يَوْمَئِذٍ زُرْقًا ﴾ عيونهم مع سواد وجوههم والزرقة أسوأ ألوان العين وأبغضها إلى العرب لأنه صفة أعدائهم الروم غالباً ولذا يقول فى الذم أصهب السبال أزرق العين أو معنى زرقا عميا لأن حدقة من ذهب نور عينه تزرق كلون الرماد ﴿ يَتَخَـٰفَتُونَ بَيْنَهُمْ ﴾ يتسارون لما يملأ صدورهم من الرعب ، والخفت : خفض الصوت وإخفاؤه ﴿ إِن ﴾ ما ﴿ لَّبِثْتُمْ ﴾ فى الدنيا ﴿ إِلَّا عَشْرًا ﴾ من الليالى بأيامها استقصروا مدة لبثهم فى الدنيا لزوالها لخلود مدة الآخرة أو أرادوا لبثهم فى القبور ﴿ نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَقُولُونَ ﴾ فيه أى ليس كما قالوا ﴿ إِذْ يَقُولُ أَمْثَلُهُمْ ﴾ أعدلهم ﴿ طَرِيقَةً ﴾ رأيا فيه أو عملا ﴿ إِن لَّبِثْتُمْ إِلَّا يَوْمًا ﴾ يستقلون لبثهم فى الدنيا جدا لما يعاينونه فى الآخرة من أهوالها ، وفضله عليهم لكونه أعلم بشدة الأمر ﴿ وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْجِبَالِ ﴾ كيف تكون يوم القيامة والسائل رجل من ثقيف ﴿ فَقُل يَنسِفُهَا رَبِّى نَسْفًا ﴾ يجعلها كالرمل ثم تفرقها الرياح وتطيرها ﴿ فَيَذَرُهَا ﴾ مقارها أو الأرض لدلالة الجبال عليها ﴿ قَاعًا ﴾ منبسطا يعلوه الماء أو خالياً ﴿ صَفْصَفًا ﴾ مستوياً ﴿ لَّا تَرَىٰ فِيهَا عِوَجًا ﴾ انخفاضاً ﴿ وَلَآ أَمْتًا ﴾ ارتفاعاً إن تؤمل فيها بالقياس الهندسى وثلاثة الأوصاف أحوال مترتبة فالأولان باعتبار الإحساس والثالث باعتبار القياس ، ولذا ذكر العوج بالكسر الذى يكون فى المعانى ، والأمت هو النتوء اليسير أى لو قاسه من يقيس بالهندسة لم يجد عوجاً فى أجزائها ولا أدنى ارتفاع ، كأنه قال : لا يعقل فضلا عن الإحساس ، وقيل : لا ترى استئناف لبيان الحالين ﴿ يَوْمَئِذٍ ﴾ أى يوم إذ نسفت الجبال ﴿ يَتَّبِعُونَ ﴾ أى الناس بعد القيام من القبور ﴿ ٱلدَّاعِىَ ﴾ إلى المحشر

وهو إسرافيل يقف على صخرة بيت المقدس ويضع الصور فى فيه فيقول : هلموا إلى عرض الرحمن فيقبلون إلى صوته من كل أوب أى جهة ﴿لَا عِوَجَ لَهُ﴾ لاتباعه أى لا يقدرون أن لا يتبعوه واستعماله باللام لأن الفعل كما يختص بالفاعل كذلك بالمفعول ، فى لاضرب لزيد يحتملهما ، أو فيه قلب للمبالغة أى لاعوج لهم عن دعائه ﴿وَخَشَعَتِ﴾ سكنت ﴿الْأَصْوَاتُ لِلرَّحْمَٰنِ﴾ أى ذوى الأصوات أو مستعار للخفض ﴿فَلَا تَسْمَعُ إِلَّا هَمْسًا﴾ صوت وطء الأقدام فى نقلها إلى المحشر ، والهمس : الصوت الخفى كصوت أخفاف الإبل فى مشيها ، وقال مجاهد : هو تخافت الكلام وقيل تحريك الشفاه من غير نطق كأنهم بكم من شدة الخوف ﴿يَوْمَئِذٍ لَا تَنفَعُ الشَّفَاعَةُ﴾ أحداً ﴿إِلَّا مَنْ أَذِنَ لَهُ الرَّحْمَٰنُ﴾ رفع بتقدير المضاف على البدل ، أى إلا شفاعة من أذن له الرحمن ، أو نصب على المفعول أى لا تنفع أحداً إلا من أذن الرحمن أن يشفع له ﴿وَرَضِيَ لَهُ قَوْلًا﴾ أى رضى قوله « لا إله إلا الله » أو رضى قوله فى الشفاعة لمكانته عنده أو رضى لأجله قول الشافع فى شأنه ﴿يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ﴾ ما تقدمهم من الاحوال ﴿وَمَا خَلْفَهُمْ﴾ ما يستقبلونه منها من أمور الدنيا والآخرة ﴿وَلَا يُحِيطُونَ بِهِ﴾ أى بمعلومه أو بذاته أو بمجموع ما ذكر ﴿عِلْمًا﴾ فإنهم وإن علموا منه شيئاً لا يحيطون بتفصيله ولا بخفايا بواطن ماعلموه مفصلا ﴿وَعَنَتِ﴾ خضعت وذلت ﴿الْوُجُوهُ﴾ وجوه الخلق أو المجرمين ﴿لِلْحَيِّ الْقَيُّومِ﴾ الله خضوع العناة أى الأسارى بين يدى الملك القهار ومنه العانى للأسير ، وفى الحديث : « اتقوا الله فى النساء فإنهن عوان فى أيديكم » ، والإسناد إلى الوجوه لأنها أشرف الأعضاء وأريد بها الذوات والظاهر العموم ، وقيل الوجوه عظماء الكفرة ﴿وَقَدْ خَابَ﴾ خسر ﴿مَنْ حَمَلَ ظُلْمًا﴾ أى شركا . قال فى الجواهر : والظلم يعم الشرك والمعاصى وخيبة كل حامل بقدر ما حمل من الظلم ﴿وَمَنْ يَعْمَلْ مِنَ الصَّالِحَاتِ﴾ بعض الطاعات ﴿وَهُوَ مُؤْمِنٌ﴾ إذ الإيمان شرط فى صحة الطاعة ﴿فَلَا يَخَافُ﴾ بالرفع للجمهور نفى ، وبالجزم لابن كثير نهى ﴿ظُلْمًا﴾ نقصا من ثوابه ﴿وَلَا هَضْمًا﴾ وضعا عن درجاته أو الأول فى زيادة السيئات والثانى فى نقص الحسنات ﴿وَكَذَٰلِكَ﴾ عطف على « كذلك نقص عليك » أى مثل إنزال ما ذكر من آيات الوعد والوعيد ﴿أَنزَلْنَاهُ﴾ أى القرآن كله وهو عود إلى ما بدأ به السورة من وصف القرآن بالصفات الكمالية فإن حديث موسى كان متصلا بقوله « ما أنزلنا عليك القرآن لتشقى » فانتظم الكلام أحسن انتظام ﴿قُرْآنًا عَرَبِيًّا وَصَرَّفْنَا﴾ كررنا القول ﴿فِيهِ مِنَ الْوَعِيدِ﴾ أى والحال أنا قد كررنا فيه آيات الوعيد ، و « من » بيانية ﴿لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ﴾ الشرك والمعاصى والفضول أى يبلغون به التقوى التى هى نهاية مقامات العارفين ﴿أَوْ يُحْدِثُ﴾ القرآن ﴿لَهُمْ ذِكْرًا﴾ عظة وانزجاراً فى الجملة بهلاك من تقدمهم من الأمم فيعتبرون ، و « أو » للتنويع والأمر دائر على التخلية والتحلية . قاله فى غاية الأمانى . أو معنى « ذكراً » شرفاً ﴿فَتَعَالَى اللَّهُ الْمَلِكُ الْحَقُّ﴾ أن لا يكون كتابه بالغاً فى الكمال ،

وفيه طلب تعظيم كلامه والتوجه إليه بشراشره وأنه تعالى هو الحقيق بأن يرجى وعده ويخشى وعيده إذ هو الملك النافذ أمره ونهيه والحق الثابت فى ذاته وصفاته وأن المحق هو من امتثله والمبطل من لم يتعظ بوعظه، وهو تمهيد للنهى عن العجلة بقوله ﴿ وَلَا تَعْجَلْ بِالْقُرْآنِ ﴾ بقراءته ﴿ مِنْ قَبْلِ أَنْ يُقْضَىٰ إِلَيْكَ وَحْيُهُ ﴾ أى يفرغ جبريل من إبلاغه فإن ذلك يخل بتعظيمه لأن ما يوحى إليك تناله لا محالة ﴿ وَقُلْ رَبِّ زِدْنِي عِلْمًا ﴾ بدل العجلة لم يأمره بطلب الزيادة قط إلا فى هذه الآية إظهاراً لشرف العلم قاله فى غاية الأمانى. فكلما نزل عليه شىء من القرآن زاد به علما، قال مالك: طلب العلم حسن لمن رزق خيره ولكن انظر ما يلزمك من حين تصبح إلى حين تمسى فالزمه. اهـ. ولما قال تعالى «وصرفنا فيه من الوعيد لعلهم يتقون» أراد أن يبين أن عدم تقواهم ليس لنقص فى التبليغ ولا فيما بلغتهم ولكن عادتهم العصيان والنسيان مشيراً إليه بعطف قصة آدم عليه بقوله ﴿ وَلَقَدْ عَهِدْنَا إِلَىٰ آدَمَ ﴾ أوصيناه أن لا يأكل من الشجرة ﴿ مِنْ قَبْلُ ﴾ أى قبل هؤلاء الذين قيل فيهم لعلهم يتقون أو قبل هذا الزمان أو قبل أكله منها ﴿ فَنَسِيَ ﴾ العهد عن قريب واغتر بقول العدو ﴿ وَلَمْ نَجِدْ لَهُ عَزْمًا ﴾ حزماً وصبراً عما نهيناه عنه أو لم نجد له فيما أتى به عزماً بل كان ذلك خطأ منه لا قصدا للمخالفة. قال ابن العربى فى الأحكام: يجب تنزيه الأنبياء عما نسبه إليهم الجهال ولكن البارى سبحانه بحكمه النافذ وقضائه السابق أسلم آدم إلى الأكل من الشجرة متعمداً للأكل ناسياً للعهد فقال فى تعمده «وعصى آدم» وقال فى بيان عذره «نسى»، فتعلق العمد غير متعلق النسيان وجاز للمولى أن يقول فى عبده لحقه «عصى» تثريباً ويعفو عنه بفضله فيقول «نسى» تقريباً ولا يجوز لأحد منا أن يطلق ذلك على آدم أو يذكره إلا فى تلاوة القرآن أو قول النبى صلى الله عليه وسلم. اهـ. ولم نجد إن كان من وجد الشىء علمه فله وعزما مفعولاه، وإن كان من الوجود نقيض العدم فله حال من عزما، ثم أشار إلى ما بين نسيانه العهد وعدم عزمه بقوله ﴿ وَ ﴾ اذكر ﴿ إِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ ﴾ تقدم الكلام فيه، اذكر ذلك ليتبين نسيانه وعدم عزمه ﴿ أَبَىٰ ﴾ استكباراً أى أظهر الإباء، استئناف لبيان مانع السجود ﴿ فَقُلْنَا يَا آدَمُ إِنَّ هَٰذَا عَدُوٌّ لَكَ وَلِزَوْجِكَ فَلَا يُخْرِجَنَّكُمَا مِنَ الْجَنَّةِ فَتَشْقَىٰ ﴾ تتعب بالحرث والزرع والحصد والطحن والخبز وغير ذلك واقتصر على شقاه لأن الرجل يشقى على زوجته، والنهى تأكيد للأمر بالثبات على العهد السابق ﴿ إِنَّ لَكَ أَلَّا تَجُوعَ فِيهَا وَلَا تَعْرَىٰ ﴾ لوجود المآكل والملابس من غير سعى ومباشرة أسباب ﴿ وَأَنَّكَ ﴾ بالكسر لنافع وأبى بكر عطفاً على «إن لك»، وبالفتح للباقين عطفاً على اسم «إن» ﴿ لَا تَظْمَأُ فِيهَا ﴾ لا تعطش ﴿ وَلَا تَضْحَىٰ ﴾ لا يحصل لك حر شمس لانتفائها فى الجنة وعطف على «أن لا تجوع» مع عدم جواز دخول «إن» على «أن» لأن الواو نائب عنه والمستكره دخوله صورة ولأن الواو وإن ناب عنه من حيث إنه عامل لم ينب عنه فى كونه حرف تحقيق فلا يمتنع دخوله، على أن امتناع دخول «إن»

عليه تأمل نبه على ذلك فى أنوار التنزيل وغاية الأمانى ، وإنما ذكر نقائض مطالبه منفية ولم يأت بتلك المطالب صريحاً ليذكره بأسباب الشقاء الذى حذره ولم يذكر الظمأ مع الجوع الذى هو قرينه لأن الشبع والكسوة أصلان والأخيران متممان مع أن الشبع اكتساء معنى ﴿ فَوَسْوَسَ ﴾ أنهى الوسوسة ﴿ إِلَيْهِ الشَّيْطَانُ قَالَ يَا آدَمُ هَلْ أَدُلُّكَ عَلَى شَجَرَةِ الْخُلْدِ ﴾ أى التى يخلد من أكلها ﴿ وَمُلْكٍ لَا يَبْلَىٰ ﴾ لا يفنى وهو لازم الخلود أضافها إلى المخلد لأنها سببه بزعمه ، و«قال» بيان لوسوسته ولذا لم يعطف عليه ﴿ فَأَكَلَا ﴾ أى آدم وحواء ﴿ مِنْهَا فَبَدَتْ لَهُمَا سَوْآتُهُمَا وَطَفِقَا يَخْصِفَانِ ﴾ أخذا يلزقان ﴿ عَلَيْهِمَا مِنْ وَرَقِ الْجَنَّةِ ﴾ ليستترا به ، قيل هو ورق التين ﴿ وَعَصَىٰ آدَمُ رَبَّهُ ﴾ بأكل الشجرة ﴿ فَغَوَىٰ ﴾ أخطأ طريق الرشاد حيث اغتر بقول العدو ﴿ ثُمَّ اجْتَبَاهُ رَبُّهُ ﴾ قربه من الجباية وهى الجمع ﴿ فَتَابَ عَلَيْهِ ﴾ قبل توبته ﴿ وَهَدَىٰ ﴾ أى هداه إلى المداومة على التوبة والاستقامة وعدم الوقوع فى زلة بعدها . قال فى غاية الأمانى : وما صدر من آدم وإن كان على سبيل النسيان عبر عنه بالعصيان والغواية إما لأن حسنات الأبرار سيئات المقربين وإما ليكون لطفاً بالسامعين وإيقاظاً لهم بأن صفيه الذى أسجد الملائكة له إذا بدا منه صغيرة على وجه النسيان جرى عليه هذا فانظروا أنتم أيها المصرون على الذنوب واعتبروا ﴿ قَالَ اهْبِطَا ﴾ آدم وحواء بما اشتملتما عليه من ذريتكما ﴿ مِنْهَا ﴾ من الجنة ﴿ جَمِيعًا بَعْضُكُمْ ﴾ أى بعض الذرية ﴿ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ ﴾ من ظلم بعضهم بعضاً فى أمر المعاش كما عليه الناس من التجاذب والتحارب ، يريد بهذا أولادهما لأنهما أصل البشر فخوطبا بخاطبتهم ﴿ فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُمْ مِنِّي هُدًى ﴾ كتاب ورسول ﴿ فَمَنِ اتَّبَعَ هُدَايَ فَلَا يَضِلُّ ﴾ فى الدنيا ﴿ وَلَا يَشْقَىٰ ﴾ فى الآخرة ﴿ وَمَنْ أَعْرَضَ عَنْ ذِكْرِي ﴾ أى كتابى الذى هو الهدى لأنه سبب ذكره والداعى إلى عبادته ﴿ فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنْكًا ﴾ بالتنوين مصدر وصف به بمعنى ضيقة فى الدنيا والبرزخ والآخرة ، أما فى الدنيا فلكون همه قاصراً على الدنيا متهالكا على ازديادها خائفاً على انتقاصها فهو أبداً فى ضيق ذلك بخلاف المؤمن على أنه تعالى قد يضيق بشؤم الكفر ويوسع ببركة الإيمان ، وأما فى الآخرة ففى النار ، وأما فى البرزخ فقد فسر فى الحديث بعذاب القبر يلتئم عليه قبره حتى تختلف أضلاعه فلا يزال يعذب بحيات تسعة وتسعين لكل حية تسعة أرؤس ينخدشنه إلى يوم القيامة . قال فى الجواهر : فإن صح الحديث فلا نظر لأحد معه وإن لم يصح فالصواب حمل الآية على عمومها . والله أعلم . اهـ . ﴿ وَنَحْشُرُهُ ﴾ أى المعرض عن القرآن ﴿ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَعْمَىٰ ﴾ البصر لا يبصر شيئاً أى لا حجة له ويؤيد الأول قوله ﴿ قَالَ رَبِّ لِمَ حَشَرْتَنِي أَعْمَىٰ وَقَدْ كُنْتُ بَصِيرًا ﴾ فى الدنيا وعند البعث ﴿ قَالَ كَذَٰلِكَ ﴾ أى مثل ذلك فعلت ثم فسره فقال ﴿ أَتَتْكَ آيَاتُنَا ﴾ واضحة ﴿ فَنَسِيتَهَا ﴾ تركتها وعميت عنها لم تؤمن بها ولم تنظر إليها ﴿ وَكَذَٰلِكَ ﴾ مثل تركك إياها ﴿ الْيَوْمَ تُنْسَىٰ ﴾ تترك فى النار والعمى أى جزاؤك من جنس عملك ﴿ وَكَذَٰلِكَ ﴾ مثل جزاء هذا السائل ﴿ نَجْزِي مَنْ أَسْرَفَ ﴾ بالانهماك فى الشهوات والإعراض عن

تدبر الآيات ﴿ وَلَمْ يُؤْمِنْ بِآيَاتِ رَبِّهِ ﴾ بل كذبها وخالفها ﴿ وَلَعَذَابُ الْآخِرَةِ أَشَدُّ ﴾ من عذاب الدنيا وعذاب القبر ﴿ وَأَبْقَىٰ ﴾ أدوم . قال البيضاوى : ولعله إذا دخل النار زال عماه ليرى محله وحاله . اه . ولم يرضه صاحب غاية الأمانى ﴿ أَفَلَمْ يَهْدِ ﴾ أى ألم يبين القرآن الذى هو معنى الآيات ﴿ لَهُمْ ﴾ لكفار مكة ﴿ كَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُمْ مِنَ الْقُرُونِ ﴾ مفعول يهد معنى علق عنه لكونه فى معنى الإعلام أو فاعله ما دل عليه كم أهلكنا أى كثيراً إهلاكنا فـ « كم » مفعول أهلكنا وأخذ الإهلاك منه مع خلوه عن حرف مصدرى لرعاية المعنى لا مانع له ﴿ يَمْشُونَ ﴾ حال من ضمير لهم ﴿ فِي مَسَاكِنِهِمْ ﴾ فى سفرهم إلى الشام وغيره ويشاهدون آثار هلاكهم فيعتبروا ﴿ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ ﴾ لعبر ﴿ لِأُولِي النُّهَىٰ ﴾ لذوى العقول الناهية عن التغافل والتعامى ﴿ وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِنْ رَبِّكَ ﴾ بتأخير العذاب عنهم إلى الآخرة ﴿ لَكَانَ ﴾ العذاب ﴿ لِزَامًا ﴾ لازماً ملازماً لهم فى الدنيا لا يفارقهم طرفة عين لتكامل أسبابه ﴿ وَأَجَلٌ مُسَمًّى ﴾ لأعمارهم عطف على كلمة والفصل للدلالة على استقلال كل منهما لنفى لزوم العذاب ويجوز عطفه على المستكن فى كان لوجود الفاصل أى لكان العذاب وأجل مسمى لازمين معاً ولم ينفرد الأجل عن العذاب العاجل ﴿ فَاصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ ﴾ فى الله وفى القرآن وفيك ﴿ وَسَبِّحْ ﴾ نزه ربك عما لا يليق به أوصل ﴿ بِحَمْدِ رَبِّكَ ﴾ حال ملتبساً به أى على هدايته أوصل وأنت حامد ربك الذى أوصلك إلى هذا الكمال ﴿ قَبْلَ طُلُوعِ الشَّمْسِ ﴾ صلاة الصبح ﴿ وَقَبْلَ غُرُوبِهَا ﴾ صلاة العصر ﴿ وَمِنْ آنَاءِ اللَّيْلِ ﴾ ساعاته جمع إنى كمعى أو إنو كقنو ﴿ فَسَبِّحْ ﴾ أى صل المغرب والعشاء وقيام الليل ﴿ وَأَطْرَافَ النَّهَارِ ﴾ عطف على محل من آناء المنصوب أى صل الظهر لأن وقتها يدخل بزوال الشمس فهو طرف النصف الأول وطرف النصف الثانى وجمعهما لعدم الإلباس كقوله ظهراهما مثل ظهور الترسين . أو لإرادة جنس النهار أو أجزاء الطرفين ﴿ لَعَلَّكَ تَرْضَىٰ ﴾ بما تعطى من الثواب بالبناء للفاعل للجمهور وللمفعول للكسائى وأبى بكر أى لعل الله يعطيك ما يرضيك أو تكون مرضياً عنده وتمام رضاه بقبول شفاعته « ولعلك » متعلق بـ « سبح » أى سبح فى هذه الأوقات طمعا أن تنال عند الله الرضى . قال ابن العربى فى أحكامه : هذه الآية تماثل قوله تعالى : « ولسوف يعطيك ربك فترضى » اه . ثم أمر سبحانه نبيه بالاحتقار لما فى أيدى الكفرة من الدنيا إذ ذلك صائر بهم إلى الخزى فقال : ﴿ وَلَا تَمُدَّنَّ ﴾ نظر ﴿ عَيْنَيْكَ إِلَىٰ مَا مَتَّعْنَا بِهِ أَزْوَاجًا ﴾ أصنافا ﴿ مِنْهُمْ ﴾ خلاف ما عليه الزاهدون ﴿ زَهْرَةَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ﴾ زينتها وبهجتها والمنهى فيه مد النظر إليه واستغراقه فيه إعجاباً به واستحسانا وتمنياً أن يكون له مثله كما قالت نظارة قارون : « ياليت لنا مثل ما أوتى قارون » و « قال الذين أوتوا العلم ويلكم ثواب الله خير » وأما مطلق النظر ثم كفه من غير مد وتطويل فغير منهى عنه ، قاله فى غاية الأمانى ، وأزواجاً مفعول متعنا ويجوز أن يكون حالا من الضمير المجرور فى به أى لا تمدن عينيك

إلى الممتع به وهو أصناف بعضهم أو ناسا منهم على أن « من » تبعيضية و « زهرة » مفعول ثان لمتعنا لتضمنه معنى أعطينا والباء على هذا سببية أى لا تمدن عينيك إلى المال الذى أعطينا بسببه أصنافا من الكفرة زهرة الحياة الدنيا أو بدل من أزواجا بتقدير مضاف ، والأحسن نصبه على الذم لإضافته إلى الحياة الدنيا المذمومة فمن اكتحل بنور الهدى يرى تحقيرها والازدراء بها من أقرب القرب . قال فى غاية الأمانى : قد شدد العلماء وأهل التقوى فى ترك النظر إلى أبنية الظلمة ومراكبهم وشاراتهم فإنه إغراء لهم على طلب الزيادة والتعمق فيها . اه . وفى الجواهر أن عروة بن الزبير كان إذا رأى شيئاً من السلاطين وأحوالهم بادر إلى منزله فدخله وهو يقرأ « ولا تمدن عينيك » الآية إلى قوله « وأبقى » ﴿ لِنَفْتِنَهُمْ فِيهِ ﴾ لنعذبهم به فى الآخرة أو لنبلوهم به فيطغوا ﴿ وَرِزْقُ رَبِّكَ ﴾ فى الجنة ﴿ خَيْرٌ ﴾ مما أوتوه فى الدنيا ﴿ وَأَبْقَىٰ ﴾ أدوم ، ولذا لما قيل لسلمان الفارسى بعد فتح العراق : مالك لا تلبس الجيد من الثياب ؟ فقال : وما للعبد والثوب الحسن فإذا عتق فله عند الله ثياب لا تبلى أبداً . وآثار السلف فى أمثال هذا لا تحصى رحمهم الله ورزقنا الاقتداء بهم ﴿ وَأْمُرْ أَهْلَكَ بِالصَّلَوٰةِ ﴾ أى أهل بيتك أو أمتك فإنك راع وكل راع مسئول عن رعيته وفى أمرهم بها إعانة له أيضاً فإن الجماعة يشد بعضهم بعضا ويزداد الإنسان بها نشاطاً بخلاف الانفراد فإنه يورث الفتور ، ويشاركهم فى الثواب فإن الدال على الخير كفاعله ﴿ وَٱصْطَبِرْ ﴾ تحمل المشاق فى المداومة ﴿ عَلَيْهَا لَا نَسْـَٔلُكَ رِزْقًا ﴾ لنفسك ولا أهلك فإن ذلك علينا ففرغ بالك لأمر الآخرة ﴿ نَحْنُ نَرْزُقُكَ ﴾ ومن وجب عليك القيام بأمره ، روى أنه صلى الله عليه وسلم كان إذا أصاب أهله ضر أمرهم بالصلاة وتلا هذه الآية . وتقدم أن عروة بن الزبير كان إذا رأى ما عند الملوك دخل بيته وقرأ الآية ثم ينادى : الصلاة رحمكم الله ﴿ وَٱلْعَـٰقِبَةُ ﴾ المحمودة ﴿ لِلتَّقْوَىٰ ﴾ لذوى التقوى إشارة إلى أن ما كان فيه أهل الدنيا سريع الزوال لا عاقبة له ﴿ وَقَالُوا ﴾ أى المشركون لك إنكاراً لما جئت به من الآيات وتعنتاً بطلب غيرها ﴿ لَوْلَا ﴾ هلا ﴿ يَأْتِينَا ﴾ محمد ﴿ بِـَٔايَةٍ مِّن رَّبِّهِ ﴾ على عادتهم فى عدم الاعتداد بما جاء به أى مما اقترحناه ﴿ أَوَلَمْ تَأْتِهِم ﴾ بالتأنيث لنافع وأبى عمرو وحفص ، وبالتذكير لغيرهم ﴿ بَيِّنَةُ ﴾ أى بيان ﴿ مَا فِى ٱلصُّحُفِ ٱلْأُولَىٰ ﴾ من التوراة والإنجيل وسائر الكتب السماوية والمراد بـ « بينة » : ذلك القرآن ، لاشتماله على زبدة ما فيها من العقائد والأحكام الكلية وأنباء الأمم الماضية وإهلاكهم بتكذيبهم رسلهم فهو برهان على صدق تلك الكتب ؛ فإن كانوا يقرون بصدقها فإقرارهم بصدقه ودلالته على نبوتك أولى وأوجب ، وقيل المراد ببينتها نعته ونعت أمته فيها . والله أعلم ﴿ وَلَوْ أَنَّآ أَهْلَكْنَـٰهُم بِعَذَابٍ مِّن قَبْلِهِ ﴾ قبل محمد أو القرآن ﴿ لَقَالُوا ﴾ يوم القيامة ﴿ رَبَّنَا لَوْلَآ أَرْسَلْتَ إِلَيْنَا رَسُولًا فَنَتَّبِعَ ءَايَـٰتِكَ ﴾ المرسل بها ﴿ مِن قَبْلِ أَن نَّذِلَّ ﴾ فى الدنيا بالقتل والسبى ﴿ وَنَخْزَىٰ ﴾ فى الآخرة بدخول النار ﴿ قُلْ ﴾ لهم ﴿ كُلٌّ ﴾ منا ومنكم ﴿ مُّتَرَبِّصٌ ﴾ ما يئول إليه الأمر ﴿ فَتَرَبَّصُوا ﴾ بنا دوائر الزمان

﴿ فَسَتَعْلَمُونَ ﴾ عن قريب ﴿ مَنْ أَصْحَابُ الصِّرَاطِ السَّوِيِّ ﴾ المستقيم ﴿ وَمَنِ اهْتَدَىٰ ﴾ من الضلالة . أنحن أم أنتم و « من » فى الموضعين ، استفهامية علق عنها العلم ، وفيه ختم السورة بما بدئت به كأنه يقول: « ما أنزلنا عليك القرآن لتشقى » مع هؤلاء المعاندين دعهم فى الضلال فستعلمون من أصحاب الصراط السوىّ ومن اهتدى .

[تم تفسير سورة طـه]

سـورة الأنبياء

مكية ـ مائة وإحدى أو اثنتا عشرة آية

﴿ بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ ﴾ ﴿ اقْتَرَبَ ﴾ قرب ﴿ لِلنَّاسِ حِسَابُهُمْ ﴾ بالإضافة إلى مامضى أو عند الله لقوله ونراه قريباً أو لأن كل ما هو آت قريب وإنما البعيد ما انقرض واللام صلة اقترب أى اقترب منهم فإن الاختصاص وابتداء الغاية متقاربان أو توكيد للإضافة ، والأصل اقترب حساب الناس أى لهم ثم اقترب للناس الحساب للإجمال والتفصيل ثم اقترب للناس حسابهم بإقامة الضمير مقام « أل » والناس هم الكفار بدليل قوله ﴿ وَهُمْ فِي غَفْلَةٍ ﴾ مستغرقون فيها عنه ﴿ مُعْرِضُونَ ﴾ عن التأهب له بالإيمان وهما خبران للضمير ويجوز أن يكون الظرف حالا من المستكن فى معرضون . قاله فى أنوار التنزيل وضعفه فى غاية الأمانى ، وفى الجواهر قوله « وهم فى غفلة معرضون » يريد الكفار ويأخذ عصاة المؤمنين من هذه الألفاظ قسطهم ﴿ مَا يَأْتِيهِمْ مِنْ ذِكْرٍ ﴾ قرآن يوقظهم عن سنة الغفلة والجهالة ﴿ مِنْ رَبِّهِمْ ﴾ المربى لهم بإنزال ذلك الذكر صفة ذكر ﴿ مُحْدَثٍ ﴾ إنزاله آية بعد آية وسورة إثر سورة لا محدث فى نفسه بل هو قديم فى الوجود محدث فى الإتيان كما تقول حدث عندنا ضيف ومعلوم أنه كان موجوداً قبل أن يأتينا فالمحدث هو اللفظ لا المعنى القائم بذاته تعالى ﴿ إِلَّا اسْتَمَعُوهُ وَهُمْ يَلْعَبُونَ ﴾ يستهزءون بقولهم : لو نشاء لقلنا مثل هذا ﴿ لَاهِيَةً ﴾ غافلة ﴿ قُلُوبُهُمْ ﴾ عن تدبر معناه أى جامعين بين اللعب والتلهى وهما حالان مترادفان أو متداخلان وينبغى لك أيها المؤمن أن تخالفهم بإشعار قلبك مهابة ربك فإليه مآلك وبالتأهب

للقدوم عليه فقد آن ارتحالك وأنت فى سكرات غفلاتك فعساكر الأقضية والأقدار محدقة بأسوار الأعمار تهدمها بمعاول الليل والنهار ﴿ وَأَسَرُّوا النَّجْوَى ﴾ فى استنباط ما يهدم به أمر محمد ويظهر فساده للناس عامة أى بالغوا فى إخفائها إذا التناجى لايكون إلا خفياً فإيقاع الإسرار عليه مبالغة فى إخفائه بحيث لا يعلم أنهم يتناجون ﴿ الَّذِينَ ظَلَمُوا ﴾ فيما أسروا به بدل من « واو » أسروا للإيماء بأنهم ظالمون فيما أسروا به أو فاعل له والواو لعلامة الجمع وهى لغة أو مبتدأ والجملة المتقدمة خبره أو منصوب على الذم ﴿ هَلْ هَٰذَا ﴾ أى محمد ﴿ إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ ﴾ فما يأتى به سحر ﴿ أَفَتَأْتُونَ السِّحْرَ ﴾ تتبعونه ﴿ وَأَنتُمْ تُبْصِرُونَ ﴾ تعلمون أنه سحر ، وقوله « هل هذا ... الخ » . فى موضع النصب بدلا من النجوى أو مفعولا لقول مقرر وكان ظاهر السياق أن يقال هل هذا إلا ساحر أو سحر ثم يرتب عليه الإنكار والعدول عنه لبيان أنهم استدلوا بكونه بشرا على كذبه فى ادعاء الرسالة وقد جاء بخوارق فلزم كونها عندهم سحرا فوضع منزل السحر موضعه ليكون أبلغ ﴿ قُلْ ﴾ ولحمزة والكسائى وحفص قال أى ذلك البشر فى جوابهم ﴿ رَبِّي يَعْلَمُ الْقَوْلَ ﴾ كائناً ﴿ فِي السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ ﴾ فضلا عما أسروا به ﴿ وَهُوَ السَّمِيعُ ﴾ لما أسروه ﴿ الْعَلِيمُ ﴾ به فلا يخفى عليه شىء وهو برهان على علمه بذلك القول ﴿ بَلْ ﴾ للانتقال من غرض إلى آخر فى المواضع الثلاثة ﴿ قَالُوا ﴾ فيما أتى به من القرآن هو ﴿ أَضْغَاثُ أَحْلَامٍ ﴾ أخلاط رآها فى النوم خيلت إليه وخلطت عليه ﴿ بَلِ افْتَرَاهُ ﴾ اختلقه من تلقاء نفسه ﴿ بَلْ هُوَ شَاعِرٌ ﴾ فما أتى به شعر يخيل إلى السامع معانى لا حقيقة لها ويرغبه فيها فهذا إخبار منه تعالى عن مقالتهم من غير تدرج وترق فالمراد أنهم خابطون متحيرون فتارة يقولون كذا وتارة كذا ، ويحتمل ملاحظة التدرج فيها ، فإضرابهم عن كونه سحر إلى أنه تخاليط الأحلام ، ثم إلى أنه افتراء منه ، ثم إلى أنه شعر لأن قولهم « إنه سحر » أقرب إليه من كونه تخاليط الأحلام ، وهو من كونه مختلقاً ، وهو من كونه شعراً لكونه كلاما مختلا لاحقيقة له ، فأين هذا من كلام أنيق النظم مشحون بالحقائق النظرية والدقائق العلمية والحكم الأدبية وأخبار المغيبات المطابقة وأخبار المبدأ والمعاد وصلاح العالم عن الفساد ، وإنما أخر الافتراء عن الشعر فى سورة الطور عكس ما هنا لأن الكلام هنا فى الذكر المتجدد النزول فكأنهم قالوا : قائله كذاب بل شاعر شأنه الإتيان بالأكاذيب وما لا حقيقة له بخلافه هناك فإن الكلام فى رسالته وكونه شاعراً أقرب من كونه مفترياً لاشتهاره عندهم بالأمانة والصدق ﴿ فَلْيَأْتِنَا بِآيَةٍ ﴾ إتياناً ﴿ كَمَا أُرْسِلَ الْأَوَّلُونَ ﴾ كايراء الأكمه والأبرص واليد والعصا ، وصحة التشبيه من حيث إن الإرسال يتضمن الإتيان بالمعجزة وفيه معرفتهم بإتيان الرسل الأمم المتقدمة ﴿ مَا آمَنَتْ قَبْلَهُم مِّن قَرْيَةٍ ﴾ أهل قرية ﴿ أَهْلَكْنَاهَا ﴾ بتكذيب ما أتاها من الآيات وهى صفة قرية ﴿ أَفَهُمْ يُؤْمِنُونَ ﴾ لو جئتهم بها استفهام إنكار واستبعاد دلالة على أنهم أعتى من السابقين وأن عدم الإجابة إلى ما اقترحوه إنما هو للإبقاء عليهم . ثم أجاب عن قولهم هل هذا إلا بشر

مثلكم بقوله ﴿ وَمَا أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ إِلَّا رِجَالًا يُوحَىٰ ﴾ ولحفص نوحى بالنون وكسر الحاء ﴿ إِلَيْهِمْ ﴾ لا ملائكة ﴿ فَاسْئَلُوا أَهْلَ الذِّكْرِ ﴾ أهل الكتاب عن حال الرسل المتقدمة لتزول عنكم الشبهة لأنكم تثقون بهم وتشاورونهم فى شأن النبى صلى الله عليه وسلم ﴿ إِنْ كُنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴾ ذلك فإنهم يعلمونه وأنتم إلى تصديقهم أقرب من تصديق المؤمنين بمحمد فكونه بشراً لو نافى الرسالة لكانوا أول مكذب له بذلك وأمر بسؤالهم وإن كانوا كفاراً لأن إخبار الجم الغفير يوجب العلم وإن كانوا كفاراً قاله البيضاوى . ثم رد قولهم « ما لهذا الرسول يأكل الطعام » استطراداً بقوله ﴿ وَمَا جَعَلْنَاهُمْ ﴾ أى الرسل ﴿ جَسَدًا ﴾ بمعنى أجساداً : أفرد لإرادة الجنس أو لأنه مصدر فى الأصل أى مصدر جسد به الدم لصق ثم استعمل فى كل جسم ذى لون ولذا لا يطلق على الماء والهواء أو أفرد على حذف مضاف أو تأويل الضمير بكل أحد ﴿ لَا يَأْكُلُونَ الطَّعَامَ ﴾ صفة جسداً وهى المقصودة بالنفى أى بل يأكلونه ﴿ وَمَا كَانُوا خَالِدِينَ ﴾ فى الدنيا وهو تأكيد وتقرير لما تقدم لأن الكفار لما اعتقدوا أن الرسل لا تكون إلا ملائكة وهم لا يموتون فى اعتقادهم ، رد عليهم بذلك ﴿ ثُمَّ صَدَقْنَاهُمُ الْوَعْدَ ﴾ بإنجائهم ﴿ فَأَنْجَيْنَاهُمْ وَمَنْ نَشَاءُ ﴾ المصدقين لهم ومن فى إبقائه حكمة كمن سيؤمن هو أو أحد من ذريته ، ولذا حميت العرب عن عذاب الاستئصال ﴿ وَأَهْلَكْنَا الْمُسْرِفِينَ ﴾ فى الكفر والمعاصى بتكذيب الرسل ﴿ لَقَدْ أَنْزَلْنَا إِلَيْكُمْ ﴾ يا معشر قريش ﴿ كِتَابًا فِيهِ ذِكْرُكُمْ ﴾ شرفكم وصيتكم لأنه بلسانكم منزل على نبى منكم فأنتم حملته وإليكم المرجع فى حل معاقده ، أو تذكرة وموعظة لكم ، أو فيه ما يحصل به الذكر الحسن والثناء الجميل لكم من مكارم الأخلاق التى كنتم تسابقون إليها ﴿ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴾ فتؤمنون به ﴿ وَكَمْ ﴾ كثيراً ﴿ قَصَمْنَا ﴾ أهلكنا ، وأصل القصم : الكسر مع الإبانة كناية عن الاستئصال لعدم بقاء الالتئام بعده ﴿ مِنْ قَرْيَةٍ ﴾ أهلها ﴿ كَانَتْ ظَالِمَةً ﴾ كافرة ، وصفت بوصف أهلها لما أقيمت مقامه مبالغة ، وما روى عن ابن عباس : أنها قرية ببلاد اليمن اسمها حضور كصبور أرسل الله إليهم نبياً فقتلوه فبعث عليهم بختنصر فقتلهم عن آخرهم فمعناه أنها من جملة تلك القرى ﴿ وَأَنْشَأْنَا بَعْدَهَا ﴾ بعد أهلها المهلكين ﴿ قَوْمًا آخَرِينَ ﴾ مكانهم وسّطه فى أثناء القصة إظهاراً لعظمته وكمال اقتداره ﴿ فَلَمَّا أَحَسُّوا بَأْسَنَا ﴾ شاهدوه ﴿ إِذَا هُمْ مِنْهَا يَرْكُضُونَ ﴾ دوابهم يهربون مسرعين ، والركض ضرب المركوب بالرجل أو مشبهين بالراكضين بجامع السرعة . فقالت لهم الملائكة أو المؤمنون منهم ، أو لا قول بل هو كلام الحال أى هم أحقاء أن يقال فيهم ﴿ لَا تَرْكُضُوا وَارْجِعُوا إِلَىٰ مَا أُتْرِفْتُمْ ﴾ نعمتم ﴿ فِيهِ وَمَسَاكِنِكُمْ لَعَلَّكُمْ تُسْأَلُونَ ﴾ شيئاً من دنياكم على العادة أو عما جرى أو يسألكم خدمكم ما تأمرون به أو من يستعين بكم مشاورة فى الأمور المهمة أو المحاويج المستمطرون نوالكم ، كل ذلك على سبيل التهكم فوضع بختنصر السيف فيهم يقتل حتى سمعوا منادياً من السماء : « يالثارات الأنبياء » فندموا و ﴿ قَالُوا يَا ﴾ للتنبيه ﴿ وَيْلَنَا ﴾ هلاكنا ﴿ إِنَّا كُنَّا

ظَالِمِينَ ﴾ بالكفر وقتل الأنبياء ، قالوا ذلك حين رأوا العذاب ولم يروا وجه النجاة ، ولذا لم ينفعهم ﴿ فَمَا زَالَتْ تِلْكَ ﴾ الكلمات ﴿ دَعْوَىٰهُمْ ﴾ يدعون بها ويرددونها و « تلك » مرفوع اسم زال ودعواهم منصوب خبرها ولا يجوز العكس فى قاعدة النحاة لأنه مثل أكرم موسى عيسى ﴿ حَتَّىٰ جَعَلْنَاهُمْ حَصِيدًا ﴾ أى كالزرع المحصود بالمناجل ولذا لم يجمع بأن قتلوا بالسيوف ﴿ خَامِدِينَ ﴾ ميتين كخمود النار إذا طفئت وهو مع حصيداً بمنزلة المفعول الثانى كقولك جعلته حلواً حامضاً أى مزا إذ المعنى جعلناهم جامعين لمماثلة الحصيد والخمود أو صفة له أو حال من ضميره ﴿ وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاءَ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لَاعِبِينَ ﴾ كما يفعله الجبابرة من رفع السقوف وبناء القصور وفرش الحرير وسائر الزخارف من غير فائدة معتبرة بل رفعنا هذا السقف المرفوع وفرشنا هذا المهاد الموضوع وبثثنا بينهما ضروب البدائع دلالة على القدرة ونفع العباد فى المعاش والمعاد لينالوا بذلك تحصيل الكمال ولا يغتروا بزخارفها السريعة الزوال ﴿ لَوْ أَرَدْنَا أَنْ نَتَّخِذَ لَهْوًا ﴾ ما يتلهى به ويلعب ﴿ لَاتَّخَذْنَاهُ مِنْ لَدُنَّا ﴾ من عندنا مما يليق بحضرتنا من المجردات التى لا تظهر لكم لا من الأجسام المرفوعة والأجرام المبسوطة كعادتكم فى اتخاذها لهواً والمعنى صدور اللهو منا مستحيل إذ سوق الكلام رد على من يطعن فى الرسالة فإنكارها يلزم خلق السموات والأرض للعبث لأن خلقهما لمعرفته تعالى وجزاء من قام بها ومن لم يقم ولا يتم ذلك إلا بإرسال الرسل ، وقيل اللهو المرأة أو الولد رد على مدعى ذلك على الله من النصارى فى المسيح وأمه . تعالى الله عن قولهم وقوله : « لاتخذناه من لدنا » أى من الحور العين والملائكة . قال فى غاية الأمانى : وحمل اللهو على الولد والمرأة ليس بذاك لأن نفى الولد سيجىء صريحاً ﴿ إِنْ كُنَّا فَاعِلِينَ ﴾ ذلك لكنا لم نفعله لاستحالته علينا فلم نرده وهو تكرير مبالغة فى الاستحالة ، و «إن» شرطية يدل على جوابه الجواب المتقدم ، وقيل نافية والجملة كالنتيجة للشرطية ﴿ بَلْ ﴾ إضراب عن اتخاذ اللهو وتنزيه لذاته تعالى عنه أى دع ذلك الذى قالوه فإنه كذب وباطل ﴿ نَقْذِفُ ﴾ أى نرمى رمياً بعيداً ﴿ بِالْحَقِّ ﴾ الذى من جملته الإيمان والجد ﴿ عَلَى الْبَاطِلِ ﴾ الذى من عداده الكفر واللهو ﴿ فَيَدْمَغُهُ ﴾ يذهبه بكسر دماغه ويقلع أثره استعار لذلك القذف وهو الرمى البعيد المستلزم لصلابة المرمى ، والدمغ الذى هو الوصول إلى الدماغ الموجب للهلاك تصويراً لإبطاله ومحقه كأنه جرم صلب قذف به على جرم رخو أجوف ، ثم رشحه بقوله ﴿ فَإِذَا هُوَ زَاهِقٌ ﴾ هالك لأن الزهوق ذهاب الروح ﴿ وَلَكُمُ ﴾ يا كفار مكة ﴿ الْوَيْلُ ﴾ العذاب الشديد ﴿ مِمَّا تَصِفُونَ ﴾ الله به مما لايجوز عليه ، و « ما » مصدرية أو موصولة أو موصوفة ﴿ وَلَهُ ﴾ تعالى ﴿ مَنْ فِى السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ ﴾ خلقاً وملكا ﴿ وَمَنْ عِنْدَهُ ﴾ أى من الملائكة مبتدأ خبره ﴿ لَا يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِ ﴾ تعالى ﴿ وَلَا يَسْتَحْسِرُونَ ﴾ لا يعيون وقيل « من عنده » معطوف على « من فى السموات » وأفرده للتعظيم أو لأنه أعم منه ، على أن المراد بمن عنده : الملائكة الكروبيون أفردهم بالذكر إظهاراً لشرفهم ، ولفظ عند تصوير لقربهم وتمثيل بمن

يكون عند الملوك ذا منزلة قريبة وآثر الاستحسار على الحسور إظهاراً لكمال قيامهم بأعباء العبادة التى هى حقيق أن يستحسر منها لأن الاستحسار أبلغ من الحسور ﴿ يُسَبِّحُونَ ﴾ الله ويعظمونه ﴿ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ ﴾ أى دائماً ﴿ لَا يَفْتُرُونَ ﴾ عنه فهو منهم كالنفس منا لا يشغلنا عنه شاغل وهو حال من الواو فى « يسبحون » وهو استئناف أو حال من ضمير قبله وهو على كل حال تقرير وتوكيد لما سبق من نفى اللهو لأن مَن هذا شأنه منزه عن مثل ذلك وتمهيد لما بعده وهو ﴿ أَمِ ﴾ بمعنى « بل » للانتقال وهمزة الإنكار ﴿ اتَّخَذُوا آلِهَةً ﴾ وفى هذا الإضراب الترقى لأن اتخاذ الشريك أدخل فى الإنكار من إنكار النبوة والقدح فيها وقدم عليه كونه مالك السموات والأرض ومن فيهما يستحق العبادة منهم وأن المقربين عنده قائمون بها حق القيام ليشير به إلى وجه الإنكار ﴿ مِنَ الْأَرْضِ ﴾ كحجر وذهب وفضة صفة آلهة و « من » ابتدائية لأن الأصنام متخذة من جنس الأرض وفائدة هذه الصفة التحقير دون التخصيص ﴿ هُمْ يُنْشِرُونَ ﴾ أى يحيون الموتى من قبورهم ، والمشركون وإن لم يصرحوا باقتدار آلهتهم على ذلك لكنه لازم ادعاء الإلهية لها لاقتضائها الاقتدار على كل الممكنات وفيه تجهيلهم وتهكم بهم والمبالغة فى ذلك زيد الضمير الموهم لاختصاص الإنشار بهم ﴿ لَوْ كَانَ فِيهِمَا ﴾ فى السموات والأرض ﴿ آلِهَةٌ إِلَّا اللَّهُ ﴾ أى غيره و « إلا » وصف لآلهة حمل على غير كما حمل عليه غير فى الاستثناء ﴿ لَفَسَدَتَا ﴾ بالعدم عقلا أو بخروجهما عن نظامهما المشاهد للتمانع والتغالب بينهم على وفق العادة عند تعدد الحاكم من التمانع فى الشىء ، لأن الآلهة إن توافقت فى المراد تطاردت عليه القُدَر ، وإن تخالفت فيه تعاوقت عنه . ومن أراد تفصيل هذا فلينظره فى كتبنا الأصولية كنظم شيخ شيوخنا طاهر بن إبراهيم لكبرى السنوسى فقد أجاد فيه جزاه الله خيراً ﴿ فَسُبْحَانَ اللَّهِ ﴾ تنزيهه ﴿ رَبِّ ﴾ خالق ﴿ الْعَرْشِ ﴾ المحيط بجميع الأجسام الذى هو محل التدابير ومنشأ التقادير ، والفاء فصيحة أى إذا دلت السموات والأرض على عدم جواز وجود الشريك لله فتنزه مالك العرش ﴿ عَمَّا يَصِفُونَ ﴾ به من الشريك ﴿ لَا يُسْئَلُ عَمَّا يَفْعَلُ ﴾ لعظمته وتفرده بالإلهية وعلم الخفيات ووجوه الحكم ، والملوك يتطرق على آرائهم الخطأ والزلل ولذلك يسئلون عن تدبير الملك «كلكم راع وكلكم مسئول عن رعيته» ولذا قال ﴿ وَهُمْ يُسْئَلُونَ ﴾ عن أفعالهم لأنهم عبيد مأمورون خطاءون ﴿ أَمِ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ ﴾ أى سواه تعالى ﴿ آلِهَةً ﴾ فيه استفهام توبيخ ، أنكر أولا الآلهة الأرضية لظهور فسادها ثم الآلهة مطلقاً وبنى عليه نفى الحجة بقوله ﴿ قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ ﴾ على ذلك من العقل أو النقل ولا سبيل إليه وما لا دليل عليه لا ثبوت له ، قال البيضاوى : كرره استعظاماً لكفرهم وإظهاراً لجهلهم أو ضما لإنكار ما يكون لهم سنداً من النقل إلى إنكار ما يكون لهم دليلا من العقل على معنى أوجدوا آلهة ينشرون الموتى فاتخذوهم آلهة لما وجدوا فيهم من خواص الألوهية ؟ أو وجدوا فى الكتب الإلهية الأمر بإشراكهم فاتخذوهم متابعة للأمر ؟ ويعضد ذلك أنه رتب على الأول ما يدل على فساده عقلا وعلى الثانى ما يدل على

فساده نقلا ﴿هَٰذَا ذِكْرُ مَنْ مَعِيَ﴾ أمتى ، وهو القرآن أضافه إليهم لتعبدهم بأحكامه ﴿وَذِكْرُ مَنْ قَبْلِي﴾ من الأمم وهو التوراة والإنجيل وغيرهما من كتب الله وليس فى واحد منها أن مع الله إلها بل فى كلها الأمر بالتوحيد والنهى عن الإشراك واكتفى هنا بالسمعى لتقدم العقلى وقدمه لكونه الأصل فى العقائد ولأن دليل السمع لا يكفى فى التوحيد على قول المحققين من أهل علم الكلام ، وقول البيضاوى هنا والتوحيد لما كان يتوقف على صحته بعثة الرسل وإنزال الكتب صح الاستدلال فيه بالنقل خلاف قول المحققين وانظره فى نظم طاهر بن إبراهيم للكبرى ففيه غنية فى المسألة ﴿بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ الْحَقَّ﴾ كتوحيد الله لا يميزونه من الباطل ، وهو إضراب عن إقامة البرهان لهم لكونهم فاقدى التمييز بين الحق والباطل فأى فائدة فى ذلك ﴿فَهُمْ مُعْرِضُونَ﴾ عن النظر الموصل إليه أو عن التوحيد واتباع الرسل من أجل ذلك . وقال فى الجواهر : المعنى فهم معرضون ولذا لا يعلمون الحق ، ثم ذكر ما فى ذكر من قبله إزاحة للشبهة بقوله ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا نُوحِي إِلَيْهِ﴾ بالياء وفتح الحاء ولحفص وحمزة والكسائى بالنون وكسر الحاء ﴿أَنَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدُونِ﴾ أى وحدونى وقيل هذا تعميم بعد تخصيص على كون المراد بمن قبلى الكتب الثلاثة فقط . ثم أتبع نفى الشريك نفى الولد ردا على خزاعة القائلين : الملائكة بنات الله بقوله ﴿وَقَالُوا اتَّخَذَ الرَّحْمَٰنُ وَلَدًا﴾ من الملائكة ﴿سُبْحَانَهُ﴾ تنزيها له عن ذلك ﴿بَلْ﴾ هم ﴿عِبَادٌ مُكْرَمُونَ﴾ عنده والعبودية تنافى الولادة وفيه تنبيه على مدحض القوم ﴿لَا يَسْبِقُونَهُ بِالْقَوْلِ﴾ لا يقولون شيئا حتى يقوله كما هو دين العبيد المؤدبين وإنما نفى السبق عنهم ليكون أول مايقرع السمع عدم السبق منهم مطلقا فيكون أشد وأقوى فى مدحهم وفيه تعريض على ذم القائلين على الله مالم يقله ، وأنيب اللام عن الإضافة اختصارا وتجافيا عن تكرير الضمير إذ الأصل لا يسبق قولهم قوله ﴿وَهُمْ بِأَمْرِهِ يَعْمَلُونَ﴾ لا غير فلا قول ولا فعل لهم إلا بأمره كما هو شأن المقربين مع الملوك ﴿يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ﴾ مما عملوا وما هم عاملون به وغير ذلك لا يخفى عليه خافية ، والجملة كالعلة لما قبله والتمهيد لما بعده فإنهم لإحاطتهم بذلك يضبطون أنفسهم ويراقبون أحوالهم ﴿وَلَا يَشْفَعُونَ﴾ مع قرب مكانتهم ﴿إِلَّا لِمَنِ ارْتَضَىٰ﴾ أن يشفع له وأذن لهم فى ذلك مهابة منه ﴿وَهُمْ مِنْ خَشْيَتِهِ﴾ عظمته ومهابته ﴿مُشْفِقُونَ﴾ مرتعدون خائفون غاية الخوف من الشفق وهو الستر الرقيق . قاله فى غاية الأمانى ﴿وَمَنْ يَقُلْ مِنْهُمْ﴾ من الملائكة أو الخلائق ﴿إِنِّي إِلَٰهٌ مِنْ دُونِهِ﴾ أى الله أى غيره فعلى الأول هو فرض كقوله لئن أشركت وعلى الثانى هو إبليس دعا إلى عبادة نفسه وأمر بطاعته . قال فى الجواهر : هذا ضعيف لم يرو قط أن إبليس ادعى ربوبية ﴿فَذَٰلِكَ نَجْزِيهِ جَهَنَّمَ﴾ وهذا ينفى كونه ولدا وهل يلقى أحد ولده فى النار ﴿كَذَٰلِكَ﴾ كما نجزيه ﴿نَجْزِي الظَّالِمِينَ﴾ المشركين ﴿أَوَلَمْ﴾ بواو للجمهور وتركها لابن كثير ﴿يَرَ﴾ يعلم ﴿الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ﴾ أى جماعة السموات وجماعة الأرض ولذا قال ﴿كَانَتَا﴾ ولم يقل كن

﴿ رَتْقًا ﴾ سدا بمعنى مرتوقتين أى ملصوقا إحداهما بالأخرى أو كانت السماء متلاصقة لا فُرَجَ بينها وكذا الأرضون ﴿ فَفَتَقْنَاهُمَا ﴾ بجعل الفضاء بينهما أو بجعل السموات سبعاً والأرض سبعاً أو كانت السماء رتقاء بعدم المطر ففتقت بالمطر ، والأرض لا تنبت فأنبتت ، فيكون المراد بالسموات سماء الدنيا وجمعها باعتبار الآفاق أو السموات بأسرها على أن لها مدخلا فى الإمطار أو رتقهما بالظلمة وفتقهما بالضوء فالرؤية على التأويلين الأولين قلبية وعلى الآخرين بصرية وذلك أولى ، إذ الحجة والاعتبار وتعديد النعم بمحسوس أولى وعلى الأولين فالكفار وإن لم يعلموا ما ذكر فهم متمكنون من العلم نظراً واستفساراً من العلماء وأعلام القرآن الذين علموا إعجازه وتأويل الفتق بإمطار السماء يناسب قوله ﴿ وَجَعَلْنَا مِنَ الْمَاءِ ﴾ النازل من السماء والنابع من الأرض ﴿ كُلَّ شَيْءٍ حَيٍّ ﴾ نبات وغيره لأن الماء سبب حياته فهو لفرط احتياجه إليه كأنه مخلوق منه أو جعل بمعنى صير أى صيرنا كل شىء حى من الماء أى متصلا به لا يحيى دونه كقوله عليه السلام ما أنا من دَدٍ ولا الدد منى أى لا اتصال بيننا أو المعنى خلقنا كل حى من نطفة أبيه كقوله «والله خلق كل دابة من ماء» ﴿ أَفَلَا يُؤْمِنُونَ ﴾ بتوحيدى بعد ظهور هذه الآيات ﴿ وَجَعَلْنَا فِى الْأَرْضِ رَوَاسِىَ ﴾ جبالا ثوابت وهذا تنزل معهم باتباع الأظهر الأخفى فإن هذا محسوس وذلك معقول على بعض التأويلات ﴿ أَنْ تَمِيدَ بِهِمْ ﴾ أى لأن لا ، حذف لا لأمن اللبس أو كراهة أن تميد بهم تتحرك وتضطرب من ماد به مال ﴿ وَجَعَلْنَا فِيهَا ﴾ فى الجبال أو الأرض ﴿ فِجَاجًا ﴾ مسالك ﴿ سُبُلًا ﴾ نافذة واسعة بدل من فجاجا يدل ضمناً على أنه خلقها كذلك للسابلة أو فجاجاً حال قدمت عليه وإن كانت فى الأصل وصفاً له كقوله سبلا فجاجاً للدلالة على أنه حين خلقها على تلك الصفة فيكون بياناً لما أبهم هناك ﴿ لَعَلَّهُمْ يَهْتَدُونَ ﴾ إلى مقاصدهم فى الأسفار ﴿ وَجَعَلْنَا السَّمَاءَ سَقْفًا ﴾ للأرض كالسقف للبيت ﴿ مَحْفُوظًا ﴾ عن الوقوع والفساد إلى وقت معلوم وعن استراق السمع بالشهب ﴿ وَهُمْ عَنْ ءَايَـٰتِهَا ﴾ المودعة فيها من عظم الجرم ورفعها بلا عمد وتزيينها بالشمس والقمر والنجوم وطلوعها وغروبها على الحساب القويم والترتيب العجيب ﴿ مُعْرِضُونَ ﴾ لا يتفكرون فى شىء منها ليؤديهم إلى الإيمان بوحدة الصانع وقدرته وحكمته ، ثم فصل بعض تلك الآيات بقوله ﴿ وَهُوَ الَّذِى خَلَقَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلٌّ ﴾ تنوينه عوض من المضاف إليه من الشمس والقمر وتابعه وهو النجوم ﴿ فِى فَلَكٍ ﴾ أى جسم مستدير كالطاحونة فى السماء ﴿ يَسْبَحُونَ ﴾ أى يسيرون بسرعة كالسابح فى الماء ، وللتشبيه به أتى بضمير جمع من يعقل وهو خبر « كل » والجمع باعتبار كثرة المطالع ، أو مع اعتبار التابع وهو النجوم ، أو حال والخبر « فى فلك » وهو صريح فى أن الحركة للكوكب دون الفلك كما يزعمه أهل الهيئة والفلك لغة كل مستدير ، والمراد به هنا السماء الذى تجرى فيه الكواكب ، أو موج مكفوف دون السماء تجرى فيه ، أو طاحونة كهيئة فلكة المغزل ، والحاصل أنه مدار النجوم الذى يضمها ، ونزل لما قال الكفار : إن محمداً سيموت ﴿ وَمَا جَعَلْنَا لِبَشَرٍ مِنْ قَبْلِكَ الْخُلْدَ ﴾ أى البقاء فى الدنيا

﴿أَفَإِنْ مِتَّ فَهُمُ الْخَالِدُونَ﴾ فيها ؟ لا . والجملة الأخيرة محل الاستفهام الإنكارى ، والفاء لتعلق الشرط بما قبله ، ثم برهن على ذلك بقوله ﴿ كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ ﴾ أى مرارة مفارقتها لجسدها فى الدنيا ﴿ وَنَبْلُوكُمْ ﴾ نختبركم ﴿ بِالشَّرِّ وَالْخَيْرِ ﴾ كفقر وغنى وسقم وصحة لنرى صبركم على البلاء وشكركم على النعماء ﴿ فِتْنَةً ﴾ ابتلاء مصدر من غير لفظ فعله أو مفعول له ﴿ وَإِلَيْنَا تُرْجَعُونَ ﴾ فنجازيكم على حسب الصبر والشكر ، وفيه إيماء بأن المقصود من هذه الحياة الابتلاء والتعريض للثواب والعقاب وهو تقرير لما سبق ﴿ وَإِذَا رَءَاكَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ ﴾ ما ﴿ يَتَّخِذُونَكَ إِلَّا هُزُوًا ﴾ مهزوءاً به يقولون ﴿ أَهَٰذَا الَّذِى يَذْكُرُ ءَالِهَتَكُمْ ﴾ بسوء أى يعيبها ، واسم الإشارة للتحقير ﴿ وَهُمْ بِذِكْرِ الرَّحْمَٰنِ ﴾ بما يجب أن يذكر به من الوحدانية أو بذكر اسمه الرحمن أو بالقرآن الذى أنزله الرحمن إليك ﴿ هُمْ كَٰفِرُونَ ﴾ والمعنى وهم بهذه الصفة فهم الأحقاء أن يتخذوا هزؤا وتكرير الضمير للتأكيد والتخصيص ولحيلولة الصلة بينه وبين الخبر ﴿ خُلِقَ الْإِنْسَانُ مِنْ عَجَلٍ ﴾ أى أنه لكثرة عجله وقلة تثبته كأنه خلق منه كقولهم : خلق زيد من كرم ، والآية نزلت فى النضر بن الحارث المستعجل للعذاب ﴿ سَأُرِيكُمْ ءَايَاتِى ﴾ مواعيدى بالعذاب التى تستعجلون بها فى الدنيا كوقعة بدر أو فى الآخرة وهو عذاب النار ﴿ فَلَا تَسْتَعْجِلُونِ ﴾ فيها ﴿ وَيَقُولُونَ ﴾ للنبى وأصحابه ﴿ مَتَىٰ هَٰذَا الْوَعْدُ ﴾ أى وقت وعد هذا العذاب ، أو الوعد بالقيامة ﴿ إِنْ كُنْتُمْ صَٰدِقِينَ ﴾ فى وقوعه فى الدنيا أو فى القيامة ، قال تعالى ﴿ لَوْ يَعْلَمُ الَّذِينَ كَفَرُوا حِينَ لَا يَكُفُّونَ ﴾ لا يدفعون ﴿ عَنْ وُجُوهِهِمُ النَّارَ وَلَا عَنْ ظُهُورِهِمْ وَلَا هُمْ يُنْصَرُونَ ﴾ لا يمنعون منها فى القيامة ، وجواب « لو » ما قالوا ذلك الاستعجال ، و « حين » مفعول « يعلم » : أى لو يعلمون الوقت الذى يستعجلون منه ، أو ليس له مفعول : أى لو كانوا من أهل العلم ، فـ « حين » منصوب بفعل مضمر ، أى : يعلمون ذلك حين ، وإنما وضع الظاهر موضع المضمر للدلالة على ما أوجب لهم ذلك ﴿ بَلْ تَأْتِيهِمْ ﴾ القيامة أو العدة ﴿ بَغْتَةً ﴾ فجأة : مصدر أو حال ، وقرئ بفتح الغين ﴿ فَتَبْهَتُهُمْ ﴾ تحيرهم ﴿ فَلَا يَسْتَطِيعُونَ رَدَّهَا ﴾ أى الساعة أو النار لأن الوعد بمعنى النار ، والحين بمعنى الساعة ﴿ وَلَا هُمْ يُنْظَرُونَ ﴾ يمهلون إذ ذاك ، وفيه تذكير بإمهالهم فى الدنيا وتفسيح الوقت عليهم وأنه لا إنظار بعد ذلك الإمهال الطويل ومن لم يتذكر قبل الموت لم ينفعه التذكير . قال عليه السلام : أنا النذير والموت المغير والساعة الموعد . ولما ذكر الله الأجوبة الدامغة لطعنهم فى نبوة نبيه وأدمج فيها معانى من أسباب المقاصد سلاه بأن له فيما ناله من الأذى أسوة بأجلة الرسل بقوله ﴿ وَلَقَدِ اسْتُهْزِئَ بِرُسُلٍ مِنْ قَبْلِكَ ﴾ فاصبر كما صبروا ﴿ فَحَاقَ ﴾ نزل وأحاط ﴿ بِالَّذِينَ سَخِرُوا مِنْهُمْ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِءُونَ ﴾ وهو العذاب فكذلك يحيق بمن استهزأ بك وهو وعد له بالنصر فى العاقبة ﴿ قُلْ ﴾ للمستهزئين ﴿ مَنْ يَكْلَؤُكُمْ ﴾ يحفظكم ﴿ بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ مِنَ الرَّحْمَٰنِ ﴾ من عذابه إن نزل بكم . وفى إيثار الرحمن إشارة إلى أن لا كالئ لهم إلا رحمته الغالبة ، وإيماء إلى أنه وإن عظمت نعماؤه

ما أعظم غماءه على ما يقال : نعوذ بالله من غضب الحليم ، والسؤال سؤال تقريع ولذا أضرب عنه بقوله ﴿ بَلْ هُمْ عَنْ ذِكْرِ رَبِّهِمْ مُعْرِضُونَ ﴾ لا يخطرونه ببالهم فضلا عن أن يخافوا من بأسه ويعرفوا الكالئ ويصلحوا للسؤال عنه ﴿ أَمْ لَهُمْ آلِهَةٌ تَمْنَعُهُمْ مِنْ دُونِنَا ﴾ إضراب عن إعراضهم إلى ما هو أشد وأدخل فى الإنكار و « أم » فيها معنى الهمزة ، أى : ألهم آلهة تمنعهم مما يسوءهم غيرنا ﴿ لَا يَسْتَطِيعُونَ ﴾ أى الآلهة ﴿ نَصْرَ أَنْفُسِهِمْ ﴾ فكيف ينصرونهم ، استئناف لإبطال ما اعتقدوه ﴿ وَلَا هُمْ ﴾ أى الآلهة ﴿ مِنَّا يُصْحَبُونَ ﴾ أى لا يصحبهم نصر منا : أو الكفار : أى لا يجارون من عذابنا . يقال صحبك الله أى حفظك وأجارك ﴿ بَلْ ﴾ إضراب عما توهموا إلى بيان الداعى إلى كلامهم وهو ﴿ مَتَّعْنَا هَؤُلَاءِ وَآبَاءَهُمْ ﴾ بضروب النعم استدراجا ﴿ حَتَّى طَالَ عَلَيْهِمُ الْعُمُرُ ﴾ فظنوا أن لا يزالوا كذلك وأنه بسبب ما هم عليه فاغتروا بذلك ﴿ أَفَلَا يَرَوْنَ ﴾ لا يعلمون ﴿ أَنَّا نَأْتِي الْأَرْضَ ﴾ أى سنقصد أرضهم ، واللام للعهد ﴿ نَنْقُصُهَا مِنْ أَطْرَافِهَا ﴾ بالفتح على النبى صلى الله عليه وسلم فالآية معجزة مستقلة إذ قد وقع ذلك كما أخبر لأن السورة مكية ﴿ أَفَهُمُ الْغَالِبُونَ ﴾ لا يكون ذلك بل النبى وأصحابه ﴿ قُلْ ﴾ لهم ﴿ إِنَّمَا أُنْذِرُكُمْ بِالْوَحْيِ ﴾ من الله لا من قبل نفسى ، فذلك لما مر من أدلة النبوة والتوحيد ومن الوعد والوعيد أى أن جميع ما تلوته عليكم وحى من الله ، كما يقول أحد خواص الملك لمن ينصحه : إن هذا كلام الملك ﴿ وَلَا يَسْمَعُ الصُّمُّ الدُّعَاءَ ﴾ ولابن عامر تسمع بالخطاب من الإسماع ﴿ إِذَا مَا يُنْذَرُونَ ﴾ أى هم لتركهم العمل بما سمعوه من الإنذار كالصم والتقييد بالإنذار لأن الكلام فيه أو للمبالغة فى تصامهم أى هو المانع للسماع لا القصور فى الإنذار إذ الأصل لا يسمعون ما ينذرون فعدل إلى هذه العبارة لهذا المعنى ﴿ وَلَئِنْ مَسَّتْهُمْ نَفْحَةٌ ﴾ مرة نفح والمعنى أدنى شىء ﴿ مِنْ عَذَابِ رَبِّكَ ﴾ الذى ينذرون به ﴿ لَيَقُولُنَّ يَا ﴾ للتنبيه ﴿ وَيْلَنَا ﴾ هلا كنا ﴿ إِنَّا كُنَّا ظَالِمِينَ ﴾ بالإشراك وتكذيب الرسول ، والنفحة المرة من نفح الطيب إذا فاح وفيه مبالغات : ذكر المس الذى هو اتصال ما ، والنفح ، وبناء المرة ، والتنكير الدال على القلة ﴿ وَنَضَعُ الْمَوَازِينَ الْقِسْطَ ﴾ أى ذوات العدل يوزن بها صحف الأعمال كما فى الأحاديث الصحاح ، وقيل تمثيل للحساب السوى والجزاء على حسب الأعمال بالعدل ، وإفراد « القسط » لأنه مصدر وصف به للمبالغة ، وتقدم الكلام فى الموازين فى سورة الأعراف ﴿ لِيَوْمِ الْقِيَامَةِ ﴾ أى فيه أو لجزائه أو لأجل أهله أو اللام للتوقيت كقوله « لدلوك الشمس » قال القرطبى فى تذكرته : قال العلماء إذا انقضى الحساب كان بعده وزن الأعمال لأن الوزن للجزاء فينبغى أن يكون بعد المحاسبة . اهـ . قال القابسى : والصحيح أن الحوض قبل الميزان . اهـ . وهل الحوض قبل الصراط أو بعده أو هما حوضان ؟ أقوال . والله أعلم ﴿ فَلَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْئًا ﴾ من أعمالها أو من الظلم ﴿ وَإِنْ كَانَ ﴾ وجد ﴿ مِثْقَالَ حَبَّةٍ ﴾ برفع المثقال لنافع على أن « كان » تامة وبنصبه للباقين على ناقصة أى إن كان العمل زنة حبة ﴿ مِنْ خَرْدَلٍ أَتَيْنَا بِهَا ﴾ أحضرنا موزونها ﴿ وَكَفَى بِنَا حَاسِبِينَ ﴾

محصين فى كل شىء لكمال علمنا وشموله وإنما وضع الميزان إظهاراً للعدل ، وأنث ضمير المثقال لإضافته إلى الحبة . ثم شرع تعالى فى تفصيل الرسل الذين استهزئ بهم إكمالا للتسلية بعد الإحاطة بأحوالهم وبدأ بذكر موسى عليه السلام لكثرة آياته وأمته بقوله ﴿ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَىٰ وَهَٰرُونَ الْفُرْقَانَ ﴾ أى الكتاب الجامع لكونه فارقاً بين الحق والباطل ﴿ وَضِيَآءً ﴾ يستضاء به فى ظلمات الجهالة على الأحكام الدينية ﴿ وَذِكْرًا ﴾ موعظة يتعظ به ﴿ لِّلْمُتَّقِينَ ﴾ الله أو ذكراً لما يحتاجون إليه من الشرائع والثلاثة بمعنى التوراة والعطف لتغاير الصفات ، وقيل الفرقان النصر وقيل فلق البحر ، ثم بيّن المتقين بقوله ﴿ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُم ﴾ صفة للمتقين مرفوع أو منصوب على المدح ﴿ بِالْغَيْبِ ﴾ حال من الفاعل أو المفعول ﴿ وَهُم مِّنَ السَّاعَةِ ﴾ أى أهوالها ﴿ مُشْفِقُونَ ﴾ خائفون غاية الخوف وفى تقديم الضمير تعريض بغيرهم ﴿ وَهَٰذَا ﴾ القرآن ﴿ ذِكْرٌ مُّبَارَكٌ ﴾ كثير خيره ﴿ أَنزَلْنَاهُ ﴾ على محمد ﴿ أَفَأَنتُمْ لَهُ مُنكِرُونَ ﴾ والاستفهام للتوبيخ ، ولما فرغ من قصة موسى ولم يستوفها لتقدمها فى السورة السابقة مستوفاة أشار إلى قصة إبراهيم لكون قصته أغرب القصص لبلوغه أقصى مراتب المتوكلين فقال ﴿ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا إِبْرَاهِيمَ رُشْدَهُ ﴾ وهو الاهتداء لوجوه الصلاح وأسرار النبوة والحجة على قومه ، وإضافته إليه ليدل على أنه رشد مثله وأن له شأناً ﴿ مِن قَبْلُ ﴾ قبل موسى وهارون أو محمد أو قبل بلوغه حيث قال « إنى وجهت وجهى ... الآية » ﴿ وَكُنَّا بِهِ عَالِمِينَ ﴾ بأنه أهل لذلك لما جبل عليه من الذكاء وبديع الأسرار وقوة اليقين وكمال التسليم وجميع محاسن الأوصاف ومكارم الخصال ﴿ إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِ ﴾ أى اذكر من أوقاته هذا الوقت فإنه يسليك عما تلقاه من قومك ﴿ مَا هَٰذِهِ التَّمَاثِيلُ ﴾ أى الصور التى لا روح فيها يريد الأصنام ، والتمثال اسم للشىء الموضوع مشبهاً بخلق من خلق الله ، والمراد تحقير شأنها والتوبيخ على إجلالها ﴿ الَّتِي أَنتُمْ لَهَا عَاكِفُونَ ﴾ مقيمون على عبادتها وهى لا تنفع ولا تضر ، واللام للاختصاص لا للتعدية لأن عكف يتعدى بعلى أى أنتم فاعلون العكوف لها . قال فى غاية الأمانى : والأحسن تضمين العكوف معنى العبادة لقوله ﴿ قَالُوا وَجَدْنَا ءَابَاءَنَا لَهَا عَابِدِينَ ﴾ فاقتدينا بهم ﴿ قَالَ ﴾ لهم ﴿ لَقَدْ كُنتُمْ أَنتُمْ وَءَابَاؤُكُمْ ﴾ بعبادتها منخرطين ﴿ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ ﴾ بيّن لا يخفى على عاقل لعدم استناد الفريقين إلى دليل ﴿ قَالُوا أَجِئْتَنَا ﴾ بما تقول ﴿ بِالْحَقِّ ﴾ بالجد ﴿ أَمْ أَنتَ مِنَ اللَّاعِبِينَ ﴾ فيه كأنهم لاستبعاد تضليل آبائهم ظنوا أن ما قاله على وجه الملاعبة وإنما آثروا الاسمية فى معادلة الهمزة ميلا إلى ترجيحه وأنه الذى يليق بحاله . قال فى غاية الأمانى : وعندى أن « أم » منقطعة إضراباً عن كون ما جاء به فيه شائبة حق ولذلك قابلهم بمثل ما بدءوه حيث قال ﴿ قَالَ بَل ﴾ إضراب عن كونه لاعباً بإقامة البرهان على ما ادعاه بقوله ﴿ رَّبُّكُمْ ﴾ المستحق لعبادتكم ﴿ رَبُّ ﴾ مالك ﴿ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ الَّذِي فَطَرَهُنَّ ﴾ خلقهن على غير مثال سبق ويحتمل الضمير للتماثيل وهو أدخل فى تضليلهم ورجوعه للسموات والأرض أقرب ﴿ وَأَنَا عَلَىٰ ذَٰلِكُم ﴾ التوحيد ﴿ مِّنَ الشَّاهِدِينَ ﴾ الموقنين المبرهنين

عليه فإن الشاهد مَن تحقق الشيء وحققه ﴿ وَتَاللَّهِ ﴾ قسم فيه تعجب ﴿ لَأَكِيدَنَّ أَصْنَامَكُمْ ﴾ أعمل الحيل في كسرها وإيثار التاء التي هي للتثبت والكيد الدال على الاحتيال الإشعار بأن التعرض لها أمر خطير لا سيما مع نمرود ﴿ بَعْدَ أَنْ تُوَلُّوا ﴾ عنها ﴿ مُدْبِرِينَ ﴾ إلى عيدكم ولعله قال ذلك سرًّا فسمعه بعضهم روى أنهم خرجوا معه إلى عيدهم فدخلوا بيت الأصنام وسجدوا لها ووضعوا أطعمتهم عندها للتبرك فإذا رجعوا أكلوا ، فقال لهم إبراهيم : إني سقيم فتركوه فدخل بيت الأصنام وهي سبعون صنما فأخذ الفأس ﴿ فَجَعَلَهُمْ جُذَاذًا ﴾ بضم الجيم للجمهور وكسرها للكسائي فتاتاً بالكسر والفتح ﴿ إِلَّا كَبِيرًا لَهُمْ ﴾ علق الفأس في عنقه ﴿ لَعَلَّهُمْ إِلَيْهِ ﴾ إلى الكبير ﴿ يَرْجِعُونَ ﴾ فيسألونه عن كاسرها فيبكتهم بذلك أو إلى إبراهيم لعلمه أنهم لا يرجعون إلا إليه لتفرده بعداوة آلهتهم فيحاجهم بقوله بل فعله كبيرهم ﴿ قَالُوا ﴾ حين رجعوا ورأوا ما فُعل ﴿ مَنْ فَعَلَ هَذَا بِآلِهَتِنَا إِنَّهُ لَمِنَ الظَّالِمِينَ ﴾ فيه لجرأته وهتك ما كان يجب توقيره أو بتوريط نفسه للهلاك ﴿ قَالُوا ﴾ أي بعضهم ﴿ سَمِعْنَا فَتًى يَذْكُرُهُمْ ﴾ بما لا ينبغي فعله ، ويذكرهم ثاني مفعولي سمع أو صفة لفتى يصح تعلق السمع به ﴿ يُقَالُ لَهُ إِبْرَاهِيمُ ﴾ نائب عن فاعل يقال لأن المراد به الاسم لا المسمى ﴿ قَالُوا فَأْتُوا بِهِ عَلَى أَعْيُنِ النَّاسِ ﴾ أي ظاهراً بمرأى منهم بحيث تتمكن صورته في أعينهم تمكن الراكب على المركوب ﴿ لَعَلَّهُمْ يَشْهَدُونَ ﴾ عليه بفعله أو قوله أو يحضرون عقوبتنا له ﴿ قَالُوا ﴾ حين أحضروه ﴿ أَأَنْتَ فَعَلْتَ هَذَا بِآلِهَتِنَا يَا إِبْرَاهِيمُ ﴾ الاستفهام للتقرير أو هو على أصله ﴿ قَالَ بَلْ فَعَلَهُ كَبِيرُهُمْ هَذَا ﴾ غضباً أن تعبدوا معه هذه الصغار وهو أكبر منها ﴿ فَاسْأَلُوهُمْ ﴾ عن فاعله ﴿ إِنْ كَانُوا يَنْطِقُونَ ﴾ ومعنى الإضراب أن السؤال لا وجه له إذ لا يصلح لهذا الفعل غيري لكن أسند الفعل إلى الكبير تقريراً لنفيه مع الاستهزاء والتبكيت على أسلوب تعريضي كما لو قال لك من لا يحسن الخط فيما كتبته بخط رشيق أأنت كتبت هذا فقلت بل كتبته أنت ! وهذا النوع من الكلام من ألطف المعاريض وفيه إشارة لهم إلى أن الصنم الكبير إذا لم يرض بالإشراك فكيف يرضى به خالق الكائنات ولذا أسند الفعل إلى الكبير فرضاً للباطل مع الخصم حتى يرجع إلى الحق وهو جائز وقيل إنه في المعنى متعلق بقوله إن كانوا ينطقون أي إن كان ينطق فهو فعله فلا كذب فيه لكن في الحديث الصحيح عن النبيّ صلى الله عليه وسلم «لم يكذب إبراهيم إلا ثلاث كذبات : قوله «إني سقيم» وقوله «بل فعله كبيرهم هذا» وقوله للملك هي أختي وكانت مقالاته هذه في ذات الله ... الحديث» قال العلماء : معنى الحديث لم يقل ما ظاهره كذب إلا فيها لأنها معاريض . والله أعلم ﴿ فَرَجَعُوا إِلَى أَنْفُسِهِمْ ﴾ عقولهم بالتفكر ﴿ فَقَالُوا ﴾ أي قال بعضهم لبعض ﴿ إِنَّكُمْ أَنْتُمُ الظَّالِمُونَ ﴾ بهذا السؤال أو بعبادة من لا ينطق ولا يضر ولا ينفع لا من ظلمتموه بقولكم «إنه لمن الظالمين» ﴿ ثُمَّ نُكِسُوا عَلَى رُءُوسِهِمْ ﴾ أي ردوا إلى كفرهم بعد ما استقاموا بالمراجعة شبه عودهم إلى الباطل بما صير أسفله أعلاه قائلين والله ﴿ لَقَدْ عَلِمْتَ مَا هَؤُلَاءِ يَنْطِقُونَ ﴾ فكيف تأمرنا بسؤالهم

ونحن قد علمنا أنها لا قدرة لها ومع ذلك اتخذناها أربابا وقيل النكس عبارة عن غاية إطراقهم رءوسهم خجلا وقولهم « لقد علمت » كلمة حيرة تكلموها مع كونها حجة عليهم ﴿ قَالَ ﴾ لهم إبراهيم لما ثبتت هذه الحجة عليهم ﴿ أَفَتَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ ﴾ أى غيره ﴿ مَالَا يَنْفَعُكُمْ شَيْئًا ﴾ من رزق وغيره ﴿ وَلَا يَضُرُّكُمْ ﴾ إذا لم تعبدوه تعليل بما ينافى الألوهية ثم حقرهم وحقرها بقوله ﴿ أُفٍّ ﴾ بكسر الفاء منوناً للتنكير المفيد للتعظيم لنافع وحفص وبفتحها بناء لابن كثير وابن عامر وبالكسر غير منون للباقين لأن أصل بنائه السكون والكسر أصل فى تحريك الساكن اسم صوت إذا صوت به علم أن المصوت متضجر ﴿ لَكُمْ ﴾ أى أتضجر لكفركم واللام للسببية وقيل صوت بمعنى مصدر أى نتنا وقبحا ، واللام لبيان المتأفف له ﴿ وَلِمَا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴾ قبح صنيعكم لأنها لا تستحق العبادة وإنما يستحقها الله تعالى ﴿ قَالُوا ﴾ أخذا فى المضادة لما عجزوا عن المحاجة ﴿ حَرِّقُوهُ ﴾ أى إبراهيم إذ لا يتصور عذاب فوق النار قاله أولا رجل من أكراد فارس أى باديتها فتتابعوا عليه ﴿ وَانْصُرُوا آلِهَتَكُمْ ﴾ بالانتقام لها ﴿ إِنْ كُنْتُمْ فَاعِلِينَ ﴾ نصرتها فأخذ ملكهم نمرود إبراهيم وحبسه شهراً يجمعون له الحطب فى حظيرة بنوها وأضرموا النار فى جميعه فاشتعلت سبعة أيام تحرق الطير المارّ عليها فى الجو ولم يعلموا كيف يلقون إبراهيم فيها فجاءهم إبليس فى صورة شيخ فعلمهم عمل المنجنيق فعملوه وجعلوا إبراهيم فيه فصاح من فى السموات والأرض غير الثقلين صيحة واحدة ربنا خليلك إبراهيم يلقى فى النار وليس فى أرضك أحد يعبدك غيره ثم رموه فى النار فتلقاه جبريل عليهما السلام فقال ألك حاجة ؟ فقال أما إليك فلا . قال : سل ربك . فقال: حسبى من سؤالى علمه بحالى ، قال تعالى ﴿ قُلْنَا يَا نَارُ كُونِي بَرْدًا وَسَلَامًا عَلَى إِبْرَاهِيمَ ﴾ فلم تحرق منه غير وثاقه وذهبت حرارتها وبقيت إضاءتها وبقوله « سلاماً » سلم من الموت ببردها وكانت معجزة لإبراهيم وجعل الله تلك الحظيرة روضة وبعث الله جبريل بقميص من حرير الجنة وطنفسة فألبسه القميص لأنهم جردوه أولا وأقعده على الطنفسة وقعد معه يحدثه وأقام إبراهيم فيها سبعة أيام حكى أنه قال ما كنت أياما أنعم منى من الأيام التى كنت فى النار ثم أشرف نمرود من صرح له فرآه جالساً والملك قاعد إلى جنبه وما حوله نار تحرق الحطب فناداه يا إبراهيم كبيرٌ إلهك الذى بلغت قدرته أن حال بينك وبين ما أرى هل تستطيع أن تخرج منها؟ قال : نعم ، قال : هل يضرك الجلوس هناك ؟ قال : لا ، قال : فاخرج منها فإنا لا نتعرض لك فقام إبراهيم يمشى فيها إلى أن خرج فقال نمرود إنى مقرب إلى إلهك قرباناً لما رأيت من قدرته وعزته فيما صنع بك فذبح أربعة آلاف بقرة للمساكين فقال له إبراهيم : لا يقبل منك حتى تفارق دينك ، فقال : إنى لا أستطيع ترك ملكى . قال تعالى ﴿ وَأَرَادُوا بِهِ كَيْدًا ﴾ مكراً فى إضراره وإذلاله ﴿ فَجَعَلْنَاهُمُ الْأَخْسَرِينَ ﴾ فى مرادهم أخسر من كل خاسر إذ عاد سعيهم برهاناً على أن إبراهيم على الحق وهم على الباطل فهاجر إبراهيم عنهم فاستحقوا العذاب فأرسل الله عليهم البعوض فأكلت لحومهم وشربت دماءهم

﴿ وَنَجَّيْنَاهُ وَلُوطًا ﴾ ابن أخيه هاران حين آمن به فخرجا من العراق مع سارة زوجة إبراهيم وابنة عمه هاران الأكبر ﴿ إِلَى الْأَرْضِ الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا لِلْعَالَمِينَ ﴾ بكثرة الأنهار والأشجار وهي الشام ومن بركاته العامة بعث أكثر الأنبياء فيه وانتشار شرائعهم في العالمين التي هي سبب خير الدارين . روي أنه عليه السلام نزل بفلسطين ولوط بالمؤتفكات وبينهما يوم ﴿ وَوَهَبْنَا لَهُ ﴾ لإبراهيم وكان سأل ولداً كما ذكر في الصافات ﴿ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ ﴾ ولد إسحق ﴿ نَافِلَةً ﴾ عطية فهي حال منهما أو زيادة على ماسأل فتختص بيعقوب ﴿ وَكُلًّا ﴾ يعني الأربعة إبراهيم وولديه ولوطاً ﴿ جَعَلْنَا صَالِحِينَ ﴾ كاملين في الصلاح أنبياء ﴿ وَجَعَلْنَاهُمْ أَئِمَّةً ﴾ يقتدى بهم في الخيرات ﴿ يَهْدُونَ ﴾ الناس إلى الحق ﴿ بِأَمْرِنَا ﴾ لهم بذلك وإرسالنا إياهم حتى صاروا مكملين بعد الكمال إذ لا يصلح للقدوة إلا من اهتدت نفسه وعمل بما علم ﴿ وَأَوْحَيْنَا إِلَيْهِمْ فِعْلَ الْخَيْرَاتِ ﴾ العمل بالشرائع ليحثوا الناس عليها بانضمام العمل إلى العلم ﴿ وَإِقَامَ الصَّلَاةِ وَإِيتَاءَ الزَّكَاةِ ﴾ أي أوحينا إليهم أن تفعل وتقام وتؤتى منهم ومن أتباعهم وحذف هاء إقامة تخفيف وعطفها على السابق من عطف الخاص على العام للتفضيل ﴿ وَكَانُوا لَنَا ﴾ لا لغير ﴿ عَابِدِينَ ﴾ ذكره تنبيهاً على شرف العبادة كوصفهم بالصلاح ﴿ وَلُوطًا ﴾ منصوب بما فسره ﴿ آتَيْنَاهُ حُكْمًا ﴾ فصلا بين الخصوم أو حكمة ونبوة ﴿ وَعِلْمًا ﴾ بما ينبغي علمه للأنبياء ﴿ وَنَجَّيْنَاهُ مِنَ الْقَرْيَةِ الَّتِي كَانَتْ تَعْمَلُ ﴾ أي أهلها الأعمال ﴿ الْخَبَائِثَ ﴾ من الكفر واللواط ورمي المارة بالبنادق والتضارط في النادي وعدم النهي عن المنكر وهي قرية سدوم ﴿ إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمَ سَوْءٍ ﴾ مصدر ساءه نقيض سرّه وفي إضافتهم إليه مبالغة كرجل صدق ﴿ فَاسِقِينَ ﴾ وهو كالتعليل لإنجائه منهم ﴿ وَأَدْخَلْنَاهُ فِي رَحْمَتِنَا ﴾ في أهل رحمتنا أو في الجنة ﴿ إِنَّهُ مِنَ الصَّالِحِينَ ﴾ ولذا صلح للكرامة ﴿ وَ ﴾ اذكر ﴿ نُوحًا ﴾ وما بعده بدل منه وهو ﴿ إِذْ نَادَى ﴾ ربه بقوله « رب لا تذر . . . إلى آخره » ﴿ مِنْ قَبْلُ ﴾ من قبل المذكورين ﴿ فَاسْتَجَبْنَا لَهُ ﴾ دعاءه ﴿ فَنَجَّيْنَاهُ وَأَهْلَهُ ﴾ الذين في سفينته ﴿ مِنَ الْكَرْبِ الْعَظِيمِ ﴾ الغرق بالطوفان وما كان فيه من تكذيب قومه ﴿ وَنَصَرْنَاهُ ﴾ منعناه أو جعلناه منتصرا ﴿ مِنَ الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا ﴾ الدالة على رسالته أن لا يصلوا إليه بسوء، وقيل « من » بمعنى « على » ﴿ إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمَ سَوْءٍ فَأَغْرَقْنَاهُمْ أَجْمَعِينَ ﴾ وفي جميع ما تقدم وعيد للكفار بالهلاك ووعد للمؤمنين بالنجاة ضمناً ﴿ وَ ﴾ اذكر ﴿ دَاوُدَ وَسُلَيْمَانَ ﴾ أي قصتهما ويبدل منهما ﴿ إِذْ يَحْكُمَانِ فِي الْحَرْثِ ﴾ زرع أو كرم تدلت عناقيده ﴿ إِذْ نَفَشَتْ فِيهِ غَنَمُ الْقَوْمِ ﴾ رعته ليلا بلا راع بأن انفلتت ، وأصل النفش التفرق ومنه نفش القطن ﴿ وَكُنَّا لِحُكْمِهِمْ ﴾ حكم المتحاكمين والحاكمين أو من إطلاق التثنية على الجمع أي الحكم الذي حكماه على الانفراد لأن اجتماع حكمين على حكم واحد لا يجوز ﴿ شَاهِدِينَ ﴾ حاضرين علماء ﴿ فَفَهَّمْنَاهَا ﴾ أي الحكومة ﴿ سُلَيْمَانَ ﴾ إذ حكم داود بالغنم لصاحب الحرث فقال سليمان : غير هذا أرفق تدفع الغنم إلى أهل الحرث ينتفعون بألبانها وأصوافها والحرث

إلى أرباب الغنم يقومون عليه حتى يعود ثم يتراضيان فأمضى داود حكمه إذ حكمه أولا كان بالاجتهاد والحمل على أنهما حكما بالوحى والثانى ناسخ بعيد لأن سليمان كان حينئذ صغيراً ابن إحدى عشرة سنة لم يوح إليه ، وفى لفظ « ففهمناها » إشارة إلى أن ذلك كان اجتهاداً ورجوع المجتهد إلى قول غيره لظهور الدليل له متعين ﴿ وَكُلًّا ﴾ منهما ﴿ ءَاتَيْنَـٰهُ حُكْمًا ﴾ نبوة ﴿ وَعِلْمًا ﴾ بأمور الدين مدح لهما بعد أن قدم أن الحق ما قاله سليمان دلالة على أن المجتهد وإن أخطأ ممدوح لبذله الوسع ، ومن اجتهد وأصاب فله أجران ومن أخطأ فله أجر واحد لكن ما حكما به غير معلوم عندنا إذ لا نص فيه تواتراً فتعين أن نبين حكم شرعنا فى مثل ذلك فأبو حنيفة لا يوجب الضمان فيما أتلفت البهائم إلا إذا كان صاحبها معها عملا بحديث صحيح « العجماء جبار » أى هدر ، وفرق مالك والشافعى وأحمد فأوجبوا الضمان فيما أتلفت ليلا مطلقاً عملا بقول النبى صلى الله عليه وسلم فى حديث ناقة براء : على أهل الأموال حفظها بالنهار وعلى أهل الماشية حفظها بالليل . وهذا الحديث خاص بالنهار فيخص به ذلك العام فى نفى الضمان ، فعلى القول بالضمان يضمن قيمة الزرع على رجاء أن يتم وأن لا يتم : قاله مطرف ، أو قيمته لو حل بيعه : قاله ابن القاسم وتلك القيمة على أربابها وإن زادت على قيمة المواشى ولو لم يقض حتى نبت أو انجبر وعاد إلى حاله فإن كانت فيه قبل ذلك منفعة رعى أو غيره ضمن صاحبها تلك المنفعة وإن لم تكن فيه منفعة فلا ضمان . وقال أصبغ : يضمن لأن التلف تحقق والجبر ليس من جهته وفى كتاب ابن سحنون أن الحديث يعنى حديث ناقة البراء إنما جاء فى أمثال المدينة التى هى حيطان محدقة وأما البلاد التى هى زروع متصلة غير محظرة فيضمن أرباب النعم فيها ما أفسدته ليلا أو نهارا . اهـ . قال ابن العربى فى الأحكام : النفشة لا تخلو إما أن تكون فى بقعة زرع فلا يدخلها إلا ماشية تحتاج فى الزرع وما أفسدته فالضمان على أهلها ليلا أو نهاراً وأما فى بقعة سرح فعلى صاحب الزرع حفظه ولا شىء على أرباب المواشى . قال مالك : كان الزرع محظراً أم لا وقد قسم مالك المواشى إلى ضوارى وهى المعتادة لإفساد الزرع فتغرب أو تباع فى بلد لا زرع فيه وإن كره ذلك ربها وإلى حريسة وهى التى يستطاع الاحتراز عنها فلا يؤمر صاحبها بالإخراج ، وأما نحو الدجاج والنحل والحمام فلا يمنع اتخاذها إن لم يضر ، وأما الانتفاع بما يضر أحداً فلا سبيل إليه . اهـ . وإنما أطلنا فى هذه المسألة لمس الحاجة إليها وقلة المطلعين عندنا على كتبها ، رزقنا الله العمل بما قال العلماء ﴿وَسَخَّرْنَا مَعَ دَاوُدَ الْجِبَالَ يُسَبِّحْنَ﴾ إذا سبح حال أو استئناف ﴿ وَالطَّيْرَ ﴾ عطف على الجبال أو مفعول معه كل يسبح معه إذا وجد فترة لينشط له ﴿ وَكُنَّا فَاعِلِينَ ﴾ مثل ذلك لا مثاله فليس ببدع منا وإن كان عجباً عندكم ﴿ وَعَلَّمْنَـٰهُ صَنْعَةَ لَبُوسٍ ﴾ عمل درع لأنها تلبس وهو أول من صنعها . وعن قتادة : كانت قبله صفائح الحديد فأول من سردها وضم الحلق بعضها إلى بعض داود عليه السلام فجمعت الخفة والتحصين ﴿ لَكُمْ ﴾ متعلق بعلم أو صفة للبوس ﴿ لِيُحْصِنَكُمْ ﴾ بالتحتية للجمهور مسنداً إلى ضمير داود أو اللبوس ، وبالنون لأبى بكر والضمير لله ،

وبالفوقانية لابن عامر وحفص والضمير للصنعة أو اللبوس على تأويل الدرع وهو بدل اشتمال بإعادة الجار ﴿ مِنْ بَأْسِكُمْ ﴾ حربكم مع أعدائكم ﴿ فَهَلْ أَنْتُمْ شَاكِرُونَ ﴾ أى تشكرون لأن أصل «هل» الدخول على الفعل فالعدول عنه لإبراز ما يتجدد فى صورة الثابت فكان أدل على طلب الشكر لأنه أمر أخرج على صورة الاستفهام للمبالغة أو التقريع أى اشكروا نعمى بتصديق الرسل والعبادة ﴿ وَ ﴾ سخرنا ﴿ لِسُلَيْمَانَ الرِّيحَ ﴾ وزيادة اللام هنا دون الأول لأن الخارق هنا عائد نفعه إلى سليمان وفى الأول أمر يظهر فى الجبال والطير مع داود بالإضافة إليه ﴿ عَاصِفَةً ﴾ وفى آية أخرى رخاء أى شديدة الهبوب وخفيفته بحسب إرادته أو عاصفة فى العمل غدوها شهر ورواحها شهر ورخاء فى نفسها لا تزعزعه فهى آية إلى آية ومعجزة مع معجزة ﴿ تَجْرِي بِأَمْرِهِ ﴾ كيف يشاء حال ثانية ﴿ إِلَى الْأَرْضِ الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا ﴾ هى الشام رواحاً بعد ما سار به منه بكرة لأنه كان مقيما بها ﴿ وَكُنَّا بِكُلِّ شَيْءٍ عَالِمِينَ ﴾ من ذلك علمه بأن سليمان أهل لما يعطى يدعوه إلى الخضوع ففعله على مقتضى علمه وحكمته ﴿ وَ ﴾ سخرنا ﴿ مِنَ الشَّيَاطِينِ مَنْ يَغُوصُونَ لَهُ ﴾ فى البحار يخرجون نفائسها من الجواهر ، و « من » موصوفة عطف على الريح أو مبتدأ خبره ما قبله ﴿ وَيَعْمَلُونَ عَمَلًا دُونَ ذَلِكَ ﴾ أى سوى الغوص من البناء واختراع الصنائع البديعة لقوله « يعملون له ما يشاء من محاريب وتماثيل وجفان كالجوابى وقدور راسيات » ﴿ وَكُنَّا لَهُمْ حَافِظِينَ ﴾ أن يزيغوا عن أمره أو يفسدوا على ما هو مقتضى جبلتهم لأنهم إذا فرغوا من عمل قبل الليل أفسدوه إن لم يشغلوا بغيره ﴿ وَ ﴾ اذكر ﴿ أَيُّوبَ ﴾ رجلا من الروم وهو أيوب بن أموص بن رازح بن روم بن عيص ابن إسحق بن إبراهيم ، وقيل من بنى إسرائيل وأمه من ذرية لوط بن هاران ، وكان الله قد اصطفاه ونبأه وبسط عليه الدنيا يطعم المساكين ويكفل الأرامل والأيتام ويكرم الضيفان ويبلغ أبناء السبيل شاكراً لأنعم الله مؤدياً لحق الله ثم ابتلى بفقد أولاده وأمواله وبمرض بدنه وضيق عيشه حتى هجر جميع الناس له إلا زوجته « رحمة بنت إفرائيم بن يوسف » أو هى « ماخير بنت ميشاء بن يوسف » سبين ثلاثاً أو سبعاً أو ثمانى عشرة ويبدل من أيوب ﴿ إِذْ نَادَى رَبَّهُ ﴾ حين خاف أن يمنعه المرض من ذكر الله ﴿ أَنِّي مَسَّنِيَ الضُّرُّ ﴾ بضم الضاد ما يلحق الجسم من سوء الحال ، وأما بالفتح فيشمل كل ضرر ﴿ وَأَنْتَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ ﴾ يعنى فارحمنى ، وصف ربه بغاية الرحمة بعد ما ذكر نفسه بما يوجبها وهو مس الضر واكتفى بذلك عن التصريح بالمطلوب لطفا فى السؤال قال عليه السلام «إن لله ملكا موكلا بمن يقول يا أرحم الراحمين فمن قالها ثلاثا قال له الملك إن أرحم الراحمين قد أقبل عليك فسل » رواه الحاكم فى المستدرك ﴿ فَاسْتَجَبْنَا لَهُ ﴾ نداءه ﴿ فَكَشَفْنَا مَا بِهِ مِنْ ضُرٍّ ﴾ بالشفاء من مرضه ﴿ وَآتَيْنَاهُ أَهْلَهُ ﴾ أولاده الذكور والإناث بأن أحيوا له وكل من الصنفين ثلاث أو سبع ﴿ وَمِثْلَهُمْ مَعَهُمْ ﴾ من زوجته وزيد فى شبابها وكان له أندر للقمح وأندر للشعير فبعث الله سحابتين أفرغت إحداهما على أندر القمح الذهب وأفرغت الأخرى على أندر الشعير الورق حتى

فاض ﴿ رَحْمَةً ﴾ مفعول له ﴿ مِنْ عِنْدِنَا ﴾ صفة لأيوب ﴿ وَذِكْرَىٰ ﴾ موعظة ﴿ لِلْعَابِدِينَ ﴾ بعده ليصبروا كما صبر فينالوا به الأجر وحسن العاقبة ﴿ وَ ﴾ اذكر ﴿ إِسْمَاعِيلَ وَإِدْرِيسَ وَذَا الْكِفْلِ ﴾ هو إلياس أو يوشع أو زكريا أى ذا نصيب أو كفالة ﴿ كُلٌّ مِنَ الصَّابِرِينَ ﴾ على طاعة الله وعن معاصيه ﴿ وَأَدْخَلْنَاهُمْ فِي رَحْمَتِنَا ﴾ من النبوة ﴿ إِنَّهُمْ مِنَ الصَّالِحِينَ ﴾ لها أو كاملين فى الصلاح وسمى ذا الكفل لأنه تكفل بصيام جميع نهاره وقيام جميع ليله وأن يقضى بين الناس ولا يغضب فوفى بذلك وقيل لم يكن نبياً ﴿ وَ ﴾ اذكر ﴿ ذَا النُّونِ ﴾ هو يونس بن متى ويبدل منه ﴿ إِذْ ذَهَبَ مُغَاضِبًا ﴾ لقومه أى غضبان عليهم لما سئم من طول دعوتهم وتمادى إصرارهم مهاجرا عنهم قبل أن يؤمر ﴿ فَظَنَّ أَنْ لَنْ نَقْدِرَ عَلَيْهِ ﴾ أى نقضى عليه بالعقوبة أو لن نضيق عليه بذلك أو لن نعمل فيه قدرتنا فهو حينئذ تمثيل لحاله بحال من ظن ذلك بجامع استقلاله فى الذهاب وعدم انتظاره لأمرنا والثلاثة كضرب ونصر وزاد الثالث كفرح ﴿ فَنَادَىٰ ﴾ بعد ما التقمه الحوت ﴿ فِي الظُّلُمَاتِ ﴾ ظلمة الليل وظلمة البحر وظلمة بطن الحوت وقيل ابتلع ذلك الحوت حوت آخر ﴿ أَنْ ﴾ أى بأن ﴿ لَا إِلَٰهَ إِلَّا أَنْتَ سُبْحَانَكَ إِنِّي كُنْتُ مِنَ الظَّالِمِينَ ﴾ لنفسى بالمبادرة إلى الهجرة ، وعن النبى صلى الله عليه وسلم : «ما من مكروب يدعو بهذا الدعاء إلا استجيب له» ﴿ فَاسْتَجَبْنَا لَهُ ﴾ بعد الاعتراف ﴿ وَنَجَّيْنَاهُ مِنَ الْغَمِّ ﴾ الذى كان فيه ﴿ وَكَذَٰلِكَ ﴾ كما أنجيناه ﴿ نُنْجِي الْمُؤْمِنِينَ ﴾ من الشدائد والكرب إذا اعترفوا واستغاثوا بنا مخلصين ، وقرأ ابن عامر وأبو بكر نجى بنون مضمومة وجيم مشددة على أن أصله ننجى مضارع أنجى أدغمت النون فى الجيم لتجانسهما فى الانفتاح والاستعلاء والجهر وعليه الرسم ﴿ وَ ﴾ اذكر ﴿ زَكَرِيَّا ﴾ ويبدل منه ﴿ إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُ ﴾ بقوله ﴿ رَبِّ لَا تَذَرْنِي فَرْدًا ﴾ وحيدا بلا ولد يرثنى ﴿ وَأَنْتَ خَيْرُ الْوَارِثِينَ ﴾ فلا أبالى إن لم أرزق ولدا ﴿ فَاسْتَجَبْنَا لَهُ ﴾ نداءه ﴿ وَوَهَبْنَا لَهُ يَحْيَىٰ ﴾ ولدا ﴿ وَأَصْلَحْنَا لَهُ زَوْجَهُ ﴾ بأن جعلناها ممن تحمل بعد أن كانت عاقرا قاعدا ، وتقديم يحيى وإن كان متأخرا عن إصلاحها لأنه المقصود ، وقيل أصلحناها بتحسين خلقها وكانت حردة . قال فى الجواهر : وعموم اللفظة يتناول جميع الإصلاح وتقدم أن اسمها « ايشاع » ﴿ إِنَّهُمْ ﴾ الأنبياء المذكورين ﴿ كَانُوا يُسَارِعُونَ ﴾ يبادرون ﴿ فِي الْخَيْرَاتِ ﴾ الطاعات ﴿ وَيَدْعُونَنَا رَغَبًا ﴾ فى رحمتنا ﴿ وَرَهَبًا ﴾ من عذابنا أى ذوى رغب أو راغبين فى الثواب راجين الإجابة أو فى الطاعات وخائفين العقاب أو المعصية ﴿ وَكَانُوا لَنَا خَاشِعِينَ ﴾ دائمى الخشوع فى عباداتهم مع الخضوع والأول فعل القلب والثانى فعل الجوارح والمعنى أنهم نالوا من الله ما نالوا بسبب هذه الخصال قال سهل بن عبد الله من خشع قلبه لم يقربه شيطان . قال فى غاية الأمانى ويجوز أن تكون هذه الأوصاف لزكرياء ويحيى ووالدته لتقدم سائر الأنبياء مع أوصافها ﴿ وَ ﴾ اذكر مريم ﴿ الَّتِي أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا ﴾ حفظته من الحرام والحلال وفى ذكرها فى سلك هؤلاء الكمل ، وإيثار لفظ الإحصان الدال على كمال التحفظ : تعظيم شأنها ﴿ فَنَفَخْنَا ﴾ عيسى ﴿ فِيهَا ﴾ فى بطنها

بمعنى أحييناه فى جوفها وقيل فعلنا النفخ فيها ﴿ مِنْ رُوحِنَا ﴾ أى من الروح الذى هو من أسرارنا أو من جهة روح القدس وهو جبريل بأن نفخ فى جيب درعها فحملت بعيسى ﴿ وَجَعَلْنَاهَا وَابْنَهَا ﴾ أى قصتهما ولذا وحد ﴿ ءَايَةً لِّلْعَٰلَمِينَ ﴾ الإنس والجن والملائكة حيث ولدته من غير أب للدلالة على كمال قدرة الصانع تعالى ﴿ إِنَّ هَٰذِهِ ﴾ أى ملة الإسلام ﴿ أُمَّتُكُمْ ﴾ ملتكم أيها المخاطبون التى يجب عليكم أن تكونوا عليها أشار إليها وإن لم يتقدم ذكرها لكونها مصورة فى الأذهان ولكمال تميزها لم يوصف اسم الإشارة ﴿ أُمَّةً وَاحِدَةً ﴾ غير مختلفة بين الأنبياء ولا مشاركة لغيرها فى صحة الاتباع وهى حال لازمة ﴿ وَأَنَا رَبُّكُمْ ﴾ لا إله لكم غيرى ﴿ فَٱعْبُدُونِ ﴾ وحدونى وهذا الكلام يحتمل الخطاب لمعاصرى نبينا ثم التفت عنهم وأخبر بتقطعهم بوعد وأوعد ويحتمل اتصاله بقصة مريم وابنها فيكون خطابا لمن بعده ثم التفت عنهم بقوله ﴿ وَتَقَطَّعُوا أَمْرَهُمْ ﴾ أى فيه أو عدى تقطع لأنه بمعنى قطع ﴿ بَيْنَهُمْ ﴾ أى تفرقوا فى الدين وجعلوا أمره قطعا وهم طوائف اليهود والنصارى والتفت إلى الغيبة إبعادا لهم كأنه ينعى عليهم صنيعهم إلى مخاطب آخر يقول انظروا إلى هؤلاء أىّ دين أفسدوه وأى ضلال ارتكبوه بعد ذلك الإرشاد وهذا أبلغ من قوله فتقطعوا بالفاء فى سورة المؤمنين لمجىء الواو للمقارنة ولذا أمر هنا بالعبادة وهناك بالتقوى إشارة إلى بعد هؤلاء عن تلك الرتبة . قاله فى غاية الأمانى ﴿ كُلٌّ ﴾ من الفرق ﴿ إِلَيْنَا رَٰجِعُونَ ﴾ فنجازيه بحسب أعماله ﴿ فَمَن يَعْمَلْ ﴾ شيئاً ﴿ مِنَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ ﴾ بعضها بعد ذلك التفرق ﴿ وَهُوَ مُؤْمِنٌ ﴾ بالله ورسله إذ لا اعتداد بعمل دون الإيمان ﴿ فَلَا كُفْرَانَ ﴾ تضييع ﴿ لِسَعْيِهِ ﴾ والكفران استعارة لمنع الثواب كما استعير الشكر لإعطائه ونفى الجنس للمبالغة ﴿ وَإِنَّا لَهُ ﴾ لسعيه ﴿ كَٰتِبُونَ ﴾ به فى صحيفة عمله فنجازيه عليه لا يضيع بوجه ما والفاء فى «فمن يعمل» لإشعار التعقيب بعد التفرق والواو فيه فى السورة السابقة لكونه هناك ابتداء للكلام ، والله أعلم ﴿ وَحَرَٰمٌ ﴾ بفتح الحاء مع الألف للجمهور وبكسر الحاء وسكون الراء بلا ألف لحمزة والكسائى وأبى بكر وهما لغتان أى ممتنع ﴿ عَلَىٰ قَرْيَةٍ ﴾ أريد أهلها ﴿ أَهْلَكْنَٰهَآ ﴾ بالفعل أو حكمنا بإهلاكها ﴿ أَنَّهُمْ لَا يَرْجِعُونَ ﴾ رجوعهم إلى الحياة أو التوبة و«لا» صلة أو عدم رجوعهم أى بعثهم للجزاء وهو مبتدأ خبره حرام أو فاعل له ساد مسد خبره أو خبر محذوف أى حرام قبول أعمالهم لأنهم لا يرجعون أى لا يتوبون ، دل على المحذوف ما تقدم فى قوله فمن يعمل من الصالحات وهو مؤمن فلا كفران لسعيه أى يتقبل عملهم ، وقيل حرام بمعنى عزم موجب عليهم أنهم لا يرجعون ﴿ حَتَّىٰٓ ﴾ غاية للامتناع ﴿ إِذَا فُتِحَتْ ﴾ بالتخفيف للجمهور والتشديد لابن عامر ﴿ يَٰٓأَجُوجُ وَمَأْجُوجُ ﴾ بترك الهمز للجمهور وبه لعاصم أى سدهم و « حتى » متصلة بـ « حرام » أو بما دل الكلام عليه أو بـ «لا يرجعون» أى يستمر الامتناع أو الهلاك أو عدم الرجوع إلى قيام الساعة وظهور أماراتها وحتى هذه هى التى تحكى الجمل بعدها أو المحكى هنا الجملة الشرطية والجواب محذوف لدلالة ما تقدم عليه أى فإنهم فى ذلك الوقت

يرجعون . وقيل الجواب فإذا هى شاخصة وهو أولى ﴿ وَهُمْ ﴾ أى يأجوج ومأجوج أو الناس فى ذلك اليوم ﴿ مِنْ كُلِّ حَدَبٍ ﴾ مرتفع من الأرض ﴿ يَنْسِلُونَ ﴾ يسرعون وذكر الحدب لأن الإسراع فيه أظهر ، قيل إن يأجوج ومأجوج تسعة أعشار بنى آدم ﴿ وَاقْتَرَبَ ﴾ حينئذ ﴿ الْوَعْدُ الْحَقُّ ﴾ أى يوم القيامة لأن خروجهم بعد عيسى عليه السلام كما تقدمنا ﴿ فَإِذَا هِيَ ﴾ أى القصة ﴿ شَاخِصَةٌ ﴾ مرتفعة ﴿ أَبْصَارُ الَّذِينَ كَفَرُوا ﴾ فى ذلك اليوم لشدة الخوف ، والجملة جزاء الشرط و « إذا » الفجائية وإن كانت تقوم مقام الفاء إلا أنهما إذا تظاهرتا على ربط الجزاء بشرطه كان الاتصال آكد يقولون ﴿ يَا وَيْلَنَا ﴾ هلاكنا ﴿ قَدْ كُنَّا ﴾ فى الدنيا ﴿ فِي غَفْلَةٍ مِنْ هَذَا ﴾ اليوم لم نعلم أنه الحق ﴿ بَلْ ﴾ إضراب إلى ما هو أقبح وهو ﴿ كُنَّا ظَالِمِينَ ﴾ أنفسنا بتكذيب الرسل ﴿ إِنَّكُمْ ﴾ أيها المشركون ﴿ وَمَا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ ﴾ أى غيره من الأوثان ﴿ حَصَبُ جَهَنَّمَ ﴾ وقودها لأنها تحصب به أى ترمى ، وقيل هو الحطب ، وقيل لا يسمى الحطب حصباً حتى يسجر به ﴿ أَنْتُمْ لَهَا وَارِدُونَ ﴾ داخلون فيها ، استئناف أو بدل من حصب جهنم واللام عوض من على للاختصاص أى لاغيرها وللدلالة على أن ورودهم لأجلها ﴿ لَوْ كَانَ هَؤُلَاءِ ﴾ الأوثان ﴿ آلِهَةً ﴾ كما زعمتم ﴿ مَا وَرَدُوهَا ﴾ لأن المعذب لا يكون إلها ﴿ وَكُلٌّ ﴾ من العابدين والمعبودين ﴿ فِيهَا خَالِدُونَ ﴾ لاخلاص لهم عنها ﴿ لَهُمْ ﴾ للعابدين ﴿ فِيهَا زَفِيرٌ ﴾ تنفس شديد كالمخنوق أو هو صوتهم وعويلهم شبه بصوت الحمير فإن أوله زفير ﴿ وَهُمْ فِيهَا لَا يَسْمَعُونَ ﴾ شيئا لشدة غليانها ولجعلهم فى توابيت لئلا يرى بعضهم بعضاً ولا يسمع صوته . قال فى غاية الأمانى : وهذا بعد اليأس منهم لقوله «ونادوا يامالك» وقولهم «أجزعنا أم صبرنا» ونحوه ﴿ إِنَّ الَّذِينَ سَبَقَتْ لَهُمْ مِنَّا ﴾ الخصلة أو السعادة أو البشرى بالجنة ﴿ الْحُسْنَى ﴾ تأنيث الأحسن كعزير وعيسى والملائكة ﴿ أُولَئِكَ عَنْهَا مُبْعَدُونَ ﴾ رد لقول ابن الزبعرى حين سمع «إنكم وما تعبدون ... الآية» فقال عبد عزير والمسيح والملائكة نهم فى النار . فقال له عليه السلام : ما أجهلك بلغة قومك فإن « ما » لغير ذوى العقول . فنزلت تصديقاً له ﴿ لَا يَسْمَعُونَ حَسِيسَهَا ﴾ صوتها الخفى يسمع من مسيرة سبعين عاماً . قال فى الجواهر : وذلك بعد دخولهم الجنة لأن الحديث يقتضى أنها فى الموقف تزفر زفرة لا يبقى نبى ولا ملك إلا جثا على ركبتيه قال البخارى : الحسيس والحس واحد وهو الصوت الخفى ﴿ وَهُمْ فِيمَا اشْتَهَتْ أَنْفُسُهُمْ ﴾ من النعيم ﴿ خَالِدُونَ ﴾ أى مستغرقون فى النعيم مع الخلود الذى هو رأس النعم وتقديم الظرف للاختصاص والاهتمام به ﴿ لَا يَحْزُنُهُمُ الْفَزَعُ الْأَكْبَرُ ﴾ حين النفخة الأخيرة أو الأمر بالعبد إلى النار أو إطباقها على الكفار أو ذبح الموت ﴿ وَتَتَلَقَّاهُمُ الْمَلَائِكَةُ ﴾ بالتبشير والإكرام عند الخروج من القبور أو على أبواب الجنة للتهنئة يقولون لهم ﴿ هَذَا يَوْمُكُمُ الَّذِي كُنْتُمْ تُوعَدُونَ ﴾ على لسان الرسل ﴿ يَوْمَ ﴾ منصوب باذكر مقدراً قبله أو بلا يحزنهم أو بتتلقاهم ﴿ نَطْوِي السَّمَاءَ ﴾ لأنها مظلة لبنى آدم وإذا انتقلوا قوضت عنهم ، والطى ضد النشر ، وقرئ بالياء

والتاء مبنيا للمجهول طيا ﴿ كَطَيِّ السِّجِلِّ ﴾ الصحيفة ﴿ لِلْكِتَابِ ﴾ لأجل مايكتب أو كتب فيه ، والكتاب بمعنى المكتوب وقيل السجل ملك يطوى كتب الأعمال إذا رفعت إليه والأول قول الأكثر ، وقرأ حمزة والكسائى وحفص للكتب بالجمع ، وفى الحديث « توضع السجلات فى كفة ولا إله إلا الله فى كفة » ﴿ كَمَا بَدَأْنَا أَوَّلَ خَلْقٍ ﴾ عن عدم ﴿ نُعِيدُهُ ﴾ بعد إعدامه فـ « الكاف » متعلقة بنعيد وضميره عائد إلى أول وما مصدرية والجملة منقطعة عما تقدم أى نعيد أول كل مخلوق ونوجده بعد العدم كما أوجدناه سابقاً كذلك فالمعاد هو الأول وإن جعلت « ما » موصولة أى نعيده مثل الذى بدأناه فالمعاد هو المثل والمطلوب هو العين . قاله فى غاية الأمانى ، وفى الجواهر : يحتمل معنيين أحدهما أن يكون خبراً عن البعث أى كما اخترعنا الخلق أولا على غير مثال كذلك ننشئهم تارة أخرى فنبعثهم من القبور والثانى أن يكون خبراً عن كل شخص يبعث يوم القيامة على هيئته التى خرج بها من الدنيا ويؤيد هذا قوله صلى الله عليه وسلم « يحشر الناس يوم القيامة حفاة عراة غرلا كما بدأنا أول خلق نعيده » ﴿ وَعْدًا ﴾ منصوب بوعدنا مقدراً قبله وهو مؤكد لنعيده أو منصوب به لأنه عدة بالإعادة ﴿ عَلَيْنَا ﴾ إنجازه بسبب الإخبار عن ذلك وتعلق العلم بوقوعه فوقوع ما علم الله وقوعه واجب ولذا أكده بقوله ﴿ إِنَّا كُنَّا فَاعِلِينَ ﴾ ذلك لا محالة أو قادرين على الفعل ﴿ وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِى الزَّبُورِ ﴾ كتاب داود عليه السلام ﴿ مِنْ بَعْدِ الذِّكْرِ ﴾ أى التوراة أو المراد بالزبور جنس الكتب المنزلة ، وبالذكر اللوح المحفوظ وعلى الأول فذكر كتاب داود للإشارة بأنه وإن كان غير مشتمل على الأحكام بل هو تحميد وتمجيد لم يخل عن هذا الحكم ، وقرأ حمزة بضم الزاى وهما لغتان أو جمع « زبر » ﴿ أَنَّ الْأَرْضَ ﴾ أرض الجنة أو الأرض المقدسة أو جميع أرض الكفار ﴿ يَرِثُهَا عِبَادِىَ الصَّالِحُونَ ﴾ عام فى كل صالح لقوله « وأورثنا الأرض نتبوأ من الجنة حيث نشاء » أو الصالحون من بنى إسرائيل لقوله « وأورثنا القوم الذين كانوا يستضعفون مشارق الأرض ومغاربها » أو أمة محمد صلى الله عليه وسلم لقوله « ليستخلفنهم فى الأرض » ﴿ إِنَّ فِى هَـٰذَا ﴾ القرآن أو الذى ذكر فيه من الأخبار والمواعظ والمواعيد ﴿ لَبَلَاغًا ﴾ كفاية فى دخول الجنة أو سبب بلوغ إلى البغية اسم بمعنى الكفاية أو التبليغ ﴿ لِقَوْمٍ عَابِدِينَ ﴾ عاملين به همهم العبادة دون العادة ﴿ وَمَا أَرْسَلْنَاكَ ﴾ يا محمد ﴿ إِلَّا رَحْمَةً ﴾ أى للرحمة ﴿ لِلْعَالَمِينَ ﴾ الإنس والجن والملائكة ومن خالفك لا يلوم إلا نفسه مع كون الكفار نجوا به من عذاب الاستئصال فى الدنيا . روى أنه عليه السلام قال لجبريل عليه السلام : هل أصابك من هذه الرحمة شىء ؟ قال : إى والله إلى لم أزل وجلا حتى أثنى الله علىّ فى سورة التكوير . وفى إتيان هذه الآية هنا من براعة التمام ما لا يخفى ، إذ قد ختم سورة الأنبياء بخاتمهم ليكون الختام مسكا ﴿ قُلْ إِنَّمَا يُوحَىٰ إِلَىَّ أَنَّمَا إِلَـٰهُكُمْ إِلَـٰهٌ وَاحِدٌ ﴾ أى ما يوحى إلىّ فى أمر الإله إلا وحدانيته أو المقصود الأصلى بالوحى مقصور على الوحدانية ففى « إنما » قصر الصفة على الموصوف وفى « أنما » العكس ، والثانى

ليس كلياً بل من المقام لقوله « وظن داود أنما فتناه » قاله فى غاية الأمانى ﴿فَهَلْ أَنْتُمْ مُسْلِمُونَ﴾ منقادون لما يوحى إلىّ من وحدانية الإله ، والاستفهام بمعنى الأمر . واستدل بهذا على إثبات صحة التوحيد بالسمع ﴿ فَإِنْ تَوَلَّوْا ﴾ عن التوحيد ﴿ فَقُلْ ءَاذَنْتُكُمْ ﴾ أعلمتكم ما أمرت به ومنه أن الغلبة والعاقبة للمتقين لا محالة وقد شاع استعمال الإيذان بمعنى الإنذار وقيل أعلمتم بالحرب ﴿ عَلَى سَوَاءٍ ﴾ حال من الفاعل أو المفعول أى مستوين فى الإعلام به أو فى العلم بما أعلمتكم به أو فى المعاداة ، أو المعنى أعلمتكم أنى على سواء أى عدل واستقامة رأى بالبرهان النير ﴿ وَإِنْ ﴾ ما ﴿ أَدْرِى أَقَرِيبٌ أَمْ بَعِيدٌ مَا تُوعَدُونَ ﴾ من العذاب أو غلبة المسلمين أو القيامة لكنه كائن لا محالة لكن العالم لوقته هو الله ﴿ إِنَّهُ ﴾ تعالى ﴿ يَعْلَمُ الْجَهْرَ مِنَ الْقَوْلِ ﴾ والفعل منكم ومن غيركم ومن ذلك طعنكم فى الإسلام ﴿ وَيَعْلَمُ مَا تَكْتُمُونَ ﴾ أنتم وغيركم من الإحن والأحقاد للمسلمين وغير ذلك فيجازيكم عليه ﴿ وَإِنْ أَدْرِى لَعَلَّهُ ﴾ أى تأخير جزائكم ﴿ فِتْنَةٌ ﴾ ابتلاء وامتحان ﴿ لَكُمْ ﴾ لينظر كيف تعملون أو استدراج وزيادة فى افتتانكم ﴿وَمَتَاعٌ﴾ تمتيع ﴿ إِلَى حِينٍ ﴾ إلى وقت اقتضته مشيئته أو إلى انقضاء آجالكم . وهذا مقابل الأول المترجى بلعل وليس الثانى محلا للترجى قاله الجلال المحلى فى المكمل ، يعنى لأنه محقق ﴿ قُلْ رَبِّ احْكُمْ ﴾ اقض بينى وبين مكذبىّ ﴿ بِالْحَقِّ ﴾ العدل أو الوعد الثابت الذى لا خلف فيه وهو نصرى عليهم ، المعنى اسأله إنجاز ما وعدك وقد فعله يوم بدر رافعاً يديه قائلا : أنشدك وعدك حتى سقط رداؤه . وقرأ حفص «قال» إخباراً عن فعله وقد أنجز الله له ذلك فى بدر وغيره ﴿ وَرَبُّنَا الرَّحْمَٰنُ الْمُسْتَعَانُ عَلَى مَا تَصِفُونَ ﴾ به من الولد وبى من السحر وبالقرآن من الشعر وبالإسلام من أن رايته تخفق أياماً ثم تسكن فتكون الشوكة لكم ، تصفون هذا لاهية قلوبكم بالأمانى والغفلة فاتصلت الخاتمة بالفاتحة .

قال المسوّد لهذا التفسير : والحمد لله الذى يسر لنا البلوغ إلى سورة الحج . فى آخر الأيام المعدودات أيام العج والثج .

[تم تفسير سورة الأنبياء]

سورة الحج

مكية إلا « ومن الناس من يعبد الله .. الآيتين » أو إلا « هذان خصمان » إلى « صراط الحميد .. » الست آيات مدنيات وهى أربع أو خمس أو ست او سبع أو ثمان وسبعون آية

﴿ بِسْمِ ٱللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ ﴾ ﴿ يَٰٓأَيُّهَا النَّاسُ ٱتَّقُوا رَبَّكُمْ ﴾ أى عقابه بالإيمان بالبعث والجزاء وبطاعته فى جميع ما أمر ونهى ، وعلل أمرهم بالتقوى بفظاعة أمور الساعة ليصورها ويعلموا أنه لا يؤمنهم منها إلا التدرع بالتقوى بقوله ﴿ إِنَّ زَلْزَلَةَ السَّاعَةِ ﴾ تحريكها للأشياء على الإسناد المجازى أو تحريك الأشياء فيها على الاتساع ، وقيل المراد الحركة الشديدة للأرض قبيل طلوع الشمس من مغربها أو بعيده وإضافتها إلى الساعة لأنها من أشراطها ﴿ شَىْءٌ عَظِيمٌ ﴾ هائل ينبغى اللجأ فى المخرج منها إلى التقوى الذى هو المنجا فى الشدائد ومن يتق الله يجعل له مخرجا ﴿ يَوْمَ تَرَوْنَهَا ﴾ الزلزلة أى أهوالها والظرف منتصب بقوله ﴿ تَذْهَلُ ﴾ تدهش بسببها ﴿ كُلُّ مُرْضِعَةٍ ﴾ بالفعل أى التى ألقمت الرضيع ثديها ﴿ عَمَّآ أَرْضَعَتْ ﴾ بمعنى تنساه ، والمقصود الدلالة على أن هولها بحيث إذا دهشت التى ألقمت الرضيع ثديها نزعته من فيه وذهلت عنه و « ما » موصولة أو مصدرية ﴿ وَتَضَعُ كُلُّ ذَاتِ حَمْلٍ ﴾ أى حبلى ﴿ حَمْلَهَا ﴾ جنينها فى غير أوان الولادة ﴿ وَتَرَى النَّاسَ سُكَٰرَىٰ ﴾ ظاهراً من شدة الخوف ﴿ وَمَا هُم بِسُكَٰرَىٰ ﴾ حقيقة من الشراب وقرأ حمزة والكسائى سكرى كعطشى ﴿ وَلَٰكِنَّ عَذَابَ ٱللَّهِ شَدِيدٌ ﴾ فلذلك ذهب عقلهم وطار لبهم .

قال فى الجواهر : اختلف المفسرون فى الزلزلة المذكورة هل هى فى الدنيا أو فى القيامة ؟ فقال الجمهور هى فى الدنيا والضمير فى ترونها للزلزلة ، وقوى قولهم أن الرضاع والحمل إنما هو فى الدنيا ، وقالت فرقة هى فى يوم القيامة والضمير عندهم للساعة . وخرج البخارى وغيره عن أبى سعيد الخدرى عن النبى صلى الله عليه وسلم قال : « يقول الله جل ثناؤه يوم القيامة يا آدم فيقول « لبيك ربنا وسعديك » فيقول : أخرج بعث النار . قال : يارب وما بعث النار ؟ قال : من كل ألف تسعمائة وتسعاً وتسعين إلى النار وواحداً إلى الجنة فحينئذ تضع الحامل حملها ويشيب الوليد « وترى الناس سكارى وما هم بسكارى ولكن عذاب الله شديد » الحديث ، وهو نص صريح أنها فى يوم القيامة وانظر قوله « يوما يجعل الولدان شيبا » ، وقوله :

« وإذا العشار عطلت » تجده موافقاً للحديث . اه . ملخصاً . قلت : وحديث أبي سعيد هذا أخرجه البخاري في كتاب التفسير . وأخرج أيضاً في كتاب الرقاق حديث أبي هريرة وفيه : أخرج من كل مائة تسعة وتسعين وهو يدل على أن نصيب أهل الجنة من الألف عشرة وحديث أبي سعيد يدل على أنه واحد . قال القسطلاني : والحكم للزائد أو يحمل حديث أبي سعيد على جميع ذرية آدم فيكون من كل ألف واحد وحديث أبي هريرة على من عدا يأجوج ومأجوج فيكون من كل ألف عشرة . اه . ونزل في النضر بن الحارث وأضرابه ممن يقول القرآن أساطير الأولين والملائكة بنات الله ولا بعث بعد الموت ﴿ وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يُجَادِلُ فِي اللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَيَتَّبِعُ ﴾ في جداله وجميع أحواله ﴿ كُلَّ شَيْطَانٍ مَرِيدٍ ﴾ متمرد متجرد للفساد وأصله العري ﴿ كُتِبَ عَلَيْهِ ﴾ قضي على الشيطان ﴿ أَنَّهُ مَنْ تَوَلَّاهُ ﴾ تبعه ﴿ فَأَنَّهُ يُضِلُّهُ ﴾ لأنه جُبل على الإضلال و « أنه » الأولى في موضع رفع نائب فاعل « كتب » وضميره للشيطان و « أنه » الثانية خبر لـ « من » أو جواب له على تقدير : فشأنه أنه يضله ، والمعنى : كتب عليه إضلال من تولاه ﴿ وَيَهْدِيهِ ﴾ يدعوه ﴿ إِلَى عَذَابِ السَّعِيرِ ﴾ بالحمل على ما يؤدي إليه : استعارة تهكمية ، ثم استدل على منكري البعث بقوله ﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنْ كُنْتُمْ فِي رَيْبٍ مِنَ الْبَعْثِ ﴾ من إمكانه وكونه مقدوراً لنا فانظروا في بدء خلقكم فإنه يزيح ريبكم ﴿ فَإِنَّا خَلَقْنَاكُمْ ﴾ أي أصلكم آدم ﴿ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ ﴾ خلقنا ذريته ﴿ مِنْ نُطْفَةٍ ﴾ منيّ من النطف وهو الصب ﴿ ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ ﴾ قطعة من الدم جامدة ﴿ ثُمَّ مِنْ مُضْغَةٍ ﴾ قطعة لحم قدر ما يمضغ فعلة بمعنى المفعول ﴿ مُخَلَّقَةٍ ﴾ مسواة لا نقص فيها ولا عيب ﴿ وَغَيْرِ مُخَلَّقَةٍ ﴾ مسواة وعلى ذلك التفاوت بين أفراد الناس طولا وقصراً تماما ونقصاً ، وقيل تامة وساقطة يقذفها الرحم دماً وعدة المرأة تنقضي بالسقط وتصير به أم ولد ﴿ لِنُبَيِّنَ لَكُمْ ﴾ بهذا التدريج كمال قدرتنا لتستدلوا بالقدرة في ابتداء الخلق على إعادته لأن ما قبل التغيير أولا يقبله آخراً وحذف مفعول « نبين » إيماء إلى أنه مما لا يحيط به عقل ﴿ وَنُقِرُّ ﴾ مستأنف أو عطف على « فإنا خلقناكم » والعدول إلى المضارع لتصوير الحال والدلالة على زيادة الاختصاص ﴿ فِي الْأَرْحَامِ مَا نَشَاءُ ﴾ أن نقره ﴿ إِلَى أَجَلٍ مُسَمًّى ﴾ وقت الوضع وأدناه بعد ستة أشهر والأغلب تسعة وأقصاه أربع سنين أو خمس عند المالكية ، وسنتان عند الحنفية وأربع عند الشافعية ﴿ ثُمَّ نُخْرِجُكُمْ ﴾ من بطون أمهاتكم ﴿ طِفْلًا ﴾ أطفالا : حال ، يستوي فيه الذكر والأنثى والفرد والجمع لأنه في الأصل مصدر ﴿ ثُمَّ ﴾ نعمركم ﴿ لِتَبْلُغُوا أَشُدَّكُمْ ﴾ أي الكمال والقوة وتقدم الكلام فيه في سورتي الأنعام ويوسف ﴿ وَمِنْكُمْ مَنْ يُتَوَفَّى ﴾ يموت عند بلوغ الأشد وقبله ﴿ وَمِنْكُمْ مَنْ يُرَدُّ إِلَى أَرْذَلِ الْعُمُرِ ﴾ أخسه من الهرم والخرف ، استوفى الأقسام بعد الإخراج كما استوفى الأقسام قبله وكلاهما دليل على إمكان البعث وقدم الأولى إما نظراً إلى الوجود أو لأنها أدل على البعث وطوى هنا ذكر الشيخوخة في أرذل العمر إذ لا يمكن بدون تجاوزها اكتفاء بذكرها في سورة المؤمن إذ ليس مقصوداً كلياً كما أن

الإخراج طفلا لما لم يمكن إلا بعد المضغة طوى ذكرها هناك اكتفاء بذكرها هنا كما هو شأن الكلام البليغ المعجز فى إشاراته ورموزه ﴿ لِكَيْلَا يَعْلَمَ مِنْ بَعْدِ عِلْمٍ شَيْئاً ﴾ فيعود إلى ما كان عليه حال الطفولية من سخافة العقل وضعف البنية فينسى ما علمه وينكر من عرفه يشير بهذا إلى أن الله قادر على الأشياء وأضدادها على السواء ، فتارة يرقى الإنسان فى مدارج الارتقاء إلى أوج الكمال وتارة ينزله إلى حضيض النقصان ودرك الوهاد . ولما استوفى أدلة الأنفس التى هى أقرب أخذ فى أدلة الآفاق بقوله ﴿ وَتَرَى الْأَرْضَ هَامِدَةً ﴾ يابسة لا نبات بها من همدت النار : إذا صارت رمادا ﴿ فَإِذَا أَنْزَلْنَا عَلَيْهَا الْمَاءَ اهْتَزَّتْ ﴾ تحركت بالنبات ﴿ وَرَبَتْ ﴾ انتفخت وارتفعت وزادت ﴿ وَأَنْبَتَتْ مِنْ ﴾ زائدة ﴿ كُلِّ زَوْجٍ ﴾ صنف ﴿ بَهِيجٍ ﴾ حسن من بهج بالضم والإسناد إلى الأرض إسناد إلى المحل وهذه الدلالة الثالثة على البعث قد كررها الله فى كتابه لظهورها وكونها مشاهدة ﴿ ذَٰلِكَ ﴾ المذكور من بدء خلق الإنسان إلى آخره على النمط المذكور وإحياء الأرض كذلك دليل ﴿ بِأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ ﴾ الثابت الدائم أى بسبب أنه الثابت فى نفسه الذى به تتحقق الأشياء ﴿ وَأَنَّهُ يُحْيِي الْمَوْتَىٰ ﴾ وإلا لما أحيى النطفة والأرض الميتة ﴿ وَأَنَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴾ لأن قدرته إلى كل الأشياء على السواء فلما دلت المشاهدة على قدرته على إحياء بعض الأموات لزم اقتداره على إحياء كلها ﴿ وَأَنَّ السَّاعَةَ آتِيَةٌ لَا رَيْبَ فِيهَا ﴾ لأن الصادق قد أخبر بوقوعها ﴿ وَأَنَّ اللَّهَ يَبْعَثُ مَنْ فِي الْقُبُورِ ﴾ بمقتضى وعده لتمييز الطائع والعاصى والمحق والمبطل ﴿ وَمِنَ النَّاسِ ﴾ مع هذه الأدلة ﴿ مَنْ يُجَادِلُ فِي اللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ ﴾ فطرى ، كرره للتأكيد مع زيادة قوله ﴿ وَلَا هُدًى ﴾ بالاستدلال ﴿ وَلَا كِتَابٍ مُنِيرٍ ﴾ له نور ناله بالوحى كالنضر بن الحارث وأبى جهل وأضرابهما ، وقيل : الآية الأولى فى المقلدين لقوله « ويتبع » وهذه فى المقلدين ، والمراد بالعلم : العلم الضرورى ، وبالهدى : النظر والاستدلال الموصل إلى العلم ، وبالكتاب المنير : الوحى كما قدمنا ﴿ ثَانِيَ عِطْفِهِ ﴾ حال أى لاوى عنقه تكبرا وهو كناية عن التكبر والإعراض عن الحق استخفافاً به (لِيُضِلَّ) بضم الياء للجمهور وفتحها لأبى عمرو وابن كثير ﴿ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ ﴾ دينه وهو علة للجدال ﴿ لَهُ فِي الدُّنْيَا خِزْيٌ ﴾ قتل وأسر كما حل بالنضر يوم بدر ﴿ وَنُذِيقُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَذَابَ الْحَرِيقِ ﴾ الإحراق بالنار العظيمة ويقال له ﴿ ذَٰلِكَ ﴾ الخزى والعذاب ﴿ بِمَا قَدَّمَتْ يَدَاكَ ﴾ أى قدمته من إطلاق الجزء على الكل لأن أكثر الأفعال بهما والتفت إليه ليكون التوبيخ كفاحاً ﴿ وَأَنَّ اللَّهَ لَيْسَ بِظَلَّامٍ ﴾ بذى ظلم ﴿ لِلْعَبِيدِ ﴾ فيعذبهم بغير ذنب وإنما هو مجاز لهم على أعمالهم أو الظلام للمبالغة باعتبار كثرة العبيد ﴿ وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَعْبُدُ اللَّهَ عَلَىٰ حَرْفٍ ﴾ طرف بمعنى شك فى دينه شبه بالحال على حرف جبل فى عدم الثبات أو طرف جيش وقت المحاربة فإن أحس بظفر قر وإلا فر كما بينه بقوله ﴿ فَإِنْ أَصَابَهُ خَيْرٌ ﴾ صحة وسلامة فى نفسه وماله ﴿ اطْمَأَنَّ بِهِ وَإِنْ أَصَابَتْهُ فِتْنَةٌ ﴾ محنة وسقم فى نفسه أو ماله ﴿ انْقَلَبَ عَلَىٰ وَجْهِهِ ﴾ أى رجع إلى الكفر ، والآية نزلت فى الأعراب يقدمون المدينة

فإن صح القادم منهم وكثر ماله وأولاده اطمأن وقال: هذا دين خير وإلا انقلب وتشاءم به وقد جاء بعضهم فأسلم وبايع النبي على الإسلام فأصابته مصائب فتشاءم فأتى النبي صلى الله عليه وسلم فقال: أقلني فأبى. وقال: إن الإسلام لا يقال ﴿خَسِرَ الدُّنْيَا﴾ لفقدها ﴿وَالآخِرَةَ﴾ لحبوط عمله ﴿ذَٰلِكَ هُوَ الْخُسْرَانُ الْمُبِينُ﴾ البين الذي ليس فوقه خسران ﴿يَدْعُوا﴾ يعبد ﴿مِن دُونِ اللَّهِ﴾ من الصنم ﴿مَا لَا يَضُرُّهُ﴾ إن لم يعبده ﴿وَمَا لَا يَنفَعُهُ﴾ إن عبده أعاد الموصول مبالغة لدلالته على كل من الانتفاءين استقلالا، والعطف من قبيل عطف الصفات ﴿ذَٰلِكَ﴾ الدعاء ﴿هُوَ الضَّلَالُ الْبَعِيدُ﴾ عن الحق والبعد وصف الضال وصف به فعله مبالغة وهو مستعار من ضلال من أبعد في التيه ضلالا ﴿يَدْعُوا لَمَنْ﴾ اللام زائدة ﴿ضَرُّهُ﴾ بعبادته بإيجاب القتل والأسر في الدنيا والعذاب في الآخرة ﴿أَقْرَبُ مِن نَّفْعِهِ﴾ الذي يتوقع من الشفاعة على زعم الكفار ﴿لَبِئْسَ الْمَوْلَىٰ﴾ الناصر ﴿وَلَبِئْسَ الْعَشِيرُ﴾ الصاحب هو، ثم عقب ذكر الشاك بالخسران بذكر المؤمن الثابت بالثواب في قوله ﴿إِنَّ اللَّهَ يُدْخِلُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ﴾ من الفروض والنوافل ﴿جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ إِنَّ اللَّهَ يَفْعَلُ مَا يُرِيدُ﴾ من إكرام من يطيعه وإهانة من يعصيه لا مانع لقضائه ولا يسئل عما يفعل ثم رجع إلى ذم من يعبد الله على حرف بقوله ﴿مَن كَانَ يَظُنُّ أَن لَّن يَنصُرَهُ اللَّهُ﴾ أي محمداً نبيه أشار إليه بالضمير دلالة على أنه العلم المرفوع وأن الكلام معه وله وفيه وأن غيره وإن ذكر فبالتبع المعنى أن الله ناصر رسوله ﴿فِي الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ﴾ فمن كان يظن خلاف ذلك ويتوقعه من غيظه ﴿فَلْيَمْدُدْ بِسَبَبٍ﴾ بحبل ﴿إِلَى السَّمَاءِ﴾ أي سقف بيته يشده فيه وفي عنقه ﴿ثُمَّ لْيَقْطَعْ﴾ أي ليختنق به من قطع إذا اختنق فإن المختنق يقطع نفسه بحبس مجاريه أو المعنى فليمدد بحبل إلى السماء المظلمة فليقطع الوحي النازل عليه ﴿فَلْيَنظُرْ﴾ بالتأمل ﴿هَلْ يُذْهِبَنَّ كَيْدُهُ﴾ فعله ذلك سماه كيدا لأنه منتهى ما يقدر عليه في منع نصر النبي صلى الله عليه وسلم ﴿مَا يَغِيظُ﴾ أي غيظه أو الذي يغيظه من نصر الله وقيل نزلت في قوم مسلمين استبطأوا نصر الله ومن المفسرين من قال الضمير في ينصره راجع إلى «من» أي من ظن أن الله لا ينصره بالرزق إن أسلم فليفعل ما ذكر وكل ما مر كمثل سائر تقول العرب لمن ظن خلاف ما وقع دونك الحبل فاختنق غيظاً ﴿وَكَذَٰلِكَ﴾ مثل إنزالنا الآيات السابقة في إثبات البعث وغيره ﴿أَنزَلْنَاهُ﴾ أي القرآن الباقي ﴿آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ﴾ ظاهرات حال ﴿وَأَنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَن يُرِيدُ﴾ هداه بالقرآن معطوف على هاء أنزلناه ثم بين المؤمنين وفرق الكفار جميعاً بقوله ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ هَادُوا وَالصَّابِئِينَ وَالنَّصَارَىٰ وَالْمَجُوسَ وَالَّذِينَ أَشْرَكُوا. إِنَّ اللَّهَ يَفْصِلُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ﴾ بإدخال المؤمنين الجنة وغيرهم النار ودخلت «إن» على كل واحد من طرفي الجملة لمزيد التأكيد ﴿إِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ﴾ من عملهم وغيره ﴿شَهِيدٌ﴾ حاضر عالم به علم مشاهدة لا يفوته ﴿أَلَمْ تَرَ﴾ أي: ألم تعلم ﴿أَنَّ اللَّهَ يَسْجُدُ لَهُ مَن فِي السَّمَاوَاتِ وَمَن فِي الْأَرْضِ﴾ يتسخر له أو يدل بذاته على عظمته و «من» يعم أولي العلم وغيرهم ﴿وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ وَالنُّجُومُ وَالْجِبَالُ وَالشَّجَرُ وَالدَّوَابُّ﴾ خصها بالذكر لأنها أشرف

الأجرام العلوية والسفلية بعد أولى العلم ، واستبعاد السجود منها فإذا انقادت فما سواها أولى ﴿ وَكَثِيرٌ مِنَ النَّاسِ ﴾ وهم المؤمنون بالزيادة على ذلك السجود بوضع الجبهة فى سجود الصلاة عطف على ماتقدم إن جوزنا استعمال المشترك فى كل واحد من معنييه وإلا فمبتدأ حذف خبره لدلالة خبر قسيمه عليه أى حق له الثواب أو فاعل مضمر أى ويسجد له كثير من الناس سجود طاعة أو كرر كثير مبالغة فى تكثير من حق عليه العذاب فى قوله ﴿ وَكَثِيرٌ حَقَّ عَلَيْهِ الْعَذَابُ ﴾ وهم الكافرون لأنهم أبوا السجود المتوقف على الإيمان ﴿ وَمَنْ يُهِنِ اللَّهُ ﴾ بالشقاء ﴿ فَمَا لَهُ مِنْ مُكْرِمٍ ﴾ بالسعادة إشارة إلى علة الطاعة والإباء من الفريقين ﴿ إِنَّ اللَّهَ يَفْعَلُ مَا يَشَاءُ ﴾ من الإهانة والإكرام ﴿ هَذَانِ ﴾ الفوجان أهل الإيمان وأهل الكفران ودخل فيهم أصحاب المبارزة ﴿ خَصْمَانِ ﴾ مذكانا إلى يوم القيامة بالعداوة والجدال والحرب وخصم مصدر يوصف به الجمع والواحد ولذا جمع فى قوله ﴿ اخْتَصَمُوا ﴾ حملا على المعنى ﴿ فِي رَبِّهِمْ ﴾ فى دينه . وما روى عن ابن عباس من أن الإشارة راجعة إلى الأديان الستة لا ينافى مافى البخارى عن أبى ذر أنه كان يقسم أنها نزلت فى الذين بارزوا يوم بدر حمزة وعلى وعبيدة بن الحارث رضى الله عنهم مع عتبة ابن ربيعة وشيبة أخيه والوليد بن عتبة إذ ورد أن أول ما يقضى به بين الناس يوم القيامة الدماء ومن المعلوم أن أول مبارزة وقعت فى الإسلام مبارزة علىّ وصاحبيه للكفار فلا جرم أن تكون أول خصومة يوم القيامة مع ما فى صحيح مسلم نحن الآخرون من أهل الدنيا الأولون يوم القيامة المقضى لهم قبل الخلائق، وعن علىّ رضى الله عنه أنا أول من يجثو بين يدى الرحمن للخصومة يوم القيامة ثم بين فصل الخصومة بقوله ﴿ فَالَّذِينَ كَفَرُوا قُطِّعَتْ لَهُمْ ثِيَابٌ مِنْ نَارٍ ﴾ أى قدرت على مقادير جثثهم نيران تحيط بهم إحاطة الثياب كما كانوا يلبسون فى الدنيا ثياب الخيلاء ﴿ يُصَبُّ مِنْ فَوْقِ رُءُوسِهِمُ الْحَمِيمُ ﴾ الماء البالغ نهاية الحرارة ، حال من الضمير فى لهم أو خبر ثان ﴿ يُصْهَرُ ﴾ يذاب ﴿ بِهِ ﴾ بذلك الحميم ﴿ مَا فِي بُطُونِهِمْ ﴾ من شحوم وغيرها ﴿ وَ ﴾ تشوى به ﴿ الْجُلُودُ ﴾ لهم فتساقط ثم تعاد كما كانت ، وفى تقديم ما فى بطونهم على الجلود إيماء إلى أنها من فرط حرارتها تؤثر فى الباطن قبل تأثيرها بالظاهر لأن ذلك أشرف وأشد تأثراً وهذا أبلغ من قوله « وسقوا ماء حميما فقطع أمعاءهم » لأن الصب على الرءوس أفحش من السقى والإذابة أبلغ من التقطيع وما فى البطون أعم من الأمعاء ﴿ وَلَهُمْ مَقَامِعُ ﴾ سياط مختصة بهم ﴿ مِنْ حَدِيدٍ ﴾ لضرب رءوسهم ، وفى الخبر لو وضع مقمع منها فى الأرض ثم اجتمع عليه الثقلان ما أقلوه من الأرض ﴿ كُلَّمَا أَرَادُوا أَنْ يَخْرُجُوا مِنْهَا ﴾ أى من النار ﴿ مِنْ غَمٍّ ﴾ عظيم يلحقهم بها بدل من الهاء بإعادة الجار ﴿ أُعِيدُوا فِيهَا ﴾ ردوا إلى دركاتها بالمقامع قيل يرفعهم لهيب النار إلى أعلاها فيضربون بالمقامع فيعودون فيها يهوون بالضرب فيها سبعين خريفاً ﴿ وَ ﴾ يقال لهم ﴿ ذُوقُوا عَذَابَ الْحَرِيقِ ﴾ أى البالغ نهاية الإحراق ، يقال لهم ذلك إسماعا لهم مايكرهون زيادة فى العذاب من كل جهة ، أعاذنا الله منه بفضل رحمته ، وقال فى المؤمنين

﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُدْخِلُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّٰلِحَٰتِ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِنْ تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ﴾ قسيم لقوله تعالى: «فالذين كفروا قطعت لهم» غير الأسلوب وصدر الجملة باسمه المقدس تنويها بشأن المؤمنين وإشارة لمحلهم بأن المباشر لإدخالهم الجنة هو بذاته من غير واسطة ملك ﴿يُحَلَّوْنَ فِيهَا﴾ حال مقدرة ﴿مِنْ أَسَاوِرَ﴾ صفة مفعول محذوف أى حليا من أساور جمع أسورة جمع سوار ﴿مِن ذَهَبٍ وَلُؤْلُؤًا﴾ بالنصب لنافع وعاصم عطفاً على محل من أساور وبالجر للباقين على اللفظ أى منهما بأن يرصع اللؤلؤ بالذهب لأن المرصع أجمل ﴿وَلِبَاسُهُمْ فِيهَا حَرِيرٌ﴾ هو المحرم لبسه على الرجال فى الدنيا: غير الأسلوب دلالة على أن الحرير ثيابهم المعتادة أو للفواصل ﴿وَهُدُوا﴾ فى الجنة ﴿إِلَى الطَّيِّبِ مِنَ الْقَوْلِ﴾ وهو «الحمد لله الذى صدقنا وعده» ونحوه، أو فى الدنيا، والطيب من القول كلمة الشهادة أو القرآن وهذا أوجه لفظا ومعنى لقوله ﴿وَهُدُوا إِلَىٰ صِرَاطِ الْحَمِيدِ﴾ أى دين الله المحمود المستحق لذاته الحمد ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ طاعته ﴿وَ﴾ عن ﴿الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ﴾ كما فعل الكفار بالنبى صلى الله عليه وسلم عام الحديبية والتعبير بـ «يصدون» للدلالة على أنهم يديمون الصد ﴿الَّذِى جَعَلْنَٰهُ﴾ منسكا ومتعبدا ﴿لِلنَّاسِ سَوَآءً﴾ بالرفع للجمهور مصدر بمعنى مستو خبر مقدم والمبتدأ ﴿الْعَاكِفُ﴾ المقيم ﴿فِيهِ وَالْبَادِ﴾ الطارئ، والجملة حال من الهاء وبالنصب لحفص على أنه المفعول الثانى لـ «جعلناه» وعلى قراءة الجمهور فالمفعول الثانى «للناس» وخبر «إن» محذوف، أى نذقهم من عذاب أليم لدلالة خبر «مَن» عليه فى قوله ﴿وَمَن يُرِدْ فِيهِ بِإِلْحَادٍ﴾ عدول عن الحق، والباء زائدة، أو المفعول محذوف، أى: من يرد فيه تعديا بإلحاد ﴿بِظُلْمٍ﴾ بدل من إلحاد أو صلة أى ملحداً بسبب الظلم بأن ارتكب فيه منهياً ولو شتم خادم وكان ابن عمر إذا أراد أن يعاتب خادمه خرج به إلى الحل. قال ابن عطية: والإلحاد الميل وهو يشمل جميع المعاصى من الكفر إلى الصغائر فلعظم حرمة المكان توعد الله تعالى على نية فعل السيئة فيه ومن نوى سيئة ولم يعملها لم يحاسب بذلك إلا فى مكة هذا قول ابن مسعود وجماعة من الصحابة وغيرهم. اهـ وقال ابن العربى فى الأحكام: الإلحاد هو الميل فى اللغة إلا أنه قد صار فى عرف الشرع ميلا مذموماً، ولذا بيّن الله أن الميل بالظلم هو المراد هنا. اهـ. ﴿نُذِقْهُ مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ مؤلم أى بعضه، اختلف المفسرون فى معنى استواء العاكف والبادى فى المسجد الحرام، قيل فى تعظيم حرمته وقضاء المناسك فيه، وقيل المراد بالمسجد جميع الحرم أى هما سواء فى تعظيم مكة أو فى النزول بدورها ليس أحدهما أحق بالمنزل فيها من الآخر غير أنه لا يزعج من سبق إلى منزل وهذا هو قول ابن عباس، وقال به مالك وأبو حنيفة فدور مكة التى وقع الفتح عليها ليست ملكا لأربابها بل من احتاج سكن ومن استغنى أسكن فلا يجوز بيعها ولا إجارتها، وقال الشافعى: هى ملكهم فيجوز بيعها وإجارتها، قال: والموصوف بالسواء هو المسجد لما ثبت أن عمر بن الخطاب اشترى داراً من صفوان بن أمية وجعلها سجناً، والخلاف مبنى على أن مكة

هل افتتحت عنوة أو صلحاً ، وتفسير حديث الإلحاد باحتكار الطعام فيه يحمل على أنه سبب النزول ولا يمنع العموم . والله أعلم . ولما كان المشركون الملحدون الظالمون من كفار مكة يزعمون أنهم على ملة إبراهيم أمر الله نبيه أن يذكر ما أمر به إبراهيم ليظهر لهم أنهم ليسوا على شيء من دينه فقال ﴿ وَ ﴾ اذكر ﴿ إِذْ بَوَّأْنَا ﴾ بيّنا ﴿ لِإِبْرَاهِيمَ مَكَانَ الْبَيْتِ ﴾ ليبنيه وكان قد رُفع زمن الطوفان فتقدمته ريح إلى محل البيت فهبت فيه حتى كشفت أساس آدم فى البيت ، قيل نصب له ظل على قدر البيت فقدره به ، وقيل خطه له جبريل ، قال فى غاية الأماني : يقال بوأه اتخذ له مباءة والمباءة المنزل من باء رجع لأنه يرجع إليه . اهـ . وزيد اللام لتضمين بوأ معنى هيأ ﴿ أَنْ لَا ﴾ أى أمرناه بأن لا ﴿ تُشْرِكْ بِي شَيْئاً ﴾ فأن مصدرية أو تفسير للتبوئة لأن الغرض منها العبادة أى قلنا لا تشرك بى شيئاً ﴿ وَطَهِّرْ بَيْتِيَ ﴾ من الأوثان والأقذار ﴿ لِلطَّائِفِينَ ﴾ بشرط الطهارة خلافاً لأبى حنيفة ﴿ وَالْقَائِمِينَ ﴾ للصلاة ﴿ وَالرُّكَّعِ السُّجُودِ ﴾ جمع راكع وساجد أى طهره لهؤلاء العابدين ، وعبر عن الصلاة بأركانها من القيام والركوع والسجود للدلالة على أن كل واحد منها مستقل باقتضاء ذلك كيف وقد اجتمعت ، ولما فرغ إبراهيم من بناء البيت أمره الله أن ينادى الناس بالحج بقوله ﴿ وَأَذِّنْ فِي النَّاسِ ﴾ أى نادهم ﴿ بِالْحَجِّ ﴾ بدعوته والأمر به فنادى على جبل أبى قبيس : يا أيها الناس إن ربكم بنى بيتاً وأوجب عليكم الحج إليه فأجيبوا ربكم . والتفت بوجهه يميناً وشمالا وشرقاً وغرباً فأسمعه الله كل من سبق فى علمه أن يحج فأجابه من أصلاب الرجال وأرحام النساء « لبيك اللهم لبيك » وقيل هذا الأمر لرسول الله صلى الله عليه وسلم فى حجة الوداع ، والحق أن الآية مكية والسياق إنما هو لقصة إبراهيم عليه السلام ، قاله فى غاية الأماني . وجواب الأمر ﴿ يَأْتُوكَ رِجَالًا ﴾ مشاة على أرجلهم جمع راجل ﴿ وَ ﴾ ركباناً ﴿ عَلَى كُلِّ ضَامِرٍ ﴾ أى بعير مهزول يطلق على الذكر والأنثى ، وصفه بالحال التى ينتهى عليها إلى مكة ، وقيل الضامر يشمل كل ما اتصف بذلك . قال ابن عطية : وهذا هو الأظهر . اهـ . وفى تقديم « رجالا » تفضيل المشاة فى الحج على الركبان لكن مذهب مالك تفضيل الركوب لأنه فعله عليه السلام ولا يفعل إلا ما هو الأفضل وأجيب بأنه عليه السلام إنما ركب لئلا يمشى فيقتدى به جميع الأمة فيما لا يقدرون عليه وكان بالمؤمنين رحيما فلا دلالة على أفضليته حينئذ لغيره . والله أعلم ﴿ يَأْتِينَ ﴾ أى الضوامر حملا على المعنى صفة لضامر ﴿ مِنْ كُلِّ فَجٍّ عَمِيقٍ ﴾ طريق بعيد . قال ابن العربى تكرمة لها بقصدها الحج مع أربابها كما قال فى خيل الجهاد والعاديات ضبحاً تكرمة حين سعت فى سبيل الله ﴿ لِيَشْهَدُوا ﴾ أى يحضروا ﴿ مَنَافِعَ لَهُمْ ﴾ فى الدنيا بالتجارة أو الأخرى بالمغفرة والأجور أو فيهما وهو الصحيح أقوال ﴿ وَيَذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ ﴾ عند النحر والذبح وعبر به دلالة على أن المقصود من شرع الأعمال هو ذكر الله تعالى ﴿ فِي أَيَّامٍ مَعْلُومَاتٍ ﴾ يوم النحر واليومان بعده وهذا قول مالك الذى رواه عنه ابن القاسم ، أو عشر ذى الحجة وهو قول الشافعى إذ كلها أيام العبادات والطواف ﴿ عَلَى مَا رَزَقَهُمْ مِنْ

بَهِيمَةِ الْأَنْعَامِ ﴾ الإبل والبقر والغنم التى تنحر فى يوم العيد وما بعده من الهدايا والضحايا علق الفعل بالمرزوق وبينه بالبهيمة تحريضاً على التقرب وتنبيهاً على مقتضى الذكر بأن الرزق محض فضل منه تعالى مع اشتمال الكلام على الإجمال والتفصيل فى البهيمة التى فصلها الأنعام وفى ذكر الأيام دليل على أن الذبح فى الليل لا يجوز وهو مذهب مالك وفى وصفها بالمعلوم حث على علمها وحسابها لأجل وقت الحج فى آخرها ﴿ فَكُلُوا مِنْهَا ﴾ إذا كانت مستحبة اتفاقاً أمر إباحة ردًّا لأمر الجاهلية فى التحرج من أكلها ﴿ وَأَطْعِمُوا الْبَائِسَ ﴾ الذى ظهر عليه البؤس ﴿ الْفَقِيرَ ﴾ الشديد الفقر وصف كاشف له كأن الإعسار كسر فقاره والأمر فيه للوجوب . واستحب العلماء أن يأكل الإنسان من هديه وأضحيته ويتصدق بالأكثر وأما إذا كانت واجبة كنذر لمساكين مطلقاً أو نذر لم يعين أو الفدية أو جزاء صيد بعد المحل أو هدى تطوع عطب قبل محله فلا يجوز له أكلها ويجوز أكل غيرها من الواجبات كهدى القران والتمتع وما عطب قبل محله إذ عليه بدله خلافا للشافعى ﴿ ثُمَّ لْيَقْضُوا تَفَثَهُمْ ﴾ أى يزيلوا أوساخهم وشعثهم كطول الظفر بقص الشارب والأظفار ونتف الإبط والاستحداد عند الإحلال وغسل واستعمال طيب ولبس الثياب ﴿ وَلْيُوفُوا ﴾ بالتخفيف للجمهور والتشديد لشعبة ﴿ نُذُورَهُمْ ﴾ ما ينذرون من البر فى حجهم للتقرب إلى الله فإنه كثير الوقوع فى طريق الحجاز وتلك الأماكن الشريفة وقيل مواجب الحج ﴿ وَلْيَطَّوَّفُوا ﴾ طواف الإفاضة الذى به تمام التحلل وقيل طواف الوداع ﴿ بِالْبَيْتِ الْعَتِيقِ ﴾ أى القديم لأنه أول بيت وضع ، أو المعتق من تسلط الجبابرة عليه أو الشريف والعرب تسمى كل حسن عتيقاً ﴿ ذَٰلِكَ ﴾ خبر محذوف أى الأمر ذلك وهو وأمثاله يطلق للفصل بين كلامين ﴿ وَمَنْ يُعَظِّمْ حُرُمَاتِ اللَّهِ ﴾ هى مالا يحل انتهاكه من جميع الأحكام أو ما يتعلق بالحج ﴿ فَهُوَ ﴾ أى تعظيمها ﴿ خَيْرٌ لَهُ عِنْدَ رَبِّهِ ﴾ فى الآخرة أريد به زيادة مطلقة من غير مفضل عليه ﴿ وَأُحِلَّتْ لَكُمُ الْأَنْعَامُ ﴾ أكلا بعد الذبح كلها رفع لقاعدة أهل الأوثان من تحريم البحائر والسوائب ﴿ إِلَّا مَا يُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ ﴾ تحريمه فى « حرمت عليكم الميتة » المعنى : لا تحرموا منها إلا ما حرمه الله ﴿ فَاجْتَنِبُوا الرِّجْسَ مِنَ الْأَوْثَانِ ﴾ « من » للبيان ، أى الذى هو الأوثان وفيه مبالغة فى التنفير عن عبادتها أى اجتنبوها كما اجتنبتم الأنجاس التى بينت ، وقيل « من » لابتداء الغاية فكأنه تعالى نهاهم عن الرجس عموما ثم عين لهم مبدأه الذى منه يلحقهم إذ عبادة الأوثان جامعة لكل رجس وفساد ، والرجس لغة : القذر والعمل القبيح ﴿ وَاجْتَنِبُوا قَوْلَ الزُّورِ ﴾ الكذب بإشراك الأوثان بالله فى التلبية ، أو شهادة الزور فى التحليل والتحريم وغير ذلك وهو تعميم بعد تخصيص ﴿ حُنَفَاءَ ﴾ مائلين عن الباطل مخلصين ﴿ لِلَّهِ ﴾ الدين ﴿ غَيْرَ مُشْرِكِينَ بِهِ ﴾ تصريح بما علم تأكيداً لما قبله وهما حالان من الواو ﴿ وَمَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَكَأَنَّمَا خَرَّ ﴾ سقط ﴿ مِنَ السَّمَاءِ ﴾ لأنه سقط من أوج الإيمان إلى حضيض الكفر ﴿ فَتَخْطَفُهُ ﴾ بفتح الخاء وتشديد الطاء مضارع تخطف لنافع ، وبإسكان الخاء وتخفيف الطاء للباقين ﴿ الطَّيْرُ ﴾ أى تأخذه بسرعة لأن طير أهوائه

المردية توزع أفكاره ﴿ أَوْ تَهْوِي بِهِ الرِّيحُ ﴾ أى تسقطه ﴿ فِي مَكَانٍ سَحِيقٍ ﴾ بعيد لأن ريح شيطانه يطوح به فى الضلالة فلا يرجى خلاصه ، و « أو » للتخيير أو للتنويع لأن من المشركين من لا خلاص له أصلا ومنهم من يمكن خلاصه بالتوبة لكن على بُعد ، ويجوز أن يكون من التشبيهات المركبة فيكون المعنى : ومن يشرك بالله فقد هلكت نفسه هلاكا يشبه أحد الهلاكين ، قاله البيضاوى . وفى غاية الأمانى : شبه حال المشرك وصوره بحال من يسقط من السماء إلى الأرض فاختطفه الطير من كل جانب فتفرق مزعا فى حواصلها أو شبه الإيمان فى علو شأنه بأوج السماء وتاركه بالساقط من ذلك الأوج إلى الكفر الذى لا حضيض بعده . اه . قلت : الأول من تشبيه المركب ، والثانى من المفرد . والله أعلم ﴿ ذَٰلِكَ ﴾ يقدر قبله الأمر مبتدأ ﴿ وَمَن يُعَظِّمْ شَعَائِرَ اللَّهِ ﴾ جمع شعيرة كل أمر أشعر به أى معالم دينه من الفرائض والسنن والآداب ، وأكثر استعماله فى مناسك الحج ، أو المراد الهدايا لأنها من أعظم شعائر الحج وهذا أوفق لما بعده وتعظيمها أن تختار حساناً سماناً غالية الأثمان عظائم الأجرام . وفى الحديث : « سمنوا ضحاياكم فإنها على الصراط مطاياكم » ﴿ فَإِنَّهَا ﴾ أى تعظيمها ﴿ مِن تَقْوَى الْقُلُوبِ ﴾ منهم أى من أفعال ذوى تقواها أسند التقوى إليها لأنها منشؤها وهو من الإسناد إلى المحل ﴿ لَكُمْ فِيهَا مَنَافِعُ ﴾ كركوبها والحمل عليها ما لا يضرها وعلى تأويل عموم الشعائر فالمنافع كأنوار الطاعات وزيادة اليقين وثمرات الإسلام ﴿ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى ﴾ وقت نحرها أو الموت ﴿ ثُمَّ مَحِلُّهَا ﴾ مكان حل نحرها أو محلها انتهاؤها بالطواف للوداع من حل الأجل انتهى ﴿ إِلَى الْبَيْتِ الْعَتِيقِ ﴾ أى عنده بالطواف وهذا قول مالك أى جميع شعائر الحج تنتهى إلى طواف البيت . قال ابن العربى فى الأحكام : وقول الشافعى المراد به الحرم جميعه عموم لا يفيد شيئاً لأن الله صرح بذكر البيت فلا معنى لإلقائه وحمل الشافعى على ذلك تخصيص الشعائر بالبدن تخصيص لا وجه له مع عمومها . اه . قلت : ويؤيده ما يأتى أن البدن من تلك الشعائر ﴿ وَلِكُلِّ أُمَّةٍ ﴾ أى جماعة مؤمنة سلفت قبلكم ﴿ جَعَلْنَا مَنسَكًا ﴾ بفتح السين للجمهور مصدر وبكسرها لحمزة والكسائى اسم مكان وأصله الغسل ثم أطلق على العبادة لبنائها على النظافة ثم غلبت على أعمال الحج أى عبادة وقرباناً أو موضعه ﴿ لِيَذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ عَلَىٰ مَا رَزَقَهُم مِّن بَهِيمَةِ الْأَنْعَامِ ﴾ عند ذبحها علة للجعل دال على أن المقصود من شرع المناسك ذكره تعالى بأوصاف الكمال مع دلالته على اختصاص الهدى بالنعم ﴿ فَإِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَاحِدٌ ﴾ فبعد علمكم بوحدانيته ﴿ فَلَهُ أَسْلِمُوا ﴾ أخلصوا فى العبادة وذبح النسائك لا تشوبوا ذلك بالإشراك والذبح بأسماء الأوثان ﴿ وَبَشِّرِ الْمُخْبِتِينَ ﴾ المطيعين المتواضعين أو المخلصين ، فالإخبات صفتهم من الخبت وهو المكان المطمئن ﴿ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ ﴾ خافت ﴿ قُلُوبُهُمْ ﴾ هيبة منه لإشراق أشعة الجلال عليها ﴿ وَالصَّابِرِينَ عَلَىٰ مَا أَصَابَهُمْ ﴾ من البلايا والنوائب ﴿ وَالْمُقِيمِي الصَّلَاةِ ﴾ فى أوقاتها ﴿ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ ﴾ فى وجوه البر والعطف باعتبار الصفات ﴿ وَالْبُدْنَ ﴾ جمع بدنة وهى ما أشعر

من الإبل لعظم بدنها والبقر تقوم مقامها إلحاقاً من حيث المعنى لا تناولا بحسب العرف وانتصابه بفعل يفسره ﴿ جَعَلْنَاهَا لَكُمْ مِنْ شَعَائِرِ اللَّهِ ﴾ وهذا نص فى أنها بعض الشعائر أى أعلام دينه التى شرعها ﴿ لَكُمْ فِيهَا خَيْرٌ ﴾ فى الدنيا والدين بما تقدم . قال ابن العربى : فأما الأجر فهو خير مطلق وأما غيره فهو خير إذا قوّى صاحبه على طاعة الله ﴿ فَاذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ عَلَيْهَا ﴾ عند نحرها وذبحها أىّ اسم كان من أسمائه الحسنى والمندوب أن يقول : الله أكبر لا إله إلا الله ، الله أكبر اللهم منك وإليك ﴿ صَوَافَّ ﴾ أى مصففة واقفة على أرجلها هذا هو الأفضل فى نحر الإبل بخلاف ذبح البقر والغنم ، وقرئ صوافن بنون جمع صافنة أى قائمة على ثلاث معقولة اليد اليسرى ﴿ فَإِذَا وَجَبَتْ جُنُوبُهَا ﴾ سقطت على الأرض بعد نحرها ﴿ فَكُلُوا مِنْهَا ﴾ إن شئتم إلا ما استثنى ﴿ وَأَطْعِمُوا الْقَانِعَ ﴾ الراضى الذى يقنع بما يعطى ولا يسأل ، أو هو السائل من قنع بفتح النون قنوعا فهو قانع ، طمع وسأل ، ضد قنع بكسر النون قناعة فهو قنوع متعفف ﴿ وَالْمُعْتَرَّ ﴾ المتعرض للعطاء من غير سؤال أو السائل ﴿ كَذَلِكَ ﴾ أى مثل ذلك التسخير ﴿ سَخَّرْنَاهَا لَكُمْ ﴾ بأن تسخر وتركب وإلا لم تطق ﴿ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴾ نعمتى عليكم ﴿ لَنْ يَنَالَ اللَّهَ ﴾ أى رضاه وقبوله ﴿ لُحُومُهَا ﴾ المتصدق بها ﴿ وَلَا دِمَاؤُهَا ﴾ المهراقة أى لا يرفعان إليه ﴿ وَلَكِنْ يَنَالُهُ التَّقْوَى مِنْكُمْ ﴾ بأن تقصدوا بذلك التقرب إليه وتعظيم أمره بالامتثال والإخلاص ﴿ كَذَلِكَ سَخَّرَهَا لَكُمْ ﴾ كرره تذكيراً لنعمه وتعليلا بقوله ﴿ لِتُكَبِّرُوا اللَّهَ ﴾ بتوحيده وذكره باللسان والقلب عند الإحلال والذبح ﴿ عَلَى مَا هَدَاكُمْ ﴾ إليه من المناسك وجميع مصالح الدين والدنيا أو على هدايته إياكم إلى ذلك و « ما » موصولة أو مصدرية ﴿ وَبَشِّرِ الْمُحْسِنِينَ ﴾ المخلصين إذ الإخلاص هو ملاك الأمر ولذا ختم أمر المناسك به المستطرد به بعد قوله « إن الذين كفروا ويصدون عن سبيل الله » لتهيجين فعلهم لازدياد قبح الصد بازدياد عظم ما صد عنه فرجع إلى بيان عون المؤمنين عليهم بقوله ﴿ إِنَّ اللَّهَ يُدَافِعُ ﴾ يبالغ فى دفع غوائل المشركين ﴿ عَنِ الَّذِينَ آمَنُوا ﴾ وقرأ ابن كثير وأبو عمرو يدفع ، وقراءة الجمهور أبلغ لأن المفاعلة مبالغة فى المغالبة . قال الأخفش : يقال دافع الله عنك ودفع عنك . اه . وقال ابن عطية : والأحسن يدافع لأنه يفهم أن الله يدفع للمؤمنين من يدفعهم ويؤذيهم ، إذ روى أن الآية نزلت لما كثر أذى الكفار المؤمنين بمكة فأراد المؤمنون قتالهم ليدفعوا عن أنفسهم فأخبرهم الله أنه الدافع عنهم ﴿ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ خَوَّانٍ ﴾ فى أمانته ﴿ كَفُورٍ ﴾ لنعمه وهم المشركون علة للدفع عن المؤمنين وإيثار بناء المبالغة فى الوصفين لأن حق الأمانة والشكر عزيز ومعنى « لا يحب » لا يرتضى فعلهم ولا ينصرهم فاشتد أذى المشركين وكان المؤمنون يأتون إلى النبى صلى الله عليه وسلم بين مضروب ومشجوج فيأمرهم بالصبر ثم أمرهم بالهجرة فهاجر بعضهم إلى الحبشة وبعضهم إلى المدينة وبقى معه بعضهم يؤذى حتى هاجر عليه السلام إلى المدينة فنزل عليه قوله ﴿ أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَاتَلُونَ ﴾ بالبناء للمفعول فى « أذن » لنافع وأبى عمرو وعاصم مسند إلى الجار والمجرور ، وللفاعل للباقين

وهو « الله » ويقاتلون بالبناء للمفعول أيضاً لنافع وابن عامر وحفص وللفاعل للباقين وهم المؤمنون ، والمأذون فيه محذوف لدلالة « يقاتلون » عليه أى أن يقاتلوا ، وقراءة « يقاتلون » بالبناء للمفعول أبلغ لشموله الإذن لمن لا يقدر على القتال ، وهذه أول آية نزلت فى الجهاد بعد ما كانوا يكفون عنه فى نيف وسبعين آية ﴿ بِأَنَّهُمْ ﴾ أى بسبب أنهم ﴿ ظُلِمُوا ﴾ بأذى الكفار كما تقدم والإلجاء إلى الهجرة ﴿ وَإِنَّ اللَّهَ عَلَى نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ ﴾ وعدٌ لهم بالنصر كما وعد بدفع أذى الكفار عنهم ، وعلل الأذى بكون المأذون له مظلوما ثم ذكر نصره بوجه من التأكيد بحيث لا يبقى للمظلوم ريبة فى أنه منصور لا محالة ، ثم بيّن ظلم الكفار لهم بقوله ﴿ الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ ﴾ من مكة إلى الحبشة والمدينة ﴿ بِغَيْرِ حَقٍّ ﴾ فى الإخراج . ما أخرجوا ﴿ إِلَّا أَنْ يَقُولُوا ﴾ أى بقولهم ﴿ رَبُّنَا اللَّهُ ﴾ وحده وهذا القول حق والإخراج به إخراج بغير حق ثم قوّى أمر الجهاد بقوله ﴿ وَلَوْلَا دَفْعُ اللَّهِ ﴾ بالألف لنافع وبغيره للباقين وكلاهما مصدر دفع ﴿ النَّاسَ بَعْضَهُمْ ﴾ بدل بعض من الناس ﴿ بِبَعْضٍ ﴾ بالجهاد ونصر المؤمنين على الكفار وبإقامة الحدود وقمع الفساق ﴿ لَهُدِّمَتْ ﴾ بالتخفيف لنافع وابن كثير والتشديد للباقين أى لخربت باستيلاء المشركين على أهل الملل الماضية ﴿ صَوَامِعُ ﴾ للرهبان ﴿ وَبِيَعٌ ﴾ معابد للنصارى ﴿ وَصَلَوَاتٌ ﴾ كنائس لليهود أصله صلوتا اسم للمصلى بالعبرانية فعرّب ﴿ وَمَسَاجِدُ ﴾ للمسلمين ﴿ يُذْكَرُ فِيهَا ﴾ صفة للأربع أو لمساجد خصت بها تفضيلا ﴿ اسْمُ اللَّهِ كَثِيرًا ﴾ وتنقطع العبادة بخرابها ثم حث سبحانه على الجهاد بوعد النصر لأهل دينه بقوله ﴿ وَلَيَنْصُرَنَّ اللَّهُ مَنْ يَنْصُرُهُ ﴾ حقاً إلى يوم القيامة وقد أنجز الله وعده بأن سلط المهاجرين والأنصار على صناديد العرب وأكاسرة العجم وقياصرتهم وفراعنتهم وأورثهم أرضهم وديارهم وذلك مستمر فى كل من قام لنصر دينه إلى يوم القيامة كما شاهدناه عياناً حين قمنا للجهاد ولله الحمد ﴿ إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ ﴾ على نصرهم ﴿ عَزِيزٌ ﴾ منيع فى سلطانه وقدرته لا يمانعه شىء ، ثم بيّن صفات ناصريه بقوله ﴿ الَّذِينَ إِنْ مَكَّنَّاهُمْ فِي الْأَرْضِ ﴾ وصف للذين أخرجوا أو بدل منه أو ممن ينصره ﴿ أَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ وَأَمَرُوا بِالْمَعْرُوفِ وَنَهَوْا عَنِ الْمُنْكَرِ ﴾ جواب الشرط وهو وجوابه صلة الموصول قيل يقدر قبله «هم» ووصفهم بهذا إشعار بأن تمكينهم فى الأرض بعد الإخراج إنما هو ليتمكنوا من القيام بما أخرجوا لأجله . وفيه دليل على حقيقة الخلافة للخلفاء الراشدين إذ لم يستجمع ذلك غيرهم من المهاجرين قاله البيضاوى وغيره . قال فى الجواهر : العموم في هذا كله أبين وبه يتجه الأمر فى جميع الناس وإنما الآية آخذة عهداً على كل من مُكن على قدر ما مكن . اه ﴿ وَلِلَّهِ عَاقِبَةُ الْأُمُورِ ﴾ أى مرجعها فى الآخرة أو فى الدنيا جميعاً أى إلى حكمه . قال فى غاية الأمانى : وفيه تأكيد لما وعده من نصره لأوليائه . اه . وفى الجواهر : فيه توعد للمخالف عن هذه الأوامر التى تقتضيها الآية لمن مكن . اه . وقال البغوى : عاقبة الأمور آخر أمور الخلق ومصيرهم إليه يعنى يبطل كل ملك سوى ملكه فيصير الأمور إليه بلا منازع

ولا مدع . اه . ولما ضمن النصر لمن أخرج من أمته ظالما عقبه بذكر الأمم المكذبة للرسل تسلية لرسولنا صلى الله عليه وسلم وإشارة إلى أنه أولى بالصبر لأنه أفضلهم بقوله ﴿ وَإِنْ يُكَذِّبُوكَ ﴾ أى قومك فلست بأوحد فى التكذيب ﴿ فَقَدْ كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ ﴾ تأنيث قوم باعتبار المعنى ﴿ وَعَادٌ ﴾ قوم هود ﴿ وَثَمُودُ ﴾ قوم صالح ﴿ وَقَوْمُ إِبْرَاهِيمَ وَقَوْمُ لُوطٍ وَأَصْحَابُ مَدْيَنَ ﴾ قوم شعيب ﴿ وَكُذِّبَ مُوسَىٰ ﴾ كذبه القبط لا قومه بنو إسرائيل ولذا غير الأسلوب أو لكون آياته أوفر وأشهر ، وعلى الأول فتكذيب قارون ومن تبعه كلا تكذيب لقلتهم باعتبار الباقى أو لأنهم منافقون لا يكذبون ظاهرا ﴿ فَأَمْلَيْتُ لِلْكَافِرِينَ ﴾ أمهلتهم حتى انصرمت آجالهم المقدرة ﴿ ثُمَّ أَخَذْتُهُمْ ﴾ بالعذاب المستأصل ﴿ فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ ﴾ نكرى من النكر بالضم وهو الدهاء أو إنكارى من نكره إذا غيره أى بتغيير النعمة محنة والحياة هلاكا والعمارة خرابا والاستفهام للتقرير أى واقع موقعه ﴿ فَكَأَيِّنْ ﴾ ولابن كثير كائن بمعنى كم ﴿ مِنْ قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَاهَا ﴾ بالنون للجمهور والتاء لأبى عمرو والنون أبلغ فى مقام السخط والمعنى بعد أولئك الأقوام أهلكنا كثيرا من القرى ﴿ وَهِيَ ظَالِمَةٌ ﴾ أى أهلها بكفرهم ﴿ فَهِيَ خَاوِيَةٌ ﴾ أى ساقطة حيطانها ﴿ عَلَىٰ عُرُوشِهَا ﴾ سقوفها بأن تعطل بنيانها فخرت سقوفها ثم تهدمت حيطانها فسقطت فوق السقوف من خوى النجم سقط أو خالية مع بقاء عروشها وسلامتها فيكون الجار متعلقا بخاوية من خوى البطن خلا ويجوز أن يكون خاوية خبر بعد خبر أى هى خالية وهى كائنة على عروشها كما كانت أو سقطت العروش وبقيت الحيطان مائلة مشرفة عليها والجملة معطوفة على « أهلكناها » لا على « وهى ظالمة » فإنها حال ، والإهلاك ليس حال خوائها فلا محل لها إن نصبت كائن بمقدر يفسره أهلكناها وإن رفعته بالابتداء فمحلها بالرفع ﴿ وَ ﴾ كم من ﴿ بِئْرٍ مُعَطَّلَةٍ ﴾ متروكة فى البوادى بموت أهلها لا يستقى منها ﴿ وَقَصْرٍ مَشِيدٍ ﴾ مرفوع أو مجصص من شاد البناء رفعه أو من الشيد بالكسر الجص قد خلا بموت أهله وقيل المراد بئر بحضرموت فى سفح جبلها وقصر على قلته كانا لقوم حنظلة بن صفوان من بقايا قوم صالح فلما قتلوه أهلكهم الله وعطلهما ﴿ أَفَلَمْ يَسِيرُوا ﴾ أى كفار مكة ﴿ فِي الْأَرْضِ ﴾ للاعتبار حث لهم على السفر للاعتبار بمصارع المهلكين أو إعلام أنهم قد سافروا وشاهدوا فما لهم لا يعتبرون والاستفهام للإنكار ﴿ فَتَكُونَ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَا ﴾ ما نزل بالمكذبين قبلهم وما يجب أن يعقل من التوحيد ﴿ أَوْ آذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا ﴾ أخبارهم بالإهلاك وخراب الديار أو ما يجب أن يسمع من الوحى ، والتذكير بحال من شاهدوا آثارهم فيعتبروا ﴿ فَإِنَّهَا ﴾ أى القصة ﴿ لَا تَعْمَى الْأَبْصَارُ ﴾ أى عيونهم الظاهرة بل هى سالمة ﴿ وَلَٰكِنْ تَعْمَى الْقُلُوبُ ﴾ أى عقولهم باتباع الهوى والانهماك فى التقليد فعليهم السير فى الأرض والنظر بعين الاعتبار فإنه دواء لذلك المرض وزيادة قوله ﴿ الَّتِي فِي الصُّدُورِ ﴾ عن الاعتبار للتأكيد لأن عمى القلب غير متعارف فأكد وقرر ، وقيل المراد لا اعتداد بعمى البصر بل العمى الذى لا عمى غيره هو عمى القلب الضار فى الدين

وأما عمى البصر فليس بضار فى أمر الدين فضرره غير معتبر ﴿ وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِالْعَذَابِ ﴾ الموعود لعمى قلوبهم ﴿ وَلَنْ يُخْلِفَ اللَّهُ وَعْدَهُ ﴾ لامتناع الخلف فى خبره فهو يصيبهم ولو بعد حين لأنه صبور لا يعجل بالعقوبة ﴿ وَإِنَّ يَوْمًا عِنْدَ رَبِّكَ ﴾ من أيام الآخرة بالعذاب ﴿ كَأَلْفِ سَنَةٍ مِمَّا تَعُدُّونَ ﴾ بالتاء للجمهور والياء لابن كثير وحمزة والكسائى فى الدنيا أو يوم واحد من عذابه كألف سنة لشدته فلم يستعجلونه أو بيان لعدم تناهى صبره وتأنيه أى فلذا يستقصر مدتهم وهم يستطيلونها ﴿ وَكَأَيِّنْ مِنْ قَرْيَةٍ أَمْلَيْتُ لَهَا ﴾ كما أمهلتكم ﴿ وَهِيَ ظَالِمَةٌ ﴾ مثلكم ﴿ ثُمَّ أَخَذْتُهَا ﴾ بالعذاب وكرر هذا الجلب معنى آخر وهو الإملاء ثم التعذيب لئلا يفرح هؤلاء بتأخر العذاب عنهم ، وعطف بالواو وما تقدم بالفاء لأنه مع الجملتين بعده لبيان أن المتوعد به يحيق بهم لا محالة وإن تأخر ، وعطف ماتقدم بالفاء لكونه بدلا عن قوله فكيف كان نكير وللتعقيب ﴿ وَإِلَيَّ الْمَصِيرُ ﴾ أى إلى حكمى مرجع الجميع فأجازيهم ﴿ قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّمَا أَنَا لَكُمْ نَذِيرٌ مُبِينٌ ﴾ بين الإنذار أوضح لكم ما أنذركم به وأنا بشير للمؤمنين إذ النداء للمشركين ثم فصل ذلك بقوله ﴿ فَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَهُمْ مَغْفِرَةٌ ﴾ من الذنوب ﴿ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ ﴾ هو الجنة ، ذكر هذا التبشير ليغيظ به الكفار ﴿ وَالَّذِينَ سَعَوْا فِي آيَاتِنَا ﴾ بالرد والإبطال ﴿ مُعَاجِزِينَ ﴾ بألف للجمهور : مسابقين مفاعلة بمعنى فعل أو بمعنى المغالبة من عاجزه فعجزه أى سابقه فسبقه ، ولابن كثير وأبى عمرو بلا ألف مشددا على أنه حال مقدرة وعليه الرسم أى ينسبون من اتبع النبى إلى العجز أو يثبطونهم عن الإيمان أو مقدرين عجزنا عنهم بإنكارهم البعث والجزاء ﴿ أُولَئِكَ أَصْحَابُ الْجَحِيمِ ﴾ النار الموقدة أو اسم دركة منها ﴿ وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ ﴾ هو من اختص من الله بالأمر والنهى مع أمره بالتبليغ ﴿ وَلَا نَبِيٍّ ﴾ من اختص بذلك : أمر بالتبليغ أم لا فهو أعم من الرسول فكل رسول من بنى آدم نبى ولا عكس ﴿ إِلَّا إِذَا تَمَنَّى ﴾ أى قرأ أو حدث نفسه ما يهواه ﴿ أَلْقَى الشَّيْطَانُ فِي أُمْنِيَّتِهِ ﴾ قراءته ما ليس من القرآن مما يرضاه المرسل إليهم أو فى حديثه ما يرضى قومه أو ما يوجب اشتغاله بالدنيا كما قال عليه السلام « إنه ليغان على قلبى فأستغفر الله فى اليوم سبعين مرة » قيل حدث نفسه بزوال المسكنة فنزلت . وقيل وعليه أكثر المفسرين : قرأ النبى صلى الله عليه وسلم سورة النجم بمجلس من قريش قالوا فألقى الشيطان على لسانه من غير علمه بعد «أفرأيتم اللات والعزى ومناة الثالثة الأخرى» تلك الغرانيق العلا وإن شفاعتهن لترتجى ، ففرح المشركون بذلك فسجدوا معه آخر السورة ثم أخبره جبريل بذلك فحزن فسلى بهذه الآية ليطمئن . قال البيضاوى بعد الحكاية : وهو مردود عند المحققين . اهـ . وقد تولى عياض فى الشفا بالرد عنه بما كفانا عنه وشفى وحاصل ماقال : إن هذا الحديث لم يخرجه أحد من أهل الصحة ولا رواه ثقة بسند متصل وإنما أولع به ومثله المفسرون والمؤرخون المولعون بكل غريب المتلقفون من الصحف كل صحيح وسقيم وقد اجتمعت الأمة على عصمته عليه السلام عن مثل هذا . اهـ . ونحوه لابن عطية قال : وإنما الأمر على

تقدير صحته أن الشيطان نطق ما ذكر بلفظ أسمعه الكفار . اه . قال عياض وقد أعاذنا الله من صحته إلى أن قال : قيل معنى الآية هو ما يقع للنبي صلى الله عليه وسلم من السهو إذا قرأ فينتبه لذلك ويرجع عنه . اه . وقال ابن العربي في الأحكام أنا من أدنى المؤمنين منزلة وأقلهم معرفة لا يخفى عليّ ولا عليكم أن هذا كفر لايجوز وروده من الله وكيف يخفى على النبي قوله . ونص الآية دليل على براءة النبي مما نسب إليه فالنبي لما كانت قراءته مقطعة يسكت في مقاطع الآي سكوتاً محصلا تتبع الشيطان سكتاته فقرأ ذلك فظن المشركون أنه من النبي وعلم الذين أوتوا العلم أن القرآن حق فرفضوا غيره وأما قول أهل التفسير أخبره جبريل بما ألقاه الشيطان على لسانه فحزن فسلى بهذه الآية فحكاية باطلة والنبي أعز على الله أن ينال الشيطان منه شيئاً وإن قل تأثيره ولو شاء ربك ما روى هذه الحكايات أحد ولكنه فعال لما يريد . اه . قال في غاية الأماني : خلط الشيطان ما ذكر بقراءته عليه السلام فظن المشركون أنه هو القارئ وفرحوا بأنه مدح آلهتهم فبين الله أن ذلك من إلقاء الشيطان هذا هو الحق الذي يجب اعتقاده وما عداه مما ذكره المفسرون من أنه تلاه بنفسه سهوا ثم جاءه جبريل وأخبره به إلى غير ذلك من الخرافات فكذب بحت لايحل لمسلم أن يتلفظ به على أنه لو صحت الرواية أنه صلى الله عليه وسلم هو التالي لكانت الإشارة والمدح للملائكة على ما يقتضيه السياق لقوله : إن الذين لا يؤمنون بالآخرة ليسمون الملائكة تسمية الأنثى . اه . وقال القسطلاني بعد ما أورد الحكاية أطنب القاضي عياض في الشفاء في إبطالها فشفى وكفى إذ سد هذا الباب هو الصواب وأربح للثواب وإن كانت كثرة الطرق تدل على أن لها أصلا إلى أن قال : وإذا سلمنا أن لها أصلا وجب تأويلها وأحسن ما قيل في ذلك أن الشيطان نطق بتلك الكلمات أثناء قراءة النبي صلى الله عليه وسلم عند سكتة من السكتات محاكيا نغمته فسمعها القريب منه فظنها من قوله . اه ﴿فَيَنْسَخُ اللَّهُ مَا يُلْقِي الشَّيْطَانُ﴾ يبطله ويزيله بعصمته عن الركون إليه أو بتبيين أنه من قراءة الشيطان ﴿ثُمَّ يُحْكِمُ اللَّهُ آيَاتِهِ﴾ يثبتها ﴿وَاللَّهُ عَلِيمٌ﴾ بأحوال الناس أو كامل العلم يميز الحق من الباطل ﴿حَكِيمٌ﴾ فيما يفعله ثم بين علة تمكينه الشيطان من إلقاء ما ألقى بقوله ﴿لِيَجْعَلَ مَا يُلْقِي الشَّيْطَانُ فِتْنَةً﴾ محنة ﴿لِلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ﴾ شك ونفاق لظنهم أنه من النبي صلى الله عليه وسلم فيقدحون بذلك في رسالته ويزعمون أنه من كلامه ندم على ما ذكر من مدح آلهتهم فغيره ﴿وَالْقَاسِيَةِ قُلُوبُهُمْ﴾ المشركين عن قبول الحق ﴿وَإِنَّ الظَّالِمِينَ﴾ يعني الفريقين وضع الظاهر موضع ضميرهم قضاء عليهم بالظلم ﴿لَفِي شِقَاقٍ بَعِيدٍ﴾ عن الحق وعن الرسول والمؤمنين ﴿وَلِيَعْلَمَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ أَنَّهُ﴾ أي القرآن ﴿الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ﴾ فيرفضوا غيره مما ألقى الشيطان ﴿فَيُؤْمِنُوا بِهِ﴾ بالقرآن أو بنسخ الباطل ﴿فَتُخْبِتَ﴾ تطمئن ﴿لَهُ قُلُوبُهُمْ﴾ بالانقياد والخشية ﴿وَإِنَّ اللَّهَ لَهَادِ الَّذِينَ آمَنُوا﴾ في كل ما أشكل ﴿إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾ بتأويل ما تشابه وتخليص الحق عما ألقاه الشيطان ﴿وَلَا يَزَالُ الَّذِينَ كَفَرُوا

فِي مِرْيَةٍ مِنْهُ ﴾ من القرآن أو الرسول أو مما ألقى الشيطان يقولون ما باله ذكر آلهتنا بخير ثم ارتد عنه ﴿ حَتَّى تَأْتِيَهُمُ السَّاعَةُ ﴾ لموتهم أو للقيامة ﴿ بَغْتَةً ﴾ فجأة ﴿ أَوْ يَأْتِيَهُمْ عَذَابُ يَوْمٍ عَقِيمٍ ﴾ يوم بدر لقتل أولاد النساء فيه فيصرن عقماً فإسناد العقم إلى اليوم مجاز لغوى أو المعنى يوم لا خير فيه كالريح العقيم التى لا خير فيها فهو استعارة تبعية شبه ما فى اليوم من مانع الخير بالعقم أو هو يوم القيامة إذ لا ليل بعده وهذا أوفق لقوله ﴿ الْمُلْكُ يَوْمَئِذٍ ﴾ يوم القيامة أو يوم يزول الشك عنهم ﴿ لِلَّهِ ﴾ وحده ، وما تضمنه من الاستقرار ناصب للظرف ﴿ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ ﴾ بين المؤمنين والكافرين بما بين بعد ﴿ فَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فِي جَنَّاتِ النَّعِيمِ ﴾ فضلا من الله ﴿ وَالَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا فَأُولَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مُهِينٌ ﴾ شديد بسبب أعمالهم فلذا دخلت الفاء فى خبرهم بخلاف خبر المؤمنين فإنه تفضل من الله ولذا قال فى الكفار لهم ولم يقل فى عذاب ﴿ وَالَّذِينَ هَاجَرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ ﴾ أى طاعته ﴿ ثُمَّ قُتِلُوا ﴾ فى الجهاد ﴿ أَوْ مَاتُوا لَيَرْزُقَنَّهُمُ اللَّهُ رِزْقًا حَسَنًا ﴾ فى الجنة وسوى بين من قتل فى الجهاد ومن مات حتف أنفه فى الوعد لاستوائهما فى القصد وأصل العمل . قال فى الجواهر : ظاهر الشريعة أن المقتول أفضل لمزية ما أصابه فى ذات الله وإن كانا معا شهيدين حكما ، والرزق يحتمل أن يريد به رزق الشهداء عند ربهم - فى البرزخ ويحتمل أن يريد بعد يوم القيامة فى الجنة . اه ﴿ وَإِنَّ اللَّهَ لَهُوَ خَيْرُ الرَّازِقِينَ ﴾ بأنه رازق حقيقة وغيره سبب ظاهر أو لدوام رزقه ﴿ لَيُدْخِلَنَّهُمْ ﴾ بدل من ليرزقنهم ﴿ مُدْخَلًا ﴾ بفتح الميم لنافع وضمها للباقين موضعاً أو إدخالا ﴿ يَرْضَوْنَهُ ﴾ فى الجنة ﴿ وَإِنَّ اللَّهَ لَعَلِيمٌ ﴾ كامل العلم بالأحوال والنيات ﴿ حَلِيمٌ ﴾ لا يعاجل بالعقوبة الأمر ﴿ ذَلِكَ ﴾ الذى قصصنا عليك ﴿ وَمَنْ عَاقَبَ ﴾ أى جازى من ظلمه ﴿ بِمِثْلِ مَا عُوقِبَ بِهِ ﴾ ولم يزد على حقه فى الاقتصاص سمى الفعل ابتداء عقاباً للازدواج والمشاكلة أو لأنه سببه ﴿ ثُمَّ بُغِيَ عَلَيْهِ ﴾ أى ظلم ثانياً بالمعاودة إلى العقوبة ﴿ لَيَنْصُرَنَّهُ اللَّهُ ﴾ ثانياً لا محالة ولا يمنعه عدم عفوه ﴿ إِنَّ اللَّهَ لَعَفُوٌّ ﴾ عن المؤمنين ﴿ غَفُورٌ ﴾ للمنتصر اتباعه هواه فى الانتقام وإعراضه عما ندب الله إليه بقوله « ولمن صبر وغفر إن ذلك لمن عزم الأمور » وفيه تعريض بالحث على العفو والمغفرة لأن الله مع كمال قدرته وتعالى شأنه يعفو ويغفر فغيره أولى بذلك وفيه دلالة على أن المحق منصور من الله فى كلتا الحالتين عفا أو عاقب وإن المبطل مخذول دائماً مسلوك فى قرن من كان فى مرية حتى تأتيه الساعة أو عذاب يوم عقيم . والآية قيل نزلت فى قوم من المؤمنين لقيهم الكفار فى شهر حرام فبدءوهم بالقتال وانتصروا فنصرهم الله على الكفار وقد علمت أن سبب النزول لا يمنع العموم ﴿ ذَلِكَ ﴾ النصر ﴿ بِأَنَّ اللَّهَ ﴾ قادر على ما يشاء بدليل أنه ﴿ يُولِجُ اللَّيْلَ فِي النَّهَارِ وَيُولِجُ النَّهَارَ فِي اللَّيْلِ ﴾ أى يدخل كلا منهما فى الآخر بأن يزيد به ما نقص منه أو بتحصيل ظلمة الليل فى مكان ضوء النهار بتغييب الشمس وعكس ذلك باطلاعها فلا يزال أحدهما مغلوبا والآخر غالباً وذلك من آثار قدرته التى بها النصر ﴿ وَأَنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ ﴾ قول المعاقب

والمعاقب ﴿بَصِيرٌ﴾ يرى أفعالهما فلا يهملهما ويعلم من يستحق النصر ومن يستحق الخذلان ، وهو من تتمة الدليل لأن القادر لا بد له من الوصفين ﴿ذَٰلِكَ﴾ الوصف بكمال القدرة والعلم ﴿بِأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ﴾ الثابت الألوهية إذ لا يصلح لها إلا القادر العالم الموجود بذاته ﴿وَأَنَّ مَا تَدْعُونَ﴾ بالتاء لنافع وابن كثير وابن عامر وأبي بكر وبالياء للباقين تعبدون ﴿مِن دُونِهِ﴾ وهو الأصنام ﴿هُوَ الْبَاطِلُ﴾ أي باطل الألوهية والمعدوم في حد ذاته لعدم اتصافه بتلك الصفات اتفاقاً فلا يوصف بالألوهية ﴿وَأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْعَلِيُّ﴾ عن صفات النقص وعلى الأشياء بقدرته ﴿الْكَبِيرُ﴾ عن الشريك والذي يصغر كل شيء سواه . ولما دل على كمال قدرته بإيلاج الليل في النهار وعكسه وبين إحاطة علمه أتبعه بأنواع من الدلائل الدالة على ذلك مع كونها نعماً جساماً فقال مقرراً ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ أَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً﴾ مطراً ﴿فَتُصْبِحُ الْأَرْضُ مُخْضَرَّةً﴾ بالنبات في صباح ليلة المطر في بعض البلاد وبعده في بعضها من غير تراخ ولذا آثر الفاء لأن الاخضرار يبتدئ في كلها عقب نزول المطر وإن كان تمامه في مدة ولذلك آثر المضارع على الماضي ورفعه عطفاً على «أنزل» لكونه مسبباً عنه . قاله في غاية الأماني ، وروى عن عكرمة أن الاخضرار في صباح ليلة المطر لا يكون إلا بمكة وتهامة . قال ابن عطية : وقد شاهدت هذا في السوس الأقصى أنزل المطر ليلا بعد قحط وأصبحت تلك الأرض الرملة التي تسفيها الرياح قد اخضرت بنبات ضعيف دقيق . اه . وقال عبد الرحمن في الجواهر : قد شاهدت ذلك بسواكن بالمشرق وهي في حكم مكة إلا أن البحر قد حال بينهما وذلك أن التعدية من جدة إلى سواكن مقدار يومين في البحر أو أقل بالريح المعتدلة ؛ وكان ذلك في أول الخريف ، وقد أجرى الله العادة أن أمطار تلك البلاد تكون بالخريف فقط هذا هو الغالب ولما شاهدت ذلك تذكرت هذه الآية الكريمة فسبحان الله ما أعظم قدرته . اه ﴿إِنَّ اللَّهَ لَطِيفٌ﴾ بعباده في إخراج النبات بالماء أو بوصول علمه ولطفه إلى كل ما جل ودق ﴿خَبِيرٌ﴾ بما في قلوبهم عند تأخير المطر أو بالتدابير الظاهرة والباطنة ، ويجوز رجوع اللطيف إلى الإنزال والخبير إلى إصباح الأرض مخضرة والله أعلم ﴿لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ﴾ ملكا ﴿وَإِنَّ اللَّهَ لَهُوَ الْغَنِيُّ﴾ بذاته عن كل شيء ﴿الْحَمِيدُ﴾ بصفاته وأفعاله حمد أو لم يحمد ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ سَخَّرَ لَكُم مَّا فِي الْأَرْضِ﴾ من البهائم وغيرها مذللة لمنافعكم ﴿وَالْفُلْكَ﴾ السفن عطف على «ما» أو اسم «أن» وقرئ بالرفع على الابتداء ﴿تَجْرِي فِي الْبَحْرِ﴾ للركوب والحمل ﴿بِأَمْرِهِ﴾ بإذنه حال أو استئناف لبيان وجه التسخير ﴿وَيُمْسِكُ السَّمَاءَ﴾ من ﴿أَن﴾ أو لئلا ﴿تَقَعَ عَلَى الْأَرْضِ إِلَّا بِإِذْنِهِ﴾ بإرادته عند قيام الساعة ﴿إِنَّ اللَّهَ بِالنَّاسِ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾ في التسخير والإمساك وبث أدلة وجوده وتوحيده في الآفاق وفتح أبواب المنافع لهم ودفع أنواع المضار ﴿وَهُوَ الَّذِي أَحْيَاكُمْ﴾ بالإنشاء بعد أن كنتم جماداً : تراباً ونطفة وعلقة ومضغة ﴿ثُمَّ يُمِيتُكُمْ﴾ عند حلول الأجل ﴿ثُمَّ يُحْيِيكُمْ﴾ في الآخرة للجزاء ﴿إِنَّ الْإِنسَانَ لَكَفُورٌ﴾ لجحود لنعم الله مع ظهورها ، ختم الآية بالكفران لأن آيات الأنفس

أقرب وأظهر فى كونها نعما وأثمن وأوجز ﴿ لِكُلِّ أُمَّةٍ جَعَلْنَا مَنْسَكًا ﴾ بفتح السين للجمهور وكسرها حمزة والكسائى شرعاً ودينا ﴿ هُمْ نَاسِكُوهُ ﴾ عاملون به ﴿ فَلَا يُنَازِعُنَّكَ ﴾ أرباب الملل أى لا تنازعهم ﴿ فِى الْأَمْرِ ﴾ الذى أنت عليه والشرع الذى شرع لك لأن شأنه أظهر من أن يمكن فيه النزاع ولأن أكثرهم جهال وأهل عناد ، قيل نزلت فى كفار خزاعة حين قالوا للمؤمنين فى الميتة : ما قتل الله أحق أن تأكلوه مما قتلتم ، ولم تعطف هذه الآية كما عطفت نظيرتها لأن تلك فى بيان الشعائر والنسائك لم تزل يتقرب بها إلى الله كسائر العبادات فعطفت بخلاف هذه فسوق الكلام فيها لتعداد الآيات الدالة على التوحيد ﴿ وَادْعُ إِلَى رَبِّكَ ﴾ إلى توحيده ودينه ﴿ إِنَّكَ لَعَلَى هُدًى ﴾ طريق إلى الحق ﴿ مُسْتَقِيمٍ ﴾ سوىّ ﴿ وَإِنْ جَادَلُوكَ ﴾ فى الدين بعد ظهور الحق عنادا ﴿ فَقُلِ اللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴾ من المجادلة الباطلة وغيرها فيجازيكم عليها ، وعيد فيه رفق من معنى : وأعرض عن الجاهلين ﴿ اللَّهُ يَحْكُمُ بَيْنَكُمْ ﴾ أيها المؤمنون والكافرون بالثواب والعقاب وأعاد كلمة الجلالة لدلالتها على الألوهية المناسبة للحكم والقضاء ﴿ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فِيمَا كُنْتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ ﴾ من أمر الدين ﴿ أَلَمْ تَعْلَمْ ﴾ الاستفهام فيه للتقرير ﴿ أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِى السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ ﴾ لا يخفى عليه شىء وهو من تتمة الحكم أى أنت تعلم أن الأمر كذلك وإن جهلوه ﴿ إِنَّ ذَلِكَ فِى كِتَابٍ ﴾ هو اللوح المحفوظ كتب فيه مقادير الأشياء قبل حدوثها فلا يهمنك أمرهم مع علمنا به وحفظنا له ﴿ إِنَّ ذَلِكَ ﴾ الإحاطة به وإثباته فى اللوح أو الحكم بينكم ﴿ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ ﴾ سهل لأن علمه بجميع المعلومات مقتضى ذاته فلا يعزب عنه مثقال ذرة ﴿ وَيَعْبُدُونَ ﴾ أى المشركون ﴿ مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِ سُلْطَانًا ﴾ برهانا يدل على جواز عبادته ﴿ وَمَا لَيْسَ لَهُمْ بِهِ عِلْمٌ ﴾ من ضرورة العقل أو استدلاله بل تقليد أو اتباع هوى ﴿ وَمَا لِلظَّالِمِينَ ﴾ بالإشراك ﴿ مِنْ نَصِيرٍ ﴾ إذا نزل بهم العذاب أو ليس لهم نصير فى تقرير مذهبهم ﴿ وَإِذَا تُتْلَى عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا ﴾ من القرآن ﴿ بَيِّنَاتٍ ﴾ واضحات الدلالة على العقائد الحقية والأحكام الإلهية : حال ﴿ تَعْرِفُ فِى وُجُوهِ الَّذِينَ كَفَرُوا الْمُنْكَرَ ﴾ الإنكار لها لظهور آثاره على صفحاتهم من الكراهة والعبوس غيظاً لأباطيل أخذوها تقليداً ، وآثر الظاهر دلالة على أن ذلك الإنكار ناشئ عن كفرهم ﴿ يَكَادُونَ ﴾ من شدة الغيظ ﴿ يَسْطُونَ ﴾ يثبون ويبطشون ﴿ بِالَّذِينَ يَتْلُونَ عَلَيْهِمْ آيَاتِنَا ﴾ والجملة حال أو استئناف ﴿ قُلْ أَفَأُنَبِّئُكُمْ بِشَرٍّ مِنْ ذَلِكُمُ ﴾ من غيظكم على التالين أو بأكره عليكم من القرآن المتلو عليكم هو ﴿ النَّارُ ﴾ ويجوز أن يكون مبتدأ والخبر ﴿ وَعَدَهَا اللَّهُ الَّذِينَ كَفَرُوا ﴾ بأن مصيرهم إليها ﴿ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ ﴾ النار ﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ ضُرِبَ مَثَلٌ ﴾ أى جعل لكم حال مستغربة إذ جعل لله شبه فى استحقاق العبادة ﴿ فَاسْتَمِعُوا لَهُ ﴾ للمثل استماع تأمل وهو ﴿ إِنَّ الَّذِينَ تَدْعُونَ ﴾ تعبدون ﴿ مِنْ دُونِ اللَّهِ ﴾ أى غيره وهم الأصنام ﴿ لَنْ يَخْلُقُوا ذُبَابًا ﴾ لن يقدروا على خلقه ، وهو اسم جنس واحده ذبابة يقع على المذكر والمؤنث مشتق من الذب لأنه يُذب

وجمعه أذِبَّة وذُبّان ، أى : لا يقدرون على خلقه مع صغره و « لن » بما فيها من تأكيد النفى تدل على منافاة ما بين المنفى والمنفى عنه ﴿ وَلَوِ ٱجْتَمَعُوا لَهُ ﴾ لخلقه وتعاونوا ، والشرط وجوابه المقدر فى موضع الحال جىء بها للمبالغة أى لا يقدرون على خلقه مجتمعين له فكيف إذا كانوا منفردين ، ثم ذكر ما هو أدل على عجزهم بقوله ﴿ وَإِنْ يَسْلُبْهُمُ الذُّبَابُ ﴾ يختطف منهم ﴿ شَيْئاً ﴾ مما عليهم من الطيب والزعفران وكانوا يطلون أصنامهم بذلك ﴿ لَا يَسْتَنْقِذُوهُ ﴾ لا يستخلصوه ويستردوه ﴿ مِنْهُ ﴾ لعجزهم فكيف يعبدون شركاء لله القادر على كل شىء وهذا غاية لتجهيلهم ﴿ ضَعُفَ الطَّالِبُ ﴾ العابد ﴿ وَالْمَطْلُوبُ ﴾ المعبود أو الذباب والصنم ، وعلى كلا الوجهين فالجماد أضعف من الحيوان بدرجات ، ولما أجراها مجرى العقلاء أثبت لها الطلب مع الخيبة تهكما ﴿ مَا قَدَرُوا ٱللَّهَ ﴾ ما عظموه ﴿ حَقَّ قَدْرِهِ ﴾ عظمته أو ما عرفوه حق معرفته حين أشركوا به ما لم يمتنع من الذباب ولا ينتصف منه ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ لَقَوِىٌّ عَزِيزٌ ﴾ ذو قوة وغلبة لا يغالبه شىء وما يشركون به أذل من أذل الحيوانات مقهور به . ولما هدم قواعد الشرك وأحكم دعائم التوحيد شرع فى إثبات الرسالة بقوله ﴿ ٱللَّهُ يَصْطَفِى مِنَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ رُسُلًا ﴾ يتوسطون بينه وبين الأنبياء بالوحى ﴿ وَ ﴾ يصطفى رسلا ﴿ مِنَ ٱلنَّاسِ ﴾ يدعون سائرهم إلى الحق ويبلغون إليهم ما نزل عليهم يتوسل بالاقتداء بهم إلى عبادة الله لا بالأصنام ، وفيه رد قولهم « أأنزل عليه الذكر من بيننا » وقولهم « ما نعبدهم إلا ليقربونا إلى الله زلفى » ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌ ﴾ لأقوالهم ﴿ بَصِيرٌ ﴾ بأحوالهم يعلم من يتخذه رسلا كجبريل وميكائيل وإبراهيم ومحمد وغيرهم صلوات الله عليهم ﴿ يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ ﴾ من الأمور واقعها ومترقبها ﴿ وَإِلَى ٱللَّهِ تُرْجَعُ ٱلْأُمُورُ ﴾ كلها لا يسأل عن الاصطفاء وغيره ، ثم حث على الشرائع بعد إثبات الرسالة لأنها كالنتائج لها وبدأ بالصلاة لأنها عماد الدين بقوله ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا ٱرْكَعُوا وَٱسْجُدُوا ﴾ أى صلوا ، عبر عن الصلاة بالركوع والسجود لأنهما أعظم أركانها لاحتوائهما على غاية الخضوع والخشوع اللذين عليهما مدار العبادة ﴿ وَٱعْبُدُوا رَبَّكُمْ ﴾ بسائر ما تعبدكم به وأخلصوه له ﴿ وَٱفْعَلُوا ٱلْخَيْرَ ﴾ كله كصلة الرحم ومكارم الأخلاق . قال عبد الرحمن فى الجواهر : وهذه الآية الكريمة عامة فى أنواع الخيرات ومن أعظمها الرأفة والشفقة على خلق الله ومواساة الفقراء وأهل الحاجات . وقد روى أبو داود والترمذى عن النبى صلى الله عليه وسلم أنه قال « أيما مسلم كسا مسلماً ثوباً على عرى كساه الله من خضر الجنة وأيما مسلم أطعم مسلماً على جوع أطعمه الله من ثمار الجنة وأيما مسلم سقى مسلما على ظمأ سقاه الله من الرحيق المختوم » . اهـ . وروى ابن أبى شيبة فى مسنده عن النبى صلى الله عليه وسلم أنه قال « أيما أهل عرصة ظل فيهم امرؤ جائعاً فقد برئت منهم ذمة الله » ﴿ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴾ تفوزون بالبقاء فى الجنة أى افعلوا هذه كلها وأنتم ترجون الفلاح غير متيقنين له بأعمالكم ﴿ وَجَٰهِدُوا ﴾ أعداء الله ﴿ فِى ٱللَّهِ ﴾ لإقامة دينه ﴿ حَقَّ جِهَادِهِ ﴾ أى جهاداً فيه حقاً خالصاً لوجهه فعكس وأضيف الحق إلى الجهاد مبالغة وأضيف

الجهاد إلى الضمير اتساعاً وإعلاماً أنه مختص بالله يفعل لأجله ونصب « حق » على المصدر ﴿ هُوَ اجْتَبَاكُمْ ﴾ اختاركم لدينه ولنصرته ، وفيه تنبيه على المقتضى للجهاد والداعى إليه ﴿ وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ ﴾ أى ضيق بتكليف ما يشتد القيام به بأن سهله عند الضرورات كالقصر والتيمم وأكل الميتة والفطر للمرض والسفر وكفتح باب التوبة وشرع الكفارات فى الذنوب والأرش والديات فى حقوق العباد وكتحليل الغنائم للاستعانة بالجهاد ، أى فكما لطف بكم غاية اللطف جاهدوا فيه حق جهاده ﴿ مِلَّةَ أَبِيكُمْ إِبْرَاهِيمَ ﴾ نصب على الإغراء أو نزع الخافض لأن قريشاً المخاطبين من ذريته أو لأنه أب لرسول الله صلى الله عليه وسلم وهو أب لأمته جميعاً لكونه سبباً لحياتهم الأبدية وإبراهيم بيان ﴿ هُوَ ﴾ أى الله ﴿ سَمَّاكُمُ الْمُسْلِمِينَ ﴾ أى بهذا الاسم الشريف ﴿ مِنْ قَبْلُ ﴾ فى الكتب المنزلة قبل القرآن ﴿ وَفِي هَٰذَا ﴾ القرآن وقيل الضمير لإبراهيم فى قوله «ومن ذريتنا أمة مسلمة لك» لكن يؤيد الأول قوله ﴿ لِيَكُونَ الرَّسُولُ شَهِيداً عَلَيْكُمْ ﴾ بأنه بلغكم فيدل على قبول شهادته لنفسه اعتماداً على عصمته أو بطاعة من أطاع وعصيان من عصى ﴿ وَتَكُونُوا ﴾ أنتم ﴿ شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ ﴾ أن رسلهم بلغتهم صريح يدل على أن الاجتباء والتسمية كانا لهذا الغرض لأنهما بمثابة التزكية ﴿ فَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ ﴾ داوموا عليها ﴿ وَآتُوا الزَّكَاةَ ﴾ شكراً لتلك النعمة التى لم تشاركوكم فيها أمة ﴿ وَاعْتَصِمُوا بِاللَّهِ ﴾ ثقوا به فى جميع أموركم لا تطلبوا النصر إلا منه ﴿ هُوَ مَوْلَاكُمْ ﴾ ناصركم ومتولى أموركم ﴿ فَنِعْمَ الْمَوْلَىٰ ﴾ هو ﴿ وَنِعْمَ النَّصِيرُ ﴾ أى الناصر لكم هو إذ لا مثل له فى الولاية والنصر بل لا ناصر ولا مولى سواه فالاعتصام به نهاية التقوى التى بدئت به السورة فانتظمت الخاتمة مع الفاتحة ولمولانا الحمد والثناء والصلاة والسلام على سيد الأنبياء وأصحابه الأتقياء .

[تم تفسير سورة الحج]

ســـورة المؤمنون
مكية ـ وهي مائة وثماني أو تسع عشرة آية

﴿ بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ۞ قَدْ ﴾ للتحقيق ﴿ أَفْلَحَ ﴾ فاز ﴿ ٱلْمُؤْمِنُونَ ﴾ بأمانيهم فقد تثبت المتوقع كما أن لما تنفيه وكان المؤمنون يتوقعون نوع بشارة منه تعالى فصدّر السورة بما دل على ثبوت متوقعهم على أبلغ وجه بأن أدخل قد على المضارع البارز فى صورة الماضى الدال على التحقيق فكأنه قال قد تحقق أن المؤمنين من أهل الفلاح بالأمانى ، ويجوز أن يكون جواب قسم محذوف فيزداد تأكيداً على تأكيد ﴿ ٱلَّذِينَ هُمْ فِى صَلَاتِهِمْ خَاشِعُونَ ﴾ بالإقبال عليها وقصر الأبصار فى مواضع السجود لأن الخشوع فعل قلب يظهر أثره فى الجوارح لحديث « لو خشع قلب هذا لخشعت جوارحه » ومنه أن لا يحدث نفسه بأمر لا يتعلق بالصلاة وأن يتدبر مايجرى على لسانه من القراءة والذكر وأن لا يلتفت ، لحديث « لا يزال الله مقبلا على العبد ما لم يلتفت فإذا التفت أعرض عنه » قال فى الجواهر: قد نص بعض أئمتنا على وجوب الخشوع فى الصلاة . قال الغزالى : كل ما يشغلك عن معانى قراءتك فهو وسواس . ثم أتبع وصفهم بالخشوع وصفهم بالإعراض عن اللغو جمعاً لهم بين فعل ما ينبغى وترك ما لا يعنى بقوله ﴿ وَٱلَّذِينَ هُمْ عَنِ ٱللَّغْوِ ﴾ ما لا يعنيهم من قول أو فعل ﴿ مُعْرِضُونَ ﴾ وهذا كالتتمة للصلاة فلذا فصل بينها وبين الزكاة التى هى أخت الصلاة ، وفيه مبالغات بجعل الجملة اسمية وبناء الحكم على الضمير والتعبير عنه بالاسم وتقديم الصلة عليه وإقامة الإعراض مقام الترك ليدل على بعدهم عنه رأساً مباشرة وتسبباً وميلا وحضوراً فإن أصله أن يكون فى عرض غير عرضه وكذلك قوله ﴿ وَٱلَّذِينَ هُمْ لِلزَّكَوٰةِ ﴾ الواجبة أو كل عمل صالح ﴿ فَٰعِلُونَ ﴾ مؤدون عبر عن المزكى بالفاعل تحاشياً عن التكرار والزكاة تقع على المعنى والعين والمراد الأول لأن الفاعل يفعل الحدث لا المحل الذى هو موقعه أو الثانى على تقدير مضاف وإنما وصفهم بأدائها بعد الوصف بالخشوع ليدل على أنهم بلغوا الغاية فى القيام على الطاعات البدنية والمالية والتجنب عن المحرمات وسائر ما توجب المروءة اجتنابه ثم أفرد مايتعلق بالفروج بالذكر لأنه أشهى الملاهى إلى النفس وأعمها خطراً بقوله ﴿ وَٱلَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَٰفِظُونَ ﴾ على أزواجهم لا يبذلونها ﴿ إِلَّا عَلَىٰٓ أَزْوَٰجِهِمْ ﴾ أى زوجاتهم ﴿ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُهُمْ ﴾ أى السرارى و« على » صلة لـ « حافظون » من حفظت المال على اليتيم واحفظ علىّ عنان فرسى أى حافظون فروجهم على الأزواج لا يتعدوهن ولا يبذلونها إلا عليهن فهو تأكيد ويجوز أن يكون على بمعنى « من » أى

حافظون من المستمتعات إلا من أزواجهم أو ما ملكت أيمانهم ﴿فَإِنَّهُمْ﴾ أى الحافظين ﴿غَيْرُ مَلُومِينَ﴾ فى إتيانهن وفيه إشارة إلى أنه مباح لا ثواب فيه ولا عقاب وهذا مالم يقصد به التعفف عن الحرام وإن قصد به فندب يثاب عليه وربما وجب فى بعض الأحوال لما فى البخارى « أنهم قالوا : يارسول الله أيأتى أحدنا شهوته ويكون له أجر . قال : نعم أرأيتم لو وضعها فى الحرام أكان عليه وزر » الحديث . والاستمتاع بالمملوك خاص بالرجال فلا يجوز للمرأة الاستمتاع بفرج مملوكها ﴿فَمَنِ ابْتَغَىٰ وَرَاءَ ذَٰلِكَ﴾ المستثنى وما وراءه هو الزنى واللواط وإتيان البهيمة والاستمناء باليد ، وجوز هذا الأخير أحمد بن حنبل وعامة العلماء على تحريمه ﴿فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْعَادُونَ﴾ المتجاوزون إلى مالا يحل لهم ﴿وَالَّذِينَ هُمْ لِأَمَانَاتِهِمْ﴾ بالجمع للجمهور والإفراد لابن كثير : ما يؤتمنون فيه من حقوق الله كالعبادات أوجبها عليهم وحقوق العباد كالودائع والصنائع ﴿وَعَهْدِهِمْ﴾ فيما بينهم وفيما بينهم وبين الله ﴿رَاعُونَ﴾ حافظون لا يخونون ولا يغدرون ، ولم يجمع العهد لأنه اسم للحاصل بالمصدر بخلاف الأمانة فإن المراد منه الشىء المؤتمن عليه . قال فى الجواهر : والعهد يجمع كل ما تحمله الإنسان من أمر دينه ودنياه قولا وفعلا وهذا يعم معاشرة الناس والمواعيد وغير ذلك ورعاية ذلك حفظه والقيام به والأمانة أعم من العهد إذ كل عهد فهو أمانة ولا عكس . اه . ﴿وَالَّذِينَ هُمْ عَلَىٰ صَلَوَاتِهِمْ﴾ بالجمع للجمهور والإفراد لحمزة والكسائى ﴿يُحَافِظُونَ﴾ يقيمونها فى أوقاتها برعى أركانها وأبعاضها وهيئاتها على الدوام ولذا أتى بالفعل الدال على التجدد ولا تكرار لأن الأول فى بيان خشوعهم فيها وهذا فى محافظتهم عليها وقدم الخشوع لأنه الأصل فى العبادات وفى تصدير الأوصاف وختمها بأمر الصلاة تعظيم لشأنها ﴿أُولَٰئِكَ﴾ الجامعون لهذه الصفات ﴿هُمُ الْوَارِثُونَ﴾ لا غيرهم لحقارة ما ورثوه ﴿الَّذِينَ يَرِثُونَ الْفِرْدَوْسَ﴾ هو جنة أعلى الجنان بيان لما يرثونه : أنهم أولا ثم فسر إظهاراً للفخامة ، والفردوس فى اللغة البستان الواسع الجامع لأصناف الثمار . روى أن الله بنى جنة الفردوس لبنة من ذهب ولبنة من فضة وجعل خلالها المسك الأذفر وغرس فيها من جيد الفواكه والرياحين ، وفى الصحيحين « إذا سألتم الله الجنة فاسألوه الفردوس فإنه وسط الجنة منه يتفجر الأنهار » ، واستعير الوراثة لاستحقاقهم دلالة على أنه أمر لازم كالميراث لا يقبل الرد ، وقيل لأنهم ورثوا منازل الكفار فى الجنة لو آمنوا لما فى الحديث « ما من أحد إلا وكتب له مقعد فى الجنة ومقعد فى النار » ﴿هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾ لا موت ولا انتقال ، اللهم اجعلنا من أهل الفردوس ، وأنث الضمير لأنه اسم للجنة أو لطبقتها العليا . ولما أمر الله بالعبادات بمدح المتصفين بها استدل على استحقاقه بها بدلائل وحدانيته وقدرته بقوله ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنسَانَ﴾ آدم أو نسله ﴿مِن سُلَالَةٍ﴾ خلاصة فعالة بمعنى المفعول من سللت الشىء من الشىء استخرجته منه وهو خلاصة سلت ﴿مِن طِينٍ﴾ ومن فى الموضعين للابتداء أو الثانية للبيان ، وفى البغوى قال عكرمة : السلالة هو الماء يسيل من الظهر والعرب تسمى النطفة سلالة والولد سليلا وسلالة لأنهما

مسلولان منه . قال الكلبي : من نطفة سللت من طين والطين آدم وقيل المراد بالإنسان آدم سل من كل تربة . اه . ونكر الطين لكونه طيناً مجهول الأجزاء من وجه جميع الأرض وهي القبضة التي قبضها ملك الموت ﴿ ثُمَّ جَعَلْنَاهُ ﴾ أي الإنسان نسل آدم ﴿ نُطْفَةً ﴾ منياً ﴿ فِي قَرَارٍ مَكِينٍ ﴾ هو الرحم وفيه نوع استخدام وقيل جعلنا السلالة نطفة والتذكير باعتبار المسلول أو الماء ، والقرار في اللغة المستقر من الأرض استعير لمحل النطفة ووصف بمكين مبالغة في وصف الرحم بالحصانة ﴿ ثُمَّ خَلَقْنَا ﴾ قلبنا ﴿ النُّطْفَةَ ﴾ البيضاء ﴿ عَلَقَةً ﴾ حمراء وهي الدم الجامد ﴿ فَخَلَقْنَا الْعَلَقَةَ مُضْغَةً ﴾ لحمة قدرما يمضغ ﴿ فَخَلَقْنَا الْمُضْغَةَ عِظَامًا ﴾ بأن صلبناها ﴿ فَكَسَوْنَا الْعِظَامَ ﴾ بالجمع في الموضعين للجمهور والإفراد لابن عامر وأبي بكر ﴿ لَحْمًا ﴾ ساتراً لها كالكسوة مما بقي من المضغة أو مما أنبتنا عليها مما يصل إليها واختلاف العواطف لتفاوت الاستحالات ﴿ ثُمَّ أَنْشَأْنَاهُ خَلْقًا آخَرَ ﴾ هو صورة بدنه ونفخ الروح فيه وهو خلق مباين للخلق الأول بأن صار حيوانا بعد أن كان جماداً أو ناطقاً بعد أن كان أبكم وسميعاً بعد أن كان أصم وبصيراً بعد أن كان أكمه وأودع فيه من القوى الظاهرة والباطنة وأنواع الإدراكات التي لا يقدر على درك شيء منها إلا علمه الشامل ﴿ فَتَبَارَكَ اللَّهُ ﴾ تعالى شأنه في قدرته وحكمته ﴿ أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ ﴾ المقدرين تقديراً ، فحذف المميز لدلالة الخالقين عليه ﴿ ثُمَّ إِنَّكُمْ بَعْدَ ذَٰلِكَ لَمَيِّتُونَ ﴾ لا محالة ولذا ذكر النعت الذي للثبوت دون اسم الفاعل وقد قرئ به ﴿ ثُمَّ إِنَّكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ تُبْعَثُونَ ﴾ للحساب والجزاء ولم يذكر الإحياء في القبر لخفاء شأنه فلا يحسن ذكره في معرض الاستدلال على كمال الاقتدار لأن الغرض حاصل بالإحياء الأول والإماتة والإعادة ﴿ وَلَقَدْ خَلَقْنَا فَوْقَكُمْ سَبْعَ طَرَائِقَ ﴾ أي سموات لتطارقها أي جعل بعضها فوق بعض أو لأنها طرق الملائكة في الصعود والهبوط والكواكب في سيرها ﴿ وَمَا كُنَّا عَنِ الْخَلْقِ ﴾ أي خلقها أو المخلوق تحتها ﴿ غَافِلِينَ ﴾ بل نحفظها عن تطارق الخلل أو نحفظ من تحتها أن تسقط عليهم فتهلكهم أو نحفظهم بإنزال الأرزاق لهم منها ويؤيده قوله ﴿ وَأَنْزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً بِقَدَرٍ ﴾ كفايتهم أو بمقدار اقتضته الحكمة وهو ماء المطر وماء الأنهار الخمسة التي أنزلت من الجنة نهر سيحون للهند وجيحون لبلخ ودجلة والفرات للعراق والنيل لمصر أنزلها الله من عين واحدة من عيون الجنة من أسفل درجة من درجاتها على جناحي جبريل فاستودعها الجبال وأجراها في الأرض وجعل فيها معايش الناس وذلك قوله ﴿ فَأَسْكَنَّاهُ ﴾ جعلناه مستقرا ﴿ فِي الْأَرْضِ ﴾ في أعماقها تجري منه العيون ﴿ وَإِنَّا عَلَىٰ ذَهَابٍ بِهِ لَقَادِرُونَ ﴾ فيموتون مع دوابهم عطشاً لأن الذهاب به أهون في العرف من الإنزال وفي تنكير ذهاب إشارة إلى كثرة طرقه وتعدد أسبابه ومبالغة في الإيعاد به ، وفي الحديث : فإذا كان خروج يأجوج ومأموج أرسل الله تعالى جبريل ورفع من الأرض القرآن والعلم كله والحجر من ركن البيت وهذه الأنهار الخمسة يعني المتقدمة إلى السماء فإذا رفعت هذه الأشياء فقد أهل الأرض خير

الدنيا والآخرة . اه . وفى صحيح مسلم : سيحون وجيحون والفرات والنيل كلٌّ من أنهار الجنة ﴿فَأَنْشَأْنَا لَكُمْ بِهِ﴾ بالماء ﴿جَنَّاتٍ مِنْ نَخِيلٍ وَأَعْنَابٍ﴾ هما أكثر فواكه العرب ﴿لَكُمْ فِيهَا﴾ فى الجنات ﴿فَوَاكِهُ كَثِيرَةٌ﴾ تتفكهون بها ﴿وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ﴾ صيفا وشتاء تغذيا وجمع الفواكه هنا والإتيان بالعاطف بخلاف ما فى الزخرف لأن تلك صفة الجنة والنوع الواحد من ثمرها يوجد فيه طعم سائر الأنواع فأشار هناك بالإفراد إلى أن نوعاً منه فيه غنية عن سائر الأنواع بخلاف ما فى الدنيا وترك العاطف هناك لأن ما يؤكل فى الجنة أبداً بعض ثمرها لدوامها وعدم الانقطاع فلا يوجد معنى آخر يعطف عليه . قاله فى غاية الأمانى ﴿وَ﴾ أنشأنا ﴿شَجَرَةً تَخْرُجُ مِنْ طُورِ سَيْنَاءَ﴾ بكسر السين لنافع وابن كثير وأبى عمرو وفتحها للباقين غير مصروف للعلمية والتأنيث للبقعة اسم جبل نودى منه موسى ويقال له «طور سينين» والشجرة هى الزيتون أفردها بالذكر لشرفها قيل هى أول شجرة نبتت بعد الطوفان وهى الشجرة المباركة ﴿تَنْبُتُ﴾ من الثلاثى للجمهور ومن الرباعى لابن كثير وأبى عمرو ﴿بِالدُّهْنِ﴾ الباء معدية على الأول كذهبت بزيد وزائدة على الثانى ﴿وَصِبْغٍ﴾ عطف على الدهن أى إدام يصبغ اللقمة بغمسها فيه وهو الزيت ﴿لِلْآكِلِينَ﴾ أى تنبت بالشىء الجامع بين كونه دهناً وإداماً ﴿وَإِنَّ لَكُمْ فِى الْأَنْعَامِ﴾ الإبل والبقر والغنم ﴿لَعِبْرَةً﴾ عظة تعتبرون بها وتستدلون على كمال علم الصانع وقدرته وهو رابع الأدلة عليهما فالأول خلق الإنسان والثانى خلق السماوات والارض والثالث الامطار والنبات وهذا الرابع الحيوانات والاستدلال بها من أربعة أوجه أشار إلى الأول بقوله ﴿نُسْقِيكُمْ﴾ بفتح النون لنافع وابن عامر وأبى بكر ويعقوب وضمها للباقين ﴿مِمَّا فِى بُطُونِهَا﴾ من الألبان أو من العلف الذى يتكون منه اللبن فـ « من » ابتدائية أو تبعيضية لأن اللبن جزء العلف لجمعه فى الضروع وتخليصه من بين الفرث والدم خالصاً دليل على كمال علمه وقدرته وإلى الثانى بقوله ﴿وَلَكُمْ فِيهَا مَنَافِعُ كَثِيرَةٌ﴾ فى الأصواف والأوبار والأشعار ، وإلى الثالث بقوله ﴿وَمِنْهَا﴾ أى من أعيانها ﴿تَأْكُلُونَ﴾ فتنتفعون بها بعد موتها كما تنتفعون بها حية أو تجعلونها سببا لمعاشكم بالبيع والإجارة ، وإلى الرابع بقوله ﴿وَعَلَيْهَا﴾ أى الإبل قيل والبقر أو الإبل خاصة لأنها غالب مال العرب المخاطبين يسمونها سفائن البر ولذا قرنت بالفلك فى قوله ﴿وَعَلَى الْفُلْكِ﴾ السفن ﴿تُحْمَلُونَ﴾ فى البر والبحر . ولما بين أدلة التوحيد والعلم والقدرة بما تقدم شرع فى بيان أحوال الأمم المكذبة بيانا لكفران الناس ما عدد عليهم من النعم وما حاق بهم لذلك وبدأ بقصة نوح وقومه لأنه أول رسول عذب قومه فقال ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَى قَوْمِهِ فَقَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ﴾ وحدوه ﴿مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ﴾ استئناف لبيان علة الاختصاص بالعبادة وقرأ الكسائى غيره بالجر على اللفظ ﴿أَفَلَا تَتَّقُونَ﴾ تخافون عقوبته بعبادتكم غيره أن يزيل عنكم نعمه ويهلككم والاستفهام للحث والطلب ﴿فَقَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَوْمِهِ﴾ لأتباعهم ﴿مَا هَذَا

إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ يُرِيدُ أَنْ يَتَفَضَّلَ ﴾ يتشرف ﴿ عَلَيْكُمْ ﴾ ويسودكم فلذا يدعى الرسالة ليكون متبوعا وأنتم أتباعه ﴿ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ ﴾ إرسال الرسول بترك عبادة غيره ﴿ لَأَنْزَلَ مَلَائِكَةً ﴾ بذلك لا بشراً ! انظر إلى هؤلاء الحمقى اعتقدوا أن البشرية تنافى الرسالة وهم قد رضوا للحجر بالألوهية ﴿ مَا سَمِعْنَا بِهَذَا ﴾ التوحيد ﴿ فِي آبَائِنَا الْأَوَّلِينَ ﴾ قالوه عناداً أو جهلا لتطاول الفترة ﴿ إِنْ هُوَ إِلَّا رَجُلٌ بِهِ جِنَّةٌ ﴾ حالة جنون لا يدرى ما يقول ﴿ فَتَرَبَّصُوا بِهِ ﴾ انتظروه وتحملوا عنه ﴿ حَتَّى حِينٍ ﴾ إلى حين موته أو حين يفيق من جنونه ويرجع عن دعواه ﴿ قَالَ ﴾ نوح بعدما أيس من إيمانهم ﴿ رَبِّ انْصُرْنِي ﴾ عليهم بإهلاكهم ﴿ بِمَا كَذَّبُونِ ﴾ بسبب تكذيبهم إياى فإن فى إهلاكهم نصرتى والباء بدلية أى أبدلنى من غم تكذيبهم سلوة النصرة أو « ما » موصولة والباء للآلة أى بالذى كذبونى فيه وهو العذاب الموعود بقوله « إنى أخاف عليكم عذاب يوم عظيم » فأجاب تعالى دعاءه بقوله ﴿ فَأَوْحَيْنَا إِلَيْهِ أَنِ اصْنَعِ الْفُلْكَ ﴾ السفينة ﴿ بِأَعْيُنِنَا ﴾ بمرأى منا وحفظنا لك أن تخطئ فيه أو يفسده عليك مفسد ﴿ وَوَحْيِنَا ﴾ أمرنا وتعليمنا كيف تصنع ﴿ فَإِذَا جَاءَ أَمْرُنَا ﴾ بإهلاكهم أو الأمر بركوب السفينة ﴿ وَفَارَ التَّنُّورُ ﴾ بالماء وكان ذلك علامة لنوح وتقدم معنى التنور والأقوال فى محله ﴿ فَاسْلُكْ فِيهَا ﴾ أى أدخل فى السفينة ﴿ مِنْ كُلٍّ زَوْجَيْنِ ﴾ صنفى الذكر والأنثى ﴿ اثْنَيْنِ ﴾ ذكراً وأنثى وهو مفعول اسلك و« من » متعلق به ، وقرأ حفص « من كلٍّ » بالتنوين أى من كل جنس ، وزوجين مفعول ، واثنين صفة للتأكيد كأمس الدابر ﴿ وَأَهْلَكَ ﴾ أى زوجته وأولاده إذ لم ينج غيرهم لقوله « وجعلنا ذريته هم الباقين » ولا ينافيه « أمم ممن معك » ﴿ إِلَّا مَنْ سَبَقَ عَلَيْهِ الْقَوْلُ ﴾ من الله بإهلاكه ﴿ مِنْهُمْ ﴾ وهو زوجته وولده كنعان بخلاف سام وحام ويافث فحملهم وزوجاتهم ﴿ وَلَا تُخَاطِبْنِي فِي الَّذِينَ ظَلَمُوا ﴾ كفروا بدفع العذاب عنهم ﴿ إِنَّهُمْ مُغْرَقُونَ ﴾ لا محالة لظلمهم وسبق القول عليهم بذلك ﴿ فَإِذَا اسْتَوَيْتَ ﴾ اعتدلت ﴿ أَنْتَ وَمَنْ مَعَكَ عَلَى الْفُلْكِ فَقُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي نَجَّانَا مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ ﴾ فإن النجاة من العدو كل نعمة دونه وفيه إشارة إلى علة النهى عن الخطاب فى حقهم لأن من هلاكه نعمة يحمد عليها كيف يليق السعى فى خلاصه ﴿ وَقُلْ ﴾ عند نزولك من الفلك أو فيه ﴿ رَبِّ أَنْزِلْنِي ﴾ فى الأرض أو فى السفينة ﴿ مُنْزَلًا ﴾ بضم الميم وفتح الزاى للجمهور مصدراً أو اسم مكان وبفتح الميم وكسر الزاى لأبى بكر مكان النزول ﴿ مُبَارَكًا ﴾ ذلك الإنزال أو المكان فيه مزيد خير الدارين ﴿ وَأَنْتَ خَيْرُ الْمُنْزِلِينَ ﴾ ثناء أخذ من لفظ الدعاء وأمره أن يشفع به الدعاء توسلا به إلى الإجابة وأفرده لأنه سيد القوم فما أمر به فهم مأمورون به ﴿ إِنَّ فِي ذَلِكَ ﴾ فى شأن نوح وقومه ﴿ لَآيَاتٍ ﴾ دلالات على قدرة الله تعالى لمن تأمل وتدبر لأن إظهار تلك المياه وإذهابها لا يقدر عليه إلا القادر على كل شىء ووقوعها على وفق قول نوح معجزة تصدقه وإهلاك الكفار وإبقاء الأرض لأهل الطاعة من أعظم دلائل الحكمة ﴿ وَإِنْ ﴾ مخففة من الثقيلة واسمها ضمير

الشأن ﴿ كُنَّا لَمُبْتَلِينَ ﴾ قوم نوح بإرساله إليهم ووعظه أو بعذاب شديد أو مختبرين عبادنا لننظر من يتذكر ﴿ ثُمَّ أَنْشَأْنَا مِنْ بَعْدِهِمْ قَرْناً ﴾ قوماً ﴿ آخَرِينَ ﴾ هم عاد قوم هود فى قول الأكثر فهم خلفاء من بعد قوم نوح . وقال الطبرى : هم ثمود قوم صالح لذكر الصيحة فى عذابهم ﴿ فَأَرْسَلْنَا فِيهِمْ رَسُولاً مِنْهُمْ ﴾ هود أو صالح إليهم وإنما جعلهم موضع الإرسال بقوله فيهم لإلزام الحجة لأنه منهم ليس لأنه أجنبياً حتى يأنفوا عن اتباعه ونشأ فيهم وبين أظهرهم يعرفون أمانته ﴿ أَنِ ﴾ تفسيرية أو مصدرية أى بأن ﴿ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ أَفَلَا تَتَّقُونَ ﴾ سخط الله وعقابه فتؤمنوا : حذرهم بهذا حين رآهم معرضين عن عبادة الله مشتغلين بعبادة الأوثان ﴿ وَقَالَ الْمَلَأُ مِنْ قَوْمِهِ الَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِلِقَاءِ الْآخِرَةِ ﴾ بالمصير إليها والجزاء فيها ﴿ وَأَتْرَفْنَاهُمْ ﴾ نعمناهم ﴿ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ﴾ بكثرة الأموال والأولاد وهذه صفات ذم ثلاث : الكفر بالله ، وباليوم الآخر ، والانهماك فى شهوات الدنيا : وصفهم بها تنفيراً عنها وعطف قولهم على قول الرسول هنا بالواو لعدم اتصال كلامهم بكلامه بخلاف قول قوم نوح ، وحيث استؤنف فعلى تقدير سؤال كأنه قيل ماقالوا فى جوابه فقيل كيت وكيت . ومعنى عدم اتصال كلامهم بكلامه أنهم هنا لم يخاطبوه بل قال بعضهم لبعض كلاماً فأشير إلى الفرق بين قوله الحق وقولهم الباطل فلا مساغ للاستئناف ﴿ مَا هَذَا إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ ﴾ فى الصفة لا مزية له ﴿ يَأْكُلُ مِمَّا تَأْكُلُونَ مِنْهُ وَيَشْرَبُ مِمَّا تَشْرَبُونَ ﴾ به ، بيان لوجه المماثلة والعائد إلى الموصول الثانى منصوب محذوف وتقدير المجرور وحذفه مع الجار ضعيف ﴿ وَلَئِنْ أَطَعْتُمْ بَشَراً مِثْلَكُمْ ﴾ فيما يأمركم به ، فيه قسم وشرط والجواب لأولهما وهو مغن عن جواب الثانى فى ﴿ إِنَّكُمْ إِذاً ﴾ إن أطعتموه ﴿ لَخَاسِرُونَ ﴾ حيث أذللتم أنفسكم لمن لا يستحق و « إذاً » جزاء الشرط وجواب لمن قال من قومه نتبعه ﴿ أَيَعِدُكُمْ أَنَّكُمْ إِذَا مِتُّمْ وَكُنْتُمْ تُرَاباً وَعِظَاماً ﴾ مجردة عن اللحوم والأعصاب ﴿ أَنَّكُمْ مُخْرَجُونَ ﴾ من الأحداث أو من العدم ، حسن تكرار أنكم طول الفصل ومخرجون خبر عن الأول والظرف لغو يتعلق به ، أو « أنكم مخرجون » مبتدأ والظرف خبره والجملة خبر عن أنكم على معنى أيعدكم أنكم إخراجكم كائن إذا متم . أو أنكم مخرجون مرفوع بفعل هو الجزاء للشرط والشرطية خبر أنكم كأنه قيل أيعدكم أنكم إذا متم وقع إخراجكم ﴿ هَيْهَاتَ هَيْهَاتَ ﴾ اسم فعل ماض بمعنى مصدر أو اسم صوت بنى لكونه بمعنى الماضى أى بَعُدَ بَعُدَ يعنون بعد التصديق أو الصحة ﴿ لِمَا تُوعَدُونَ ﴾ من الإخراج من القبور ، واللام زائدة أو للبيان كأنهم لما صوتوا بكلمة الاستبعاد ، قيل فما الذى له هذا الاستبعاد قالوا : لما توعدون والفاعل ضمير البعد أى وقع البعد لما توعدون وعلى زيادة اللام فما توعدون فاعله أى بعد ذلك الموعود أىّ بُعْدٍ ولذلك أكدوه وهو مبتدأ على كونه بمعنى المصدر والجار والمجرور خبره لأن المصدر يتعدى باللام ﴿ إِنْ هِيَ ﴾ الضمير لمعهود ذهنى عدل عنه حذرا عن التكرار أى ما الحياة ﴿ إِلَّا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا ﴾ بحياة أبنائنا أى يموت بعضنا ويولد بعض ، أو

فيه تقديم وتأخير ، أى نحيا ونموت لا حالة تعقل سواهما ، قدم الموت لأنه مظنة الريب ﴿ وَمَا نَحْنُ بِمَبْعُوثِينَ ﴾ كما يزعم هود أو صالح ﴿ إِنْ هُوَ ﴾ أى ما هذا الرسول ﴿ إِلَّا رَجُلٌ افْتَرَىٰ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا ﴾ فيما يدعيه من إرساله وفيما يعدنا من البعث ﴿ وَمَا نَحْنُ لَهُ بِمُؤْمِنِينَ ﴾ فى ذلك يوما ﴿ قَالَ رَبِّ انْصُرْنِي ﴾ عليهم وانتقم لى منهم ﴿ بِمَا كَذَّبُونِ ﴾ بسبب تكذيبهم إياى أو بدله ﴿ قَالَ عَمَّا قَلِيلٍ ﴾ من الزمان و «ما» صلة لتوكيد معنى القلة أو نكرة موصوفة ﴿ لَيُصْبِحُنَّ ﴾ يصيرن ﴿ نَادِمِينَ ﴾ على التكذيب إذا عاينوا العذاب حين لا ينفعهم الندم ﴿ فَأَخَذَتْهُمُ الصَّيْحَةُ ﴾ صيحة جبريل عليه السلام فهلكوا ولا دلالة للصيحة على أن القوم قوم صالح لجواز أن يكون مع الريح صيحة جبريل تغليظاً للعذاب ، وقيل أراد بالصيحة الهلاك كقول الشاعر : صاح الزمانُ بآل برمكَ صيحةً ۞ خرّوا لشدّتها على الأذقانِ حال كون الصيحة كائنة ﴿ بِالْحَقِّ ﴾ بالوجه الثابت الذى لا دافع له أو بالعدل من الله أو بالوعد الصدق ﴿ فَجَعَلْنَاهُمْ غُثَاءً ﴾ حميل السيل شبههم به فى البلاء وتفرق الأصل والخروج عن حد الانتفاع ، وهو كقول العرب : سال به الوادى ﴿ فَبُعْدًا ﴾ من الرحمة ﴿ لِلْقَوْمِ الظَّالِمِينَ ﴾ دعاء عليهم للإهانة والاستخفاف وهو من المصادر التى يجب حذف ناصبها واللام لبيان من دعى عليه بالبعد ويحتمل الإخبار ووضع الظاهر موضع ضميرهم للتعليل ﴿ ثُمَّ أَنْشَأْنَا مِنْ بَعْدِهِمْ قُرُونًا آخَرِينَ ﴾ أمماً فى أزمنة شتى كقوم صالح ولوط وشعيب ﴿ مَا تَسْبِقُ مِنْ أُمَّةٍ أَجَلَهَا ﴾ على كثرة القرون ﴿ وَمَا يَسْتَأْخِرُونَ ﴾ عن الوقت المقدر و « من » زائدة للاستغراق وذكّر الضمير بعد تأنيثه رعاية للمعنى ﴿ ثُمَّ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا تَتْرَىٰ ﴾ بلا تنوين للجمهور وبه لابن كثير وأبى عمرو على أن الألف للإلحاق أى متتابعين بين كل اثنين زمان طويل والتاء بدل من الواو لأنه من المواترة وهى المتابعة بين الأشياء ﴿ كُلَّمَا جَاءَ أُمَّةً ﴾ بتحقيق الهمزتين وتسهيل الثانية بينها وبين الواو على أصول القراء المعروفة ﴿ رَسُولُهَا كَذَّبُوهُ ﴾ أضاف الرسل مع الإرسال إلى المرسل للتشريف ومع المجىء إلى المرسَل إليهم للملابسة لأن الإرسال الذى هو مبدأ الأمر منه والمجىء الذى هو منتهاه إليهم ﴿ فَأَتْبَعْنَا بَعْضَهُمْ بَعْضًا ﴾ فى الإهلاك ﴿ وَجَعَلْنَاهُمْ أَحَادِيثَ ﴾ لم يبق منهم إلا حكايات يسمر بها وهو اسم جمع للحديث أو جمع أحدوثة وهى ما يتحدّث بها تلهياً ﴿ فَبُعْدًا لِقَوْمٍ لَا يُؤْمِنُونَ ۞ ثُمَّ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ وَأَخَاهُ هَارُونَ بِآيَاتِنَا وَسُلْطَانٍ ﴾ برهان ﴿ مُبِينٍ ﴾ وهو العصى أفردها لكونها أعظم معجزاته أو هو الآيات والعطف باعتبار الصفات ﴿ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِ ﴾ أشراف قومه خصهم بالذكر لأن الرعايا أتباع ﴿ فَاسْتَكْبَرُوا ﴾ عن الإيمان بها وبالله ﴿ وَكَانُوا قَوْمًا عَالِينَ ﴾ متكبرين أو ذوى عز وشرف ، من علوت الرجل غلبته فى العلو أو من علىَ بالكسر وعلى الوجهين فهو جار مجرى علة الاستكبار وعلى التفسير الأول هو من علا فى الأرض تكبر أى كانوا قوماً دأبهم التكبر أو المعنى قاهرين بنى إسرائيل بالظلم ﴿ فَقَالُوا أَنُؤْمِنُ لِبَشَرَيْنِ ﴾ ثنى البشر لأنه يطلق للواحد كما يطلق للجمع ﴿ مِثْلِنَا ﴾ لم يثن المثل لأنه فى

حكم المصدر ولكراهة توالى التثنيتين ﴿ وَقَوْمُهُمَا ﴾ يعنى بنى إسرائيل ﴿ لَنَا عَابِدُونَ ﴾ مطيعون خاضعون ﴿ فَكَذَّبُوهُمَا فَكَانُوا مِنَ الْمُهْلَكِينَ ﴾ بالغرق فى بحر القلزم ﴿ وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ ﴾ التوراة بعد إهلاكهم ﴿ لَعَلَّهُمْ ﴾ أى قومه بنى إسرائيل لا فرعون وقومه لأن التوراة نزلت بعد هلاكهم ﴿ يَهْتَدُونَ ﴾ به من الضلالة ﴿ وَجَعَلْنَا ابْنَ مَرْيَمَ ﴾ عيسى ﴿ وَأُمَّهُ آيَةً ﴾ دالة على كمال القدرة والعلم أفرد الآية لإرادة ما تعلق بهما من ولادته بغير فحل فالآية أمر واحد مضاف إليهما أو المراد جعلنا ابن مريم آية من الكلام فى المهد وغير ذلك وأمه آية من ولادته من غير مسيس فحذفت الأولى لدلالة الثانية عليها ﴿ وَءَاوَيْنَاهُمَا إِلَى رَبْوَةٍ ﴾ بضم الراء للجمهور وفتحها لابن عامر وعاصم ، أرض مرتفعة هى بيت المقدس قاله قتادة لأنها أرفع أجزاء الأرض وأقربها إلى السماء بثمانية عشر ميلا ، وقيل دمشق وعليه الأكثر . قال ابن العربى : وهو الذى رأيت الناس يعينون تواتراً فى سفح الجبل غربى دمشق موضع مرتفع تنشق منه أنهار عظيمة ، وقيل مصر لأن قراها على الربى ، وقيل رملة فلسطين ، أقوال . قال فى غاية الأمانى : والوجه هو الأول ﴿ ذَاتِ قَرَارٍ ﴾ تمكن يستقر عليها ساكنوها لاستوائها وكثرة ثمارها ﴿ وَمَعِينٍ ﴾ ماء جار أو ظاهر تراه العيون ، فعيل بمعنى فاعل من مَعَن الماء سال بعيداً لقوته ، ومنه أمعنت فى السير ، وأصله الإبعاد فى الشىء ، أو بمعنى مفعول ، من عانه أدركه بعينه لظهوره وهو تنبيه على كمال نعمه عليهما بهذا اللفظ المختص ﴿ يَا أَيُّهَا الرُّسُلُ كُلُوا مِنَ الطَّيِّبَاتِ ﴾ المعنى أن كل رسول خوطب بهذا فى زمانه فيدخل تحته عيسى دخولا أولويا ويكون ابتداء كلام ذكر تنبيهاً على أن تهيئة أسباب النعم لم تكن له خاصة وأن إباحة الطيبات للأنبياء شرع قديم وإيراده على هذا الوجه ليعتقد السامع أن أمرا نودى به جميع الرسل حقيق بأن يؤخذ به ، والطيبات : الحلالات أو ما تستلذه النفس منها من المآكل والفواكه ، وهى ثلاثة أقسام : حلال وصاف وقوام ، فالحلال : الذى لا يعصى الله فيه ، والصافى : الذى لا ينسى الله فيه ، والقوام : ما يمسك النفس ويحفظ العقل . قال فى غاية الأمانى : وفيه إبطال الرهبانية التى ابتدعها النصارى وبعض جهلة المتصوفة فى زماننا . اه . ﴿ وَاعْمَلُوا صَالِحًا ﴾ من فرض ونفل فإنه المقصود من ذلك والنافع عند ربكم ، وفيه إشارة إلى أن العمل الصالح لا يحصل إلا بعد أكل الحلال الطيب ﴿ إِنِّي بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ ﴾ فأجازيكم عليه وهو تحذير من مخالفة ما أمرهم به ﴿ وَ ﴾ اعلموا ﴿ أَنَّ هَذِهِ ﴾ أى ملة الإسلام ﴿ أُمَّتُكُمْ ﴾ دينكم أيها المخاطبون أى يجب أن تكونوا عليها ﴿ أُمَّةً وَاحِدَةً ﴾ حال لازمة أى متحدة فى العقائد وأصول الشرائع أو جماعتكم جماعة متفقة على الإيمان والتوحيد فى العبادة « وأن » بفتح الهمزة وتشديد النون لنافع وابن كثير وأبى عمرو معمول لمحذوف كما قدرنا أو معطوف على ما تعملون ، وقرأ ابن عامر بالتخفيف ، والكوفيون بالكسر على الاستئناف ﴿ وَأَنَا رَبُّكُمْ فَاتَّقُونِ ﴾ فى مخالفة أمرى وشق العصا ومخالفة الكلمة وقد بينت لكم أن الدين واحد أى كما أمر الرسل وأتباعهم

بالاتفاق على أكل الحلال وعمل الصالحات فكذا أمروا بالاتفاق على الدين الواحد واتقاء معصية الله ﴿ فَتَقَطَّعُوا ﴾ فعل متعد بمعنى قطعوا ﴿ أَمْرَهُمْ ﴾ دينهم ﴿ بَيْنَهُمْ ﴾ وجعلوه أديانا مختلفة أو تفرقوا وتحزبوا بعد تلك الوصية فخالفوها وتوزعوا الدين ﴿ زُبُرًا ﴾ قطعاً جمع زبرة أو جمع زبور وهو الكتاب أى كل أخذ بكتاب وكفر بالآخر فهو حال من أمرهم أو من الواو أو مفعول ثان لتقطعوا على تضمينه معنى الجعل ﴿ كُلُّ حِزْبٍ ﴾ من المتحزبين ﴿ بِمَا لَدَيْهِمْ ﴾ من الدين ﴿ فَرِحُونَ ﴾ مسرورن معجبون لاعتقادهم أنهم على الحق وغيرهم على الباطل ثم أتبع المفترقين بالوعيد بقوله ﴿ فَذَرْهُمْ ﴾ اترك كفار مكة لأنهم من بعضهم ﴿ فِي غَمْرَتِهِمْ ﴾ ضلالتهم شبهها بالماء الذى يغمر القامة لأنهم مغمورون فيها لا عبون ﴿ حَتَّى حِينٍ ﴾ أى حين موتهم أو قتلهم أو عذابهم كأنه قال : دعهم فى هذا الجهل الذى لا جهل فوقه دلالة على اليأس وعدم نجع القول فيهم، وفيه إدماج التسلية فى بيان الغاية وهى قتلهم أو موتهم ﴿ أَيَحْسَبُونَ أَنَّمَا نُمِدُّهُمْ بِهِ ﴾ نعطيهم ونجعله مدداً لهم ﴿ مِنْ مَالٍ وَبَنِينَ ﴾ فى الدنيا وهو بيان لما والخبر ﴿ نُسَارِعُ لَهُمْ بِهِ فِي الْخَيْرَاتِ ﴾ والراجع محذوف كما قدرنا ، أى : نسارع لهم به فيما فيه خيرهم وإكرامهم ﴿ بَلْ لَا يَشْعُرُونَ ﴾ أن ذلك استدراج لهم ﴿ إِنَّ الَّذِينَ هُمْ مِنْ خَشْيَةِ رَبِّهِمْ ﴾ خوفهم منه ﴿ مُشْفِقُونَ ﴾ حذرون هم أضداد السابقين ﴿ وَالَّذِينَ هُمْ بِآيَاتِ رَبِّهِمْ ﴾ المنصوبة والمنزلة ﴿ يُؤْمِنُونَ ﴾ بتصديق مدلولها ﴿ وَالَّذِينَ هُمْ بِرَبِّهِمْ لَا يُشْرِكُونَ ﴾ معه غيره شركا جليا ولا خفيا فإن كلا منهما يحبط العمل ﴿ وَالَّذِينَ يُؤْتُونَ ﴾ يعطون ﴿ مَا آتَوْا ﴾ أعطوا من الصدقة والأعمال الصالحة قليلا كان أو كثيرا ﴿ وَقُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ ﴾ خائفة أن لا تقبل منها إعظاماً لجناب الله تعالى ﴿ أَنَّهُمْ ﴾ يقدر قبله لام الجر ﴿ إِلَى رَبِّهِمْ رَاجِعُونَ ﴾ وهو يعلم ما فى ضمائرهم وما خفى عليهم ومنه الخاتمة ولا يخفى ما فى ترتيب هذه الصفات من الحسن لأن الأولى دلت على حصول الخوف الشديد الموجب للامتثال والثانية على الإيمان والثالثة على الإخلاص فى الطاعات والرابعة على الصدق وهو إتيان الأعمال مع الوجل والخوف نفياً للعجب وإقراراً للتقصير وذلك نهاية مقامات الصديقين ، رزقنا الله تعالى الوصول إليها . ولذلك قال ﴿ أُولَئِكَ يُسَارِعُونَ ﴾ يبادرون ﴿ فِي الْخَيْرَاتِ ﴾ الباقية لشدة الرغبة فيها وفيه تعريض بمن تقدم ذكرهم بأن همتهم فى المسارعة فى الفانى ﴿ وَهُمْ لَهَا ﴾ لأجلها ﴿ سَابِقُونَ ﴾ فاعلون السبق أو سابقون الناس إليها أو إلى ثوابها أى الجنة واللام لتقوية الاسم لتقدم معموله وقيل المعنى سبقت لهم السعادة فى علم الله فى الأزل فهم لها متسابقون ﴿ وَلَا نُكَلِّفُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا ﴾ طاقتها اعتراض للترغيب بأنه أمر سهل لا حرج فيه فمن تقاعد عنه فهو المقصر فمن لم يستطع أن يصلى قائماً فليصل جالساً ومن لم يستطع أن يصوم فليفطر ﴿ وَلَدَيْنَا كِتَابٌ ﴾ وهو اللوح المحفوظ الذى سطر فيه الأعمال أو كتاب الحفظة ﴿ يَنْطِقُ بِالْحَقِّ ﴾ لا يوجد فيه ما يخالف الواقع ﴿ وَهُمْ ﴾ أى النفوس العاملة ﴿ لَا يُظْلَمُونَ ﴾ شيئا بنقص ثواب أو زيادة عقاب ﴿ بَلْ قُلُوبُهُمْ فِي غَمْرَةٍ ﴾ غطاء جهل وغفلة غامر لها وهو إضراب عن

الإضراب الأول ترقياً فى وصفهم بالغفلة فإن عدم الشعور قد يكون لعدم التوجه وأما المستور بالغطاء فلا يمكن الوصول إليه ولو توجه وبذل الوسع ﴿ مِنْ هَٰذَا ﴾ الذى وصف به المؤمنون أو من هذا القرآن أو من كتاب الحفظة ﴿ وَلَهُمْ أَعْمَالٌ ﴾ خبيثة ﴿ مِنْ دُونِ ذَٰلِكَ ﴾ منحطة عما وصف به المؤمنون ﴿ هُمْ لَهَا عَامِلُونَ ﴾ لا محالة لاعتيادهم عليها وانهماكهم فيها لا يرعوون ﴿ حَتَّىٰ ﴾ ابتدائية ﴿ إِذَا أَخَذْنَا مُتْرَفِيهِمْ ﴾ منعميهم الرؤساء والأغنياء ﴿ بِالْعَذَابِ ﴾ القتل كيوم بدر والجوع فى دعائه عليه السلام عليهم : « اللهم اشدد وطأتك على مضر واجعلها عليهم سنين كسنى يوسف » فقحطوا حتى أكلوا الجيف ﴿ إِذَا هُمْ يَجْأَرُونَ ﴾ يصرخون بالاستغاثة يقال لهم ﴿ لَا تَجْأَرُوا الْيَوْمَ إِنَّكُمْ مِنَّا لَا تُنْصَرُونَ ﴾ لا تمنعون علة للنهى ﴿ قَدْ كَانَتْ آيَاتِي ﴾ من القرآن ﴿ تُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ فَكُنْتُمْ عَلَىٰ أَعْقَابِكُمْ تَنْكِصُونَ ﴾ ترجعون قهقرى كالخائف من الشىء إشارة إلى غاية إعراضهم وعلة منع النصر ﴿ مُسْتَكْبِرِينَ ﴾ عن الإيمان ﴿ بِهِ ﴾ أى بالبيت الحرام زعما منهم أنهم ولاته لا يؤاخذون بشىء ولا يظهر عليهم أحد فهم فى أمن بخلاف سائر الناس وشهرة البيت واستكبارهم به أغنى عن سبق ذكره أو الضمير للتكذيب أو الآيات وذكر لأنه فى معنى الكتاب والجار متعلق بقوله ﴿ سَامِرًا ﴾ وهو حال أى جماعة يتحدثون بالليل حول البيت بعيب القرآن والجائى به بقولهم سحر ، شعر ، ساحر ، شاعر ، أساطير الأولين ، والسامر : اسم جمع كالباقر والجامل أو مصدر كالعافية يقال هم سمار وسامر ويكره السمر فيما لا يعنى بعد العشاء لأن الصلاة قد كفرت خطايا المصلى لينام على سلامة ولا يختم صحيفته باللغو وأما السمر بغير هذا فلا حرج به إن تعلقت به حاجة ولا يؤدى إلى تضييع صلاة الصبح ﴿ تَهْجُرُونَ ﴾ بضم التاء لنافع من أهجر إذا أتى بالهجر أى الفحش وبفتحها للباقين أى تتركون القرآن أو تقولون فيه غير الحق ، قال تعالى ﴿ أَفَلَمْ يَدَّبَّرُوا الْقَوْلَ ﴾ القرآن الدال على صدق النبى صلى الله عليه وسلم بإعجازه ووضوح مدلوله ، المعنى تدبروه مدة متطاولة ﴿ أَمْ جَاءَهُمْ مَا لَمْ يَأْتِ آبَاءَهُمُ الْأَوَّلِينَ ﴾ من الكتاب والرسول فقد تواتر عندهم مجىء الرسل وإنزال الكتب إلى سائر الأمم أو جاءهم من الأمن من عذاب الله مالم يأت آباءهم الأولين الذين أسلموا كإسماعيل ومضر وربيعة وقيس والحارث بن كعب والأسد بن خزيمة وتميم بن مرّ وإلياس وتبع فكل هؤلاء مسلمون على ما أخبرت به الأحاديث ﴿ أَمْ لَمْ يَعْرِفُوا رَسُولَهُمْ ﴾ بالصدق والأمانة وحسن الخلق وشرف النسب مما هو من صفات الأنبياء ﴿ فَهُمْ لَهُ مُنْكِرُونَ ﴾ لفقد شىء من تلك الكمالات ﴿ أَمْ يَقُولُونَ بِهِ جِنَّةٌ ﴾ فلا يبالى بكلامه كلا إنهم قد علموا أنه من أرجح الناس عقلا وأثبتهم رأيا ومن وقف على خطبة أبى طالب عند نكاح خديجة علم ما كان فيه من صفات الكمال من أول نشأته ولم ينكر ذلك أحد منهم والاستفهام فى الكل للتقرير وفيه بيان وجوه الإنكار بحسب النوع والشخص ﴿ بَلْ جَاءَهُمْ بِالْحَقِّ ﴾ القرآن المشتمل على التوحيد وشرائع الإسلام الذى لا يخفى صحته وحسنه على عاقل ﴿ وَأَكْثَرُهُمْ لِلْحَقِّ كَارِهُونَ ﴾ لأنه يخالف شهواتهم وأهواءهم فلذلك

أنكروه وقيدوه بالأكثر لأن منهم من ترك الإيمان لخوف اللوم كأبي طالب أو لقلة الفطنة كغالب الأتباع لا لكراهة الحق وإنما أعاد المظهر لئلا يتوهم عود الضمير إلى الجائي ﴿وَلَوِ اتَّبَعَ الْحَقُّ﴾ الذي جاء به محمد وهو القرآن أو الحق هو الله ﴿أَهْوَاءَهُمْ﴾ من الشرك والمعاصي بأن يحيئهم بما يهوونه - تعالى الله عن ذلك ﴿لَفَسَدَتِ السَّمَاوَاتُ وَالْأَرْضُ وَمَنْ فِيهِنَّ﴾ أي لفسد النظام لأن الأهواء مختلفة والدواعي متباينة أو لانقلب الحق باطلا ولا بقاء للعالم مع الباطل ﴿بَلْ أَتَيْنَاهُمْ بِذِكْرِهِمْ﴾ بالقرآن الذي فيه ذكرهم وشرفهم أو تذكيرهم وعظتهم ﴿فَهُمْ عَنْ ذِكْرِهِمْ مُعْرِضُونَ﴾ جهلا منهم وعنادا ﴿أَمْ تَسْأَلُهُمْ خَرْجًا﴾ أجراً على ماجئتهم به ﴿فَخَرَاجُ رَبِّكَ﴾ أجره وثوابه أو رزقه ﴿خَيْرٌ﴾ لسعته ودوامه والخرج بالقصر في الأول والمد في الثاني للجمهور وبقصرهما لابن عامر وبمدهما لحمزة والكسائي لغتان في الأجر أو الخرج الجعل والخراج الضريبة على الأرض غالباً وأم قسيم لقوله أم يقولون به جنة وما بينهما اعتراض برهاناً على أنه منزه عن الجنون بل ما جاءهم به هو الحق الأبلج. قال البسيلي في تفسيره: يؤخذ منه عدم حرمة أخذ الأجرة على التعليم لأن ظاهر الآية أن ذلك مرجوح غير محرم ﴿وَهُوَ خَيْرُ الرَّازِقِينَ﴾ أفضل من أعطى أجرا تقرير لخيرية خراجه ﴿وَإِنَّكَ لَتَدْعُوهُمْ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾ دين الإسلام تشهد العقول السليمة على استقامته لا عوج فيه ﴿وَإِنَّ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ عَنِ الصِّرَاطِ﴾ السوي ﴿لَنَاكِبُونَ﴾ عنه فإن خوف الآخرة أقوى البواعث على طلب الحق وسلوك طريقه ومن لم يؤمن بها لا يتبعه ولذا نأخذهم بالضراء لعلهم يتضرعون ﴿وَلَوْ رَحِمْنَاهُمْ وَكَشَفْنَا مَا بِهِمْ مِنْ ضُرٍّ﴾ أي جوع أصابهم بمكة سبع سنين حتى أكلوا «العهلز» طعام يجعل من الدم والوبر ﴿لَلَجُّوا﴾ تمادوا ﴿فِي طُغْيَانِهِمْ﴾ إفراطهم في الكفر والاستكبار عن الحق ﴿يَعْمَهُونَ﴾ يترددون متحيرين عن الهدى ﴿وَلَقَدْ أَخَذْنَاهُمْ بِالْعَذَابِ﴾ القتل يوم بدر، وقيل الجوع ﴿فَمَا اسْتَكَانُوا﴾ ما تواضعوا ﴿لِرَبِّهِمْ﴾ استفعال من الكون أي ما انتقلوا من كونهم الأول إلى آخر أو افتعال من السكون أشبعت فتحته ﴿وَمَا يَتَضَرَّعُونَ﴾ ليس من عادتهم التضرع إلى الله في الدعاء وهو استشهاد على ما قبله ﴿حَتَّى﴾ ابتدائية ﴿إِذَا فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ بَابًا ذَا عَذَابٍ شَدِيدٍ﴾ وهو الجوع فإنه أشد من القتل والأسر وقيل هو عذاب جهنم أو القتل يوم بدر. قال عبد الرحمن في الجواهر: فالآية توعد بعذاب غير معين وهذا هو الصواب، والمجاعة إنما كانت بعد وقعة بدر. اهـ. وقال في غاية الأماني: تفسيره بالقتل يوم بدر أولى من تفسيره بالجوع لأن القحط وقع ورسول الله صلى الله عليه وسلم بمكة ووقعت يعني وقعة بدر بعده بالمدينة. اهـ. قلت وفيما قاله نظر لأن السورة مكية إجماعاً بلا استثناء شيء منها، وجعله من الإخبار بما سيقع يأباه السياق. والله أعلم ﴿إِذَا هُمْ فِيهِ مُبْلِسُونَ﴾ آيسون من كل خير أو من زواله من أبلس أيس، ولما بين أن الكفار لا يتضرعون له بين أن سبب ذلك عدم استعمال الحواس التي هي من أجل النعم عليهم بقوله ﴿وَهُوَ الَّذِي أَنْشَأَ﴾ خلق ﴿لَكُمُ السَّمْعَ﴾

لتسمعوا به ما يقرأ من الآيات ﴿وَالْأَبْصَارَ﴾ لتبصروا بها ما نصب من الآيات ﴿ وَالْأَفْئِدَةَ ﴾ لتتفكروا وتستدلوا بها ، وخص هذه الحواس لأنه يتعلق بها من المنافع الدينية والدنيوية ما لا يتعلق بغيرها ، وقدم السمع والابصار لأنها آلات الإدراك وبها تدرك المعجزات ﴿قَلِيلاً﴾ تأكيد للقلة ﴿مَا تَشْكُرُونَ﴾ فى استعمالها فيما خلقت لأجله والإذعان لمانحها ﴿ وَهُوَ الَّذِي ذَرَأَكُمْ﴾ خلقكم وبثكم بالتناسل ﴿فِي الْأَرْضِ وَإِلَيْهِ تُحْشَرُونَ ﴾ أى تجمعون يوم القيامة بعد تفرقكم ﴿ وَهُوَ الَّذِي يُحْيِي ﴾ ينفخ الروح فى المضغة ﴿وَيُمِيتُ﴾ فنعمة الحياة وإن عظمت فالمقصود منها الانتقال بالموت والبعث إلى دار الثواب ونعمتها أعظم ﴿ وَلَهُ اخْتِلَافُ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ ﴾ بالسواد والبياض والزيادة والنقصان أى يختص به لا يقدر عليه غيره ﴿ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴾ ألا تستعملون عقولكم فى النظر والتدبر بهذه النعم الدالة على قدرة منعمها على كل شىء وعلى رحمته فتطيعوه ﴿ بَلْ ﴾ إعراض عن خطابهم وبيان لجهلهم وجهل أسلافهم الذين اقتدوا بهم بقوله ﴿ قَالُوا مِثْلَ مَا قَالَ الْأَوَّلُونَ ﴾ آباؤهم ومن دان بدينهم فى نفى البعث لشبهة وهى ﴿ قَالُوا أَإِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَاباً وَعِظَاماً أَإِنَّا لَمَبْعُوثُونَ﴾ ؟ لا ، ولم يتأملوا أنهم كانوا قبل ذلك أيضاً تراباً فخلقوا ﴿لَقَدْ وُعِدْنَا نَحْنُ وَآبَاؤُنَا هَٰذَا ﴾ البعث بعد الموت ﴿ مِنْ قَبْلُ ﴾ قبل وجودنا ومجىء محمد ؛ يريدون أن ما قاله قول قيل قبله بدهر وقد ظهر لمن تقدمنا بطلانه ولو كان حقاً لوقع ﴿إِنْ هَٰذَا إِلَّا أَسَاطِيرُ﴾ أكاذيب ﴿الْأَوَّلِينَ﴾ التى كتبوها . جمع أسطورة ولا يستعمل هذا البناء إلا فيما يتلهى به كالأعاجيب والأضاحيك ثم سألهم تعالى عن أشياء لا يمكنهم إلا الإقرار بها ويلزم من إقرارهم الإقرار بتفرده بالألوهية وقدرته على البعث بقوله ﴿ قُلْ ﴾ لهم ﴿ لِمَنِ الْأَرْضُ وَمَنْ فِيهَا ﴾ من الخلق ﴿ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ ﴾ خالقها ومالكها أو إن كنتم من أهل العلم استهانة بهم وتكرير لفرط جهلهم حتى جهلوا مثل هذا الجلى الواضح ولذا جهلوا التوحيد وأنكروا البعث ﴿ سَيَقُولُونَ لِلَّهِ ﴾ لأنه لا يتوقف على فكر ولا يمكن للعاقل إنكاره ﴿ قُلْ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴾ فتعلمون أن القادر على الخلق ابتداء قادر على الإعادة بعد الموت ﴿ قُلْ مَنْ رَبُّ السَّمَاوَاتِ السَّبْعِ وَرَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ ﴾ فإنه أعظم من ذلك ﴿ سَيَقُولُونَ لِلَّهِ ﴾ بلام الجر للجمهور وبغيره لأبى بكر وأبى عمرو هنا وفيما بعده على ما يقتضيه لفظ السؤال والأول طابق معنى السؤال إذ معنى « من رب » كذا لمن هو ﴿ قُلْ أَفَلَا تَتَّقُونَ ﴾ عقابه فلا تشركوا به بعض مخلوقاته ولا تنكروا قدرته على بعض مقدوراته ﴿ قُلْ مَنْ بِيَدِهِ مَلَكُوتُ كُلِّ شَيْءٍ ﴾ أى غاية ملكه والتاء للمبالغة أو خزائنه ﴿ وَهُوَ يُجِيرُ ﴾ يغيث من يشاء ويحرسه وينصره ﴿ وَلَا يُجَارُ عَلَيْهِ ﴾ لا يغاث منه أحد وتعديته بعلى لتضمين معنى النصرة ﴿ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ ﴾ حيث زعمتم أن ما يقوله أساطير الأولين ، أعاده زيادة فى التوبيخ ﴿ سَيَقُولُونَ لِلَّهِ قُلْ فَأَنَّى تُسْحَرُونَ ﴾ تخدعون وتصرفون عن الحق مع ظهوره فيخيل لكم أنه باطل . تأمل فى مساق هذه الآيات الثلاث من الأسلوب البديع لأن الله تعالى ذكر الأرض أولا لأنها أقرب إليهم ومنها نشأتهم ثم ترقى إلى السموات

والعرش العظيم التى الأرض بالنسبة إليها كلاشىء ثم إلى من بيده ملكوت كل شىء فأتى بأعم العام وكلمة الإحاطة ، ولفظ الملكوت الدال على سعة الملك وغاية الاختصاص ، وذكر اليد تصويراً لعظمته وأن الكائنات تحت قدرته كلعبة فى يد قادر يقلبها كيف شاء ، وراعى فى الفواصل أيضاً ذلك حيث ذكر بعد الأرض التذكر الذى هو أيسر النظر ثم الاتقاء الدال على الوعيد ثم التعجيب من خدع عقولهم وتخيل الباطل حقاً والحق باطلا بعد الإقرار والاعتراف بهذه المقدمات القواطع . وكما أن هذه الآيات تقرير للسابق من إبطال شبه منكرى البعث كذلك هى تمهيد للاحق من إزاحة أوهام أهل الشرك رافضى التوحيد فى قوله ﴿ بَلْ أَتَيْنَاهُمْ بِالْحَقِّ ﴾ البرهان الدال على التوحيد والبعث ﴿ وَإِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ ﴾ فى نفيهما ﴿ مَا اتَّخَذَ اللَّهُ مِنْ وَلَدٍ ﴾ قط لتقدسه عن المماثلة والمجانسة ﴿ وَمَا كَانَ مَعَهُ مِنْ إِلَهٍ ﴾ يشاركه فى الألوهية ولو كان معه إله ﴿ إِذًا لَذَهَبَ كُلُّ إِلَهٍ بِمَا خَلَقَ ﴾ وانفرد به ومنع الآخر من الاستيلاء عليه ووقع بينهم التحارب والتغالب كما هو حال ملوك الدنيا ﴿ وَلَعَلَا بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ ﴾ ولا يكون بيده ملكوت كل شىء فالتالى باطل والمقدم مثله وقوله «لذهب» إلى هنا جواب محاجاتهم وجزاء شرط محذوف دل عليه ما قبله كما قدرنا لما علمت من أن إذاً لا يدخل إلا على كلام هو جواب وجزاء ﴿ سُبْحَانَ اللَّهِ عَمَّا يَصِفُونَ ﴾ من الولد والشريك لما سبق من الدليل على فساده ﴿ عَالِمِ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ ﴾ بالرفع خبر محذوف لنافع وحمزة والكسائى وشعبة وبالجر صفة للباقين أى ما غاب وما شوهد ، وهو برهان آخر على بطلان الشريك لأن من يدعون له الألوهية جماد لا إدراك له ولذا قال ﴿ فَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴾ معه ﴿ قُلْ رَبِّ إِمَّا ﴾ فيه إدغام نون إن الشرطية فى ما المزيدة ﴿ تُرِيَنِّي مَا يُوعَدُونَ ﴾ من العذاب فى الدنيا والآخرة أى إن كان لابد أن ترينى ، لأن ما والنون للتأكيد ﴿ رَبِّ فَلَا تَجْعَلْنِي فِي الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ ﴾ فأهلك بإهلاكهم لأن شؤم الظلمة قد يحيق بمن معهم كقوله « واتقوا فتنة لا تصيبن الذين ظلموا منكم خاصة » ﴿ وَإِنَّا عَلَى أَنْ نُرِيَكَ مَا نَعِدُهُمْ لَقَادِرُونَ ﴾ بأن ننجز ذلك الوعد ولكن لكل أمر وقت مقدر اقتضته الحكمة ولذا أخرناهم علماً بأن بعضهم أو بعض أعقابهم يؤمنون، أو لأنا لا نعذبهم وأنت فيهم ولذا أراه ذلك بعد الهجرة ببدر وهو رد لإنكارهم ذلك واستعجالهم له استهزاء ﴿ ادْفَعْ بِالَّتِي ﴾ بالخصلة التى ﴿ هِيَ أَحْسَنُ ﴾ من الصفح والإعراض عنهم لكن بحيث لا يؤدى إلى وهن فى الدين ﴿ السَّيِّئَةَ ﴾ كأذاهم إياك أو ادفع السيئة بالحسنة التى هى أحسن من غيرها من الحسنات فإنها متفاوتة واللائق بك إيثار أكمل الأخلاق وهى الصفح والإحسان بعده وبذل الوسع فيه ومن عوّد نفسه بهذا هان عليه الصفح عن السيئات وإتباعها الحسنات ﴿ نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَصِفُونَ ﴾ أى بما يصفونك به أو بوصفهم إياك على خلاف حالك فكل إلينا أمرهم ، وفيه وعيد شديد لهم . ولما كانت سورات الغضب التى هى من همزات الشياطين مانعة للاتصاف بما ذكر أمر الله نبيه بالاستعاذة منها بقوله ﴿ وَقُلْ رَبِّ أَعُوذُ ﴾ أعتصم ﴿ بِكَ

مِنْ هَمَزَاتِ الشَّيَاطِينِ ﴾ وساوسهم وأصل الهمز النخس ومنه مهماز الرائض ، شبه حثهم الناس على المعاصى بهمز الراضة الدواب على المشى تشبيهاً للمعقول بالمحسوس بجامع الحث لزيادة الإيضاح ، وجمع الهمزات إما للمرات أو لتنوع الوسواس أو لتعدد المضاف إليه ﴿ وَأَعُوذُ بِكَ رَبِّ أَنْ يَحْضُرُونِ ﴾ يحوموا حولى فى أمورى كلها فضلا عن الوسوسة لأنهم إنما يحضرون بسوء ﴿ حَتَّى ﴾ ابتدائية غاية لقوله « ادفع » دالة على كون الآية غير منسوخة ، والمداراة مرغب فيها ما لم يؤد إلى ثلم فى دين أو إزراء بمروءة . أو لقوله « يصفون » على معنى : إن طعنهم فيك مستمر إلى موتهم ، وعلى الوجهين فما بينهما اعتراض يؤكد شأن الصفح مستعيناً بالله على الشيطان أن يستزلك عن الحلم . أو لقوله « وإنهم لكاذبون » وما بعده اعتراض يؤكد كذبهم ﴿ إِذَا جَاءَ أَحَدَهُمُ الْمَوْتُ ﴾ ورأى مقعده من النار ومقعده من الجنة لو آمن ﴿ قَالَ ﴾ تحسراً ﴿ رَبِّ ارْجِعُونِ ﴾ إلى الدنيا والجمع للتعظيم أو لخطاب الملائكة ، ورب جر على إضمار حرف القسم . وعنه عليه السلام : إذا عاين المؤمن الملائكة يقولون نرجعك إلى الدنيا يقول إلى دار الصوم والأحزان بل قدوما إلى الله تعالى وأما الكافر فيقول « رب ارجعونى » ﴿ لَعَلِّي أَعْمَلُ صَالِحًا فِيمَا تَرَكْتُ ﴾ أى فى الإيمان الذى تركته أو فى المال الذى خلفته ، أو صالحاً يكون فيما ضيعت من عمرى أو فى مقابلته ، قال تعالى ﴿ كَلَّا ﴾ ردع واستبعاد عن طلب الرجوع أى لا رجوع ﴿ إِنَّهَا ﴾ أى « رب ارجعونى » ﴿ كَلِمَةٌ هُوَ قَائِلُهَا ﴾ لا محالة لتسلط الحسرة عليه ولا فائدة له فيها ﴿ وَمِنْ وَرَائِهِمْ بَرْزَخٌ ﴾ حاجز عن الرجوع ﴿ إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ ﴾ إقناط كلى إذ لا رجوع بعد البعث ﴿ فَإِذَا نُفِخَ فِي الصُّورِ ﴾ القرن نفخة البعث أو جمع صورة ويؤيده القراءة بفتح الواو ﴿ فَلَا أَنْسَابَ بَيْنَهُمْ يَوْمَئِذٍ ﴾ تنفعهم لزوال التعاطف والتراحم لفرط الحيرة بحيث يفر المرء من أخيه وأمه وأبيه وصاحبته وبنيه ، أو يفتخرون بها كما يفعلون فى الدنيا ﴿ وَلَا يَتَسَاءَلُونَ ﴾ عنها لاشتغال كل بنفسه لعظم الأمر فى ذلك الوقت ، ولا يناقض قوله فأقبل بعضهم على بعض يتساءلون لأن ما هنا عند النفخة وذلك بعد دخول أهل الجنة الجنة وأهل النار النار أو تساؤل الكفار فى النار معناه التلاوم كما فى قوله «إنكم كنتم تأتوننا عن اليمين .. الآيات» ﴿ فَمَنْ ثَقُلَتْ مَوَازِينُهُ ﴾ بالحسنات أو موزونات عقائده وأعماله أى من كانت له عقائد وأعمال صالحة يكون لها وزن عند الله وقدر ﴿ فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴾ الفائزون بالنجاة والدرجات ﴿ وَمَنْ خَفَّتْ مَوَازِينُهُ ﴾ بالسيئات أو من لم يكن له وزن وهم الكفار لقوله « فلا نقيم لهم يوم القيامة وزناً » عبر عنه بالخفة لوقوعه فى مقابلة الثقل الذى هو ضده فيحسن الطباق وتقدم هذا الخلاف وجمعه ﴿ فَأُولَئِكَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ ﴾ حيث أوردوها مورد هلاك الأبد وفوتوا حظوظها ﴿ فِي جَهَنَّمَ خَالِدُونَ ﴾ بدل من العلة لا محل له من الإعراب أو خبر آخر لأولئك ﴿ تَلْفَحُ وُجُوهَهُمُ النَّارُ ﴾ تحرقها واللفح كالنفح إلا أنه أشد تأثيراً وهما وهج النار ﴿ وَهُمْ فِيهَا كَالِحُونَ ﴾ عابسون من شدة الاحتراق تتقلص شفاههم وتبدو أسنانهم . وفى الترمذى :

تتقلص شفة الكافر العليا حتى تبلغ وسط رأسه والسفلى حتى تبلغ سرته ويقال لهم ﴿ أَلَمْ تَكُنْ آيَاتِي تُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ ﴾ تخوّفون بها ﴿ فَكُنْتُمْ بِهَا تُكَذِّبُونَ ﴾ تأنيب وتذكير لهم بما استحقوا هذا العذاب لأجله جمعاً بين عذاب النار وعذاب الندامة ﴿ قَالُوا رَبَّنَا غَلَبَتْ عَلَيْنَا شِقْوَتُنَا ﴾ ولحمزة والكسائى شقاوتنا بفتح أوله وألف مصدران بمعنى أى صارت أحوالنا مؤدية إلى سوء العاقبة ﴿ وَكُنَّا قَوْمًا ضَالِّينَ ﴾ عن الحق ﴿ رَبَّنَا أَخْرِجْنَا مِنْهَا ﴾ من النار ﴿ فَإِنْ عُدْنَا ﴾ إلى ما كنا فيه من المخالفة ﴿ فَإِنَّا ظَالِمُونَ ﴾ لأنفسنا ﴿ قَالَ ﴾ لهم بلسان مالك بعد مدة قدر الدنيا مرتين ﴿ اخْسَئُوا فِيهَا ﴾ ابعدوا وانزجروا أذلاء واسكتوا ، من خسأ الكلب فخسئ ﴿ وَلَا تُكَلِّمُونِ ﴾ فى رفع العذاب عنكم فينقطع رجاؤهم ، قيل إن أهل النار يقولون ألف سنة ربنا أبصرنا وسمعنا فيجابون حق القول منى فيقولون ألفاً أخرى ربنا أمتنا اثنتين فيجابون ذلكم بأنه إذا دعى الله وحده فيقولون ألفاً يا مالك ليقض علينا ربك فيجابون إنكم ماكثون فيقولون ألفاً « ربنا أخرنا » فيجابون أولم تكونوا أقسمتم من قبل فيقولون ألفاً « ربنا أخرجنا نعمل صالحاً » فيجابون « أولم نعمركم » فيقولون ألفاً « رب ارجعونى » فيجابون « كلا » فيقولون ألفاً « أخرجنا منها » فيجابون « اخسئوا فيها » ثم لا يكون لهم إلا زفير وشهيق وعواء ﴿ إِنَّهُ ﴾ أى الشأن ﴿ كَانَ فَرِيقٌ مِنْ عِبَادِي ﴾ هم المؤمنون أو الصحابة أو أهل الصفة ﴿ يَقُولُونَ رَبَّنَا آمَنَّا فَاغْفِرْ لَنَا وَارْحَمْنَا وَأَنْتَ خَيْرُ الرَّاحِمِينَ ۝ فَاتَّخَذْتُمُوهُمْ سُخْرِيًّا ﴾ بضم السين لنافع وحمزة والكسائى وكسرها للباقين مصدران بمعنى الهزء وياء النسب للمبالغة وقيل المضموم بمعنى التسخير الانقياد والاستعباد نزلت فى كفار قريش فى استهزائهم بفقراء المسلمين كعمار وبلال وصهيب . قال فى الجواهر : لكنها عامة فيمن جرى مجراهم قديماً وبقية الدهر ﴿ حَتَّىٰ أَنْسَوْكُمْ ذِكْرِي ﴾ فتركتموه لاشتغالكم بالاستهزاء بهم فهم سبب الإنساء فنسبٌ إليهم ﴿ وَكُنْتُمْ مِنْهُمْ تَضْحَكُونَ ﴾ لاتخافونى فى أوليائى ﴿ إِنِّي جَزَيْتُهُمُ الْيَوْمَ ﴾ بالنعيم المقيم ﴿ بِمَا صَبَرُوا ﴾ على استهزائكم وأذاكم إياهم ، وفى هذا الإكرام زيادة خسء لأولئك الأضداد ﴿ أَنَّهُمْ ﴾ بفتح الهمزة للجمهور مفعول ثانى لـ « جزيتهم » وكسرها لحمزة والكسائى استئناف ﴿ هُمُ الْفَائِزُونَ ﴾ بمراداتهم مخصوصين به ﴿ قَالَ ﴾ بصيغة الماضى للجمهور أى الله أو الملك المأمور بسؤالهم وبالأمر لابن كثير ، وحمزة والكسائى أمر للملك أو لبعض أهل النار ﴿ كَمْ لَبِثْتُمْ فِي الْأَرْضِ ﴾ أحياء وأمواتاً فى الدنيا وفى القبور ﴿ عَدَدَ سِنِينَ ﴾ تمييز لـ « كم » ﴿ قَالُوا لَبِثْنَا يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ ﴾ شكوا فى ذلك واستقصروه لعظم ماهم فيه من العذاب ولأن أيام السرور قصار والمنقضى باعتبار ما لا ينقضى كالعدم ﴿ فَاسْأَلِ الْعَادِّينَ ﴾ الملائكة المحصين أعمار العباد أى هم الذين يتمكنون من عد أيامها فنحن مشغولون عن تذكرها وإحصائها ﴿ قَالَ ﴾ بالماضى ولحمزة والكسائى بالأمر ﴿ إِنْ ﴾ أى ما ﴿ لَبِثْتُمْ إِلَّا قَلِيلًا ﴾ تصديق لهم فى مقالهم وتوبيخ على غفلتهم التى كانوا عليها بقوله ﴿ لَوْ أَنَّكُمْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ ﴾ مقدار لبثكم من الطول كان قليلا بالنسبة إلى لبثكم فى النار ﴿ أَفَحَسِبْتُمْ ﴾ تقرير فيه توبيخ

على تغافلهم وظنهم الفاسد ﴿ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثًا ﴾ حال أى عابثين أو مفعول له أى للعبث بل لنتعبدكم ونجازيكم على أعمالكم وهو كالدليل على البعث ﴿ وَأَنَّكُمْ ﴾ عطف على « أنما » أو على « عبثاً » إن جعل مفعولا له أى للعبث ولتركبكم غير مرجوعين ﴿ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ ﴾ بالبناء للمفعول للجمهور والفاعل لحمزة والكسائى وقوله « أفحسبتم .. إلى آخر السورة » رقية لكل بلاء . قال عليه السلام: « لو أن رجلا موقناً قرأها على جبل لزال » ﴿ فَتَعَالَى اللَّهُ ﴾ عن العبث وغيره مما لا يليق به ﴿ الْمَلِكُ الْحَقُّ ﴾ الثابت الملك الذى لا يزول ملكه ، ومن عداه مملوك بالذات مالك بالعرض من وجه دون وجه ، وفى حال دون حال ﴿ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْكَرِيمِ ﴾ الذى هو مظهر الأحكام ومعدن البركات ، أو لأنه عرش أكرم الأكرمين وصف بوصفه مجازاً حكمياً كما يقال بيت كريم إذا كان ساكنوه كرماء ﴿ وَمَنْ يَدْعُ مَعَ اللَّهِ إِلَٰهًا آخَرَ ﴾ شريكا له فى الألوهية يعبده ﴿ لَا بُرْهَانَ لَهُ بِهِ ﴾ صفة ثانية لإله لازمة له كاشفة لحقيقته لأن الباطل لا برهان له ، جىء بها للتأكيد وبيان أن ما لا دليل عليه باطل فضلا عما دل الدليل على خلافه أو اعتراض بين الشرط وجزائه وهو ﴿ فَإِنَّمَا حِسَابُهُ عِنْدَ رَبِّهِ ﴾ فيجازيه مقدار ما يستحقه ﴿ إِنَّهُ ﴾ أى الشأن ﴿ لَا يُفْلِحُ الْكَافِرُونَ ﴾ ومفهومه أن المؤمنين مفلحون كما نطق به أول السورة فانتظمت الفاتحة مع الخاتمة . ثم أمر رسوله بالاستغفار والاسترحام بقوله ﴿ وَقُلْ رَبِّ اغْفِرْ وَارْحَمْ ﴾ لى وللمؤمنين ، وفى الرحمة زيادة على المغفرة ﴿ وَأَنْتَ خَيْرُ الرَّاحِمِينَ ﴾ أمره بذلك لتقتدى به أمته فى الدعاء بهذا ، وقد أخرج الترمذى عن عمر بن الخطاب رضى الله عنه قال : سمعنا دوياً كدوى النحل فمكثنا ساعة فاستقبل رسول الله صلى الله عليه وسلم القبلة فرفع يديه وقال « اللهم زدنا ولا تنقصنا وأكرمنا ولا تهنا وأعطنا ولا تحرمنا وآثرنا ولا تؤثر علينا وارض عنا وأرضنا » ثم قال : لقد أنزلت علىّ عشر آيات من أقامهن دخل الجنة ، ثم قرأ « قد أفلح المؤمنون ... » .

[تم تفسير سورة المؤمنون]

سورة النور

مدنية - وهي ثنتان أو أربع وستون آية

﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ ۝ سُورَةٌ﴾ أى هذه سورة أو فيما أوحينا إليك سورة ﴿أَنْزَلْنَاهَا﴾ صفتها ﴿وَفَرَضْنَاهَا﴾ مخففاً للجمهور ألزمناكم ما فيها من الأحكام ، أصل الفرض القطع ، ومشدداً لابن كثير وأبى عمرو للمبالغة والتأكيد أو بمعنى فصّلناها فرائض فرضاً فرضاً لأن فيها فرائض شتى ، ففيه براعة الاستهلال أو لكثرة المفروض فيها ﴿وَأَنْزَلْنَا فِيهَا آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ﴾ واضحات الدلالة لا تتوقف على فكر وتأمل من الأمثال والمواعظ ﴿لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾ تتعظون وتتقون المحارم ، وقرئ بتخفيف الذال . واعلم أن الله سبحانه ذكر فى أول هذه السورة إلى قوله «الله نور السموات» عشرة أحكام : الحكم فى الزنا ، وفى نكاح الزوانى ، وفى القذف ، وفى اللعان ، وفى قصة الإفك ، وفى الاستئذان ، وفى النظر وأحكام العورات ، وفى إنكاح الأيامى ، وفى المكاتبة ، وفى الإكراه على الزنا ، فأولها قوله ﴿الزَّانِيَةُ وَالزَّانِي﴾ غير المحصنين لرجمهما بالسنة و « أل » فيهما موصولة وهما مرفوعان على الابتداء والخبر محذوف عند الخليل وسيبويه تقديره فيما فرضنا أو أنزلنا أى حكمهما الجلد أو الخبر هو قوله ﴿فَاجْلِدُوا كُلَّ وَاحِدٍ مِنْهُمَا مِائَةَ جَلْدَةٍ﴾ ودخلته الفاء لتضمن المبتدأ معنى الشرط والجلدة الضربة يقال جلده : ضرب جلده ، وفيه إشارة إلى التخفيف ، ويزاد على الجلد تغريب عام بالسُّنة إلى بلد آخر يسجن فيه خلافاً لأبى حنيفة لكن ذلك فى الحُر فقط لا فى الحرة خلافاً للشافعى . وأما الرقيق عبداً أو أمة فعلى النصف وهو خمسون جلدة بلا تغريب خلافاً للشافعى وجلدهما بشرط كون كلٍّ بالغاً عاقلا مسلماً طائعاً بلا شبهة عالماً بتحريم الزنى ولو كانت المرأة صبية فلا حدّ على صبى ولا مجنون باتفاق ولا على كافر زنى بكافرة خلافاً للشافعى لكن يؤدبان إن أظهراه وإن استكره مسلمة قتل لنقض العهد ، وفى المكره قولان ، ولا على من ظن أجنبية زوجته أو أمته خلافاً لأبى حنيفة ، وفى من ادعى الجهل بتحريم الزنى وهو ممن يظن به قولان لابن القاسم وأصبغ ، وفى من زنى بحربية الحدّ عند ابن القاسم خلافاً لابن الماجشون ، ويحدّ واطئ الميتة فى المشهور . وإنما قدم الزانية لأن بواعث الزنى تبدو أولا منها ولأنها المحل ﴿وَلَا تَأْخُذْكُمْ بِهِمَا رَأْفَةٌ﴾ بسكون الهمزة للجمهور وفتحها لابن كثير لغتان فى شدة الرحمة ﴿فِي دِينِ اللَّهِ﴾ أى حكمه فى نصره ورفع شأنه بأن لا تتركوا شيئاً من حدهما ولا تخففوه دون ما شرع ، وصفته أن يكون بسوط بين سوطين وضرب

بين ضربين ﴿ إِنْ كُنْتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ ﴾ تحريض على ماقبل الشرط لميل الطبع إلى المساهلة وهو دليل الجواب ﴿ وَلْيَشْهَدْ عَذَابَهُمَا ﴾ حدهما زيادة فى التنكيل ﴿ طَائِفَةٌ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ ﴾ إغلاظاً وتوبيخاً لأن الحكمة فى شرع الحد الزجر عن المعاودة والنفوس الأبية تنزجر بالتشهير أكثر من الضرب والتعذيب لا سيما بين قومه وأهل حرفته ولذا قيد بالمؤمنين ، والطائفة الجماعة التى يمكن أن تكون حافة حول الشىء لأنه من الطواف ، ولا خلاف أنها كلما كثرت فهو أليق بامتثال الأمر واختلف فى أقل مايجزئ وحكى من ثلاثة إلى أربعين ، ومشهور مذهب مالك لا بد من اثنين . قال ابن العربى : والصحيح سقوط العدد واعتبار الجماعة التى يقع بها التشديد والتشهير من غير حد . وقد تقدم أن الجلد فى غير المحصن وشروط الإحصان : الحرية والبلوغ والعقل والتزوج تزوجاً صحيحاً والدخول بالزوجة وهذه الخمسة مجمع عليها ، واختلف فى الإسلام فشرطه مالك وأبو حنيفة فلا يحد الذمى عندهما مطلقاً خلافاً للشافعى وأحمد ثم أشار إلى الحكم الثانى بقوله ﴿ الزَّانِي لَا يَنْكِحُ ﴾ لا يطأ ﴿ إِلَّا زَانِيَةً أَوْ مُشْرِكَةً ﴾ أو المعنى لا يعقد إلا عليها ﴿ وَالزَّانِيَةُ لَا يَنْكِحُهَا إِلَّا زَانٍ أَوْ مُشْرِكٌ ﴾ أى المناسب لكل منهما ما ذكر لأن الغالب أن المائل إلى الزنى لايرغب فى الصوالح ، والزانية لا يرغب فيها الصلحاء ﴿ وَحُرِّمَ ذَلِكَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ ﴾ الأخيار أو المراد الكراهة وعلى التحريم الإمام أحمد وغيره على الكراهة ، وقيل التحريم خاص بمن نزلت عليهم الآية وهم فقراء المهاجرين حين هموا بتزوج بغايا المشركين ، وقيل عام ونسخ بقوله : « وأنكحوا الأيامى منكم » قال ابن العربى : هذا ليس بنسخ بل تخصيص عام وبيان لمحتمل قال : والنكاح إما أن يراد الوطء به أى لايكون زنا إلا بزانية وإما أن يراد به العقد فإن كان قبل الاستبراء فهو زنى عند مالك لكن لا يحد لاختلاف العلماء فيه إذ الشافعى والحنفى يقولان : لا حرمة للماء الفاسد وإن كان بعد الاستبراء فذلك جائز إجماعا ... انظر الأحكام . ثم أشار إلى الحكم الثالث بقوله ﴿ وَالَّذِينَ يَرْمُونَ ﴾ يعيرون بالزنا أو بنفى النسب صريحاً اتفاقاً أو تعريضاً عند مالك خلافاً للشافعى وأبى حنيفة فى أنه يوجب التعزير فقط كقذف غير المحصن ﴿ الْمُحْصَنَاتِ ﴾ العفائف عن الزنى وكذا المحصنون عن الزنى ﴿ ثُمَّ لَمْ يَأْتُوا بِأَرْبَعَةِ شُهَدَاءَ ﴾ بأنهم رأوا ذكر الزانى فى فرج الزانية كالمرود فى المكحلة ﴿ فَاجْلِدُوهُمْ ﴾ أى كل واحد منهم ﴿ ثَمَانِينَ جَلْدَةً ﴾ بشرط كونه مكلفاً والمقذوف مسلم حر (فى نفى النسب) وبالغ عاقل عفيف ذو آلة (فى الزنا) ولا فرق بين الذكر والأنثى كما قدمنا ، وتخصيص المحصنات لنزول الآيات فيهن ولأن قذف النساء أغلب ، وليكن ضربه أخف من ضرب الزنا ولا يكرر الثمانون إن كرر القذف لواحد أو جماعة قبل الحد أو فى أثنائه ونصفه على الرقيق ذكر أو أنثى القاذف لغيره ولو حرًّا . وأشد الضرب التعزير ثم حد الزنا ثم شرب الخمر ثم القذف . قاله فى غاية الأمانى ﴿ وَلَا تَقْبَلُوا لَهُمْ شَهَادَةً ﴾ فى شىء زيادة فى عقوبتهم حيث لم يستروا على المؤمنين عوراتهم المأمور بسترها فى قوله عليه السلام « من ستر على مسلم

ستر الله عليه يوم القيامة » ﴿ أَبَدًا ﴾ ما لم يتوبوا خلافاً للحنفية ﴿ وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ ﴾ الكاملون فى الفسق لإتيانهم كبيرة ﴿ إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا ﴾ عن القذف ﴿ مِنْ بَعْدِ ذَٰلِكَ وَأَصْلَحُوا ﴾ عملهم ومنه الاستسلام للحد أو الاستحلال من المقذوف ﴿ فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ ﴾ لما فرط منهم ﴿ رَحِيمٌ ﴾ بقبول التوبة فبها ينتهى فسقهم اتفاقاً وتقبل شهادتهم عند مالك والشافعى والحنبلى خلافاً للحنفى القائل : لا تقبل رجوعا بالاستثناء إلى الجملة الأخيرة فقط ولا يسقط الجلد بها إجماعاً وهل تسقط شهادة القاذف بنفس القذف ؟ قاله ابن الماجشون ، أو حتى يجلد فإن منع من جلده مانع عفو أو غيره لم ترد شهادته . قال ابن القاسم : وشهادته تجوز بعد التوبة فى كل شىء إلا فى مثل ما حُدّ فيه على المشهور من مذهب مالك إلا كافراً حُدّ ثم أسلم وحسنت حاله فتقبل شهادته فى كل شىء وللقاضى أن يحكم بها ولو فيما حُدّ فيه . ثم أشار إلى الحكم الرابع بقوله ﴿ وَالَّذِينَ يَرْمُونَ أَزْوَاجَهُمْ ﴾ برؤية الزنى أو بنفى الحمل ، والمراد بالأزواج التى فى العصمة اتفاقاً أو فى العدة من الطلاق الرجعى أو البائن خلافاً لأبى حنيفة وبعد العدة فى نفى الحمل قبل الوضع فإن سكت حتى وضعته حُدّ ولم يلاعن خلافاً لأبى حنيفة ، وقال الشافعى : يلاعن إن سكت لعذر ﴿ وَلَمْ يَكُنْ لَهُمْ شُهَدَاءُ ﴾ عليه ﴿ إِلَّا أَنْفُسُهُمْ ﴾ بدل من شهداء أو صفة لهم على أن « إلا » بمعنى غير نزلت فى هلال بن أمية لما رمى امرأته بشريك بن سحماء فتلاعنا ثم جاء أيضاً عويمر العجلانى إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال إنه رأى رجلا مع امرأته فتلاعنا ﴿ فَشَهَادَةُ أَحَدِهِمْ ﴾ أى فالواجب شهادة أحدهم أو فعليهم شهادة أحدهم أو مبتدأ والخبر يدفع عنه حد القذف ، وقوله ﴿ أَرْبَعُ شَهَادَاتٍ ﴾ بالنصب للجمهور على المصدر والرفع لحمزة والكسائى وحفص على أنه خبر شهادة ﴿ بِاللَّهِ ﴾ متعلق بشهادات أو بشهادة ﴿ إِنَّهُ لَمِنَ الصَّادِقِينَ ﴾ فيما رمى به زوجته من الزنا أو نفى الحمل بأن يقول « أشهد بالله لرأيتها تزنى » أو « ما هذا الولد منى وإنى فى ذلك لمن الصادقين » ﴿ وَ ﴾ الشهادة ﴿ الْخَامِسَةُ أَنَّ لَعْنَةَ اللَّهِ عَلَيْهِ إِنْ كَانَ مِنَ الْكَاذِبِينَ ﴾ فى ذلك هذا تمام لعان الرجل وحكمه سقوط الحد عنه وحصول الفرقة بينهما إلى الأبد وانتفاء الولد عنه ووجوب حد الزنى على المرأة إلا أن تلاعن كما أشار إليه بقوله ﴿ وَيَدْرَأُ عَنْهَا الْعَذَابَ ﴾ أى حد الزنى الذى ثبت بشهادته ﴿ أَنْ تَشْهَدَ أَرْبَعَ شَهَادَاتٍ بِاللَّهِ إِنَّهُ لَمِنَ الْكَاذِبِينَ ﴾ فيما رماها به ﴿ وَالْخَامِسَةَ أَنَّ غَضَبَ اللَّهِ عَلَيْهَا إِنْ كَانَ مِنَ الصَّادِقِينَ ﴾ فى ذلك ، ونصب الخامسة حفص عطفاً على أربع ، وقرأ نافع « أن لعنة الله » و « أن غضب الله » بتخفيف النون ورفع التاء وكسر الضاد من « غضب » ورفع اسم الجلالة والباقون بتشديد النون ونصب التاء وفتح الضاد وجر الجلالة . قال فى الجواهر : فإن منع جهلهما من ترتيب هذه الألفاظ وأتيا بما فى معناها أجزأ ذلك . اهـ . وقولنا فيما تقدم برؤية الزنى احتراز عما لو ادعى عليها الزنى دون رؤية ولا نفى حمل لأن فى ذلك قولين فى مذهب مالك مشهورين فى الحد أو اللعان وعلى الثانى باقى الأئمة . والله أعلم ﴿ وَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ ﴾ بالستر أو الإمهال ﴿ وَأَنَّ اللَّهَ تَوَّابٌ ﴾ بقبوله التوبة فى ذلك

وغيره ﴿ حَكِيمٌ ﴾ فيما حكم فى ذلك وغيره والجواب محذوف أى لفضحكم أو عاجلكم بالعقوبة ثم أشار إلى قصة الإفك بقوله ﴿ إِنَّ الَّذِينَ جَاءُوا بِالْإِفْكِ ﴾ أسوإ الكذب على عائشة أم المؤمنين بقذفها ﴿ عُصْبَةٌ ﴾ جماعة وهى من العشرة إلى الأربعين ﴿ مِنْكُمْ ﴾ أيها المؤمنون وهم حسان بن ثابت وعبد الله بن أبىّ ومسطح بن أثاثة ويزيد بن رفاعة وحمنة بنت جحش ومن ساعدهم ﴿ لَا تَحْسَبُوهُ ﴾ أى الإفك خطاب لكل من ساءه ذلك من الرسول وأبى بكر وعائشة وصفوان وأكثر الصحابة ﴿ شَرًّا لَكُمْ بَلْ هُوَ خَيْرٌ لَكُمْ ﴾ لاكتسابكم به الثواب العظيم ، وأحرى عائشة لظهور كرامتها عند الله بذلك بإنزال ثمانى عشرة آية فى براءتها وتعظيم شأنها وتهويل الوعيد لمن تكلم فى أمثالها بسوء والثناء على من ظن بهم خيراً ونزول تلك الآيات بالحكم ومحاسن الأخلاق فإنها قالت : كنت مع النبى صلى الله عليه وسلم فى غزوة بعد ما أنزل الحجاب ففرغ منها ورجع ودنا من المدينة وآذن بالرحيل ليلة فمشيت وقضيت شأنى وأقبلت إلى الرحل فإذا عقدى انقطع « تعنى القلادة » فرجعت ألتمسه وحملوا هودجى على بعيرى يحسبونى فيه وكانت النساء خفافاً إنما يأكلن العلقة أى القليل وكنت جارية حديثة السن قيل سنها حينئذ خمس عشرة سنة ووجدت عقدى وجئت بعد ما ساروا فجلست بالمنزل الذى كنت فيه وظننت أن القوم سيفقدوننى فيرجعون إلىّ فغلبتنى عيناى فنمت وكان صفوان بن المعطل السلمى قد عرس من وراء الجيش فأدلج فأصبح فى منزلى فرأى سواد إنسان نائم أى شخصه فعرفنى حين رآنى وكان يرانى قبل الحجاب فاستيقظت باسترجاعه حين عرفنى أى بقوله « إنا لله وإنا إليه راجعون » فخمرت وجهى والله ما كلمنى بكلمة ولا سمعت منه كلمة غير استرجاعه حين أناخ راحلته ووطئ على يديها فركبتها فانطلق يقود بى الراحلة حتى أتينا الجيش بعد ما نزلوا موغرين فى نحر الظهيرة فهلك من هلك فىّ . اه قولها ، رواه الشيخان . قال تعالى : ﴿ لِكُلِّ امْرِئٍ مِنْهُمْ مَا اكْتَسَبَ مِنَ الْإِثْمِ ﴾ أى عليه جزاء له بقدر ما خاض فيه وأفاض ﴿ وَالَّذِي تَوَلَّى كِبْرَهُ مِنْهُمْ ﴾ أى تحمل معظمه فبدأ بالخوض فيه وأشاعه عداوة لرسول الله وهو عبد الله بن أبىّ المنافق ﴿ لَهُ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴾ فى الآخرة وهو النار ﴿ لَوْلَا ﴾ هلا ﴿ إِذْ ﴾ حين ﴿ سَمِعْتُمُوهُ ظَنَّ الْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بِأَنْفُسِهِمْ ﴾ أى بإخوانهم وأخواتهم ﴿ خَيْرًا ﴾ جعل المؤمنين كنفس واحدة ﴿ وَقَالُوا هَذَا إِفْكٌ مُبِينٌ ﴾ كذب بين جازمين بذلك حملا على الصلاح ، وعدل إلى الغيبة مبالغة فى التوبيخ وإشعاراً بأن الإيمان يقتضى ظن الخير بالمؤمنين والكف عن الطعن فيهم وذب الطاعنين عنهم كما يذبونهم عن أنفسهم ، كما فعل أبو أيوب الأنصارى رضى الله عنه لما قالت له امرأته : أسمعت ما قيل ؟ قال : نعم وذلك الكذب أكنت أنت يا أم أيوب تفعلين ذلك ؟ قالت : لا والله ، قال : فعائشة والله أفضل منك . وقيل هى التى أجابته بمثل ذلك لما سألها ، وإنما جاز الفصل بين لولا وفعله بالظرف لأنه أهم ﴿ لَوْلَا جَاءُوا عَلَيْهِ بِأَرْبَعَةِ شُهَدَاءَ ﴾ كما هو الحكم فى مثله ﴿ فَإِذْ لَمْ يَأْتُوا بِالشُّهَدَاءِ فَأُولَئِكَ عِنْدَ اللَّهِ ﴾ فى شرعه ﴿ هُمُ الْكَاذِبُونَ ﴾ فيه ﴿ وَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ ﴾ بأنواع النعم ﴿ وَرَحْمَتُهُ

فِى الدُّنْيَا ﴾ بالإمهال للتوبة ﴿ وَالْآخِرَةِ ﴾ بالعفو والغفران ﴿ لَمَسَّكُمْ ﴾ عاجلا ﴿ فِيمَا أَفَضْتُمْ فِيهِ ﴾ أيها العصبة ﴿ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴾ يستحقر دونه الجلد واللوم ﴿ إِذْ ﴾ ظرف لمسكم أو أفضتم ﴿ تَلَقَّوْنَهُ ﴾ بحذف إحدى التاءين ﴿ بِأَلْسِنَتِكُمْ ﴾ بالسؤال وأخذ بعضكم من بعض ﴿ وَتَقُولُونَ بِأَفْوَاهِكُمْ ﴾ فى إفشائه ﴿ مَالَيْسَ لَكُمْ بِهِ عِلْمٌ ﴾ فى القلوب ﴿ وَ ﴾ مع ذلك ﴿ تَحْسَبُونَهُ هَيِّنًا ﴾ لا إثم فيه ﴿ وَهُوَ عِنْدَ اللَّهِ عَظِيمٌ ﴾ فى الإثم لرميكم حبيبة حبيبه بما هى عنه بريئة وقدحكم بذلك فى عرضه وخفضكم رفيع جنابه ، وقد رتب مس العذاب على آثام ثلاثة : تلقى الإفك بالألسنة ، والتحدث به من غير تحقق ، واستحقار ذلك وعده هيناً ﴿ وَلَوْلَا ﴾ هلا ﴿ إِذْ سَمِعْتُمُوهُ ﴾ ظرف لقوله ﴿ قُلْتُمْ ﴾ أى لولا قلتم وقت سماعكم هذا ﴿ مَا يَكُونُ ﴾ ما ينبغى ﴿ لَنَا أَنْ نَتَكَلَّمَ بِهَذَا ﴾ المعنى كان الواجب عليكم أول ما سمعتموه أن تعرضوا عنه وتقولوا ما ينبغى لنا أن نتكلم بهذا القول أو نوعه فإن قذف آحاد الناس محرم شرعا فضلا عن تعرض الصديقة بنت الصديق حرمة رسول الله صلى الله عليه وسلم على التحقيق ﴿ سُبْحَانَكَ ﴾ تعجب ممن يقول ذلك لشناعته ، أى تنزيها لله من أن تكون حرمة نبيه فاجرة تقرير لما قبله وتمهيد لقوله ﴿ هَذَا بُهْتَانٌ ﴾ كذب ﴿ عَظِيمٌ ﴾ لعظم المبهوت عليه فإن عظم الذنوب وحقارتها باعتبار متعلقاتها ﴿ يَعِظُكُمُ اللَّهُ ﴾ ينهاكم ﴿ أَنْ تَعُودُوا لِمِثْلِهِ أَبَدًا إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ ﴾ فإن الإيمان يمنع منه وفيه تهييج وتقريع ﴿ وَيُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمُ الْآيَاتِ ﴾ الدالة على الحكم والآداب ومحاسن الأخلاق ﴿ وَاللَّهُ عَلِيمٌ ﴾ كامل العلم بالأحوال كلها ﴿ حَكِيمٌ ﴾ فى تدبيره ﴿ إِنَّ الَّذِينَ يُحِبُّونَ أَنْ تَشِيعَ الْفَاحِشَةُ ﴾ تنتشر باللسان وهم المنافقون ومن شايعهم ﴿ فِى الَّذِينَ ءَامَنُوا لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ فِى الدُّنْيَا ﴾ بالحد للقذف ﴿ وَالْآخِرَةِ ﴾ بالنار لحق الله ﴿ وَاللَّهُ يَعْلَمُ ﴾ انتفاء الفاحشة عن المؤمنين كعائشة وصفوان ﴿ وَأَنْتُمْ ﴾ أيها العصبة ﴿ لَا تَعْلَمُونَ ﴾ وجودها فيهم بل ظننتم وقلتم ﴿ وَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ وَأَنَّ اللَّهَ رَءُوفٌ رَحِيمٌ ﴾ لعاجلكم بالعقوبة ، كرره مع حذف الجواب لكونه معلوما دلالة على عظم الجريرة وفى إيثار الرءوف الرحيم ما يدل على أن هذا الذنب لا يتوسل إلى محوه إلا بمحض رأفته . ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَتَّبِعُوا خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ ﴾ طرق تزيينه بإشاعة الفاحشة وهو بسكون الطاء لنافع وأبى عمرو والبزى وحمزة وأبى بكر وبضمها لابن عامر والكسائى وحفص وقنبل وهى لغة الحجاز والأولى لتميم ﴿ وَمَنْ يَتَّبِعْ خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ فَإِنَّهُ ﴾ الضمير لمن ﴿ يَأْمُرُ بِالْفَحْشَاءِ ﴾ ما أفرط قبحه ﴿ وَالْمُنْكَرِ ﴾ شرعا باتباعها من عطف العام على الخاص وهو علة للنهى عن اتباعه ﴿ وَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ ﴾ بالتوفيق للتوبة وشرع الحد المكفر للذنوب ﴿ مَا زَكَى ﴾ ماطهر من دنسه ﴿ مِنْكُمْ مِنْ أَحَدٍ ﴾ أيها العصبة بما قلتم من الإفك ، أو الخطاب عام لهم ولغيرهم إشارة إلى أن عدم الدخول فيه كان بتوفيق الله ﴿ أَبَدًا ﴾ آخر الدهر . قال فى الجواهر : أما يردع العاقل عن الاشتغال بغيره ويوجب له الاهتمام بإصلاح نفسه قبل هجوم منيته وحلول رمسه حديث «إن الملائكة مع ابن آدم فإذا ذكر أخاه المسلم

بخير قالت : ولك مثله وإذا ذكره بشرٍ قالت أربع على نفسك واحمدالله الذى ستر عورتك » اه . وفى أبى داود : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « ما من امرئ يخذل امرأ مسلماً فى موضع تنتهك فيه حرمته إلا خذله الله ... » الحديث ﴿ وَلَـٰكِنَّ ٱللَّهَ يُزَكِّى مَن يَشَآءُ ﴾ بقبول توبته ﴿ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ ﴾ لمقالهم ﴿عَلِيمٌ﴾ بنياتهم ﴿ وَلَا يَأْتَلِ ﴾ أى لا يحلف افتعال من الألية الحلف ﴿ أُولُو ٱلْفَضْلِ مِنكُمْ ﴾ فى الدين ﴿وَٱلسَّعَةِ﴾ فى المال ﴿ أَن ﴾ لا ﴿ يُؤْتُوا۟ أُو۟لِى ٱلْقُرْبَىٰ ﴾ منهم لأن فعلوا مالا ينبغى ﴿ وَٱلْمَسَـٰكِينَ وَٱلْمُهَـٰجِرِينَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ﴾ صفات لموصوف واحد وهو مسطح بن أثاثة بن عباد بن المطلب وأمه هى بنت أبى رهم ابن المطلب وأمها ابنة صخر بن عامر خالة أبى بكر الصديق رضى الله عنه لأن الآية نزلت فيه لما حلف ألا ينفق على مسطح وهو ابن خالته مسكين مهاجرى بدرى لما خاض فى الإفك بعد أن كان ينفق عليه وفى ناس من الصحابة أقسموا أن لا يتصدقوا على من تكلم بشىء من الإفك ﴿وَلْيَعْفُوا۟﴾ يتجاوزوا عما فرط منهم ﴿ وَلْيَصْفَحُوٓا۟ ﴾ يعرضوا عنهم بترك ذلك لأنه يورث الوحشة بين المؤمنين ﴿أَلَا تُحِبُّونَ أَن يَغْفِرَ ٱللَّهُ لَكُمْ ﴾ بإحسانكم إلى من أساء إليكم ، ولما تلاها رسول الله صلى الله عليه وسلم على أبى بكر قال : بلى أحب أن يغفر الله لى ، وأعاد النفقة على مسطح وكفر عن يمينه ﴿ وَٱللَّهُ غَفُورٌ ﴾ مع كمال قدرته فتخلقوا بأخلاقه ﴿ رَّحِيمٌ ﴾ للمؤمنين فارحموهم ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَرْمُونَ ﴾ بالزنا ﴿ ٱلْمُحْصَنَـٰتِ ﴾ العفائف أزواج النبى صلى الله عليه وسلم ﴿ ٱلْغَـٰفِلَـٰتِ ﴾ عن الفواحش بأن لا يقع فى قلوبهن فعلها ولذا قال حسان بن ثابت فى مدح عائشة رضى الله عنها :

حَصَانٌ رَزَانٌ مَا تُزَنُّ بِرِيبَةٍ * وَتُصْبِحُ غَرْثَى مِن لُحُومِ الْغَوَافِلِ

﴿ ٱلْمُؤْمِنَـٰتِ ﴾ بالله ورسوله فرماهن استباحة لعرضهن وطعنا فى الرسول والمؤمنين كابن أبىّ المنافق ﴿ لُعِنُوا۟ فِى ٱلدُّنْيَا ﴾ بالحد والإبعاد ﴿ وَٱلْـَٔاخِرَةِ ﴾ عند الله ﴿ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴾ لا يقادر قدره ﴿ يَوْمَ ﴾ ظرف لعظيم أو لمعنى الاستقرار فى لهم ﴿ تَشْهَدُ ﴾ بالفوقانية للجمهور والتحتانية لحمزة والكسائى ﴿ عَلَيْهِمْ أَلْسِنَتُهُمْ وَأَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُم بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴾ زيادة تهويل للعذاب ﴿ يَوْمَئِذٍ يُوَفِّيهِمُ ٱللَّهُ دِينَهُمُ ﴾ جزاءهم اللائق بهم ﴿ ٱلْحَقَّ ﴾ الثابت المستحق ﴿ وَيَعْلَمُونَ أَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْحَقُّ ﴾ الثابت ذاته وعدله ﴿ٱلْمُبِينُ﴾ الظاهر عدله ومن هذا شأنه ينتقم من الظالم للمظلوم فينتقم من ابن أبىّ للمحصنات أزواج النبى صلى الله عليه وسلم . لم يذكر فى قذفهن توبة ومن ذكر فى قذفهن التوبة أول السورة غيرهن. قاله ابن عباس حين سئل فقال : كل من أذنب فتاب قبلت توبته إلا قذفة عائشة . قال فى غاية الأمانى : ولعله أراد التغليظ كقوله فى قاتل المسلم عمداً إنه يخلد فى النار . اه . ولو نقبت وعيدات القرآن لم تجد أغلظ مما نزل فى إفك عائشة فقد بالغ الله فى إيعاد قذفتها بما لم يوعد به أهل الشرك حيث أجمل وفصل وجمع بين أنواع العذاب ولعن الدارين والعذاب الذى لا يحاط به فى الآخرة وبما زاد فى قوله ﴿ ٱلْخَبِيثَـٰتُ ﴾ من النساء

ومن الكلمات ﴿ لِلْخَبِيثِينَ ﴾ من الناس ﴿ وَالْخَبِيثُونَ ﴾ من الناس ﴿ لِلْخَبِيثَاتِ ﴾ مما ذكر ﴿ وَالطَّيِّبَاتُ ﴾ من النساء والكلمات ﴿ لِلطَّيِّبِينَ ﴾ من الناس ﴿ وَالطَّيِّبُونَ ﴾ منهم ﴿ لِلطَّيِّبَاتِ ﴾ مما ذكر أى اللائق للخبيث مثله وللطيب مثله فعائشة زوجة سيد الطيبين فالأولى أن تكون طيبة ﴿ أُولَئِكَ ﴾ الطيبون والطيبات من الناس ومنهم عائشة وصفوان ﴿ مُبَرَّءُونَ مِمَّا يَقُولُونَ ﴾ أى الخبيثون والخبيثات من الناس فيهم من قذفهم ومن أن يقولوا مثل قولهم ﴿ لَهُمْ ﴾ للطيبين والطيبات من الناس ﴿ مَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ ﴾ فى الجنة وفيه تعريض بضد ذلك لقابليهم . وقد افتخرت عائشة بأشياء منها أنها خلقت طيبة ووعدت مغفرة ورزقاً كريماً . ولما كان منشأ حديث الإفك وجود الخلوة فى موضع التهمة أردف الحديث بما يلائمه وهو الحكم السادس بقوله ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَدْخُلُوا بُيُوتًا غَيْرَ بُيُوتِكُمْ ﴾ وبيت الإنسان هو الذى لا أحد معه فيه أو البيت الذي فيه زوجته أو أمته ، وما عدا هذا فهو غير بيته . قاله فى الجواهر ﴿ حَتَّى تَسْتَأْنِسُوا ﴾ بالاستئذان والإذن استفعال من الأنس ضد الوحشة ، والمعنى : حتى يؤذن لكم ، وضع الاستئناس موضعه لأنه يردف الإذن ، وفى الجواهر : تستأنسوا تطلبوا أن تعلموا مايؤنسكم ويؤنس أهل البيت منكم بالاستئذان على من فيه أو بأن يتنحنح ويشعر بنفسه بأى وجه أمكنه ويتأنى قدر مايتحفظ منه ﴿ وَتُسَلِّمُوا عَلَى أَهْلِهَا ﴾ فى ذلك الاستئذان بأن يقول من جاء : « السلام عليكم أأدخل » ثلاثاً كما ورد فى حديث فإن أذن له وإلا رجع سواء كان الباب مغلقاً أو مفتوحاً لأن الشرع أغلقه وهو عام فى المحارم والأجانب ، لما روى : أن رجلا جاء إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال : «يارسول الله إن أمى ليس لها خادم غيرى أستأذن عليها كلما دخلت ؟ قال : أتحب أن تراها عريانة ؟ قال : لا . قال : فاستأذن» ولا يجوز للداخل أن يملأ عينيه من قاعة البيوت ولا يزيد من أذن على «أدخل» لا يقول أدخل بسلام لأنه زيادة على ما شرع . انظر الأحكام لابن العربى ﴿ ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَكُمْ ﴾ من الدخول بغير استئذان بغتة وتحية الجاهلية فإنهم كانوا يدخلون بلا إذن ويقولون حييتم صباحا وحييتم مساء فربما رأوا مالا يحبون ﴿ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴾ بإدغام التاء الثانية فى الذال خيريته : وأنه أصلح لكم فتعملون به وهو متعلق بمحذوف أى أنزل عليكم أو قيل لكم هذا لعلكم تذكرون ﴿ فَإِنْ لَمْ تَجِدُوا فِيهَا أَحَدًا ﴾ يأذن لكم ﴿ فَلَا تَدْخُلُوهَا حَتَّى يُؤْذَنَ لَكُمْ ﴾ حتى يأتى من يأذن فإن المنع من الدخول ليس منحصراً ضرره فى وقوع البصر على العورات بل وعلى مايخفيه الناس مما لا يريد صاحب البيت اطلاع أحد عليه ولأنه يشبه الغصب والتغلب واستثنى ماإذا عرض حرق أو غرق أو كان فيه منكر ونحوها ﴿ وَإِنْ قِيلَ لَكُمُ ﴾ بعد الاستئذان ﴿ ارْجِعُوا فَارْجِعُوا ﴾ ولا تلحوا ﴿ هُوَ ﴾ أى الرجوع ﴿ أَزْكَى لَكُمْ ﴾ أطهر لكم وأنفع لدينكم ودنياكم من القعود على الباب وترك المروءة لأنه يؤذى صاحب البيت ويجلب الوحشة والخجل ﴿ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴾ من الدخول بإذن وغير إذن ﴿ عَلِيمٌ ﴾ فيجازيكم عليه وعد ووعيد ﴿ لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَنْ تَدْخُلُوا بُيُوتًا غَيْرَ مَسْكُونَةٍ ﴾ من الربط والخانات والخانقات

المسبَّلة أى الموقوفة فى سبيل الله ﴿ فِيهَا مَتَاعٌ لَكُمْ ﴾ تمتع ومنفعة كالاستكنان من الحر والبرد وإيواء الأمتعة والجلوس للمعاملة ﴿ وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا تَكْتُمُونَ ﴾ وعيد لمن دخل لفساد كتطلع للعورات وسيأتى أنهم إذا دخلوا بيوتهم يسلمون على أنفسهم . ثم ذكر الحكم السابع بقوله ﴿ قُلْ لِلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّوا مِنْ أَبْصَارِهِمْ ﴾ عما لا يحل لهم نظره ومنه النظر إلى زينة الدنيا من متع بها ، و « من » للتبعيض لأن أول نظرة إلى الأجانب ونظر المحارم لا يحرم . وعن الأخفش : زائدة ﴿ وَيَحْفَظُوا فُرُوجَهُمْ ﴾ عما لا يحل لهم فعله بها وعن أعين الناس بسترها ﴿ ذَٰلِكَ أَزْكَىٰ ﴾ أطهر ﴿ لَهُمْ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا يَصْنَعُونَ ﴾ بالأبصار والفروج فيجازيهم عليه ، وتقديم الغض لأنه الذى يؤدى إلى الزنى ، ولما كان ما فى خائنة الأعين خافيا فصل الآية بالخبير الدال على العلم ببواطن الأشياء وبالصنع الذى فيه مزيد اعتمال ليعلم بالعفو عما وقع فلتة . قال فى الجواهر : النواظر صوارم مشهورة فأغمدها فى غمد الغض والحياء من نظر المولى لا ترسل بريد النظر فيجلب لقلبك ردىء الفكر ، غض البصر يورث القلوب نوراً وإطلاقه يقدح فيه ناراً . اه . ثم خص المؤمنات بالأمر وإن دخلن فى المؤمنين تأكيداً بقوله ﴿ وَقُلْ لِلْمُؤْمِنَاتِ يَغْضُضْنَ مِنْ أَبْصَارِهِنَّ ﴾ عما لا يحل لهن النظر إليه من الرجال . وعن أم سلمة : كنت أنا وعائشة مع النبى صلى الله عليه وسلم فاستأذن ابن أم مكتوم فقال : احتجبا . فقلنا أوليس أعمى ؟ فقال : أفعمياوان أنتما ﴿ وَيَحْفَظْنَ فُرُوجَهُنَّ ﴾ بالتحفظ عن الزنى والتستر ﴿ وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ ﴾ كالحلى والثياب والأصباغ فضلا عن مواضعها لمن لا يحل أن تبدى له ﴿ إِلَّا مَا ظَهَرَ مِنْهَا ﴾ عند مزاولة الأشياء كالثياب فإن فى سترها حرجاً وقيل المراد بالزينة : مواضعها ، وماظهر منها : الوجه والكفان عندعامة العلماء فليسا بعورة إلاعندالشافعى فى أرجح قوليه أن كل بدن الحرة عورة لا يحل لغير الزوج والمحرم النظر إليها إلا لضرورة كالمعالجة وتحمل الشهادة واستثنى الوجه والكفين فى الصلاة فقط . قال ابن عطية : ويظهر لى بحكم ألفاظ الآية أن المرأة مأمورة أن تجتهد فى الإخفاء لكل ماهو زينة ، ووقع الاستثناء فى كل ماعليها فما ظهر بضرورة حركة فيما لا بد منه أو إصلاح شأن فما ظهر على هذا الوجه فهو المعفو عنه . اه ﴿ وَلْيَضْرِبْنَ بِخُمُرِهِنَّ ﴾ مقانعهن ﴿ عَلَىٰ جُيُوبِهِنَّ ﴾ أطواقهن ليسترن الرءوس والأعناق والصدور . قال ابن عطية : سبب الآية أن النساء كن فى ذلك الزمان إذا غطين رءوسهن بالأخمرة سدلنها من وراء الظهر فيبقى النحر والعنق والأذنان لاستر على ذلك فأمر الله بلىّ الخمار على الجيوب وهيئة ذلك بستر جميع ما ذكرناه . وقالت عائشة رضى الله عنها رحم الله المهاجرات الأول لما نزلت هذه الآية عمدن إلى أكثف المروط فشققنها أخمرة وضربن بها على الجيوب . اه ﴿ وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ ﴾ الخفية وهى ما عدا الوجه والكفين عند الصلاة وعند الأجانب كرره لبيان من يحل له الإبداء ومن لا يحل له ﴿ إِلَّا لِبُعُولَتِهِنَّ ﴾ جمع بعل أى زوج ، وفى معناه السيد فى أمته التى لم يزوجها فيجوز له نظر جميع بدنهن حتى الفرج بكره ، وإذا زوج الرجل أمته حرم عليه

النظر إلى عورتها كالأمة الأجنبية . قاله البغوى ﴿ أَوْ ءَابَآئِهِنَّ أَوْ ءَابَآءِ بُعُولَتِهِنَّ أَوْ أَبْنَآئِهِنَّ ﴾ والأب والابن أحق الأقارب بالاطلاع على الزينة الباطنة من الشعر والسوار والقلادة ﴿ أَوْ أَبْنَآءِ بُعُولَتِهِنَّ ﴾ لأنهم بمنزلة الأبناء لكن كره مالك أن يسافر الرجل وحده مع زوجة أبيه أو ابنه ﴿ أَوْ إِخْوَانِهِنَّ أَوْ بَنِى إِخْوَانِهِنَّ أَوْ بَنِى أَخَوَاتِهِنَّ ﴾ لكثرة مداخلتهم بهن واحتياجهن إلى مداخلتهم وقلة توقع الفتنة من قبلهم لما فى الطبائع من النفرة عن مماسة القرابة القريبة ولذا يستحب أن لا يتزوج بقرابة قريبة تحل له فلهؤلاء النظر فيما يبدو غالباً كالساعدين والساقين ، ولم يذكر الأعمام والأخوال لأنهم فى معنى الأبوين ﴿ أَوْ نِسَائِهِنَّ ﴾ أى المؤمنات دلت عليه الإضافة فبعضهن ينظرن إلى بعض فيما عدا ما بين السرة والركبة، وأما الكافرات فلا يجوز للمسلمات التكشف لهن على المشهور ﴿ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُنَّ ﴾ من الإماء والعبيد الأوغاد عند مالك والشافعى خلافا لأبى حنيفة فى قوله إن العبد كالأجنبى والصحيح أن العبد له أن ينظر من سيدته ما ينظر منها المحرم وأما العبد الذى له منظر فلا على قول مالك وهو الأحوط ﴿ أَوِ التَّابِعِينَ ﴾ فى فضول الطعام ﴿ غَيْرِ ﴾ بالجر للجمهور صفة والنصب لابن عامر وأبى بكر حال ﴿ أُولِى الْإِرْبَةِ ﴾ أصحاب الحاجة إلى النساء ﴿ مِنَ الرِّجَالِ ﴾ كالشيخ الهِمّ[1] ، وفى المجبوب والخصى خلاف ﴿ أَوِ الطِّفْلِ ﴾ بمعنى الأطفال ﴿ الَّذِينَ لَمْ يَظْهَرُوا عَلَى عَوْرَاتِ النِّسَاءِ ﴾ لم يطلعوا عليها أى لم يعرفوا ما العورة لعدم التمييز وإذا صار مميزاً حرم اتفاقاً ، قاله فى غاية الأمانى ﴿ وَلَا يَضْرِبْنَ بِأَرْجُلِهِنَّ لِيُعْلَمَ مَا يُخْفِينَ مِنْ زِينَتِهِنَّ ﴾ من خلخال يتقعقع لأن الغرض رفع الفتنة وصوت الحلى يثير الميل إليهن ﴿ وَتُوبُوا إِلَى اللَّهِ جَمِيعًا أَيُّهَ الْمُؤْمِنُونَ ﴾ مما وقع لكم من النظر الممنوع وغيره إذ لا يخلو أحد من نوع تقصير لأن الاستقامة متعسرة أو متعذرة ﴿ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴾ بقبول التوبة منه ، وفى الآية تغليب الذكور على الإناث . ثم ذكر الحكم الثامن بقوله ﴿ وَأَنْكِحُوا ﴾ أيها الأولياء والسادات ، أمر وجوب عند الطلب وظهور الحاجة وإلا فندب أو مباح ﴿ الْأَيَامَى ﴾ مقلوب (أيائم) جمع (أيم) وهى من لا زوج لها بكراً كانت أو ثيباً ومن لا زوجة له وهذا فى الأحرار والحرائر ﴿ مِنْكُمْ ﴾ وعقب هذا الأمر بنهى ما عسى أن يقتضى الزنى لأنه الحافظ له وفيه دليل على وجوب تزويج المولية والمملوك عند طلبهما ﴿ وَالصَّالِحِينَ ﴾ للنكاح أو المؤمنين ﴿ مِنْ عِبَادِكُمْ وَإِمَائِكُمْ ﴾ وذكر الصلاح للترغيب فى تحصين من همته التحصن وليس بشرط ، وفيه دليل على أن العبد لا يلى النكاح والعبد لا يتزوج بغير إذن مولاه ﴿ إِنْ يَكُونُوا ﴾ أى الأحرار ﴿ فُقَرَاءَ يُغْنِهِمُ اللَّهُ ﴾ بالتزوج ﴿ مِنْ فَضْلِهِ ﴾ رد لما عسى أن يمنع من النكاح من فقر الخاطب أو المخطوبة بأن فى فضله تعالى ما يغنى والمال غاد ورائح وليس الوعد على اللزوم بل مشروط بمشيئته تعالى ويشير إليه قوله من فضله ﴿ وَاللَّهُ وَاسِعٌ ﴾ فضله بيده الخير كله ﴿ عَلِيمٌ ﴾ بمن يصلح له الغنى « ولو بسط الله الرزق لعباده لبغوا فى الأرض » وفى الحديث : الناكح يريد العفاف معان ، والآية دليل على تزوج الفقير لأن رزقه ورزق عياله

(١) الهمة والهم ـ بكسرهما : الشيخ الفانى . انظر القاموس .

على الله وقد زوج النبي صلى الله عليه وسلم الواهبة نفسها بعض أصحابه وليس له شيء من المال ولا ينافيه الآية التالية لأنها فيمن لم يجد الصداق وهذه فى من وجده لكنه فقير . والله أعلم ﴿وَلْيَسْتَعْفِفِ﴾ عن الزنى ﴿الَّذِينَ لَا يَجِدُونَ نِكَاحًا﴾ أسبابه من الصداق والنفقة . روى البخارى ومسلم عن ابن عمر أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « يا معشر الشباب من استطاع منكم الباءة فليتزوج فإنه أغض للبصر وأحصن للفرج ومن لم يستطع فعليه بالصوم فإنه له وجاء » ﴿حَتَّى يُغْنِيَهُمُ اللَّهُ﴾ يوسع عليهم ﴿مِنْ فَضْلِهِ﴾ فيجدوا ما يتزوجون به ، ثم ذكر الحكم التاسع بقوله ﴿وَالَّذِينَ يَبْتَغُونَ الْكِتَابَ﴾ بمعنى المكاتبة لأنه مما يكتب لتأجيله أو بمعنى الجمع لأن العوض فيه ينجم بنجوم يضم بعضها إلى بعض أو بمعنى الإيجاب لأن السيد كتب على نفسه عتقه إذا أدى المال ﴿مِمَّا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ﴾ من العبيد والإماء والموصول بصلته مبتدأ خبره ﴿فَكَاتِبُوهُمْ﴾ أمر ندب ﴿إِنْ عَلِمْتُمْ فِيهِمْ خَيْرًا﴾ أى أمانة وقدرة على الكسب لأداء الكتابة وصيغتها مثلا كاتبتك على ألفين فى شهرين كل شهر ألف فإذا أديتها فأنت حر فيقول قبلت وحينئذ أحرز نفسه وماله لا يباع ولا ينتزع ماله ويجوز بيع كتابته خلافاً للشافعى والشرط ترغيب فى كتابة من يرى فيه آثار الخير والصلاح وهو شرط الأمر فلا يلزم من عدمه عدم الجواز وعدم اشتراط التنجيم أصح فى مذهب مالك فيجوز أن تقع حالة ﴿وَآتُوهُمْ﴾ أمر للسادة أو لجميع المسلمين ﴿مِنْ مَالِ اللَّهِ الَّذِي آتَاكُمْ﴾ مما يستعينون به فى أداء ما التزموه لكم ، وفى معنى الإيتاء حط شيء مما التزموه والأمر للندب وأوجبه الشافعى ، والأحب أيضاً أن يكون المحطوط آخر جزء من النجوم ليحصل به الاستعانة على العتق أو المراد بمال الله مال الزكاة على أن الأمر لجميع المسلمين ، ويجوز للمكاتب بيع واشتراء ومكاتبة لرقيقه وإقرار دين فى رقبته بلا إذن السيد ، لا عتق وهبة وصدقة وتزويج بغير إذن ، ثم ذكر الحكم العاشر بقوله ﴿وَلَا تُكْرِهُوا فَتَيَاتِكُمْ﴾ إماءكم ﴿عَلَى الْبِغَاءِ﴾ الزنى ﴿إِنْ أَرَدْنَ تَحَصُّنًا﴾ تعففاً عنه وهذه الإرادة محل الإكراه فلا مفهوم للشرط ، وكانوا فى الجاهلية يزينون الجوارى ليكتسبن لهم بالزنى ، وكان لعبد الله بن أبى المنافق ست جوار يكرههن على الزنى ويضرب عليهن الضرائب فشكا بعضهن إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فنزلت ﴿لِتَبْتَغُوا﴾ بالإكراه ﴿عَرَضَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾ علة للنهى لا للنهى ﴿وَمَنْ يُكْرِهْهُنَّ فَإِنَّ اللَّهَ مِنْ بَعْدِ إِكْرَاهِهِنَّ غَفُورٌ﴾ لهن ﴿رَحِيمٌ﴾ بهن ومعنى مغفرتهن وإن كان المكره لا يؤاخذ : إسقاط العقوبة والإثم وأنهن بصدد العقاب لولا المغفرة . والله أعلم ﴿وَلَقَدْ أَنْزَلْنَا إِلَيْكُمْ آيَاتٍ مُبَيِّنَاتٍ﴾ بفتح الياء للجمهور وكسرها لابن عامر وحمزة والكسائى وحفص ، فى هذه السورة بُيِّن فيها ما ذكر أو بينته ﴿وَمَثَلًا﴾ خبراً عجيباً وهو خبر عائشة ﴿مِنَ الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلِكُمْ﴾ من جنس أخبارهم العجيبة كخبر يوسف ومريم ﴿وَمَوْعِظَةً لِلْمُتَّقِينَ﴾ فى قوله « ولا تأخذكم بهما رأفة فى دين الله » و« لولا إذ سمعتموه ظن المؤمنون . . إلى آخره » و« لولا إذ سمعتموه قلتم . . إلى آخره » و« يعظكم الله أن تعودوا . . إلى آخره » وتخصيصها بالمتقين لأنهم

المنتفعون بها . ولما فرغ من الأحكام الفرعية رجع إلى الأحكام الأصلية دلائل التوحيد بكونه فى غاية الظهور وأن الكفر فى غاية الظلمة والخفاء بقوله ﴿ اللَّهُ نُورُ السَّمَٰوَاتِ وَالْأَرْضِ ﴾ النور كيفية تدركها الباصرة وهى محال على الله فوجب التأويل إما بتقدير مضاف أى ذو نورهما أى هو خالقه وإما بتجوز بمعنى منورهما بالكواكب ، أو السموات بالملائكة والأرض بالأنبياء والمؤمنين بهداياتهم بهداه أو مدبرهما يقولون لمدبر الحى نوره أو موجدهما فإن النور ظاهر بذاته مظهر لغيره وأصل الظهور هو الوجود فالله موجود بذاته موجد لغيره . قال ابن عباس : معناه هادى أهل السموات والأرض ﴿ مَثَلُ نُورِهِ ﴾ أى صفته العجيبة وفى إضافته إلى الله دليل على أن إطلاقه عليه قبل لم يكن على ظاهره ﴿ كَمِشْكَاةٍ ﴾ أى كصفتها وهى الكوّة فى الجدار غير النافذة أو الأنبوبة فى القنديل ﴿ فِيهَا مِصْبَاحٌ ﴾ سراج ضخم ثاقب أو الفتيلة المشتعلة ﴿ الْمِصْبَاحُ فِى زُجَاجَةٍ ﴾ أى قنديل من زجاج لأن كونه فى مكان ضيق غير نافذ كالمشكاة أجمع لنوره والقنديل أعون شىء على الإضاءة ﴿ الزُّجَاجَةُ كَأَنَّهَا ﴾ والنور فيها ﴿ كَوْكَبٌ دُرِّىٌّ ﴾ بضم الدال وتشديد الياء منسوب إلى الدر اللؤلؤ فى صفائه لنافع وابن عامر وابن كثير وعاصم ، وبضم الدال والهمز لحمزة وشعبة وبكسر الدال والهمز لأبى عمرو والكسائى فُعُول كسبوح وفِعِّيل كسكيت من الدرء بمعنى الدفع لدفعه الظلام ﴿ يُوقَدُ ﴾ بالتذكير مضارع أوقد مبنياً للمفعول لنافع وابن عامر وابن كثير وحفص أى المصباح وبالتأنيث أى الزجاجة لأبى بكر وحمزة والكسائى وبالماضى على تفعل لأبى عمرو أى ذلك المصباح ﴿ مِن ﴾ زيت ﴿ شَجَرَةٍ ﴾ وهى الزيتون أى ابتدأ ثقوب المصباح من زيتها بأن رويت زبالته من زيتها وهو أضوأ وأصفى من جميع الأدهان لا يحتاج فى استخراجه إلى عصار كل أحد يستخرجه وشجرته تورق من أعلاها إلى أسفلها ، ذكر كل ذلك البغوى ﴿ مُبَارَكَةٍ ﴾ بتكاثر نفعها وخروجها فى الأرض المباركة وهى بيت المقدس وقيل بارك فيها سبعون نبياً ثم بينها بعد الإبهام بقوله ﴿ زَيْتُونَةٍ ﴾ بدل من شجرة تفخيما لشأنها ﴿ لَا شَرْقِيَّةٍ ﴾ حتى تكون فى مضحاة لا يصيبها ظل فتضرها الشمس كغالب الشرقيات ﴿ وَلَا غَرْبِيَّةٍ ﴾ حتى تكون فى مفيأة لا تصيبها الشمس فيضرها البرد كغالب الغربيات بل هى شامية بينهما لا يتمكن منها حرٌّ ولا برد فزيتها أضوأ وأصفى . وفى الحديث « لا خير فى شجرة ولا نبات فى مفيأة ولا خير فيهما فى مضحاة » وقيل لا شرقية فقط ولا غربية فقط بل شرقية غربية تصيبها الشمس بالغداة والعشى ﴿ يَكَادُ زَيْتُهَا يُضِىءُ ﴾ بنفسه لصفائه وفرط تلألؤ وميضه ﴿ وَلَوْ لَمْ تَمْسَسْهُ نَارٌ ﴾ هو ﴿ نُورٌ عَلَىٰ نُورٍ ﴾ أى متضاعف فإن نور المصباح زاد فى إنارته صفاء الزيت وزهرة القنديل وضبط المشكاة لأشعته ولم يبق مما يزيد النور بالإضاءة بقية ، واعلم أن الله شبه هداه الذى هو جميع شرعه بالنور فى الإضاءة وظهور الأدلة ثم بالغ فى المشبه به بما لا مزيد عليه دلالة على المبالغة فى المشبه ، فكما أن هذا غاية فى المحسوس فكذلك ذاك غاية فى المعقول ليس أجلى منه معقول وإيلاء الكاف المشكاة لاشتمالها على النور ، وقيل :

نور الله المشبه هو محمد صلى الله عليه وسلم فالمشكاة صدره والمصباح معرفته والزجاجة قلبه والشجرة المباركة وحيه ، والزيت حججه وبراهينه ، وكون الشجرة لاشرقية ولا غربية : عدم اختصاص دينه بقوم دون قوم ومكان دون مكان . وقيل : الشجرة إبراهيم لم يكن يهودياً ولا نصرانياً ، والمصباح المتوقد منها محمد صلى الله عليه وسلم . وقيل النور كل مؤمن فالمشكاة صدره والمصباح إيمانه وعلمه والزجاجة قلبه والشجرة القرآن وزيتها الحجج والحكم التى فيه ليس فيه إفراط ولا تفريط وقيل غير ذلك . والله أعلم ﴿ يَهْدِي اللَّهُ لِنُورِهِ ﴾ الذى ذكر على الاحتمالات ﴿ مَنْ يَشَاءُ ﴾ فالأسباب بدون مشيئته لاغية إذ بها تمامها ﴿ وَيَضْرِبُ اللَّهُ الْأَمْثَالَ لِلنَّاسِ ﴾ بإبراز المعقولات فى صور المحسوسات توضيحاً وبياناً ليعتبروا فيؤمنوا ﴿ وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴾ سيان عنده المحسوس والمعقول وإنما يصور المعقولات فى صور المحسوسات ليسهل فهمها على الناس وفيه وعدٌ ووعيد لمن تدبرها ولمن لم يكترث بها ﴿ فِي بُيُوتٍ ﴾ متعلق بما قبله أى كمشكاة فى بعض بيوت الله وهى المساجد أو بـ « يوقد » تقييد للمثل به بما يزيده مبالغة لأن قناديل المساجد أعظم ومصابيحها أضوأ لاسيما إذا أريد المساجد الثلاثة : المسجد الحرام ، والأقصى ، ومسجد المدينة ، وتنكير بيوت للتعظيم ، وقيل متعلق بما بعده وهو يسبح له رجال فى بيوت والتكرير للمبالغة والتوكيد كقولك : زيد فى الدار جالس فيها ﴿ أَذِنَ اللَّهُ أَنْ تُرْفَعَ ﴾ تعظم أو تبنى كقوله « وإذ يرفع إبراهيم القواعد » ﴿ وَيُذْكَرَ فِيهَا اسْمُهُ ﴾ يشمل كل ذكر حتى المذاكرة فى العلم إذا أريد بها إظهار الصواب ﴿ يُسَبِّحُ ﴾ بكسر الموحدة للجمهور وفتحها لابن عامر وعاصم أى ينزه أو يصلى ﴿ لَهُ فِيهَا بِالْغُدُوِّ ﴾ أى بأوقاته وهو مصدر بمعنى الغدوات ﴿ وَالْآصَالِ ﴾ جمع أُصُل جمع أصيل ، وقوله « يسبح » صفة مدح ثانية لبيوت أى يقدسونه أو يصلون له فى هذه الأوقات الشريفة وعلى قراءة فتح الباء مسند إلى أحد الظروف الثلاثة والأول أولى ﴿ رِجَالٌ ﴾ فاعل « يسبح » على كسر الباء وعلى فتحها فاعل فعل محذوف دل عليه يسبح جواب سؤال مقدر كأنه قيل : من يسبحه ؟ فقيل : يسبحه رجال ﴿ لَا تُلْهِيهِمْ تِجَارَةٌ ﴾ فى الجلب من البلاد للربح ﴿ وَلَا بَيْعٌ ﴾ وشراء فى بلادهم ﴿ عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ ﴾ والتجارة تشمل البيع والشراء للربح وإنما أفرد البيع لأنه أدخل فى الإلهاء أو أطلق التجارة على الشراء إطلاق الجنس على النوع بقرينة ذكر البيع ، والآية نزلت فى المهاجرين فإنهم كانوا تجاراً ولكن لا تشغلهم أمور الدنيا عن أمور الآخرة كالصلاة وذكر الله ﴿ وَإِقَامِ الصَّلَاةِ ﴾ حذف هاء إقامة تخفيف ﴿ وَإِيتَاءِ الزَّكَاةِ ﴾ المفروضة وغيرها ﴿ يَخَافُونَ ﴾ حال ﴿ يَوْمًا تَتَقَلَّبُ ﴾ تضطرب ﴿ فِيهِ الْقُلُوبُ وَالْأَبْصَارُ ﴾ من الخوف : القلوب بين النجاة والهلاك ، والأبصار بين ناحيتى اليمين والشمال وهو يوم القيامة ﴿ لِيَجْزِيَهُمُ اللَّهُ ﴾ متعلق بيسبح أو لا تلهيهم أو يخافون ﴿ أَحْسَنَ مَا عَمِلُوا ﴾ أى جزاء أحسن أعمالهم بأن يجزى على الأدنى كما يجزى على الأعلى أو أحسن بمعنى حسن ﴿ وَيَزِيدَهُمْ مِنْ فَضْلِهِ ﴾ فوق جزاء الأعمال ما لم يخطر ببالهم تفضلا ﴿ وَاللَّهُ يَرْزُقُ مَنْ يَشَاءُ بِغَيْرِ

حِسَابٍ ﴾ أى يوسع كأنه لا يحسب ما ينفق تقرير للزيادة وتنبيه على كمال القدرة ونفاذ المشيئة وسعة الإحسان . ولما بين حال المؤمن ونتيجة سعيه فى الدنيا وفى الآخرة من النعيم المقيم أردفه بذكر حال الكافر فى عمله الذى لا شرط له من الإيمان والإخلاص بأنه على ضد حال المؤمن بقوله ﴿ وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَعْمَالُهُمْ ﴾ الصالحة لاغية لا منفعة فيها مخيبة فى العاقبة فهى ﴿ كَسَرَابٍ ﴾ هو ما يلمع وقت الظهيرة فى المفاوز من شدة الحر ، من سرب إذا جرى كأنه ماء يجرى ﴿ بِقِيعَةٍ ﴾ جمع قاع وهو المستوى المنبسط من الأرض ﴿ يَحْسَبُهُ ﴾ يظنه ﴿ الظَّمْآنُ ﴾ العطشان ﴿ مَاءً ﴾ فيسارع إليه ويحتمل الجهد والمشقة وتخصيصه لتشبيه الكافر به فى شدة الخيبة عند مسيس الحاجة ﴿ حَتَّى إِذَا جَاءَهُ ﴾ أى ما توهمه ماء أو موضعه ﴿ لَمْ يَجِدْهُ شَيْئًا ﴾ من الأشياء لاضمحلاله أو مماطته ، وكذلك الكافر يحسب أن عمله كصدقة تنفعه حتى إذا مات ووفد على ربه لم يجد عمله أى لم ينفعه ﴿ وَوَجَدَ اللَّهَ ﴾ أى عقابه أو زبانيته ﴿ عِنْدَهُ ﴾ عند ذلك الموضع الذى كان يظنه ماء أو وجد الله عند عمله محاسباً إياه ، والضمير للظمآن المراد بالكافر ولذا رتب عليه قوله ﴿ فَوَفَّاهُ حِسَابَهُ ﴾ مجازاة أو وجده قد جازاه عليه فى الدنيا ﴿ وَاللَّهُ سَرِيعُ الْحِسَابِ ﴾ أى المجازاة ﴿ أَوْ ﴾ الذين كفروا أعمالهم الصالحة أيضاً فى كونها خالية عن نور الإيمان ﴿ كَظُلُمَاتٍ ﴾ فأو للتخيير أى شبهها بالسراب فى عدم النفع أو بالظلمات فى عدم النور أو أعمالهم السيئة فإنها كظلمات ﴿ فِي بَحْرٍ لُجِّيٍّ ﴾ عميق منسوب إلى اللج وهو معظم الماء ﴿ يَغْشَاهُ ﴾ أى البحر ﴿ مَوْجٌ ﴾ ما يرتفع عند اضطراب البحر ﴿ مِنْ فَوْقِهِ ﴾ أى الموج ﴿مَوْجٌ﴾ أعظم منه وأعلى ﴿مِنْ فَوْقِهِ﴾ من فوق الموج الثانى ﴿سَحَابٌ﴾ أى غمام غطى أنوار النجوم والجملة صفة أخرى للبحر . هذه ﴿ ظُلُمَاتٌ ﴾ أربع ﴿ بَعْضُهَا فَوْقَ بَعْضٍ ﴾ ظلمة البحر وظلمة الموج الأول وظلمة الموج الثانى وظلمة السحاب ، قرأ ابن كثير بإضافة سحاب وجر ظلمات فى رواية البزى وبالتنوين وجر ظلمات على أنه بدل من الأولى فى رواية قنبل ﴿ إِذَا أَخْرَجَ ﴾ الناظر الواقع فى البحر فالضمير له وإن لم يجر له ذكر لدلالة المعنى عليه ﴿ يَدَهُ ﴾ فى هذه الظلمات وهى أقرب ما يرى إليه ﴿ لَمْ يَكَدْ يَرَاهَا ﴾ لم يقرب من رؤيتها فضلا عن أن يراها ، وهذا المثال الثانى بيان لحالهم فى الدنيا فى أعمالهم فى تشبيه ضلالهم بمثل هذه الظلمات المجتمعة من هذه الأشياء وذهب بعض الناس إلى أن فى هذا المثال أجزاءً تقابل أجزاءً من الممثل به ، فالظلمات : الأعمال الفاسدة ، والبحر اللجى : قلب الكافر ، والموج : ضلاله ، والسحاب : شهوته . والله أعلم ﴿ وَمَنْ لَمْ يَجْعَلِ اللَّهُ لَهُ نُورًا ﴾ من لم يقدر له الهداية ولم يوفقه لأسبابها ﴿ فَمَا لَهُ مِنْ نُورٍ ﴾ أى من لم يهده الله لم يهتد ، ولما بين هدايته المؤمنين بقوله « يسبح له فيها بالغدو والآصال » بخلاف الكفار استطرد بذكر تسبيح أهل السموات والأرض تعميما وإظهاراً للعظمة بقوله ﴿ أَلَمْ تَرَ ﴾ تعلم ﴿ أَنَّ اللَّهَ يُسَبِّحُ ﴾ ينزه ﴿ لَهُ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ ﴾ ومن التسبيح صلاة والاستفهام للتقرير وعلمه بذلك من قوله « وإن من شىء إلا يسبح بحمده » وذكر « مَن » تغليب لذوى

العقول ﴿ وَالطَّيْرُ ﴾ جمع طائر اسم جمع لما يطير بين السماء والأرض خصها بالذكر لما فيها من الدليل الباهر على القدرة ولذا وصفها بقوله ﴿ صَافَّاتٍ ﴾ حال أى باسطات أجنحتهن فإذا كانت تسبيح فى تلك الحالة وهى مظنة الاشتغال فما ظنك بغيرها وفيه الدلالة على كمال قدرة الصانع لأن وقوف الأجرام السفلية فى الجوّ دليل ظاهر على ذلك ﴿ كُلٌّ ﴾ من المذكورات ﴿ قَدْ عَلِمَ ﴾ الله ﴿ صَلَاتَهُ ﴾ دعاءه ﴿ وَتَسْبِيحَهُ ﴾ تنزيهه وتقديسه اختياراً أو طبعاً ولكن لا تفقهون تسبيحهم أو كل واحد قد علم صلاة نفسه لله تعالى وتقديسه أو علم صلاة الله وتسبيح الله اللذين أمر بهما وهدى إليهما ﴿ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِمَا يَفْعَلُونَ ﴾ لا يعزب عنه شىء تذييل يؤكد علمه بحالهم على الأول وتكميل على مابعده لأنه دل على العلم البالغ بعد ما قدم مايدل على القدرة الكاملة وفيه تغليب العاقل ﴿ وَلِلَّهِ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ ﴾ لأنه خالقهما وما فيهما من الذوات والصفات والأفعال أو المراد خزائن المطر والرزق والنبات ويناسبه الآية التالية ﴿ وَإِلَى اللَّهِ الْمَصِيرُ ﴾ المرجع للجميع للجزاء ﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يُزْجِي سَحَابًا ﴾ يسوقه برفق قزعا وهذا دليل آخر على كمال صنعه تعالى ﴿ ثُمَّ يُؤَلِّفُ بَيْنَهُ ﴾ يضم بعضه إلى بعض فيجعل القطع المتفرقة قطعة واحدة وبهذا المعنى صح بينه أى بين أجزائه ﴿ ثُمَّ يَجْعَلُهُ رُكَامًا ﴾ مركوماً بعضه فوق بعض ، والركام أيضاً السحاب المرتكم ﴿ فَتَرَى الْوَدْقَ ﴾ القطر ﴿ يَخْرُجُ مِنْ خِلَالِهِ ﴾ مخارجه وفتوقه جمع خلل كجبل وجبال ﴿ وَيُنَزِّلُ مِنَ السَّمَاءِ ﴾ السحاب أو السماء المظلة والمفعول محذوف أى بَرَداً ﴿ مِنْ جِبَالٍ فِيهَا ﴾ فى السماء ، بدل من السماء بإعادة الجار ﴿ مِنْ بَرَدٍ ﴾ أى بعضه من الأولى والثانية للابتداء والثالثة للتبعيض أو الثانية للتبعيض والثالثة للبيان . وقال ابن عباس : « أخبر الله أن فى السماء جبالا من برد كما فى الأرض جبال من حجر » ﴿ فَيُصِيبُ بِهِ ﴾ بالبرد ﴿ مَنْ يَشَاءُ ﴾ عقوبة له ﴿ وَيَصْرِفُهُ عَنْ مَنْ يَشَاءُ ﴾ سلامته ، وقيل الضمير للودق أى يسقى به من يشاء سقيه ويصرفه عمن يشاء حرمانه والأول أولى ﴿ يَكَادُ ﴾ يقرب ﴿ سَنَا بَرْقِهِ ﴾ لمعانه والضمير للسحاب ﴿ يَذْهَبُ بِالْأَبْصَارِ ﴾ الناظرة له أى يخطفها من فرط الإضاءة وذلك أقوى دليل على كمال القدرة لأنه توليد الضد من الضد ﴿ يُقَلِّبُ اللَّهُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ ﴾ يأتى بكل منهما بدل الآخر أو يخالف بينهما بالطول والقصر أو النور والظلمة أو يغير أحوال من فيهما ﴿ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ ﴾ التقليب ﴿ لَعِبْرَةً ﴾ دلالة على وجود الصانع القادر العالم المنزه عن الحاجة ﴿ لِأُولِي الْأَبْصَارِ ﴾ أصحاب البصائر . ولما استدل على الوحدانية والقدرة والعلم بأحوال السموات والأرض أولا وبأحوال الآثار العلوية ثانياً استدل عليها ثالثاً بأحوال الحيوانات المختلفة الأنواع والأشكال والأحوال مع اتحاد الأصل بقوله ﴿ وَاللَّهُ خَلَقَ كُلَّ دَابَّةٍ ﴾ أى حيوان ولحمزة والكسائى خالق كل دابة بالإضافة ﴿ مِنْ مَاءٍ ﴾ هو جزء مادته لأن أول ماخلق الله جوهرة نظر إليها بالهيبة فذابت ماء ، فمن ذلك الماء تكوّن كل شىء وقيل « من ماء » صفة دابة وليس صفة خلق ، والمراد بالماء حينئذ النطفة والمفهوم أولوى أى وأولى غيرها لأن الماء الذى به الحياة إذا

كان المتولد منه يحتاج إلى الصانع فالغير من باب أولى ﴿ فَمِنْهُمْ مَنْ يَمْشِي عَلَى بَطْنِهِ ﴾ كالحيات سمى الزحف مشياً على الاستعارة أو المشاكلة ﴿ وَمِنْهُمْ مَنْ يَمْشِي عَلَى رِجْلَيْنِ ﴾ كالإنس والطير ﴿ وَمِنْهُمْ مَنْ يَمْشِي عَلَى أَرْبَعٍ ﴾ كالبهائم والأنعام والوحش ويندرج فيه ما له أكثر من أربع كالعناكب فإن اعتمادها إذا مشت على أربع ، وتذكير الضمير لتغليب العقلاء ، والتعبير بـ « من » ليوافق التفصيل الجملة وراعى فى الترتيب الأبدع فالأبدع فى تعريف القدرة ﴿ يَخْلُقُ اللَّهُ مَا يَشَاءُ ﴾ مما ذكر وغيره كيف شاء بسيطاً ومركباً على اختلاف الصور والأعضاء والهيئات والحركات والطبائع والقوى والأفعال مع اتحاد العنصر بمقتضى مشيئته ﴿ إِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴾ فيفعل ما يشاء ﴿ لَقَدْ أَنْزَلْنَا ءَايَاتٍ مُبَيِّنَاتٍ ﴾ بفتح الياء لنافع وابن كثير وأبى عمرو وأبى بكر وكسرها للباقين وهى المذكورات من قوله «الله نور السموات والأرض» إلى هنا أو كل آية أنزلت ﴿ وَاللَّهُ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ ﴾ هدايته بالتوفيق للنظر فيها والتدبر لمعانيها ﴿ إِلَىٰ صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ﴾ دين الإسلام الموصل إلى درك الحق والفوز بالجنة . ولما بين أدلة التوحيد أتبعها بذم قوم اعترفوا به بألسنتهم وأبت قلوبهم مع هذه الأدلة بقوله ﴿ وَيَقُولُونَ ﴾ أى المنافقون ﴿ ءَامَنَّا بِاللَّهِ ﴾ بتوحيده ﴿ وَبِالرَّسُولِ ﴾ محمد ﴿ وَأَطَعْنَا ﴾ الله ورسوله فيما حكما ﴿ ثُمَّ يَتَوَلَّىٰ ﴾ يعرض ﴿ فَرِيقٌ مِنْهُمْ مِنْ بَعْدِ ذَٰلِكَ ﴾ عنه ويأبى التحاكم إليه كما فعل بشر المنافق حين خاصم يهودياً فدعى اليهودى إلى رسول الله ودعا المنافق إلى كعب بن الأشرف كما تقدم ، وكما فعل المغيرة بن وائل كان بينه وبين علىّ بن أبى طالب رضى الله عنه خصومة فى ماء وأرض فقال المغيرة : لا أتحاكم إلى محمد فإنه يبغضنى فأخاف أن يحيف علىّ وكان يظهر أنه مؤمن به ، وثم للاستبعاد بعد ذلك القول ﴿ وَمَا أُولَٰئِكَ بِالْمُؤْمِنِينَ ﴾ المعهودين الموافق ما فى قلوبهم ألسنتهم لإتيانهم بما يضاد الإيمان ﴿ وَإِذَا دُعُوا إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ ﴾ المبلغ عنه ﴿ لِيَحْكُمَ ﴾ الرسول ﴿ بَيْنَهُمْ ﴾ فإنه الحاكم ظاهراً والمدعو إليه وذكر الله تعالى لتعظيمه وللدلالة على أن حكمه صلى الله عليه وسلم فى الحقيقة حكم الله ﴿ إِذَا فَرِيقٌ مِنْهُمْ مُعْرِضُونَ ﴾ عن المجىء إليه إذا علموا أن الحق عليهم لعلمهم أنك لا تحكم لهم وهو شرح للتولى ومبالغة فيه دلالة على فرط كفرهم فى الإعراض ﴿ وَإِنْ يَكُنْ لَهُمُ الْحَقُّ يَأْتُوا إِلَيْهِ ﴾ لعلمهم أنه يحكم لهم ﴿ مُذْعِنِينَ ﴾ طائعين مسرعين ﴿ أَفِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ ﴾ كفر أو ميل إلى الظلم ﴿ أَمِ ارْتَابُوا ﴾ أى شكوا فى نبوتك بأن رأوا منك تهمة فزالت ثقتهم ويقينهم بك ﴿ أَمْ يَخَافُونَ أَنْ يَحِيفَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَرَسُولُهُ ﴾ فى الحكم أى يظلموا فيه لا ﴿ بَلْ ﴾ إضراب عن القسمين الأخيرين لتحقيق القسم الأول ﴿ أُولَٰئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ ﴾ بالإعراض عنه لمرض فى قلوبهم لا غيرهم ، ويحتمل أنه إضراب عن نفس التقسيم والمعنى دع التقسيم واحكم بأنهم الجامعون لتلك الأوصاف الكاملون فى الظلم ﴿ إِنَّمَا كَانَ قَوْلَ الْمُؤْمِنِينَ إِذَا دُعُوا إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ ﴾ أى القول اللائق بهم ﴿ أَنْ يَقُولُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا ﴾ سواء كان الحق عليهم أو لهم ﴿ وَأُولَٰئِكَ ﴾ حينئذ ﴿ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴾ الناجون لا غيرهم ﴿ وَمَنْ يُطِعِ اللَّهَ

وَرَسُولَهُ ﴾ فيما يأمران به كائناً من كان أى وقت كان دفع لتوهم اختصاص الفلاح بمن كان فى عصره ﴿ وَيَخْشَ اللَّهَ ﴾ أى عقابه على ماصدر منه من الذنوب ﴿ وَيَتَّقْهِ ﴾ بكسر الهاء للجمهور وسكونها لأبى عمرو وأبى بكر وخلاد عن حمزة أى يتقه فيما بقى من عمره لكن قالون لم يصل الهاء وحفص سكن القاف ﴿ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْفَائِزُونَ ﴾ بالجنة ﴿ وَأَقْسَمُوا ﴾ أى المنافقون ﴿ بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ ﴾ الكاذبة بعد ذلك التولى والإعراض كما هو دأبهم فى النفاق وجهد منصوب بفعله كضرب الرقاب ﴿ لَئِنْ أَمَرْتَهُمْ ﴾ بالخروج من ديارهم وأموالهم أو إلى الجهاد ﴿ لَيَخْرُجُنَّ ﴾ جواب لأقسموا على الحكاية ﴿ قُلْ ﴾ لهم ﴿ لَا تُقْسِمُوا ﴾ على الكذب فإن ذلك تحمل إثم فوق آخر ﴿ طَاعَةٌ ﴾ للنبى ﴿ مَعْرُوفَةٌ ﴾ خير من هذه الأيمان الكاذبة أو المطلوب منكم طاعة معروفة كطاعة المؤمنين لا اليمين على الطاعة النفاقية المنكرة ، أو طاعتكم معروفة بأنها بالقول دون الفعل فلا حاجة إلى الأيمان ﴿ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴾ لا يخفى عليه سرائركم فيجازيكم عليها ﴿ قُلْ أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ ﴾ واتركوا النفاق ، لم يقل وأطيعونى إشارة إلى أن كونه رسولا هو المقتضى للإطاعة وهو أمر بتبليغ ما خاطبهم الله به على الحكاية مبالغة فى تبكيتهم ﴿ فَإِنْ تَوَلَّوْا ﴾ عن طاعته ﴿ فَإِنَّمَا عَلَيْهِ مَا حُمِّلَ ﴾ من التبليغ فلا ضير عليه لأنه أدى ما عليه ﴿ وَعَلَيْكُمْ مَا حُمِّلْتُمْ ﴾ من الامتثال فعليكم غضب الله وسخطه بإعراضكم ﴿ وَإِنْ تُطِيعُوهُ تَهْتَدُوا ﴾ إلى الحق وتحرزوا نفوسكم ﴿ وَمَا عَلَى الرَّسُولِ إِلَّا الْبَلَاغُ الْمُبِينُ ﴾ أى التبليغ البين وقد بلغ ثم أتى بتتميم قوله وإن تطيعوه تهتدوا بياناً لما لهم إن أطاعوه فى العاجل والآجل ترغيباً فقال ﴿ وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ ﴾ الخطاب للنبى صلى الله عليه وسلم ولمن معه ومن للبيان أو للتبعيض أى وأقسم لهم ﴿ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ ﴾ ليجعلنهم خلفاء متصرفين ﴿ فِي الْأَرْضِ ﴾ بدل كفار العرب والعجم يتصرفون فيها بالشريعة تصرف الملوك فى مماليكهم واللام جواب قسم مضمر كما قدرنا أو الوعد نزل منزلة القسم وفيه إعلام بأن الإيمان والعمل الصالح أصلان فى الاستخلاف نزلت لما أمر النبى صلى الله عليه وسلم وأصحابه بالصبر على أذى الكفار سنين ثم أمروا بالهجرة ثم بالقتال فكانوا كل وقت على خوف لا يضعون السلاح فوعدهم الله الاستخلاف والأمن . قال فى الجواهر : فالآية عامة لأمة نبينا محمد صلى الله عليه وسلم أن يملكهم الله البلاد كما هو الواقع فى كل عصر فسبحانه ما أصدق وعده . اه . ﴿ كَمَا اسْتَخْلَفَ ﴾ بالبناء للفاعل للجمهور ، والمفعول لأبى بكر ﴿ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ ﴾ من بنى إسرائيل بدلا عن الجبابرة الفراعنة بمصر والعمالقة بالشام ﴿ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِي ارْتَضَىٰ لَهُمْ ﴾ وهو الإسلام بأن يظهره على جميع الأديان ويوسع لهم فى البلاد فيملكوها ﴿ وَلَيُبَدِّلَنَّهُمْ ﴾ بالتشديد للجمهور والتخفيف لابن كثير وأبى بكر ﴿ مِنْ بَعْدِ خَوْفِهِمْ ﴾ من كفار قريش بمكة وكفار غسان بالمدينة وغيرهم ﴿ أَمْنًا ﴾ وقد أنجز الله وعده لهم وفتح لهم بلاد الشرق والغرب وأثنى عليهم بقوله ﴿ يَعْبُدُونَنِي لَا يُشْرِكُونَ بِي شَيْئًا ﴾ حال من الذين لتقييد الوعد بثباتهم على التوحيد أو استئناف لبيان

مقتضى الاستخلاف والأمن وفى وقوع ما ذكر دليل على صحة النبوة بالإخبار عن الغيب على ما هو به وخلافة الخلفاء الراشدين إذ لم يجتمع الموعود والموعود عليه لغيرهم بالإجماع . قاله البيضاوى . قلت : لحديث «الخلافة بعدى ثلاثون سنة ثم تكون ملكا ...» الحديث والله أعلم ﴿وَمَنْ كَفَرَ﴾ ارتد أو كفر هذه النعمة ﴿بَعْدَ ذَٰلِكَ﴾ الإنعام عليهم بما ذكر ﴿فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ﴾ الكاملون فى الفسق حيث كفروا تلك النعم العظام أو حيث ارتدوا بعد وضوح الحق وأول من كفر به قتلة عثمان رضى الله عنه فصاروا يقتلون بعد أن كانوا إخواناً ﴿وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَءَاتُوا الزَّكَوٰةَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ﴾ فى جميع ما أمركم به ﴿لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾ أى رجاء الرحمة ، والآية عطف على أطيعوا الله والفاصل ليس بأجنبى بل هو وعد على المأمور به تأكيداً وكررت طاعة الرسول مبالغة فى إيجابها وليرتب عليه الرحمة ثانياً كما رتب عليه الهدى أولا ثم أكد الوعد المتقدم بقوله ﴿لَا تَحْسَبَنَّ﴾ بالفوقية للجمهور والتحتية لابن عامر وحمزة والفاعل الرسول وهو المخاطب فى الأولى ﴿الَّذِينَ كَفَرُوا مُعْجِزِينَ﴾ لنا ﴿فِى الْأَرْضِ﴾ بأن يفوتونا ﴿وَمَأْوَاهُمُ﴾ مرجعهم ﴿النَّارُ﴾ عطف على مقدر كأنه قيل بل مقهورون فى الدنيا بالاستئصال مجزيون فى الآخرة بعذاب النار أو فى محل النصب على الحال كأنه قيل كيف هذا الحسبان والحال أن النار معدة لهم ﴿وَلَبِئْسَ الْمَصِيرُ﴾ المرجع هى . ولما فرغ من الإلهيات والوعد والوعيد عليها رجع إلى تتميم الأحكام التى صدرت السورة بها فقال ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا﴾ خطاب للرجال والنساء ﴿لِيَسْتَـْٔذِنْكُمُ الَّذِينَ مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ﴾ من العبيد والإماء ﴿وَالَّذِينَ لَمْ يَبْلُغُوا الْحُلُمَ مِنْكُمْ﴾ من الأحرار وعرفوا أمر النساء وعبر عن الرجولية بالحلم لأنه أقوى دلائلها ﴿ثَلَاثَ مَرَّاتٍ﴾ فى اليوم والليلة فى ثلاثة أوقات منصوب على الظرفية ﴿مِنْ قَبْلِ صَلَاةِ الْفَجْرِ﴾ لأنه وقت القيام من المضاجع والغالب فيه التجرد عن ثياب النوم ولبس ثياب اليقظة ﴿وَحِينَ تَضَعُونَ ثِيَابَكُمْ﴾ للقيلولة ﴿مِنَ الظَّهِيرَةِ﴾ بيان للحين ﴿وَمِنْ بَعْدِ صَلَاةِ الْعِشَاءِ﴾ لأنه وقت التجرد عن اللباس والالتحاف باللحاف ﴿ثَلَاثُ عَوْرَاتٍ لَكُمْ﴾ بالرفع للجمهور خبر مقدر ومضاف وقام المضاف إليه مقامه أى هى أوقات ثلاث وبالنصب لحمزة والكسائى وأبى بكر بتقدير أوقات بعده منصوب بدلا من ثلاث مرات أو على محل من قبل صلاة الفجر قام المضاف إليه مقامه ، وتسميتها بالعورات لكونها مظنة لها وكل عيب وخلل عورة والآية نزلت فى دخول غلام أسماء بنت مرثد عليها فى وقت كرهته فشكت إلى النبى صلى الله عليه وسلم . وقد أرسل عليه السلام مدلج بن عمر غلاما للأنصار ليدعو عمر بن الخطاب فدخل عليه من غير استئذان وهو على حالة كره الدخول عليه فيها فقال وددت أن الله نهى أبناءنا وخدمنا عن الدخول فى هذه الساعة علينا إلا بإذن ثم انطلق معه إلى النبى صلى الله عليه وسلم فوجده وقد أنزلت عليه الآية : ﴿لَيْسَ عَلَيْكُمْ وَلَا عَلَيْهِمْ﴾ أى المماليك والصبيان ﴿جُنَاحٌ﴾ فى الدخول بغير استئذان ﴿بَعْدَهُنَّ﴾ أى بعد الأوقات الثلاث ، والجملة صفة عورات على رفع ثلاث أى هن

عورات مخصوصة بالاستئذان ليس وراءهن جناح واستئناف يؤكد الأمر بالاستئذان فى تلك الأوقات على النصب ، هم ﴿ طَوَّافُونَ عَلَيْكُمْ ﴾ للخدمة : استئناف لبيان العذر المرخص فى ترك الاستئذان وهو المخالطة وكثرة المداخلة إذ الاستئذان حينئذ فى كل الأوقات يوجب الحرج ﴿ بَعْضُكُمْ ﴾ طائف ﴿ عَلَى بَعْضٍ ﴾ جملة مؤكدة لما قبلها ﴿ كَذَٰلِكَ ﴾ كما بين ما ذكر ﴿ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمُ الْآيَاتِ ﴾ فى سائر الأحكام ﴿ وَاللَّهُ عَلِيمٌ ﴾ كامل العلم بأحوالكم ﴿ حَكِيمٌ ﴾ فيما يشرع لكم ﴿ وَإِذَا بَلَغَ الْأَطْفَالُ مِنْكُمُ ﴾ أيها الأحرار ﴿ الْحُلُمَ فَلْيَسْتَأْذِنُوا ﴾ فى جميع الأوقات ﴿ كَمَا اسْتَأْذَنَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ ﴾ الأحرار الكبار ﴿ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ آيَاتِهِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴾ كرره مبالغة فى شأن الاستئذان وتوكيداً له وأضاف الآيات إليه زيادة فى التوكيد لأن الاستئذان مما يتساهل فيه ، وعن ابن عباس ثلاث آيات تهاونها الناس آيات الإذن و « إن أكرمكم عند الله أتقاكم » و « إذا حضر القسمة أولو القربى » ﴿ وَالْقَوَاعِدُ ﴾ العجائز جمع قاعد ﴿ مِنَ النِّسَاءِ ﴾ عن الحيض والحمل أو عن الدخول والخروج لعدم الاستطاعة ﴿ اللَّاتِي لَا يَرْجُونَ نِكَاحًا ﴾ لعدم رغبتهن فيه وعدم رغبة الرجال فيهن لاستقذارهن فخرجت القاعد التى فيها مستمتع ﴿ فَلَيْسَ عَلَيْهِنَّ جُنَاحٌ أَنْ يَضَعْنَ ثِيَابَهُنَّ ﴾ الظاهرة من الجلباب والرداء والقناع فوق الخمار ولا تضع الإزار والقميص والخمار لأنه كشف للعورة ﴿ غَيْرَ مُتَبَرِّجَاتٍ ﴾ مظهرات ﴿ بِزِينَةٍ ﴾ خفية كقلادة وسوار وخلخال وأصل التبرج التكلف فى إظهار ما يخفى للعين ﴿ وَأَنْ يَسْتَعْفِفْنَ ﴾ بأن لا يضعنها ﴿ خَيْرٌ لَهُنَّ ﴾ لإبعاد التهمة ﴿ وَاللَّهُ سَمِيعٌ ﴾ لأقوالهن للرجال ﴿ عَلِيمٌ ﴾ بمقصودهن تحذير لهن عن التجاوز فى الأقوال والأفعال وقدم مايتعلق بالقول اهتماماً لحديث « وهل يكب الناس فى النار على مناخرهم إلا حصائد ألسنتهم » قال فى غاية الأمانى : لا سيما النساء فإن الغالب عليهن كثرة اللغو والخوض فى مالا يعنى . ولما تحرج ذوو العاهات من مؤاكلة الأصحاء والأصحاء من مؤاكلتهم نزل ﴿ لَيْسَ عَلَى الْأَعْمَىٰ حَرَجٌ ﴾ فى مؤاكلة البصير وكذا البصير فى مؤاكلته ﴿ وَلَا عَلَى الْأَعْرَجِ حَرَجٌ ﴾ كذلك ﴿ وَلَا عَلَى الْمَرِيضِ حَرَجٌ ﴾ أى لاحرج على كل فى مؤاكلة مقابله : نفى لما تحرجوا عنه بقول الأعمى أخاف أن يكون يستقذرنى أو آخذ الجيد وأترك له الدنىء وقول الأعرج أضرهم فى جلوسى إذ ربما أخذت مكان رجلين وربما أفسدت لهم الطعام عند جلوسى ، وقول المريض ربما استقذرنى إذ لايخلو المريض من رائحة كريهة وكذا مقابلوهم يقولون نخاف أن نظلمهم فالأعمى لا يبصر الجيد والأعرج لا يتمكن من الجلوس إلا بعد عسر فربما أكل غيره لقمتين قبل أن يجلس والمريض لا يستوفى الأكل فنفى الله الحرج عن الجهتين وعلى على بابه على الأولى وبمعنى فى على الثانية . والله أعلم ﴿ وَلَا ﴾ حرج ﴿ عَلَىٰ أَنْفُسِكُمْ أَنْ تَأْكُلُوا مِنْ بُيُوتِكُمْ ﴾ ذكرها دلالة على عدم الفرق فى الحل بينها وبين المذكورات بعدها ودخل فيها بيوت الأولاد لأن بيت الولد كبيته لقوله عليه السلام «أنت ومالك لأبيك» والجامع بين المعطوف والمعطوف

عليه كون كل منهما منفياً عنه الحرج ﴿ أَوْ بُيُوتِ ءَابَائِكُمْ أَوْ بُيُوتِ أُمَّهَاتِكُمْ أَوْ بُيُوتِ إِخْوَانِكُمْ أَوْ بُيُوتِ أَخَوَاتِكُمْ أَوْ بُيُوتِ أَعْمَامِكُمْ أَوْ بُيُوتِ عَمَّاتِكُمْ أَوْ بُيُوتِ أَخْوَالِكُمْ أَوْ بُيُوتِ خَالَاتِكُمْ أَوْ مَا مَلَكْتُمْ مَفَاتِحَهُ ﴾ أى خزنتموه لغيركم وكالة أو حفظاً وهى ما بيد الوكيل والأمين والقيم وبيوت المماليك ﴿ أَوْ صَدِيقِكُمْ ﴾ من صدقكم فى مودته يطلق على الواحد والجمع كالخليط والمعنى يجوز الأكل من بيوت من ذكر وإن لم يحضروا إذا علم رضاهم به بقول أو قرينة حالية أو عادية ولذلك خصص هؤلاء لأنه يعتاد التبسط بينهم ولأن الوكالة العادية كاللفظية . قال الحضيرى : ولذا يجوز لكل من الأخوين أن يتصرف فى مال أخيه وينوب منابه من غير تصريح بالوكالة فهى وكالة صحيحة وكتصرف الزوج فى مال زوجته طول إقامتها عنده فهى وكالة عادية . اهـ . وذلك معلوم من دأب السلف . حكى أن الحسن دخل داره يوماً فرأى جمعاً من أصحابه قد أخرجوا من تحت سريره سلالا فيها أطايب الأطعمة وهم مكبون عليها يأكلون فاستنار وجهه وقال : هكذا وجدناهم . يريد كبراء الصحابة من البدريين . وقد روى أن الشافعى كان يذهب إلى بيت الزعفرانى ويقيم عنده فى بيت الكتب أياماً وكان دأب الزعفرانى أن يكتب صبيحة كل يوم ما يريد ويناول الجارية الورقة فوجد يوماً فى الطعام ما لم يكتبه فسأل عن ذلك فأخبرته الجارية أن الضيف أخذ منها الورقة وزاد فيها ذلك الطعام فقال : إن كنت صادقة فأنت حرة لوجه الله فأتت بالورقة فوجد الأمر كما أخبرته عليها ملحق بخط الشافعى ﴿ لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَنْ تَأْكُلُوا جَمِيعاً ﴾ مجتمعين ﴿ أَوْ أَشْتَاتاً ﴾ مفترقين جمع شت ، ردّ لمن يتحرج أن يأكل وحده وإذا لم يجد من يؤاكله ترك الأكل ، وهم بنو ليث من كنانة ، ومن لا يأكل إلا مع الضيف من الأنصار ، ومن يتحرّج من الاجتماع على الأكل لتفاوت نهمة الناس ﴿ فَإِذَا دَخَلْتُمْ بُيُوتاً ﴾ لكم لا أهل بها أو بيوتاً من هذه البيوت وغيرها ولذا نكرها ﴿ فَسَلِّمُوا عَلَى أَنْفُسِكُمْ ﴾ أى قولوا : السلام علينا وعلى عباد الله الصالحين فإن الملائكة ترد عليكم أو على أهلها الذين هم منكم ديناً وقرابة فإن المؤمنين كنفس واحدة ﴿ تَحِيَّةً مِنْ عِنْدِ اللَّهِ ﴾ مشروعة بإذنه وانتصابه على المصدر كقعدت جلوساً ﴿ مُبَارَكَةً ﴾ ترجى بها زيادة الخير والثواب ﴿ طَيِّبَةً ﴾ تطيب بها نفس المستمع وتوجب له الأنس ، وعن ابن عباس : إذا دخلت المسجد وليس فيه أحد فقل : السلام علينا وعلى عباد الله الصالحين ﴿ كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمُ الْآيَاتِ ﴾ يفصل لكم معالم دينكم ، كرره ثالثاً لمزيد التأكيد وتفخيم الأحكام المختتمة به وجعل الفاصلة فى الأولين العلم والحكمة المقتضيين لتبيين الأحكام وهنا بما هو المقصود من ذلك البيان وهو قوله ﴿ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴾ الخير فى الأمور . وفى البخارى « من يرد الله به خيراً يفقهه فى الدين » قال ابن عطية : والنسخ لا يتصور فى شىء من هذه الآيات بل كلها محكمة ، أما قوله « ولا تأكلوا أموالكم بينكم بالباطل » ففى التعدى ونحوه . وأما هذه الآيات ففى إباحة طعام هذه الأصناف التى يسرها استباحة طعامها على هذه الصفة ، وأما آية الإذن فعلة إيجاب الاستئذان خوف

الكشفة فإذا استأذن المرء ودخل المنزل بالوجه المباح صح له بعد ذلك أكل الطعام بهذه الإباحة وليس يكون فى الآية نسخ فتأمله . اه ﴿ إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ ﴾ الكاملون فى الإيمان ﴿ الَّذِينَ ءَامَنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَإِذَا كَانُوا مَعَهُ ﴾ الرسول ﴿ عَلَى أَمْرٍ جَامِعٍ ﴾ وصف الأمر به مجاز مبالغة ، والمراد ما يكون الاجتماع لأجله كالجمعة والعيد والحروب والمشاورة فى الأمور المهمة . روى أنها نزلت فى حفر الخندق حول المدينة فكان المؤمنون يستأذنون والمنافقون يذهبون بلا إذن ﴿ لَمْ يَذْهَبُوا ﴾ لعروض عذرهم ﴿ حَتَّى يَسْتَأْذِنُوهُ ﴾ لأن التسلل ديدن المنافقين ﴿ إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَأْذِنُونَكَ أُولَئِكَ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ ﴾ والذاهب بغير إذن ليس كذلك ﴿ فَإِذَا اسْتَأْذَنُوكَ لِبَعْضِ شَأْنِهِمْ ﴾ أى المهم منه وفيه تضييق للأمر ﴿ فَأْذَنْ لِمَنْ شِئْتَ مِنْهُمْ ﴾ ممن علمت صدق عذره وامنع من شئت ﴿ وَاسْتَغْفِرْ لَهُمُ اللَّهَ ﴾ بعد الإذن فإن الاستئذان ترك الأفضل وتقديم لأمر الدنيا على أمر الدين ﴿ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ ﴾ لفرطات العباد ﴿ رَحِيمٌ ﴾ بالتيسير عليهم وإرسال من يستغفر لهم ثم أكد أمر الاستئذان بقوله ﴿ لَا تَجْعَلُوا دُعَاءَ الرَّسُولِ بَيْنَكُمْ ﴾ إذا دعاكم ﴿ كَدُعَاءِ بَعْضِكُمْ بَعْضًا ﴾ فى جواز الإعراض والمساهلة فى الإجابة والرجوع بغير إذنه فإجابته واجبة والرجوع بغير إذنه إذا دعا محرم أو لا تجعلوا نداءه وتسميته كنداء بعضكم بعضاً بأن تقولوا « يامحمد » بل قولوا « يانبى الله ، يارسول الله » فى لين وتواضع وخفض صوت أو لا تجعلوا دعاءه لكم واستغفاره لكم كدعاء بعضكم بعضاً فإنه مستجاب حتما أو لا تجعلوا دعاءه عليكم كدعاء بعضكم بعضاً فلا تبالوا بسخطه ﴿ قَدْ يَعْلَمُ اللَّهُ الَّذِينَ يَتَسَلَّلُونَ مِنْكُمْ ﴾ يخرجون من الجماعة قليلا قليلا خفية من غير استئذان ﴿ لِوَاذًا ﴾ ملاوذة مستترين بغيرهم مصدر لاوذ إذا تستر بغيره أدخل « قد » على العلم تحقيقاً وتوكيداً لثبوته ليكون ذريعة إلى تحقق الوعيد ، وانتصاب « لواذاً » على الحال أو على المصدرية لفعله المحذوف ، الأصل يتسللون تسللا ويلاوذون لواذاً فحذف مصدر الأول وفعل الثانى اكتفاء ﴿ فَلْيَحْذَرِ الَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِ ﴾ واحد الأوامر أو الأمور والضمير لله فإن الأمر له حقيقة أو للرسول فإنه المقصود بالذكر وعدى بعن لتضمن معنى الإعراض أو معنى عن بعد ﴿ أَنْ تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ ﴾ بلاء فى الدنيا بالقتل والأسر ﴿ أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾ فى الآخرة وفيه دليل على أن الأمر للوجوب عند عدم الصارف ﴿ أَلَا إِنَّ لِلَّهِ مَا فِى السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ قَدْ يَعْلَمُ مَا أَنْتُمْ عَلَيْهِ ﴾ أيها المكلفون من المخالفة والموافقة والنفاق والإخلاص وأكد علمه بعد تأكيداً للوعيد ﴿ وَ ﴾ يعلم ﴿ يَوْمَ يُرْجَعُونَ إِلَيْهِ ﴾ فيه التفات عن الخطاب ﴿ فَيُنَبِّئُهُمْ ﴾ فيه ﴿ بِمَا عَمِلُوا ﴾ من الخير والشر ﴿ وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴾ لا يخفى عليه خافية . افتتح السورة بالأحكام وختمها ببيان إحاطة علمه بكل شىء ترغيباً عليها وترهيباً وعداً ووعيداً فانتظم أولها بآخرها ولله الحمد .

[تم تفسير سورة النور]

سورة الفرقان

مكية إلا « والذين لايدعون مع الله إلها آخر »
إلى « رحيما » فمدنى وهى سبع وسبعون آية

﴿ بِسْمِ ٱللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ . تَبَارَكَ ﴾ تعالى أو تكاثر خير ﴿ الَّذِى نَزَّلَ الْفُرْقَانَ ﴾ مصدر فرق سمى به القرآن لأنه فرق بين الحق والباطل ، وصف من نزله بالبركة لأن خيره لايحصى إذ هو أصل الشريعة ولا يوصف بـ « تبارك » غيره تعالى ولا يتصرف فيه ﴿ عَلَى عَبْدِهِ ﴾ محمد صلى الله عليه وسلم ﴿ لِيَكُونَ ﴾ الفرقان أو محمد أو الله ﴿ لِلْعَالَمِينَ ﴾ الإنس والجن ﴿ نَذِيرًا ﴾ مخوفاً من عذاب الله تعليل للصلة من تتمتها ﴿ الَّذِى ﴾ بدل من الموصول أو مدح مرفوع أو منصوب ﴿ لَهُ مُلْكُ السَّمَٰوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا ﴾ كزعم النصارى وخزاعة ﴿ وَلَمْ يَكُنْ لَهُ شَرِيكٌ فِى الْمُلْكِ ﴾ كزعم أهل الضلال ، أثبت الملك لنفسه ونفى ما يقوم مقامه وما يقاومه فيه ثم نبه على ما يدل عليه بقوله ﴿ وَخَلَقَ كُلَّ شَىْءٍ ﴾ من شأنه أن يخلق ﴿ فَقَدَّرَهُ تَقْدِيرًا ﴾ سوّاه تسوية أو هيأه تهيئة لما أراد منه من الخصائص والأفعال أو قدره للبقاء إلى أجل مسمى . ولما بيّن تفرده بالألوهية أخذ فى بيان طرق من ضل عن السبيل واتخذ شريكا تحذيرا عنها بقوله ﴿ وَاتَّخَذُوا ﴾ أى الكفار ﴿ مِنْ دُونِهِ آلِهَةً ﴾ هى الأصنام ﴿ لَا يَخْلُقُونَ شَيْئًا وَهُمْ يُخْلَقُونَ ﴾ مخلوقون وإيثار المضارع لاستحضار تلك الحالة أو يخلقهم عبدتهم بمعنى ينحتونهم ويصوّرونهم ﴿ وَلَا يَمْلِكُونَ ﴾ لا يستطيعون ﴿ لِأَنْفُسِهِمْ ضَرًّا ﴾ أى دفعه ﴿ وَلَا نَفْعًا ﴾ أى جرّه ﴿ وَلَا يَمْلِكُونَ مَوْتًا ﴾ إماتة لأحد ﴿ وَلَا حَيَاةً ﴾ إحياء لأحد ﴿ وَلَا نُشُورًا ﴾ بعثاً للأموات ومن كان كذلك فهو بمعزل عن الألوهية ، وقد روعى الأقرب فالأقرب فى الترتيب ﴿ وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ هَٰذَا ﴾ القرآن ﴿ إِلَّا إِفْكٌ ﴾ كذب ﴿ افْتَرَاهُ ﴾ اخترعه محمد قصداً وآثر المظهر إشارة إلى أن الباعث على هذا القول هو الكفر ﴿ وَأَعَانَهُ عَلَيْهِ قَوْمٌ آخَرُونَ ﴾ من أهل الكتاب يلقون إليه أخبار الأمم وهو يعبر عنها بعباراته . قال تعالى ﴿ فَقَدْ جَاءُوا ظُلْمًا ﴾ عظيما وهو الكفر بجعل الكلام المعجز إفكاً ﴿ وَزُورًا ﴾ بنسبة ما هو برىء عنه إليه وأتى وجاء يطلقان بمعنى فعل فيعديان تعديته ﴿ وَقَالُوا ﴾ أيضاً هو ﴿ أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ ﴾ أكاذيبهم ﴿ اكْتَتَبَهَا ﴾ كتبها أو طلب كتبها له لأنه أمّى من ذلك القوم ﴿ فَهِىَ تُمْلَىٰ ﴾ تقرأ وتلى ﴿ عَلَيْهِ ﴾ ليحفظها ﴿ بُكْرَةً وَأَصِيلًا ﴾ غدوة وعشيا . قال تعالى ردًّا عليهم ﴿ قُلْ أَنْزَلَهُ الَّذِى يَعْلَمُ السِّرَّ ﴾ الغيب ﴿ فِى السَّمَٰوَاتِ وَالْأَرْضِ ﴾ مشتملا على المغيبات التى لا يعلمها غيره فكيف يكون هذا أساطير الأولين أو مختلقاً ﴿ إِنَّهُ

كَانَ غَفُورًا رَحِيمًا ﴾ ولذا أنزله إليك وأخر العقوبة عن مكذبيه ﴿ وَقَالُوا ﴾ أيضاً استهزاء وإهانة ﴿ مَالِ هَٰذَا الرَّسُولِ ﴾ أى هذا الذى يزعم أنه رسول ﴿ يَأْكُلُ الطَّعَامَ وَيَمْشِي فِي الْأَسْوَاقِ ﴾ لطلب المعاش كسائر الناس ، أى ما له لم يخالف حاله حال الناس وهذا لقصور نظرهم على المحسوسات ولم يعلموا أن تمييز الرسل ليس بأمور جسمانية بل بأحوال روحانية ﴿ لَوْلَا ﴾ هلا ﴿ أُنْزِلَ إِلَيْهِ مَلَكٌ فَيَكُونَ مَعَهُ نَذِيرًا ﴾ يصدقه ويتعاونان على الإنذار ﴿ أَوْ يُلْقَىٰ إِلَيْهِ كَنْزٌ ﴾ من السماء يستغنى به عن السعى فى الأسواق والتردد فى طلب المعاش ﴿ أَوْ تَكُونُ لَهُ جَنَّةٌ ﴾ بستان ﴿ يَأْكُلُ مِنْهَا ﴾ من ثمارها ، ويأكل بالياء للجمهور والنون لحمزة والكسائى أى ليكون له مزية علينا بها وهذا منهم تنزل أى إن لم يلق إليه كنز فلا أقل من أن يكون له بستان كما للدهاقين : جمع دهقان : رئيس الإقليم أو رئيس فلاحى العجم ، ومياسير التجار ﴿ وَقَالَ الظَّالِمُونَ ﴾ أى الكفار للمؤمنين وضعه موضع الضمير تسجيلا عليهم بأنهم ظالمون فى مقالتهم ﴿ إِنْ تَتَّبِعُونَ ﴾ ما تتبعون ﴿ إِلَّا رَجُلًا مَسْحُورًا ﴾ سحر حتى غلب على عقله قال تعالى ﴿ انْظُرْ كَيْفَ ضَرَبُوا لَكَ الْأَمْثَالَ ﴾ بالمسحور والمحتاج إلى ما ينفقه وإلى ملك يقوم معه بالأمر ومعنى الأمثال أقوالهم الغريبة لفرط بعدها عن حالك ﴿ فَضَلُّوا ﴾ بها عن الهدى إلى خواص الرسول فهم يخبطون فيها خبط عشواء ﴿ فَلَا يَسْتَطِيعُونَ سَبِيلًا ﴾ إلى الهدى أو إلى شىء يستقرون عليه فى القدح فى نبوتك لحيرتهم ﴿ تَبَارَكَ الَّذِي إِنْ شَاءَ جَعَلَ لَكَ ﴾ فى الدنيا ﴿ خَيْرًا مِنْ ذَٰلِكَ ﴾ مما قالوه من الكنز والبستان ولكن أخره إلى الآخرة لأنها خير وأبقى ﴿ جَنَّاتٍ ﴾ بدل من خيرا ﴿ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ وَيَجْعَلْ لَكَ ﴾ بالجزم عطفاً على محل الجزاء للجمهور والرفع لابن كثير وابن عامر وأبى بكر استئنافا أو عطفاً على جعل لأن الشرط ماض فيجوز فى جزائه وفى المعطوف عليه الرفع والجزم ﴿ قُصُورًا ﴾ جمع قصر : المنزل أو كل بيت من حجر يختص به صاحبه ﴿ بَلْ ﴾ عطف على ما حكى عنهم من قولهم « مال هذا الرسول » إضراب إلى ما هو أعظم فإن ذلك تكذيب للرسول وهذا تكذيب له تعالى أو متصل بقوله « تبارك الذى إن شاء » إنكاراً منهم لذلك على أبلغ وجه بأن من كذب بالساعة كيف يصدق هذا الخبر ﴿ كَذَّبُوا بِالسَّاعَةِ ﴾ القيامة لقصور نظرهم على حطام الدنيا فظنوا أن الكرامة بالمال ﴿ وَأَعْتَدْنَا لِمَنْ كَذَّبَ بِالسَّاعَةِ سَعِيرًا ﴾ النار الشديدة الاستعار ﴿ إِذَا رَأَتْهُمْ ﴾ حقيقة أو كانت بمرأى منهم ، والأول أولى ﴿ مِنْ مَكَانٍ بَعِيدٍ ﴾ روى أنها تتراءى لهم من مسيرة مائة عام ﴿ سَمِعُوا لَهَا تَغَيُّظًا ﴾ غليانا كالغضبان إذا غلى صدره من الغضب ﴿ وَزَفِيرًا ﴾ صوتاً شديداً وسماع التغيظ رؤيته وعلمه ولما كانت الحياة لا يشترط فيها بنية دون بنية عندنا أمكن أن يخلق الله فى النار الحياة فترى وتتغيظ ﴿ وَإِذَا أُلْقُوا مِنْهَا مَكَانًا ﴾ فى مكان ومنها بيان تقدم فصار حالا ﴿ ضَيِّقًا ﴾ بزيادة العذاب . وعن ابن عباس : يضيق عليهم كما يضيق الزج فى الرمح ليشتد عليهم الكرب ﴿ مُقَرَّنِينَ ﴾ فى السلاسل قرنت أيديهم إلى أعناقهم أو يقرن كل إنسان مع شيطانه فى سلسلة وفى أرجلهم الأصفاد ﴿ دَعَوْا هُنَالِكَ ﴾ فى

ذلك المكان ﴿ ثُبُورًا ﴾ أى يتمنون الهلاك وينادونه فيقولون : تعال يا ثبوراه . أى فهذا حينك فيقال لهم ﴿ لَا تَدْعُوا الْيَوْمَ ثُبُورًا وَاحِدًا وَادْعُوا ثُبُورًا كَثِيرًا ﴾ لعدم انقطاع عذابكم وكثرة أنواعه فكل وقت وقت ثبور آخر ﴿ قُلْ أَذَٰلِكَ ﴾ المذكور من الوعيد وصفة النار ﴿ خَيْرٌ أَمْ جَنَّةُ الْخُلْدِ الَّتِي وُعِدَ ﴾ ها ﴿ الْمُتَّقُونَ ﴾ للشرك وكل شر والاستفهام للتوبيخ والتفضيل على وجه التهكم كما يقول من يضرب عبده لمخالفته أمره : هذا أطيب أم ذلك ﴿ كَانَتْ لَهُمْ ﴾ فى علمه تعالى أو فى اللوح ﴿ جَزَاءً ﴾ ثواباً ﴿ وَمَصِيرًا ﴾ مرجعاً والتعبير بالماضى لجعل المترقب كالواقع وذكر المصير مع الجزاء لأن لذة النعيم لا تكمل إلا إذا انضم إليها طيب المنزل ﴿ لَهُمْ فِيهَا مَا يَشَاءُونَ ﴾ كل على قدر مرتبته وفيه دليل على أن كل المراد لا يحصل إلا فى الجنة ﴿ خَالِدِينَ ﴾ حال من فاعل « يشاءون » لازمة ﴿ كَانَ ﴾ وعدهم ما ذكر ﴿ عَلَىٰ رَبِّكَ وَعْدًا مَسْئُولًا ﴾ يسأله من وعد به : «ربنا وآتنا ما وعدتنا على رسلك» أو يسأله لهم الملائكة : « ربنا وأدخلهم جنات عدن التى وعدتهم » أو هو حقيق بأن يسأل ويطلب ﴿ وَيَوْمَ نَحْشُرُهُمْ ﴾ بالنون للجمهور والياء لابن كثير وحفص والضمير للكفار لأن ذكر المتقين استطراد لإظهار مقام الفريقين على وجه التقابل ﴿ وَمَا يَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ ﴾ أى غيره من كل معبود سواه ومنه الملائكة وعيسى وعزير وما يعم العاقل وغيره أو أريد به الوصف أى المعبود أو غلب غير العاقل للكثرة ﴿ فَيَقُولُ ﴾ تعالى ، بالتحتية للجمهور على تلوين الخطاب وبالنون لابن عامر أى يقول للمعبودين العقلاء أو غيرهم ينطقه الله أو يتكلم بلسان الحال ﴿ أَأَنْتُمْ أَضْلَلْتُمْ عِبَادِي هَٰؤُلَاءِ ﴾ بأمركم إياهم بعبادتكم ﴿ أَمْ هُمْ ضَلُّوا السَّبِيلَ ﴾ الحق بأنفسهم بإعراضهم عن النظار الصحيح وعن المرشد النصيح : سؤال توبيخ للعبدة إذا أجاب المعبودون بما أجابوا ليزداد بذلك حسرتهم وفضيحتهم ، وتقديم المسند إليه لكون الفعل واقعاً بلا ريب وإنما السؤال فى الفاعل ﴿ قَالُوا سُبْحَانَكَ ﴾ أى تنزيهاً لك عما لا يليق بك إبعاد له عن الأنداد أو تعجب من نسبة الإضلال إليهم لأنهم إما ملائكة وأنبياء فهم معصومون أو جمادات لاحياة لها ﴿ مَا كَانَ يَنْبَغِي ﴾ ما يصح ﴿ لَنَا أَنْ نَتَّخِذَ مِنْ دُونِكَ ﴾ أى غيرك ﴿ مِنْ أَوْلِيَاءَ ﴾ مفعول أول و«من» زائدة لتأكيد النفى وما قبله الثانى أى ما يليق بنا أن نتولى أحداً دونك فكيف نأمر أحداً بأن يتولانا دونك ﴿ وَلَٰكِنْ مَتَّعْتَهُمْ وَآبَاءَهُمْ ﴾ بأنواع النعم وطول العمر فاستغرقوا فى الشهوات ﴿ حَتَّىٰ نَسُوا الذِّكْرَ ﴾ حتى غفلوا عن ذكرك أو التذكر بآلائك أو التدبر فى آياتك والإيمان بها ﴿ وَكَانُوا قَوْمًا بُورًا ﴾ هالكين مصدر وصف به ولذا يستوى فيه الواحد والجمع أو جمع بائر كعائذ وعوذ . قال تعالى ملتفتاً إلى العبدة كفاحاً بالتوبيخ ﴿ فَقَدْ كَذَّبُوكُمْ ﴾ أى كذب المعبودون العابدين ﴿ بِمَا تَقُولُونَ ﴾ بالفوقية للجمهور والتحتية لابن كثير أى بقولهم إنهم آلهة أو هؤلاء أضلونا ، ويجوز أن يكون الجار والمجرور بدل اشتمال من الضمير لأن كذبته وكذبت به واحد معنى ﴿ فَمَا يَسْتَطِيعُونَ ﴾ بالتحتية للجمهور والفوقية لحفص أى لا هم ولا أنتم ﴿ صَرْفًا ﴾ للعذاب عنكم

﴿ وَلَا نَصْرًا ﴾ منعا لكم منه ﴿ وَمَنْ يَظْلِمْ ﴾ بشرك أو بغيره ﴿مِنْكُمْ﴾ أيها المشركون أو المكلفون ﴿ نُذِقْهُ عَذَابًا كَبِيرًا ﴾ شديداً فى الآخرة والشرط إن عم الكفر والفسق فهو مقيد فى اقتضاء الجزاء بعدم التوبة والعفو ثم أجاب عن شبهتهم «مال هذا الرسول يأكل الطعام» بقوله ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ مِنَ الْمُرْسَلِينَ ﴾ أحداً ﴿إِلَّا أَنَّهُمْ لَيَأْكُلُونَ الطَّعَامَ وَيَمْشُونَ فِي الْأَسْوَاقِ ﴾ فأنت مثلهم فى ذلك وقد قيل لهم كما قيل لك والجملة بعد إلا صفة محذوف أى إلا رسلا يأكلون لدلالة المرسلين عليه وأقيمت الصفة مقامه كقوله ومامنا إلا له مقام معلوم أى أحد . وفيه دليل أن المشى فى الأسواق من عادات الصالحين ، لكن قال ابن العربى فى الأحكام : ولما كثر الباطل فى الأسواق وظهرت فيها المناكير كره علماؤنا دخولها لأرباب الفضل المقتدى بهم فى الدين تنزيها لهم عن البقاع التى يعصى الله تعالى فيها . اه . ﴿ وَجَعَلْنَا بَعْضَكُمْ ﴾ أيها الناس ﴿ لِبَعْضٍ فِتْنَةً ﴾ بلية : ابتلى الغنى بالفقير والصحيح بالمريض والشريف بالوضيع والرسول بالمرسل إليه . يقول الثانى فى كلّ : مالى لا أكون كالأول ﴿أَتَصْبِرُونَ﴾ على ماتلقون ممن ابتليتم بهم : استفهام بمعنى الأمر بالصبر بعد بيان موجبه أو علة للجعل أى لنعلم أيكم يصبر ﴿ وَكَانَ رَبُّكَ بَصِيرًا ﴾ بمن يصبر وبمن لا يصبر أو بمن يصلح للرسالة والاصطفاء أو بالصواب فيما يبتلى به وبغيره ﴿وَقَالَ الَّذِينَ لَا يَرْجُونَ﴾ لا يخافون أو يأملون ﴿ لِقَاءَنَا ﴾ بالبعث أو جزاءنا عن الأعمال الصالحات لكفرهم ﴿ لَوْلَا أُنْزِلَ عَلَيْنَا الْمَلَائِكَةُ ﴾ فيكونوا رسلا إلينا أو فتخبرنا بصدق محمد ﴿أَوْ نَرَىٰ رَبَّنَا ﴾ فيأمرنا وينهانا بلا واسطة ولا حجاب ، قال تعالى ﴿ لَقَدِ اسْتَكْبَرُوا فِي ﴾ شأن ﴿أَنْفُسِهِمْ ﴾ حتى أرادوا لها مالا يتفق إلا للأفراد من الأنبياء وأكبر من ذلك ﴿ وَعَتَوْا ﴾ تجاوزوا الحد ﴿ عُتُوًّا كَبِيرًا ﴾ مفرطاً ، واللام جواب قسم محذوف وفيه تعجب كأنه قيل : ما أشد استكبارهم وما أكبر عتوهم حيث أعرضوا عن المعجزات وطلبوا لأنفسهم الخبيثة ما سدت دونه مطامح النفوس القدسية ، وعتوّ بالواو على أصله بخلاف عتىّ بالإبدال فى مريم ﴿ يَوْمَ يَرَوْنَ الْمَلَائِكَةَ ﴾ ملائكة الموت أو العذاب يوم الموت أو يوم القيامة نصب بأذكر أو بما دل عليه ﴿لَا بُشْرَىٰ يَوْمَئِذٍ لِلْمُجْرِمِينَ﴾ لكل مجرم أو لهم فوضع موضع الضمير بياناً بأن جرمهم هو المانع للبشرى بخلاف المؤمنين فلهم البشرى بالجنة ﴿ وَيَقُولُونَ ﴾ أى الكفرة إذا رأوا الملائكة عند الموت أو القيامة ﴿ حِجْرًا مَحْجُورًا ﴾ على عادتهم فى الدنيا عند النوائب والنوازل يقولون ذلك فى مقام الاستعاذة أى عوذاً معاذاً يستعيذون من الملائكة وحجراً فى الأصل المنع وهو من المصادر التى هجر ذكر ناصبها ، ومحجوراً : للمبالغة كليل أليل أو القائلون الكلمة هم الملائكة حين يأخذونهم من القبور أو على النار ومعناها حينئذ حرام محرم عليكم أى الغفران أو الجنة أو البشرى ﴿ وَقَدِمْنَا ﴾ عمدنا أو قصدنا ﴿إِلَىٰ مَا عَمِلُوا مِنْ عَمَلٍ﴾ من الخير كصدقة وصلة رحم وقرى ضيف وإغاثة ملهوف فى الدنيا ﴿ فَجَعَلْنَاهُ هَبَاءً مَنْثُورًا ﴾ هو ما يرى فى الكوى التى عليها الشمس كالغبار المفرق أى مثله فى عدم النفع به إذ لا

ثواب فيه لعدم شرطه ويجازون عليه فى الدنيا ﴿أَصْحَابُ الْجَنَّةِ يَوْمَئِذٍ﴾ يوم القيامة ﴿خَيْرٌ مُسْتَقَرًّا﴾ مكاناً يستقر فيه للمجاورة والمحادثة مع الأصحاب ﴿وَأَحْسَنُ مَقِيلًا﴾ مكاناً للاسترواح والتمتع بالأزواج شبه بالمقيل فى الاستراحة فيه إذ لا ليل ولا نهار فى الجنة أو إشارة إلى أنهم يصلون إلى الجنة نصف النهار إذ روى أن الحساب يفرغ فى نصف ذلك اليوم فيقيل أهل الجنة فى الجنة وأهل النار فى النار وفى أحسن رمز إلى مايتزين به مقيلهم من حسن الصور وغير ذلك ويحتمل أن يراد بالمقيل الزمان إشارة إلى أن مكان استقرارهم أطيب الأمكنة وزمانهم أطيب الأزمنة والتفضيل إما أن يراد به الزيادة المطلقة أو بالإضافة إلى المترفين فى الدنيا ﴿وَيَوْمَ﴾ منصوب بأذكر ﴿تَشَقَّقُ﴾ بالتشديد لنافع وابن كثير وابن عامر وبالتخفيف بحذف إحدى التاءين للباقين ﴿السَّمَاءُ﴾ أى كل سماء ﴿بِالْغَمَامِ﴾ بسبب طلوعه منها وهو المذكور فى قوله فى ظلل من الغمام قيل هو غمام فوق السموات ثقله مثل ثقلها فإذا كان يوم القيامة ألقاه الله على السموات فتنشق منه، أو الباء بمعنى مع أى معه وهو غيم أبيض، أو بمعنى عن ﴿وَنُزِّلَ الْمَلَائِكَةُ﴾ فى ذلك الغمام بصحائف أعمال العباد ﴿تَنْزِيلًا﴾ ولابن كثير ننزل مضارع أنزل ونصب الملائكة ﴿الْمُلْكُ يَوْمَئِذٍ الْحَقُّ﴾ الثابت ﴿لِلرَّحْمَٰنِ﴾ لا يشركه فيه أحد ويومئذ معمول الملك لا الحق لأنه متأخر وهو خبر أو صفة والخبر يومئذ أو للرحمن ﴿وَكَانَ﴾ اليوم ﴿يَوْمًا عَلَى الْكَافِرِينَ عَسِيرًا﴾ شديداً شاقاً عليهم بخلاف المؤمنين ﴿وَيَوْمَ يَعَضُّ الظَّالِمُ﴾ أى كل ظالم ﴿عَلَىٰ يَدَيْهِ﴾ كناية عن فرط الندامة وفى اليدين إشارة إليه والآية نزلت فى عقبة بن أبى معيط نطق بالشهادتين إرضاء للنبى ليأكل طعامه ثم رجع رضى لصديقه أبىّ بن خلف ﴿يَقُولُ﴾ فى القيامة ﴿يَا﴾ للتنبيه ﴿لَيْتَنِي اتَّخَذْتُ مَعَ الرَّسُولِ﴾ محمد ﴿سَبِيلًا﴾ إلى الهدى. قال السهيلى لم يصرح باسم عقبة وأبىّ ليعم الوعيد كل من فعل مثل فعلهما. اه. وقال مجاهد: الظالم اسم جنس عام ومقصد الآية تعظيم القيامة بأنها يوم تندم فيه الظلمة وتتمنى أنها لم تطع أخلاءها فى الدنيا. اه. لكن قال فخر الدين: العموم لنفس اللفظ إذ الألف واللام فى المفرد لا يفيد العموم إلا بقرينة وهى هنا ترتيب الحكم على الوصف المشعر بعليته فيعم الحكم لعموم علته. اه. ﴿يَاوَيْلَتَىٰ﴾ ألفه عوض عن ياء الإضافة أى هلكتى ﴿لَيْتَنِي لَمْ أَتَّخِذْ فُلَانًا﴾ أى أبياً إن أريد العهد فى الظالم وإن أريد الجنس فكل من اتخذ خليلا فى الشر، وفلانا كناية عن أعلام الذكور كما أن هنا كناية عن الأجناس ﴿خَلِيلًا * لَقَدْ أَضَلَّنِي عَنِ الذِّكْرِ﴾ القرآن أو ذكر الله أو موعظة الرسول أو كلمة الشهادة ﴿بَعْدَ إِذْ جَاءَنِي﴾ وتمكنت منه ولم يبق لى عذر ﴿وَكَانَ الشَّيْطَانُ﴾ يعنى الخليل المضل أو إبليس أو كل شيطان من جن وإنس ﴿لِلْإِنْسَانِ خَذُولًا﴾ بأن يتركه ويتبرأ منه عند البلاء وفيه تنبيه على تجنب قرين السوء والأحاديث والحكم فى ذلك لا تحصى ﴿وَقَالَ الرَّسُولُ﴾ محمد بثاً إلى الله تعالى فى الدنيا أو فى القيامة ﴿يَا رَبِّ إِنَّ قَوْمِي﴾ قريشاً ﴿اتَّخَذُوا هَٰذَا الْقُرْآنَ مَهْجُورًا﴾ متروكا لا يلتفت إليه أو مهجوراً فيه أى جعلوا فيه لغواً لئلا يسمعوه أو جعلوه هذياناً بقولهم

سحر شعر والأول أولى لحديث النبي صلى الله عليه وسلم من تعلم القرآن وعلق مصحفه لم يتعاهده جاء يوم القيامة متعلقاً به يقول يارب عبدك هذا اتخذني مهجوراً أقض بيني وبينه وفي شكايته عليه السلام تخويف قومه لأن الأنبياء إذا شكوا إلى الله قومهم عجل لهم العذاب ولذا سلاه تعالى بقوله ﴿ وَكَذَٰلِكَ ﴾ كما جعلنا لك عدواً من مشركي قومك ﴿ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ ﴾ قبلك ﴿ عَدُوًّا مِّنَ الْمُجْرِمِينَ ﴾ المشركين فاصبر كما صبروا ولفظ العدو يحتمل الواحد والجمع . قاله البيضاوي ﴿ وَكَفَىٰ بِرَبِّكَ هَادِيًا ﴾ لك إلى طريق قهرهم ﴿ وَنَصِيرًا ﴾ لك عليهم ﴿ وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا ﴾ منكرين إنزال القرآن مفرقاً ﴿ لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ الْقُرْآنُ ﴾ بتؤدة لكن ﴿ جُمْلَةً وَاحِدَةً ﴾ كالكتب الثلاثة وهذا اعتراض لا طائل تحته لأن الإعجاز لا يختلف بتفريقه مع أن للتفريق فوائد أشار إليها بقوله ﴿ كَذَٰلِكَ ﴾ أي كذلك أنزلناه مفرقاً أو كما أنزل أردناه ﴿ لِنُثَبِّتَ بِهِ فُؤَادَكَ ﴾ بضبطه وحفظه فيزداد قلبك بكل نجم منه قوة وثباتاً إذ يعجزون عن معارضته مع أن الشرائع مقارنة لآياته فلو نزلت جملة لثقلت عليهم مع ما علم الله فيها من الناسخ والمنسوخ فيأتي الناسخ بعد ما عمل بالأول ونيل ثوابه ولا يمكن مع وقوعهما دفعة وفي تنجيمه الظهور التام مع ترداد جبريل إليك في جميع أحوالك لتتوالى لديك الأفراح كل وقت كما يفعله الملوك مع الخواص المقربين يواصلونهم بالرسائل والكتب ﴿ وَرَتَّلْنَاهُ ﴾ قرأناه عليك شيئاً بعد شيء بتمهل في ثلاث وعشرين سنة ﴿ تَرْتِيلًا ﴾ تفصيلا متناسباً من رتل الأسنان فلجها أو أمرنا بترتيله في القراءة لفهمه ﴿ وَلَا يَأْتُونَكَ بِمَثَلٍ ﴾ سؤال عجيب كالمثل في إبطال أمرك ﴿ إِلَّا جِئْنَاكَ بِالْحَقِّ ﴾ الدافع له في جوابه مما ينزل عليك وذلك أيضاً من فوائد التفريق ﴿ وَأَحْسَنَ تَفْسِيرًا ﴾ بياناً وكشفاً عن المقصود من الفسر وهو الكشف وصيغة التفعيل للمبالغة ﴿ الَّذِينَ يُحْشَرُونَ ﴾ مقلوبين ﴿ عَلَىٰ وُجُوهِهِمْ إِلَىٰ جَهَنَّمَ ﴾ أو مسحوبين إليها والموصول رفع أو نصب على الذم أو مبتدأ خبره ﴿ أُولَٰئِكَ شَرٌّ مَّكَانًا ﴾ ممن يظنون به ذلك حتى قدحوا في رسالته أي لو علموا حالهم لعلموا أنهم شرٌّ مكاناً ﴿ وَأَضَلُّ سَبِيلًا ﴾ أخطأ طريقاً من غيرهم وفي وصف السبيل بالضلال على طريق المجاز الحكمي مبالغة في ضلال سالكه . ولما أثبت الله تعالى التوحيد والرسالة وأبطل شبهات المنكرين وسلى نبيه بقوله « وكذلك جعلنا لكل نبي عدوا » فصل بعض أحوال مشاهيرهم وقدم موسى هنا لأن أمته ومشقته مع الجهال أوفر فقال ﴿ وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ ﴾ التوراة ﴿ وَجَعَلْنَا مَعَهُ أَخَاهُ هَارُونَ وَزِيرًا ﴾ معيناً على تبليغ الرسالة وإعلاء الكلمة ولا تنافي بين النبوة والوزارة ﴿ فَقُلْنَا اذْهَبَا إِلَى الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا ﴾ أي القبط فرعون وقومه فذهبا إليهم بالرسالة فكذبوهما ﴿ فَدَمَّرْنَاهُمْ تَدْمِيرًا ﴾ أهلكناهم إهلاكاً ، ولما كان الغرض التسلية وأنه سينزل بالمشركين ما نزل بأولئك اختصر الكلام بذكر طرفي القصة وكذلك سلك في القصص بعدها ﴿ وَ ﴾ اذكر ﴿ قَوْمَ نُوحٍ لَّمَّا كَذَّبُوا الرُّسُلَ ﴾ بتكذيب نوح إذ تكذيب واحد منهم تكذيب لسائرهم لاشتراكهم فيما جاءوا به من التوحيد ،

أو لما كذبوا بعث الرسل ﴿ أَغْرَقْنَاهُمْ ﴾ جواب « لما » ﴿ وَجَعَلْنَاهُمْ لِلنَّاسِ ﴾ بعدهم ﴿ آيَةً ﴾ عبرة إلى يوم القيامة ﴿ وَأَعْتَدْنَا ﴾ فى الآخرة ﴿ لِلظَّالِمِينَ ﴾ لكل ظالم ، أو لهم . وإيثار المظهر للدلالة على علية الحكم ﴿ عَذَابًا أَلِيمًا ﴾ مؤلما سوى ما يحل بهم فى الدنيا ﴿ وَ ﴾ اذكر ﴿ عَادًا ﴾ قوم هود أو عطف على هم فى « جعلناهم » ﴿ وَثَمُودَ ﴾ قوم صالح فهؤلاء الأعلام فى الظلم ﴿ وَأَصْحَابَ الرَّسِّ ﴾ اسم بئر لقوم شعيب خسفوا فيه أو اسم قرية باليمامة فيها بقايا ثمود بعث فيهم نبى فقتلوه فاستؤصلوا ، وقيل : هم قوم حنظلة - وتقدمت قصتهم - وقيل أصحاب الأخدود . والرس : الأخدود ، وقيل الرس : أرض بأنطاكية قتلوا فيها حبيباً النجار فصاح بهم جبريل . والله أعلم ﴿ وَقُرُونًا ﴾ أقواماً ﴿ بَيْنَ ذَٰلِكَ ﴾ المذكور ﴿ كَثِيرًا ﴾ لا يعلمها إلا الله تعالى ﴿ وَ ﴾ أنذرنا ﴿ كُلًّا ﴾ أى كل قرن ﴿ ضَرَبْنَا لَهُ ﴾ بيَّنا له ﴿ الْأَمْثَالَ ﴾ القصص الغريبة مما جرى على الأمم المكذبة للرسل إنذاراً وتحذيراً ﴿ وَكُلًّا تَبَّرْنَا ﴾ لما أصروا على الكفر ﴿ تَتْبِيرًا ﴾ من التبار وهو الكسر ومنه التبر لفتات الذهب والفضة ، و « كلا » الأول منصوب بما دل عليه ضربنا : أى أنذرنا ، والثانى بـ « تبرنا » لفراغ الفعل له ﴿ وَلَقَدْ أَتَوْا ﴾ أى مر كفار قريش فى سفرهم إلى الشام ﴿ عَلَى الْقَرْيَةِ الَّتِي أُمْطِرَتْ مَطَرَ السَّوْءِ ﴾ الحجارة مصدر سماء وهى عظمى قرى قوم لوط أهلك الله أهلها لفعلهم الفاحشة ﴿ أَفَلَمْ يَكُونُوا يَرَوْنَهَا ﴾ الاستفهام للإنكار الداخل على النفى فيفيد الإثبات أى قد رأوها ﴿ بَلْ كَانُوا ﴾ كفرة ﴿ لَا يَرْجُونَ ﴾ لا يخافون ﴿ نُشُورًا ﴾ فلذا يمرون بها كما تمر ركابهم ﴿ وَإِذَا رَأَوْكَ إِنْ ﴾ ما ﴿ يَتَّخِذُونَكَ إِلَّا هُزُوًا ﴾ مهزوءاً به يقولون ﴿ أَهَٰذَا الَّذِي بَعَثَ اللَّهُ رَسُولًا ﴾ فى دعواه محتقرين له بالرسالة ﴿ إِنْ ﴾ مخففة أى إنه ﴿ كَادَ لَيُضِلُّنَا ﴾ يصرفنا ﴿ عَنْ آلِهَتِنَا ﴾ لفرط اجتهاده فى الدعاء إلى التوحيد ﴿ لَوْلَا أَنْ صَبَرْنَا عَلَيْهَا ﴾ لصرفنا عنها . قال تعالى ﴿ وَسَوْفَ يَعْلَمُونَ حِينَ يَرَوْنَ الْعَذَابَ ﴾ عياناً فى الآخرة ﴿ مَنْ أَضَلُّ سَبِيلًا ﴾ أخطأ طريقاً أهم أم المؤمنون ، كالجواب لقولهم « إن كاد ليضلنا » لأن من يضل غيره لابد أن يكون ضالا فى نفسه ﴿ أَرَأَيْتَ ﴾ أخبرنى ﴿ مَنِ اتَّخَذَ إِلَٰهَهُ هَوَاهُ ﴾ بأن أطاعه وبنى عليه دينه لا يسمع حجة ولا يتبصر محجة ، قدم المفعول الثانى لأنه أهم وجملة « من » مفعول أول لـ « أرأيت » والثانى ﴿ أَفَأَنْتَ تَكُونُ عَلَيْهِ وَكِيلًا ﴾ حافظاً تحفظه عن اتباع هواه بل أنت مبلغ ولا إكراه فى الدين ، والاستفهام الأول للتقرير والتعجيب والثانى للإنكار ﴿ أَمْ ﴾ بل أ ﴿ تَحْسَبُ أَنَّ أَكْثَرَهُمْ يَسْمَعُونَ ﴾ سماع تفهم ﴿ أَوْ يَعْقِلُونَ ﴾ ما تقول لهم ﴿ إِنْ ﴾ ما ﴿ هُمْ إِلَّا كَالْأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ سَبِيلًا ﴾ أخطأ طريقاً منها لأنها تنقاد لمن يتعهدها وهم لا يطيعون مولاهم المنعم عليهم ولأنها إن لم تعتقد حقا لم تعتقد باطلا وجهالتها لا تضر بأحد بخلاف هؤلاء . ثم أشار إلى صنعه البديع الدال على كمال قدرته وعلمه الذى لو تفكروا فيه لما أنكروا ما أنكروا بقوله ﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَىٰ ﴾ صنع ﴿ رَبِّكَ كَيْفَ مَدَّ ﴾ بسط ﴿ الظِّلَّ ﴾ لمنافع العباد ، وهو ظل السماء على الأرض من وقت الإسفار إلى طلوع الشمس وهو

أطيب الأوقات ولذا وصف به الجنة فى قوله « وظل ممدود » ﴿ وَلَوْ شَاءَ لَجَعَلَهُ سَاكِنًا ﴾ ثابتاً من السكنى أو غير متقلص من السكون بأن لا يزول بطاوع الشمس أو أصل الكلام ألم تر إلى الظل كيف مده ربك فعدل إلى المنزل إشارة إلى أن هذا المعقول كالمرئى بوضوح برهانه ﴿ ثُمَّ جَعَلْنَا الشَّمْسَ عَلَيْهِ ﴾ الظل ﴿ دَلِيلًا ﴾ فإنه لا يظهر للحس حتى تطلع ؛ فلولا الشمس ماعرف الظل ، أو جعلنا الشمس متبوعا يتبعه الظل يزيد به وينقص ويمتد ويقلص ﴿ ثُمَّ قَبَضْنَاهُ ﴾ أى رفعنا الظل الممدود ﴿ إِلَيْنَا ﴾ بإيقاع شعاع الشمس موقعه ولما عبر عن إحداثه بالمد بمعنى النشر عبر عن إزالته بالقبض الذى بمعنى الكف مطابقة ﴿ قَبْضًا يَسِيرًا ﴾ على التدريج شيئاً فشيئاً لما فى ذلك من مصالح العباد إلى أن تتناهى غاية نقصانه أو قبضاً سهلا عند قيام الساعة بقبض أسبابه من الأجرام المظلة والمظل عليها ويؤيده لفظ « إلينا » والظل ضوء مخلوط بظلمة وهو كيفية زائدة على الأجسام وألوانها ﴿ وَهُوَ الَّذِى جَعَلَ لَكُمُ اللَّيْلَ لِبَاسًا ﴾ ساتراً كاللباس ﴿ وَالنَّوْمَ سُبَاتًا ﴾ راحة للأبدان وقطعاً للشواغل والسبت الراحة والقطع ومنه قول عمر لمعاوية : لا تسأل عن شيخ نومه سبات وليله هبات . والمراد بالسبات : الموت ، ومنه المسبوت للميت ﴿ وَجَعَلَ النَّهَارَ نُشُورًا ﴾ ذا نشور أى انتشار ينتشر فيه الناس للمعاش أو أحياء وهو إشارة إلى أن النوم واليقظة أنموذج الموت والنشور ﴿وَهُوَ الَّذِى أَرْسَلَ الرِّيَاحَ﴾ بالجمع للجمهور والإفراد لابن كثير ﴿ نُشُرًا ﴾ بضمتين لنافع وابن كثير وأبى عمرو ، جمع نشور كصبور على الأصل أى متفرقة قدام المطر ولابن عامر بسكون الشين تخفيفاً أو جمع ناشر ولحمزة والكسائى بسكونها وفتح النون مصدر ولعاصم بسكونها وضم الموحدة بدل النون جمع بشير أى مبشرات ﴿ بَيْنَ يَدَىْ رَحْمَتِهِ ﴾ مطره لأنه سبب بقاء العالم ﴿ وَأَنْزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً طَهُورًا ﴾ بليغاً فى الطهارة أو متطهراً به من الأحداث والأخباث فعول من طهر اسم آله كالوقود والسحور لأن المأخوذ من اللازم لا يكون متعدياً وقول الفقهاء بمعنى المطهر تسامح . قاله فى غاية الأمانى . والطهور هو المطلق الذى لم يتغير لونه وطعمه وريحه بما يفارقه غالباً مما ليس بقراره ولا متولد منه والمتغير بمخالطة أجنبى لا يطهر اتفاقاً لا بالمجاورة فطهور اتفاقاً ، وكذا بالملاصقة من غير مخالطة على المشهور ، وما وجد فى الفلاة منتناً لا يدرى لِمَ ذلك فلا بأس به ووقوع النجاسة فى راكده سالب للطهورية مطلقاً عند أبى حنيفة قليلا كان الماء أو كثيراً وعند مالك إذا غيّره والشافعى كأبى حنيفة فيما دون القلتين وكمالك إذا بلغ القلتين والجارى كالراكد . وقال أبو حنيفة لا ينجس الجارى إذا لم ير للنجاسة فيه أثر . وفى الآية إشارة إلى أن ظواهرهم لما كانت ينبغى تطهيرها بالماء فبواطنهم أولى بالتطهير من قاذورات الرذائل لأنها محل الأسرار ﴿ لِنُحْيِىَ بِهِ بَلْدَةً مَيْتًا ﴾ بالتخفيف يستوى فيه المذكر والمؤنث أى بالنبات ﴿ وَنُسْقِيَهُ ﴾ أى الماء المنزل ﴿ مِمَّا خَلَقْنَا أَنْعَامًا ﴾ إبلا وبقرا وغنما لأهل البوادى ﴿ وَأَنَاسِىَّ ﴾ جمع إنسى أو إنسان أصله أناسين أبدلت النون ياء ﴿ كَثِيرًا ﴾ أهل البوادى الذين يعيشون بالحيا ولذلك نكر الأنعام والأناسى

لأن أهل المدن والقرى يقيمون بقرب الأنهار والمنابع فهم فى أكثر الأوقات فى غنية من المطر ، وقدم الأهم فالأهم وصف الماء أولا بالطهورية لأن المقصود الأصلى من إنزاله تطهيرهم لمناجاة ربهم ثم إحياء الأرض بالنبات لأنه سبب معاشهم ومعاش أنعامهم فقدم الأنعام لذلك فهى أولى به ﴿ وَلَقَدْ صَرَّفْنَاهُ ﴾ أى الماء أو القرآن ﴿ بَيْنَهُمْ ﴾ فى البلدان المختلفة والأوقات المتغايرة والأوصاف المتفاوتة من وابل وطل وغيرهما . وعن ابن عباس : « ما من عام أمطر من عام ولكن الله قسم ذلك بين عباده على ما شاء » أو صرفناه فى الأنهار والمنافع ﴿ لِيَذَّكَّرُوا ﴾ بإدغام التاء فى الذال للجمهور وبسكون الذال وضم الكاف لحمزة والكسائى يتفكروا نعمة الله بشكره ﴿ فَأَبَىٰ أَكْثَرُ النَّاسِ إِلَّا كُفُورًا ﴾ جحوداً للنعمة حيث قالوا مطرنا بنوء كذا ومن لا يرى الأمطار إلا من الأنواء كان كافراً بخلاف من يرى أنها من خلق الله والأنواء أمارات بجعله تعالى . قاله البيضاوى : ولما سلى نبيه بجعل الكفار أضل من الأنعام وأنه أنعم عليهم نعماً فأبوا إلا جحودها . أشار إلى عموم رسالته تعظيما لأجره فقال ﴿ وَلَوْ شِئْنَا لَبَعَثْنَا فِى كُلِّ قَرْيَةٍ نَذِيرًا ﴾ يخوّف أهلها ولكن بعثناك إلى أهل القرى كلها نذيراً ليعظم أجرك وتفضل بذلك على سائر الرسل فقابل ذلك بالثبات والاجتهاد فى الدعوة وإظهار الحق ﴿ فَلَا تُطِعِ الْكَافِرِينَ ﴾ السفهاء فى هواهم ﴿ وَجَاهِدْهُم بِهِ ﴾ بالقرآن ﴿ جِهَادًا كَبِيرًا ﴾ فإن الجهاد بالحجة أكبر من الجهاد بالسيف لا سيما مع السفهاء ، ولذا قال الشافعى : لا شىء أشد من إفحام الجاهل . وقيل معناه : كبيراً عند الله موقعه ، ثم رجع إلى نوع آخر من أدلة التوحيد فقال ﴿ وَهُوَ الَّذِى مَرَجَ الْبَحْرَيْنِ ﴾ أرسلهما متجاورين متلاقيين ﴿ هَٰذَا عَذْبٌ فُرَاتٌ ﴾ قاطع للعطش لشدة عذوبته ﴿ وَهَٰذَا مِلْحٌ أُجَاجٌ ﴾ شديد الملوحة ﴿ وَجَعَلَ بَيْنَهُمَا بَرْزَخًا ﴾ حاجزاً لا يختلط أحدهما بالآخر من قدرته تعالى غير محسوس ﴿ وَحِجْرًا مَّحْجُورًا ﴾ حدًّا محدوداً وستراً ممنوعاً به اختلاطهما ، وذلك كدجلة تدخل فى بحر الفرس فتشقه فتجرى فى خلاله فراسخ لا يتغير طعمهما ، وقيل المراد بالبحر العذب النهر العظيم إذ ليس فى الدنيا بحر عذب وذلك كالنيل والبحر المالح ، والبرزخ ما يحول بينهما من الأرض فتكون القدرة فى الفصل واختلاف الصفة . قال ابن عطية : والذى أقول به فى معنى هذه الآية أن المقصد بها التنبيه على قدرة الله تعالى فى أن بث فى الأرض مياهاً عذبة كثيرة جعلها خلال الأجاج وجعل الأجاج خلالها كما هو مرئى تجد البحر قد اكتنفته المياه العذبة فى صفته وتجد الماء العذب فى الجزائر ونحوها قد اكتنفه الماء الأجاج وكل باق على حاله وطعمه ، فالبحرين المراد بهما جميع الماء العذب والأجاج ، والبرزخ والحجر هو ما بين الماءين من الأرض . اهـ . ثم شرع فى آيات الأنفس بعد آيات الآفاق فقال ﴿ وَهُوَ الَّذِى خَلَقَ مِنَ الْمَاءِ بَشَرًا ﴾ آدم عليه السلام خلقه من تراب خلق من الماء فهو أصله ومادته الأولى أو من طين خمّر بالماء ، أو أولاده والماء النطفة ﴿ فَجَعَلَهُ ﴾ قسمين ﴿ نَسَبًا ﴾ ذا نسب ينسب إليه أى ذكراً يقال فلان بن فلان ﴿ وَصِهْرًا ﴾ أى ذات صهر أى أنثى يصاهر بها وهو

كقوله « فجعل منه الزوجين الذكر والأنثى » قال قطرب : ما كان من قبل زوج البنت أصهار وما كان من قبل المرأة أحماء ﴿ وَكَانَ رَبُّكَ قَدِيرًا ﴾ كامل القدرة يخلق من الماء تارة ذكراً وتارة أنثى وتارة يجمع بين النوعين بأن يخلق من النطفة الواحدة توأمين . قال فى الجواهر : والنسب أن يجتمع إنسان مع آخر فى أب أو فى أم والصهر هو تواشيج المناكحة فقرابة الزوجة هم الأختان وقرابة الزوج هم الأحماء ، والأصهار يقع عاما لذلك كله . اهـ . ولما شرح دلائل التوحيد عاد إلى تهجين عبادة الأوثان بقوله ﴿ وَيَعْبُدُونَ ﴾ بعد ظهور دلائل وحدة الصانع ﴿ مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَنْفَعُهُمْ ﴾ بعبادته ﴿ وَلَا يَضُرُّهُمْ ﴾ بتركها وهو الأصنام ﴿ وَكَانَ الْكَافِرُ ﴾ أبو جهل وغيره ﴿ عَلَىٰ رَبِّهِ ظَهِيرًا ﴾ معيناً للشيطان بطاعته فعيل بمعنى المفاعل كالكليم بمعنى المكالم أو مهيناً لاعبرة به كأنه ملقى وراء الظهر ﴿ وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا مُبَشِّرًا ﴾ بالجنة ﴿ وَنَذِيرًا ﴾ من النار قدم المبشر رعاية للفاصلة ﴿ قُلْ مَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ ﴾ على تبليغ ما أرسلت به ﴿ مِنْ أَجْرٍ إِلَّا ﴾ فعل ﴿ مَنْ شَاءَ أَنْ يَتَّخِذَ إِلَىٰ رَبِّهِ سَبِيلًا ﴾ بأن يتقرب إليه بالإيمان والطاعة فصور ذلك بصورة الأجر من حيث أنه مقصود فعله واستثناه منه قلعاً لشبهة الطمع وإظهاراً لغاية الشفقة حيث جعل تعرضهم للثواب وتخلصهم عن العقاب نفعاً عائداً إليه وفيه إشعار بأن له فى إيمانهم ثواباً جزيلا لأنه الدال المرشد كما قال عليه السلام لعلى بن أبى طالب يوم خيبر حين أعطاه الراية : «ادعهم إلى الإيمان أولا ، لأن يهدى الله رجلا على يديك خير لك من الدنيا وما فيها » وقيل الاستثناء منقطع أى لكن من شاء أن يتخذ إلى ربه سبيلا فليفعل ﴿ وَتَوَكَّلْ ﴾ فى استكفاء شرورهم والإغناء عن أجورهم ﴿ عَلَى الْحَيِّ الَّذِي لَا يَمُوتُ ﴾ فإنه الحقيق بأن يتوكل عليه دون الأحياء الذين يموتون فإنهم إذا ماتوا ضاع من توكل عليهم :

ليكن بربك عزك ٭ فيستقر ويثبت
ومتى اعتززت بمن يموت فإن عزك ميت

﴿ وَسَبِّحْ ﴾ نزهه عن النقصان وجميع ما لا يليق به مما يصفه به هؤلاء من الشريك ملتبساً ﴿ بِحَمْدِهِ ﴾ ثنائه بأوصاف الكمال بأن تقول : سبحان الله والحمد لله ﴿ وَكَفَىٰ بِهِ بِذُنُوبِ عِبَادِهِ خَبِيرًا ﴾ عالماً فلا عليك إن آمنوا أو كفروا وتعلق بـ « خبيرا » بذنوب ، هو ﴿ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ﴾ سبق الكلام عليه ولعل ذكره زيادة تقرير لكونه حقيقاً بأن يتوكل عليه من حيث أنه خالق الكل والمتصرف فيه ﴿ ثُمَّ اسْتَوَىٰ عَلَى الْعَرْشِ ﴾ والموصول خبر محذوف كما قدرنا أو نصب على الاختصاص أو مبتدأ خبره ﴿ الرَّحْمَٰنُ ﴾ أو هو بدل من ضمير « استوى » ﴿ فَاسْأَلْ ﴾ أيها الإنسان ﴿ بِهِ ﴾ بالرحمن ﴿ خَبِيرًا ﴾ يخبرك بصفاته والباء صلة السؤال يقال سأل عن فلان وبفلان . قاله الأخفش أو صلة « خبيرا » أو تجريدية أى اسأل بسؤاله خبيراً على معنى أنك إن سألته وجدته خبيراً أى خبير نحو لقيت بزيد أسداً أى أنه الأسد شجاعة ﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ﴾ لكفار مكة ﴿ اسْجُدُوا لِلرَّحْمَٰنِ قَالُوا وَمَا

الرَّحْمَٰنُ ﴾ سؤال عن مسماه فإنهم ما كانوا يطلقونه على الله فظنوا أنه أراد به غيره أو سؤال عن معناه وفيه إشارة إلى فرط جهلهم حيث جهلوا الرحمن الذى شملتهم رحمته حتى قالوا ﴿ أَنَسْجُدُ لِمَا تَأْمُرُنَا ﴾ بالفوقية للجمهور والتحتية لحمزة والكسائى والآمر محمد أى أنسجد له من غير أن نعلم ما هو وكيف شأنه ﴿ وَزَادَهُمْ ﴾ الأمر بالسجود للرحمٰن ﴿ نُفُورًا ﴾ عن الإيمان ثم ذكر ما لو تفكروا فيه لما نفروا عن السجود للمنعم به بقوله ﴿ تَبَارَكَ الَّذِي جَعَلَ فِي السَّمَاءِ بُرُوجًا ﴾ قصوراً ظاهرة لعلوها لأنها للكواكب السيارة كالمنازل لسكانها من التبرج الظهور كما قدمنا فى سورة الحجر وقدمنا هناك أسماء البروج والكواكب السيارة وذكرها هنا فى مقام الامتنان وتقرير صفة الرحمن إذ كل الفوائد الدنيوية عليها إذ عليها مدار الفصول التى نيطت بها أسباب المعاش وهى مقسومة على الطبائع الأربع فالحمل والأسد والقوس نارية . والثور والسنبلة والجدى ترابية . والجوزاء والميزان والدلو هوائية . والسرطان والعقرب والحوت مائية . والله أعلم ﴿ وَجَعَلَ فِيهَا ﴾ أيضاً ﴿ سِرَاجًا ﴾ هو الشمس لكمال ضوئها استعار لها اسم السراج ﴿ وَقَمَرًا مُنِيرًا ﴾ وقرأ حمزة والكسائى سرجا بالجمع على إرادة السيارة ، وخص القمر منها بالذكر لنوع فضيلته ﴿ وَهُوَ الَّذِي جَعَلَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ خِلْفَةً ﴾ أسم بمعنى الاختلاف أى ذوى اختلاف يخلف أحدهما الآخر فى القيام مقامه والعمل فيه بما فات فى الآخر ﴿ لِمَنْ أَرَادَ أَنْ يَذَّكَّرَ ﴾ بالتشديد للجمهور والتخفيف لحمزة : يتفكر فى قدرة الصانع أو يذكر ما فاته من أحدهما من خير فيفعله فى الآخر ﴿ أَوْ أَرَادَ شُكُورًا ﴾ لنعم ربه عليه فيهما فإن مدار الأمر على اختلافهما فلا نعمة أشمل وأكمل منه . ثم بين صفات أهل التذكر والشكر المقابلة لصفات الذين إذا قيل لهم اسجدوا للرحمن قالوا وما الرحمٰن بقوله ﴿ وَعِبَادُ الرَّحْمَٰنِ ﴾ جمع عابد مبتدأ ، وما بعده صفات له إلى « أولئك يجزون » غير المعترض فيه ﴿ الَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى الْأَرْضِ هَوْنًا ﴾ هينين أو مشياً هيناً مصدر وصف به والمعنى يمشون بسكينة وتواضع ﴿ وَإِذَا خَاطَبَهُمُ الْجَاهِلُونَ ﴾ بما يكرهونه ﴿ قَالُوا سَلَامًا ﴾ أى قولا سداداً يدل على المتاركة من غير إثم ولا لغو سواء كان لفظ السلام أو غيره ولا نسخ فيه بآية القتال إذ متاركة السفهاء والإغضاء عنهم من الآداب المستحسنة هذا وصفهم بالنهار ثم أشار إلى وصفهم بالليل بقوله ﴿ وَالَّذِينَ يَبِيتُونَ لِرَبِّهِمْ سُجَّدًا وَقِيَامًا ﴾ جمع ساجد وقائم أى يقضون ليلهم فى الصلاة وعبادة الرحمن وتأخير القيام للفاصلة ويحتمل القيام للمصدر وصف به مبالغة ﴿ وَالَّذِينَ يَقُولُونَ ﴾ مع تلك العبادة خوفاً من الله ﴿ رَبَّنَا اصْرِفْ عَنَّا عَذَابَ جَهَنَّمَ إِنَّ عَذَابَهَا كَانَ غَرَامًا ﴾ أى لازماً ومنه الغريم لملازمته : وصفهم ببلوغ الغاية فى العبادة ثم ببلوغها فى الوجل والابتهال إليه إعلاماً أنهم غير ستكلين عليها لا يرونها شيئاً نظراً إلى غناه وكبريائه ﴿ إِنَّهَا سَاءَتْ ﴾ بئست ﴿ مُسْتَقَرًّا ﴾ موضع استقرار ﴿ وَمُقَامًا ﴾ موضع إقامة وفى ساءت ضمير مبهم يفسره مستقراً وذكر مع تأنيث المفسر لأنه فى معنى المنزل والمخصوص محذوف أى هى وهذا الضمير الذى ربط خبر « إن » باسمها وقوله « إن عذابها » و« إنها ساءت » تعليلان متداخلان أو مترادفان ابتداء كلام من الله أو حكاية لقولهم ثم أشار إلى

وصفهم فى الإنفاق بقوله ﴿ وَالَّذِينَ إِذَا أَنْفَقُوا ﴾ على عيالهم وغيره ﴿ لَمْ يُسْرِفُوا ﴾ لم يتجاوزوا حد الاعتدال والكرم ﴿ وَلَمْ يُقْتِرُوا ﴾ بضم الياء وكسر التاء من الإقتار لنافع وابن عامر وبفتحها وضم التاء للكوفيين وكسر التاء لابن كثير وأبى عمرو من القتر التضييق فى الرزق وقيل الإسراف الإنفاق فى المعصية وإن قل والإقتار منع الواجب ويدل عليه ما قيل : لا إسراف فى الخير كما لا خير فى الإسراف ، وقد أنفق الصديق جميع ماله فى سبيل الله وكذا عثمان رضى الله عنهما ﴿ وَكَانَ ﴾ إنفاقهم لغيرهم ولأنفسهم ﴿ بَيْنَ ذَٰلِكَ ﴾ الإسراف والإقتار ﴿ قَوَامًا ﴾ وسطاً واعتدالا من قام الأمر اعتدل وهكذا كان حاله عليه السلام وحال الصحابة لا يأكلون إلا سد جوعتهم ولا يلبسون إلا سترا لعورتهم وقد دخل على بن أبى طالب رضى الله عنه السوق فاشترى قميصاً بخمسة دراهم فرأى فى كمه طولا فقال للبائع اقطع من كمه فقال أنت مجنون فقال له علىٌّ بارك الله فيك سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : لا يكمل إيمان المرء حتى يقال فيه إنه مجنون ، وبين وقواما خبران معاً أو الأول لغو والثانى الخبر أو الأول الخبر والثانى حال مؤكدة هذه صفاتهم فى المأمورات ثم أشار إلى صفاتهم فى ترك المنهيات وبدأ بأعظمها الشرك بقوله ﴿ وَالَّذِينَ لَا يَدْعُونَ مَعَ اللَّهِ إِلَٰهًا آخَرَ وَلَا يَقْتُلُونَ النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ ﴾ قتلها ﴿ إِلَّا بِالْحَقِّ ﴾ صفة للمصدر المحذوف أو متعلق بيقتلون ﴿ وَلَا يَزْنُونَ ﴾ نفى عنهم أمهات المعاصى بعد ما أثبت لهم أصول الطاعات تعريضاً بأعدائهم المشركين ﴿ وَمَنْ يَفْعَلْ ذَٰلِكَ ﴾ أى ما ذكر من الثلاثة ﴿ يَلْقَ أَثَامًا ﴾ جزاء الإثم أو عقوبته على أن الآثام جزاء الإثم أو مرادفه ﴿ يُضَاعَفْ لَهُ الْعَذَابُ ﴾ للشرك والذنوب ﴿ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَيَخْلُدْ فِيهِ ﴾ بجزم الفعلين وتخفيف يضاعف بدل من يلق لنافع وأبى عمرو وحفص وحمزة والكسائى وبرفعهما لابن عامر وأبى بكر إلا أن ابن عامر يشدد الأول على الاستئناف وبتشديده وجزمهما لابن كثير ﴿ مُهَانًا ﴾ حال لاستكباره عن اتباع الحق ﴿ إِلَّا مَنْ تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ عَمَلًا صَالِحًا ﴾ منهم ﴿ فَأُولَٰئِكَ يُبَدِّلُ اللَّهُ سَيِّئَاتِهِمْ ﴾ المذكورة ﴿ حَسَنَاتٍ ﴾ بأن يمحو سوابق سيئاتهم بالتوبة ويثبت مكانها لواحق حسناتهم أو يجعل أعدادها فى صحيفة الحسنات بعد محوها من ديوان السيئات، قال فى غاية الأمانى : وهذا أصح : روى مرفوعاً ﴿ وَكَانَ اللَّهُ ﴾ أى لم يزل ﴿ غَفُورًا رَحِيمًا ﴾ ولذا بدل السيئات بالحسنات ﴿ وَمَنْ تَابَ ﴾ عن المعاصى من المؤمنين ﴿ وَعَمِلَ صَالِحًا ﴾ من الطاعات ﴿ فَإِنَّهُ يَتُوبُ إِلَى اللَّهِ مَتَابًا ﴾ أى يرجع إليه رجوعاً فيجازيه خيراً والأول فى الكافرين التائبين أو هذه تعميم بعد تخصيص ﴿ وَالَّذِينَ لَا يَشْهَدُونَ الزُّورَ ﴾ الباطل المموه أى لا يحضرون مجالسه تنزها عن مخالطة أهل الإثم وصيانة عن الانسلاك فى سلكهم لأن فى ذلك تكثير سوادهم وإغراء على ما هم فيه فشهود الباطل شركة فيه أولا يشهدون شهادة الزور والأول أعم ﴿ وَإِذَا مَرُّوا بِاللَّغْوِ ﴾ ما ينبغى أن يلغى من الكلام وغيره ﴿ مَرُّوا كِرَامًا ﴾ معرضين عنه مكرمين أنفسهم عن الوقوف عليه ومن ذلك الإغضاء عن السفهاء فى شتمهم والكناية عما يستهجن التصريح به ﴿ وَالَّذِينَ

إذا ذُكِّروا بآياتِ ربِّهِم ﴾ بالوعظ أو القراءة ﴿ لَمْ يَخِرُّوا عَلَيْهَا صُمًّا ﴾ لم يقيموا عليها غير واعين لها ﴿ وَعُمْيَانًا ﴾ غير متبصرين فيها بل أكبوا عليها سامعين ناظرين منتفعين . وفى الجواهر: لم يكن خرورهم بهذه الصفة بل يكونون سجداً وبكيا . وقال ابن العربى : إذا قرأوا القرآن قرأوه بقلوبهم قراءة فهم وتثبيت والمرور عليه بغير فهم صم وعمى ﴿ وَالَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا هَبْ لَنَا مِنْ أَزْوَاجِنَا وَذُرِّيَّاتِنَا ﴾ بالجمع لنافع وابن كثير وأبى عمرو وابن عامر وحفص وبالإفراد للباقين ﴿ قُرَّةَ أَعْيُنٍ ﴾ لنا بأن نراهم مطيعين لك حائزين الفضائل فإن المؤمن إذا شاركه أهله فى الطاعة سُرّ به قلبه وقرت به عينه لما يرى من مساعدتهم له فى الدين وتوقع لحوقهم به فى الجنة و « من » ابتدائية أو بيانية ﴿ وَاجْعَلْنَا لِلْمُتَّقِينَ إِمَامًا ﴾ فى الخير والدين لا فى الرياسة وذلك بأن يكون الإمام متقياً فيكون قدوة المتقين وتوحيده لدلالته على الجنس أو لأنه مصدر فى الأصل أو لأن المراد : واجعل كل واحد منا ، أو جمع آمٍّ كصائم وصيام ، أى مقتدين بهم ﴿ أُولَٰئِكَ يُجْزَوْنَ الْغُرْفَةَ ﴾ أعلى مواضع الجنة اسم جنس أريد به الجمع ، وقيل هى من أسماء الجنة ﴿ بِمَا صَبَرُوا ﴾ بصبرهم على الطاعات وعن الشهوات ﴿ وَيُلَقَّوْنَ ﴾ بالتشديد للجمهور والتخفيف لحمزة والكسائى وأبى بكر مع فتح الياء ﴿ فِيهَا ﴾ فى الغرفة ﴿ تَحِيَّةً وَسَلَامًا ﴾ من الملائكة أو من بعضهم لبعض أو تبقية دائمة وسلاماً من كل آفة ﴿ خَالِدِينَ فِيهَا ﴾ لا يموتون ولا يخرجون ﴿ حَسُنَتْ مُسْتَقَرًّا وَمُقَامًا ﴾ مقابل « ساءت مستقرا ومقاما » ومثله إعراباً ﴿ قُلْ مَا يَعْبَأُ ﴾ يبالى أو يصنع ﴿ بِكُمْ رَبِّي لَوْلَا دُعَاؤُكُمْ ﴾ إيمانكم أو عبادتكم أو دعاؤكم إياه فى الشدائد فيكشفها و « ما » نافية أو استفهامية فى موضع المصدر أى أىّ اعتداد يعتد بكم ﴿ فَقَدْ كَذَّبْتُمْ ﴾ الرسول والقرآن ، والسورة مصدرة بتكذيبهم فانتظم الخاتمة مع الفاتحة ﴿ فَسَوْفَ يَكُونُ ﴾ العذاب ﴿ لِزَامًا ﴾ عذابا ملازما لكم فى الآخرة بعد ما يحل بكم فى الدنيا فقتل منهم يوم بدر سبعون ، وجواب « لولا » دل عليه ما قبلها ، وأضمر العذاب من غير ذكر للتهويل والتنبيه على أنه مما لا يكتنهه الوصف .

[تم تفسير سورة الفرقان]

سورة الشعراء

مكية إلا «والشعراء .. إلى آخره» فمدنية وهي مائتان وسبع وعشرون آية

﴿ بِسْمِ ٱللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ * طسم ﴾ الله أعلم بمراده بذلك أو حروف مبسوطة للإيقاظ، أمال الطاء نافع بين بين على ما فى البيضاوى والبغوى وغاية الأمانى والمشهور عنه الفتح وهو روايتنا، وحمزة والكسائى وأبو بكر محضة، وأظهر السين عند الميم حمزة فقط ﴿ تِلْكَ ﴾ هذه الآيات ﴿ آيَاتُ الْكِتَابِ ﴾ القرآن والإضافة بمعنى من ﴿ الْمُبِينِ ﴾ الواضح إعجازه أو المظهر الحق من الباطل وأبان يلزم ويتعدى ﴿ لَعَلَّكَ ﴾ يا محمد ﴿ بَاخِعٌ نَفْسَكَ ﴾ قاتلها غما ولعل للإشفاق أى أشفق على نفسك أن تقتلها من أجل ﴿ أَلَّا يَكُونُوا ﴾ أهل مكة ﴿ مُؤْمِنِينَ ﴾ أو خيفة أن لا يؤمنوا ﴿ إِنْ نَشَأْ نُنَزِّلْ عَلَيْهِمْ مِنَ السَّمَاءِ آيَةً ﴾ دلالة ملجئة لهم إلى الإيمان أو بلية قاهرة عليه ﴿ فَظَلَّتْ ﴾ بمعنى المضارع أى فتظل أى تدوم ﴿ أَعْنَاقُهُمْ لَهَا خَاضِعِينَ ﴾ فيؤمنون ولما وصفت الأعناق بالخضوع الذى هو لأربابها جمعت الصفة منهم جمع العقلاء أو الأعناق رؤساؤهم أو جماعاتهم ﴿ وَمَا يَأْتِيهِمْ مِنْ ذِكْرٍ ﴾ وحى يذكرهم ﴿ مِنَ الرَّحْمَٰنِ مُحْدَثٍ ﴾ إنزاله لتجديد التذكير صفة كاشفة ﴿ إِلَّا كَانُوا عَنْهُ مُعْرِضِينَ ﴾ مستمرين على ما كانوا عليه ﴿ فَقَدْ كَذَّبُوا ﴾ بالذكر بعد إعراضهم وأمعنوا فى التكذيب حتى أداهم إلى الاستهزاء به المخبر به عنهم ضمناً فى قوله ﴿ فَسَيَأْتِيهِمْ أَنْبَاءُ ﴾ عواقب ﴿ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِءُونَ ﴾ إذا مسهم عذاب الله فى الدنيا كيوم بدر أو فى الآخرة وإقحام الأنباء للدلالة على عظم ما ينزل بهم لأن الواقعة إذا عظمت شاعت فى البلدان وسارت بأخبارها الركبان وعبر فى الأنعام بسوف وهنا بالسين وكلتا السورتين مكية لأن آية الأنعام سابقة نزولا والتراخى بسوف أكثر من السين. والله أعلم. ثم أشار إلى أدلة ما كذبوه بقوله ﴿ أَوَلَمْ يَرَوْا ﴾ ينظروا ﴿ إِلَى الْأَرْضِ ﴾ إلى بدائع ما فيها ﴿ كَمْ أَنْبَتْنَا فِيهَا ﴾ أى كثيراً ﴿ مِنْ كُلِّ زَوْجٍ ﴾ نوع ﴿ كَرِيمٍ ﴾ حسن أو محمود كثير النفع صفة مشبهة وما من نبت إلا وله فائدة إما وحده أو مع غيره و «كم» لكثرة الأزواج وكل لإحاطتها أى أنبتنا فيها أفراداً كثيرة من كل نوع شريف، مرضى الصفات ﴿ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ ﴾ الإنبات أو فى كل واحد من الأصناف ﴿ لَآيَةً ﴾ دلالة على كمال قدرته تعالى ورحمته ﴿ وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنِينَ ﴾ فى علم الله وقضائه ولذا لا تنفعهم الآيات مع وضوحها لكونهم مخلوقين للنار و«كان» قال سيبويه زائدة ﴿ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ ﴾ الغالب القادر على الانتقام من

الكفرة ﴿ الرَّحِيمُ ﴾ حيث أمهلهم مع التكذيب أو الرحيم للمؤمنين . ولما بين إعراض كفار مكة وتكذيبهم واستهزاءهم بالرسول وبما جاء به أتبع ذلك بقصص الأنبياء مع قومهم تسلية لرسوله وبدأ بموسى لأن أمته أوفر الأمم بعد هذه الأمة فقال ﴿ وَإِذْ نَادَىٰ رَبُّكَ مُوسَىٰ ﴾ أى اذكر لقومك يا محمد ذلك الوقت وما وقع بعده وهو ﴿ أَنِ ﴾ أى بأن ﴿ ائْتِ الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ ﴾ بالكفر والمعاصى واستعباد بنى إسرائيل وذبح أبنائهم ﴿ قَوْمَ فِرْعَوْنَ ﴾ معه بدل من الأول أو بيان له وفيه دلالة على اشتهار فرعون وقومه بالظلم والطغيان لأن البدل مقصود بالنسبة ودلالة البيان على المعنى المراد من الكلام أوفى ﴿ أَلَا يَتَّقُونَ ﴾ الله بطاعته فيوحدوه استفهام إنكار فيه تعجب من تمادى القوم فى الظلم غير ناظرين فى عواقب الأمور والجملة مستأنفة تفيد أن عدم التقوى هو الذى حرضهم على الظلم ﴿ قَالَ ﴾ موسى ﴿ رَبِّ إِنِّي أَخَافُ أَنْ يُكَذِّبُونِ ﴾ بعد أداء الرسالة ﴿ وَيَضِيقُ صَدْرِي ﴾ من تكذيبهم لى ﴿ وَلَا يَنْطَلِقُ لِسَانِي ﴾ بأداء الرسالة للعقدة التى فيه ﴿ فَأَرْسِلْ إِلَىٰ ﴾ أخى ﴿ هَارُونَ ﴾ معى رتب ضم أخيه إليه على الأمور الثلاثة خوف التكذيب وضيق القلب انفعالا عنه وازدياد عقدة اللسان بانقباض الروح إلى باطن القلب عند ضيقه بحيث لا ينطق لأنها إذا اجتمعت مست الحاجة إلى معين حتى لا تختل الدعوة وليس توقفاً فى تلقى الأمر بل طلب معونة على امتثاله وتمهيد عذر ليكون ذهابه إلى الخصم على يقظة وتوفر عدة أسباب ﴿ وَلَهُمْ عَلَيَّ ذَنْبٌ ﴾ بقتل القبطى منهم ﴿ فَأَخَافُ أَنْ يَقْتُلُونِ ﴾ به قصاصاً قبل تبليغ الدعوة وليس لى على دفعهم قدرة ووسط سؤاله إرسال هارون بين العلل لئلا يتوهم من ظاهر كلامه التعلل وهذه الرابعة استدفاع للبلية المتوقعة كما أن ما تقدم استظهار واستمداد فى أمر الدعوة ﴿ قَالَ ﴾ تعالى إجابة له إلى الطلبتين بوعده للدفع اللازم ردعه عن الخوف وضم أخيه إليه فى الإرسال ﴿ كَلَّا ﴾ أى ارتدع عن خوف قتلهم وعطف على ارتدع قوله ﴿ فَاذْهَبَا ﴾ أنت وأخوك ففيه تغليب الحاضر على الغائب فى الخطاب ﴿ بِآيَاتِنَا إِنَّا مَعَكُمْ مُسْتَمِعُونَ ﴾ ما تقولون وما يقال لكم أجرى مجرى الجماعة أو المراد أنتما ومن أرسلتما إليهم والمعية معية حفظ ونصر وعبر عن السماع بالاستماع مبالغة فى الوعد بالإعانة وهو خبر ثان أو هو الخبر ومعكم غير مستقر ﴿ فَأْتِيَا فِرْعَوْنَ ﴾ خصه بالذكر بعد قوله أن ائت القوم الظالمين دلالة على أنه قدوتهم والقوم تبع ﴿ فَقُولَا إِنَّا ﴾ أى إن كلا منا ﴿ رَسُولُ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴾ إليك وأفرد الرسول لاتحاد المرسل به فكأنهما واحد أولأنه مصدر وصف به لأنه مشترك بين المرسل والرسالة كقوله ٭ ألا أبلغ أبا عمرو رسولا ٭ وقوله : لقد كذب الواشون ما فهت عندهم ٭ بسر ولا أرسلتهم برسول ﴿ أَنْ ﴾ بأن ﴿ أَرْسِلْ مَعَنَا ﴾ إلى الشام ﴿ بَنِي إِسْرَائِيلَ ﴾ أى خلهم وأن مفسرة لتضمن الإرسال معنى القول وبدأ بهذا وإن كان الغرض الأصلى دعوتهم إلى الله لأنه أسهل عليهم فبدأ به على وجه اللين فى القول . ﴿ قَالَ ﴾ فرعون لموسى بعد ما أتياه وقالا له ذلك ﴿ أَلَمْ نُرَبِّكَ فِينَا ﴾ فى منازلنا ﴿ وَلِيدًا ﴾ طفلا قريباً من الولادة بعد فطامه

﴿ وَلَبِثْتَ فِينَا مِنْ عُمُرِكَ سِنِينَ ﴾ ثلاثين تلبس ملابسنا وتركب مراكبنا ﴿ وَفَعَلْتَ فَعْلَتَكَ الَّتِي فَعَلْتَ ﴾ أى قتل القبطى . ونحه به بعد منّه معظماً إياه لكونه من خواصه قيل كان خبازا له واسمه فاتون ﴿ وَأَنْتَ مِنَ الْكَافِرِينَ ﴾ بالله إذ فعلت ما حرمه من قتله أو من الجاحدين لنعمتى علىك بالتربية وعدم الاستعباد وغرضه بهذه المقدمات الرذائل تبعيد موسى عن المراتب العلية عموماً وأحرى عن الرسالة ﴿ قَالَ ﴾ موسى ﴿ فَعَلْتُهَا إِذًا ﴾ حينئذ ﴿ وَأَنَا مِنَ الضَّالِّينَ ﴾ الجاهلين وآتانى الله بعد ذلك العلم والرسالة أو من الذاهلين عما يئول إليه الوكز أى أردت بالضرب التأديب فأدى إلى القتل ﴿ فَفَرَرْتُ مِنْكُمْ لَمَّا خِفْتُكُمْ ﴾ إلى مدين ﴿ فَوَهَبَ لِي رَبِّي حُكْمًا ﴾ على الناس لأن الأنبياء حكام على الناس وهو يتضمن العلم أو حكمة وهى علم الشريعة ﴿ وَجَعَلَنِي مِنَ الْمُرْسَلِينَ ﴾ فبطل ما تشبثت به . روى أنه لبث فيهم ثلاثين سنة ثم خرج بعد قتل القبطى ولبث فى مدين عشر سنين ثم عاد إليهم يدعوهم إلى الله ثلاثين فأغرق فرعون ثم لبث بعد فرعون خمسين والله أعلم . ولما رد ما أراد به فرعون من قدح فى نبوته أولا من القتل كر على ما عده من النعمة عليه ينبه على أنه فى الحقيقة نقمة لكونه مسبباً عنها بقوله ﴿ وَتِلْكَ ﴾ التربية مبتدأ والخبر ﴿ نِعْمَةٌ ﴾ فى الظاهر ﴿ تَمُنُّهَا عَلَيَّ ﴾ وصف للخبر وهى فى الحقيقة ﴿ أَنْ عَبَّدْتَ ﴾ أى هى تعبيدك ﴿ بَنِي إِسْرَائِيلَ ﴾ عطف بيان لتلك أى اتخذتهم عبيداً وتذبح أبناءهم فإنه السبب فى حصولى فى تربيتك وبذا تجعلنى مسيئاً فى مقابلة إحسانك وأين الإحسان بل أنت المسىء إذ لو لم تفعل ما فعلت من قتل الأبناء كنت مربى فى أهلى وإنما أفرد الخطاب فى « تمنها » وجمعه فى الأولين لأن المنة كانت منه وحده والفرار والخوف منه ومن قومه وقال الفراء إن هذا الكلام إقرار واعتراف من موسى أنه عبد بنى إسرائيل ولم يعبده وأراد مكافأة إحسانه بإرشاده إلى طريق الصواب . ومن المفسرين من قدر أول الكلام همزة الاستفهام للإنكار ﴿ قَالَ فِرْعَوْنُ ﴾ لموسى لما سمع جواب ما طعن به ورأى أن موسى لم يرعو بذلك شارعاً فى الاعتراض على دعواه مبتدئاً بالاستفسار عن حقيقة المرسل بقوله ﴿ وَمَا رَبُّ الْعَالَمِينَ ﴾ الذى تزعم أنك رسوله أىْ أىُّ شىء هو ؟ قال ذلك تعنتاً لا استرشاداً ؛ ولما لم يكن سبيل للخلق إلى معرفة حقيقته تعالى وإنما يعرفونه بصفاته أجاب موسى عليه السلام ببعضها ﴿ قَالَ رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا ﴾ أى خالق ذلك ولا بد أن تكون ممكنة وخالقها واجب الوجود مخالف لها فيكون خالق جميع العالمين مستحق العبادة منهم ﴿ إِنْ كُنْتُمْ مُوقِنِينَ ﴾ ذوى إيقان أى محققين لأحوال الأشياء بالأدلة ﴿ قَالَ ﴾ فرعون ﴿ لِمَنْ حَوْلَهُ ﴾ من الأشراف الذين يحيطون به وهم خمسمائة ﴿ أَلَا تَسْتَمِعُونَ ﴾ جوابه الذى لم يطابق السؤال سألته عن حقيقته وأجاب بأفعاله ﴿ قَالَ ﴾ موسى ﴿ رَبُّكُمْ وَرَبُّ آبَائِكُمُ الْأَوَّلِينَ ﴾ وأتى بهذا وإن كان داخلا فيما قبله لعدم إمكان الشك فى افتقاره إلى مصور حكيم وهو أوضح وأقرب للناظر عند التأمل ولأنه يغيظ فرعون ولذا ﴿ قَالَ ﴾ فرعون ﴿ إِنَّ رَسُولَكُمُ الَّذِي أُرْسِلَ إِلَيْكُمْ لَمَجْنُونٌ ﴾ يتكلم بكلام لا يقوله

عاقل ، وأضافه إليهم لأن تسميته رسولا على وجه التهكم ﴿ قَالَ رَبُّ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ وَمَا بَيْنَهُمَا ﴾ من راعى مصالح ذلك بإتيان الشمس من المشرق حتى يبلغها إلى المغرب على وجه نافع لتنتظم به أمور الكائنات ﴿ إِنْ كُنْتُمْ تَعْقِلُونَ ﴾ إن كان لكم عقل علمتم أن لا جواب لكم فوق ذلك ، لأنهم أولا ثم لما خاشنوه خاشنهم وعارضهم بمثل مقالهم ولذا عدل فرعون عن المحاجاة إلى التهديد ﴿ قَالَ ﴾ لموسى ﴿ لَئِنِ اتَّخَذْتَ إِلَهًا غَيْرِي لَأَجْعَلَنَّكَ مِنَ الْمَسْجُونِينَ ﴾ الذين عرفت حالهم و « ال » للعهد لأن موسى يعرف حال سجنه ، وكان يلقى من سجنه في هوة بعيدة العمق لا يرى شيئا ولا يسمع صوتا حتى يموت ولذلك جعل أبلغ من لأسجننك . وهذا دليل على أنه علم أن موسى محق فخاف أن لو أمر بسجنه أن تصيبه آفة وإلا فما وجه التوقف إذ لم يكن على فرعون مصيبة أشر من أن يدعى إلى عبادة غيره وهو يقول « أنا ربكم الأعلى » ﴿ قَالَ ﴾ له موسى ﴿ أَوَلَوْ ﴾ أي أتفعل ذلك ولو ﴿ جِئْتُكَ بِشَيْءٍ مُبِينٍ ﴾ برهان بيّن على رسالتي وهو المعجزة والواو للحال ويليها الهمزة بعد حذف الفعل كما قررنا ﴿قَالَ فَأْتِ بِهِ إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ﴾ فيه ﴿ فَأَلْقَى عَصَاهُ فَإِذَا هِيَ ثُعْبَانٌ ﴾ حية عظيمة قدر ميل ﴿ مُبِينٌ ﴾ واضح لا يشتبه على أحد أنه ثعبان فأقبل إلى فرعون فاستغاث بموسى فأخذه فعاد عصى فقال هل من آية غير هذا قال نعم ﴿ وَنَزَعَ يَدَهُ ﴾ أخرجها من جيبه فرآها على هيئتها ثم أدخلها في جيبه فأخرجها ﴿ فَإِذَا هِيَ بَيْضَاءُ ﴾ ذات شعاع يغشى البصر ويسد الأفق ﴿ لِلنَّاظِرِينَ ﴾ فيه دلالة على أن بياضها خارق للعادة يجمع النظار على النظر إليه ﴿ قَالَ ﴾ فرعون ﴿ لِلْمَلَإِ حَوْلَهُ ﴾ أي مستقرين حوله ، نصب على الحال محلا ولفظه نصب بنزع الخافض قاله في غاية الأماني وهو معنى قول البيضاوي هو ظرف وقع موقع الحال ﴿ إِنَّ هَذَا لَسَاحِرٌ عَلِيمٌ ﴾ ماهر في سحره ﴿ يُرِيدُ أَنْ يُخْرِجَكُمْ مِنْ أَرْضِكُمْ بِسِحْرِهِ فَمَاذَا تَأْمُرُونَ ﴾ طار عقله من الرعب لما بهره من سلطان المعجزة حتى حطه عن دعوى الألوهية إلى الاسترشاد بآراء ملئه لعلهم يرشدون إلى الخلاص مما دهمهم ومع ذلك نفرهم عن موسى بأنه يخرجهم عن ملكهم في أرضهم ليقوموا بأي وجه في دفعهم عن أنفسهم ﴿ قَالُوا أَرْجِهْ وَأَخَاهُ ﴾ أخر أمرهما ، وما فيه من القراءات والوجوه تقدم في الأعراف ﴿وَابْعَثْ فِي الْمَدَائِنِ﴾ مدائن ملكك قيل هي ألف مدينة مسيرة شهر وثلث طولا وشهر عرضا من أسوان إلى العريش ومن أيلة إلى برقة ﴿حَاشِرِينَ﴾ أي شرطا جامعين للسحرة ﴿يَأْتُوكَ بِكُلِّ سَحَّارٍ عَلِيمٍ﴾ يفضل موسى في علم السحر ﴿ فَجُمِعَ السَّحَرَةُ لِمِيقَاتِ يَوْمٍ مَعْلُومٍ ﴾ أي لما وقت به من ساعات يوم معلوم يوم الزينة وقت الضحى ﴿ وَقِيلَ لِلنَّاسِ هَلْ أَنْتُمْ مُجْتَمِعُونَ ﴾ القائل فرعون أو من هو من قبله و « هل » للاستبطاء في الاجتماع والمراد الحث عليه ﴿لَعَلَّنَا نَتَّبِعُ السَّحَرَةَ﴾ في دينهم ﴿إِنْ كَانُوا هُمُ الْغَالِبِينَ﴾ إن غلبوا ومقصودهم الاستمرار على دينهم فلا يتبعوا موسى ﴿فَلَمَّا جَاءَ السَّحَرَةُ قَالُوا لِفِرْعَوْنَ أَئِنَّ لَنَا لَأَجْرًا إِنْ كُنَّا نَحْنُ الْغَالِبِينَ﴾ موسى على سحره ﴿قَالَ نَعَمْ﴾ جواب للشرط لأن قولهم «أئن لنا لأجرا» دال عليه ﴿وَإِنَّكُمْ إِذًا﴾ حينئذ ﴿لَمِنَ الْمُقَرَّبِينَ﴾

عطف على جزاء الشرط فإذا جواب وجزاء على أصله : التزم لهم الأجر والقربة عنده زيادة عليه ترغيباً ﴿ قَالَ لَهُمْ مُوسَى ﴾ بعد ما قالوا له « إما أن تلقى وإما أن نكون نحن الملقين » ﴿ أَلْقُوا مَا أَنْتُمْ مُلْقُونَ ﴾ لم يرد أمرهم بالسحر بل التوسل إلى الحق وآثر «ما» تحقيراً لما يلقون ﴿ فَأَلْقَوْا حِبَالَهُمْ وَعِصِيَّهُمْ وَقَالُوا بِعِزَّةِ فِرْعَوْنَ إِنَّا لَنَحْنُ الْغَالِبُونَ ﴾ لفرط اعتقادهم فى أنفسهم وإتيانهم بأقصى ما يمكن أن يؤتى به من السحر ، واليمين بغير الله وصفاته وأفعاله ورد النهى عنه لأنه من شعار الجاهلية وإن قصد بكالعزى التعظيم فكفر وإلا فحرام ﴿ فَأَلْقَى مُوسَى عَصَاهُ فَإِذَا هِيَ تَلْقَفُ ﴾ تبتلع بحذف إحدى التاءين ، ولحفص بالتخفيف ﴿ مَا يَأْفِكُونَ ﴾ يقلبونه ويخيلون به للناس و « ما » موصولة أو مصدرية تسمية للمأفوك به إفكا مبالغة ﴿ فَأُلْقِيَ السَّحَرَةُ سَاجِدِينَ قَالُوا آمَنَّا بِرَبِّ الْعَالَمِينَ * رَبِّ مُوسَى وَهَارُونَ ﴾ لعلمهم بأن ماشاهدوه من العصا لا يتأتى بالسحر وكأنهم أخذوا وطرحوا على وجوههم ، وفيه أن منتهى السحر تخييل وجملة «قالوا» حال بتقدير قد ﴿ قَالَ ﴾ فرعون ﴿ ءَامَنتُمْ لَهُ ﴾ لموسى ﴿ قَبْلَ أَنْ آذَنَ ﴾ أنا ﴿ لَكُمْ إِنَّهُ لَكَبِيرُكُمُ الَّذِي عَلَّمَكُمُ السِّحْرَ ﴾ فعلمكم شيئاً منه وغلبكم بآخر ، أراد بهذا القول التلبيس على الحاضرين وإلا فالسحرة المتفرقون فى النواحى متى تمكنوا من رؤية موسى والمجالسة معه فضلا عن التعلم . والهمزة الثالثة مقلوبة ألفاً لكل القراء ، والثانية محققة لحمزة والكسائى وأبى بكر مسهلة للباقين على أصولهم ﴿ فَلَسَوْفَ تَعْلَمُونَ ﴾ ما ينالكم : وعيد لهم ﴿ لَأُقَطِّعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُمْ مِنْ خِلَافٍ ﴾ اليد اليمنى والرجل اليسرى من كل ﴿ وَلَأُصَلِّبَنَّكُمْ أَجْمَعِينَ ﴾ لتكونوا زماناً عبرة للناظرين وهو بيان للوعيد ﴿ قَالُوا لَا ضَيْرَ ﴾ لاضرر علينا فى ذلك ﴿ إِنَّا إِلَى رَبِّنَا ﴾ بعد موتنا بأى وجه كان بالقطع والصلب وغير ذلك ﴿ مُنْقَلِبُونَ ﴾ راجعون فى الآخرة والموت لا محالة فيه والشهادة أشرف أحواله فما توعدنا به مرغوب فيه عندنا لا مرهوب فكنوا عن الموت بالانقلاب إلى ربهم الكريم ولا ترى أحسن منها كناية ﴿ إِنَّا نَطْمَعُ ﴾ نرجو ﴿ أَنْ يَغْفِرَ لَنَا رَبُّنَا خَطَايَانَا أَنْ كُنَّا أَوَّلَ الْمُؤْمِنِينَ ﴾ من زمرة فرعون ومن أهل المشهد فإن المسارعة إلى الإيمان بالرسول بعد دلالة المعجزة من أقوى وسائل تقريب العبد إلى الله تعالى ، والجملة فى المعنى تعليل ثان لنفى الضير أو تعليل للعلة المتقدمة ﴿ وَأَوْحَيْنَا إِلَى مُوسَى ﴾ بعد ثلاثين سنة أقامها بينهم يدعوهم بآيات الله إلى الحق فلم يزيدوا إلا عتوّا ﴿ أَنْ أَسْرِ ﴾ بكسر النون ووصل الهمزة لنافع وابن كثير من سرى ، وبفتحهما وقطع الهمزة من أسرى لغتان ﴿ بِعِبَادِي ﴾ بنى إسرائيل أى سر بهم ليلا إلى البحر فسيأتيك أمرى عنده ﴿ إِنَّكُمْ مُتَّبَعُونَ ﴾ يتبعكم فرعون وجنوده فيلجون وراءكم إلى البحر ، والجملة علة للأمر بالسرى ﴿ فَأَرْسَلَ فِرْعَوْنُ فِي الْمَدَائِنِ حَاشِرِينَ ﴾ للعساكر حين أخبر بخروجهم قيل : كان له ألف مدينة كما قدمنا واثنا عشر ألف قرية ﴿ إِنَّ هَؤُلَاءِ لَشِرْذِمَةٌ ﴾ طائفة ﴿ قَلِيلُونَ ﴾ متقطعون ومنه الشراذم أى البالية المتقطعة لأنهم أسباط شتى وبالغ فى تقليلهم وتضعيفهم بلفظ الشرذمة

ووصفهم بالقلة وإيثار جمع القلة الدال على القلة أيضاً مع أنهم كانوا ستمائة ألف وسبعين ألفاً نظراً إلى ماله من الجنود مما لا يحصى ، وقد خرج بألف ألف حصان أسود سوى الإناث من الخيل ومقدمة جيشه سبعمائة ألف رجل ، وله من خواص غلمانه ثمانمائة غلام كل على فرس عتيق لكل فرس طوق من ذهب ﴿وَإِنَّهُمْ لَنَا لَغَائِظُونَ﴾ فاعلون ما يغيظنا من خروجهم بغير إذن وتركهم طاعتنا اعتذار فى اتباعهم ﴿وَإِنَّا لَجَمِيعٌ﴾ مجتمعون كثيرون ﴿حَذِرُونَ﴾ بالصفة المشبهة لنافع وابن كثير وأبى عمرو وباسم الفاعل للباقين فالأول للثبات والثانى للتجدد أى متحذرون عن إفساد بلادنا ومستعدون فى الأمور والمعنيان معاً يلائمان المقام ﴿فَأَخْرَجْنَاهُمْ﴾ أى فرعون وجنوده من مصر ليلحقوا موسى وقومه ﴿مِنْ جَنَّاتٍ﴾ كانت على جانبى النيل من أسوان إلى الرشيدة قرب الإسكندرية ﴿وَعُيُونٍ﴾ أنهار تجرى فى الدور من النيل ﴿وَكُنُوزٍ﴾ أموال من الذهب والفضة وغيرهما ﴿وَمَقَامٍ كَرِيمٍ﴾ منزل حسن ومجلس علىّ للأمراء والوزراء تحفه أتباعهم وقيل هو الفيوم - بالفاء: بلد بمصر ﴿كَذَٰلِكَ﴾ نصب على المصدر أى أخرجناهم مثل ذلك الإخراج أو رفع خبر محذوف أى الأمر كذلك أى كما وصفنا . ﴿وَأَوْرَثْنَاهَا بَنِي إِسْرَائِيلَ﴾ بعد إغراق فرعون وقومه أى ملكناهم ملكا لازما لا يرد كالميراث ﴿فَأَتْبَعُوهُمْ﴾ لحقوهم ﴿مُشْرِقِينَ﴾ وقت شروق الشمس ﴿فَلَمَّا تَرَاءَى الْجَمْعَانِ﴾ أى رأى كل منهما الآخر ﴿قَالَ أَصْحَابُ مُوسَىٰ إِنَّا لَمُدْرَكُونَ﴾ يدركنا جمع فرعون ولا طاقة لنا به ﴿قَالَ﴾ موسى ﴿كَلَّا﴾ أى لن يدركونا ﴿إِنَّ مَعِيَ رَبِّي﴾ بنصره ﴿سَيَهْدِينِ﴾ طريق النجاة . روى أن مؤمناً من آل فرعون كان بين يدى موسى فقال له أين أمرت ؟ قال : بالبحر ولعلى أومر بما أصنع عنده ﴿فَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ مُوسَىٰ﴾ حين بلغ البحر ﴿أَنِ اضْرِبْ بِعَصَاكَ الْبَحْرَ﴾ بحر القلزم وذلك المكان يسمى سويسا معروف عند أهل مصر لا يختلفون فيه وتفسيره بنيل مصر فاسد ، قاله فى غاية الأمانى ﴿فَانْفَلَقَ﴾ انشق اثنى عشر فرقاً ﴿فَكَانَ كُلُّ فِرْقٍ كَالطَّوْدِ الْعَظِيمِ﴾ الجبل الضخم بينهما مسالك سلكوها فلم يبتل سرج الراكب ولا لبده من طاد الشىء إذا ذهب إلى جانب السماء صعودا ، قاله فى غاية الأمانى وفى القاموس . طاد ثبت والانطياد الذهاب فى الهواء صعدا . وبناء منطاد مرتفع ﴿وَأَزْلَفْنَا﴾ قربنا ﴿ثَمَّ﴾ هناك ﴿الْآخَرِينَ﴾ فرعون وقومه وكان جبريل عليه السلام يسوق بنى إسرائيل على صورة فارس ويذهب إلى قوم فرعون يزعجهم - أى يكفهم من باب وضع - حتى سلكوا مسالكهم ﴿وَأَنْجَيْنَا مُوسَىٰ وَمَنْ مَعَهُ أَجْمَعِينَ﴾ بإخراجهم من البحر على هيئته المذكورة ﴿ثُمَّ أَغْرَقْنَا الْآخَرِينَ﴾ فرعون وقومه بإطباق البحر عليهم لما تم دخولهم البحر وخروج بنى إسرائيل ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً﴾ أية آية : أى لعبرة لمن بعده ﴿وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنِينَ﴾ بالله بسبب هذه الآية : أى ما تنبه عليها أكثرهم إذ لم يؤمن بها أحد ممن بقى فى مصر من القبط وأما بنو إسرائيل فكما أخبرنا الله عنهم من قولهم اجعل لنا إلها وقولهم أرنا الله جهرة واتخاذهم العجل إلها أو ما آمن بموسى من القبط إلا قليل ولذا أغرقوا ، إذ روى أنه لم يؤمن إلا آسية امرأة فرعون وحزقيل مؤمن من آل فرعون

ومريم بنت ناموسى التى دلت على عظام يوسف عليه السلام ﴿وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ﴾ فانتقم من الكافرين وأنجى المؤمنين ﴿وَاتْلُ عَلَيْهِمْ﴾ أى كفار مكة ﴿نَبَأَ﴾ خبر ﴿إِبْرَاهِيمَ﴾ قصته وحديثه مع قومه ويبدل منه ﴿إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِ مَا تَعْبُدُونَ﴾ سألهم ليعلمهم أن ما يعبدونه لا يصلح للعبادة ﴿قَالُوا نَعْبُدُ أَصْنَامًا﴾ أطنبوا بالتصريح بالفعل إذ حق الجواب أصناماً افتخاراً بذلك وليعطفوا عليه ﴿فَنَظَلُّ﴾ ندوم ﴿لَهَا عَاكِفِينَ﴾ أى نقيم نهاراً على عبادتها إشهاراً لتلك العبادة أو من إطلاق المقيد على المطلق فيكون بمعنى ندوم ﴿قَالَ هَلْ يَسْمَعُونَكُمْ﴾ أى دعاءكم ﴿إِذْ تَدْعُونَ﴾ ودخل إذ على المضارع على حكاية الحال الماضية استحضاراً لها ﴿أَوْ يَنْفَعُونَكُمْ﴾ إن عبدتموهم جزاء ﴿أَوْ يَضُرُّونَ﴾ كم إن لم تعبدوهم ﴿قَالُوا بَلْ﴾ إضراب عن أن يكون لهم سمع أو يتوقع منهم ضر أو نفع أعرضوا عن ظاهر الجواب تحاشياً عن الاعتراف بعدم شىء من صفات الألوهية فيها إلى التقليد بقولهم ﴿وَجَدْنَا آبَاءَنَا كَذَلِكَ يَفْعَلُونَ﴾ مثل فعلنا ﴿قَالَ أَفَرَأَيْتُمْ مَا كُنْتُمْ تَعْبُدُونَ * أَنْتُمْ وَآبَاؤُكُمُ الْأَقْدَمُونَ﴾ لأن التقدم لا يدل على الصحة ولا ينقلب به الباطل حقا ﴿فَإِنَّهُمْ عَدُوٌّ لِي﴾ أى أعداء لكم أضاف عداوتها إلى نفسه تصويراً للمسألة فى نفسه مبالغة فى إظهار النصح وأنه لا يرضى لهم إلا ما يرضى لنفسه ولأنه من باب التعريض وهو أكثر جدوى من التصريح وأدعى إلى القبول حكى أن رجلا واجه الشافعى بمكروه فقال الشافعى لو كنت مكانك لاحتجت إلى التأديب . ورأى على بن سند وكان من المجاورين بمكة ناسا يتحدثون فى الحجر فقال هذا ليس بيتى ولا بيتكم ، ومعنى العداوة ما أشار إليه بقوله ويكونون عليهم ضداً وأفرده لإطلاقه على الجمع كالصديق والظهير أو لأنه فى الأصل مصدر ﴿إِلَّا رَبَّ الْعَالَمِينَ﴾ فإنى أعبده استثناء متصل لأنهم كانوا يشركون ويزعمون أنها شفعاء إذ لا يقول أحد بأن الجماد صانع العالم ﴿الَّذِي خَلَقَنِي فَهُوَ يَهْدِينِ﴾ إلى أمور المعاش والمعاد من ابتداء الهداية وهو امتصاص الجنين دم الحيض إلى انتهائها وهو السلوك فى طريق الجنة والفوز برضوان الله ولذا آثر الاسمية مع كون الخبر مضارعا والفاء سببية إن جعل الموصول مبتدأ وللعطف إن جعل صفة رب العالمين فاختلف النظم لتقدم الخلق واستمرار الهداية ﴿وَالَّذِي هُوَ يُطْعِمُنِي وَيَسْقِينِ﴾ تكرير الموصول للدلالة على أن كل واحد من الصلات مستقلة باقتضاء الحكم ﴿وَإِذَا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِ﴾ من مرضى وتناسب عطفه على ما قبله ظاهر لأن المرض من روادف الطعام والشراب فإن الداء أكثر ما تراه يكون من الطعام ومن الشراب ولم ينسب المرض إلى الله لأن المقام فى عد النعم فلا يلائم إسناد الأمراض إليه وفى إيثار إذا على كلما إشارة إلى أن مرض الموت محتوم لا شفاء منه ﴿وَالَّذِي يُمِيتُنِي﴾ عده فى النعم لأنه وسيلة لقائه لربه تعالى الذى هو أحب إليه من كل شىء وخلاص من أنواع المحن والبليات فالدنيا سجن المؤمن ﴿ثُمَّ يُحْيِينِ﴾ فى الآخرة ﴿وَالَّذِي أَطْمَعُ﴾ أرجو ﴿أَنْ يَغْفِرَ لِي خَطِيئَتِي﴾ كترك الأولى والأفضل فإنه خطيئة فى أمثاله فإن حسنات الأبرار سيئات المقربين . ﴿يَوْمَ الدِّينِ﴾ . الجزاء وأتى بضمير الفصل فى الأفعال الثلاثة الأول دون الاخيرين لأن الأسباب العادية لها مدخل

فيها فرفع تأثيرها بالضمير بخلاف الإحياء والغفران لا يتصور فيهما سوى قدرته وفضله ﴿رَبِّ هَبْ لِي حُكْمًا﴾ كمالا فى العلم والعمل أستعد به لخلافة الحق ورياسة الخلق بالحكم بينهم أو وعظاً أنفع به الناس ﴿وَأَلْحِقْنِي بِالصَّالِحِينَ﴾ أى وفقنى للكمال فى العمل لأنتظم به فى عداد الكاملين فى الصلاح الذين لا يشوب صلاحهم مخالفة . أو احشرنى فى زمرتهم ولقد أجابه الله تعالى فقال : وإنه فى الآخرة لمن الصالحين ﴿وَاجْعَلْ لِي لِسَانَ صِدْقٍ﴾ أى ثناء حسناً من إطلاق آلة الشىء عليه مجازاً لغوياً ﴿فِي الْآخِرِينَ﴾ وقد أجيب فى ذلك إذ لا ترى أحداً من الملل إلا وهو ينتسب إليه وطلب الصيت ليقتدى بسيرته السامعون لمحاسن أخلاقه وكريم صفاته أو معنى لسان صدق داع إلى دينه صادق فى أقواله وهو رسول الله من إطلاق الجزء على الكل مجازاً لغوياً أيضاً ﴿وَاجْعَلْنِي مِنْ وَرَثَةِ جَنَّةِ النَّعِيمِ﴾ فى الآخرة وقد مر معنى الوراثة ﴿وَاغْفِرْ لِأَبِي إِنَّهُ كَانَ مِنَ الضَّالِّينَ﴾ بأن تتوب عليه فتغفر له ، وذلك وفاء لوعده : سأستغفر لك ربى قبل أن يتبين له أنه عدو لله كما تقدم فى سورة براءة ﴿وَلَا تُخْزِنِي﴾ لا تهنى ولا تذلنى من الخزى وهو الهوان والذل أو لا تفضحنى من الخزاية : الخجل والحياء ﴿يَوْمَ يُبْعَثُونَ﴾ بمعاتبة أو نقص رتبة والضمير للناس لأنهم معلومون أو للضالين ، ثم استطرد بأمور اليوم بتخلص أحسن فقال ﴿يَوْمَ لَا يَنْفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ﴾ أحداً ﴿إِلَّا مَنْ أَتَى اللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ﴾ من الكفر وجميع الرذائل قد أنفق ماله فى مرضاة الله وأرشد بنيه إلى الحق وحضهم على الخير وقصد بهم أن يكونوا مطيعين لله شفعاء له يوم القيامة فينفعان من هذا شأنه فى ذلك اليوم وقيل الاستثناء منقطع أى لكن من أتى الله بقلب سليم فإنه ينفعه ذلك . ﴿وَأُزْلِفَتِ﴾ قربت ﴿الْجَنَّةُ لِلْمُتَّقِينَ﴾ وهم فى عرصة القيامة بحيث يرونها تعجيلا لسرورهم ﴿وَبُرِّزَتِ الْجَحِيمُ﴾ أظهرت ﴿لِلْغَاوِينَ﴾ الكافرين والعاصين تعجيلا لحزنهم وتحسرهم وفى اختلاف الفعلين ترجيح جانب الوعد إذ لم يصف النار بالقرب حتى تؤذى المؤمنين بنتن ريحها لأنه يسرى مائة عام ﴿وَقِيلَ لَهُمْ أَيْنَ مَا كُنْتُمْ تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ﴾ فإن هذا وقت نفع العبادة : سؤال توبيخ عن شفاعة آلهتهم التى يزعمونها ﴿هَلْ يَنْصُرُونَكُمْ﴾ بدفع العذاب عنكم ﴿أَوْ يَنْتَصِرُونَ﴾ بدفعه عن أنفسهم استفهام إنكار تقريعاً لهم ﴿فَكُبْكِبُوا﴾ ألقى الآلهة ﴿فِيهَا﴾ معكوسين ﴿هُمْ وَالْغَاوُونَ﴾ عبدتهم والكب إلقاء الشىء معكوساً والكبكبة تكرير كب : جعل التكرير فى اللفظ دليلا على تكرير المعنى وتكثيره فإن من ألقى فيها انكب مرة بعد أخرى هكذا إلى أن يصل إلى قعرها فإنما طبقتها السفلى للمشركين ﴿وَجُنُودُ إِبْلِيسَ﴾ من اتبعه من الجن والإنس ﴿أَجْمَعُونَ﴾ تأكيد للجنود أو للضمير وما عطف عليه ﴿قَالُوا﴾ أى الغاوون ﴿وَهُمْ فِيهَا يَخْتَصِمُونَ﴾ مع معبوداتهم أو يخاصم الأتباع الرؤساء ﴿تَاللَّهِ إِنْ﴾ إن الشأن ﴿كُنَّا لَفِي ضَلَالٍ مُبِينٍ﴾ واضح بعبادة غير الله ﴿إِذْ﴾ حيث ﴿نُسَوِّيكُمْ﴾ أيها الآلهة أو الرؤساء فى الطاعة ﴿بِرَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ والخطاب للتحسر والندامة ﴿وَمَا أَضَلَّنَا﴾ عن الهدى ﴿إِلَّا الْمُجْرِمُونَ﴾ الكاملون فى الإجرام

وهم الشياطين أو أولونا الذين اقتدينا بهم ﴿ فَمَا لَنَا مِنْ شَافِعِينَ ﴾ كما للمؤمنين من الملائكة والأنبياء والعلماء والأتقياء والأصدقاء ﴿ وَلَا صَدِيقٍ حَمِيمٍ ﴾ رءوف ، من الاحتمام وهو كالاهتمام لفظاً ومعنى إلا أنه أبلغ منه أو من الحامة وهى خاصة الإنسان وجمع الشفيع دون الصديق لكثرة الشفعاء وقلة الأصدقاء كما قيل :

صَادُ الصَّدِيقِ وَكَافُ الْكِيمِيَاءِ مَعًا ﴿﴾ لَا يُوجَدَانِ فَدَعْ عَنْ نَفْسِكَ الطَّمَعَا

أو لأن الصديق الواحد يسعى أكثر مما يسعى الشفعاء أو لإطلاق الصديق على الجمع كالظهير ﴿ فَلَوْ أَنَّ لَنَا كَرَّةً ﴾ رجعة إلى الدنيا ولو للتمنى وضع موضع ليت لتلاقيهما فى معنى التقدير أو للشرط حذف جوابه ﴿ فَنَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ ﴾ جواب التمنى أو عطف على كرة أى لو أن لنا كرة وكوننا مؤمنين ﴿ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ ﴾ المذكور من قصة إبراهيم ﴿ لَآيَةً ﴾ يتفكر بها العاقل ويستبصر فإنها جاءت على أنظم ترتيب يتفطن المتأمل فيها أصول العلوم الدينية ودلائلها وحسن دعوة القوم وكمال الإشفاق عليهم بتصوير الأمر فى نفسه وإطلاق الوعد والوعيد على سبيل الحكاية تعريضاً ليكون أدعى لهم إلى الاستماع والقبول ﴿ وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ ﴾ أكثر قومه ﴿ مُؤْمِنِينَ ﴾ به ﴿ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ ﴾ الغالب القادر على تعجيل الانتقام ﴿ الرَّحِيمُ ﴾ بإرسال الرسل والإمهال للتوبة أو الرحيم للمؤمنين ﴿ كَذَّبَتْ قَوْمُ نُوحٍ ﴾ القوم من أسماء الجموع خاص بالرجال ولكن غلبوا هنا ، وتأنيث الفعل باعتبار معنى الجمعية ويقال فى تصغيره قويم بالتذكير خلافاً للبيضاوى فى قوله القوم مؤنثة ولذا تصغر على قويمة ﴿ الْمُرْسَلِينَ ﴾ بتكذيبهم له لاشتراك جميع الرسل فى التوحيد ﴿ إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ نُوحٌ أَلَا تَتَّقُونَ ﴾ الله ﴿ إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ ﴾ على تبليغ ما أرسلت به ﴿ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴾ فيما آمركم به من توحيد الله وطاعته ﴿ وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ ﴾ على تبليغه ﴿ مِنْ أَجْرٍ ﴾ حتى أتهم ﴿ إِنْ ﴾ ما ﴿ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّ الْعَالَمِينَ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴾ كرره تأكيداً وتنبيهاً على أن كل واحد من أمانته وترك الطمع يدل على وجوب طاعته فكيف إذا اجتمعا ﴿ قَالُوا أَنُؤْمِنُ لَكَ ﴾ لقولك ﴿ وَاتَّبَعَكَ ﴾ وقرأ يعقوب وأتباعك جمع تابع مبتدأ خبره ﴿ الْأَرْذَلُونَ ﴾ الأقلون جاهاً ومالا جمع الأرذل وهم الفقراء وهذا من سخافة عقولهم وقصورهم على الدنيا يعنون إنما اتبعوك لتوقع مال أو رفعة فلذلك ﴿ قَالَ وَمَا عِلْمِي ﴾ أى علم لى ﴿ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴾ لأجله حتى أقول إنما آمنوا لغرض دنيوى ؟ ما علىّ إلا اعتبار الظاهر والله يتولى السرائر كما قال ﴿ إِنْ ﴾ ما ﴿ حِسَابُهُمْ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّي ﴾ فهو المطلع على الضمائر فيجازيهم ﴿ لَوْ تَشْعُرُونَ ﴾ لعلمتم ذلك أو ما عبتموهم ، ولما كان قولهم « أنؤمن لك واتبعك الأرذلون » يستدعى طردهم فى وهمهم أجاب عنه بقوله ﴿ وَمَا أَنَا بِطَارِدِ الْمُؤْمِنِينَ ﴾ وإيثار المظهر موضع المضمر للإيماء إلى أن وصف الإيمان ينافى الطرد ﴿ إِنْ ﴾ ما ﴿ أَنَا إِلَّا نَذِيرٌ مُبِينٌ ﴾ بيّن الإنذار ماعلىّ من إيمانكم وعدمه ولا إيمانهم لله أو لغرض ﴿ قَالُوا لَئِنْ لَمْ تَنْتَهِ يَا نُوحُ ﴾ عما تقول لنا

﴿لَتَكُونَنَّ مِنَ الْمَرْجُومِينَ﴾ بالحجارة أو الكلام القبيح وهذا دأب الجاهل المحجوج ﴿قَالَ﴾ نوح ﴿رَبِّ إِنَّ قَوْمِي كَذَّبُونِ﴾ فيما أرسلتني به إظهار بما يدعو عليهم لأجله وهو تكذيب الحق لا تخويفهم له وأذاهم وفي إضافته إلى نفسه إعلام للشفقة عليهم ﴿فَافْتَحْ﴾ احكم ﴿بَيْنِي وَبَيْنَهُمْ فَتْحًا﴾ بإظهار الحق وإذهاب الباطل ﴿وَنَجِّنِي وَمَنْ مَعِيَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ من قصدهم أو شؤم عملهم ﴿فَأَنْجَيْنَاهُ وَمَنْ مَعَهُ فِي الْفُلْكِ الْمَشْحُونِ﴾ المملوء من الناس والحيوان والطير ﴿ثُمَّ أَغْرَقْنَا بَعْدُ﴾ أي بعد إنجائهم ﴿الْبَاقِينَ﴾ من قومه الكفار ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً﴾ أية آية شاعت وتواترت ولا قصة أشهر من الطوفان ﴿وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنِينَ﴾ بل أقلهم وهم ثمانون ﴿وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ ۝ كَذَّبَتْ عَادٌ الْمُرْسَلِينَ إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ﴾ في النسب لا في الدين ﴿هُودٌ أَلَا تَتَّقُونَ ۝ إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ ۝ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ ۝ وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّ الْعَالَمِينَ ۝ أَتَبْنُونَ بِكُلِّ رِيعٍ﴾ مكان مرتفع أو بكل طريق، ومنه قول المسيب يصف الظعن بالهوادج: في الآل يرفعها ويخفضها ۝ ريعٌ يلوح كأنه سحل

﴿آيَةً﴾ بناءً علماً للمارة ﴿تَعْبَثُونَ﴾ بمن يمر بكم أو قصوراً تفتخرون بها، قيل: كانوا يبنون أعلاماً طوالا على الطريق عبثا وافتخاراً بذلك لا لطلب الاهتداء ﴿وَتَتَّخِذُونَ مَصَانِعَ﴾ مبانى وقصوراً عالية أو مآخذ الماء من تحت الأرض ﴿لَعَلَّكُمْ تَخْلُدُونَ﴾ أي ترجون الخلود في الدنيا لا تموتون ﴿وَإِذَا بَطَشْتُمْ﴾ بضرب سوط أو قتل بسيف ﴿بَطَشْتُمْ جَبَّارِينَ﴾ متسلطين من غير رأفة ولا قصد أدب ولا نظر في العاقبة، والجبار من يقتل إذا غضب ﴿فَاتَّقُوا اللَّهَ﴾ بترك هذه الأشياء ﴿وَأَطِيعُونِ﴾ فيما آمركم به، وقد بالغ في التبليغ فأنكر عليهم عدم تقواهم بحسب الفطرة ومقتضى العقل وذكر أنه رسول الله صادق أمين وأمرهم بالتقوى صريحاً وبين أن فعله ليس لغرض دنيوي وذكر لهم ما هم فيه من القبائح وأمرهم ثانياً بتقوى الله وطاعته ثم أمرهم بالتقوى ثالثاً مرتباً له على إمداد الله إياهم بما يعرفونه من النعم تعليلا وتنبيهاً على الوعد عليه بدوام الإمداد والوعيد على تركه بالانقطاع بقوله ﴿وَاتَّقُوا الَّذِي أَمَدَّكُمْ﴾ أنعم عليكم ﴿بِمَا تَعْلَمُونَ﴾ ثم فصل بعض تلك النعم كما فصل بعض مساويهم بقوله ﴿أَمَدَّكُمْ بِأَنْعَامٍ وَبَنِينَ وَجَنَّاتٍ وَعُيُونٍ﴾ ثم أخبرهم أنهم إن لم يمتثلوا يلحقهم عذاباً لا يوصف بقوله ﴿إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ﴾ في الدنيا والآخرة لأنه كما قدر على الإنعام قادر على الانتقام. ولما كانوا ممن طبع على قلوبهم ﴿قَالُوا سَوَاءٌ عَلَيْنَا﴾ مستو عندنا ﴿أَوَعَظْتَ أَمْ لَمْ تَكُنْ مِنَ الْوَاعِظِينَ﴾ أصلا أي لا نرعوي لوعظك، غيّر الأسلوب في النفي لأنه أبلغ في قلة اعتدادهم بوعظه ﴿إِنْ هَٰذَا﴾ الذي نحن عليه من الدين أو الذي جئتنا به ﴿إِلَّا خُلُقُ الْأَوَّلِينَ﴾ بضم الخاء واللام لنافع وابن عامر وعاصم وحمزة أي عادتهم وبفتحها وسكون اللام للباقين أي كذبهم واختلاقهم ﴿وَمَا نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ﴾ على ما نحن عليه لا في الدنيا ولا في الآخرة ﴿فَكَذَّبُوهُ﴾ بالعذاب ﴿فَأَهْلَكْنَاهُمْ﴾ بسبب التكذيب بالريح الصرصر ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً﴾ وأية

آية بينة فى موضعها ﴿ وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنِينَ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ ۝ كَذَّبَتْ ثَمُودُ الْمُرْسَلِينَ ۝ إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ صَالِحٌ أَلَا تَتَّقُونَ ۝ إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ ۝ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ ۝ وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى رَبِّ الْعَالَمِينَ ۝ أَتُتْرَكُونَ فِي مَا هَاهُنَا ﴾ من الخير ﴿ آمِنِينَ ﴾ إنكار لبقائهم على ذلك الحال مع أوصافهم وتذكير للنعمة قبل فوات أوان الشكر ثم فسره بقوله ﴿ فِي جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ وَزُرُوعٍ وَنَخْلٍ ﴾ أفرد النخل لفضله على سائر أشجار الجنات أو لأن المراد بها غيرها من الأشجار أو أراد وصف طلعه بقوله ﴿ طَلْعُهَا ﴾ وهو ما يطلع منها على مثال نصل السيف ثم ينشق فيخرج منه ثمره وهو الجمار الذى جاء فى الحديث أن رسول الله صلى الله عليه وسلم أتى بجمار ، قاله فى غاية الأمانى ﴿ هَضِيمٌ ﴾ لطيف لين للطف اثمر أو لأن النخل أنثى وطلع إناثها ألطف أو متدلٍ منكسر من كثرة الحمل ﴿ وَتَنْحِتُونَ مِنَ الْجِبَالِ بُيُوتًا فَارِهِينَ ﴾ بالقصر صفة مشبهة لنافع وابن كثير وأبى عمرو أى بطرين من فره كفرح أشر وفارهين بالمد للباقين اسم فاعل من فره ككرم حذق أى أصحاب نشاط لأن الحاذق يعمل بنشاط وطيب قلب ﴿ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴾ كرره للتأكيد وليعطف عليه ﴿ وَلَا تُطِيعُوا أَمْرَ الْمُسْرِفِينَ ﴾ استعيرت الإطاعة للامتثال لما بينهما من الشبه وأطلقت على الأمر وهى للآمر لما بينهما من التلبس وهو مجاز مرسل وعلى الأول مجاز الاستعارة ﴿ الَّذِينَ يُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ ﴾ بالمعاصى مستمرون على الفساد وصف موضح لإسرافهم ﴿ وَلَا يُصْلِحُونَ ﴾ لا يوجد منهم إصلاح قط كسائر المفسدين الذين يخلطون الإفساد بالإصلاح ﴿ قَالُوا إِنَّمَا أَنْتَ مِنَ الْمُسَحَّرِينَ ﴾ الذين سحروا كثيراً حتى غلب على عقلهم ﴿ مَا أَنْتَ ﴾ أيضاً لو سلمنا عدم كونك مسحوراً ﴿ إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُنَا ﴾ تأكيد للبشرية وأنى لك رتبة الرسالة ﴿ فَأْتِ بِآيَةٍ ﴾ على دعواك ﴿ إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ ﴾ فى رسالتك ﴿ قَالَ هَذِهِ نَاقَةٌ ﴾ بعد ما أخرجها الله من الصخرة بدعائه كما اقترحوا : اختصر القصص لأن الغرض تسلية رسوله وهو قد علمها فى مواضع أخر فاكتفى بطرفها ﴿ لَهَا شِرْبٌ ﴾ نصيب من الماء كالسقى والقيت للحظ من القوت والسقى ﴿ وَلَكُمْ شِرْبُ يَوْمٍ مَعْلُومٍ ﴾ فاقتصروا على شربكم ولا تزاحموها فى شربها ﴿ وَلَا تَمَسُّوهَا بِسُوءٍ ﴾ كضرب وعقر ﴿ فَيَأْخُذَكُمْ عَذَابُ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴾ لعظم العذاب فيه مجاز حكمى حتى كأن شدة العذاب سرت إلى الوقت وهو أبلغ من تعظيم العذاب ﴿ فَعَقَرُوهَا ﴾ أى عقرها بعضهم برضى جميعهم إذ روى أنهم لم يعقروها حتى داروا على المخدرات فرضين كلهن بذلك ولذا أسند العقر إلى كلهم ﴿ فَأَصْبَحُوا نَادِمِينَ ﴾ على عقرها خوفاً من حلول العذاب لا توبة ندموا بعد فوات الوقت ﴿ فَأَخَذَهُمُ الْعَذَابُ ﴾ الموعود به وهو صيحة جبريل فهلكوا ﴿ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنِينَ * وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ * كَذَّبَتْ قَوْمُ لُوطٍ الْمُرْسَلِينَ * إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ لُوطٌ أَلَا تَتَّقُونَ * إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ * فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ * وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى رَبِّ الْعَالَمِينَ ۝ أَتَأْتُونَ الذُّكْرَانَ مِنَ الْعَالَمِينَ ﴾ الناس فالجار والمجرور حال من

الذكران . والمراد بالعالمين الناس لأن المأتى الذكران منهم خاصة فالجمع بالياء والنون على أصله أى أتأتونهم من أولاد بنى آدم مع كثرة الإناث فيهم كأنهن قد أعوزنكم أو متعلق بتأتون فالمأتى كل من يتأتى منه الإتيان من سائر الحيوانات والجمع بالواو والنون للتغليب وخروج غير الإنسان بالقرينة العقلية أو أتأتونهم من بين من عداكم من العالمين لا يشاركم فيه غيركم ﴿وَتَذَرُونَ مَا خَلَقَ لَكُمْ﴾ لاستمتاعكم ﴿رَبُّكُمْ مِنْ أَزْوَاجِكُمْ﴾ أى أقبالهن فمن لبيان « ما » إن أريد به جنس الإناث أو للتبعيض إن أريد به العضو المباح منهن فيكون تعريضا بأنهم كانوا يفعلون مثل ذلك بنسائهم أيضا ﴿بَلْ أَنْتُمْ قَوْمٌ عَادُونَ﴾ عن حد الشهوة على سائر الناس بل وعلى الحيوانات أو مفرطون فى المعاصى ﴿قَالُوا لَئِنْ لَمْ تَنْتَهِ يَا لُوطُ﴾ عما تدعيه وعن إنكارك علينا وتقبيح أمرنا ﴿لَتَكُونَنَّ مِنَ الْمُخْرَجِينَ﴾ من بلدتنا على عنف وسوء حال : هددوه به لأن الإخراج من الوطن من أشد العذاب ﴿قَالَ إِنِّي لِعَمَلِكُمْ مِنَ الْقَالِينَ﴾ المبغضين غاية البغض لا أتوقف عن الإنكار عليه بالإيعاد بالخروج وهذا أبلغ من أن يقول إنى لعملكم قال لدلالته على أنه داخل فى زمرتهم مشهور فيهم وفيه شبه جناس الاشتقاق ﴿رَبِّ نَجِّنِي وَأَهْلِي مِمَّا يَعْمَلُونَ﴾ أى من شؤمه وعذابه ﴿فَنَجَّيْنَاهُ وَأَهْلَهُ أَجْمَعِينَ إِلَّا عَجُوزًا﴾ امرأته مستثناة من الأهل ﴿فِي الْغَابِرِينَ﴾ أى مقدرة فى الباقين فى العذاب لأنها كانت مائلة إلى القوم راضية بفعلهم ﴿ثُمَّ دَمَّرْنَا الْآخَرِينَ﴾ أهلكناهم ﴿وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِمْ مَطَرًا﴾ حجارة من جملة الإهلاك الذى هو قلب القرى لشدة الغضب أو على شذاذهم ﴿فَسَاءَ مَطَرُ الْمُنْذَرِينَ﴾ مطرهم واللام للجنس ليصح وقوع ما أضيف إليه فاعل ساء والمخصوص محذوف كما قدرنا ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنِينَ ۝ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ ۝ كَذَّبَ أَصْحَابُ الْأَيْكَةِ﴾ بحذف الهمزة وإلقاء حركتها على اللام وفتح الهاء لنافع وابن كثير وابن عامر اسم قرية وبإثباتها وسكون اللام وكسر الهاء للباقين غيضة شجر ملتف قرب مدين تسكنها طائفة من أهل مدين حين ضاقت بهم البلد لكونهم أرباب أموال وبنوا بين تلك الأشجار وهى شجر الدوم ﴿الْمُرْسَلِينَ إِذْ قَالَ لَهُمْ شُعَيْبٌ﴾ لم يقل أخوهم لكثرة ذكره فى القصص فحذف هنا إشارة إلى أن القصص قد تمت وقد رمز إلى ذلك بحذف التاء أيضاً فى كذّب وهو من غوامض أسرار القرآن واختصاراته وأما من يقول لأنه ليس منهم فذلك وهم لحديث «إنما كان يبعث كل نبي إلى قومه وبعثت إلى الأحمر والأسود» نبه على هذا حذاق أهل التفسير ﴿أَلَا تَتَّقُونَ ۝ إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ * فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ * وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّ الْعَالَمِينَ * أَوْفُوا الْكَيْلَ﴾ أتموه إذا كلتم للناس ﴿وَلَا تَكُونُوا مِنَ الْمُخْسِرِينَ﴾ الناقصين حقوق الناس بالتطفيف . ﴿وَزِنُوا بِالْقِسْطَاسِ﴾ الميزان ﴿الْمُسْتَقِيمِ﴾ السوى قرأ حمزة والكسائى وحفص بكسر قاف القسطاس ﴿وَلَا تَبْخَسُوا النَّاسَ أَشْيَاءَهُمْ﴾ لا تنقصوهم شيئاً من حقوقهم غصبا وسرقة وغير ذلك ﴿وَلَا تَعْثَوْا فِي الْأَرْضِ﴾ لا تفسدوا فيها بالقتل والغارة ﴿مُفْسِدِينَ﴾ حال مؤكدة ﴿وَاتَّقُوا الَّذِي خَلَقَكُمْ وَالْجِبِلَّةَ﴾

الخليقة ﴿ الْأَوَّلِينَ ﴾ المتقدمين من الأمم . وهو مصدر بمعنى المفعول من جبله الله خلقه . ذكره توكيدا لاستحقاقه للتقوى لأنه خلق أصولهم الآباء وسيميتهم كما أماتهم ﴿ قَالُوا إِنَّمَا أَنْتَ مِنَ الْمُسَحَّرِينَ . وَمَا أَنْتَ إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُنَا ﴾ أدخل الواو بين الوصفين للدلالة على منافاة كل منهما الرسالة استقلالا بخلاف قصة ثمود مع صالح فتكذيب قوم شعيب أبلغ وأقوى من أولئك ﴿ وَإِنْ ﴾ أى إنه ﴿ نَظُنُّكَ لَمِنَ الْكَاذِبِينَ ﴾ فى دعواك ﴿ فَأَسْقِطْ عَلَيْنَا كِسَفًا ﴾ بسكون السين للجمهور وفتحها لحفص : قطعة ﴿ مِنَ السَّمَاءِ إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ ﴾ هذا غاية إنكار منهم كقول قريش فأمطر علينا حجارة من السماء وجواب لما أشعر به الأمر بالتقوى من التهديد ﴿ قَالَ رَبِّي أَعْلَمُ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴾ وبعذابه المنزل عليكم مما أوجبه لكم عليه فى وقته المقدر له لا محالة ﴿ فَكَذَّبُوهُ فَأَخَذَهُمْ عَذَابُ يَوْمِ الظُّلَّةِ ﴾ هى سحابة أظلتهم بعد حر شديد أصابهم سبعة أيام فاجتمعوا تحتها فأمطرت عليهم نارا فاحترقوا ﴿ إِنَّهُ كَانَ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ * إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنِينَ * وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ ﴾ هذا آخر القصص السبع المذكورة على سبيل الاختصار تسلية لرسول الله صلى الله عليه وسلم ، وتهديداً للمكذبين به وتكرير ما كرر فيها لإزاحة الأعذار بإشاعة الإخبار للوعظ والإنذار للصم البكم والعمى الذين لا يعقلون ﴿ وَإِنَّهُ لَتَنْزِيلُ رَبِّ الْعَالَمِينَ * نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الْأَمِينُ ﴾ جبريل ﴿ عَلَىٰ قَلْبِكَ ﴾ وهذا تقرير للقصص الماضية وتنبيه على إعجاز القرآن الموضح لنبوة محمد صلى الله عليه وسلم فإن الإخبار عنها ممن لا يعلمها لا يكون إلا وحياً من الله وتخصيص القلب لأنه وعاء العلوم ومدرك المعقولات قرأ نافع وابن كثير وأبو عمرو وحفص نزل مخففاً والباقون مشدداً مسنداً إلى ضمير الله والروح الأمين منصوباً ﴿ لِتَكُونَ مِنَ الْمُنْذِرِينَ ﴾ داخلا فى زمرتهم ﴿ بِلِسَانٍ ﴾ متعلق بنزل أو بالمنذرين ﴿ عَرَبِيٍّ مُبِينٍ ﴾ واضح لئلا يقولوا أعجمى وعربى ﴿ وَإِنَّهُ ﴾ أى ذكر القرآن أو معناه ﴿ لَفِي زُبُرِ ﴾ كتب ﴿ الْأَوَّلِينَ ﴾ كالتوراة والإنجيل ﴿ أَوَلَمْ يَكُنْ لَهُمْ آيَةً ﴾ أى لكفار مكة على صحة القرآن ، ونبوة محمد ﴿ أَنْ يَعْلَمَهُ عُلَمَاءُ بَنِي إِسْرَائِيلَ ﴾ بنعته فى كتبهم كعبد الله بن سلام وأصحابه ممن آمنوا فإنهم يخبرون بذلك بعد إيمانهم إن كانت الآية مدنية وقبل إيمانهم يخبرون قريشاً بنعته إن كانت مكية ويكن بالتحتانية للجمهور ونصب آية وبالفوقانية ورفع آية لابن عامر ﴿ وَلَوْ نَزَّلْنَاهُ ﴾ أى القرآن ﴿ عَلَىٰ بَعْضِ الْأَعْجَمِينَ ﴾ جمع أعجمى بياء النسب فحذفت تخفيفاً ولذا جمع جمع السلامة لا جمع أعجم إذ لا يجمع جمع السلامة قاله بعض المعربين ، وقال فى غاية الأمانى والحق أن اللفظ منقول فلا مانع . اهـ . وفى مدارك التنزيل والأعجم والأعجمى من كان فى لسانه عجمة وإن كان من العرب والعجمى المنسوب إلى العجم وإن كان فصيحا والأعجمى منسوب إلى صفته أى العجمة كالأحمرى للأحمر ﴿ فَقَرَأَهُ عَلَيْهِمْ مَا كَانُوا بِهِ مُؤْمِنِينَ ﴾ أنفة من اتباعه مع عدم فهم ما يقول ﴿ كَذَٰلِكَ ﴾ أى مثل إدخالنا التكذيب به بقراءة الأعجم ﴿ سَلَكْنَاهُ ﴾ أى أدخلنا التكذيب الذى دل عليه ما كانوا به مؤمنين ﴿ فِي قُلُوبِ الْمُجْرِمِينَ ﴾

كفار مكة بقراءة النبي العربي الأفصح ﴿لَا يُؤْمِنُونَ بِهِ﴾ بالقرآن ويحتمل أن الضمير في سلكناه للقرآن أي أدخلناه في قلوبهم فعرفوا معانيه وإعجازه. ومع ذلك لا يؤمنون به عناداً ﴿حَتَّى يَرَوُا الْعَذَابَ الْأَلِيمَ﴾ حين لا ينفع الإيمان ﴿فَيَأْتِيَهُمْ بَغْتَةً﴾ في الدنيا أو في الآخرة ﴿وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾ بإتيانه ﴿فَيَقُولُوا﴾ تأسفا ﴿هَلْ نَحْنُ مُنْظَرُونَ﴾ طرفة عين فنؤمن؟ فيقال لهم لا، والفاء للترتيب الرتبي فإن مفاجأة العذاب أشد من رؤيته ﴿أَفَبِعَذَابِنَا يَسْتَعْجِلُونَ﴾ رد لقولهم «أمطر علينا حجارة من السماء أو ائتنا بعذاب أليم» والهمزة للإنكار والفاء لترتيبه على الكلام السابق أي كيف يستعجل بمثل هذا العذاب عاقل؟ ﴿أَفَرَأَيْتَ﴾ مرتب على الاستهزاء والاستعجال تعجيباً من حالهم متعلق بمنظرون أي أخبرني ﴿إِنْ مَتَّعْنَاهُمْ سِنِينَ * ثُمَّ جَاءَهُمْ مَا كَانُوا يُوعَدُونَ﴾ من العذاب ﴿مَا﴾ استفهامية بمعنى أي شيء ﴿أَغْنَى عَنْهُمْ مَا كَانُوا يُمَتَّعُونَ﴾ في دفع العذاب أو تخفيفه أي لم يغن ﴿وَمَا أَهْلَكْنَا مِنْ قَرْيَةٍ إِلَّا لَهَا مُنْذِرُونَ﴾ من الأنبياء والرسل ﴿ذِكْرَى﴾ عظة لهم وهو منصوب على المصدر بمعنى تذكرة لأن ذكر وأنذر متقاربان أو مفعول له أي لأجل الوعظ أو حال من ضمير «منذرون» أي ذوي تذكرة أو مرفوع خبر محذوف أي هذه ذكرى والجملة اعتراضية أو صفة لمنذرون بتقدير مضاف أو بجعلهم نفس الذكرى مبالغة أو متعلق بمقدر، والمعنى ما أهلكنا من قرية إلا بعد إلزام الحجة ليكون إهلاكهم تذكرة وعبرة لمن يفعل مثل فعلهم. قال في غاية الأماني: وهذا أليق بالمقام لدلالته على وعيد المستهزئين وأنهم أحقاء أن يجعلوا عبرة لمن بعدهم ﴿وَمَا كُنَّا ظَالِمِينَ﴾ إذ لم نهلك غير الظالمين ﴿وَمَا تَنَزَّلَتْ بِهِ﴾ بالقرآن ﴿الشَّيَاطِينُ﴾ كما يزعم الكفار أنه من إلقائها إلى الكهان ﴿وَمَا يَنْبَغِي لَهُمْ﴾ لا يصلح لهم إنزاله لسفالة محلهم ﴿وَمَا يَسْتَطِيعُونَ﴾ لا يقدرون على ذلك ﴿إِنَّهُمْ عَنِ السَّمْعِ﴾ لكلام الملائكة ﴿لَمَعْزُولُونَ﴾ محجوبون بالشهب والقرآن مشتمل على حقائق ومغيبات لا يمكن تلقيها إلا من الملائكة ﴿فَلَا تَدْعُ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ﴾ الخطاب للنبي والمراد غيره ﴿فَتَكُونَ مِنَ الْمُعَذَّبِينَ﴾ إن فعلت ذلك وفيه تهييج لزيادة الإخلاص ﴿وَأَنْذِرْ عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ﴾ وهم بنو هاشم وبنو المطلب الأقرب منهم فالأقرب فإن الاهتمام بشأنهم أهم وقد أنذرهم جهاراً، رواه البخاري ومسلم ﴿وَاخْفِضْ جَنَاحَكَ﴾ أي ألن جانبك ﴿لِمَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ مستعار من خفض الطائر جناحه إذا أراد أن ينحط و «من» بيانية أو تبعيضية ﴿فَإِنْ عَصَوْكَ﴾ أي عشيرتك والمؤمنون ﴿فَقُلْ إِنِّي بَرِيءٌ مِمَّا تَعْمَلُونَ﴾ من عملكم لم يقل منكم إشارة إلى أن المجانبة عارضة ﴿فَتَوَكَّلْ﴾ بالفاء لنافع وابن عامر عطفاً على جزاء الشرط وبالواو للباقين أي فوّض جميع أمرك ﴿عَلَى الْعَزِيزِ الرَّحِيمِ﴾ الغالب لأعدائه الناصر لأوليائه وأتى بالوصفين لأنهما تؤنسان المتوكل ﴿الَّذِي يَرَاكَ حِينَ تَقُومُ﴾ إلى الصلاة في التهجد ﴿وَتَقَلُّبَكَ﴾ في أركان الصلاة قائما وقاعداً وراكعاً وساجداً ﴿فِي السَّاجِدِينَ﴾ المصلين أو تردادك في تصفح أحوال المتهجدين. كما روي أنه عليه السلام لما نسخ فرض قيام الليل طاف تلك الليلة على بيوت أصحابه

لينظر ما يصنعون حرصاً على كثرة طاعتهم فوجدها كبيوت الزنابير لهم دندنة [1] بذكر الله والتلاوة وهم بين مصل وتال وذاكر ، والموصول وما بعده علة لاستحقاقه قهر أعدائه ونصر أوليائه وفيه أنه ينبغى للإمام أن يتفقد أصحابه فى أمور الدين أشد من أمور الدنيا وأن لزوم الطاعة هو سبب الفتح والنصر على الأعداء ﴿إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ﴾ لأقوالك ﴿الْعَلِيمُ﴾ بما تنويه . ولما بيّن أن القرآن لا ينبغى أن تنزله الشياطين أكد ذلك بأن بيّن أن محمداً عليه السلام لا يصلح نزول الشياطين عليه لوجهين : الأول أنها لا تنزل إلا على شرير كذاب كما قال ﴿هَلْ أُنَبِّئُكُمْ عَلَى مَنْ تَنَزَّلُ الشَّيَاطِينُ﴾ بحذف إحدى التاءين وكذا فى ﴿تَنَزَّلُ عَلَى كُلِّ أَفَّاكٍ أَثِيمٍ﴾ كثير الكذب والعصيان كالكهنة والمتنبئه مثل شق وسطيح ومسيلمة وطليحة ، وأما النبى المعصوم فلا مناسبة بينه وبين الشياطين ، والثانى إلقاء الكذابين أو الشياطين السمع إليهم كما قال ﴿يُلْقُونَ السَّمْعَ﴾ أى الشياطين فيتلقون منهم ظنوناً يضمون إليها أكاذيب أو يلقون ماسمعوه من الشياطين إلى الناس أو فاعل يلقون الشياطين بمعنى يستمعون إلى الملائكة أو يلقون المسموع إلى أوليائهم ومحل « يلقون » نصب على الحال أو جر صفة « أفاك » أو استئناف كأنه قيل : لم تنزل الشياطين على كل أفاك ؟ فقيل : يلقون السمع ﴿وَأَكْثَرُهُمْ كَاذِبُونَ﴾ فيما يخبرون لا يطابق إذ يضم إلى ماسمع أكثر من مائة كذبة فقيد الأكثرية إن كان فى الشياطين لإخراج من يصدق فى الكلمة المخطوفة أو قبل حجبها وإن كان فى الأفاك فالأكثرية باعتبار أقوالهم ، ومحمد صلى الله عليه وسلم أخبر عن مغيبات لا تحصى وقد طابق كلها ، ثم أبطل كونه شاعراً بقوله ﴿وَالشُّعَرَاءُ يَتَّبِعُهُمُ الْغَاوُونَ﴾ الضالون وأتباع محمد علماء صديقون فكيف يكون شاعراً كما تزعمون ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّهُمْ فِي كُلِّ وَادٍ﴾ من أودية الكلام وفنونه ﴿يَهِيمُونَ﴾ يمضون ويخلطون الباطل فيجاوزون الحد مدحاً وهجاء لأن أكثر مقدماتهم خيالات لا حقيقة لها وأغلب كلماتهم فى التشبيب بالحرام وتمزيق الأعراض والقدح فى الأنساب والوعد الكاذب والافتخار الباطل ومدح من لا يستحقه والإطراء فيه وإليه أشار بقوله ﴿وَأَنَّهُمْ يَقُولُونَ﴾ فعلنا ﴿مَا لَا يَفْعَلُونَ﴾ فكأنه لما كان إعجاز القرآن من جهة المعنى واللفظ وقدحوا فى المعنى بأنه مما تنزلت به الشياطين وفى اللفظ بأنه شعر ، تكلم فى القسمين وبيّن منافاة القرآن لهما ومضادة حال الرسول لحال أربابهما بما تقدم . وقد سمع سليمان بن عبد الملك قول الفرزدق يذكر الخمر :

فَبِتْنَ بِجَانِبَيَّ مُصَرَّعَاتٍ ... وَبِتُّ أَفُضُّ أَغْلَاقَ الْخِتَامِ

قال يا فرزدق وجب عليك الحد فقال يا أمير المؤمنين قد رد الله عنى بقوله «وأنهم يقولون ما لا يفعلون» فتركه ﴿إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ﴾ من الشعراء كحسان وعبد الله بن رواحة وكعب بن مالك الأنصاريين وكعب بن زهير المهاجرى ﴿وَذَكَرُوا اللَّهَ كَثِيرًا﴾ ذكراً يغمر ما وقع فى أشعارهم من الغلو على دأب الشعراء مع أن أكثر أشعارهم فى التوحيد والثناء على الله والحث على طاعته ومدح الرسول ومن

(١) الدندنة : صوت الذباب والزنابير وهينمة الكلام . اهـ قاموس .

معه ، ولو قالوا هجواً أرادوا به الانتصار على من هجاهم كما قال تعالى ﴿ وَانْتَصَرُوا مِنْ بَعْدِ مَا ظُلِمُوا ﴾ بهجو الكفار لهم فى جماة المؤمنين فهؤلاء ليسوا مذمومين . روى البخارى ومسلم والترمذى عن عائشة أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : إن الله يؤيد حسان بروح القدس ما نافح عن رسول الله ﴿ وَسَيَعْلَمُ الَّذِينَ ظَلَمُوا ﴾ أتى بظلم من الشعراء وغيرهم ﴿ أَيَّ مُنْقَلَبٍ ﴾ مرجع ﴿ يَنْقَلِبُونَ ﴾ يرجعون بعد الموت وفيه غاية الوعيد فى « سيعلم » وإطلاق الظلم للتعميم وفى الإبهام والتهويل فى « أى منقلب » وقد تلاها أبو بكر لعمر رضى الله عنهما حين عهد إليه بعد يأسه من الحياة فقال لعثمان بن عفان : اكتب هذا ما عهد ابن أبى قحافة إلى المؤمنين فى الحال التى يؤمن فيها الكافر : أنى أستخلف عليكم عمر بن الخطاب فإن عدل فذاك ظنى به والخير أردت للمسلمين وإن لم يعدل فسيعلم الذين ظلموا أى منقلب ينقلبون .

[تم تفسير سورة الشعراء]

سورة النمل

مكية — وهي ثلاث أو أربع أو خمس وتسعون آية

﴿ بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ ه طس ﴾ الله أعلم بمراده بذلك ﴿ تِلْكَ ﴾ أى هذه الآيات الآتية فى هذه السورة ﴿ آيَاتُ الْقُرْآنِ ﴾ آيات منه ﴿ وَكِتَابٍ مُبِينٍ ﴾ لكل ما هو كائن وهو اللوح أو هو القرآن المبين لما فيه من الحكم والأحكام عطف بزيادة صفة وعلى أنه اللوح ، أخر هنا باعتبار تعلق علمنا به وقدم فى الحجر باعتبار الوجود ﴿ هُدًى ﴾ أى هادية من الضلال ﴿ وَبُشْرَىٰ لِلْمُؤْمِنِينَ ﴾ به بالجنة وهما حالان من « الآيات » والعامل فيهما معنى الإشارة أو بدلان منها أو خبران آخران أو خبران لمحذوف ﴿ الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلَاةَ ﴾ يأتون بها على وجهها ﴿ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ ﴾ أى الذين يعملون الصالحات كلها فاكتفى بأمهات الأعمال البدنية والمالية ﴿ وَهُمْ بِالْآخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ ﴾ يعلمونها بالاستدلال وهو تأكيد لما وصفوا به لأن إيقان الآخرة يستلزم الخوف المستلزم لتحمل مشاق التكليف ولذا كرر فيها الضمير كأنه قيل بالآخرة موقنون لا بغيرها وهم الموقنون لا غيرهم أو هو من تتمة الصلة ، وغيّر النظم للدلالة

على كمال يقينهم والواو عاطفة لاحالية ، قاله فى غاية الأمانى : لأن مابعدها يعنى يكون حينئذ فضلة بلا فائدة ، ثم أتبع ما للمؤمنين من البشرى ما للكافرين من سوء العذاب فقال ﴿ إِنَّ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ زَيَّنَّا لَهُمْ أَعْمَالَهُمْ ﴾ القبيحة بتركيب الشهوة حتى رأوها حسنة ﴿ فَهُمْ يَعْمَهُونَ ﴾ يتحيرون فيها لا يدركون ما فيها من الضر ﴿ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ لَهُمْ سُوءُ الْعَذَابِ ﴾ أى أشده فى الدنيا القتل والأسر وضرب الجزية ﴿ وَهُمْ فِي الْآخِرَةِ هُمُ الْأَخْسَرُونَ ﴾ أشد الناس خسراناً لفوات الثواب ودوام العقاب ﴿ وَإِنَّكَ ﴾ خطاب للنبى صلى الله عليه وسلم ﴿ لَتُلَقَّى الْقُرْآنَ ﴾ تؤتاه ويلقى عليك بشدة ﴿ مِنْ لَدُنْ حَكِيمٍ عَلِيمٍ ﴾ أى حكيم وأى عليم ، وذكر عليم بعد حكيم تعميم بعد تخصيص لأن العلم داخل فى الحكمة لعموم العلم ودلالة الحكمة على إتقان الفعل إشارة إلى اشتمال القرآن على الحكم كالعقائد والشرائع وعلى العلوم كالقصص وأخبار المغيبات كما أشار إليها بقوله ﴿ إِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِأَهْلِهِ ﴾ نصب باذكر أو متعلق بعليم ﴿ إِنِّي آنَسْتُ ﴾ أبصرت من بعيد ﴿ نَارًا سَآتِيكُمْ مِنْهَا بِخَبَرٍ ﴾ عن حال الطريق وكان ضلها والجمع باعتبار لفظ الأهل والسين للدلالة على بعد المسافة أو الوعد بالإتيان وإن أبطأ ﴿ أَوْ آتِيكُمْ بِشِهَابٍ قَبَسٍ ﴾ بالإضافة للجمهور للبيان لأنه يكون قبساً وغيره وبتركها للكوفيين على أن القبس بدلا منه أو وصف له لأنه بمعنى المقبوس أى شعلة نار فى رأس فتيلة أو عود ﴿ لَعَلَّكُمْ تَصْطَلُونَ ﴾ تستدفئون من البرد من صَلِى بالنار بكسر اللام وفتحها والطاء بدل من تاء الافتعال قاله فى المكمل لكن فى القاموس صلى النار كرضى وبها قاسى حرها وأصلاه النار وصلاه إياها وفيها وعليها أدخله إياها وشواه فيها . اه . ويحتمل أنه من صليت اللحم شويته والصلا النار العظيمة ﴿ فَلَمَّا جَاءَهَا ﴾ أى المكان القريب منها ﴿ نُودِيَ أَنْ ﴾ أى بأن ﴿ بُورِكَ ﴾ أى بارك الله ﴿ مَنْ فِي النَّارِ ﴾ أى فى مكان فيه النار وهم موسى والملائكة الحاضرون ﴿ وَمَنْ حَوْلَهَا ﴾ أى من سكن حولها فى الأرض المقدسة ، والظاهر أنه عام فى جميع الشام إذ جميع أرضه موسوم بالبركات لكونه مبعث الأنبياء وكفاتهم أحياء وأمواتاً وخصوصاً تلك البقعة التى كلم الله فيها موسى ، وفى الحديث : « الشام كنز الله فى أرضه » وتصدير الخطاب بذلك بشارة بأن موسى قد قضى له أمر عظيم ينتشر بركته فى أقطار الشام ﴿ وَسُبْحَانَ اللَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴾ من تمام النداء تعجيب للأمر ونفى تشبيه يتوهم من سماع الكلام بالصوت والحروف أى تنزيه الله عما لا يليق به وإيذان بأن كل الأمور أثر رب العالمين ﴿ يَا مُوسَىٰ إِنَّهُ أَنَا اللَّهُ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴾ وضمير إنه للشأن وأنا الله جملة مفسرة له أو للمتكلم وأنا خبره والله بيان له وما بعده صفتان ممهدتان لما أراد أن يظهره فى قوله ﴿ وَأَلْقِ عَصَاكَ ﴾ عطف على بورك وأظهر حرف التفسير فى القصص وحذفه هنا والكل سائغ تقول كتبت إليه أن حج وأن اعتمر ، وإن شئت قلت أن حج واعتمر - فألقاها فصارت حية ﴿ فَلَمَّا رَآهَا تَهْتَزُّ ﴾ تتحرك ﴿ كَأَنَّهَا جَانٌّ ﴾ حية سريعة ﴿ وَلَّىٰ مُدْبِرًا ﴾ هاربا ﴿ وَلَمْ يُعَقِّبْ ﴾ لم يكر قال تعالى له ﴿ يَا مُوسَىٰ لَا تَخَفْ ﴾ من غيرى ﴿ إِنِّي لَا يَخَافُ لَدَيَّ

الْمُرْسَلُونَ ﴾ من حية أو غيرها من فرط الاستغراق فى خوفى ولأنهم مكرمون مقربون وأنت منهم ﴿ إِلَّا مَنْ ظَلَمَ ﴾ نفسه منهم بترك الأولى فإنه خائف أولا ﴿ ثُمَّ بَدَّلَ حُسْنًا بَعْدَ سُوءٍ ﴾ تدارك ما فرط منه بالإنابة وفيه تعريض لطيف لموسى فى قتل القبطى من غير إذن وإن كان كافرا حربيا وقيل الاستثناء منقطع أى لكن من ظلم نفسه ثم بدل حسناً أى أتاه بعد سوء تاب منه ﴿ فَإِنِّي غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴾ أقبل توبته وأغفر له ﴿ وَأَدْخِلْ يَدَكَ فِي جَيْبِكَ ﴾ طوق القميص أو القميص نفسه لأنه من لوازمه لأنه يجاب أى يقطع ﴿ تَخْرُجْ ﴾ خلاف لونها من الأدمة ﴿ بَيْضَاءَ مِنْ غَيْرِ سُوءٍ ﴾ آفة كبرص لها شعاع يغشى البصر آية ﴿ فِي تِسْعِ آيَاتٍ ﴾ تقدمت فى سورة الإسراء مرسلا بها ﴿ إِلَى فِرْعَوْنَ وَقَوْمِهِ إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمًا فَاسِقِينَ ﴾ تعليل للإرسال ﴿ فَلَمَّا جَاءَتْهُمْ آيَاتُنَا مُبْصِرَةً ﴾ أى مضيئة واضحة بمعنى تجعلهم بصراء وصفت بوصفهم على المجاز الحكمى إطلاقا لاسم الفاعل على اسم المفعول أو جعلت كأنها تبصرهم أى تهديهم لأن الأعمى لا اهتداء له فضلا عن الهداية على الاستعارة المكنية ﴿ قَالُوا هَٰذَا سِحْرٌ مُبِينٌ ﴾ ظاهر لا اشتباه فيه ﴿ وَجَحَدُوا بِهَا ﴾ أنكروها مع العلم ضمن معنى التكذيب فعدى بالباء ﴿ وَ ﴾ قد ﴿ اسْتَيْقَنَتْهَا أَنْفُسُهُمْ ﴾ تيقنوا أنها من عند الله . الواو للحال والاستيقان أبلغ من الإيقان ﴿ ظُلْمًا ﴾ لأنفسهم ﴿ وَعُلُوًّا ﴾ تكبرا عن الإيمان منصوبان على العلة من جحدوا ﴿ فَانْظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُفْسِدِينَ ﴾ التى علمتها من الإغراق فى الدنيا والإحراق فى الآخرة والإتيان بالظاهر لبيان العلة ﴿ وَلَقَدْ آتَيْنَا دَاوُودَ وَسُلَيْمَانَ ﴾ ابنه ﴿ عِلْمًا ﴾ أى طائفة من العلم . وهى علم الشرائع . ومنطق الطير . أو علماً أى علم وإنما أردف قصتهما قصة موسى لأن موسى ابتلى فصبر وأنعما فشكرا ليقتدى بموسى وبهما فى السراء والضراء ﴿ وَقَالَا ﴾ شكراً لله ﴿ الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي فَضَّلَنَا ﴾ بالنبوة وتسخير الجن والشياطين ﴿ عَلَىٰ كَثِيرٍ مِنْ عِبَادِهِ الْمُؤْمِنِينَ ﴾ وعطف قالا بالواو إشعارا بأن ماقالاه بعض ما أتياه فى الشكر كأنه قال فعملا بذلك العلم قلباً وجوارح وقالا ففيه استيعاب لأنواع الشكر على ألطف وجه وقيد بالكثير لأن قليلا فضل عليهما وهم خواص الأنبياء وفى الآية دلالة على فضل العلم وأهله وأن ملك الدنيا بأسره على أكمل الوجوه كما كان لداود وسليمان دون العلم وأن من أوتى علماً ينبغى أن يتواضع ويعلم أنه وإن فضل على بعض فقد فضل عليه البعض ﴿ وَوَرِثَ سُلَيْمَانُ دَاوُودَ ﴾ النبوة والعلم وسياسة الناس به أى قام مقامه فى ذلك دون سائر بنيه وكانوا تسعة عشر لأن الأنبياء لا يورثون مالا ﴿ وَقَالَ يَا أَيُّهَا النَّاسُ ﴾ ناداهم إظهارا لنعمة الله ودعاء لهم إلى تصديق المعجزة التى هى ﴿ عُلِّمْنَا مَنْطِقَ الطَّيْرِ ﴾ أى فهم أصواته كما تفهمون كلام الناس من غير سبق وضع وتعلم بل بإعلام الله تعالى كما وقع لرسول الله صلى الله عليه وسلم من كلام الضب والظبى والبعير والحجر ﴿ وَأُوتِينَا ﴾ والضمير له ولأبيه أو له فقط على عادة الملوك فى حال السياسة ﴿ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ ﴾ يؤتاه الأنبياء والملوك وهو كناية عن الكثرة كما تقول فلان يعلم كل شىء ﴿ إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ الْفَضْلُ الْمُبِينُ ﴾ الذى لا يخفى على أحد وقد أعطى

سليمان ما أعطى داود من النبوة والعلم والملك . وزيد له تسخير الريح والشياطين فكان ملكه أعظم لكن داود أشد تعبداً وسليمان أشد شكراً لنعم الله . وقد ملك مشارق الأرض ومغاربها سبعمائة سنة أو أقل ملك جميع أهل الدنيا من الجن والإنس والدواب والطير والسباع وأعطى على ذلك منطق كل شيء . وفى زمانه صنعت الصنائع العجيبة وكان مجاهداً وبنى بيت المقدس فعزم على الخروج وأرسل إلى الجنود ﴿ وَحُشِرَ لِسُلَيْمَانَ جُنُودُهُ ﴾ من كل أوب ﴿ مِنَ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ وَالطَّيْرِ ﴾ وبدأ بالجن لأن تسخيره أعجب فسار بهم ﴿ فَهُمْ يُوزَعُونَ ﴾ يكفون ويحبس أولهم على آخرهم ليتلاحقوا وفيه أنهم مع كثرتهم كانوا مسوسين مضبوطين لا يتأذى أحد منهم أو بهم وكان معسكره مائة فرسخ فى مائة فرسخ . خمسة وعشرون للجن ومثله للإنس ومثله للطير ومثله للوحش لا يتكلم أحد بشيء إلا ألقى الريح ذلك إلى مسامعه ﴿ حَتَّى إِذَا أَتَوْا عَلَى وَادِ النَّمْلِ ﴾ بالطائف أو بالشام نمل صغار وكبار أمثال الذباب ، والمشهور الأول وهى من ذوات الجناح وتعدية أتى بعلى إما لأن دخولهم كان من الجانب الأعلى وإما لأنهم قطعوا الوادى من قولهم أتى على الشيء بلغ نهايته كأنهم أرادوا أن ينزلوا فى أخريات الوادى ﴿ قَالَتْ نَمْلَةٌ ﴾ اسمها فاخته أو غير ذلك وهى ملكتها وقد رأت جند سليمان متوجهين إلى الوادى ﴿ يَا أَيُّهَا النَّمْلُ ادْخُلُوا مَسَاكِنَكُمْ ﴾ ولم يقل ادخلن لتنزيلهن منزلة العقلاء بالنداء ﴿ لَا يَحْطِمَنَّكُمْ ﴾ يكسرنكم ﴿ سُلَيْمَانُ وَجُنُودُهُ وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴾ أنهم يحطمونكم ولو شعروا لم يفعلوا كأنها علمت عصمة الأنبياء من الظلم والإيذاء و « لا يحطمنكم » أى لا تقفوا حيث يحطمونكم وهو جواب الأمر ودخول النون لكونه نهياً فى المعنى أو بدل من الأمر لأنه فى المعنى نهى لأن « ادخلوا مساكنكم » فى معنى لا تكونوا حيث كنتم . وفى هذه الآية من إيجاز القصر وهو قلة الألفاظ مع كثرة المعنى لا لحذف ما تحار فيه العقول وفيها أحد عشر معنى من أنواع الكلام : النداء والكناية والتنبيه والتسمية والأمر والقصة والتحذير والتخصيص والتعميم والإشارة والعذر . فراعت النملة خمس حقوق : حق الله ورسوله وجنده وحقها ورعاياها ، وقد نظمت كل هذا فى المفتاح وسلالته بقولى مثلا لآيات القصر :

كَآيَةِ الْعَدْلِ مَعَ الْإِحْسَانِ * وَآيَةِ النَّمْلِ عَلَى مَعَانِ
نَادَتْ بِيَا كُنْتُ بِأَيِّ نَبَّهَتْ * بِهَا وَسَمَّتْ بِاسْمِ نَمْلٍ أَمَرَتْ
وَبِادْخُلُوا قَصَّتْ بِسُكْنَى حَذَّرَتْ * حَطْمَ سُلَيْمَانَ خَصَّتْ عَمَّمَتْ
جُنُودُهُ ثُمَّ بِهِمْ أَشَارَتِ * بِنَفْيِ عِلْمٍ عَذَرَتْ فَرَاعَتِ
حَقَّ الْإِلَهِ وَالرَّسُولِ وَلَهَا * وَجُنْدِهِ وَنَافِعًا عِيَالَهَا

﴿ فَتَبَسَّمَ ﴾ سليمان ابتداء ﴿ ضَاحِكًا ﴾ انتهاء ﴿ مِنْ قَوْلِهَا ﴾ وقد سمعه من ثلاثة أميال حملته إليه الريح فحبس جنده حين أشرف على واديهم حتى دخلوا بيوتهم وكان جنده ركباناً ومشاة فى هذا المسير قبل

تسخير الريح له أو كانت فى جنوده مع الريح ركبان ومشاة على الأرض تطوى لهم أو خافت نزوله فى الوادى ، وضحكه لأجل السرور بنعمة الله عليه فى إسماعه وتفهيمه ﴿ وَ ﴾ لذا ﴿ قَالَ رَبِّ أَوْزِعْنِي ﴾ بفتح الياء لورش والبزى وسكونها للباقين : ألهمنى ﴿ أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ الَّتِي أَنْعَمْتَ ﴾ بها ﴿ عَلَيَّ وَعَلَى وَالِدَيَّ ﴾ فإن النعمة عليهما نعمة عليه كالعكس سيما النعم الدينية ﴿ وَأَنْ أَعْمَلَ صَالِحاً تَرْضَاهُ ﴾ بقية عمرى تماماً للشكر واستدامة للنعمة ﴿ وَأَدْخِلْنِي بِرَحْمَتِكَ ﴾ جنتك ﴿ فِي عِبَادِكَ الصَّالِحِينَ ﴾ الأنبياء والأولياء وفيه إشارة إلى أن دخول الجنة بفضل رحمة الله كما ورد فى الحديث ﴿ وَتَفَقَّدَ ﴾ تعرف ﴿ الطَّيْرَ ﴾ ليرى الهدهد الذى يرى الماء تحت الأرض ويدل عليه بنقره فيها فيستخرجه الشياطين لاحتياج سليمان إليه للصلاة فلم يره فتعجب ، وقال فى الجواهر : ظاهر الآية أنه تفقد جميع الطير بحسب ما تقتضيه العناية بالمملكة والاهتمام بكل جزء منها . اهـ . ﴿ فَقَالَ مَالِيَ لَا أَرَى الْهُدْهُدَ ﴾ أى أعرض لى ما منعنى رؤيته من ساتر أو تقصير فى الشكر فسلبت نعمته ﴿ أَمْ كَانَ مِنَ الْغَائِبِينَ ﴾ فلم أره لغيبته ، ويحتمل أم الانقطاع كأنه لما لاح له أنه غائب أضرب عن ذلك التعجب وأخذ يقول أهو غائب ؟ يريد تحقيق ما لاح له ولذا قال ﴿ لَأُعَذِّبَنَّهُ عَذَاباً شَدِيداً ﴾ سياسة لئلا يجترئ على فعل مثله آخر من جنسه ، وتعذيبه : نتف ريشه وإلقاؤه فى الشمس أو طلاؤه القطران وتشميسه أو جعله مع ضده فى قفص ﴿ أَوْ لَأَذْبَحَنَّهُ ﴾ ليعتبر به أبناء جنسه ﴿ أَوْ لَيَأْتِيَنِّي ﴾ بنون شديدة مكسورة للجمهور أو مفتوحة يليها مكسورة لابن كثير ﴿ بِسُلْطَانٍ ﴾ برهان ﴿ مُبِينٍ ﴾ واضح يبين عذره ، والحلف فى الحقيقة على أحد الأولين بتقدير عدم الثالث الذى فى معنى الاستثناء ، وهذا دليل على وجوب تفقد الرعية صغيرها وكبيرها ، ولذا قال عمر بن الخطاب : لو أن سخلة بشاطئ الفرات أخذها الذئب لسئل عنها عمر . قال ابن العربى : فما ظنك بوالٍ ذهب على يديه البلدان ﴿ فَمَكُثَ ﴾ بضم الكاف للجمهور وفتحها لعاصم ﴿ غَيْرَ بَعِيدٍ ﴾ أى زماناً قليلا دل على سرعة عوده خوفاً من سليمان فحضر متواضعاً برفع رأسه وإرخاء ذنبه وجناحيه فدنا منه فأخذ برأسه ومده إليه فقال : يانبى الله اذكر وقوفك بين يدى الله . فارتعد سليمان وعفا عنه وسأله عما لقى فى غيبته ﴿ فَقَالَ أَحَطْتُ بِمَا لَمْ تُحِطْ بِهِ ﴾ اطلعت على ما لم تطلع عليه ، ألهم الله الهدهد هذا الكلام ليوقظ به سليمان لئلا يظن أنه ليس أحد أعلم منه وليعلم أن فى أدنى خلق الله من أحاط بما لم يحط به ﴿ وَجِئْتُكَ مِنْ سَبَإٍ ﴾ بالصرف للجمهور وتركه لابن كثير وأبى عمرو قبيلة باليمن سميت باسم جدٍ لهم باعتباره صرف ومنع باعتبار القبيلة أو البلدة وهى لعبد شمس بن يشجب ابن يعرب بن قحطان ﴿ بِنَبَإٍ ﴾ بخبر ﴿ يَقِينٍ ﴾ حقيق ، ونبأ مع سبأ من الجناس الملاحق المزدوج . وفى الحديث : سأل رجل رسول الله صلى الله عليه وسلم : ما سبأ أهو رجل أم جبل أم واد ؟ فقال : رجل ولد عشرة أولاد من العرب فتيامن منهم ستة وتشاءم أربعة ، فأما الذين تيامنوا فالأزد والأشعر وحمير وكندة ومذحج وأنمار ، وأما الذين تشاءموا فلخم وجذام وغسان وعاملة . فقال الرجل : وما أنمار؟ فقال :

الذين هم خثعم وبجيلة ﴿ إِنِّي وَجَدْتُ امْرَأَةً تَمْلِكُهُمْ ﴾ أى سبأ أو أهلها وهى بلقيس - بكسر الباء - بنت شراحيل بن مالك بن ريان وكان الملك فى آبائها أربعين جدًا ولم يكن لأبيها ولد ذكر فولوها الملك . وفى الحديث : لن يفلح قوم تولى عليهم امرأة ﴿ وَأُوتِيَتْ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ ﴾ من أسباب الملك الآلات والعُدد والعَدد ﴿ وَلَهَا عَرْشٌ ﴾ سرير ﴿ عَظِيمٌ ﴾ طوله ثمانون ذراعا فى ثمانين وسمكه كذلك مضروب من الذهب والفضة مكلل بالدر والياقوت الأحمر والزبرجد الأخضر والزمرد وقوائمه كلها مما ذكر عليه سبعة أبيات وعلى كل بيت باب مغلق ، ولم يبال سليمان بهذا كله حتى قال ﴿ وَجَدْتُهَا وَقَوْمَهَا يَسْجُدُونَ لِلشَّمْسِ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَالَهُمْ ﴾ القبيحة ﴿ فَصَدَّهُمْ عَنِ السَّبِيلِ ﴾ طريق الحق ﴿ فَهُمْ لَا يَهْتَدُونَ ۝ أَلَّا يَسْجُدُوا لِلَّهِ ﴾ بالتشديد للجمهور مفعول « يهتدون » زيدت لا وأدغم فيها نون أن بإسقاط إلى أو بدل من « أعمالهم » أى زين لهم أعمالهم عدم السجود أو مفعول له أى فصدهم لئلا يسجدوا ، وبالتخفيف للكسائى على أن « ألا » حرف تنبيه ويا للنداء والمنادى محذوف أى ألا يا قوم اسجدوا لله ﴿ الَّذِي يُخْرِجُ الْخَبْءَ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ ﴾ والخبء المخبوء مصدر بمعنى المخبوء فى غيره كالنبات المخرج من الأرض والمطر من السماء وغير ذلك من الأشياء المستورة فى غامض علمه وجملة التنبيه والنداء على التخفيف مستأنفة من الله أو من سليمان ووصفه بما يوجب اختصاصه باستحقاق السجود من التفرد بكمال القدرة والعلم للحث على السجود له والرد على من يسجد لغيره ﴿ وَيَعْلَمُ مَا يُخْفُونَ ﴾ فى قلوبهم ﴿ وَمَا يُعْلِنُونَ ﴾ بألسنتهم بالغيبة فيهما للجمهور والخطاب لحفص والكسائى ﴿ اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ ﴾ الذى هو أول الأجرام وأعظمها والمحيط بجملتها الذى يستحقر دونه عرش بلقيس ، كلام مستأنف للدلالة على تفرده بالألوهية ﴿ قَالَ ﴾ سليمان للهدهد وقد قبل عذره ، وهكذا ينبغى لكل والٍ قبول عذر رعيته ﴿ سَنَنْظُرُ ﴾ بالتأمل فيما أخبرتنا به ﴿ أَصَدَقْتَ أَمْ كُنْتَ مِنَ الْكَاذِبِينَ ﴾ عدل عن أم كذبت المبالغة ورعاية الفواصل أى من هذا النوع ، ثم دلهم على الماء فاستخرجه الشياطين وارتووا وتوضأوا وصلوا ثم كتب سليمان كتاباً صورته « من عبدالله سليمان بن داود إلى بلقيس ملكة سبأ . بسم الله الرحمن الرحيم السلام على من اتبع الهدى . أما بعد : فلا تعلوا علىّ وأتونى مسلمين » ثم طبقه بالمسك وختمه بخاتمه ثم قال للهدهد ﴿ اذْهَبْ بِكِتَابِي هَذَا فَأَلْقِهْ ﴾ بكسر الهاء للجمهور وإسكانه لعاصم وأبى عمرو وحمزة ﴿ إِلَيْهِمْ ﴾ إلى بلقيس وقومها ﴿ ثُمَّ تَوَلَّ ﴾ انصرف ﴿ عَنْهُمْ ﴾ وقف قريباً منهم ليكونوا بمسمع منك ﴿ فَانْظُرْ مَاذَا يَرْجِعُونَ ﴾ ما يرجع بعضهم إلى بعض من القول أى ما يستقر عليه آراؤهم بعد التشاور . فأخذه وأتاها وحولها ملؤها فدخل من كوة صنعتها لتدخل منها الشمس عند طلوعها لعبادتها إياها وألقى الكتاب فى حجرها ، فلما رأته أرعدت وخضعت خوفاً ثم وقفت على ما فيه ثم ﴿ قَالَتْ ﴾ لأشراف قومها ﴿ يَا أَيُّهَا الْمَلَأُ إِنِّي أُلْقِيَ إِلَيَّ كِتَابٌ كَرِيمٌ ﴾ لتصديره باسم الله ووجازته مع وفائه بالمقصود وغرابة شأنه

فى الدخول وختمه وكونه من ملك الإنس والجن فكأنهم قالوا ممن هو وما هو فقالت ﴿إِنَّهُ مِنْ سُلَيْمَانَ وَإِنَّهُ﴾ أى مضمونه ﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ أَلَّا تَعْلُوا عَلَيَّ وَأْتُونِي مُسْلِمِينَ﴾ أن مفسرة أو مصدرية وهو بصلته خبر محذوف أى المقصود أن لا تعلوا وهذا كلام فى غاية الوجازة مع كمال الدلالة على المقصود لاشتماله على البسملة الدالة على ذات الصانع وصفاته صريحاً والتزاماً والنهى عن الترفع الذى هو أم الرذائل والأمر بالإسلام الجامع لأمهات الفضائل لا يقال أمرهم بالانقياد قبل المعجزة إذ إلقاء الكتاب إليها على تلك الحالة من أعظم المعجزات وأيضاً لا يجب إظهار المعجزة إلا إذا طولب به وقوله إنه من سليمان بيان لعنوان الكتاب فلم يتقدم على اسم الله فى الكتاب والله أعلم ﴿قَالَتْ يَا أَيُّهَا الْمَلَأُ أَفْتُونِي﴾ بقلب ثانية الهمزين واوا أو تحقيقها أى أشيروا علىّ ﴿فِي أَمْرِي﴾ ما تستصوبون فيه من جواب الكتاب والفتوى والفتيا جواب الواقعة من الفتاء حداثة السن ﴿مَا كُنْتُ قَاطِعَةً أَمْرًا﴾ قاضيته ﴿حَتَّىٰ تَشْهَدُونِ﴾ تحضرون كما هو شأن الملوك العقلاء لا يعزمون على شىء إلا بعد المشاورة مع ذوى الآراء قيل كان أهل مشورتها الذين لا تقطع أمراً إلا إذا حضروا كلهم ثلثمائة ملك تحت يد كل واحد منهم عشرة آلاف ﴿قَالُوا نَحْنُ أُولُو قُوَّةٍ﴾ بالأجساد والآلات والعدد ﴿وَأُولُو بَأْسٍ﴾ شجاعة فى الحرب ﴿شَدِيدٍ وَالْأَمْرُ﴾ موكول ﴿إِلَيْكِ﴾ بعد هذا ﴿فَانْظُرِي مَاذَا تَأْمُرِينَ﴾ من المقاتلة والصلح نطعك ونتبع رأيك ﴿قَالَتْ﴾ لهم تشعر أنها ترى الصلح أصلح لأن الحرب مجال لا تدرى عاقبتها ﴿إِنَّ الْمُلُوكَ إِذَا دَخَلُوا قَرْيَةً﴾ بالغلبة ﴿أَفْسَدُوهَا﴾ بتخريب عمارتها وأموالها ﴿وَجَعَلُوا أَعِزَّةَ أَهْلِهَا أَذِلَّةً﴾ بالقتل والأسر إلى غير ذلك من أنواع الإهانة ﴿وَكَذَٰلِكَ يَفْعَلُونَ﴾ تأكيد لما وصفت من حالهم وتقدير بأن ذلك من عاداتهم المستمرة أو تصديق لها من الله أو المراد مرسلو الكتاب ثم بينت لهم ما ترى تقديمه فى المصالحة بقولها ﴿وَإِنِّي مُرْسِلَةٌ إِلَيْهِمْ بِهَدِيَّةٍ﴾ سنية تليق بالملوك مع رسلى أدفع بها أولا عن ملكى ﴿فَنَاظِرَةٌ بِمَ يَرْجِعُ الْمُرْسَلُونَ﴾ من أحواله وأخباره فأبى على ذلك من الحرب والصلح ما كان أوفق فإن كان ملكا قبل الهدية فلا نتبعه أو نبيا لم يقبلها لأنه قال ألا تعلوا علىّ وأتونى مسلمين، وهذا لا تنفع فيه فدية لأن قبولها رشوة وهى بيع حق بالمال فأرسلت مع عمرو بن عمرو مع خدم ذكور وإناث ألفا على السوية وخمسمائة لبنة من الذهب وتاجاً مكللا بالجواهر ومسكا وعنبرا وحقة فيها درة عذراء وجذعة معوجة الثقب ومع الرسول كتاب فى وفد أهل الرأى فأخبر جبريل سليمان ذلك وأسرع الهدهد إليه أيضاً بالخبر فأمر الجن فضربوا اللبن من الذهب والفضة وفرش بها ميداناً من موضعه إلى تسع فراسخ وأمر الشياطين فأتوه بأحسن دواب البر والبحر فربطت حول الميدان عن يمينها وشمالها على فرش الذهب والفضة وأمر بأولاد الجن يمينا وشمالا منها يقرءون الزبور واصطفت خلق كثير من الجن والإنس فراسخ وجلس على كرسيه ثم استعرض الرسل ﴿فَلَمَّا جَاءَ﴾ الرسول بالهدية ومعه أتباعه ﴿سُلَيْمَانَ قَالَ أَتُمِدُّونَنِ بِمَالٍ﴾ وقرأ حمزه بنون واحدة مدغما: إنكار عليهم

ظنهم أنه يريد المال ﴿فَمَا آتَانِيَ اللَّهُ﴾ من الدين والنبوة والملك الذى لا مزيد عليه ﴿خَيْرٌ مِمَّا آتَاكُمْ﴾ من الدنيا ﴿بَلْ أَنْتُمْ بِهَدِيَّتِكُمْ﴾ أى بما يهدى إليكم أو بما تهدون ﴿تَفْرَحُونَ﴾ مفتخرين بها على الملوك أو تفرحون بها إذا وردت عليكم وهو من إضافة المصدر إلى المفعول أو الفاعل لأنكم لا تعلمون إلا ظاهراً من الحياة الدنيا وقال للرسول أو للهدهد مع كتاب آخر ﴿ارْجِعْ إِلَيْهِمْ﴾ بما أتيت به من الهدية أو بالكتاب ﴿فَلَنَأْتِيَنَّهُمْ بِجُنُودٍ لَا قِبَلَ﴾ طاقة ﴿لَهُمْ بِهَا﴾ ردٌّ لقولهم نحن أولو قوة وأولو بأس شديد ﴿وَلَنُخْرِجَنَّهُمْ مِنْهَا﴾ من بلدهم سبأ ﴿أَذِلَّةً وَهُمْ صَاغِرُونَ﴾ إن لم يأتونى مسلمين تصديق لقولها إن الملوك الخ .. وفى قصة سير جنود سليمان وسيرته معها ومع النملة ومع الهدهد وكتابه إلى بلقيس وكلامها مع قومها ومحاورتهم معها وإرسالها وما رد سليمان إليها علوم سياسات الرعايا كلها مما لو تأمله العاقل كفته إن شاء الله . روى أنها لما رجع إليها الرسول بالهدية جعلت سريرها داخل سبعة أبواب داخل قصرها وقصرها داخل سبعة قصور وأغلقت الأبواب وجعلت عليها حرساً وتجهزت للمسير إلى سليمان لتنظر ما يأمرها به فارتحلت فى اثنى عشر ألف قيل مع كل قيل ألوف كثيرة إلى أن قربت منه على فرسخ شعر بها ﴿قَالَ يَا أَيُّهَا الْمَلَأُ أَيُّكُمْ يَأْتِينِي بِعَرْشِهَا قَبْلَ أَنْ يَأْتُونِي مُسْلِمِينَ﴾ أراد أن يريهم ما خصه الله تعالى به من المعجزات الظاهرة والعجائب الباهرة لا لإرادة أخذه قبل إسلامها إذ حل الغنائم مخصوص برسول الله وأمته ﴿قَالَ عِفْرِيتٌ مِنَ الْجِنِّ﴾ القوى الشديد الداهية اسمه ذكوان أو صخر ، من العفر وهو التراب لأنه يعفر أقرانه والتاء فيه للإلحاق بقنديل وكان كجبل عظيم يضع قدمه عند منتهى طرفه ﴿أَنَا آتِيكَ بِهِ قَبْلَ أَنْ تَقُومَ مِنْ مَقَامِكَ﴾ الذى تجلس فيه للقضاء وهو من الغداة إلى نصف النهار ذلك مسيرة شهرين لأنه فى الشام والعرش فى اليمن ﴿وَإِنِّي عَلَيْهِ﴾ على حمله ﴿لَقَوِيٌّ أَمِينٌ﴾ على ما فيه من الجواهر وغيرها لا أختزل منه شيئاً قال سليمان أريد أسرع من ذلك ﴿قَالَ الَّذِي عِنْدَهُ عِلْمٌ مِنَ الْكِتَابِ﴾ المنزل كالتوراة وغيرها أو اللوح المحفوظ وهو آصف بن برخياء وزيره أو صديقه أو جبريل أو الخضر أو سليمان نفسه عبر بذلك للدلالة على شرف العلم والكرامة بسببه والخطاب حينئذ للعفريت فى قوله ﴿أَنَا آتِيكَ بِهِ قَبْلَ أَنْ يَرْتَدَّ إِلَيْكَ طَرْفُكَ﴾ إذا نظرت به إلى شىء ما وآتيك صالح للفعل والاسم روى أنه قال له انظر إلى السماء فنظر إليها ثم رد بطرفه فوجده موضوعاً بين يديه ففى نظره إلى السماء دعا آصف بالاسم الأعظم أن يأتى الله به فخسف بأن جرى تحت الأرض حتى ارتفع عند كرسى سليمان فى لمحة ﴿فَلَمَّا رَآهُ مُسْتَقِرًّا عِنْدَهُ﴾ حاصلا بين يديه ﴿قَالَ هَذَا﴾ أى الإتيان به فى لمحة من مسيرة شهرين ﴿مِنْ فَضْلِ رَبِّي﴾ تلقيا للنعمة بالشكر على عادة المخلصين من عباد الله أى تفضل به علىّ من غير استحقاق ﴿لِيَبْلُوَنِي﴾ ليختبرنى ﴿أَأَشْكُرُ﴾ بأن أراه فضلا من الله بلا حول منى ولا قوة وأقوم بحقه بدل من الياء وقد انسلخ عنه الاستفهام ﴿أَمْ أَكْفُرُ﴾ بأن أقصر فى أداء موجبه ﴿وَمَنْ شَكَرَ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِ﴾ لأجلها لينال دوام النعمة ومزيدها وثواب الآخرة ﴿وَمَنْ

كَفَرَ ﴾ النعمة ﴿ فَإِنَّ رَبِّي غَنِيٌّ ﴾ عن شكره ﴿ كَرِيمٌ ﴾ لا يعاجله بالعقوبة ولا يقطع عنه بره وأفضاله ﴿ قَالَ نَكِّرُوا لَهَا عَرْشَهَا ﴾ بتغيير هيئته وشكله بأن تجعلوا أسفله أعلاه ومقدمه مؤخره ﴿ نَنْظُرْ ﴾ جواب الأمر ﴿ أَتَهْتَدِي ﴾ إلى معرفته أو إلى الإيمان ﴿ أَمْ تَكُونُ مِنَ الَّذِينَ لَا يَهْتَدُونَ ﴾ إلى معرفة ما يغير عليهم، قصد بذلك اختبار عقلها فغيروه بما تقدم ﴿ فَلَمَّا جَاءَتْ قِيلَ ﴾ لها ﴿ أَهَكَذَا عَرْشُكِ ﴾ أى أمثل هذا عرشك تشبيهاً عليها زيادة فى امتحان عقلها والقائل سليمان أو أحد خواصه ﴿ قَالَتْ كَأَنَّهُ هُوَ ﴾ أى فعرفته وشبهت عليهم كما شبهوا عليها إذ لم يقل أهذا عرشك ولو قيل هذا لقالت نعم ﴿ وَأُوتِينَا الْعِلْمَ ﴾ بكمال قدرة الله وصحة نبوتك ﴿ مِنْ قَبْلِهَا ﴾ أى هذه الحالة فهو من تتمة كلامها لما ظنت أنه أراد إظهار معجزة لها أو من كلام سليمان وقومه عطفوه على جوابها كأنهم قالوا: أصابت فى الجواب وأوتينا العلم من قبلها وغرضهم فيه التحدث بما أنعم الله عليهم من التقدم فى الإسلام شكراً لله تعالى ﴿ وَكُنَّا مُسْلِمِينَ ﴾ قبلها ﴿ وَصَدَّهَا ﴾ عن عبادة الله مع هذا العقل ﴿ مَا كَانَتْ تَعْبُدُ مِنْ دُونِ اللَّهِ ﴾ أى غيره ابتداء كلام منه تعالى أو صدها الله أو سليمان عما كانت تعبد من دون الله على نزع الخافض ﴿ إِنَّهَا كَانَتْ مِنْ قَوْمٍ كَافِرِينَ ﴾ استئناف جار مجرى التعليل على الوجهين أى لأنها نشأت بين أظهر الكفار وخروج الإنسان مما عليه قومه عسير لا يحصل إلا بتوفيق من الله ﴿ قِيلَ لَهَا ادْخُلِي الصَّرْحَ ﴾ أى القصر المرتفع، من الصراحة الظهور، وهذا الصرح صحنه من زجاج أبيض شفاف تحته ماء جار فيه سمك وغيره من حيوان البحر اصطنعه سليمان لما قيل له إن ساقيها ورجليها كقدمى حمار ووضع سريره فى صدره فجلس عليه ﴿ فَلَمَّا رَأَتْهُ حَسِبَتْهُ لُجَّةً ﴾ من الماء ﴿ وَكَشَفَتْ عَنْ سَاقَيْهَا ﴾ لتخوضه فرأى ساقيها وقدميها حسانا لاشعر عليها أو أراد أن يريها عظم ملكه وأمراً غريباً لم تره فى ملكها لتحقر ملكها أو لبس عليها كما لبست هى عليه فى الجوارى على هيئة الغلمان والغلمان على هيئة الجوارى فاهتدى هو ولم تهتد هى فظهر له الفضل من كل وجه ﴿ قَالَ ﴾ لها ﴿ إِنَّهُ صَرْحٌ مُمَرَّدٌ ﴾ ملس ﴿ مِنْ قَوَارِيرَ ﴾ أى زجاج أبيض ودعاها إلى الإسلام ﴿ قَالَتْ رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي ﴾ بعبادة غيرك أو بظنى فى سليمان رسولك أنه أراد قتلى بالغرق ﴿ وَأَسْلَمْتُ ﴾ كائنة ﴿ مَعَ سُلَيْمَانَ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴾ فى ما أمر به، آثرت لفظ الجلالة الدالة على الألوهية الموجبة لعبادته، قيل إن سليمان زوجها من ذى تبع ملك همدان، وقيل تزوجها هو وأقرها على ملكها وكان يزورها كل شهر مرة ويقيم عندها ثلاثة أيام وانقضى ملكها بانقضاء ملك سليمان فسبحان من لا انقضاء لدوام ملكه ﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا إِلَى ثَمُودَ أَخَاهُمْ ﴾ من القبيلة ﴿ صَالِحًا أَنِ ﴾ بأن ﴿ اعْبُدُوا اللَّهَ ﴾ وحدوه ﴿ فَإِذَا هُمْ فَرِيقَانِ يَخْتَصِمُونَ ﴾ فى الدين فريق مؤمنون من حين إرساله وفريق كافرون أى فاجأوا الاختصام والتفرق كما هو شأن أمم الرسل فى أول البعثة، والواو لمجموع الفريقين أو المراد بالاختصام ما فى الأعراف « قال الملأ الذين استكبروا من قومه للذين استضعفوا » إلى آخره ﴿ قَالَ ﴾ للمكذبين ﴿ يَا قَوْمِ لِمَ تَسْتَعْجِلُونَ بِالسَّيِّئَةِ ﴾ العذاب

بقولكم « يا صالح ائتنا بما تعدنا » ﴿ قَبْلَ الْحَسَنَةِ ﴾ قبل الرحمة بالتوبة ﴿ لَوْلَا ﴾ هلا ﴿ تَسْتَغْفِرُونَ اللَّهَ ﴾ قبل نزول العذاب ﴿ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴾ فلا تعذبون ﴿ قَالُوا اطَّيَّرْنَا ﴾ أصله تطيرنا أدغمت التاء فى الطاء واجتلبت همزة وصل أى تشاءمنا ﴿ بِكَ وَبِمَنْ مَعَكَ ﴾ لتتابع الشدائد علينا مع الافتراق منذ اخترعتم هذا الدين فقحطنا وجعنا بشؤمكم ﴿ قَالَ طَائِرُكُمْ ﴾ شؤمكم المقدر عليكم ﴿ عِنْدَ اللَّهِ ﴾ أتاكم به ليس لأحد فيه تأثير ، سمى ما يصيب الإنسان من خير أو شر طائراً لسرعة نزوله إذ لا أسرع من القضاء المحتوم إذا أتى وقته ثم أضرب عن الطائر إلى الداعى إليه بقوله ﴿ بَلْ أَنْتُمْ قَوْمٌ تُفْتَنُونَ ﴾ تختبرون بإعقاب الضراء بعد السراء أو بوسوسة الشيطان إليكم التطير ﴿ وَكَانَ فِي الْمَدِينَةِ ﴾ مدينة ثمود وهى الحجر ﴿ تِسْعَةُ رَهْطٍ ﴾ رجال ﴿ يُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ ﴾ بأنواع المعاصى ﴿ وَلَا يُصْلِحُونَ ﴾ أى شأنهم الإفساد الخالص عن شوب الصلاح ﴿ قَالُوا ﴾ بيان لإفسادهم أى قال بعضهم لبعض ﴿ تَقَاسَمُوا بِاللَّهِ ﴾ أى احلفوا أمر مقول أو خبر وقع بدلا أو حالا بإضمار قد ﴿ لَنُبَيِّتَنَّهُ ﴾ بالنون للجمهور والتاء وضم التاء الثانية لحمزة والكسائى ﴿ وَأَهْلَهُ ﴾ لنباغتن صالحاً وأهله ليلا بالقتل انتهازاً للفرصة ﴿ ثُمَّ لَنَقُولَنَّ ﴾ بالنون للجمهور والتاء لحمزة والكسائى مع ضم اللام الثانية ﴿ لِوَلِيِّهِ ﴾ ولىّ دمه ﴿ مَا شَهِدْنَا ﴾ ما حضرنا ﴿ مَهْلِكَ أَهْلِهِ ﴾ بضم الميم مصدر أهلك أو اسم مكان منه للجمهور وبفتح الميم واللام لعاصم فى رواية شعبة مصدر هلك أو اسم مكان منه وكسر اللام فى رواية حفص عليهما على غير قياس أى نقسم على عدم حضورنا ذلك فضلا عن المباشرة ﴿ وَإِنَّا ﴾ والحال إنا ﴿ لَصَادِقُونَ ﴾ فى الحلف بأنا لم نشاهد هلاك أهله وحدهم ، يحتالون بذلك فى اجتناب الكذب . ويحتمل أن يكون داخلا فى المقسم عليه فلا يحتاج إلى التكلف أى نحلف « إنا لصادقون » ﴿ وَمَكَرُوا مَكْرًا ﴾ فيما دبروه ﴿ وَمَكَرْنَا مَكْرًا ﴾ بأن جعلناه سبباً لهلاكهم عاجلا ﴿ وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴾ بأن وبال ما دبروه عائد إليهم وذلك أنهم دخلوا دار صالح بالليل وكانت داره مملئة ملائكة فأهلكوهم بالحجارة أو وقفوا تحت صخرة فى سفح جبل ينتظر بعضهم بعضاً فلما اجتمعوا طبقت عليهم الصخرة ولم يدر أحد أين ذهبوا كما هلك قومهم كما قال تعالى ﴿ فَانْظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ مَكْرِهِمْ أَنَّا دَمَّرْنَاهُمْ ﴾ أهلكناهم ﴿ وَ ﴾ أهلكنا ﴿ قَوْمَهُمْ أَجْمَعِينَ ﴾ بصيحة جبريل لقومهم وحجارة الملائكة أو الصخرة للتسعة وكان إن جعلت ناقصة فخبرها « كيف » و « إنا دمرناهم » استئناف ، وإن كانت تامة فـ « كيف » حال ، وقرأ الكوفيون « أنا » بالفتح على أنها خبر محذوف أو بدل من اسم كان أو خبر له و « كيف » حال ﴿ فَتِلْكَ بُيُوتُهُمْ خَاوِيَةً ﴾ خالية أو ساقطة ونصبه على الحال والعامل فيها معنى الإشارة ﴿ بِمَا ظَلَمُوا ﴾ بظلمهم أى كفرهم ﴿ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً ﴾ لعبرة ﴿ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴾ حقائق الأشياء فيتعظون ﴿ وَأَنْجَيْنَا الَّذِينَ آمَنُوا ﴾ بصالح ﴿ وَكَانُوا يَتَّقُونَ ﴾ الشرك والمعاصى ولذا خصوا بالنجاة ﴿ وَلُوطًا ﴾ منصوب باذكر مقدراً أو بأرسلنا لدلالة « ولقد أرسلنا » عليه ﴿ إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ ﴾ بدلٌ على الأول وظرف على الثانى

﴿ أَتَأْتُونَ الْفَاحِشَةَ ﴾ اللواط ﴿ وَأَنْتُمْ تُبْصِرُونَ ﴾ يبصر بعضكم بعضاً انهما كا فى المعصية لأنهم كانوا يعلنون بها فهو أفحش ولذا يقال إذا بليت فاستتر ﴿ أَئِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ الرِّجَالَ شَهْوَةً ﴾ بيان للفاحشة وتعليلها بالشهوة إشارة إلى أنه من فعل البهائم ، والعقلاء يطلبون النسل ﴿ مِنْ دُونِ النِّسَاءِ بَلْ أَنْتُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ ﴾ عاقبة فعلكم أو مستمرون على فعل القبيح كمن يجهل قبحه أو تستمرون على السفه لا تميزون بين القبيح والحسن والتاء فيه لكون الموصوف به فى معنى المخاطب ﴿ فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِ إِلَّا أَنْ قَالُوا ﴾ أى إلا قولهم ﴿ أَخْرِجُوا آلَ لُوطٍ ﴾ معه ﴿ مِنْ قَرْيَتِكُمْ إِنَّهُمْ أُنَاسٌ يَتَطَهَّرُونَ ﴾ عن أفعالنا ويستقذرونها ﴿ فَأَنْجَيْنَاهُ وَأَهْلَهُ إِلَّا امْرَأَتَهُ قَدَّرْنَاهَا ﴾ جعلناها بتقديرنا ﴿ مِنَ الْغَابِرِينَ ﴾ الباقين فى العذاب ﴿ وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِمْ مَطَرًا ﴾ هو حجارة السجيل أهلكتهم ﴿ فَسَاءَ مَطَرُ الْمُنْذَرِينَ ﴾ مطرهم ﴿ قُلِ ﴾ يا محمد ﴿ الْحَمْدُ لِلَّهِ ﴾ على هلاك كفار الأمم الخالية ﴿ وَسَلَامٌ عَلَى عِبَادِهِ الَّذِينَ اصْطَفَى ﴾ هم . لما قص الله عليه ما أنعم على إخوانه من الرسل من الاصطفاء بالرسالة وإهلاك أعدائهم أمره بأن يحمده على تلك النعمة شكراً له تعالى إشارة إلى أن ما وصل إليهم وصل إليه وبأن يسلم عليهم لحسن اصطبارهم على شدائد أذى الجهال وقيامهم بأعباء التبليغ وجعل ذلك تمهيداً للتخلص من قصص الأنبياء إلى قصته مع المشركين إيماء إلى أن العاقبة له تقوية لجأشه فى إقامة البراهين على وحدانيته تعالى بقوله ﴿ آللَّهُ خَيْرٌ ﴾ لمن يعبده ﴿ أَمْ مَا تُشْرِكُونَ ﴾ به بالتاء للجمهور يا أهل مكة وبالياء لأبى عمرو وعاصم وبعضهم قدر مضافاً فى الموضعين أى توحيد الله خير أم عبادة ما تشركون وما موصولة أو مصدرية ويجوز تقدير المضاف فى الأول فقط أى توحيد الله خير أم شرككم ؟ وهو إلزام وتهكم وتنبيه على الخطأ المفرط إذ معلوم ضرورة أن لا خير فيما أشركوا به حتى يوازن بينه وبين من هو مبدأ كل خير ﴿ أَمْ ﴾ بل أ ﴿ مَنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ ﴾ التى هى أصول العالم ومبادئ المنافع وهو تفصيل لذلك الخير وأم منقطعة ويجوز اتصالها بتقدير الآلهة خير أم من خلق السموات والأرض وذكرهما تمهيد لقوله ﴿ وَأَنْزَلَ لَكُمْ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَنْبَتْنَا ﴾ فيه التفات عن الغيبة إلى التكلم لتأكيد اختصاص الفعل بذاته لا يمكن إسناده إلى غيره ﴿ بِهِ حَدَائِقَ ﴾ جمع حديقة وهو البستان الذى له حائط من الإحداق وهو الإحاطة ﴿ ذَاتَ بَهْجَةٍ ﴾ حسن من بهج بالضم أو سرور من بهج بالكسر لأن صاحبها يسر بالنظر إليها وأفرد ذات على إرادة الجماعة كقولك النساء ذهبت قاله فى غاية الأمانى قلت بل إفراد الوصف أفضل لا لإرادة الجماعة بل لكون حدائق جمع كثرة لغير عاقل فإفراد وصفه أفضل كما علم فى النحو ثم أكد اختصاصه بذلك الإنبات بقوله ﴿ مَا كَانَ لَكُمْ أَنْ تُنْبِتُوا شَجَرَهَا ﴾ أى الحدائق فضلا عما فيها من المنافع وأصناف الفواكه المختلفة لوناً وطعماً وشكلا ورائحة ولما أثبت الاختصاص به على الوجه الأبلغ قال ﴿ أَإِلَهٌ مَعَ اللَّهِ ﴾ أى أغيره يقدر عليه ويجعل شريكا له مع انفراده بالخلق والتكوين أى ليس ذلك ﴿ بَلْ هُمْ قَوْمٌ يَعْدِلُونَ ﴾ عن الحق الذى هو التوحيد أو عادلون به من لا يستحق ﴿ أَمْ مَنْ جَعَلَ

الْأَرْضَ ﴾ بعد ما خلقها ﴿ قَرَارًا ﴾ مكاناً يستقر فيه الحيوان لا يميد به وهو بدل من « أم من خلق » ترق إلى ما هو أعظم من إنبات الحدائق بل لولاه لا يتم الإنبات ﴿ وَجَعَلَ خِلَالَهَا ﴾ بينها ﴿ أَنْهَارًا ﴾ جارية ﴿ وَجَعَلَ لَهَا رَوَاسِيَ ﴾ جبالا ثابتة كالأوتاد تتكوّن فيها المعادن وينبع من حضيضها المنابع فيكثر المنافع ﴿ وَجَعَلَ بَيْنَ الْبَحْرَيْنِ ﴾ العذب والملح ﴿ حَاجِزًا ﴾ لا يختلط أحدهما بالآخر وتقدّم بيان ذلك فى الفرقان ﴿ أَإِلَٰهٌ مَعَ اللَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ الحق التوحيد فيشركون به ﴿ أَمْ ﴾ بل بعد ما ذكر ﴿ مَنْ يُجِيبُ الْمُضْطَرَّ ﴾ الذى اشتدّ به الضر ﴿ إِذَا دَعَاهُ ﴾ وقت الاضطرار ﴿ وَيَكْشِفُ السُّوءَ ﴾ عنه وعن غيره أى المضار التى تسوءه ، وهذا ترق أيضاً عما فقدم لكونه لاصقاً بهم دون واسطة وأل فى المضطر للجنس لا للاستغراق فلا يلزم منه إجابة كل مضطر ، قاله البيضاوى . قلت : ويحتمل عدم الإجابة لبعضهم لعدم الشرط . أخرج الحاكم فى المستدرك عن أبى هريرة رضى الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « ادعوا الله وأنتم موقنون بالإجابة واعلموا أن الله لا يستجيب دعاء من قلب غافل لاه » ورواه الترمذى أيضاً ﴿ وَيَجْعَلُكُمْ خُلَفَاءَ الْأَرْضِ ﴾ الإضافة بمعنى فى بأن ورثكم سكناها من قبلكم تنتفعون بها على أى وجه شئتم مباشرة وأمراً ونهياً وهذا أتم وأجلى موقعا ولذا قال ﴿ أَإِلَٰهٌ مَعَ اللَّهِ ﴾ الذى خصكم بهذه النعم العامة والخاصة ﴿ قَلِيلًا مَا تَذَكَّرُونَ ﴾ بالفوقية والتشديد لنافع وابن كثير وابن عامر وشعبة ، وبالتحتية لأبى عمرو ، وبالفوقية وتخفيف الذال لحمزة والكسائى وحفص و « ما » زائدة لتقليل القليل وجعل الفاصلة التذكر الذى لا يحتاج إلا إلى الالتفات النفسى لما ذكرنا من كون النعمة الأخيرة ألصق وأتمّ وأجلى ﴿ أَمَّنْ يَهْدِيكُمْ ﴾ يرشدكم إلى مقاصدكم ﴿ فِي ظُلُمَاتِ الْبَرِّ وَالْبَحْرِ ﴾ بالنجوم ليلا وبعلامات الأرض نهاراً إذا سافرتم وهى ظلمات الليالى أضافها إلى البر والبحر للملابسة أو المراد مشتبهات الطرق ، يقال طريقة ظلماء أى لا منار لها ﴿ وَمَنْ يُرْسِلُ الرِّيَاحَ نُشُرًا بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِ ﴾ أى قدام المطر وهذا من متممات أمر الخلافة لاشتماله على إجابة المضطر وكشف السوء وجلب المنافع الكثيرة ﴿ أَإِلَٰهٌ مَعَ اللَّهِ تَعَالَى اللَّهُ ﴾ القادر الخالق ﴿ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴾ به من المخلوق العاجز . ثم أضرب عما ذكر إلى ذكر نعمتى الإيجاد والإعادة بقوله ﴿ أَمَّنْ يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ ﴾ بعد الموت وإن لم يعترفوا بالإعادة لقيام البراهين عليها ﴿ وَمَنْ يَرْزُقُكُمْ مِنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ ﴾ بأسباب سماوية وأرضية إجمالٌ وفذلكة لما تقدم إشارة إلى إتمام الحجج ﴿ أَإِلَٰهٌ مَعَ اللَّهِ ﴾ يفعل شيئاً من ذلك ﴿ قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ ﴾ على ما يخالف ما ذكرنا ﴿ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴾ فى إشراككم فإن كمال القدرة من لوازم الإلهية ، تسجيل عليهم بالكذب وأن ما يقولون مختلق ومن هوى النفس . ولما بين اختصاصه بالقدرة التامة أتبعه ما هو كلازمه من التفرد بعلم الغيب فقال مجيباً سؤالهم عن وقت قيام الساعة ﴿ قُلْ لَا يَعْلَمُ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ ﴾ من الملائكة والناس ﴿ الْغَيْبَ ﴾ ما غاب عنهم ولم يطلعهم الله عليه ﴿ إِلَّا ﴾ لكن ﴿ اللَّهُ ﴾ يعلمه ، استثناء منقطع

رفع على لغة تميم أو متصل على تأويل من تعلق علمه بها واطلع عليها فإنه عام فيه تعالى وفى أولى العلم من خلقه ومن موصول أو موصوف ﴿ وَمَا يَشْعُرُونَ ﴾ الضمير لمن أو للكفرة ﴿ أَيَّانَ يُبْعَثُونَ ﴾ متى ينشرون الذى هو أهم الأمور عندهم تأكيد لنفى علم الغيب عنهم و « أيان » مركبة من أى وآن قاله فى أنوار التنزيل وقال فى غاية الأمانى : فيعال من آن يئين . اهـ . قلت : لا يستفهم به إلا عن ما كان عظيم الشأن من الزمان المستقبل.. ولما نفى عنهم علم الغيب أضرب عنه إلى بيان أن القيامة التى لا محالة أنها كائنة للحجج على ذلك لا يعلمونها فكيف يعلمون الغيب بقوله ﴿ بَلِ ادَّارَكَ ﴾ بتشديد الدال ومده ووصل الهمزة قبله للجمهور أصلها تدارك أبدلت التاء دالا وأدغمت فى الدال واجتلبت همزة الوصل ومعناه تتابع وتلاحق حتى استحكم ولابن كثير وأبى عمرو أدرك بوزن أكرم أى لحق ﴿ عِلْمُهُمْ فِى الْآخِرَةِ ﴾ أى بها أى هل علموا حقيقة أنها واقعة حتى يسألوك عن وقت مجيئها أى ليس الأمر كذلك ﴿ بَلْ هُمْ فِى شَكٍّ مِنْهَا ﴾ كمن تحير فى أمر لا يجد عليه دليلا ﴿ بَلْ هُمْ مِنْهَا عَمُونَ ﴾ لا يدركون شيئاً من دلائلها والإضرابات الثلاث لبيان أحوالهم : وصفهم أولا بعدم الشعور بوقت البعث ، ثم ترقى إلى أنهم لا يقرون بالآخرة رأساً ثم إلى أنهم خابطون فى شأنها خبط عشواء ثم إلى ما هو أسوأ حالا وهو عمى البصيرة ، والأصل عميون استثقلت الضمة على الياء فنقلت إلى الميم بعد حذف كسرتها ثم بين عماهم بقوله ﴿ وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا ﴾ أيضاً فى إنكار البعث وضعه موضع المضمر إشارة إلى أن منشأ ذلك العمى الكفر لا غيره ﴿ أَإِذَا كُنَّا تُرَاباً وَآبَاؤُنَا أَئِنَّا لَمُخْرَجُونَ ﴾ من القبور ، والعامل فى « إذا » معنى الإخراج الذى دل عليه « مخرجون » لا هو ، لأن الاستفهام وإن واللام كل منها مانع من العمل فكيف بها مجتمعة ، قرأ نافع « إذا كنا » بهمزة واحدة مكسورة وابن عامر والكسائى « إننا لمخرجون » بنونين على الخبر والباقون بالهمزتين فى الموضعين ﴿ لَقَدْ وُعِدْنَا هَـٰذَا ﴾ البعث ﴿ نَحْنُ وَآبَاؤُنَا مِنْ قَبْلُ ﴾ قبل محمد وتقديم « هذا » على « نحن » لأن المقصود بالذكر هو البعث وحيث أخر فالمقصود به المبعوث إليهم ﴿ إِنْ هَذَا إِلَّا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ ﴾ أكاذيبهم التى لا حقيقة لها ﴿ قُلْ سِيرُوا فِى الْأَرْضِ فَانْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُجْرِمِينَ ﴾ بإنكاره وهى هلاكهم بالعذاب . تهديد لهم ﴿ وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ ﴾ على تكذيبهم وإعراضهم ﴿ وَلَا تَكُنْ فِى ضَيْقٍ مِمَّا يَمْكُرُونَ ﴾ من مكرهم فإن الله يعصمك من الناس تسلية للنبى صلى الله عليه وسلم ، وقرأ ابن كثير بكسر الضاد ﴿ وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَـٰذَا الْوَعْدُ ﴾ العذاب الموعود ﴿ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴾ فيه ﴿ قُلْ عَسَىٰ أَنْ يَكُونَ رَدِفَ ﴾ قرب ﴿ لَكُمْ ﴾ ولحقكم واللام للتأكيد أو لتضمين ردف معنى دنا ﴿ بَعْضُ الَّذِى تَسْتَعْجِلُونَ ﴾ حلوله فحصل لهم القتل ببدر وباقى العذاب يأتيهم بعد الموت ﴿ وَإِنَّ رَبَّكَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى النَّاسِ ﴾ بتأخير العذاب ﴿ وَلَـٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ ﴾ الكفار ﴿ لَا يَشْكُرُونَ ﴾ بتأخيره لإنكارهم وقوعه ﴿ وَإِنَّ رَبَّكَ لَيَعْلَمُ مَا تُكِنُّ صُدُورُهُمْ ﴾ تخفيه ﴿ وَمَا يُعْلِنُونَ ﴾ بألسنتهم من عداوتك وأنواع المكر فيجازيهم عليه . تسلية للرسول وتقوية لجأشه

بعد أن قدم قوله ولا تكن فى ضيق مما يمكرون ثم أتى بدليل إحاطة علمه بما تكن صدورهم بقوله ﴿وَمَا مِنْ غَائِبَةٍ﴾ شىء فى غاية الخفاء ﴿فِي السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُبِينٍ﴾ بيّن هو اللوح المحفوظ أو مكتون علمه ومنه ما تكن صدورهم وما يعلنون والتاء فى غائبة للمبالغة كالراوية أو للنقل من الوصفية إلى الاسمية كالذبيحة والوجه الأول ثم أشار إلى أعظم معجزات القرآن بقوله ﴿إِنَّ هَٰذَا الْقُرْآنَ﴾ الذى ينكر الكفار ما فيه ويقولون فيه أساطير الأولين ﴿يَقُصُّ عَلَىٰ بَنِي إِسْرَائِيلَ﴾ مما جاء فى الكتب السماوية ﴿أَكْثَرَ الَّذِي هُمْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ﴾ كالتشبيه والتنزيه وأحوال الجنة والنار وعزير والمسيح أى يبين ذلك على الوجه الرافع للاختلاف بينهم لو أخذوا به وأسلموا والتقييد بالأكثر لأن بعضه باطل فى بادئ الرأى فلا حاجة إلى بيان بطلانه ﴿وَإِنَّهُ لَهُدًى﴾ من الضلالة ﴿وَرَحْمَةٌ لِلْمُؤْمِنِينَ﴾ لأنهم المنتفعون به ﴿إِنَّ رَبَّكَ يَقْضِي بَيْنَهُمْ﴾ بين من آمن ومن كفر ﴿بِحُكْمِهِ﴾ أى عدله أو حكمته ﴿وَهُوَ الْعَزِيزُ﴾ الغالب فلا يرد قضاؤه ﴿الْعَلِيمُ﴾ بما يحكم به وبالأمور كلها كما هى ﴿فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ﴾ بعد ما تبين أنك رسول بالكتاب المعجز ولا تبال بمعاداتهم بمعنى ثق به ﴿إِنَّكَ عَلَى الْحَقِّ الْمُبِينِ﴾ علة للتوكل فإن صاحب الحق مؤيد حقيق بالوثوق بحفظ الله ونصره ﴿إِنَّكَ لَا تُسْمِعُ الْمَوْتَىٰ﴾ مستأنف للتسلية أى بلغت الرسالة فلا عليك فإنهم مختوم على قلوبهم أو علة ثانية للأمر بالتوكل أى قد أيس من اتباعهم إياك فلم يبق إلا استكفاء شرهم والاستبصار عليهم شبهوا بالموتى لعدم انتفاعهم بما يتلى عليهم كما شبهوا بالصم فى قوله ﴿وَلَا تُسْمِعُ الصُّمَّ الدُّعَاءَ إِذَا وَلَّوْا مُدْبِرِينَ﴾ فإن استماعهم فى هذه الحالة أبعد، وقرأ ابن كثير ولا يسمع الصم ﴿وَمَا أَنْتَ بِهَادِ الْعُمْيِ﴾ ولحمزة تهدى العمى ﴿عَنْ ضَلَالَتِهِمْ إِنْ﴾ ما ﴿تُسْمِعُ﴾ سماع قبول ﴿إِلَّا مَنْ يُؤْمِنُ بِآيَاتِنَا﴾ فإنه يسمع سماع تدبر وينظر نظر اعتبار ﴿فَهُمْ مُسْلِمُونَ﴾ مخلصون بتوحيد الله ولما بين دلائل التوحيد والمبدأ والمعاد ونبوة المخبر الصادق شرع فى بيان أحوال القيامة بآيات الساعة فقال ﴿وَإِذَا وَقَعَ الْقَوْلُ عَلَيْهِمْ﴾ دنا الوعد بوقوع الساعة أو حق العذاب أن ينزل بالكفار ﴿أَخْرَجْنَا لَهُمْ دَابَّةً﴾ أى دابة عظيمة المنظر والشأن وقد ذكروا فى وصفها أشياء والذى صح فى الحديث أنها دابة طولها ستون ذراعاً ذات قوائم أربع فيها ألوان الحيوانات ينصدع جبل الصفا فتخرج منه ضحى وهو المراد بقوله ﴿مِنَ الْأَرْضِ﴾ أى مكة وفى رواية أرض الطائف وقيل تخرج ثلاث مرات وفى الثالثة معها عصا موسى وخاتم سليمان لا يدركها طالب ولا يفوتها هارب تضرب بالعصا فى وجه المؤمن تكتب فيه مؤمن وتطبع الخاتم فى وجه الكافر يكتب فيه كافر ﴿تُكَلِّمُهُمْ﴾ بالعربية يافلان يافلان أو تكلمهم بحقيقة ما وعدناهم به من البعث وما بعده أو كلامها هو قوله ﴿إِنَّ النَّاسَ﴾ بكسر للجمهور استئناف جار مجرى العلة والفتح للكوفيين بتقدير الباء ﴿كَانُوا بِآيَاتِنَا﴾ التى فى القرآن ﴿لَا يُوقِنُونَ﴾ فلذلك أخرجناها لهم ليعلموا قدرتنا على كل شىء فيوقنون حيث لا ينفعهم إذ بخروجها ينقطع الأمر والنهى ولا يؤمن كافر فإن كان من كلامها فعلى حذف مضاف أى آيات ربنا ولكونها من

خواص خلقه أضافت الآيات إلى نفسها كما يفعله خواص الملك ﴿وَ﴾ اذكر ﴿يَوْمَ نَحْشُرُ مِنْ كُلِّ أُمَّةٍ فَوْجًا﴾ جماعة ﴿مِّمَّنْ يُكَذِّبُ بِآيَاتِنَا﴾ وهم الرؤساء المتبوعون ومن الأولى للتبعيض والثانية لبيان الفوج ﴿فَهُمْ يُوزَعُونَ﴾ يكفون ليلحق بهم آخرهم عبارة عن كثرة عددهم وتباعد أطرافهم ﴿حَتَّىٰ إِذَا جَاءُوا﴾ إلى المحشر ﴿قَالَ﴾ تعالى لهم ﴿أَكَذَّبْتُم بِآيَاتِي﴾ أنبيائى مفاجأة ﴿وَلَمْ تُحِيطُوا بِهَا عِلْمًا﴾ الواو للحال أى أكذبتم بها من غير تدبر فيها ونظر يحيط علمكم بكنهها ليظهر لكم أنها جديرة بالتكذيب أو التصديق أو للعطف أى أجمعتم بين التكذيب بها وعدم إلقاء الأذهان لتحققها ﴿أَمْ مَاذَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ أدغم أم فى ما الاستفهامية وذا بمعنى شىء أو الذى أى أم أى شىء كنتم تعملون والظاهر أم صدقتم عدل إلى المنزل دلالة على انتفاء الشق الثانى وأنه إنما جىء به للتبكيت كأنه قيل أهو ماعهد من التكذيب أم حدث أمر آخر ولذا أدخل أم على ما الاستفهامية الدالة على الشك والتردد وضعاً ، قاله فى غاية الأمانى وفى الجواهر سؤالهم على التوبيخ ثم قال أم ماذا كنتم تعملون على معنى استيفاء الحجج أى إن كان لكم عمل أو حجة فأتوا بها . اهـ. ﴿وَوَقَعَ الْقَوْلُ﴾ حق العذاب ﴿عَلَيْهِم بِمَا ظَلَمُوا﴾ بسبب ظلمهم ﴿فَهُمْ لَا يَنطِقُونَ﴾ بالاعتذار لشغلهم بالعذاب وعدم الحجة لهم وهذا حين وقوع العذاب فلا ينافى «والله ربنا ما كنا مشركين» لأن ذلك قبل العذاب ﴿أَلَمْ يَرَوْا أَنَّا جَعَلْنَا﴾ خلقنا ﴿اللَّيْلَ لِيَسْكُنُوا فِيهِ﴾ كغيرهم بالنوم والاستراحة ﴿وَالنَّهَارَ مُبْصِرًا﴾ بمعنى يبصر فيه مجاز حكمى لأن الإبصار لمن فى النهار ليتصرفوا فيه ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ﴾ دلالات على قدرته تعالى ﴿لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ بدلالتها على التوحيد والحشر وبعث الرسل إذ من قدر على ترتيب الليل والنهار وإبدال النور من الظلمة وبالعكس قادر على ما تقدم وأما الكفار فكفرهم مانع من استدلالهم بها ﴿وَيَوْمَ يُنفَخُ فِي الصُّورِ﴾ القرن الذى بيد إسرافيل هذا تفسير جمهور الأمة أو الصور جمع صورة أو تمثيل لانبعاث الموتى بانبعاث الجيش إذا نفخ فى البوق ﴿فَفَزِعَ مَن فِي السَّمَاوَاتِ وَمَن فِي الْأَرْضِ﴾ عبر بالماضى لتحقق وقوعه أى خافوا الخوف المفضى إلى الموت كما فى آية أخرى فصعق قاله فى المكمل قلت وذلك بناء على أن نفخة الفزع هى نفخة الصعق وبعدها نفخة القيام وهما نفختان لقوله ثم نفخ فيه أخرى وصحح ابن عطية أنها ثلاث كما ورد فى حديث أبى هريرة نفخة الفزع ثم نفخة الصعق ثم نفخة القيام ، قال ابن عطية وأخرى يقال فى الثالثة ومنه « ومناة الثالثة الأخرى » ﴿إِلَّا مَن شَاءَ اللَّهُ﴾ أى جبريل وميكائيل وإسرافيل وملك الموت وعن ابن عباس هم الشهداء إذ هم أحياء عند ربهم يرزقون وقيل الحور والخزنة وحملة العرش ، قال البيضاوى ولعل المراد مايعم ذلك ، قلت وكل هذا بناء على التأويل الأول وأما على الثانى فالمعنى إلا من شاء الله أن لا يفزع بأن يثبت قلبه فلا يختص بمن ذكر ، نبه عليه فى غاية الأمانى ﴿وَكُلٌّ﴾ أى كلهم بعد إحيائهم يوم القيامة ﴿أَتَوْهُ﴾ بصيغة اسم الفاعل للجمهور والفعل لحمزة وحفص أى حاضرون الموقف أو الله بالانقياد والرجوع إليه ﴿دَاخِرِينَ﴾ صاغرين أذلاء ﴿وَتَرَى الْجِبَالَ﴾ تبصرها

وقت النفخة ﴿ تَحْسَبُهَا جَامِدَةً ﴾ ثابتة فى مكانها ﴿ وَهِيَ تَمُرُّ مَرَّ السَّحَابِ ﴾ فى السرعة تشبيه مؤكد أى كمرور المطر إذا ضربته الريح أى تسير سيره حتى تقع على الأرض فتستوى بها مبسوطة كالعهن ثم تصير هباء منثورا ﴿ صُنْعَ اللَّهِ ﴾ أى مصنوعه من إطلاق المصدر على المفعول وهو مصدر مؤكد لمضمون الجملة قبله من قبيل المؤكد لنفسه أضيف إلى فاعله بعد حذف عامله أى صنع الله ذلك صنعاً ﴿ الَّذِي أَتْقَنَ ﴾ أحكم ﴿ كُلَّ شَيْءٍ ﴾ صنعه على ما ينبغى ﴿ إِنَّهُ خَبِيرٌ بِمَا تَفْعَلُونَ ﴾ بالخطاب للجمهور والغيبة لابن كثير وأبى عمرو وهشام أى عالم بظواهر الأفعال وبواطنها فيجازى عليها كما فصل ذلك المجمل بقوله ﴿ مَنْ جَاءَ بِالْحَسَنَةِ ﴾ من كل الأعمال أو لا إله إلا الله ﴿ فَلَهُ خَيْرٌ مِنْهَا ﴾ إذ أقل ما يقابلها عشر أمثالها إلى سبعمائة إلى ما شاء الله وقد ثبت له الشريف بالخمسين والباقى بالفانى أو المعنى خير ثوابا منها أى بسببها على الثانى وليس حينئذ للتفضيل إذ لا خير من « لا إله إلا الله » ﴿ وَهُمْ ﴾ أى الجاءون بها ﴿ مِنْ فَزَعٍ يَوْمَئِذٍ ﴾ خوف عذاب الآخرة بالإضافة للجمهور وفتح الميم لنافع وكسرها لغيره وبالتنوين وفتح الميم للكوفيين ﴿ آمِنُونَ ﴾ من الخلود فى النار أو الهول العظيم لا يحزنهم الفزع الأكبر ﴿ وَمَنْ جَاءَ بِالسَّيِّئَةِ ﴾ الشرك ﴿ فَكُبَّتْ وُجُوهُهُمْ فِي النَّارِ ﴾ بأن وليتها إذ يلقون فيها منكوسين ليكون أول ما يصل إلى النار أشرف الأعضاء التى استكبروا أن يعفروها بالسجود لله وفى الكب معنى اللزوم والازدحام ولذلك سميت الجماعة كبة ويجوز أن يراد بالوجوه أنفسهم وذكروا الوجوه لأنها موضع الشرف فغيرها أولى ويقال لهم تبكيتاً ﴿ هَلْ ﴾ أى ما ﴿ تُجْزَوْنَ إِلَّا ﴾ جزاء ﴿ مَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ ﴾ أو هذا التفات والمراد الإعلام أن الله ليس بظلام ﴿ قُلْ ﴾ لهم ﴿ إِنَّمَا أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ رَبَّ هَذِهِ الْبَلْدَةِ ﴾ مكة ﴿ الَّذِي حَرَّمَهَا ﴾ جعلها حرماً آمناً لا يسفك فيها دم إنسان : تنبيه على النعم التى على قريش فى رفع الله عن بلدهم العذاب والفتن الشائعة فى جميع بلاد العرب وإشارة إلى أن الرسول قد أدى ما عليه فلم يبق له شأن إلا الاستغراق فى العبودية التى هى أشرف صفات العبد واسم الإشارة القريب للتعظيم وإنما وصف ذاته تعالى دون البلدة لأن إجراء الوصف عليه يدل على عظم الوصف وعظم ما تعلق به الوصف ولا كذلك لو وصفت البلدة ﴿ وَلَهُ كُلُّ شَيْءٍ ﴾ خلقاً وملكا لا البلدة وحدها ﴿ وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْمُسْلِمِينَ ﴾ الثابتين على ملة الإسلام المنقادين لأوامره المخلصين له الدين ﴿ وَأَنْ أَتْلُوَ الْقُرْآنَ ﴾ أداوم على تلاوته عليكم تلاوة الدعوة إلى الإيمان وطلب الاطلاع على حقائقه وكنوز أسراره أو أداوم على اتباعه كقوله « واتبع ما يوحى إليك » ﴿ فَمَنِ اهْتَدَى ﴾ بعد البيان باتباعه إياى فى ذلك ﴿ فَإِنَّمَا يَهْتَدِي لِنَفْسِهِ ﴾ فإن نفعه لا يتجاوزه ﴿ وَمَنْ ضَلَّ ﴾ عن الهدى بمخالفتى ﴿ فَقُلْ إِنَّمَا أَنَا مِنَ الْمُنْذِرِينَ ﴾ المخوفين لا غير فلا على من وبال ضلاله شىء إذ ما على الرسول إلا البلاغ وقد بلغت ﴿ وَقُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ ﴾ على ما خصك به من الرسالة ووفقك لأدائها وعلى جميع ما علمك ووفقك للعمل به ﴿ سَيُرِيكُمْ آيَاتِهِ ﴾ القاهرة فى الدنيا من القتل والأسر : تهديد لهم ، أو

آياته كخروج دابة الأرض أو فى الآخرة ﴿ فَتَعْرِفُونَهَا ﴾ أنها آياته لكونها من الخوارق التى لا يقدر عليها غيره حيث لا تنفعكم المعرفة كأراهم القتل ببدر وغيره وعجلهم إلى النار ﴿ وَمَا رَبُّكَ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴾ بالخطاب لنافع وابن عامر وحفص وبالغيبة للباقين أى لا تحسبوا أن تأخير العذاب غفلة عن أعمالكم ، وفيه وعد لمن آمن وشكر ، ووعيد لمن تولى وكفر .

[تم تفسير سورة النمل]

سورة القصص

مكية إلا « إن الذى فرض . . الآية » نزلت بالجحفة وإلا « الذين آتيناهم الكتاب إلى لا نبتغى الجاهلين » وهى سبع أو ثمان وثمانون آية

﴿ بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ * طسم ﴾ الله أعلم بمراده بذلك ﴿ تِلْكَ ﴾ هذه الآيات ﴿ آيَاتُ الْكِتَابِ الْمُبِينِ ﴾ الواضح الإعجاز أو المظهر الحق من الباطل ﴿ نَتْلُوا ﴾ نقص ﴿ عَلَيْكَ ﴾ بتلاوة جبريل ﴿ مِن نَّبَإِ مُوسَىٰ وَفِرْعَوْنَ ﴾ أى بعض خبرهما مفعول « نتلوا » ﴿ بِالْحَقِّ ﴾ ملتبساً به أو محقين ﴿ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴾ لأجلهم لأنهم المنتفعون به يقوى به جأشهم ويعلموا أن العاقبة لهم ﴿ إِنَّ فِرْعَوْنَ عَلَا ﴾ تعظم ﴿ فِى الْأَرْضِ ﴾ أرض مصر ، استئناف يبين النبأ وقيدنا بأرض مصر إذ لم يتجاوز حكمه منها ﴿ وَجَعَلَ أَهْلَهَا شِيَعًا ﴾ فرقاً يشايعونه فيما يريد ويطيعونه أو جعلهم أصنافاً فى خدمته وعين لكل طائفة ونوع عملا أو جعلهم أحزاباً بأن أغرى بينهم العداوة لئلا يتفقوا عليه ﴿ يَسْتَضْعِفُ طَائِفَةً مِّنْهُمْ ﴾ وهم بنو إسرائيل حال من فاعل « جعل » أو صفة « شيعاً » أو كلام مستأنف ﴿ يُذَبِّحُ أَبْنَاءَهُمْ ﴾ المولودين ﴿ وَيَسْتَحْيِي نِسَاءَهُمْ ﴾ يستبقيهن أحياء لقول بعض الكهنة إن مولوداً يولد فى بنى إسرائيل يكون سبباً لذهاب ملكك « يذبح » بدل من « يستضعف » ﴿ إِنَّهُ كَانَ مِنَ الْمُفْسِدِينَ ﴾ ولذا كان يقتل الأطفال من أولاد الأنبياء بلا فائدة لأن الكاهن إن كان صادقاً لم يندفع بالقتل وإن كان كاذباً فما وجهه ؟ ﴿ وَنُرِيدُ ﴾ حكاية حال ماضية عطف على « إن فرعون علا » داخل تحت النبأ به ولا يجوز عطفه على « نتلوا » لاستلزامه خروجه عنه وهو معظمه وأهمه ﴿ أَن نَّمُنَّ ﴾ نتفضل ﴿ عَلَى الَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا فِى الْأَرْضِ ﴾

أرض مصر بإنقاذهم من بأسه ﴿ وَنَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً ﴾ فى الدين يقتدى بهم فيه أو ولاة ﴿ وَنَجْعَلَهُمُ الْوَارِثِينَ ﴾ ملك فرعون وقومه ﴿ وَنُمَكِّنَ لَهُمْ فِى الْأَرْضِ ﴾ أرض مصر والشام ﴿ وَنُرِىَ فِرْعَوْنَ ﴾ بضم النون ونصب فرعون وما بعده للجمهور وبالياء المفتوحة ورفع الثلاثة على الفاعلية لحمزة والكسائى ﴿ وَهَامَانَ وَجُنُودَهُمَا مِنْهُمْ ﴾ من بنى إسرائيل ﴿ مَا كَانُوا يَحْذَرُونَ ﴾ يخافون من ذهاب ملكهم بسبب المولود ﴿ وَأَوْحَيْنَا ﴾ بإلهام أو رؤيا ﴿ إِلَى أُمِّ مُوسَىٰ ﴾ يوحائذ حين ولدته ولم يشعر بولادته غير أخته مريم ﴿ أَنْ أَرْضِعِيهِ ﴾ ما أمكنك إخفاؤه ﴿ فَإِذَا خِفْتِ عَلَيْهِ ﴾ الاطلاع عليه ﴿ فَأَلْقِيهِ فِى الْيَمِّ ﴾ نيل مصر ﴿ وَلَا تَخَافِى ﴾ عليه غرقاً ولا شدة والخوف المثبت أولا خوف القتل ﴿ وَلَا تَحْزَنِى ﴾ لفراقه ﴿ إِنَّا رَادُّوهُ إِلَيْكِ ﴾ عن قريب تسلية لها ﴿ وَجَاعِلُوهُ مِنَ الْمُرْسَلِينَ ﴾ بشارة ، فى الآية من البلاغة فى إيجاز القصر أمران ونهيان وخبران وبشارتان فأرضعته ثلاثة أشهر لا يبكى وخافت عليه لما اجتهد العيون فى فحص المواليد فوضعته فى تابوت مطلى بالقار من داخل مهد له فيه وأغلقته وألقته فى بحر النيل ليلا ﴿ فَالْتَقَطَهُ ﴾ فى التابوت صبيحة الليل ﴿ آلُ فِرْعَوْنَ ﴾ أعوانه واسم لاقطه طابوت فوضع بين يدى فرعون وفتح وأخرج موسى منه وهو يمص من إبهامه لبناً ﴿ لِيَكُونَ لَهُمْ ﴾ فى عاقبة الأمر واللام للعاقبة والعلة على الاستعارة التبعية الحرفية لأنهم التقطوه ليكون لهم قرة ولم يترتب على الالتقاط إلا العداوة والحزن فشبه ذلك بما يكون مقصوداً فاستعير له اللام تبعاً لاستعارة المعنى ﴿ عَدُوًّا ﴾ يقتل رجالهم ﴿ وَحَزَنًا ﴾ بفتحتين للجمهور وبضم الحاء وسكون الزاى لحمزة والكسائى لغتان أى يستعبد نساءهم والمصدر هنا بمعنى اسم الفاعل من حزنه كأحزنه ﴿ إِنَّ فِرْعَوْنَ وَهَامَانَ ﴾ وزيره ﴿ وَجُنُودَهُمَا كَانُوا خَاطِئِينَ ﴾ فى كل شىء أى مستمرين على خلاف الصواب فيه من الخطأ أو كانوا عاصين من الخطيئة ولذا عاقبهم الله بتربية من يكون سبب هلاكهم فالكلام مستأنف للتعليل أو اعتراض لبيان الموجب لما ابتلوا به ﴿ وَقَالَتِ امْرَأَةُ فِرْعَوْنَ ﴾ آسية بنت مزاحم حين أخرج من التابوت وقد همّ فرعون وأعوانه بقتله : هو ﴿ قُرَّةُ عَيْنٍ لِى وَلَكَ ﴾ لما رأت منه من مخائل النجابة من نور وجهه ﴿ لَا تَقْتُلُوهُ ﴾ خطاب لفرعون بالجمع للتعظيم أو للوكلين بقتل الولدان ﴿ عَسَىٰ أَنْ يَنْفَعَنَا ﴾ لما رأوا فيه من اليمن إذ كانت لفرعون بنت برصاء عجزت الأطباء عن علاجها وقالوا شفاؤها من ريق حيوان فى البحر يشبه الإنسان فلما أخرجوه لطخوها بريقه فبرأت على الفور مع مارأوه من ارتضاعه لبناً من إبهامه ﴿ أَوْ نَتَّخِذَهُ وَلَدًا ﴾ فإنه أهل أن يكون من أولاد الملوك لما فى وجهه من الجمال الفائق ﴿ وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴾ بعاقبة أمرهم معه حال من آل فرعون وقوله إن فرعون إلى آخره اعتراض بين المعطوفين يؤكد خطأهم كما قدمنا ﴿ وَأَصْبَحَ فُؤَادُ أُمِّ مُوسَىٰ ﴾ لما علمت بالتقاطه ﴿ فَارِغًا ﴾ خالياً من العقل أو مما سوى ابنها لما دهمها من الخوف عليه بوقوعه فى يد فرعون أو فارغا من الهم لفرط وثوقها بوعد الله ﴿ إِنْ ﴾ مخففة من الثقيلة واسمها محذوف أى إنها ﴿ كَادَتْ

لتبدي به ﴾ أي بأنه ابنها أو بقصته لفرط الحزن أو الفرح ﴿ لولا أن ربطنا على قلبها ﴾ بالصبر أي سكناه وهو وسط الفؤاد وذكر الفؤاد أولا لأن فراغه يستلزم فراغ القلب ولم يكتف به في الربط مبالغة في سلب القلق عنها ﴿ لتكون من المؤمنين ﴾ المصدقين بوعد الله في الرد والحفظ ﴿ وقالت لأخته ﴾ مريم ﴿ قصيه ﴾ اتبعي أثره تعلمي خبره ما يفعل به ﴿ فبصرت به ﴾ رأته ﴿ عن جنب ﴾ من مكان بعيد اختلاساً ﴿ وهم لا يشعرون ﴾ أنه أخوها أو أنها تقص ﴿ وحرمنا عليه المراضع من قبل ﴾ أي قبل مجيئها أو رده إلى أمه أي منعناه من قبول ثدي مرضعة غير أمه فهو مجاز عن المنع فلم يقبل ثدي واحدة من المراضع المحضرة ﴿ فقالت ﴾ أخته ﴿ هل أدلكم على أهل بيت يكفلونه لكم ﴾ لأجلكم ﴿ وهم له ناصحون ﴾ لا يقصرون في إرضاعه وتربيته ولما سمعه هامان قال إنها لتعرفه وأهلها فخذوها حتى تخبر بحاله فقالت إنما أردت وهم للملك ناصحون فأمرها فرعون بأن تأتي بمن يكفله فأتت بأمه وهو يبكي على يد فرعون فلما وجد ريح أمه استأنس والتقم ثديها فقال لها فرعون من أنت منه فقد أبى كل ثدي إلا ثديك فقالت إني امرأة طيبة الريح طيبة اللبن لا أوتى بصبي إلا قبلني فدفعه إليها وأجرى عليها نفقة فرجعت به إلى بيتها من يومها كما قال تعالى ﴿ فرددناه إلى أمه كي تقر عينها ﴾ بلقائه ﴿ ولا تحزن ﴾ بفراقه ﴿ ولتعلم أن وعد الله ﴾ برده إليها ﴿ حق ﴾ علم مشاهدة تزول معه الشبهة ﴿ ولكن أكثرهم ﴾ أي الناس ﴿ لا يعلمون ﴾ بهذا الوعد ولا بأن هذه أخته وهذه أمه فمكث عندها إلى أن فطمته وأجرى عليها أجرتها لكل يوم دينار وأخذتها لجواز ذلك في شريعة بني إسرائيل ولأنه مال حربي لأنه نقض الأمان بقتل أولادهم واستخدامهم فأتت به فرعون فربي عنده « ألم نربك فينا وليداً ولبثت فينا من عمرك سنين » ﴿ ولما بلغ أشده ﴾ مبلغه الذي لا يزيد عليه نماؤه وذلك من ثلاثين إلى أربعين سنة ﴿ واستوى ﴾ اعتدل جسمه وكمل عقله بتمام أربعين ﴿ آتيناه حكما ﴾ حكمة من علم الحكماء ﴿ وعلما ﴾ بالدين أي بشرع إبراهيم عليه السلام ، قبل أن يبعث نبياً ، أو حكما نبوة وعلماً بالشرائع وأحوال الأمم فيكون إجمالا للقصة ولا ينافي كون نبوته بعد الرجوع من مدين لكن الأول أوفق لنظم القصة ﴿ وكذلك ﴾ كما جزيناه ﴿ نجزي المحسنين ﴾ لأنفسهم ﴿ ودخل ﴾ موسى ﴿ المدينة ﴾ مدينة فرعون وهي منف بعد أن غاب عنه مدة وكان هاجرهم يعبد الله خالياً كما كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يفعله بغار حراء لا يدخل إلا لضرورة مستخفياً ولذلك قال ﴿ على حين غفلة من أهلها ﴾ وقت القيلولة أو بين العشاءين ، وقيل بل كان آتياً من قصر فرعون من الاسكندرية ﴿ فوجد فيها رجلين يقتتلان ﴾ يختصمان في الدين أو في حمل الحطب إلى مطبخ فرعون ﴿ هذا من شيعته ﴾ سبطي اسمه السامري ﴿ وهذا من عدوه ﴾ قبطي اسمه فاتون ﴿ فاستغاثه الذي من شيعته على الذي من عدوه ﴾ فدعاه موسى إلى الحق فلم يرعو أو قال له خل سبيل السبطي فقال أحملها إذاً عليك ﴿ فوكزه موسى ﴾ أي ضربه بجمع كفه إغاثة للإسرائيلي لأن نصر المظلوم فرض في الملل كلها وكان موسى

شديد القوة والبطش ﴿ فَقَضَى عَلَيْهِ ﴾ أى أتمه بمعنى قتله ولم يكن قصد قتله ودفنه فى الرمل ﴿ قَالَ هَٰذَا مِنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ ﴾ المهيج غضبى لأنه لم يؤمر بقتل الكفار أو لأنه كان مؤمناً فيهم لكن ذلك لا يقدح فى عصمته لأنه كان خطأ لم يقصد بوكزه القتل واستغفاره الآتى وعده ظلماً وعمل الشيطان وتسمية نفسه ضالًّا كل ذلك على دأب المقربين فى عد المحقرات عظائم ﴿ إِنَّهُ عَدُوٌّ ﴾ للإنسان ﴿ مُضِلٌّ ﴾ له ﴿ مُبِينٌ ﴾ بيّن الإضلال لا اشتباه فيه ﴿ قَالَ ﴾ نادماً ﴿ رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي ﴾ بقتله ﴿ فَاغْفِرْ لِي فَغَفَرَ لَهُ إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ ﴾ المتصف بهما أزلا وأبداً ﴿ قَالَ ﴾ موسى معاهداً لربه أو مستعطفاً له ﴿ رَبِّ بِمَا أَنْعَمْتَ عَلَيَّ ﴾ من المغفرة وغيرها لأتوبن قسم محذوف الجواب أو بحق ما أنعمت علىّ أعصمنى ﴿ فَلَنْ أَكُونَ ظَهِيرًا ﴾ عوناً ﴿ لِلْمُجْرِمِينَ ﴾ لمن يؤدى عونه إلى الإجرام كمظاهرة الإسرائيلى ، وقيل أراد مظاهرة فرعون فإنه كان قبل يركب معه ويكثر سواده وقال فى الجواهر : ربّ بسبب إحسانك وغفرانك فأنا ملتزم أن لا أكون معيناً للمجرمين هذا أحسن ما تؤول به . وقال ابن عطية : احتج أهل العلم بهذه الآية فى منع خدمة أهل الجور ومعونتهم فى شىء من أمورهم ورأوا أنها تتناول ذلك . اه . ﴿ فَأَصْبَحَ فِي الْمَدِينَةِ خَائِفًا يَتَرَقَّبُ ﴾ ينتظر ما يناله من جهة القتيل ﴿ فَإِذَا الَّذِي اسْتَنْصَرَهُ بِالْأَمْسِ يَسْتَصْرِخُهُ ﴾ يستغيث به على قبطى آخر يشاجره : مشتق من الصراخ ﴿ قَالَ لَهُ مُوسَىٰ إِنَّكَ لَغَوِيٌّ مُبِينٌ ﴾ بيّن الغواية تسببت أمس فى هلاك رجل والآن تقاتل آخر ﴿ فَلَمَّا أَنْ ﴾ زائدة ﴿ أَرَادَ أَنْ يَبْطِشَ بِالَّذِي هُوَ عَدُوٌّ لَهُمَا ﴾ لموسى والمستغيث به لأنه لم يكن على دينهما ولأن القبط أعداء بنى إسرائيل ﴿ قَالَ ﴾ المستنصر أو العدو ﴿ يَا مُوسَىٰ أَتُرِيدُ أَنْ تَقْتُلَنِي كَمَا قَتَلْتَ نَفْسًا بِالْأَمْسِ إِنْ ﴾ ما ﴿ تُرِيدُ إِلَّا أَنْ تَكُونَ جَبَّارًا فِي الْأَرْضِ ﴾ تقتل الناس على الغضب ولا تنظر العواقب لأنه لما سمع موسى سماه غوياً ظن أنه قاصد إليه فنمّ عليه ، أو القبطى لما سمع قول موسى للإسرائيلى إنك لغوى مبين وكان قتل القبطى قد اشتهر ولم يعلم قاتله فهم أن موسى هو القاتل فقال ذلك ، قاله فى غاية الأمانى ، وهو أظهر عنده ﴿ وَمَا تُرِيدُ أَنْ تَكُونَ مِنَ الْمُصْلِحِينَ ﴾ بين الناس إذ شأن المصلح الدفع بالأحسن لا قتل أحد الخصمين . ولما قال هذا انتشر الحديث وارتقى إلى فرعون وملئه وتشاوروا فى قتله وغلب على نفس فرعون أنه المشار إليه بفساد المملكة فأمر الذباحين بقتل موسى فأخذوا فى الطريق إليه ﴿ وَجَاءَ رَجُلٌ ﴾ هو مؤمن من آل فرعون ﴿ مِنْ أَقْصَى الْمَدِينَةِ ﴾ آخرها ﴿ يَسْعَىٰ ﴾ يسرع فى مشيه من طريق أقرب من طريقهم ، صفة « رجل » أو حال منه إذا جعل « من أقصى المدينة » صفة له لأن تخصيصه يلحقه بالمعارف ﴿ قَالَ يَا مُوسَىٰ إِنَّ الْمَلَأَ ﴾ من قوم فرعون ﴿ يَأْتَمِرُونَ ﴾ يتشاورون ﴿ بِكَ ﴾ لأجلك لأن كلًّا من المتشاورين يأمر صاحبه بما يظهر له من الرأى ﴿ لِيَقْتُلُوكَ فَاخْرُجْ ﴾ من المدينة ﴿ إِنِّي لَكَ مِنَ النَّاصِحِينَ ﴾ فى الأمر بالخروج ، واللام للبيان وليست صلة للناصحين لأن معمول الصلة لا يتقدم على الموصول ﴿ فَخَرَجَ مِنْهَا خَائِفًا يَتَرَقَّبُ ﴾ لحوق طالب أو غوث الله إياه

﴿ قَالَ رَبِّ نَجِّنِي مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ ﴾ خلصنى من شرهم . روى ابن أبى شيبة فى مصنفه : من خاف من أمير ظلماً فقال « رضيت بالله ربًّا وبالإسلام دينًا وبمحمد نبياً وبالقرآن حكما وإماماً رب نجنى من القوم الظالمين » نجاه الله ﴿ وَلَمَّا تَوَجَّهَ ﴾ قصد بوجهه ﴿ تِلْقَاءَ مَدْيَنَ ﴾ جهتها وهى قرية شعيب لم تكن فى سلطان فرعون مسيرة ثمانية أيام من مصر سميت بمدين بن إبراهيم ولم يكن يعرف طريقها ﴿ قَالَ عَسَىٰ رَبِّي أَنْ يَهْدِيَنِي سَوَاءَ السَّبِيلِ ﴾ أى الطريق العدل الذى لا انحراف فيه فعنّ له ثلاث طرق فأخذ أوسطها فجاء الطلاب عقبه فأخذوا فى الآخرين فأرسل الله إلى موسى ملكا بيده عنزة فانطلق به إليها ﴿ وَلَمَّا وَرَدَ مَاءَ مَدْيَنَ ﴾ بئر فيها أى وصل إليها ﴿ وَجَدَ عَلَيْهِ ﴾ على شفير بئره ﴿ أُمَّةً ﴾ جماعة ﴿ مِنَ النَّاسِ يَسْقُونَ ﴾ مواشيهم ﴿ وَوَجَدَ مِنْ دُونِهِمُ ﴾ أى سواهم أو مكان أسفل من مكانهم ﴿ امْرَأَتَيْنِ تَذُودَانِ ﴾ تمنعان أغنامهما عن الماء لئلا تختلط بأغنامهم وحذف المفعول لمجرد الاختصار أو لأن الفعل هو المقصود لأن الترحم إنما كان لكونهما على الذود ولا مدخل للذود فى ذلك وهذا إذا لم يلاحظ إضافة المفعول وأما إذا لوحظ فلا شك أن الترحم يكون لكونهما على ذود غنمهما والقوم على سقى مواشيهم حتى لو كان القوم على سقى غنمهما وهما على ذود مواشيهم لم يكن للترحم وجه ﴿ قَالَ ﴾ موسى لهما ﴿ مَا خَطْبُكُمَا ﴾ أمركما الموجب لمنعكما ولا بد أن يكون مهما ﴿ قَالَتَا لَا نَسْقِي حَتَّىٰ يُصْدِرَ الرِّعَاءُ ﴾ جمع راع من الإصدار للجمهور أى يصرفوا مواشيهم عن الماء ومن الثلاثى لأبى عمرو وابن عامر أى يرجعوا من سقيهم خوف الزحام فنسقى ﴿ وَأَبُونَا شَيْخٌ كَبِيرٌ ﴾ السن لا يستطيع أن يخرج للسقى فيرسلنا اضطراراً فرأى موسى بئراً آخر على رأسه حجر لا يرفعه إلا عشرة أنفس فرفعه عن البئر ﴿ فَسَقَىٰ لَهُمَا ﴾ من ذلك البئر رحمة لهما وقيل زاحم السقاة فسقى لهما ﴿ ثُمَّ تَوَلَّىٰ ﴾ انصرف ﴿ إِلَى الظِّلِّ ﴾ لسمرة أو غيرها من شدة حر الشمس وهو جائع ﴿ فَقَالَ رَبِّ إِنِّي لِمَا أَنْزَلْتَ إِلَيَّ مِنْ خَيْرٍ ﴾ قليل أو كثير طعام ﴿ فَقِيرٌ ﴾ محتاج سائل ولذا عدى باللام فرجعتا إلى أبيهما فى زمن أقل مما كانتا ترجعان فيه فسألها عن ذلك فأخبرتاه بمن سقى لهما ، فقال لإحداهما : ادعيه لى . قال تعالى ﴿ فَجَاءَتْهُ إِحْدَاهُمَا ﴾ وهى الصغرى أو الكبرى وهى الصفوراء التى تزوجها موسى ﴿ تَمْشِي عَلَى اسْتِحْيَاءٍ ﴾ مصونة رأسها واضعة كم درعها على وجهها حياء منه كما هو دأب العواتق لا سيما بنات الأنبياء ﴿ قَالَتْ إِنَّ أَبِي يَدْعُوكَ لِيَجْزِيَكَ ﴾ يكافئك ﴿ أَجْرَ مَا سَقَيْتَ لَنَا ﴾ لم يكن أجراً حقيقة بل مكافأة على الإحسان فأجابها منكراً فى نفسه أخذ الأجر وكأنها قصدت المكافأة إن كان ممن يريدها فمشت بين يديه فجعلت الريح تضرب ثوبها فتكشف ساقها فقال لها امشى خلفى ودلينى على الطريق يميناً وشمالا ففعلت إلى أن جاءا أباها وهو شعيب عليه السلام وقيل غيره وعنده طعام فقال له تعش فقال لعله عوض من السقى وإنا أهل بيت لا نطلب على عمل خير عوضاً فقال : لا عادتى وعادة آبائى أن نقرى الضيف ونطعم الطعام فأكل وأخبره بحاله ، قال تعالى ﴿ فَلَمَّا جَاءَهُ وَقَصَّ

عَلَيْهِ الْقَصَصَ ﴾ مصدر بمعنى المقصوص أى ماجرى من أمره ﴿ قَالَ لَا تَخَفْ نَجَوْتَ مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ ﴾ إذ لاسلطان لفرعون على مدين فإن حكمه لم يتجاوز قبطيا فى بلده ﴿ قَالَتْ إِحْدَاهُمَا ﴾ وهى المرسلة الكبرى أو الصغرى ﴿ يَا أَبَتِ اسْتَأْجِرْهُ ﴾ لرعى الغنم بدلنا ﴿ إِنَّ خَيْرَ مَنِ اسْتَأْجَرْتَ الْقَوِيُّ الْأَمِينُ ﴾ تعليل جار مجرى الدليل على استحقاق الاستئجار والمبالغة جعل خير اسما وذكر الفعل بلفظ الماضى للدلالة أنه مجرب معروف ، روى أن شعيباً قال لها وما علمك بقوته وأمانته فذكرت له إقلال الحجر وتحرجه عن النظر إليها فرغب فى إنكاحه ﴿ قَالَ إِنِّي أُرِيدُ أَنْ أُنْكِحَكَ إِحْدَى ابْنَتَيَّ هَاتَيْنِ ﴾ أيتهما تريد وفى هذا استحباب عرض الولى وليته على الرجل الصالح ، قال ابن العربى وهى سنة قائمة وكذا عرض المرأة نفسها على الرجل الصالح . اه . وفيه ابتداء الرجل قبل المرأة فى الإنكاح كما فى أن أنكحك إحدى ابنتىّ وقوله زوجناكها كما يأتى ﴿ عَلَى أَنْ تَأْجُرَنِي ﴾ أى نفسك منى فى رعى غنمى ﴿ ثَمَانِيَ حِجَجٍ ﴾ سنين ونصب ثمانى على الظرفية ﴿ فَإِنْ أَتْمَمْتَ عَشْرًا ﴾ أى رعى عشر سنين ﴿ فَمِنْ عِنْدِكَ ﴾ لى إكراماً لا من عندى عليك إلزاماً وكل هذا استدعاء عقد لا نفسه فلعل العقد جرى على معينة وبمهر آخر لا برعى الغنم فيكون طلب رعى الغنم أمراً زائداً لأمانته ولكن الأظهر أن المهر كان إجارة نفسه ولعل الشرائع فى ذلك مختلفة إذ فيه اجتماع إجارة ونكاح فى عقد والمشهور عن مالك وابن القاسم منعه والفسخ قبل وبعد وعن أشهب الجواز وصححه ابن العربى ولا يجوز النكاح على الإجارة كالخدمة وتعليم القرآن فى المشهور من مذهب مالك وفاقاً لأبى حنيفة وخلافا للشافعى وأحمد فعلى الجواز يجوز ذكر الخدمة مطلقة ويحمل على العرف خلافاً لأبى حنيفة والشافعى للجهل ﴿ وَمَا أُرِيدُ أَنْ أَشُقَّ عَلَيْكَ ﴾ باشتراط العشر أو بتكليف مايتعب وهذا شأن الأنبياء فى أمورهم ومعاملاتهم ﴿ سَتَجِدُنِي إِنْ شَاءَ اللَّهُ ﴾ للتبرك ﴿ مِنَ الصَّالِحِينَ ﴾ الوافين بالعهد ﴿ قَالَ ﴾ موسى ﴿ ذَلِكَ ﴾ الذى شارطتنى عليه قائم ﴿ بَيْنِي وَبَيْنَكَ ﴾ لا أخرج عنه أنا ولا تخرج أنت ﴿ أَيَّمَا الْأَجَلَيْنِ ﴾ الثمان أو العشر وما زائدة أىّ رعيه ﴿ قَضَيْتُ ﴾ به أى فرغت ﴿ فَلَا عُدْوَانَ عَلَيَّ ﴾ بطلب الزيادة عليه ﴿ وَاللَّهُ عَلَى مَا نَقُولُ ﴾ أنا وأنت ﴿ وَكِيلٌ ﴾ حفيظ أو شهيد فتم العقد بذلك . قال فى الأحكام واختلف هل دخل بامرأته حين العقد أو حين السفر والظاهر أنه دخل فى الحال . اه . روى أن شعيباً أمر ابنته أن تعطى موسى عصا يدفع بها السباع عن غنمه وكانت عصى الأنبياء عنده فوقع فى يدها عصا آدم من آس الجنة فأخذها موسى بعلم شعيب وأنه قال لموسى فى بعض الأعوام وهبت لك من نتاج غنمى هذا العام كل أدرع ودرعاء والدرع محركة بياض فى صدر الشاة وسواد فى نخذها . فجاء النتاج كله على الصفة المذكورة فوفى له بالشرط فحصل لموسى غنم كثير ﴿ فَلَمَّا قَضَى مُوسَى الْأَجَلَ ﴾ وهو أطول الأجلين - رواه البخارى - وعزم على الرجوع ﴿ وَسَارَ بِأَهْلِهِ ﴾ بزوجته بإذن أبيها نحو مصر وبها أخوه هارون وأمه وأخته وسائر أقربائه قال ابن العربى دليل على أن للرجل أن يذهب بأهله حيث شاء إلا أن يلتزم لها أمراً فالمسلمون عند شروطهم . اه . ﴿ آنَسَ ﴾ أبصر من بعيد ﴿ مِنْ جَانِبِ الطُّورِ ﴾ اسم جبل ﴿ نَارًا قَالَ

لِأَهْلِهِ امْكُثُوا إِنِّي آنَسْتُ نَارًا لَعَلِّي آتِيكُمْ مِنْهَا بِخَبَرٍ ﴾ عن الطريق وكان أخطأها ﴿ أَوْ جَذْوَةٍ ﴾ بكسر الجيم لنافع والجمهور وبفتحها لعاصم وبالضم لحمزة وهي لغات قطعة أو شعلة ﴿ مِنَ النَّارِ لَعَلَّكُمْ تَصْطَلُونَ ﴾ تستدفئون والطاء بدل من تاء الافتعال ﴿ فَلَمَّا أَتَاهَا نُودِيَ مِنْ شَاطِئِ الْوَادِ ﴾ جانبه ﴿ الْأَيْمَنِ ﴾ لموسى ﴿ فِي الْبُقْعَةِ الْمُبَارَكَةِ ﴾ لموسى لسماعه كلام الله فيها حال من الشاطئ أو صلته نودي ﴿ مِنَ الشَّجَرَةِ ﴾ بدل من شاطئ بإعادة الجار لنباتها فيه وهي شجرة عناب أو عليق أو عوسج ﴿ أَنْ ﴾ مفسرة لا مخففة ﴿ يَا مُوسَى إِنِّي أَنَا اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ ﴾ هذا وإن خالف ما في طه والنمل في اللفظ فهو طبقه في المقصود ﴿ وَأَنْ أَلْقِ عَصَاكَ ﴾ فألقاها فصارت ثعباناً واهتزت ﴿ فَلَمَّا رَآهَا تَهْتَزُّ ﴾ تضطرب ﴿ كَأَنَّهَا جَانٌّ ﴾ وهي الحية الصغيرة من سرعة حركتها ﴿ وَلَّى مُدْبِرًا ﴾ هارباً منها ﴿ وَلَمْ يُعَقِّبْ ﴾ ولم يرجع من شدة الخوف فنودي ﴿ يَا مُوسَى أَقْبِلْ وَلَا تَخَفْ ﴾ إني لا يخاف لدي المرسلون ﴿ إِنَّكَ مِنَ الْآمِنِينَ ﴾ من المخاوف ﴿ اسْلُكْ ﴾ أدخل ﴿ يَدَكَ ﴾ اليمنى بمعنى الكف ﴿ فِي جَيْبِكَ ﴾ طوق القميص وأخرجها ﴿ تَخْرُجْ بَيْضَاءَ مِنْ غَيْرِ سُوءٍ ﴾ برص فأدخلها وأخرجها تضيء كشعاع الشمس يغشى البصر ﴿ وَاضْمُمْ إِلَيْكَ جَنَاحَكَ مِنَ الرَّهْبِ ﴾ بفتح الحرفين لنافع وابن كثير وأبي عمرو وبسكون الثاني مع فتح الأول لحفص ومع ضمه لابن عامر وحمزة والكسائي وشعبة أي الخوف الحاصل من إضاءة اليد بأن تدخلها في جيبك فتعود إلى حالتها الأولى وعبر عنها بالجناح لأنها للإنسان كالجناح للطائر أو أمر بضم عضده وذراعه إلى جنبه ليخف بذلك فزعه إذ من شأن الخائف أن يقوى قلبه إن فعل ذلك أو هو مجاز عن التجلد مستعار من حال الطائر فإنه إذا خاف نشر جناحيه وإذا أمن ضمهما إليه ﴿ فَذَانِكَ ﴾ بالتخفيف للجمهور والتشديد لابن كثير وأبي عمرو والإشارة للعصا واليد ذكر المشار به إليهما المبتدأ لتذكير خبره ﴿ بُرْهَانَانِ ﴾ مرسلان ﴿ مِنْ رَبِّكَ إِلَى فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِ إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمًا فَاسِقِينَ ﴾ فهم أحقاء بالإنذار ﴿ قَالَ رَبِّ إِنِّي قَتَلْتُ مِنْهُمْ نَفْسًا فَأَخَافُ أَنْ يَقْتُلُونِ * وَأَخِي هَارُونُ هُوَ أَفْصَحُ مِنِّي لِسَانًا فَأَرْسِلْهُ مَعِيَ رِدْءًا ﴾ بفتح الدال بلا همز لنافع وبسكونها مع الهمز للباقين مُعيناً وفي الأصل ما يعان به كالدفء ﴿ يُصَدِّقُنِي ﴾ بالجزم جواب الدعاء للجمهور وبالرفع صفة ردءاً لعاصم وحمزة أي بتخليص الحق وتقرير الحجة وتزييف الشبهة ﴿ إِنِّي أَخَافُ أَنْ يُكَذِّبُونِ ﴾ في دعوتي الرسالة لأن لساني لا يطاوعني عند المحاجة والتكذيب مجاز عن لازمه من عدم تلخيص الحجة كما أن تلخيصها هو المراد في طمع تصديق هرون ﴿ قَالَ سَنَشُدُّ عَضُدَكَ ﴾ أي نقويك ﴿ بِأَخِيكَ ﴾ من باب الكناية لأن اليد تشد بالعضد لأنه قوامها والشخص يشتد باشتدادها بالعضد ﴿ وَنَجْعَلُ لَكُمَا سُلْطَانًا ﴾ غلبة وحجة واضحة ﴿ فَلَا يَصِلُونَ إِلَيْكُمَا ﴾ بسوء لا باستيلاء ولا حجاج . أذهبا ﴿ بِآيَاتِنَا ﴾ متعلق بمحذوف كما قدرنا أو بنجعل أي نسلطكما بها أو بمعنى لا يصلون أي تمتنعون منهم ﴿ أَنْتُمَا وَمَنِ اتَّبَعَكُمَا الْغَالِبُونَ ﴾ لهم ﴿ فَلَمَّا جَاءَهُمْ مُوسَى بِآيَاتِنَا بَيِّنَاتٍ ﴾ واضحات ﴿ قَالُوا مَا هَذَا إِلَّا سِحْرٌ مُفْتَرًى ﴾ مختلق لم يفعل قبل مثله أو سحر نقلته ثم تفتريه على

الله ﴿ وَمَا سَمِعْنَا بِهَٰذَا ﴾ كائناً ﴿ فِي ﴾ أيام ﴿ آبَائِنَا الْأَوَّلِينَ ﴾ حال من هذا والمشار إليه إما النبوة على معنى إنكار أن يكون الرسول بشراً أو السحر والمراد بأنه لم يسمع مثله ولم ير ﴿ وَقَالَ ﴾ بواو للجمهور ودونها لابن كثير وعليه رسم المكى وعلى الأول سائر الرسوم ﴿ مُوسَىٰ رَبِّي أَعْلَمُ ﴾ عالم ﴿ بِمَنْ جَاءَ بِالْهُدَىٰ مِنْ عِنْدِهِ ﴾ فهو عالم أنى محق وأنتم مبطلون ﴿ وَمَنْ ﴾ عطف على من ﴿ تَكُونُ لَهُ ﴾ بالفوقانية للجمهور والتحتانية لحمزة والكسائى ﴿ عَاقِبَةُ الدَّارِ ﴾ العاقبة المحمودة فى الدار الآخرة وهو أنا فى الشقين ﴿ إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ ﴾ فى الدارين بل لهم خزى فى الحياة الدنيا بالقتل والأسر وضرب الجزية وفى الآخرة عذاب النار ﴿ وَقَالَ فِرْعَوْنُ يَا أَيُّهَا الْمَلَأُ مَا عَلِمْتُ لَكُمْ مِنْ إِلَٰهٍ غَيْرِي ﴾ جعل عدم علمه مستلزماً لعدمه أى لو كان لعلمه أو نفى علمه لا وجوده إذ لم يكن عنده ما يقتضى الجزم بعدمه ولذا قال ﴿ فَأَوْقِدْ لِي يَا هَامَانُ عَلَى الطِّينِ ﴾ فاطبخ لى الآجر : نادى وزيره باسمه وأمره بالإيقاد على طريق الجبابرة ولم يقل اتخذ لى آجراً لكونه أول من صنعه ولذا لما دخل عمر الشام ورأى القصور المشيدة قال ما كنت أظن أن أحدا بنى بالآجر غير فرعون ﴿ فَاجْعَلْ لِي صَرْحًا ﴾ قصراً عالياً ﴿ لَعَلِّي أَطَّلِعُ إِلَىٰ إِلَٰهِ مُوسَىٰ ﴾ أقف عليه ﴿ وَإِنِّي لَأَظُنُّهُ مِنَ الْكَاذِبِينَ ﴾ فى ادعائه إلها آخر وأنه رسوله ، وانظر جهله فى ظنه أن الإله جسم فى مكان ولو فرض كما ظن من أين يلزم أن يكون فى محاذاة قصره ؟ ولو سلم فمن أين له بلوغ السماء ؟ ولو سلم فأنى يجد طريقاً إليه ﴿ وَاسْتَكْبَرَ ﴾ وجاوز طوره إلى الكبرياء الذى هو رداء الله ﴿ هُوَ وَجُنُودُهُ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ ﴾ بلا استحقاق ذلك ﴿ وَظَنُّوا أَنَّهُمْ إِلَيْنَا لَا يُرْجَعُونَ ﴾ بالبناء للفاعل لنافع وحمزة والكسائى والمفعول للباقين أى بالنشور ﴿ فَأَخَذْنَاهُ وَجُنُودَهُ ﴾ أخذ عزيز مقتدر ﴿ فَنَبَذْنَاهُمْ ﴾ طرحناهم ﴿ فِي الْيَمِّ ﴾ البحر المالح كما ينبذ الشىء الحقير ﴿ فَانْظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الظَّالِمِينَ ﴾ الكاملين فى الظلم حين صاروا إلى الهلاك وسوف ترى عاقبة مكذبيك ﴿ وَجَعَلْنَاهُمْ ﴾ فى الدنيا ﴿ أَئِمَّةً ﴾ قدوة للضلال بحملهم على الإضلال ﴿ يَدْعُونَ إِلَى النَّارِ ﴾ بدعائهم إلى موجباتها من الكفر والمعاصى ﴿ وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ لَا يُنْصَرُونَ ﴾ بدفع العذاب عنهم كما يدفع الأتباع عن القادة فى الدنيا ﴿ وَأَتْبَعْنَاهُمْ فِي هَٰذِهِ الدُّنْيَا لَعْنَةً ﴾ طرداً عن الرحمة أو لعن اللاعنين من الملائكة والناس ﴿ وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ هُمْ مِنَ الْمَقْبُوحِينَ ﴾ المطرودين المبعدين : من قبحه الله طرده ﴿ وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ ﴾ التوراة ﴿ مِنْ بَعْدِ مَا أَهْلَكْنَا الْقُرُونَ الْأُولَىٰ ﴾ من قوم نوح إلى فرعون ﴿ بَصَائِرَ لِلنَّاسِ ﴾ حال من الكتاب جمع بصيرة وهى نور القلب أى أنوار القلوب لاشتماله على المعارف المنورة لها ﴿ وَهُدًى ﴾ إلى الشرائع التى هى طريق الجنة لمن عمل بها ﴿ وَرَحْمَةً ﴾ لمن آمن به وعمل به لأنه يصل إلى رحمة الله ﴿ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴾ ليكونوا على حال يرجى منهم التذكر ﴿ وَمَا كُنْتَ ﴾ يا محمد ﴿ بِجَانِبِ ﴾ الجبل أو الوادى أو المكان ﴿ الْغَرْبِيِّ ﴾ من موسى حين المناجاة الذى نودى منه وهو الأيمن منه لحين ذكر سبحانه نداءه لموسى قال « وناديناه من جانب الطور الأيمن » وحين نفى عن محمد

كونه بذلك الجانب ذكره بالغربى وفى ذلك من حسن العبارة فى المقامين وبديع الفصاحة والبلاغة ما لا يخفى إذ لم يقل لمحمد وما كنت بالجانب الأيمن إشارة إلى أنه لم يزل بالأيمن منذ كان فى ظهر آدم عليه السلام ﴿ إِذْ قَضَيْنَا ﴾ أوحينا ﴿ إِلَى مُوسَى الْأَمْرَ ﴾ الذى أردنا تعريفه بالوحى ومنه أمر محمد صلى الله عليه وسلم أى لم تحضر تلك الغيوب ولكنها صارت إليك بالوحى ﴿ وَمَا كُنْتَ مِنَ الشَّاهِدِينَ ﴾ للوحى أو عليه وهم السبعون المختارون للميقات من الشهادة لا الشهود لأن الحضور قد علم من قوله «وما كنت بجانب الغربى» ومساق الآية للدلالة على أن إخباره بتلك الوقائع ليس إلا بإعلام الله كما قال ﴿ وَلَكِنَّا ﴾ أوحينا إليك خبر موسى وغيره لأنا ﴿ أَنْشَأْنَا قُرُوناً ﴾ كثيرة من بعد موسى ﴿ فَتَطَاوَلَ عَلَيْهِمُ الْعُمُرُ ﴾ عمرهم أو الزمان فحرفت الأخبار واندرست العلوم وانقطع الوحى فنسوا العهود وخفيت الشرائع فأرسلناك مجدداً حذف المستدرك وأقيم سببه مقامه كما رأيت ﴿ وَمَا كُنْتَ ثَاوِياً ﴾ مقيما ﴿ فِى أَهْلِ مَدْيَنَ ﴾ قوم شعيب المؤمنين به ﴿ تَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِنَا ﴾ أى تتعلم منهم يقال تلوت على فلان إذا تعلمت منه فتعرف قصتهم فتخبر بها وهو خبر ثان، أو لم تكن أنت المرسل إليهم تتلو عليهم آياتنا بل كان المرسل إليهم شعيباً، فإخبارك بإعلام الله كما قال ﴿ وَلَكِنَّا كُنَّا مُرْسِلِينَ ﴾ إليك بأخبار المتقدمين ﴿ وَمَا كُنْتَ بِجَانِبِ الطُّورِ ﴾ الجبل ﴿ إِذْ ﴾ حين ﴿ نَادَيْنَا ﴾ موسى ثانياً «أن خذ الكتاب بقوة ... وقربناه نجيا»، والأول حين استنبأه لأنهما المذكوران فى القصة ومن المفسرين من عكس ﴿ وَلَكِنْ ﴾ علمناك ﴿ رَحْمَةً مِنْ رَبِّكَ ﴾ أعطاكها والتفت إلى الغيبة لدلالة لفظ الرب على التربية الملائمة للرحمة ولذلك عدل عن الظاهر الذى هو منا ﴿ لِتُنْذِرَ قَوْماً مَا أَتَاهُمْ مِنْ نَذِيرٍ مِنْ قَبْلِكَ ﴾ وهم أهل مكة لوقوع الفترة بينك وبين عيسى وهى خمسمائة وخمسون سنة وقد روى البخارى عن سلمان أنها ستمائة سنة، قاله فى غاية الأمانى، أو بينك وبين إسماعيل، على أن دعوة موسى وعيسى كانت مختصة ببنى إسرائيل وما حواليهم، واللام متعلق بالفعل المقدر ﴿ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴾ إذا تلوت عليهم تلك الوقائع فيعلمون أنك رسول من عند الله ﴿ وَلَوْلَا أَنْ تُصِيبَهُمْ مُصِيبَةٌ ﴾ عقوبة ﴿ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ ﴾ من الكفر والمعاصى ﴿ فَيَقُولُوا رَبَّنَا ﴾ أى لولا أنهم قائلون إذا عذبوا ﴿ لَوْلَا ﴾ هلا ﴿ أَرْسَلْتَ إِلَيْنَا رَسُولاً فَنَتَّبِعَ آيَاتِكَ ﴾ المرسل بها ﴿ وَنَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ ﴾ لما أرسلنا إليهم رسولا و« لولا » الأولى امتناعية حذف جوابها كما رأيت وما بعدها مبتدأ والمعنى لولا الإصابة المسبب عنها قولهم أو لولا قولهم المسبب عنها لما أرسلنا وكان الظاهر دخول حرف الامتناع على القول فدخل على سببه العقوبة والقول هو المسبب لإرسال الرسل و « لولا » الثانية تحضيضية ودخل الفاء فى جوابها تشبيهاً للتحضيض بالأمر لكونه باعثاً على الفعل كالأمر أى إنما أرسلناك قطعاً لعذرهم وإلزاماً للحجة عليهم ﴿ فَلَمَّا جَاءَهُمُ الْحَقُّ ﴾ الرسول محمد ﴿ مِنْ عِنْدِنَا قَالُوا لَوْلَا أُوتِىَ مِثْلَ مَا أُوتِىَ مُوسَى ﴾ من الكتاب جملة، أو العصا واليد البيضاء تعنتاً، قال تعالى ﴿ أَوَلَمْ يَكْفُرُوا بِمَا أُوتِىَ مُوسَى مِنْ قَبْلُ ﴾ حيث ﴿ قَالُوا ﴾ فيه وفى محمد ﴿ سَاحِرَانِ ﴾ وللكوفيين سحران أى التوراة والقرآن ﴿ تَظَاهَرَا ﴾ تعاونا بالاتفاق

على بعث الأموات أو معنى أو لم يكفروا أبناء جنسهم ومَن مذهبهم هو مذهبهم فى العناد من كفرة زمان موسى إذ كان فرعون وقومه من أولاد العمالقة وهم عرب من أبناء عاد جاءوا من فارس وملكوا القبط والمراد بقولهم « ساحران » موسى وهارون ﴿ وَقَالُوا إِنَّا بِكُلٍّ ﴾ كل واحد من الرسولين أو الكتابين أو بكل الأنبياء كقولهم « لن نؤمن بهذا القرآن ولا بالذى بين يديه » ﴿ كَافِرُونَ * قُلْ فَأْتُوا بِكِتَابٍ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ هُوَ أَهْدَى مِنْهُمَا ﴾ من الكتابين وهذا يؤيد أن الساحرين موسى ومحمد والسحرين التوراة والقرآن ﴿ أَتَّبِعْهُ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴾ أنا ساحران والإتيان منهم مستحيل وحرف الشك إرخاء للعنان تبكيتاً وتهكما ﴿ فَإِنْ لَمْ يَسْتَجِيبُوا لَكَ ﴾ دعاءك بالإتيان بالكتاب أى الكتاب الأهدى ﴿ فَاعْلَمْ ﴾ أزدد علماً أو دم على علمك ﴿ أَنَّمَا يَتَّبِعُونَ أَهْوَاءَهُمْ ﴾ فى كفرهم إذ لم يبق لهم شبهة فضلا عن حجة ﴿ وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنِ اتَّبَعَ هَوَاهُ ﴾ أى لا أضل منه ﴿ بِغَيْرِ هُدًى مِنَ اللَّهِ ﴾ فى موضع الحال للتوكيد لا للتقييد بناء على أن هوى النفس قد يوافق الحق كما قال البيضاوى لعدم الاعتداد بتلك الموافقة كما قال فى غاية الأمانى ﴿ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ ﴾ المجبولين على الظلم المنهمكين فيه باتباع الهوى . ثم أجاب عن قولهم « لولا أوتى مثل ما أوتى موسى » بقوله ﴿ وَلَقَدْ وَصَّلْنَا ﴾ بيّنا ﴿ لَهُمُ الْقَوْلَ ﴾ القرآن أو أتبعنا بعضه بعضاً فى الإنزال متواصلا وعداً ووعيدا أو قصصاً ونصائح ليتصل التذكير وتتقرر الدعوة بالحجة والمواعظ ﴿ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴾ فيؤمنون به ويطيعون الله ﴿ الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِهِ ﴾ من قبل القرآن أو محمد عليه السلام ﴿ هُمْ بِهِ يُؤْمِنُونَ ﴾ تقديم « هم » للاختصاص ، و « به » للاهتمام ، والآيات مدنيات فى سورة مكية كما قدمنا : أنزلت فى مؤمنى أهل الكتاب كعبدالله بن سلام وأصحابه من أهل التوراة وكأربعين من أهل الإنجيل اثنان وثلاثون جاءوا من الحبشة مع جعفر بن أبى طالب فى السفينة وثمانية قدموا من الشام أو الآيات مكيات أخبرت بما سيقع . وعن محمد بن إسحق : هؤلاء عشرون رجلا بعثهم النجاشى ورسول الله بمكة فقرأ عليهم القرآن فآمنوا . وعن سعيد بن جبير : هم سبعون . والله أعلم . والاختصاص الذى ذكرناه فى « هم » إضافى باعتبار كفار مكة والله أعلم ﴿ وَإِذَا يُتْلَى عَلَيْهِمْ ﴾ القرآن ﴿ قَالُوا آمَنَّا بِهِ ﴾ بأنه كلام الله تعالى ﴿ إِنَّهُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّنَا ﴾ استئناف لبيان ما أوجب إيمانهم به ﴿ إِنَّا كُنَّا مِنْ قَبْلِهِ مُسْلِمِينَ ﴾ استئناف آخر للدلالة على إيمانهم به ليس مما أحدثوه حينئذ وإنما هو أمر تقادم عهده لما رأوا ذكره فى الكتب المتقدمة وكونهم على دين الإسلام قبل نزول القرآن وتلاوته عليهم باعتقادهم صحته فى الجملة ﴿ أُولَئِكَ يُؤْتَوْنَ أَجْرَهُمْ مَرَّتَيْنِ ﴾ بإيمانهم بالكتابين أى لهم ضعف أجر من آمن بمحمد من المشركين : روى البخارى ومسلم عن أبى موسى الأشعرى أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال ثلاثة لهم أجران : رجل آمن بنبيه وآمن بمحمد ، وعبد مملوك أدى حق الله وحق مواليه ، ورجل له أمة فأدبها فأحسن تأديبها ثم أعتقها فتزوجها ﴿ بِمَا صَبَرُوا ﴾ بصبرهم على العمل بهما وعلى أذى المشركين وأذى من هجرهم من أهل دينهم ﴿ وَيَدْرَءُونَ ﴾ يدفعون

﴿ بِالْحَسَنَةِ ﴾ الطاعة ﴿ السَّيِّئَةَ ﴾ المعصية منهم فمحوها أو من غيرهم ﴿ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ ﴾ فى سبيل الخير ثقة بوعد الله بالثواب ﴿ وَإِذَا سَمِعُوا اللَّغْوَ ﴾ الشتم والأذى وكل باطل ومالا طائل تحته ﴿ أَعْرَضُوا عَنْهُ ﴾ تكرماً ﴿ وَقَالُوا ﴾ للاغين ﴿ لَنَا أَعْمَالُنَا وَلَكُمْ أَعْمَالُكُمْ سَلَامٌ عَلَيْكُمْ ﴾ سلام متاركة أى سلمتم منا عن المقابلة بالمثل أوهو دعاء لهم بالسلامة عما هم فيه ﴿ لَا نَبْتَغِي الْجَاهِلِينَ ﴾ لانرضى بالتخلق بأخلاقهم ولانطلب صحبتهم ولا جدالهم ولا تراجعهم قال ابن المبارك ما أضيف شيء إلى شيء أحسن من حلم إلى علم . ونزل فى حرصه صلى الله عليه وسلم على إيمان عمه أبى طالب ﴿ إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ ﴾ هدايته أى لا تقدر على إدخاله فى الإسلام ﴿ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ ﴾ بخلق الإيمان فى قلبه ﴿ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ ﴾ القابلين المستعدين له ﴿ وَقَالُوا ﴾ أى قومه قريش ﴿ إِنْ نَتَّبِعِ الْهُدَى مَعَكَ نُتَخَطَّفْ مِنْ أَرْضِنَا ﴾ ننتزع منها بسرعة وقائله الحارث بن عثمان بن نوفل فأسند إليهم لرضاهم به : أى إن اتبعناك وخالفنا العرب تخطفونا وهو تعلل بعلة باطلة ردها الله عليهم بقوله ﴿ أَوَلَمْ نُمَكِّنْ لَهُمْ ﴾ نجعل لهم مكاناً ﴿ حَرَماً ﴾ بحرمة البيت الحرام ﴿ آمِناً ﴾ ذا أمن ومأموناً فيه من إطلاق لفظة الفاعل على المفعول يأمنون فيه من الإغارات والقتل الواقعين فى العرب حولهم ﴿ تُجْبَى إِلَيْهِ ﴾ بالفوقية لنافع والتحتية للباقين أى تجلب إليه ﴿ ثَمَرَاتُ كُلِّ شَيْءٍ ﴾ مما يحتاجون إليه من كل أوب وإذا كان هذا حالهم وهم على الشرك فكيف لوضموا إلى حرمة البيت شرف الإيمان ﴿ رِزْقاً ﴾ لهم ﴿ مِنْ لَدُنَّا ﴾ من عندنا تفضلا من غير استحقاق منهم ورزقاً نصب على المصدر لأن تجبى بمعنى ترزق أو على المفعول له أو على الحال من الثمرات لتخصصه بالإضافة إن جعلته بمعنى المرزوق ﴿ وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ ذلك مع ظهوره لكونهم مختوما على قلوبهم ، أو أكثرهم لا يعلمون أن التأمين والرزق من الله ثم بين لهم أن الأمر بالعكس على ما قالوا وأنهم أحقاء أن يخافوا من بأس الله حين بطروا نعمته بقوله ﴿ وَكَمْ أَهْلَكْنَا مِنْ قَرْيَةٍ ﴾ أى أهلكنا كثيراً من أهل القرى كان حالهم كحالهم فى الأمن ولين العيش ﴿ بَطِرَتْ ﴾ أشرت وكفرت ﴿ مَعِيشَتَهَا ﴾ أى فى عيشها فنصب بنزع الخافض أوضمن بطرت معنى كفرت فهو مفعول به ﴿ فَتِلْكَ مَسَاكِنُهُمْ ﴾ خاوية ﴿ لَمْ تُسْكَنْ ﴾ من السكنى ﴿ مِنْ بَعْدِهِمْ إِلَّا قَلِيلًا ﴾ للمارة يوماً أو بعضه للاستراحة أو لم يسكنها إلا الطيور والوحوش أو لم يسكن من سكنها إلا قليلا بشؤم معاصيهم لسرايته إلى كل ساكن ﴿ وَكُنَّا نَحْنُ الْوَارِثِينَ ﴾ منهم بأن تركناها بلاقع لم يخلفهم أحد فى ديارهم يتصرف تصرفهم ﴿ وَمَا كَانَ رَبُّكَ مُهْلِكَ الْقُرَى بِظُلْمٍ ﴾ منها ﴿ حَتَّى يَبْعَثَ فِي أُمِّهَا ﴾ أعظمها وأصلها التى هى أعمالها لأن أهلها يكونون أفطن وأنبل ﴿ رَسُولًا يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِنَا ﴾ إلزاماً للحجة وقطع المعذرة ويكون سائر القرى توابع ﴿ وَمَا كُنَّا مُهْلِكِي الْقُرَى ﴾ فى الزمان السابق ﴿ إِلَّا وَأَهْلُهَا ظَالِمُونَ ﴾ بتكذيب الرسل المبعوث إليهم وفيه تخويف لأهل مكة بأنهم بتلك الصفة فهم بصدد ذلك ﴿ وَمَا أُوتِيتُمْ مِنْ شَيْءٍ ﴾ من أسباب الدنيا ﴿ فَمَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَزِينَتُهَا ﴾ تتمتعون به وتتزينون به مدة حياتكم فيفنى

﴿وَمَا عِنْدَ اللَّهِ﴾ من الثواب ﴿خَيْرٌ وَأَبْقَى﴾ لأنه أبدى . وفى الحديث : لو كانت الدنيا من الذهب والآخرة من الخزف لاختارها العاقل فكيف والأمر بالعكس ولذا قال ﴿أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ بالتاء للجمهور والياء لأبى عمرو أى أن الباقى خير من الفانى وإيثار الفانى على الباقى ليس من أفعال العقلاء وقراءة الغيبة على الالتفات أشد ذماً ، والخطاب أبلغ موعظة وفى الكل مقتضى المقام ثم أوضح ما تقدم من تفاوت الفانى والباقى بقوله ﴿أَفَمَنْ وَعَدْنَاهُ وَعْدًا حَسَنًا﴾ وهو الوعد بالجنة فإن حسن الوعد بحسن الموعود ﴿فَهُوَ لَاقِيهِ﴾ مدركه لا محالة لامتناع الخلف فى وعده ولذا عطفه بالفاء المعطية معنى السببية ﴿كَمَنْ مَتَّعْنَاهُ مَتَاعَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾ الفانى المشوب بالألم المكدر بالمتاعب أى لا يستوى إيتاء الآخرة والدنيا ﴿ثُمَّ هُوَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ مِنَ الْمُحْضَرِينَ﴾ إلى النار و « ثم » لبيان تراخى حال الإحضار عن حال التمتع لا للتراخى فى المدة وهذه الآية كالنتيجة للتى قبلها ولذا رتبت عليها بالفاء وفى لفظ الإحضار إشارة إلى السوق بالجبر ﴿وَ﴾ اذكر ﴿يَوْمَ يُنَادِيهِمْ﴾ الله ﴿فَيَقُولُ أَيْنَ شُرَكَائِيَ الَّذِينَ كُنْتُمْ تَزْعُمُونَ﴾ هم شركائى ، حذف المفعولان لدلالة الكلام عليهما ﴿قَالَ الَّذِينَ حَقَّ عَلَيْهِمُ الْقَوْلُ﴾ بثبوت مقتضاه عليهم وهو الخلود فى النار وهو قوله « لأملأن جهنم » ونحوه والذين حق عليهم هم رؤساء الضلالة ﴿رَبَّنَا هَؤُلَاءِ الَّذِينَ أَغْوَيْنَا﴾ هم مبتدأ وصفته والخبر ﴿أَغْوَيْنَاهُمْ﴾ فغووا ﴿كَمَا غَوَيْنَا﴾ لم نكرههم على الغىّ وهو معنى التشبيه والكاف فى موضع المصدر ويجوز أن يكون « أغويناهم » استئناف والموصول قبل خبر المبتدإ ﴿تَبَرَّأْنَا إِلَيْكَ﴾ منهم ومما اختاروه من الكفر هوى منهم تقرير للجملة المتقدمة ولذلك خلت عن العاطف وكذا قوله ﴿مَا كَانُوا إِيَّانَا يَعْبُدُونَ﴾ بل كانوا يتبعون لهواهم و « ما » نافية وقدم المفعول للفاصلة ، وجعلها مصدرية تكلف ﴿وَقِيلَ ادْعُوا شُرَكَاءَكُمْ فَدَعَوْهُمْ﴾ لفرط الحيرة ﴿فَلَمْ يَسْتَجِيبُوا لَهُمْ﴾ دعاءهم لعجزهم عن الإجابة والنصرة ﴿وَرَأَوُا الْعَذَابَ﴾ أبصروه وتيقنوا أنهم صائرون إليه ﴿لَوْ أَنَّهُمْ كَانُوا يَهْتَدُونَ﴾ فى الدنيا ما رأوه فى الآخرة أو « لو » للتمنى أى تمنوا أنهم كانوا مهتدين ﴿وَ﴾ اذكر ﴿يَوْمَ يُنَادِيهِمْ فَيَقُولُ مَاذَا أَجَبْتُمُ الْمُرْسَلِينَ﴾ إليكم عطف على الظرف الأول سألهم أولا عن إشراكهم به ثم عن تكذيبهم الأنبياء توبيخاً وإزاحة للعلل ﴿فَعَمِيَتْ عَلَيْهِمُ الْأَنْبَاءُ﴾ الأخبار المنجية فى الجواب والأصل عموا عن الأنباء فعكس مبالغة كأن عماهم سرى إلى الأنباء فلم يجد إليهم سبيلا والمراد عمى القلب وتعدى الفعل بعلى لتضمنه معنى الخفاء ﴿يَوْمَئِذٍ فَهُمْ لَا يَتَسَاءَلُونَ﴾ عن الجواب لفرط الدهشة وتساويهم فى العمى ﴿فَأَمَّا مَنْ تَابَ﴾ من الشرك ﴿وَآمَنَ﴾ بما يجب الإيمان به ﴿وَعَمِلَ صَالِحًا﴾ بعد الإيمان من الفرائض وغيرها ﴿فَعَسَى أَنْ يَكُونَ مِنَ الْمُفْلِحِينَ﴾ الناجين بوعد الله ترغيب فى الإقلاع فكأنه قال ما ذكر حال المصرّ ، وأما التائب فمن الفائزين ﴿وَرَبُّكَ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ وَيَخْتَارُ﴾ ما يشاء من هداية أحد الفريقين وإضلال الآخر وغير ذلك والاختيار هو القصد إلى إيجاب ما تعلقت به الإرادة وترجيح أحد الطرفين بعد ملاحظة الآخر ﴿مَا كَانَ لَهُمُ﴾ للعباد

أو المشركين ﴿الْخِيَرَةُ﴾ الاختيار فى شىء بيان لقوله ويختار ولذا لم يدخله العاطف نفى للاختيار عنهم رأسا والأمر كذلك عند التحقيق إذ اختيار العباد مخلوق باختيار الله منوط بدواع لا اختيار لهم فيها وقيل المراد ليس لأحد من خلقه أن يختار عليه ردّ لقولهم لولا أنزل هذا القرآن على رجل من القريتين عظيم وقيل ماموصولة مفعول يختار والراجع إليه محذوف ، المعنى ويختار الذى لهم فيه الخيرة أى الخير والصلاح ﴿سُبْحَانَ اللَّهِ﴾ تنزيها له أن ينازعه أحد فيما يشاء أو يزاحم اختيارَه اختيارٌ ﴿وَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ عن إشراكهم أو ما يشركون به ﴿وَرَبُّكَ يَعْلَمُ مَا تُكِنُّ صُدُورُهُمْ﴾ تستر من الكفر وعداوة الرسول والحقد ﴿وَمَا يُعْلِنُونَ﴾ بألسنتهم كالطعن فيه ﴿وَهُوَ اللَّهُ﴾ المستحق للعبادة لاغيره ﴿لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ﴾ لاأحد يستحقها إلا هو تأكيد وتقرير للأولى ﴿لَهُ الْحَمْدُ فِي الْأُولَى﴾ فى الدنيا ﴿وَالْآخِرَةِ﴾ لأنه مولى النعمة فى الدارين يحمده المؤمنون فى الآخرة تلذذاً وابتهاجاً كما يحمدونه فى الدنيا تعبدا ، روى مسلم وأبو داود عن جابر رضى الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال « أهل الجنة لا يبولون ولا يتغوطون ولا يتفيئون يلهمون التسبيح والتهليل كما يلهمنا التنفس » ﴿وَلَهُ الْحُكْمُ﴾ القضاء النافذ فى كل شىء لا حاكم غيره ﴿وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ بالنشور للمجازاة لا إلى غيره . ولما ذكر تفرده بالألوهية واستحقاقه الحمد فى الدارين أردفه بنعمتين لا يمكن الانتفاع بسائر النعم بدونهما ولا يشك أحد أنهما منه بقوله ﴿قُلْ﴾ لأهل مكة ﴿أَرَأَيْتُمْ﴾ أخبرونى ﴿إِنْ جَعَلَ اللَّهُ عَلَيْكُمُ اللَّيْلَ سَرْمَدًا﴾ دائماً من السرد المداومة على المشى والميم زائدة ﴿إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ﴾ بإسكان الشمس تحت الأرض ﴿مَنْ إِلَهٌ غَيْرُ اللَّهِ﴾ بزعمكم ﴿يَأْتِيكُمْ بِضِيَاءٍ﴾ نهار تطلبون فيه المعيشة قدم ذكر الليل لأن انكشافه عن النهار بالنير الأعظم أبلغ فى المنافع وأجلب للمصالح ولذا آثر ذكر الضياء على النهار مع كونه ظاهراً فى التقابل للدلالة على أنه المقصود من النهار والانتفاع بالنهار من روادفه وقال « من إله » بدل هل إله بناء على زعمهم أن معه آلهة وقرأ ابن كثير بضياء بهمزتين ﴿أَفَلَا تَسْمَعُونَ﴾ ذلك سماع تدبر فترجعون عن الإشراك ﴿قُلْ﴾ لهم ﴿أَرَأَيْتُمْ إِنْ جَعَلَ اللَّهُ عَلَيْكُمُ النَّهَارَ سَرْمَدًا﴾ بإسكان الشمس فى وسط السماء ﴿إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ مَنْ إِلَهٌ غَيْرُ اللَّهِ﴾ بزعمكم ﴿يَأْتِيكُمْ بِلَيْلٍ تَسْكُنُونَ﴾ تستريحون ﴿فِيهِ﴾ من التعب ﴿أَفَلَا تُبْصِرُونَ﴾ ماأنتم عليه من الخطأ فى الإشراك فترجعون عنه لم يقابل الضياء بالظلام لكونه غير مقصود ولنفرة النفس من سماعه فى معرض الامتنان وذكر السكون فى الليل ولم يقابل بالتصرف فى النهار لانحصار نفع الليل فيه دون النهار لم ينحصر نفعه فى التصرف لأن منافع الضوء أكثر مما يقابله ولذا فصل بأفلا تسمعون والليل بأفلا تبصرون لأن استفادة العقل من السمع أكثر من استفادته من البصر والتوبيخ بأفلا تسمعون أبلغ منه فى أفلا تبصرون والله أعلم ﴿وَمِنْ رَحْمَتِهِ﴾ تعالى ﴿جَعَلَ لَكُمُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ لِتَسْكُنُوا فِيهِ﴾ فى الليل ﴿وَلِتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ﴾ فى النهار بالكسب لف ونشر مرتب وهو من محسنات الكلام ﴿وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ النعمة فيهما ﴿وَ﴾ اذكر ﴿يَوْمَ

يُنَادِيهِمْ فَيَقُولُ أَيْنَ شُرَكَائِيَ الَّذِينَ كُنْتُمْ تَزْعُمُونَ﴾ تقريع بعد تقريع للإشعار بأنه لا شيء أجلب لغضب الله من الإشراك وليبنى عليه ﴿وَنَزَعْنَا﴾ أخرجنا ﴿مِنْ كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيدًا﴾ وهو نبيهم يشهد عليهم بما كانوا عليه ﴿فَقُلْنَا﴾ بعد إحضار النبي ﴿هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ﴾ على الشرك وتكذيب الرسل وهذا إعذار ومن هنا أخذ العلماء إعذار القاضي لمن يريد أن يحكم عليه بقوله أبقيت لك حجة ﴿فَعَلِمُوا أَنَّ الْحَقَّ﴾ في الألوهية ﴿لِلَّهِ﴾ وحده لا يشاركه فيه أحد ﴿وَضَلَّ﴾ غاب ﴿عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَفْتَرُونَ﴾ في الدنيا من أن معه شريكا تعالى عن ذلك. ولما كان افتخار المشركين بما كان لهم من الأموال والبنين وما كان فيه رسول الله صلى الله عليه وسلم من قلة ذات اليد هددهم الله أولا بقوله «وكم أهلكنا من قرية بطرت معيشتها» وأردفه بمن ضرب به المثل في الثروة وما آل إليه أمره من الهلاك بقوله ﴿إِنَّ قَارُونَ﴾ بن يصهر بن قاهث بن لاوى ابن يعقوب عليه السلام ﴿كَانَ مِنْ قَوْمِ مُوسَى﴾ ابن عمه يصهر وابن خالته وآمن به ﴿فَبَغَى عَلَيْهِمْ﴾ طلب الفضل عليهم بأن يكونوا تحت أمره كما كانوا قبل إرسال موسى إذ ملكه فرعون على بني إسرائيل أو ظلمهم أو تكبر عليهم بكثرة الأموال والأولاد أو خرج عن أتباع موسى وهارون فقال لموسى لك الرسالة ولهارون الحبورة وأنا في غير شيء إلى متى أصبر اقال له موسى هذا صنع الله ﴿وَآتَيْنَاهُ مِنَ الْكُنُوزِ﴾ الأموال المدخرة من الكنز وهو الجمع ﴿مَا إِنَّ مَفَاتِحَهُ﴾ مفاتح صناديقه جمع مفتح بالكسر وهو ما يفتح به وقيل جمع مفتح بالفتح خزانة المال ﴿لَتَنُوءُ﴾ تثقل ﴿بِالْعُصْبَةِ﴾ الجماعة ﴿أُولِي الْقُوَّةِ﴾ تثقلهم فالباء للتعدية ناء به الحمل أثقله حتى أماله خبر إن والجملة صلة ما وهو ثاني مفعولي آتى والعصبة الجماعة الكثيرة من العصوبة الإحاطة وقد بولغ في إظهار الكثرة حيث ذكر الكنوز والنوء والعصبة ذوو القوة قيل كان يحمل مفاتيح خزائنه ستون بغلا وكان كل مفتاح لا يزيد على إصبع ﴿إِذْ قَالَ لَهُ قَوْمُهُ﴾ المؤمنون من بني إسرائيل وهو ظرف لتنوء ﴿لَا تَفْرَحْ﴾ بكثرة المال والفرح بالدنيا مذموم مطلقا لأنه نتيجة حبها والرضى بها وذلك مانع من محبة الله كما قال ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْفَرِحِينَ﴾ بزخارف الدنيا قال الغزالي في الإحياء الفرح بالدنيا والتنعم بها سم قاتل يخرج من القلب الخوف وذكر الموت وأهوال القيامة وهذا هو موت القلب والعياذ بالله. اهـ. ﴿وَابْتَغِ﴾ اطلب ﴿فِيمَا آتَاكَ اللَّهُ﴾ من المال ﴿الدَّارَ الْآخِرَةَ﴾ بأن تنفقه في طاعة الله فإن المقصود من المال الوصلة به إلى الدار الآخرة وفي الحديث نعم المال الصالح للرجل الصالح ﴿وَلَا تَنْسَ﴾ تترك ﴿نَصِيبَكَ مِنَ الدُّنْيَا﴾ بأن تحصل بها آخرتك أو تأخذ منها ما يكفيك وفي الحديث ليس لك من مالك إلا ما أكلت فأفنيت أو لبست فأبليت أو تصدقت به فأبقيت ﴿وَأَحْسِنْ﴾ للناس بالصدقة وبالشكر والطاعة ﴿كَمَا أَحْسَنَ اللَّهُ إِلَيْكَ﴾ بالإنعام ﴿وَلَا تَبْغِ الْفَسَادَ فِي الْأَرْضِ﴾ بالبغي والظلم والمعاصي أي لا تطلبه فضلا عن الوقوع فيه ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُفْسِدِينَ﴾ والعاقل لا يدخل نفسه في زمرتهم ﴿قَالَ إِنَّمَا أُوتِيتُهُ﴾ أي المال ﴿عَلَى عِلْمٍ﴾ أي في مقابلته وكان أعلم بني إسرائيل بالتوراة بعد

موسى وهارون وقيل هو علم الكيمياء تعلمه من موسى وقيل علم التجارة والمكاسب وقيل العلم بكنوز يوسف ﴿عِنْدِي﴾ صفة لعلم وعلى علم فى موضع الحال أو عندى استئناف يقرر ما ذكره أى هكذا الأمر عندى وفى اعتقادى قال تعالى ﴿أَوَلَمْ يَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ قَدْ أَهْلَكَ مِنْ قَبْلِهِ مِنَ الْقُرُونِ﴾ الأمم ﴿مَنْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُ قُوَّةً وَأَكْثَرُ جَمْعًا﴾ للمال أى هو عالم بذلك لأنه قرأه فى التوراة وسمعه من حفظة التواريخ كأخبار نمرود والضحاك فكيف يغتر بما هو فيه ولم يقس حاله على أولئك ﴿وَلَا يُسْأَلُ عَنْ ذُنُوبِهِمُ الْمُجْرِمُونَ﴾ سؤال استعلام لأنه تعالى مطلع عليها ولا معاتبة إذ ذلك يكون بين الأحبة بل يعذبون بها بغتة وفيه إشارة إلى إهلاك قارون بغتة ﴿فَخَرَجَ﴾ قارون ﴿عَلَى قَوْمِهِ فِي زِينَتِهِ﴾ مفتخراً عليهم فى زيه المخصوص به وبأتباعه الكثيرين ركبانا متحلين بملابس الذهب والحرير على خيول وبغال متحلية ومعه أربعة آلاف على زيه قاله البيضاوى ، قال فى الجواهر أكثر الناس فى زينة قارون بما لاصحة له فتركته . اه . ﴿قَالَ الَّذِينَ يُرِيدُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا﴾ وهم عوام المؤمنين ﴿يَا لَيْتَ لَنَا مِثْلَ مَا أُوتِيَ قَارُونُ﴾ فى الدنيا ﴿إِنَّهُ لَذُو حَظٍّ﴾ نصيب ﴿عَظِيمٍ﴾ وافٍ فيها ﴿وَقَالَ﴾ لهم ﴿الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ﴾ بما وعد الله فى الآخرة وسرعة زوال نعيم الدنيا ﴿وَيْلَكُمْ﴾ كلمة زجر أصلها الدعاء بالهلاك فاستعمل للزجر عما لايرتضى وهى هنا للتعجب من ذهولهم وتمنيهم الفانى ﴿ثَوَابُ اللَّهِ﴾ فى الآخرة بالجنة ﴿خَيْرٌ لِمَنْ آمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا﴾ مما أوتى قارون فى الدنيا بل من الدنيا وما فيها ﴿وَلَا يُلَقَّاهَا﴾ أى كلمة هؤلاء العلماء أو الجنة المرادة بالثواب ﴿إِلَّا الصَّابِرُونَ﴾ على الطاعات وعن المعاصى ﴿فَخَسَفْنَا بِهِ﴾ بقارون ﴿وَبِدَارِهِ الْأَرْضَ﴾ روى أنه كان يؤذى موسى عليه السلام كل وقت وهو يداريه لقرابته حتى نزلت الزكاة فصالحه عن كل ألف على واحد فحسبه فاستكثره فجمع بنى إسرائيل وقال إن موسى يريد أخذ أموالكم فقالوا أنت سيدنا مرنا بما رأيت قال قد دبرت له فجعل لبغيّ من بغايا بنى إسرائيل ألف دينار لترميه بنفسها فلما كان يوم العيد قام موسى خطيباً فقال : من سرق قطعناه ومن زنى غير محصن جلدناه ومن زنى محصناً رجمناه . فقال قارون : ولو أنت ؟ قال : ولو أنا . قال : إن بنى إسرائيل يزعمون أنك فجرت بفلانة . فأحضرت فناشدها موسى بالله أن تصدق فقالت : جعل لى قارون جعلا على أن أرميك بنفسى ، فخر موسى ساجداً يشكو قارون إلى ربه فأوحى الله إليه أن مُرِ الأرض بما شئت وقد اعتزل بنو إسرائيل عن قارون غير رجلين فقال موسى للأرض خذيهم فأخذتهم إلى الركبة ثم إلى أوساطهم ثم إلى أعناقهم وهم يناشدونه فى كل ذلك ويقول خذيهم فخسفت بهم ثم قالت بنو إسرائيل بعد ذلك إنما فعله ليرث ماله فدعا الله فخسف بداره وأمواله كما قال تعالى ﴿فَمَا كَانَ لَهُ مِنْ فِئَةٍ﴾ أعوان ﴿يَنْصُرُونَهُ مِنْ دُونِ اللَّهِ﴾ من غيره بأن يمنعوا عنه الهلاك ﴿وَمَا كَانَ مِنَ الْمُنْتَصِرِينَ﴾ بغير الفئة من الأسباب ﴿وَأَصْبَحَ الَّذِينَ تَمَنَّوْا مَكَانَهُ بِالْأَمْسِ﴾ أى من قريب بقولهم « ياليت لنا مثل ما أوتى قارون » ﴿يَقُولُونَ وَيْكَأَنَّ اللَّهَ﴾ أى نعجب لأن الله ﴿يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ

يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَيَقْدِرُ ﴾ يضيق على من يشاء ، و « وَىْ » اسم فعل بمعنى أعجب أى أنا والكاف بمعنى اللام أو مركب من «وى» للتعجب و «كأن» للتشبيه والمعنى ماأشبه الأمر أن الله الخ ، وقيل أصله ويلك فحذف اللام تخفيفا لكثرة الاستعمال ورسمت مركبة لتوقف المعنى عليه ﴿ لَوْلَا أَنْ مَنَّ اللَّهُ عَلَيْنَا لَخَسَفَ بِنَا ﴾ بالبناء للمفعول للجمهور والفاعل لخفص أى حيث تمنينا أن نؤتى مثل ما أوتى ﴿ وَيْكَأَنَّهُ لَا يُفْلِحُ الْكَافِرُونَ ﴾ لنعمة الله كقارون ﴿ تِلْكَ الدَّارُ الْآخِرَةُ ﴾ أى الجنة والإشارة للتعظيم أى التى بلغك خبرها وتيقنت بشأنها العجيب ، والدار الآخرة صفة والخبر ﴿ نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِي الْأَرْضِ ﴾ غلبة وقهرا بالبغى كما أراد فرعون ﴿ وَلَا فَسَادًا ﴾ بعمل المعاصى كقارون ﴿ وَالْعَاقِبَةُ ﴾ المحمودة ﴿ لِلْمُتَّقِينَ ﴾ ما لا يرضاه الله وهذا التذييل يدل على أن ملاك الأمر هو التقوى ولا يكفى فى النجاة عدم تلك الإرادة ومن تلك الإرادة كما قال عليه السلام : أن تريد أن يكون شراك نعلك أفضل من شراك نعل أخيك ومن الاتقاء المذكور الفرار عما يذكره الدنيا ولو كان حلالا . وفى الترمذى عن عائشة رضى الله عنها قالت : كان لنا قرام ستر فيه تماثيل على بابى فرآه رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال أنزعيه فإنه يذكرنى الدنيا . وفيه إن لكل أمة فتنة وفتنة أمتى المال قال الترمذى حسن صحيح ﴿ مَنْ جَاءَ بِالْحَسَنَةِ فَلَهُ خَيْرٌ مِنْهَا ﴾ ذاتاً وقدراً ووصفاً أو ثواب بسببها وهو عشر أمثالها ﴿ وَمَنْ جَاءَ بِالسَّيِّئَةِ فَلَا يُجْزَى الَّذِينَ عَمِلُوا السَّيِّئَاتِ ﴾ وضع الظاهر موضع الضمير تهجيناً لحالهم بتقرير إسناد السيئة إليهم ودلالة أن لا فرق بين من يرتكب سيئة أو سيئات ﴿ إِلَّا ﴾ جزاء ﴿ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴾ أو إلا مثل ما كانوا يعملون : حذف المضاف مبالغة فى المماثلة كما بولغ فى جانب الحسنة بلفظ الخير الدال على الكثرة ﴿ إِنَّ الَّذِي فَرَضَ عَلَيْكَ الْقُرْآنَ ﴾ أوجب عليك تلاوته وتبليغه والعمل بما فيه ﴿ لَرَادُّكَ ﴾ بعد الموت أو الهجرة ﴿ إِلَى مَعَادٍ ﴾ أىّ معاد والتنكير للتعظيم أى ليس لغيرك من البشر مثله وهو المقام المحمود الذى وعدك أن يبعثك فيه ، وهذا تفسير الجمهور كما قال فى الجواهر . وقيل أراد مكة وتنكيره لأن فتح مكة كان له شأن . روى أنها نزلت فى مهاجره حين بلغ الجحفة واشتاق إلى مولده ومولد آبائه والآية تأكيد لقوله « والعاقبة للمتقين » بوعد المحسنين العاقبة الحسنى فى الدارين ووعيد المسيئين بضد ذلك فيهما ﴿ قُلْ رَبِّي أَعْلَمُ مَنْ جَاءَ بِالْهُدَى ﴾ وما يستحقه من الثواب والنصر و « من » نصب بفعل يفسره « أعلم » وتقدم ما فيه ﴿ وَمَنْ هُوَ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ ﴾ وما استحقه من العذاب والإذلال يعنى به نفسه والمشركين وهو تقرير للوعد السابق وكذا قوله ﴿ وَمَا كُنْتَ تَرْجُو أَنْ يُلْقَى إِلَيْكَ الْكِتَابُ ﴾ لأنك أمىّ ناشئ بين كفار لا يقرأون فألقى إليك ولا يستبعد أن يردك إلى معادك ﴿ إِلَّا ﴾ لكن ألقى إليك ﴿ رَحْمَةً مِنْ رَبِّكَ ﴾ ويجوز أن يكون استثناء محمولا على المعنى كأنه قال وما ألقى إليك الكتاب إلا رحمة من ربك لأن نفى الرجاء نفى للإلقاء على أبلغ وجه ﴿ فَلَا تَكُونَنَّ ظَهِيرًا ﴾ معيناً ﴿ لِلْكَافِرِينَ ﴾ فى أمر مداراة أو إجابة إلى مطلوب فإنه إغراء لهم ﴿ وَلَا يَصُدُّنَّكَ ﴾

أصله يصدونك حذف نون الرفع للجازم والواو الفاعل لالتقائها مع النون الساكنة ﴿ عَنْ آيَاتِ اللَّهِ ﴾ عن قراءتها والعمل بها ﴿ بَعْدَ إِذْ أُنْزِلَتْ إِلَيْكَ ﴾ إذ لم تنزل إلا للتلاوة والعمل ﴿ وَادْعُ ﴾ الناس بها ﴿ إِلَى رَبِّكَ ﴾ إلى توحيده وعبادته ﴿ وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴾ بمساعدتهم على ترك التوحيد ولم يؤثر الجازم فى الفعل لبنائه ﴿ وَلَا تَدْعُ ﴾ تعبد ﴿ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ ﴾ قطع لأطماع المشركين عن مساعدتهم ﴿ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ ﴾ استئناف كالبرهان على عدم ألوهية الغير ﴿ كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُ ﴾ ذاته، كل من عليها فانٍ ويبقى وجه ربك ﴿ لَهُ الْحُكْمُ ﴾ القضاء النافذ فى الخلق ﴿ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴾ بالنشور من القبور للجزاء الحق .

[تم تفسير سورة القصص]

سورة العنكبوت

مكية - تسع وستون آية

﴿ بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ ۝ الم ﴾ سبق ما فيه ووقوع الاستفهام بعده دليل على استقلاله بنفسه أو بما يضمن معه ﴿ أَحَسِبَ النَّاسُ ﴾ إنكار للحسبان المتعلق بقوله ﴿ أَنْ يُتْرَكُوا أَنْ يَقُولُوا ﴾ أى لقولهم ﴿ آمَنَّا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ ﴾ لا يختبرون بما يتبين به حقيقة إيمانهم ! نزل فى جماعة آمنوا فآذاهم المشركون فجزعوا و « أن يتركوا » سادٌّ مسد مفعولى « حسب » و « أن يقولوا » متعلق به بتقدير اللام والترك بمعنى التصيير وثانى مفعوليه محذوف أى غير مفتونين ، أو الترك أول مفعولى حسب وأن يقولوا الثانى أى أحسبوا تركهم غير مفتونين لقولهم « آمنا » بل لابد أن يمتحنوا بالهجرة والجهاد ورفض الشهوات ووظائف الطاعات وأنواع المصائب فى الأنفس والأموال ليتميز المخلص من المنافق والثابت فى الدين من المضطرب وليتالوا بالصبر عليها عوالى الدرجات ﴿ وَلَقَدْ فَتَنَّا الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ ﴾ أى ذلك سنة الله القديمة الجارية فى الأمم كلها فلا ينبغى أن يتوقع خلافه وفى البخارى : كان يؤخذ الرجل ممن قبلكم فيحفر له فى الأرض ثم يجعل فيها ويؤتى بالمنشار فيوضع على رأسه فيجعل نصفين ويمشط بأمشاط الحديد ما دون

لحمه وعظمه ما يصده ذلك عن دينه ﴿ فَلَيَعْلَمَنَّ ٱللَّهُ ﴾ ليميزن أو ليجازين ﴿ ٱلَّذِينَ صَدَقُوا ﴾ فى إيمانهم ﴿ وَلَيَعْلَمَنَّ ٱلْكَاذِبِينَ ﴾ فيه أو ليعلمن علم مشاهدة يقع به التمييز ، وعلى الأولين أريد بالعلم لازمه وهو التمييز أو المجازاة ﴿ أَمْ ﴾ بل أ ﴿ حَسِبَ ٱلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلسَّيِّئَاتِ ﴾ الشرك والمعاصى ﴿ أَنْ يَسْبِقُونَا ﴾ يفوتونا فلا نقدر أن نجازيهم على مساوئهم وهو ساد مسد مفعولى «حسب» و «أن» منقطعة والإضراب فيها لأن هذا الحسبان أسوأ وأبطل من الأول ولذا قال ﴿ سَاءَ ﴾ بئس ﴿ مَا يَحْكُمُونَ ﴾ حكما يحكمونه أو الذى يحكمونه حكمهم هذا ﴿ مَنْ كَانَ يَرْجُو لِقَاءَ ٱللَّهِ ﴾ فى الجنة برؤيته أو الوصول إلى ثوابه بعد الموت ﴿ فَإِنَّ أَجَلَ ٱللَّهِ ﴾ به ﴿ لَآتٍ ﴾ لا محالة فليبادر إلى ما يصدق رجاءه ويحقق أمله مما يستوجب القربة به والرضى ﴿ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ﴾ لأقوال العباد ﴿ ٱلْعَلِيمُ ﴾ بأفعالهم وهو حقيق بالتقوى ﴿ وَمَنْ جَاهَدَ ﴾ جهاد حرب أو نفس ﴿ فَإِنَّمَا يُجَاهِدُ لِنَفْسِهِ ﴾ نفع مجاهدته مقصور عليها ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ لَغَنِيٌّ عَنِ ٱلْعَالَمِينَ ﴾ الخلق طرًّا لا حاجة له إلى طاعتهم وهذا تصريح بما علم ضمناً وتوكيد لذلك المفهوم ﴿ وَٱلَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا ٱلصَّالِحَاتِ لَنُكَفِّرَنَّ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ ﴾ بعمل الطاعات ﴿ وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَحْسَنَ ٱلَّذِى كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴾ أى أحسن جزاء أعمالهم أو أحسن بمعنى حسن ونصبه بنزع الخافض ﴿ وَوَصَّيْنَا ٱلْإِنْسَانَ بِوَالِدَيْهِ حُسْناً ﴾ بإتيانه فعلا ذا حسن وكأنه فى ذاته حسن لفرط حسنه أو إيصاء ذا حسن بأن يبرهما ، ووصى بمعنى أمر أمراً مؤكداً من وصيت الشىء بكذا إذا وصلته به ﴿ وَإِنْ جَاهَدَاكَ لِتُشْرِكَ بِى ﴾ أمراك بالإشراك وبلغا طاقتهما ﴿ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ ﴾ بإشراكه ﴿ عِلْمٌ ﴾ عبر عن نفيه بنفى العلم به إشعاراً بأن ما لم يعلم صحته لا يجوز اتباعه وإن لم يعلم بطلانه فضلا عما علم بطلانه ﴿ فَلَا تُطِعْهُمَا ﴾ فى الإشراك إذ لا طاعة لمخلوق فى معصية الخالق ، وعدى « جاهداك » هنا باللام وفى لقمان بعلى لكون الكلام هناك فى أثناء وصية لقمان فدل على شدة الاهتمام بعدم الإشراك بعلى الدال على القهر والإلجاء أى وإن قهراك عليه وما هنا إشارة إلى الصارف عن الإيمان الذى سبق ذكره ﴿ إِلَىَّ مَرْجِعُكُمْ ﴾ من آمن منكم ومن أشرك ومن بر بوالديه ومن عق ﴿ فَأُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ ﴾ بالجزاء عليه ، والآية نزلت فى سعد بن أبى وقاص وأمه حمنة بنت أبى سفيان بن أمية بن عبد شمس وكانت مشركة ، فلما أسلم حلفت ألا تأكل ولا تشرب ولا تستظل حتى يرتد سعد عن الإسلام فبقيت على ذلك ثلاثة أيام حتى غشى عليها وكذا التى فى لقمان والأحقاف ﴿ وَٱلَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا ٱلصَّالِحَاتِ لَنُدْخِلَنَّهُمْ فِى ٱلصَّالِحِينَ ﴾ الكاملين فى الصلاح وهم الأنبياء ، والصلاح صفة جامعة لسائر الكمالات أو فى مدخلهم وهى الجنة ، ونزل فى صفة المنافقين ﴿ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَنْ يَقُولُ آمَنَّا بِٱللَّهِ فَإِذَا أُوذِىَ فِى ٱللَّهِ ﴾ بتعذيب الكفار له على الإيمان ﴿ جَعَلَ فِتْنَةَ ٱلنَّاسِ ﴾ أذاهم له ﴿ كَعَذَابِ ٱللَّهِ ﴾ فى الخوف منه فيطيعهم ، فكما أن عذاب الله صارف المؤمنين عن الكفر فكذلك عذاب الناس صارف المنافق عن الإيمان وإعادة لفظ الجلالة إشارة

إلى أن الإيذاء فى الله حقيق بأن يحتمل ﴿ وَلَئِنْ جَاءَ نَصْرٌ ﴾ للمؤمنين فتح وغنيمة ﴿ مِنْ رَبِّكَ لَيَقُولُنَّ إِنَّا كُنَّا مَعَكُمْ ﴾ فى الدين فأشركونا فى الغنيمة ، قال البيضاوى والمراد المنافقون أو قوم ضعف إيمانهم فارتدوا من أذى المشركين . اه . وفى غاية الأمانى هو إخبار عما يكون فى المستقبل لأن الآية مكية ولم يكن بها نفاق ولا قتال ولا غنيمة . اه . وقال فى الجواهر السورة مكية إلا الصدر منها العشر الآيات فإنها مدنية نزلت فى شأن من كان من المسلمين بمكة المتخلفين عن الهجرة : هذا أصح ما قيل هنا . اه ﴿ أَوَلَيْسَ اللَّهُ بِأَعْلَمَ بِمَا فِي صُدُورِ الْعَالَمِينَ ﴾ من الإيمان والنفاق : تكذيب لهم على أبلغ وجه أى لو كان فى صدورهم إيمان لعلمه ولركبوا كل هول إلى هجرتهم ودار نبيهم ﴿ وَلَيَعْلَمَنَّ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا ﴾ بقلوبهم ﴿ وَلَيَعْلَمَنَّ الْمُنَافِقِينَ ﴾ أى ليميزن بين الفريقين بحيث لا يشتبه بعضهم ببعض أو ليجازينهما واللام فى الفعلين لام قسم ﴿ وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلَّذِينَ آمَنُوا اتَّبِعُوا سَبِيلَنَا ﴾ فى ديننا ﴿ وَلْنَحْمِلْ خَطَايَاكُمْ ﴾ فى اتباعنا إن كانت والأمر بمعنى الخبر عطف على أمرهم بالاتباع مبالغة فى تعليق الحمل بالاتباع والوعد بتخفيف الأوزار عنهم إن كانت تشجيعاً لهم عليه ولذا بالغ فى الرد عليهم بقوله ﴿ وَمَا هُمْ بِحَامِلِينَ مِنْ خَطَايَاهُمْ مِنْ شَيْءٍ ﴾ من الأولى بيانية والثانية تبعيضية أى أدنى جزء منه وقيل زائدة أى وماهم بحاملين شيئاً من خطاياهم ﴿ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ ﴾ فى ذلك والتكذيب راجع إلى الوعد بالضمان لأن الإنشاء لا يتصف بالكذب أو كاذبون عند أنفسهم أى يعلمون أن ذلك الوعد غير مطابق للواقع قاله فى غاية الأمانى قلت هذا تكلف إذ الإنشاء هنا بمعنى الخبر والله أعلم ﴿ وَلَيَحْمِلُنَّ أَثْقَالَهُمْ ﴾ أوزارهم التى اقترفتها أنفسهم ﴿ وَأَثْقَالاً ﴾ أخر ﴿ مَعَ أَثْقَالِهِمْ ﴾ بإضلال مقلديهم والحمل على المعاصى من غير أن ينقص شيئاً من أثقال من تبعهم ﴿ وَلَيُسْئَلُنَّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ ﴾ سؤال توبيخ ﴿ عَمَّا كَانُوا يَفْتَرُونَ ﴾ من الأباطيل التى أضلوا بها واللام فى الفعلين لام قسم وحذف فاعلهما الواو ونون الرفع لنون التوكيد . ثم أتبع أقوال المشركين قصص الأنبياء تسلية لرسوله وابتدأ بنوح لما تقدم بقوله ﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَى قَوْمِهِ ﴾ وعمره أربعون سنة أو أكثر ﴿ فَلَبِثَ ﴾ بعد البعث ﴿ فِيهِمْ أَلْفَ سَنَةٍ إِلَّا خَمْسِينَ عَامًا ﴾ يدعوهم إلى توحيد الله واختار لفظ الألف وما بعده على تسعمائة وخمسين لأنه أخص وأعذب وأشد إنباء على طول المدة الذى هو مقتضى المقام وللإشارة إلى أن المستثنى مخصب وما قبله مجدب لأن السنة هى العام المجدب والعام هو المخصب والله أعلم ﴿ فَأَخَذَهُمُ الطُّوفَانُ ﴾ أى طوفان الماء إذ الطوفان اسم لما طاف حول الشيء بكثرة من سيل أو ظلام أو نار أو موت ﴿ وَهُمْ ظَالِمُونَ ﴾ بالكفر ﴿ فَأَنْجَيْنَاهُ ﴾ أى نوحا ﴿ وَأَصْحَابَ السَّفِينَةِ ﴾ الذين كانوا معه فيها وعاش بعد الطوفان ستين عاماً ﴿ وَجَعَلْنَاهَا ﴾ أى السفينة أو الحادثة ﴿ آيَةً ﴾ عبرة ﴿ لِلْعَالَمِينَ ﴾ بعدهم إن عصوا رسلهم ﴿ وَ ﴾ اذكر ﴿ إِبْرَاهِيمَ ﴾ أو عطف على نوحاً ﴿ إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ ﴾ بدل اشتمال على الأول وظرف لأرسلنا على الثانى أى أرسلناه حين كمل نظره بحيث عرف الحق وأمر الناس به بقوله ﴿ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاتَّقُوهُ ﴾

خافوا عقابه ﴿ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ ﴾ مما أنتم عليه من عبادة الأصنام ﴿ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴾ أى تميزون الخير من غيره وإيثار «إن» للدلالة على ترجيح عدم العلم لأنها تستعمل فى نادر ﴿ إِنَّمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ ﴾ أى غيره ﴿ أَوْثَانًا وَتَخْلُقُونَ إِفْكًا ﴾ تكذبون كذباً فى تسميتها آلهة وادعاء شفاعتها عند الله تعالى أو تنحتونها للإفك وهو استدلال على شرارة ما هم عليه من حيث إنه زور وباطل وإفكا نصب على المصدر أو النعت لمحذوف أى خلقاً ذا إفك ﴿ إِنَّ الَّذِينَ تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ لَا يَمْلِكُونَ لَكُمْ رِزْقًا ﴾ لا يقدرون أن يرزقوكم دليل ثان على شرارة ذلك و « رزقاً » يحتمل المصدر بمعنى لا يستطيعون أن يرزقوكم رزقاً وأن يراد به المرزوق والتنكير للتعميم أى شيئاً مما يطلق عليه اسم الرزق وهذا الدليل الثانى أبلغ من الأول لأن أقل درجات المعبود أن يكون له نفع فى الحال ﴿ فَابْتَغُوا عِندَ اللَّهِ الرِّزْقَ ﴾ كله فإنه المالك له ﴿ وَاعْبُدُوهُ ﴾ توسلا بالعبادة إلى مطلوبكم ﴿ وَاشْكُرُوا لَهُ ﴾ على ما أولاكم قيداً له واستعداداً بهما للقائه فإنه ﴿ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴾ وعد ووعيد ﴿ وَإِن تُكَذِّبُوا ﴾ نى ﴿ فَقَدْ كَذَّبَ أُمَمٌ مِّن قَبْلِكُمْ ﴾ الرسل وما ضر الرسل تكذيبهم وإنما ضروا أنفسهم بالعذاب فكذا تكذيبكم ﴿ وَمَا عَلَى الرَّسُولِ إِلَّا الْبَلَاغُ الْمُبِينُ ﴾ الواضح أو الموضح المزيح للشبهة ، وهذه الآية وما بعدها إلى قوله « فما كان جواب قومه » من قول إبراهيم لأمته أو ابتداء كلام من الله لقريش وسائر العرب تسلية لرسوله محمد صلى الله عليه وسلم اعترض به فى أثناء قصة إبراهيم لأن مساقها التسلية والتنفيس عنه ﴿ أَوَلَمْ يَرَوْا ﴾ بالتحتية للجمهور والفوقية لحمزة والكسائى وأبى بكر على تقدير القول أى ينظروا ﴿ كَيْفَ يُبْدِئُ اللَّهُ الْخَلْقَ ﴾ من مادة وغيرها ﴿ ثُمَّ ﴾ هو ﴿ يُعِيدُهُ ﴾ أى الخلق كما بدأه عطف على « أولم يروا » لا على « يبدئ » لأن الرؤية غير واقعة عليه ، ويجوز أن تؤول الإعادة بأن ينشئ فى كل سنة مثل ما كان فى السنة السابقة من النبات والثمار ونحوها أو يجعل الرؤية بمعنى العلم إذ يصح تعلقه بهما لأن العلم بالإبداء دليل على الإعادة ﴿ إِنَّ ذَٰلِكَ ﴾ المذكور من الخلق الأول والثانى ﴿ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ ﴾ إذ لا يفتقر فى فعله إلى شىء فكيف تنكرون الثانى ﴿ قُلْ ﴾ يا إبراهيم أو يا محمد لقومك ﴿ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ بَدَأَ الْخَلْقَ ﴾ على اختلاف الأجناس والأحوال ليدلكم على سهولة أمر الإعادة عليه ، ولما كان دليل الأنفس أقرب من الآفاق أثر فى الأول الرؤية وفى الثانى النظر ﴿ ثُمَّ اللَّهُ يُنشِئُ النَّشْأَةَ الْآخِرَةَ ﴾ قصراً للجمهور ومدًّا لأبى عمرو وابن كثير فى المواضع الثلاثة بعد النشأة الأولى التى هى الإبداء والتصريح باسم الله بعد إضماره فى « بدأ » للدلالة على أن المقصود بيان الإعادة ﴿ إِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴾ لاستواء نسبة القدرة إلى الكل دليل على المدعى ﴿ يُعَذِّبُ مَن يَشَاءُ ﴾ تعذيبه ﴿ وَيَرْحَمُ مَن يَشَاءُ ﴾ رحمته ﴿ وَإِلَيْهِ تُقْلَبُونَ ﴾ تردون فيجازى كلًّا على وفق إرادته ﴿ وَمَا أَنتُم بِمُعْجِزِينَ ﴾ ربكم عن إدراككم إن هربتم من قضائه ﴿ فِي الْأَرْضِ ﴾ بالتوارى فى مهاويها ﴿ وَلَا فِي السَّمَاءِ ﴾ التى هى أفسح منها وأبسط لو قدر صعودكم إليها بالتحصن فيها أى لا تفوتنه ﴿ وَمَا لَكُم مِّن

دُونِ اللهِ ﴾ أى غيره ﴿ مِنْ وَلِيٍّ ﴾ يمنعكم من بلائه إذا ظهر فى الأرض ﴿ وَلَا نَصِيرٍ ﴾ ينصركم من عذابه إن نزل من السماء ﴿ وَالَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ اللهِ ﴾ دلائل وحدانيته أو بكتبه ﴿ وَلِقَائِهِ ﴾ بالبعث والجزاء ﴿ أُولَئِكَ يَئِسُوا مِنْ رَحْمَتِي ﴾ أى ييأسون منها يوم القيامة فعبر عنه بالماضى للتحقق والمبالغة أو أيسوا فى الدنيا لإنكار البعث والجزاء، شبه توغلهم فى الكفر باليأس على الاستعارة التبعية لأن من أنكر البعث لا يوصف باليأس لأنه شأن من يوصف بالرجاء والتفت إلى التكلم إشارة إلى قوله « ورحمتى وسعت كل شىء » ولذا لم يضف العذاب فى قوله ﴿ وَأُولَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾ بكفرهم ﴿ فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِ ﴾ أى قوم إبراهيم ﴿ إِلَّا أَنْ قَالُوا اقْتُلُوهُ أَوْ حَرِّقُوهُ ﴾ قابلوا نصحه بأبلغ مكروه وهو القتل أو الحرق وآثروا صيغة التفعيل الدال على التكثير والمبالغة ﴿ فَأَنْجَاهُ اللهُ مِنَ النَّارِ ﴾ التى قذفوه فيها بأن قال لها « كونى برداً وسلاماً » ﴿ إِنَّ فِي ذَلِكَ ﴾ فى إنجائه منها ﴿ لَآيَاتٍ ﴾ هى عدم تأثيرها فيه مع عظمها وإخمادها وإنشاء روض مكانها فى زمن يسير ﴿ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴾ بتوحيد الله وقدرته وأن العاقبة للمتقين ﴿ وَقَالَ ﴾ إبراهيم ﴿ إِنَّمَا اتَّخَذْتُمْ مِنْ دُونِ اللهِ أَوْثَانًا ﴾ تعبدونها، و« ما » كافة وثانى مفعولى « اتخذ » محذوف أى اتخذتموها آلهة ﴿ مَوَدَّةَ ﴾ بالنصب والتنوين لنافع وابن عامر وشعبة مفعول له ﴿ بَيْنِكُمْ ﴾ نصب على الظرف ﴿ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ﴾ أى اتخذتموها لتتوادُّوا وتتواصلوا بينكم باجتماعكم على عبادتها كما ترى اليوم أهل كل مذهب كذلك أو « مودة » هو المفعول الثانى بتقدير مضاف أى سبب مودة أو تأويلها بالمودودة وبنصب مودة مضافة لحمزة وعاصم وبرفعها مضافة أيضاً لابن كثير وأبى عمرو والكسائى على أنها خبر محذوف أى هى مودة بينكم والجملة صفة « أوثاناً » أو خبر إن و « ما » مصدرية أو موصولة ﴿ ثُمَّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ يَكْفُرُ بَعْضُكُمْ بِبَعْضٍ ﴾ يتبرأ القادة من الأتباع وبالعكس أو العبدة والأصنام ﴿ وَيَلْعَنُ بَعْضُكُمْ بَعْضًا ﴾ يلعن الأتباع القادة ﴿ وَمَأْوَاكُمُ ﴾ مصيركم جميعاً ﴿ النَّارُ وَمَا لَكُمْ مِنْ نَاصِرِينَ ﴾ يخلصونكم منها ولم يذكر هذا مع ماتقدم قبل الجواب لأن ذلك نصح وإرشاد وهذا وعيد وتهديد وما يئول إليه أمرهم فلم يحسن نظمه مع ما تقدم ﴿ فَآمَنَ لَهُ ﴾ صدق بإبراهيم ﴿ لُوطٌ ﴾ ابن أخيه هاران هو أول من آمن به لما رأى النار لم تؤثر فيه ثم زوجته سارة ابنة عمه ﴿ وَقَالَ ﴾ إبراهيم لأبيه وقومه ﴿ إِنِّي مُهَاجِرٌ إِلَى رَبِّي ﴾ إلى حيث أمرنى ﴿ إِنَّهُ هُوَ الْعَزِيزُ ﴾ الذى يمنعنى من أعدائى ﴿ الْحَكِيمُ ﴾ الذى لا يأمر إلا بما فيه حكمة ولم يأمرنى إلا بما فيه صلاح فسافر من سواد الكوفة من قرية يقال لها كوثى إلى حران بديار بكر ثم إلى الشام ومعه لوط وسارة امرأته فنزل فلسطين ونزل لوط سدوم ثم سافر إلى مصر حتى أعطى ملكُ مصر زوجتَه سارة (هاجرَ) ثم رجع إلى الشام ﴿ وَوَهَبْنَا لَهُ ﴾ بعد إسماعيل من هاجر ﴿ إِسْحَاقَ ﴾ من سارة ولدا بعد اليأس وسؤال الولد من العجوز العاقر ولذا لم يذكر إسماعيل ﴿ وَيَعْقُوبَ ﴾ بعد إسحاق نافلة ﴿ وجعلنا فِي ذُرِّيَّتِهِ النُّبُوَّةَ ﴾ فكل الأنبياء بعد إبراهيم من ذريته ﴿ وَالْكِتَابَ ﴾ جنس الكتاب فيدخل تحته الأربعة التوراة والإنجيل والزبور

والقرآن ﴿ وَآتَيْنَاهُ أَجْرَهُ ﴾ على الهجرة وغيرها ﴿ فِي الدُّنْيَا ﴾ بإعطاء الولد فى غير أوانه والذرية الطيبة واستمرار النبوة فيهم وانتماء أهل الملل جميعاً إليه والثناء عليه آخر الدهر ﴿ وَإِنَّهُ فِي الْآخِرَةِ لَمِنَ الصَّالِحِينَ ﴾ الكاملين فى الصلاح الجامعين لمحاسن الأفعال والأخلاق ﴿ وَلُوطًا ﴾ عطف على إبراهيم إن نصب باذكر وعلى ماعطف عليه إن كان معطوفاً على نوحاً ﴿ إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ إِنَّكُمْ ﴾ بهمزة واحدة مكسورة على الخبر لنافع وابن كثير وابن عامر وحفص والباقون على الاستفهام ﴿ لَتَأْتُونَ الْفَاحِشَةَ ﴾ الفعلة البالغة فى القبح ﴿ مَا سَبَقَكُمْ بِهَا مِنْ أَحَدٍ مِنَ الْعَالَمِينَ ﴾ الإنس والجن استئناف مقرر لزيادة القبح فيها حيث نفرت الطباع بأسرها عن ارتكابها فى سالف الدهر ﴿أَئِنَّكُمْ﴾ اتفق السبعة هنا على أن الاستفهام للإنكار والتعجب ﴿ لَتَأْتُونَ الرِّجَالَ وَتَقْطَعُونَ السَّبِيلَ ﴾ للمارة بالقتل وأخذ المال وفعل الفاحشة حتى انقطعت الطرق أو سبيل النسل بالإعراض عن موضع الحرث ﴿ وَتَأْتُونَ فِي نَادِيكُمُ ﴾ متحدثكم الغاص بكم ﴿ الْمُنْكَرَ ﴾ من اللواط والضراط فى المجلس ورمى البنادق وحل الإزار ﴿ فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِ إِلَّا أَنْ قَالُوا ائْتِنَا بِعَذَابِ اللَّهِ إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ ﴾ فى دعوى النبوة واستقباح فعلنا وأن العذاب نازل بفاعله ﴿ قَالَ رَبِّ انْصُرْنِي ﴾ بإنزال العذاب ﴿ عَلَى الْقَوْمِ الْمُفْسِدِينَ ﴾ بابتداع الفاحشة وسنها لمن بعدهم وصفهم بذلك توسلا إلى استعجال العذاب لهم فاستجاب الله دعاءه وأرسل إليهم رسلا لإهلاكهم فبدأوا بإبراهيم للتبشير ﴿ وَلَمَّا جَاءَتْ رُسُلُنَا إِبْرَاهِيمَ بِالْبُشْرَى ﴾ بإسحاق ويعقوب بعده أو بإهلاك قوم لوط ﴿ قَالُوا إِنَّا مُهْلِكُو أَهْلِ هَذِهِ الْقَرْيَةِ ﴾ قرية سدوم والإضافة لفظية لأن المعنى الاستقبال ﴿ إِنَّ أَهْلَهَا كَانُوا ظَالِمِينَ ﴾ بالكفر والمعاصى تعليل لإهلاكهم لإصرارهم على ظلمهم ، وفى المثل : أجْوَرُ من قاضى سدوم ﴿ قَالَ ﴾ إبراهيم لهم ﴿ إِنَّ فِيهَا لُوطًا ﴾ بيان للمانع المعارض للوجوب وسؤال عن كيفية الهلاك مع وجوده بين أظهرهم بريئاً من فعلهم منذراً لهم ﴿ قَالُوا نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَنْ فِيهَا ﴾ تسليم لقوله مع مزيد العلم المسلى له على أبلغ وجه بأنهم أعلم بعدم استحقاقه العذاب ﴿ لَنُنَجِّيَنَّهُ ﴾ بالتشديد للجمهور والتخفيف لحمزة والكسائى ﴿ وَأَهْلَهُ ﴾ تخصيص لعموم أهل هذه القرية ﴿ إِلَّا امْرَأَتَهُ ﴾ استثناء من أهله ﴿ كَانَتْ مِنَ الْغَابِرِينَ ﴾ الباقين فى العذاب لكونها كافرة مثلهم أو فى القرية ﴿ وَلَمَّا أَنْ جَاءَتْ رُسُلُنَا لُوطًا سِيءَ بِهِمْ ﴾ حزن بسببهم و « أن » صلة تفيد اتصال الفعلين كأنه قيل لما جاء الرسل أصابه المساءة من غير ريث خوفاً عليهم من قومه ﴿ وَضَاقَ بِهِمْ ذَرْعًا ﴾ طاقة أى ضاقت بشأنهم طاقته وهو كناية عن فقد القدرة على تدبيرهم وذلك أن طويل الذراع ينال ما لا ينال قصيرها وتقدم بيانه فى سورة هود ﴿ وَقَالُوا ﴾ لما رأوا أثر الخوف عليه ﴿ لَا تَخَفْ ﴾ شيئاً من جهتنا ﴿ وَلَا تَحْزَنْ ﴾ على تمكنهم منا إنا رسل ربك ﴿ إِنَّا مُنَجُّوكَ ﴾ بالتشديد لنافع وابن عامر وأبى عمرو وحفص وبالتخفيف للباقين ﴿ وَأَهْلَكَ ﴾ بالنصب عطفاً على محل كاف منجوك باعتبار الأصل أو على إضمار فعل ﴿ إِلَّا امْرَأَتَكَ كَانَتْ مِنَ الْغَابِرِينَ ﴾ فى عداد فى علم الله ﴿ إِنَّا مُنْزِلُونَ ﴾

بالتخفيف للجمهور والتشديد لابن عامر ﴿عَلَى أَهْلِ هَٰذِهِ الْقَرْيَةِ رِجْزًا﴾ عذاباً والرجز والرجس القلق والاضطراب أطلقا على العذاب لاضطراب المعذب ﴿مِنَ السَّمَاءِ بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ﴾ لاستمرارفسقهم ﴿وَلَقَدْ تَرَكْنَا مِنْهَا﴾ أى القرية ﴿آيَةً بَيِّنَةً﴾ ظاهرة وهى آثار خرابها والحجارة الممطورة فإنها باقية بعدهم وكذا المياه المسودة ﴿لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾ يتدبرون متعلق بتركنا أو آية ﴿وَ﴾ أرسلنا ﴿إِلَىٰ مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا فَقَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَارْجُوا الْيَوْمَ الْآخِرَ﴾ أى افعلوا ماترجون به ثوابه فأقيم المسبب مقام السبب أو الرجاء الخوف ﴿وَلَا تَعْثَوْا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ﴾ حال مؤكدة لعاملها من عَثِيَ بكسر المثلثة أى أفسد ﴿فَكَذَّبُوهُ فَأَخَذَتْهُمُ الرَّجْفَةُ﴾ الزلزلة الشديدة أو صيحة جبريل لأن القلوب ترجف منها ﴿فَأَصْبَحُوا فِي دَارِهِمْ جَاثِمِينَ﴾ باركين على الركب ميتين أى أهلكناهم ﴿وَ﴾ أهلكنا ﴿عَادًا وَثَمُودَا﴾ بالصرف للجمهور وعدمه لحمزة وحفص بمعنى الحىّ والقبيلة ﴿وَقَدْ تَبَيَّنَ لَكُمْ﴾ إهلاكهم ﴿مِنْ مَسَاكِنِهِمْ﴾ باليمن والحجر عند مروركم بها أو تبين لكم بعض مساكنهم ﴿وَزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَالَهُمْ﴾ من الكفر والمعاصى ﴿فَصَدَّهُمْ عَنِ السَّبِيلِ﴾ السوىّ الذى بينته الرسل لهم ﴿وَكَانُوا مُسْتَبْصِرِينَ﴾ ذوى بصائر لكن تغافلوا حتى هلكوا ﴿وَ﴾ أهلكنا ﴿قَارُونَ وَفِرْعَوْنَ وَهَامَانَ﴾ تقديم قارون لشرف نسبه وتأخيره فى سورة غافر نظراً إلى الوجود ﴿وَلَقَدْ جَاءَهُمْ﴾ من قبل ﴿مُوسَىٰ بِالْبَيِّنَاتِ﴾ بالحجج الظاهرات ﴿فَاسْتَكْبَرُوا فِي الْأَرْضِ وَمَا كَانُوا سَابِقِينَ﴾ فائتين عذابنا بل أدركهم أمر الله من سبق طالبه إذا فاته ﴿فَكُلًّا﴾ من المذكورين ﴿أَخَذْنَا بِذَنْبِهِ فَمِنْهُمْ مَنْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِ حَاصِبًا﴾ ريحاً عاصفاً فيها حصباء كقوم لوط ﴿وَمِنْهُمْ مَنْ أَخَذَتْهُ الصَّيْحَةُ﴾ كثمود ومدين ﴿وَمِنْهُمْ مَنْ خَسَفْنَا بِهِ الْأَرْضَ﴾ كقارون ﴿وَمِنْهُمْ مَنْ أَغْرَقْنَا﴾ كقوم نوح وفرعون وقومه ﴿وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ﴾ فيعذبهم بغير ذنب أى ليس ذلك من حكمته ﴿وَلَٰكِنْ كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾ بالتعريض للعذاب ﴿مَثَلُ الَّذِينَ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ أَوْلِيَاءَ﴾ أصناما يرجون نفعها ﴿كَمَثَلِ الْعَنْكَبُوتِ﴾ يقع على الواحد والجمع والمذكر والمؤنث والتاء فيه كتاء طاغوت يجمع على عناكيب وعناكب وعكاب وعكبة وأعكب ﴿اتَّخَذَتْ بَيْتًا﴾ لنفسها فيما نسجته تأوى إليه ﴿وَإِنَّ أَوْهَنَ﴾ أضعف ﴿الْبُيُوتِ لَبَيْتُ الْعَنْكَبُوتِ﴾ لا يدفع عنها حراً ولا برداً كذلك الأصنام لاتنفع عابدها: شبه ما اتخذوه متكلا فى دينهم بما هو مثل عند الناس فى الوهن، والغرض من هذا التشبيه تقريروهن دينهم وأنه بلغ الغاية التى لا غاية بعدها وهذا كتشبيه من لا يحصل من سعيه على طائل بالراقم على الماء من تشبيه المركب بالمركب ﴿لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ﴾ لعلموا أن هذا مثلهم أو أن دينهم أوهن من ذلك. قل للكفار ﴿إِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا تَدْعُونَ﴾ بالفوقية للجمهور والتحتية لأبى عمرو وعاصم ﴿مِنْ دُونِهِ مِنْ شَيْءٍ﴾ ما نافية ومن زائدة أو استفهامية ومن بيان والعلم معلق توكيد للمثل وزيادة عليه حيث لم يجعل ما يدعونه شيئا ويجوز أن تكون مصدرية أو موصولة والعائد محذوف مفعول ليعلم والكلام على الأولين تجهيل لهم وعلى

الأخيرين وعيد لهم ﴿وَهُوَ الْعَزِيزُ﴾ الغالب على كل شيء ﴿الْحَكِيمُ﴾ الذى لا يفعل شيئاً إلا وفيه حكم ، وفى الوصفين رمز إلى غباوتهم حيث تركوا عبادة الموصوف بهما وعبدوا من لا يطلق عليه اسم الشيء بالإضافة إلى المتصف بهما إذ معبودهم باعتباره كالعدم ﴿وَتِلْكَ الْأَمْثَالُ﴾ أى هذا المثل ونظائره ﴿نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ﴾ كشفاً للحجب عن وجوه محاسن الفوائد وتقريباً للمعانى الدقيقة إلى الأفهام ﴿وَمَا يَعْقِلُهَا﴾ لا يفهم حسنها وفوائدها ﴿إِلَّا الْعَالِمُونَ﴾ الذين يتدبرون الأشياء على ما ينبغى . وعنه عليه السلام أنه قرأ هذه الآية فقال العالم من عقل عن الله فعمل بطاعته واجتنب سخطه وفيها تعريض بالمشركين الطاعنين فى القرآن لاشتماله على ضرب المثل بالذباب والعنكبوت ﴿خَلَقَ اللَّهُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ﴾ محقاً أى خلقا ملتبساً به بمعنى خلقها لتكون مساكن عباده ودلائل قدرته وعلمه وعظم شأنه ومواضع خيراته ﴿إِنَّ فِى ذَلِكَ لَآيَةً لِلْمُؤْمِنِينَ﴾ المتأملين فيها ﴿اتْلُ مَا أُوحِىَ إِلَيْكَ مِنَ الْكِتَابِ﴾ تقرباً إلى الله تعالى بتلاوته وتحفظاً لألفاظه وتكشفاً لمعانيه فإنه من أفضل الأعمال ، وعنه صلى الله عليه وسلم فيما يرويه عن ربه «من شغل لسانه تلاوة القرآن عن دعائى ومسألتى أعطيته أفضل ما أعطى السائلين» ﴿وَأَقِمِ الصَّلَاةَ﴾ بالمحافظة على شرائطها وأوقاتها وجميع حقوقها ﴿إِنَّ الصَّلَاةَ﴾ على تلك الهيئة ﴿تَنْهَى﴾ صاحبها ﴿عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ﴾ شرعاً أى من شأنها ذلك ما دام المرء فيها لأنها معراج العبد فإذا واظب عليها وذاق حلاوة المناجاة ينسى سائر اللذات فلا يكون له همٌّ سوى مولاه بشرط أن يقبل عليها بقلبه ويطرح ما سوى الله وراء ظهره ومن لم تنهه صلاته عن المعاصى فهى صورة صلاة لا صلاة : روى أن رجلا من الأنصار نعت لرسول الله صلى الله عليه وسلم بالإسراف فى المناكر فقال كيف صلاته قالوا هو يصلى الصلوات مع رسول الله فقال إن صلاته ستنهاه فتاب عن قريب ﴿وَلَذِكْرُ اللَّهِ﴾ أى الصلاة ﴿أَكْبَرُ﴾ من سائر الطاعات عبر عنها بالذكر للتعليل فإن اشتمالها على ذكره هو العمدة فى كونها مفضلة على الحسنات ناهية عن السيئات والذكر هو العمدة فى سائر العبادات وهو ملاحظة كبرياء الحق أو المراد ذكر الله إياكم برحمته أكبر من ذكركم بطاعته ﴿وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا تَصْنَعُونَ﴾ لا يخفى عليه شيء منه فيجازيكم أحسن المجازاة وفى إيثار الصنع على العمل حث على الطاعة بالقلب والجوارح لإعلامه زيادة تعمل وكلف . ولما بلغ الغاية فى بيان طريق إرشاد المشركين شرع فى بيان مجادلة أهل الكتاب بقوله ﴿وَلَا تُجَادِلُوا أَهْلَ الْكِتَابِ﴾ جميعاً أو أهل الذمة منهم والعهد وفيه أن السورة مكية ﴿إِلَّا بِالَّتِى﴾ أى المجادلة التى ﴿هِىَ أَحْسَنُ﴾ بالدعاء إلى الله بآياته وحججه مع مقابلته مخاشنتهم باللين والغضب بالكظم والسورة بالإنابة ﴿إِلَّا الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْهُمْ﴾ بالإفراط فى الاعتداء والعناد مخاشنوهم أو بنبذ العهد أو منع الجزية فجادلوهم بالسيف حتى يسلموا أو يعطوا الجزية ﴿وَقُولُوا﴾ لمن أمرتم بمجادلتهم بالتى هى أحسن إذا أخبروكم بشيء مما فى كتبهم ﴿آمَنَّا بِالَّذِى أُنْزِلَ إِلَيْنَا وَأُنْزِلَ إِلَيْكُمْ﴾ هو من جنس المجادلة بالتى هى أحسن : روى البخارى عن أبى هريرة أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال

«لا تصدقوا أهل الكتاب ولا تكذبوهم وقولوا آمنا بالله وكتبه ورسله» ﴿وَإِلَٰهُنَا وَإِلَٰهُكُمْ وَاحِدٌ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ﴾ منقادون لا لغيره : تعريض بأهل الكتاب . قال فى الجواهر : هذه الآية مكية ولم يكن يومئذ قتال وكانت اليهود يومئذ بمكة وفيما جاورها فربما وقع بينهم وبين بعض المؤمنين جدال واحتجاج فى أمر الدين وتكذيب فأمر الله المؤمنين أن لا يجادلوهم إلا بالتى هى أحسن : دعاء إلى الله وملاينة . ثم استثنى من ظلم منهم المؤمنين وحصلت منه إذاية فإن هذه الصنيعة استثنى لأهل الإسلام معارضتها بالتغيير عليها والخروج معها عن التى هى أحسن ثم نسخ هذا بعد بآية القتال وهذا قول قتادة وهو أحسن ما قيل فى تأويل الآية وقال عز الدين بن عبدالسلام فى اختصاره لقواعد الأحكام : فائدة ـ لا يجوز الجدال والمناظرة إلا لإظهار الحق ونصرته ليعرف ويعمل به فمن جادل لذلك فقد أطاع ومن جادل لغرض آخر فقد عصى وخاب ولا خير فيمن يتحيل لنصرة مذهبه مع ضعفه وبُعد أدلته من الصواب . اه . ﴿وَكَذَٰلِكَ﴾ الإنزال للكتب الماضية ﴿أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ﴾ القرآن مصدقا لما بين يديه ﴿فَالَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ﴾ كعبد الله بن سلام وأضرابه أو هم من تقدم عهد الرسول ﴿يُؤْمِنُونَ بِهِ﴾ بالقرآن ﴿وَمِنْ هَٰؤُلَاءِ﴾ العرب أو أهل مكة أو أهل الكتاب زمن الرسول على التأويل الثانى فى الموصول ﴿مَنْ يُؤْمِنُ بِهِ﴾ فنالوا الصحابة ﴿وَمَا يَجْحَدُ بِآيَاتِنَا﴾ بعد ظهورها ﴿إِلَّا الْكَافِرُونَ﴾ المتوغلون فى الكفر الذى يمنعهم التأمل فيها بكونها معجزة للجانى بها الأمى كما قال ﴿وَمَا كُنْتَ تَتْلُو مِنْ قَبْلِهِ﴾ أى القرآن ﴿مِنْ كِتَابٍ﴾ حتى يقولوا تعلمه منه ﴿وَلَا تَخُطُّهُ بِيَمِينِكَ﴾ حتى يقولوا التقطه منه فظهور هذا الكتاب الجامع لأنواع العلوم على أمىّ لا يقرأ ولا يكتب دليل واضح على رسالته وذكر اليمين زيادة تصوير للنفى ونفى التجوز فى الإسناد ﴿إِذًا﴾ أى لو كنت ممن يخط ويقرأ ﴿لَارْتَابَ الْمُبْطِلُونَ﴾ فيك اليهود أو المشركون وقالوا الذى نجده فى التوراة أمى لا يقرأ ولا يكتب أو تعلمه أو التقطه من كتب الأقدمين أى لنالوا متعلقاً فى الارتياب وأما الارتياب مع وضوح هذه الحجة فظاهر فساده وليس المراد أنه لو لم يكن أمياً لم يكونوا مبطلين بل المعنى هؤلاء المبطلون فى كفرهم لو لم يكن أمياً لارتابوا أشد الريب لارتيابهم مع كونه أمياً ﴿بَلْ هُوَ آيَاتٌ بَيِّنَاتٌ فِي صُدُورِ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ﴾ المؤمنين يحفظونه لا يقدر أحد على تحريفه بخلاف سائر الكتب ﴿وَمَا يَجْحَدُ بِآيَاتِنَا إِلَّا الظَّالِمُونَ﴾ المتوغلون فى الظلم بالمكابرة بعد وضوح دلائل إعجازها لأن التكذيب بعد إزاحة الشبهة وضع شىء فى غير موضعه ﴿وَقَالُوا﴾ أى كفار مكة ﴿لَوْلَا أُنْزِلَ عَلَيْهِ﴾ على محمد ﴿آيَاتٌ﴾ بالجمع لنافع وابن عامر وأبى عمرو وحفص وبالإفراد للباقين ﴿مِنْ رَبِّهِ﴾ كناقة صالح وعصى موسى ومائدة عيسى ﴿قُلْ﴾ لهم ﴿إِنَّمَا الْآيَاتُ عِنْدَ اللَّهِ﴾ ينزلها كما يشاء ليست عندى ﴿وَإِنَّمَا أَنَا نَذِيرٌ مُبِينٌ﴾ أى مقصور على الإنذار بما أعطيت من الآيات لا قدرة لى على إنزال ما تقترحونه ﴿أَوَلَمْ يَكْفِهِمْ﴾ آية مغنية عما طلبوا ﴿أَنَّا أَنْزَلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ﴾ القرآن ﴿يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ﴾ تدوم تلاوته عليهم شيئاً فشيئاً يتأملون

معانيه وسلاسة ألفاظه وهو آية مستمرة لانقضاء لها بخلاف ماذكر من الآيات والاستفهام للتقرير ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ﴾ الكتاب الموصوف ﴿لَرَحْمَةً﴾ لنعمة عظيمة ﴿وَذِكْرَىٰ﴾ عظة ﴿لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ أى همهم الإيمان لا التعنت ، وقيل إن ناساً من المسلمين أتوا رسول الله صلى الله عليه وسلم بكتب كتب فيها بعض ما يقول اليهود فقال : كفى بها ضلالة قوم أن يرغبوا عما جاءهم به نبيهم إلى ما جاء به غير نبيهم . فنزلت ﴿قُلْ كَفَىٰ بِاللَّهِ بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ شَهِيداً﴾ بصدقى بالمعجزات أو بأنى بلغتكم وأديت الأمانة وكذبتم ﴿يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَٰوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ ومنه حالى وحالكم برهان على كونه كافياً ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا بِالْبَاطِلِ﴾ الأوثان ﴿وَكَفَرُوا بِاللَّهِ﴾ منكم ﴿أُولَٰئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ﴾ فى صفقتهم حيث اشتروا الكفر بالإيمان ﴿وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِالْعَذَابِ﴾ بقولهم «متى هذا الوعد ... فأمطر علينا حجارة من السماء» ﴿وَلَوْلَا أَجَلٌ مُسَمًّى﴾ لكل عذاب أو قوم ﴿لَجَاءَهُمُ الْعَذَابُ﴾ إذ لا مانع سواه ﴿وَلَيَأْتِيَنَّهُمْ بَغْتَةً﴾ فى الدنيا كوقعة بدر وفى الآخرة عند نزول الموت بهم ﴿وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾ بوقت إتيانه ﴿يَسْتَعْجِلُونَكَ بِالْعَذَابِ﴾ إنكاراً له ﴿وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمُحِيطَةٌ بِالْكَافِرِينَ﴾ الآن لإحاطة أسبابها بهم أو ستحيط بهم يوم يأتيهم العذاب ، أعاد ذكر استعجالهم تعجيباً وآثر الظاهر للدلالة على موجب الإحاطة ﴿يَوْمَ﴾ ظرف «لمحيطة» ﴿يَغْشَاهُمُ الْعَذَابُ مِنْ فَوْقِهِمْ وَمِنْ تَحْتِ أَرْجُلِهِمْ﴾ أى من جميع الجوانب ﴿وَيَقُولُ﴾ الله ، بالياء لنافع والكوفيين وبالنون للباقين ﴿ذُوقُوا مَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ أى جزاءه فلا تفوتوننا ﴿يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّ أَرْضِي وَاسِعَةٌ﴾ فإذا لم يتيسر لكم إظهار الدين فى أرض فهاجروا إلى حيث يتيسر لكم ﴿فَإِيَّايَ فَاعْبُدُونِ﴾ والفاء الأولى للتسبيب عن قوله «إن أرضى واسعة» كما تقول زيد أخوك فأكرمه وهو جواب شرط محذوف أى فإن لم تخلصوا العبادة لى فى أرض فأخلصوها لى فى غيرها والثانية فاء الجواب والآية نزلت فى ضعفاء مسلمى مكة كانوا فى ضيق من إظهار الإسلام بها والحكم عام فى غيرهم حيث وجدت العلة فالإقامة بين أعداء الله المانعين من عبادته لا وجه له مع اتساع بلاد الله . وعنه عليه السلام : من فر بدينه من أرض إلى أرض ولو كان شبراً استوجب الجنة وكان رفيق محمد وإبراهيم عليهما السلام ﴿كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ﴾ فعلى العاقل المبادرة إلى العمل قبل فوات الفرصة ﴿ثُمَّ إِلَيْنَا تُرْجَعُونَ﴾ بالتاء للجمهور والياء لأبى بكر للجزاء ومن علم هذا اجتهد للقاء ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَنُبَوِّئَنَّهُمْ﴾ بالباء لتنزلنهم للجمهور ولحمزة والكسائى بالمثلثة بعد النون من الثواء الإقامة ﴿مِنَ الْجَنَّةِ غُرَفاً﴾ علالى ونصبه على القراءة الثانية على حذف الخافض أى فى أو تشبيه الظرف المختص بالمبهم ﴿تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ﴾ مقدرين الخلود ﴿فِيهَا نِعْمَ أَجْرُ الْعَامِلِينَ﴾ هذا الأجر : هم ﴿الَّذِينَ صَبَرُوا﴾ على أذى المشركين والهجرة لإظهار الدين وغير ذلك من المشاق ﴿وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ﴾ فى جميع الأمور فيرزقهم من حيث لا يحتسبون ويكفيهم جميع المهمات ﴿وَكَأَيِّنْ مِنْ دَابَّةٍ لَا تَحْمِلُ رِزْقَهَا﴾ لا تطيق حمله لضعفها أو لا تدخر لتوكلها

على الله ﴿اللهُ يَرْزُقُهَا وَإِيَّاكُمْ﴾ أيها المهاجرون وإن لم يكن معكم زاد ولا نفقة فلا تخافوا على معاشكم بالهجرة : نزلت لما قال بعض المسلمين كيف نهاجر إلى بلد ليس لنا معيشة فيها تشجيعاً لهم على هجرة الأحباب ومفارقة الأوطان وأن لا يهمهم أمر المعيشة ﴿وَهُوَ السَّمِيعُ﴾ لقولكم هذا وغيره ﴿الْعَلِيمُ﴾ بضمائركم وغيرها ﴿وَلَئِنْ﴾ لام قسم ﴿سَأَلْتَهُمْ﴾ أى الكفار ﴿مَنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ﴾ أورد هذا لتوكيد ماتقدم فمن قدر على هذا يقدر على تيسير الرزق على الضعفاء من غير أسباب ﴿لَيَقُولُنَّ اللهُ﴾ لما تقرر فى العقول لا يقدر أحد على إنكاره ﴿فَأَنَّى يُؤْفَكُونَ﴾ يصرفون عن توحيد الله وقدرته على رزق المهاجرين بعد إقرارهم ما تقدم تعجيب من حالهم ﴿اللهُ يَبْسُطُ الرِّزْقَ﴾ يوسعه ﴿لِمَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ﴾ امتحاناً ﴿وَيَقْدِرُ﴾ يضيق ﴿لَهُ﴾ بعد البسط أو لمن يشاء ابتلاء فكم من ساع لا يقدر على قوت يومه وكم من فارغ البال يأتيه الأرزاق من كل أوب ، ويروى عن الشافعى :

وَمِن الدَّلِيلِ على القضاءِ وكَوْنِهِ * بُؤْسُ اللَّبِيبِ وطِيبُ عَيْشِ الأَحمقِ

﴿إِنَّ اللهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ ومنه محل البسط والتضييق ووقت كل منهما ﴿وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ نَزَّلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَحْيَا بِهِ الْأَرْضَ مِنْ بَعْدِ مَوْتِهَا لَيَقُولُنَّ اللهُ﴾ فكيف يشركون به وقد اعترفوا أنه الموجد لكل الكائنات ﴿قُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ﴾ على ثبوت الحجة عليهم وعصمته إياى عن مثل هذه الضلالة ﴿بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ﴾ تناقضهم فى ذلك إضراب عن جهلهم الخاص إلى ماهو أبلغ وهو أنهم مسلوبو العقول لا يفطنون لتلك المناقضة وأحرى أن لا يفطنوا لمكان حمدك ﴿وَمَا هَذِهِ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا﴾ التى سلبت عقولهم وهى إشارة تحقير وهى ما زاد على الضرورى المعين على الطاعات فى المطاعم والمشارب والملابس والمنازل والمراكب والمناكح فالضرورى يستوى الغنى والفقير فيه كالتنفس وسد الجوع بأى شىء وستر العورة وتوقى الحر والبرد وما زاد على ذلك هو الدنيا وليس ذلك ﴿إِلَّا لَهْوٌ وَلَعِبٌ﴾ أى إلا كما يلهى ويلعب به الصبيان يجتمعون عليه يبتهجون به ساعة ثم يتفرقون متعبين بلا فائدة وأما القرب فمن أمور الآخرة لظهور ثمرتها فيها ﴿وَإِنَّ الدَّارَ الْآخِرَةَ لَهِيَ الْحَيَوَانُ﴾ أى الحياة الدائمة ، وكما بالغ فى تحقير الدنيا بالغ فى تعظيم الآخرة بتأكيد الجملة بتصديرها بإنّ وبإدخال اللام وبإيثار المصدر الدال على أنها نفس الحياة ثم إيثار الحيوان على الحياة لما فى بناء فعلان من المبالغة بإعلام الحركة والاضطراب اللازمين للحياة وأصله حييان مصدر حيي فقلبت الياء الثانية واواً ﴿لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ﴾ ذلك لما آثروا الدنيا الخسيسة الفانية السريعة الزوال عليها لكنهم على ما وصفوا من الشرك ﴿فَإِذَا رَكِبُوا﴾ البحر ﴿فِي الْفُلْكِ﴾ متصل بما قبله مما دل عليه شرح حالهم وهو نوع آخر من جهالاتهم ﴿دَعَوُا اللهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ﴾ أى الدعاء أو كانوا فى صورة المؤمن المخلص لا يذكرون إلا الله لعلمهم أن لا قدرة لغيره ﴿فَلَمَّا نَجَّاهُمْ إِلَى الْبَرِّ﴾ أى نجاهم من الغرق واصلين إلى البرّ ﴿إِذَا هُمْ يُشْرِكُونَ﴾ فاجأوا الشرك من غير تلبث

﴿ لِيَكْفُرُوا بِمَا آتَيْنَاهُمْ ﴾ من نعمة النجاة التي الواجب عليهم شكرها ، واللام فيه لام كى أى يشركون ليكونوا كافرين بشكرهم نعمة النجاة ﴿ وَلِيَتَمَتَّعُوا ﴾ باجتماعهم على عبادة الأصنام ، أو اللام لام الأمر على التهديد لقراءة ابن كثير وحمزة والكسائى وقالون بإسكانها فى « وليتمتعوا » ولام كى لا تسكن لحذف أن بعدها ويؤيد هذه القراءة قوله فى سورة الروم « ليكفروا بما آتيناهم فتمتعوا » ﴿ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ ﴾ وخامة العاقبة ﴿ أَوَلَمْ يَرَوْا ﴾ لم يعلم أهل مكة ﴿ أَنَّا جَعَلْنَا ﴾ بلدهم مكة ﴿ حَرَمًا ﴾ مصوناً ﴿ آمِنًا ﴾ من النهب والتعدى أى قد رأوا وهو توبيخ ﴿ وَيُتَخَطَّفُ النَّاسُ مِنْ حَوْلِهِمْ ﴾ قتلا وسبياً دونهم إذ سائر العرب فى تغاور وتناهب ﴿ أَفَبِالْبَاطِلِ ﴾ الصنم أو الشيطان ﴿ يُؤْمِنُونَ ﴾ بعد وضوح هذه النعمة ، تعجيب من حالهم ﴿ وَبِنِعْمَةِ اللهِ يَكْفُرُونَ ﴾ بإشراكهم ، وتقديم الصلتين للاهتمام أو للاختصاص على طريق المبالغة ﴿ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَىٰ عَلَى اللهِ كَذِبًا ﴾ بزعمه أن له شريكا أى لا أحد أظلم منه ﴿ أَوْ كَذَّبَ بِالْحَقِّ ﴾ الرسول أو الكتاب والتعبير عنه بالحق لدلالته على المدح ﴿ لَمَّا جَاءَهُ ﴾ من غير تأمل وفى « لما » تشفيههم بالمسارعة إلى التكذيب أول ماسمعوه لأنها كإذا الفجائية والعقلاء لا يفعلون ذلك ﴿ أَلَيْسَ فِى جَهَنَّمَ مَثْوًى لِلْكَافِرِينَ ﴾ تقرير لثوائهم والمعنى ألا يستوجبون الثواء فيها وقد افتروا على الله ؟ أو أعلموا أن جهنم مثواهم ومع ذلك اجترأوا على الافتراء ؟ فمدار الأول على تبيين حالهم للغير واستحقاقهم والثانى على توبيخهم ﴿ وَالَّذِينَ جَاهَدُوا ﴾ جهاد الأعادى الظاهرة والباطنة بأنواعه ولذا أطلق ﴿ فِينَا ﴾ فى حقنا خاصة من غير إشراك ﴿ لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا ﴾ طرق السير إلينا وجمع سبيل الحق وإن كان واحداً باعتبار أنواع المجاهدة . وفى الحديث : من عمل بما علم ورثه الله علم ما لم يعلم ﴿ وَإِنَّ اللهَ لَمَعَ الْمُحْسِنِينَ ﴾ المخلصين فى عبادتهم بالعون والنصر تقوية لجأش المجاهد بأن الله معه .

[تم تفسير سورة العنكبوت]

سورة الروم

مكية - وهى ستون أو تسع وخمسون آية

﴿ بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ ۝ الٓمٓ ﴾ الله أعلم بمراده به ﴿ غُلِبَتِ الرُّومُ ﴾ هم بنو الأصفر أولاد روم ابن عيص بن اسحاق بن إبراهيم وهم فى ذلك الوقت نصارى على ملة عيسى ابن مريم غلبتها فارس وهو لقب لقبيلة ليس لأب ولا أم وإنما هم أخلاط من تغلب اصطلحوا على ذلك الاسم وكانوا فى ذلك الوقت مجوساً يعبدون النار والأوثان ملكوا العراق إلى آخر الشرق وكل من ملكوه يسمى كسرى ويسمى من ملك الروم قيصر وكانوا يقتتلون بينهم على ملك الشام غزاهم فارس فوجدوهم بأذرعات أو بالجزيرة وهو قوله ﴿ فِى أَدْنَى الْأَرْضِ ﴾ أقرب أرض العرب منهم لأنها الأرض المعهودة وهى أذرعات وأدنى أرض الروم إلى عدوهم فارس وهى الجزيرة ، ففرح المشركون بالخبر لما بلغهم فقالوا للمسلمين أنتم والنصارى أهل كتاب ونحن وفارس أميون وقد ظهر إخواننا وكذلك نظهر عليكم إن قاتلتمونا فنزلت الآية بأخبار الغيب وهو ﴿ وَهُمْ ﴾ أى الروم ﴿ مِنْ بَعْدِ غَلَبِهِمْ ﴾ بإضافة المصدر إلى المفعول أى غلبة فارس إياهم ﴿ سَيَغْلِبُونَ ﴾ فارس ﴿ فِى بِضْعِ سِنِينَ ﴾ هو ما بين الثلاث إلى التسع ففرح المسلمون وكثر التشاجر بينهم وبين المشركين حتى راهن أبو بكر رضى الله عنه أبىّ بن خلف على مائة قلوص إن لم يغلب الروم فارس فى تسع سنين . فلما دخلت السنة السابعة من الالتقاء الأول غلبت الروم ، وجاء الخبر بذلك إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم بالمدينة وكان أبىّ قتل يوم أحد فأخذ أبو بكر القلائص من ورثته وكان ذلك قبل تحريم القمار لأن آية الميسر فى المائدة وهى من آخر القرآن نزولا ، وكان هذا من دلائل النبوة وباهر آياتها ﴿ لِلَّهِ الْأَمْرُ مِنْ قَبْلُ وَمِنْ بَعْدُ ﴾ أى من قبل غلب الروم ومن بعده ، المعنى : أن غلبة فارس أولا وغلبة الروم ثانياً بأمر الله أى إرادته إذ لا يكون شىء إلا بقضائه ﴿ وَيَوْمَئِذٍ ﴾ أى يوم تغلب الروم ﴿ يَفْرَحُ الْمُؤْمِنُونَ بِنَصْرِ اللَّهِ ﴾ الروم على فارس لما فيه من انقلاب التفاؤل وظهور صدق كتابهم وزيادة يقينهم أو بنصر الله إياهم على أعدائهم . إذ روى عن ابن عباس أن ذلك وافق يوم بدر سنة اثنين ، وعن قتادة والزهرى يوم الحديبية سنة ست من الهجرة وهذا أقرب لما روى أن هرقل كان قد نذر لئن نصره الله على الفرس ليزورنّ بيت المقدس راجلا فلما انتصر وذهب إلى بيت المقدس لقيه دحية بن خليفة الكلبى بكتاب رسول الله صلى الله عليه وسلم يدعوه إلى الإسلام وذلك سنة ست بلا خلاف ﴿ يَنْصُرُ مَنْ يَشَاءُ ﴾ هؤلاء

تارة وهؤلاء أخرى ﴿ وَهُوَ الْعَزِيزُ ﴾ الغالب يذل من أراد بالخذلان ﴿ الرَّحِيمُ ﴾ يعز من يشاء بالنصر ﴿ وَعْدَ اللَّهِ ﴾ مصدر بدل من اللفظ بفعله وهو مؤكد لنفسه لأن ما قبله فى معنى الوعد ﴿ لَا يُخْلِفُ اللَّهُ وَعْدَهُ ﴾ لاستحالة الكذب عليه ولدلالته على العجز وعدم العلم بعواقب الأمور تعالى الله عن ذلك علوًّا كبيرا ﴿ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ وعده تعالى بنصرهم لجهلهم وعدم النظر الصحيح منهم ﴿ يَعْلَمُونَ ظَاهِرًا مِنَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ﴾ بدل من « لا يعلمون » بدل الكل وهو أوفى بأداء المقصود لدلالته على أن العلم بظاهر الحياة كلا علم لأن الغرض من الدنيا باطنها وهو كونها مزرعة الآخرة ونكر ظاهرا إشارة إلى كمال بلادتهم وأنهم لم يعلموا من ظاهرها إلا قليلا لأن من العلم بظاهرها علم حقائقها وصفاتها وهم بمعزل عن ذلك بل يعلمون من ظاهرها ما يشاهدون ويتمتعون به فيها فقط للمعاش والرياش من التجارة والزراعة والغرس والبناء ونحوها ، ولذا قسم كسرى أيامه يوم الريح للنوم ويوم الغيم للصيد ويوم المطر للشرب واللهو ويوم الشمس للحوائج ﴿ وَهُمْ عَنِ الْآخِرَةِ هُمْ غَافِلُونَ ﴾ لاتخطر ببالهم و« هم » الثانية تأكيد للأولى أو مبتدأ و« غافلون » خبره والجملة خبر الأولى وهو على الوجهين تحقيق لما تقدم . قال فى الجواهر : والمؤمن المنهمك فى أمور الدنيا التى هى أكبر همه يأخذ من هذه الآية بحظ . اه . لكن نبينا صلى الله عليه وسلم جزأ دنياه ثلاثة أجزاء : جزء لله تعالى وجزء لأهله وجزء لنفسه ثم جزأ جزأه بينه وبين الناس فكان يستعين بالخاصة على العامة ويقول بلغوا إلىّ حاجة من لا يستطيع بلاغى فإنه من أبلغ حاجة من لا يستطيع أمّنه الله يوم الفزع الأكبر . نور الله قلوبنا بهداه وجعلنا ممن اتبع سنته وخالف هواه ﴿ أَوَلَمْ يَتَفَكَّرُوا فِي أَنْفُسِهِمْ ﴾ توبيخ على عدم التفكر فيما يعود نفعه إليهم أى هلا أحدثوا التفكر فى أنفسهم الفارغة عنه والفكر لا يكون إلا فى النفس فذكرها لتصوير الحال كقولك أبصرته بعينى ويجوز أن يكون فى صلة « يتفكروا » كقولك تفكر فى المسألة أى فى أمر أنفسهم فإنها أقرب إليهم من غيرها ومرآة يجتلى فيها مايجتلى فى الممكنات بأسرها لاشتمالها على نظائر مافى العالم العلوى والسفلى فلِمَ لا يتفكرون فيها فيعلمون ﴿ مَا خَلَقَ اللَّهُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا إِلَّا بِالْحَقِّ ﴾ الذى هو الحكمة البالغة الابتلاء ليجازى المحسن والمسىء لا عبثاً تعالى الله عن ذلك ﴿ وَأَجَلٍ مُسَمًّى ﴾ معين لذلك لا يتجاوزه ينتهى عند الساعة ، والباء فى « بالحق » مثل الباء فى اشتريت الفرس بلجامه دالة على المقارنة واللزوم ، قاله فى غاية الأمانى ﴿ وَإِنَّ كَثِيرًا مِنَ النَّاسِ ﴾ وهم الكفار ﴿ بِلِقَاءِ رَبِّهِمْ ﴾ بالبعث بعد الموت ﴿ لَكَافِرُونَ ﴾ جاحدون يحسبون أن الدنيا أبدية ﴿ أَوَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ ﴾ من الأمم كعاد وثمود وهى إهلاكهم بتكذيبهم رسلهم والاستفهام للتقرير أى قد وقع السير والنظر لكن مع عدم اعتبارهم ﴿ كَانُوا أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً ﴾ لأن كل قرن دون ما قبله وفى الحديث « خلق الله آدم طوله ستون ذراعا فلم يزل الناس يتناقصون إلى يومنا » ﴿ وَأَثَارُوا الْأَرْضَ ﴾ حرثوها وقلبوها

للبناء والزرع واستخراج المياه والمعادن وغير ذلك ﴿وَعَمَرُوهَا أَكْثَرَ مِمَّا عَمَرُوهَا﴾ أى أهل مكة فإنهم أهل واد غير ذى زرع تهكم بهم من حيث أنهم مغترون بالدنيا وهم أضعف حالا فيها ﴿وَجَاءَتْهُمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ﴾ الحجج الظاهرات فلم يبق لهم عذر يعتذرون به ﴿فَمَا كَانَ اللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ﴾ بعد ذلك الإرسال وقطع الأعذار ﴿وَلَكِنْ كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾ بتعريضها لسخط الله ﴿ثُمَّ كَانَ عَاقِبَةَ الَّذِينَ أَسَاءُوا﴾ أى عاقبتهم وضع الظاهر موضع الضمير للدلالة على المقتضى برفع عاقبة لنافع وابن كثير وأبى عمرو اسم كان والخبر ﴿السُّوأَى﴾ مؤنث الأسوإ الأقبح أى العقوبة السوءى وهى جهنم وللباقين نصب عاقبة خبر والسوءى اسمها أو السوءى مصدر كالبشرى وصف به ، وإساءتهم ﴿أَنْ﴾ أى بأن ﴿كَذَّبُوا بِآيَاتِ اللَّهِ﴾ علة أو بدل أو عطف بيان للسوءى ويجوز أن تكون أن مفسرة للإساءة لأنها تكون قولية كما تكون فعلية ﴿وَكَانُوا بِهَا يَسْتَهْزِئُونَ * اللَّهُ يَبْدَأُ الْخَلْقَ﴾ ينشئهم ﴿ثُمَّ يُعِيدُهُ﴾ أى الخلق بعد الموت ﴿ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ بالخطاب للجمهور للمبالغة فى المقصود وبالغيبة على الأصل لأبى عمرو وأبى بكر أى للجزاء ثوابا وعقابا فيه وعد ووعيد ﴿وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ يُبْلِسُ﴾ ييأس ﴿الْمُجْرِمُونَ﴾ أو يسكتون لانقطاع حجتهم ومنه الإبلاس اليأس أو التحير ﴿وَلَمْ يَكُنْ لَهُمْ مِنْ شُرَكَائِهِمْ﴾ الذين أشركوهم بالله فى الألوهية ﴿شُفَعَاءُ﴾ كما كانوا يزعمون أنهم يجيرونهم من عذاب الله ﴿وَكَانُوا﴾ أى يكونون ﴿بِشُرَكَائِهِمْ كَافِرِينَ﴾ متبرئين منهم حين يئسوا منهم ومجيئه بلفظ الماضى لتحقق وقوعه أو الباء للسببية أى كانوا كافرين فى الدنيا بسببهم ﴿وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ يَوْمَئِذٍ﴾ تأكيد ﴿يَتَفَرَّقُونَ﴾ أى المؤمنون والكافرون لقوله وامتازوا اليوم أيها المجرمون ولقوله ﴿فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَهُمْ فِي رَوْضَةٍ﴾ أرض ذات أزهار وأنهار وأشجار وثمار أى الجنة ﴿يُحْبَرُونَ﴾ يسرون وينعمون من الحبرة وهى البهاء والحسن فى كل شىء ﴿وَأَمَّا الَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَلِقَاءِ الْآخِرَةِ فَأُولَئِكَ فِي الْعَذَابِ مُحْضَرُونَ﴾ مدخلون لا يغيبون عنه وإنما لم يكتف بالكفر بل أضاف إليه التكذيب لكونه فى مقابلة الذين آمنوا وعملوا الصالحات ﴿فَسُبْحَانَ اللَّهِ﴾ أى سبحوا الله بمعنى صلوا حين علتم حال المعرضين عن عبادته والمقبلين إليه ﴿حِينَ تُمْسُونَ﴾ أى تدخلون فى المساء وفيه صلاتان المغرب والعشاء ﴿وَحِينَ تُصْبِحُونَ﴾ تدخلون فى الصباح وفيه صلاة الصبح ﴿وَلَهُ الْحَمْدُ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ هو مستحق الحمد من أهلها ﴿وَعَشِيًّا﴾ عطف على حين وفيه صلاة العصر ﴿وَحِينَ تُظْهِرُونَ﴾ تدخلون فى الظهيرة وفيه صلاة الظهر ثم استأنف بما يدل على استحقاقه التسبيح والتحميد بقوله ﴿يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ﴾ كالإنسان من النطفة والطائر من البيضة ﴿وَيُخْرِجُ الْمَيِّتَ﴾ النطفة والبيضة ﴿مِنَ الْحَيِّ﴾ أو يعقب الحياة الموت وبالعكس ﴿وَيُحْيِي الْأَرْضَ﴾ بالنبات ﴿بَعْدَ مَوْتِهَا﴾ أى يبسها مع عدم التجانس بين النبات والأرض ﴿وَكَذَلِكَ﴾ الإخراج ﴿تُخْرَجُونَ﴾ من القبور بالبناء للمفعول - للجمهور ، وللفاعل لحمزة والكسائى ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ﴾ أى بعضها الدالة على العلم والقدرة ﴿أَنْ خَلَقَكُمْ مِنْ تُرَابٍ﴾ أى أصلكم وهو آدم أو كل واحد لما فى الحديث من أن النطفة التى يخلق منها الإنسان تعجن بالتراب الذى يدفن فيه إذا

مات ﴿ثُمَّ إِذَا أَنْتُمْ بَشَرٌ﴾ من دم ولحم أى ثم فاجأتكم وقت كونكم بشراً ﴿تَنْتَشِرُونَ﴾ فى الأرض لأسباب المعاش والأغراض ولا تنافى بين ثم وإذا ، الفجائية لأن ثم للدلالة على بعد هذه الكثرة من ذلك الأصل الواحد الكائن من تراب ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجاً﴾ بخلق حواء من ضلع آدم وسائر النساء من نطف الرجال والنساء أو المعنى من جنسكم لا من جنس آخر ﴿لِتَسْكُنُوا إِلَيْهَا﴾ لتميلوا إليها وتألفوها فالجنسية سبب التآلف والاختلاف سبب التنافر والتخالف والوحدة وحشة ﴿وَجَعَلَ بَيْنَكُمْ مَوَدَّةً﴾ بسبب شهوة ركبها فى كل من الزوجين ﴿وَرَحْمَةً﴾ لرقة الجنسية التى تراحمون لأجلها ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ﴾ المذكور من العبر ﴿لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾ فى صنع الله وحكمه لأن الآيات لا يعظم موقعها إلا فى قلوب العارفين بالله ومن أكثر التفكر فى عجائب صنع الله حصلت له المعرفة بالله تعالى ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ خَلْقُ السَّمَٰوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافُ أَلْسِنَتِكُمْ﴾ لغاتكم التى علمها الله آدم بإلهام من عربية وعجمية وغيرهما كعبرانية وسريانية ﴿وَأَلْوَانِكُمْ﴾ من بياض وسواد وغيرهما وأنتم أولاد رجل واحد وامرأة واحدة ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِلْعَالِمِينَ﴾ بفتح اللام للجمهور الملك والإنس والجن وبكسرها لحفص أى ذوى العقول وأولى العلم كقوله « ومايعقلها إلا العالمون » ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ مَنَامُكُمْ بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ﴾ بإرادته راحة لكم ﴿وَابْتِغَاؤُكُمْ﴾ بالنهار أو بهما ﴿مِنْ فَضْلِهِ﴾ أى تصرفكم فى طلب المعيشة بإرادته ولم يقل منامكم وابتغاؤكم من فضله بالليل والنهار على ظاهر اللف اهتماما بالظروف الذى تحصل به الآية وقدم المنام لكونه آية مستقلة مع قطع النظر عن الليل بخلاف الابتغاء ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَسْمَعُونَ﴾ سماع تدبر ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ يُرِيكُمُ﴾ أى إراءتكم ﴿الْبَرْقَ﴾ نزّل الفعل منزلة المصدر أو صفة لمحذوف تقديره آية يريكم بها البرق ﴿خَوْفاً﴾ من الصاعقة أو من الإخلاف أو للمسافر ﴿وَطَمَعاً﴾ فى المطر أو للحاضر ونصبهما على العلة بتقدير مضاف أى إرادة خوفكم أو الخوف والطمع بمعنى الإخافة والإطماع أو على الحال مثل كلمته شفاها ﴿وَيُنَزِّلُ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَيُحْيِي بِهِ الْأَرْضَ﴾ بالنبات مجاز حكمى ﴿بَعْدَ مَوْتِهَا﴾ يبسها وذهاب نضارتها مجاز لغوى ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾ يستعملون عقولهم ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ تَقُومَ السَّمَاءُ وَالْأَرْضُ﴾ فى حيزهما ﴿بِأَمْرِهِ﴾ بإرادته من غير عمد عبر بالأمر للمبالغة فى كمال القدرة والغنى عن الآلة ﴿ثُمَّ إِذَا دَعَاكُمْ دَعْوَةً مِنَ الْأَرْضِ﴾ بنفخ إسرافيل فى الصور للبعث من القبور ومن متعلق بدعا كدعوته من المسجد ﴿إِذَا أَنْتُمْ تَخْرُجُونَ﴾ منها أحياء فخروجكم بدعوة من آياته وقوله «ثم إذا دعاكم ... إلى آخره» عطف على أن تقوم على تأويل مفرد كأنه قيل ومن آياته قيام السموات والأرض بأمره ثم خروجكم من القبور إذا دعاكم وثم لتراخى الزمان أو لعظم ما فيه وإذا الأولى شرطية والثانية فجائية داخلة على الجزاء قائمة مقام الفاء وذكر الدعوة إشارة إلى سرعة خروجهم وأنه لا يتوقف إلا على مجرّد ما يطلق عليه اسم الدعاء ﴿وَلَهُ مَنْ فِي السَّمَٰوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ خلقا وملكا ﴿كُلٌّ﴾ أى كل شىء ﴿لَهُ﴾ أى لفعله ﴿قَانِتُونَ﴾ مطيعون لا يمتنعون بمعنى نافذ فيهم أمره طوعا أو كرها ﴿وَهُوَ

الَّذِي يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ ﴾ بعد الهلاك ﴿ وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ ﴾ من البدء فى عرفكم وإن كان الكل تحت قدرته على السواء وفيه تسفيه لهم حيث جهلوا هذا القياس الجلى وعن ابن عباس الأهون بمعنى الهين وقيل الضمير فى عليه للخلق ويرده الحديث القدسى فى البخارى ليس أول الخلق بأهون علىّ من إعادته وضمير هو راجع إلى الإعادة ، ذكر لتذكير خبره أو لمعنى أن يعيد ﴿ وَلَهُ الْمَثَلُ ﴾ الوصف العجيب ﴿ الْأَعْلَىٰ ﴾ الذى ليس لغيره ما يساويه أو يدانيه وهو أنه لا إله إلا هو أو كل وصف له كالقدرة العامة والحكمة التامة ﴿ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ ﴾ يصفه به ما فيهما دلالة ونطقا متعلق بخبر المبتدإ أو بالأعلى ﴿ وَهُوَ الْعَزِيزُ ﴾ الغالب الذى لا يعجز أبدا عن إبداء ممكن وإعادته ﴿ الْحَكِيمُ ﴾ الذى لا يفعل شيئا إلا لحكمة ولذلك ﴿ ضَرَبَ لَكُمْ ﴾ أيها الكفار ﴿ مَثَلًا مِنْ أَنْفُسِكُمْ ﴾ أى منتزعا من أحوالها التى هى أقرب الأمور إليكم فإن للأمثال شأنا فى إبراز المعانى فى النفوس فى صورة المحسوس لا سيما إذا كان المثل حالا من أحوال الممثل له وهو ﴿ هَلْ لَكُمْ مِمَّا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ ﴾ من العبيد والإماء ﴿ مِنْ شُرَكَاءَ ﴾ لكم ﴿ فِيمَا رَزَقْنَاكُمْ ﴾ من الأموال وغيرها ﴿ فَأَنْتُمْ ﴾ وهم ﴿ فِيهِ سَوَاءٌ ﴾ تتصرفون فيه على السواء و « من » الأولى للابتداء والثانية للتبعيض والثالثة مزيدة لتأكيد النفى الذى هو معنى الاستفهام ﴿ تَخَافُونَهُمْ ﴾ فى التصرف والإرث ﴿ كَخِيفَتِكُمْ أَنْفُسَكُمْ ﴾ أى أمثالكم من الأحرار إذ الحر يخاف شريكه الحر فى المال أن ينفرد بالمال دونه أو فى الميراث أن ينفرد به ولا يخاف ذلك من عبيده فإذا لم يكونوا شركاءكم فى المال مع أنهم بشر مثلكم فكيف تجعلون بعض مماليك الله شركاء له وهو رب الأرباب وخالق السادات والمماليك ﴿ كَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ الْآيَاتِ ﴾ مثل هذا التفصيل الجلى نفصل سائر الآيات ﴿ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴾ يتدبرون الأمثال ﴿ بَلِ اتَّبَعَ الَّذِينَ ظَلَمُوا ﴾ بالإشراك ﴿ أَهْوَاءَهُمْ بِغَيْرِ عِلْمٍ ﴾ جاهلين لا يكفهم شىء فالعالم ربما ردعه علمه عن الهوى وأما الجاهل المتبع للهوى فلا يردعه شىء ولذا قال ﴿ فَمَنْ يَهْدِي مَنْ أَضَلَّ اللَّهُ ﴾ أى لا هادى لمن أراد الله ضلاله ﴿ وَمَا لَهُمْ مِنْ نَاصِرِينَ ﴾ مانعين من عذاب الله أى كما لا هادى لهم فى الدنيا لا ناصر لهم فى الآخرة ﴿ فَأَقِمْ وَجْهَكَ ﴾ بعد ما بلغت أى اصرف كلك ﴿ لِلدِّينِ ﴾ إلى طاعة الله ﴿ حَنِيفًا ﴾ مائلا عن غيره غير ملتفت إلى سواه ، أى أخلص يا محمد دينك لله أنت ومن تبعك والتعبير بالوجه لأن من اهتم بشىء قوّم وجهه مقبلا عليه فهو تمثيل للإقبال والاستقامة عليه والاهتمام به ﴿ فِطْرَتَ اللَّهِ ﴾ خليقته نصب على الإغراء أى الزموا ما جبلتم عليه من القابلية للإيمان ﴿ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا ﴾ وهى دينه الإسلام لحديث أبى هريرة عنه عليه السلام : « ما من مولود يولد إلا على الفطرة فأبواه يهوّدانه أو ينصرانه أو يمجسانه » رواه البخارى . وقيل هى العهد فى عالم الأرواح ﴿ لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ ﴾ لدينه أى لا تغيروا تلك الفطرة خبر بمعنى النهى أو لا يقدر أحد أن يغيره ﴿ ذَٰلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ ﴾ المستقيم توحيداً لله ﴿ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ ذلك لإخلالهم بالنظر

الصحيح ﴿ مُنِيبِينَ ﴾ راجعين ﴿ إِلَيْهِ ﴾ تعالى مرة أخرى فيما أمر به ونهى عنه حال من الضمير فى ناصب « فطرة » لا من فاعل « أقم » وكون خطاب النبى خطاباً لأمته هو باعتبار شمول الحكم لا فى تجويز جمع ضميره . انظر غاية الأمانى ﴿ وَاتَّقُوهُ ﴾ خافوه ﴿ وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَلَا تَكُونُوا مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴾ والأفعال الثلاثة معطوفات على الناصب المقدر ﴿ مِنَ الَّذِينَ ﴾ بدل بإعادة الجار ﴿ فَرَّقُوا دِينَهُمْ ﴾ آمنوا ببعضه وكفروا ببعضه أو كل ذهب إلى رأى ، وقرأ حمزة والكسائى فارقوا بألف أى تركوا دينهم ﴿ وَكَانُوا شِيَعًا ﴾ فرقاً كل فرقة تشايع إمامها الذى أضلها ﴿ كُلُّ حِزْبٍ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ ﴾ مبتدأ وخبر أى مسرورون بدينهم حقاً كان أو باطلا ظناً بأنه الحق ﴿ وَإِذَا مَسَّ النَّاسَ ضُرٌّ ﴾ شدة ﴿ دَعَوْا رَبَّهُمْ مُنِيبِينَ إِلَيْهِ ﴾ راجعين إليه من دعاء غيره بالتوبة ﴿ ثُمَّ إِذَا أَذَاقَهُمْ مِنْهُ رَحْمَةً ﴾ خلاصاً من تلك الشدة كشفاء المرض ونيل المطر ﴿ إِذَا فَرِيقٌ مِنْهُمْ بِرَبِّهِمْ يُشْرِكُونَ ﴾ أى فاجأهم الإشراك بربهم الذى عافاهم ورحمهم وفى إيثار لفظ الرب زيادة توبيخ لهم والآية فى الكفار ولبعض المؤمنين فى ذلك حظ ﴿ لِيَكْفُرُوا بِمَا آتَيْنَاهُمْ ﴾ اللام للعاقبة أو تعليل لما دل عليه اللام أى أفاض عليهم ليكفروا أو لام الأمر للتهديد كقوله اعملوا ما شئتم بدليل قوله ﴿ فَتَمَتَّعُوا فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ ﴾ وبال تمتعكم والتفت عن الغيبة البالغة ﴿ أَمْ أَنْزَلْنَا عَلَيْهِمْ سُلْطَانًا ﴾ حجة وكتاباً إضراب إلى ماهو أبعد ﴿ فَهُوَ يَتَكَلَّمُ ﴾ تكلم دلالة ﴿ بِمَا كَانُوا بِهِ يُشْرِكُونَ ﴾ أى بإشراكهم وصحته أو بالأمر الذى يشركون به وألوهيته والتكلم مجاز عن الدلالة أو يقدر مضاف أى ذا سلطان أى ملكا معه برهان ﴿ وَإِذَا أَذَقْنَا النَّاسَ رَحْمَةً ﴾ نعمة كصحة وسعة يريد بالناس بعضهم لقوله فى سورة هود «إلا الذين صبروا» ﴿ فَرِحُوا بِهَا ﴾ فرح بطر ﴿ وَإِنْ تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ ﴾ شدة ﴿ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ ﴾ بشؤم معاصيهم ﴿ إِذَا هُمْ يَقْنَطُونَ ﴾ ييأسون من الرحمة بخلاف المؤمنين الشاكرين فى السراء والضراء ﴿ أَوَلَمْ يَرَوْا ﴾ يعلموا ﴿ أَنَّ اللَّهَ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ ﴾ يوسعه له امتحاناً ﴿ وَيَقْدِرُ ﴾ يضيقه لمن يشاء ابتلاء تتميم للإنكار على من بطر بالنعمة وبئس عند زوالها وقد علم أن القابض والباسط هو الله فهلا رجع إليه بالشكر والتوبة فى السراء والضراء ﴿ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴾ بأن الكل من الله فيستدلون بذلك على قدرته وحكمته ﴿ فَآتِ ذَا الْقُرْبَىٰ ﴾ القرابة المحارم وغيرهم ﴿ حَقَّهُ ﴾ من سائر أنواع البر والصلة وحسن المعاشرة ولين القول . قال ابن عطية : ومعظم ماقصد أمر المعونة بالمال ﴿ وَالْمِسْكِينَ وَابْنَ السَّبِيلِ ﴾ المسافر ما وظف لهما من الزكاة والصدقة ، والخطاب للنبى وأمته تبع له فى ذلك يعنى إذا علمت أن البسط وضده من الله فإن الإحسان على هؤلاء يكون مجلبة لإحسان الله إليك ﴿ ذَٰلِكَ خَيْرٌ لِلَّذِينَ يُرِيدُونَ ﴾ بمعروفهم ﴿ وَجْهَ اللَّهِ ﴾ أى ثوابه خالصاً لا لجهة أخرى أو النظر إلى وجهه أى ذاته يوم القيامة ﴿ وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴾ الفائزون حيث حصلوا بما بسط لهم النعيم الدائم ﴿ وَمَا آتَيْتُمْ ﴾ بالمد للجمهور من الإيتاء وبالقصر لابن كثير من الإتيان ﴿ مِنْ رِبًا ﴾ بأن يعطى شيئاً هبة أو هدية

أو زيادة محرمة فى المعاملة ﴿لِّتُرْبُوا﴾ بضم التاء وإسكان الراء لنافع خطاب وبفتح الياء التحتية للباقين أي لتزيدوا فى أموالكم أو لتزدادوا أنتم على الأول أو ليزيد ﴿فِى أَمْوَالِ النَّاسِ﴾ المعطين هبة أو هدية للثواب أو ما أعطيتم أكلة الربا زيادة على حقهم ﴿فَلَا يَرْبُو﴾ لا يزكوا ذلك ﴿عِندَ اللَّهِ﴾ أى لا ثواب فيه للمعطين ولا بركة فيما يعطى آكل الربا لكونه حراما وهبة الثواب وإن كانت جائزة فلا ثواب فيها عند الله بل إن نال الزيدة على ما أعطى فهى ، وإلا فإن كانت هبته قائمة لم تتغير أخذ ماشاء منها أو مما أعطى وإن فاتت فليس له إلا القيمة والهبة لا تنبغى أن تكون إلا لله أو لجلب المودة لحديث تهادوا تحابوا ﴿وَمَا آتَيْتُم﴾ بالمد للسبعة ﴿مِّن زَكَاةٍ﴾ واجبة أو نافلة ﴿تُرِيدُونَ﴾ بها ﴿وَجْهَ اللَّهِ﴾ خالصا ﴿فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُضْعِفُونَ﴾ ثوابهم بما أرادوه وفيه التفات عن الخطاب للتعظيم كأنه خاطب به الملائكة وخواص خلقه تعريفا لحالهم أو للتعميم كأنه قال فمن فعل ذلك فأولئك هم المضعفون ﴿اللَّهُ﴾ مبتدأ والخبر ﴿الَّذِى خَلَقَكُمْ ثُمَّ رَزَقَكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ﴾ هذه خواص الألوهية قد ثبتت له على الوفاق ﴿هَلْ مِن شُرَكَائِكُم﴾ ممن أشركتم بالله ﴿مَّن يَفْعَلُ مِن ذَٰلِكُم مِّن شَىْءٍ﴾ نفى لها عن الشركاء مع تأكيد الإنكار بالبرهان والعيان ومن الأولى للتبعيض يفيد أن لا فاعل لذلك منهم قط والثانية أيضا كذلك تفيد أن بعضا من تلك الأفعال لا يتأتى من أحد من شركائهم فضلا عن الكل والثالثة مزيدة لتوكيد شمول النفى أى ماينطلق عليه اسم الشىء ولما بين استحالة الشريك قدس ذاته بقوله ﴿سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ به أو عن إشراكهم ﴿ظَهَرَ الْفَسَادُ فِى الْبَرِّ وَالْبَحْرِ﴾ بارتفاع البركات بقلة المنافع فى جميع أصناف الأموال ووقوع الرزايا وحدوث الفتن وتقلب العدو وانقطاع الصيد وكثرة الموتان والغرق والحرق ﴿بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِى النَّاسِ﴾ بشؤم معاصيهم أو بكسبهم إياه ، وقيل المراد بالبر القفار بقحط المطر وقلة النبات ونحو ذلك وبالبحر البلاد التى على الأنهار بقلة مائها وصيدها ونحو ذلك ﴿لِيُذِيقَهُم﴾ بالياء للجمهور وبالنون لقنبل ﴿بَعْضَ الَّذِى عَمِلُوا﴾ من الظلم والمعاصى أى عقوبته فى الدنيا وتمامه فى الآخرة ، واللام للعلة أو العاقبة ﴿لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾ يتوبون عما هم عليه ويرجعون إلى العدل والطاعة . وعن الإمام أحمد بن حنبل : وجد فى زمن أبى زياد صرة فيها البر كل حبة مثل نوى التمر مكتوب على الصرة : هذا نبت فى زمن العدل ﴿قُلْ﴾ للكفار إذا قصر إدراكهم عن المعقولات ﴿سِيرُوا فِى الْأَرْضِ فَانظُرُوا﴾ بالأبصار ﴿كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِن قَبْلُ﴾ آثار الأمم المكذبة وما حل بهم فتلك بيوتهم خاوية بما ظلموا لتشاهدوا مصداق ذلك ﴿كَانَ أَكْثَرُهُم مُّشْرِكِينَ﴾ مثلكم فأهلكوا بإشراكهم والجملة استئناف لبيان علة سوء العاقبة وهو إشراك أكثرهم وعصيان غيرهم ﴿فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ الْقَيِّمِ﴾ البليغ الاستقامة ﴿مِن قَبْلِ أَن يَأْتِىَ يَوْمٌ لَّا مَرَدَّ لَهُ مِنَ اللَّهِ﴾ متعلق بيأتى وهو يوم القيامة لا يقدر على رده أحد ولا رجوع فيه لعمل ﴿يَوْمَئِذٍ يَصَّدَّعُونَ﴾ والأصل يتصدعون فأدغم التاء فى الصاد أى يتفرقون بعد الحساب إلى الجنة والنار ﴿مَن كَفَرَ فَعَلَيْهِ كُفْرُهُ﴾ وبال كفره وهو النار ﴿وَمَنْ عَمِلَ صَالِحًا فَلِأَنفُسِهِمْ يَمْهَدُونَ﴾ يوطئون منازلهم فى الجنة ويفرشونها كمن أراد

الرقاد فى مكان يسويه حتى لا يبقى فيه شيء يؤذى الراقد كناية عن كمال شفقتهم على أنفسهم وتقديم الظرف فى الموضعين للاختصاص ﴿لِيَجْزِيَ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ مِنْ فَضْلِهِ﴾ أى يثيبهم تفضلا لا أداء للواجب تعليل ليصدعون أو يمهدون دل بمنطوقه على اختصاصهم بالجزاء وبمفهومه على أنهم أهل المحبة واقتصر على جزائهم إشعارا بأنه المقصود بالذات واكتفى على جزاء الكافرين بفحوى قوله ﴿إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْكَافِرِينَ﴾ فدل صريحا على أن عدم المحبة اقتضى حرمانهم وبمفهومه على محبة المؤمنين واقتضاء ذلك توفير جزائهم ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ يُرْسِلَ الرِّيَاحَ﴾ وقت المطر وهى الجنوب والشمال والصبا فهى رياح الرحمة وأما الدبور فريح العذاب لحديث «اللهم اجعلها رياحا ولا تجعلها ريحا» وقرأ ابن كثير وحمزة والكسائى بالإفراد على إرادة الجنس ﴿مُبَشِّرَاتٍ﴾ بالمطر ﴿وَلِيُذِيقَكُمْ﴾ بها ﴿مِنْ رَحْمَتِهِ﴾ المطر والخصب والروح بهبوبها عطف على مبشرات كأنه قال ليبشركم وليذيقكم من رحمته ﴿وَلِتَجْرِيَ الْفُلْكُ﴾ السفن بها ﴿بِأَمْرِهِ﴾ بإرداته لا بمجرد الرياح أو من أموره الخاصة به التى لا يقدر عليها غيره ﴿وَلِتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ﴾ الرزق فى التجارة فى البحر ﴿وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ هذه النعم فتوحدونه ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ رُسُلًا إِلَى قَوْمِهِمْ فَجَاءُوهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ﴾ بالحجج الواضحات على صدقهم ورسالتهم إليهم فكذبوهم ﴿فَانْتَقَمْنَا مِنَ الَّذِينَ أَجْرَمُوا﴾ بإهلاكهم ﴿وَكَانَ حَقًّا عَلَيْنَا نَصْرُ الْمُؤْمِنِينَ﴾ على الكفار إشعار بأن الانتقام لهم إظهارا لكرامتهم وعنه صلى الله عليه وسلم «مامن امرئ مسلم يرد عن عرض أخيه إلا كان حقا على الله أن يرد عنه نار جهنم» ثم تلا هذه الآية. قلت ومعنى «حقا» الوجوب النسبي أى بالنسبة أن العلم الإلهى تعلق بذلك أزلا فلا بد من وجوده من تلك الحيثية وقد أجمع أهل الله كلهم على أن الله له الرجوع عما أوجبه على نفسه فإن وفى به فهو فضل منه وإلا فلا اعتراض عليه، فافهم ﴿اللَّهُ الَّذِي يُرْسِلُ الرِّيَاحَ﴾ بالجمع للجمهور وبالإفراد لابن كثير وحمزة والكسائى ﴿فَتُثِيرُ سَحَابًا﴾ تزعجه ﴿فَيَبْسُطُهُ﴾ متصلا تارة ﴿فِي السَّمَاءِ﴾ فى سمتها ﴿كَيْفَ يَشَاءُ﴾ من قلة وكثرة ورقة وكثافة سائرا أو واقفا مطبقا أو من جانب ﴿وَيَجْعَلُهُ﴾ تارة ﴿كِسَفًا﴾ بفتح السين للجمهور وبسكونها لابن عامر قطعا متفرقة ﴿فَتَرَى الْوَدْقَ﴾ المطر ﴿يَخْرُجُ مِنْ خِلَالِهِ﴾ وسطه فى تلك الحالات ﴿فَإِذَا أَصَابَ بِهِ﴾ بالودق ﴿مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ﴾ أى بلادهم وأرضهم ﴿إِذَا هُمْ يَسْتَبْشِرُونَ﴾ بمجيء المطر والخصب ﴿وَإِنْ﴾ قد ﴿كَانُوا مِنْ قَبْلِ أَنْ يُنَزَّلَ عَلَيْهِمْ مِنْ قَبْلِهِ﴾ تأكيد ﴿لَمُبْلِسِينَ﴾ آيسين من إنزاله كرر لفظ «قبل» دلالة على أن إبلاسهم كان فى غاية الاستحكام فيكون الاستبشار الواقع بعده فى أقصى الدرجات ﴿فَانْظُرْ إِلَى آثَارِ﴾ بالإفراد لنافع وابن كثير وأبى عمرو وشعبة وبالجمع للباقين ﴿رَحْمَتِ اللَّهِ﴾ من النبات والأشجار وأنواع الثمار ﴿كَيْفَ يُحْيِي الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا﴾ يبسها بأن تنبت ﴿إِنَّ ذَلِكَ﴾ المحيي للأرض ﴿لَمُحْيِي الْمَوْتَى﴾ تحقيق للمعاد ببرهان المبدإ من إرسال الرياح وإنشاء السحاب والنبات ﴿وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ إذ نسبة قدرته لجميع الممكنات على سواء وإحياء الموتى داخل فى هذه الكلية ﴿وَلَئِنْ﴾ لام قسم ﴿أَرْسَلْنَا رِيحًا﴾

مضرة على نبات ﴿فَرَأَوْهُ﴾ أى الأثر الذى هو النبات أو السحاب لأنه إذا كان مصفرا لم يمطر ﴿مُصْفَرًّا لَظَلُّوا﴾ صاروا جواب القسم سد مسد الجزاء ولذلك يفسر بالاستقبال ﴿مِنْ بَعْدِهِ﴾ أى بعد اصفراره ﴿يَكْفُرُونَ﴾ يجحدون النعمة بالمطر لعدم تفكرهم وحقهم التوكل على الله والالتجاء إليه بالاستغفار إذا احتبس المطر عنهم لا اليأس وعدم إفراط الاستبشار إذا أصابهم برحمته بل أن يكثروا الشكر حينئذ ويصبروا إذا أصفر زرعهم والكل ذم على ترك الاستدلال بالآيات وشكر الآلاء والصبر على البلاء ولذا شبههم بالموتى بقوله ﴿فَإِنَّكَ لَا تُسْمِعُ الْمَوْتَى﴾ بسد مشاعرهم عن الحق ﴿وَلَا تُسْمِعُ الصُّمَّ الدُّعَاءَ إِذَا وَلَّوْا مُدْبِرِينَ﴾ قيد الحكم به ليكون أشد استحالة فإن الأصم المقبل وإن لم يسمع الكلام تفطن منه بواسطة الحركات شيئاً وقرأ ابن كثير يسمع بالياء المفتوحة ورفع الصم ﴿وَمَا أَنْتَ بِهَادِ الْعُمْيِ عَنْ ضَلَالَتِهِمْ﴾ وقرأ حمزة وحده وما أنت تهدى العمى عن ضلالتهم ﴿إِنْ تُسْمِعُ إِلَّا مَنْ يُؤْمِنُ بِآيَاتِنَا﴾ القرآن فإن إيمانهم يدعوهم إلى تلقى اللفظ وتدبر المعنى أو المراد من أراد الله إيمانه ﴿فَهُمْ مُسْلِمُونَ﴾ منقادون لأوامر الله . ولما لم ينجح فى الكفار آيات الآفاق تلا عليهم آيات الأنفس فى أطوارها من أول النشأة إلى الانتهاء فإنه أدل على الصانع القدير بقوله ﴿اللَّهُ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ ضُعْفٍ﴾ ابتدأكم ضعفاء أو من أصل ضعيف وهو النطفة بضم الضاد فى الكلمات الثلاث للجمهور وبفتحها لعاصم وحمزة لغتان ﴿ثُمَّ جَعَلَ مِنْ بَعْدِ ضُعْفٍ﴾ للجنين أو الطفل ﴿قُوَّةً﴾ بالروح أو بالشباب ﴿ثُمَّ جَعَلَ مِنْ بَعْدِ قُوَّةٍ ضُعْفًا﴾ للكبر ﴿وَشَيْبَةً﴾ للهرم والتنكير مع التكرير لأن المتأخر ليس عين المتقدم ﴿يَخْلُقُ﴾ الله ﴿مَا يَشَاءُ﴾ من الضعف والقوة والشباب والشيب ﴿وَهُوَ الْعَلِيمُ﴾ كامل العلم بتدبير خلقه وغير ذلك ﴿الْقَدِيرُ﴾ كامل القدرة على ما يشاء ﴿وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ﴾ القيامة علم لها بالغلبة ﴿يُقْسِمُ الْمُجْرِمُونَ﴾ الكافرون ﴿مَا لَبِثُوا﴾ فى الدنيا أو فى القبور ﴿غَيْرَ سَاعَةٍ﴾ لاستعظامهم عذاب الله والساعة الأولى القيامة والثانية ما يتعارفه الناس من الزمان وبينهما من أنواع البديع الجناس التام المتماثل ﴿كَذَٰلِكَ﴾ مثل ذلك الصرف عن الصدق والتحقيق ﴿كَانُوا يُؤْفَكُونَ﴾ يصرفون عن الحق فى الدنيا ويبنون أمرهم على الباطل ﴿وَقَالَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ وَالْإِيمَانَ﴾ من الملائكة وغيرهم ﴿لَقَدْ لَبِثْتُمْ فِي كِتَابِ اللَّهِ﴾ فيما كتب فى سابق علمه وقضائه عبر بالكتاب دلالة على عدم التبدل كالشىء المكتوب ﴿إِلَىٰ يَوْمِ الْبَعْثِ فَهَٰذَا يَوْمُ الْبَعْثِ﴾ الذى أنكرتموه ﴿وَلَٰكِنَّكُمْ كُنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾ أنه كائن لعدم تصديقكم الرسل والكتب أى فقد تبين بطلان إنكاركم ﴿فَيَوْمَئِذٍ لَا تَنْفَعُ﴾ بالفوقية للجمهور، والتحتية للكوفيين ﴿الَّذِينَ ظَلَمُوا مَعْذِرَتُهُمْ﴾ اعتذارهم لفوات وقته ﴿وَلَا هُمْ يُسْتَعْتَبُونَ﴾ لا يطلب منهم العتبى أى الرجوع إلى ما يرضى الله من قولهم استعتبنى فأعتبته استرضانى فأرضيته بمعنى طلب منى إزالة العتاب فأزلته ﴿وَلَقَدْ ضَرَبْنَا﴾ جعلنا ﴿لِلنَّاسِ فِي هَٰذَا الْقُرْآنِ﴾ وصفنا لهم فيه ﴿مِنْ كُلِّ مَثَلٍ﴾ كل نوع من أنواع الدلائل على التوحيد وكمال الصفات وصدق الرسل التى هى فى الغرابة والحسن كالأمثال تنبيهاً لهم على التوحيد والبعث وصدق

الرسول ﴿ وَلَئِنْ ﴾ لام قسم ﴿ جِئْتَهُم ﴾ يا محمد ﴿ بِآيَةٍ ﴾ من آيات القرآن دالة على شيء من تلك الأمثال أو آية مثل العصى واليد لموسى ﴿ لَيَقُولَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا ﴾ منهم من فرط عنادهم ﴿ إِنْ أَنْتُمْ ﴾ يعنون الرسول والمؤمنين ﴿ إِلَّا مُبْطِلُونَ ﴾ أصحاب أباطيل ﴿ كَذَٰلِكَ ﴾ الطبع ﴿ يَطْبَعُ اللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ لا يطلبون العلم ويصرون على خرافات اعتقدوها فإن الجهل المركب يمنع إدراك الحق ويوجب تكذيب المحق ﴿ فَاصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ ﴾ بنصرك وإظهار دينك على الدين كله ﴿ حَقٌّ ﴾ لابد من إنجازه ﴿ وَلَا يَسْتَخِفَّنَّكَ ﴾ لا يحملنك على الخفة والقلق بترك الصبر ﴿ الَّذِينَ لَا يُوقِنُونَ ﴾ بالبعث بتكذيبهم وإيذائهم وعده بالنصر فى أول السورة ووسطها وخاتمتها وأمره بالصبر إشارة إلى أن بين يدى ذلك شدائد يليق بمثله احتمالها ليوطن نفسه على تلقيها بصدر رحيب إذا وقعت . صلى الله عليه وسلم .

[تم تفسير سورة الروم]

سورة لقمان

مكية أو إلا « ولو أن ما فى الأرض » الآيتين أو الثلاث فمدنيات . وهى أربع وثلاثون آية

﴿ بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ ۝ الم ﴾ الله أعلم بمراده به ﴿ تِلْكَ ﴾ هذه الآيات ﴿ آيَاتُ الْكِتَابِ ﴾ القرآن ﴿ الْحَكِيمِ ﴾ ذى الحكم أو المحكم آياته وسبق بيانه فى يونس ﴿ هُدًى وَرَحْمَةً ﴾ بالنصب للجمهور حال من الآيات والعامل فيها ما فى « تلك » من معنى الإشارة ، وبالرفع لحمزة خبر محذوف أو خبر بعد خبر ﴿ لِلْمُحْسِنِينَ ﴾ المخلصين فى الدين ﴿ الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلَاةَ ﴾ بيان للمحسنين ﴿ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَهُم بِالْآخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ ﴾ وتكرير الضمير تأكيد وتقدم بيانه ﴿ أُولَٰئِكَ عَلَىٰ هُدًى مِّن رَّبِّهِمْ وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴾ الفائزون لاستجماعهم العقد الحق والعمل الصالح ﴿ وَمِنَ النَّاسِ مَن يَشْتَرِي لَهْوَ الْحَدِيثِ ﴾ ما يلهى منه عما يعنى من غناء وخنا ونحو ذلك والإضافة بيانية وهو كل حديث منكر يصد عن ذكر الله كالأحاديث التى لا أصل لها والأساطير التى لا اعتبار فيها والمضاحيك وفضول الكلام أو الإضافة

تبعيضية إن أريد بالحديث الأعم من المنكر والمقصود تمييز اللهو القولى وتعجيب السامعين ممن يختار أباطيل الحديث على الآيات والحكم ﴿ لِيُضِلَّ ﴾ بضم الياء للجمهور أى غيره وبفتحها لأبى عمرو وابن كثير ليثبت على ضلاله ﴿ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ ﴾ دين الإسلام كما كان يفعله النضر بن الحارث كان يأتى الحيرة يتجر فيشترى كتب أخبار الأعاجم ويحدث بها قريشاً ويقول إن كان محمد يحدثكم أحاديث عاد وثمود فأنا أحدثكم حديث فارس والروم ، فيستملحون حديثه ويتركون استماع القرآن ﴿ بِغَيْرِ عِلْمٍ ﴾ أى بجهله عبر عنه بما ذكر دلالة على فقده أشرف الأشياء ﴿ وَيَتَّخِذَهَا ﴾ أى سبيل الله بالرفع للجمهور عطفاً على « يشترى » وبالنصب لحمزة والكسائى وحفص عطفاً على يضل ﴿ هُزُوًا ﴾ سخرية مهزوءاً بها ﴿ أُولَٰئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مُهِينٌ ﴾ ذو إهانة لإهانتهم الحق بإيثار الباطل عليه ﴿ وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِ آيَاتُنَا ﴾ القرآن ﴿ وَلَّىٰ مُسْتَكْبِرًا ﴾ متكبراً لا يعبأ بها ﴿ كَأَنْ لَمْ يَسْمَعْهَا ﴾ مشافهاً : حاله حال من لم يسمعها حالٌ من المستكن فى « مستكبراً » لا فى « ولى » ﴿ كَأَنَّ فِى أُذُنَيْهِ ﴾ بسكون الذال لنافع وبضمها للباقين ﴿ وَقْرًا ﴾ ثقلا لا يقدر على السماع حال من المستكن فى « لم يسمعها » لا بدل من الحال الأولى لفوات المبالغة المقصودة وذلك أنه شبه المستكبر بمن لم يسمع ولما احتمل عدم السماع لعدم الالتفات سلب عنه القابلية بطغيان الآفة فى الآلة ﴿ فَبَشِّرْهُ ﴾ أعلمه ﴿ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴾ مؤلم عبر عن الإعلام بالتبشير للتهكم ﴿ إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَهُمْ جَنَّاتُ النَّعِيمِ ﴾ كما أن لأضدادهم العذاب الأليم والأصل لهم نعيم جنات فعكس للمبالغة ﴿ خَالِدِينَ فِيهَا ﴾ حال مقدرة أى مقدراً خلودهم فيها إذا دخلوها ﴿ وَعْدَ اللَّهِ حَقًّا ﴾ أى وعدهم الله ذلك وحقه حقاً وهما مصدران مؤكدان الأول لنفسه لأن قوله « لهم جنات النعيم » وعد بلا احتمال والثانى لغيره إذ ليس كل وعد حقاً ﴿ وَهُوَ الْعَزِيزُ ﴾ الذى لا يغلبه شىء فيمنعه عن إنجاز وعده ووعيده ﴿ الْحَكِيمُ ﴾ الذى لا يضع شيئاً إلا فى محله ومنه مجازاة الفريقين على وفق أعمالهم ﴿ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ ﴾ احتجاج على من يشرك به ﴿ تَرَوْنَهَا ﴾ استئناف يؤكد إذ لا علم أجلى من المحسوس ويجوز أن يكون فى محل جر صفة « عمد » وهو صادق بأن لا عمد أصلا والأول أوجه لإيهام الثانى نفى المركب من حيث هو ﴿ وَأَلْقَىٰ فِى الْأَرْضِ رَوَاسِىَ ﴾ جبالا شوامخ ثوابت كراهة ﴿ أَنْ تَمِيدَ ﴾ تميل ﴿ بِكُمْ ﴾ أو لئلا تتحرك بكم ﴿ وَبَثَّ فِيهَا مِنْ كُلِّ دَابَّةٍ وَأَنْزَلْنَا ﴾ فيه التفات عن الغيبة إلى التكلم لأن إنزال الماء أبدع وأغرب ﴿ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَنْبَتْنَا فِيهَا مِنْ كُلِّ زَوْجٍ كَرِيمٍ ﴾ حسن منظراً وجوهراً كثير المنافع وقوله « خلق السموات » إلى هنا دليل على عزته التى هى كمال القدرة وحكمته التى هى كمال العلم مهد به قاعدة التوحيد وقررها بقوله ﴿ هَٰذَا خَلْقُ اللَّهِ ﴾ مخلوقه ﴿ فَأَرُونِى مَاذَا خَلَقَ الَّذِينَ مِنْ دُونِهِ ﴾ غيره أى آلهتكم حتى أشركتموها به تعالى و « ما » استفهام إنكار مبتدأ وذا بمعنى الذى بصلته خبره و « أرونى » معلق عن العمل فيه أو مابعده سد مسد المفعولين ﴿ بَلِ ﴾ إضراب عن تبكيتهم إلى التسجيل عليهم بالضلال بقوله

﴿ الظَّالِمُونَ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ ﴾ جلىّ لا يخفى على ناظر وآثر المظاهر للدلالة على أن الإشراك بعد هذه الحجة كمال الظلم . ولما كان المشركون يرجعون إلى أهل الكتاب فى أمر رسول الله وقصة لقمان فى نهيه ولده عن الإشراك مشهورة عندهم حجهم بها بقوله ﴿ وَلَقَدْ آتَيْنَا لُقْمَانَ ﴾ بن باعورا من أولاد ازراء ابن أخت أيوب أو خالته عاش حتى أدرك داود وأخذ عنه العلم وكان يفتى قبل مبعث داود ﴿ الْحِكْمَةَ ﴾ منها العلم والديانة والإصابة فى القول وحكمه كثيرة مأثورة وكان نوبياً أو حبشياً آتاه الله الحكمة ولم يكن نبياً عند الجمهور وترك الفتيا بعد بعث داود وقال ألا أكتفى إذا كفيت ، وقيل له : أى الناس شر ؟ قال : الذى لا يبالى إن رآه الناس مسيئاً . وقال فى القلب واللسان : هما أطيب مضغة فى الحيوان إن طابا وأخبثها إذا خبثا . وقال لابنه : قد استدبرت الدنيا مذ كنت واستقبلت الآخرة سائر بأنفاسك وإنّ داراً تسير إليها أقرب إليك من دار خرجت منها ، وفسر الله إيتاءه الحكمة بقوله «أن اشكر لله» على ما أعطاك بالاعتقاد بالجنان والعمل بالأركان والقول باللسان ، فى إيتاء الحكمة معنى القول أى قلنا له ﴿ أَنِ اشْكُرْ لِلَّهِ وَمَنْ يَشْكُرْ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِ ﴾ لأن نفعه لا يتخطاه وهو دوام النعمة واستحقاق المزيد ﴿ وَمَنْ كَفَرَ ﴾ النعمة ﴿ فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ ﴾ عن خلقه لا ينقص بذلك من ملكه شىء ﴿ حَمِيدٌ ﴾ حقيق بالحمد وإن لم يحمد أو محمود بلسان الحال حيث أفاض الوجود من الماهيات وأنار بضيائه الكائنات ﴿ وَ ﴾ اذكر ﴿ إِذْ قَالَ لُقْمَانُ لِابْنِهِ ﴾ واسمه أشكم أو أنعم أو ماثان أو باران ﴿ وَهُوَ يَعِظُهُ يَا بُنَيَّ ﴾ بكسر الياء مع حذف ياء المتكلم اكتفاء به فى الثلاث لنافع وأبى عمرو وابن عامر وحمزة والكسائى وأبى بكر وبفتحها فى الكل لحفص وإسكانها لابن كثير تصغير إشفاق ﴿ لَا تُشْرِكْ بِاللَّهِ ﴾ شيئاً فى ألوهيته ﴿ إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ ﴾ لا يحاط بكنهه قبحاً فرجع إليه ابنه وأسلم ، وإنما كان ظلماً لأنه تسوية بين من لا نعمة له ومن لا نعمة إلا منه ﴿ وَوَصَّيْنَا الْإِنْسَانَ بِوَالِدَيْهِ ﴾ أمرناه أن يبرهما والجملة اعتراض فى قصة لقمان للدلالة على أن شكر الوالدين مقرون بشكر الله ومع ذلك لا يجوز ارتكاب الشرك لإرضائهما فكيف بالغير ، وقيل عطف على محذوف أى وقلنا له أن اشكر ووصينا الإنسان بوالديه ﴿ حَمَلَتْهُ أُمُّهُ ﴾ فوهنت ﴿ وَهْنًا عَلَى وَهْنٍ ﴾ أى ضعفت للحمل والطلق والولادة ، وقيل « وهناً » حال من « أمه » أى ذات وهن أى لم يزل يتضاعف وهنها منذ حملته إلى الوضع أو حال من الضمير المنصوب فى « حملته » أى ذا وهن نطفة ثم علقة إلى آخره ﴿ وَفِصَالُهُ ﴾ فطامه ﴿ فِي عَامَيْنِ ﴾ وكانت ترضعه فى تلك المدة وهى أقصر مدة الرضاع ﴿ أَنِ اشْكُرْ لِي وَلِوَالِدَيْكَ ﴾ تفسير للوصية أو بدل اشتمال من والديه أو علة لوصّينا ، وذكر الحمل والفصال اعتراض مؤكد للتوصية فى حقها خصوصاً ، ومن ثم قال صلى الله عليه وسلم لمن قال له من أبر ؟ « أمك ثم أمك ثم أمك » ثم قال بعد ذلك « ثم أباك » رواه الشيخان ﴿ إِلَيَّ الْمَصِيرُ ﴾ أى المرجع وعد ووعيد ﴿ وَإِنْ جَاهَدَاكَ عَلَى أَنْ تُشْرِكَ بِي مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ ﴾ باستحقاقه الإشراك تقليداً لهما أو أراد بنفى العلم به نفيه

﴿ فَلَا تُطِعْهُمَا ﴾ فى ذلك إذ لا طاعة لمخلوق فى معصية الخالق فلا تجوز طاعتهما فى كبيرة أو ترك فريضة وتلزم فى المباحات وتستحسن فى المندوبات ﴿وَصَاحِبْهُمَا﴾ عاشرهما ﴿فى الدُّنْيَا﴾ صحاباً ﴿مَعْرُوفاً﴾ يرتضيه الشرع ويقتضيه الكرم والمروءة فى البر والصلة ﴿ وَاتَّبِعْ ﴾ فى الدين ﴿ سَبِيلَ مَنْ أَنَابَ إِلَيَّ ﴾ بالتوحيد والإخلاص فى الطاعة ﴿ ثُمَّ إِلَيَّ مَرْجِعُكُمْ ﴾ أنت وهما للجزاء ﴿ فَأُنَبِّئُكُمْ ﴾ أجازيكم ﴿ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ ﴾ على وفق أعمالكم ﴿ يَا بُنَيَّ إِنَّهَا ﴾ أى القصة ﴿ إِنْ تَكُ مِثْقَالَ حَبَّةٍ ﴾ برفع مثقال لنافع فاعل كان تامة وتأنيثها لإضافة المثقال إلى الحبة أولأن المراد به الحسنة أو السيئة وضمير «إنها» للقصة، وبنصبه للباقين خبرها ناقصة واسمها ضمير يعود إلى ما عاد إليه ضمير إنها وهى الفعلة الحسنة أو السيئة ﴿ مِنْ خَرْدَلٍ ﴾ أى إن تك فى الصغر مثلا كحبة خردل ﴿ فَتَكُنْ فِي صَخْرَةٍ ﴾ فى أخفى مكان وأحرزه كجوف صخرة ﴿ أَوْ فِي السَّمَاوَاتِ ﴾ فى أعلى مكان كمحدب السموات ﴿ أَوْ فِي الْأَرْضِ ﴾ أو فى أسفل مكان كمقعد فى الأرض ﴿ يَأْتِ بِهَا اللَّهُ ﴾ يحضرها فيحاسب عليها، وقيل المراد بالصخرة صخرة تحت الأرضين السبع عليها الماء وهى على الريح ﴿إِنَّ اللَّهَ لَطِيفٌ﴾ يصل علمه إلى كل خفى ﴿ خَبِيرٌ ﴾ عالم بكنهه ﴿ يَا بُنَيَّ أَقِمِ الصَّلَاةَ ﴾ تكميلا لنفسك فإنها عماد الدين دل هذا على أنها عبادة قديمة فى سائر الأمم ﴿ وَأْمُرْ بِالْمَعْرُوفِ وَانْهَ عَنِ الْمُنْكَرِ ﴾ تكميلا لغيرك. روى الترمذى عن أبى هريرة أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال «لتأمرن بالمعروف ولتنهون عن المنكر أو ليبعثن الله عليكم عذابا من عنده» ﴿وَاصْبِرْ عَلَى مَا أَصَابَكَ﴾ بسبب الأمر والنهى من أذى الأشرار ﴿إِنَّ ذَلِكَ﴾ المذكور ﴿مِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ﴾ أى من معزوماتها التى يعزم عليها لوجوبها أى مما عزمه الله أى قطعه قطع إيجاب مصدر بمعنى المفعول أو بمعنى الفاعل من عزم الأمر جد ﴿وَلَا تُصَاعِرْ﴾ بالمد لنافع وأبى عمرو وحمزة والكسائى وبالقصر للباقين ﴿ خَدَّكَ لِلنَّاسِ ﴾ لا تمل وجهك عنهم تكبرا من الصعر وهو الصيد داء يعترى البعير فيلوى عنقه منه ﴿وَلَا تَمْشِ فِي الْأَرْضِ مَرَحًا﴾ وهو شدة الفرح غرورا أو الخيلاء حال أو مصدر أى تمرح مرحا أو للمرح وفى الحديث كان رجل يمشى وعليه برد فنظر فى عطفيه فخسف الله به الأرض فهو يتجلجل فيها إلى يوم القيامة ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ ﴾ متبختر فى مشيه ﴿فَخُورٍ ﴾ على الناس علة للنهى وتأخير الفخور وهو مقابل للمصعر خده والمختال للماشى مرحا لتوافق الفواصل ﴿وَاقْصِدْ فِي مَشْيِكَ﴾ توسط فيه بين دبيب المتماوت وإسراع البهيمة وعليك السكينة والوقار إلا لضرورة تعرض فيهما وقول عائشة فى عمر رضى الله عنهما كان إذا مشى أسرع فالمراد مافوق دبيب المتماوت قاله البيضاوى قلت وذلك هو المراد فى وصف النبى صلى الله عليه وسلم: كان إذا مشى كأنه ينزل من صبب، والله أعلم ﴿وَاغْضُضْ﴾ اخفض ﴿مِنْ صَوْتِكَ﴾ خذ منه بقدر ما تحتاج إليه لا تتكلف رفعه فوق الحاجة لأنه يؤذيك ولذا قال عمر بن الخطاب رضى الله عنه لمؤذن لقد خشيت أن تنشق مريطؤك قلت هو تصغير مرطا مابين السرة إلى العانة والمؤذن هو أبو محذورة سمرة بن معين والله أعلم وأشد ما يذم رفع الصوت فى الخصومة وكل باطل ويحمد رفعه فى الأذان

والتلبية والخطبة بلاغلو ﴿إِنَّ أَنْكَرَ الْأَصْوَاتِ﴾ أقبحها ﴿لَصَوْتُ الْحَمِيرِ﴾ أوله زفير وآخره شهيق بالغ فى التحذير عن الإفراط فى رفع الصوت بإخراج الكلام مخرج الاستعارة للخفض بالغض ، وإيثار لفظ الجمع لأن الصوت المنكر إذا توافقت عليه الحمر كان أنكر . هذا مع أن الحمار مثل فى الذم حتى أن أهل الأدب يكنون عنه بطويل الأذنين تحاشيا عن لفظه ولأن سائر الحيوان تصوت غاليا عند إصابة مكروه والحمار لا يصوت إلا بطرا ﴿أَلَمْ تَرَوْا﴾ تعلموا يا مخاطبين ﴿أَنَّ اللَّهَ سَخَّرَ لَكُمْ مَا فِي السَّمَاوَاتِ﴾ من الشمس والقمر والنجوم والسحاب أسبابا لمنافعكم ﴿وَمَا فِي الْأَرْضِ﴾ من الأشجار والأنهار والزروع والثمار لتنتفعوا بالكل بواسطة وغيرها ﴿وَأَسْبَغَ﴾ أوسع وأتم ﴿عَلَيْكُمْ نِعَمَهُ﴾ بالجمع والإضافة لنافع وأبى عمرو وحفص وبالإفراد للباقين ﴿ظَاهِرَةً وَبَاطِنَةً﴾ محسوسة ومعقولة ما تعرفونه وما لا تعرفونه كحسن الصورة وتسوية الأعضاء ومحاسنها وكالمعرفة وما فى أعماق الأجسام من الأشياء التى لا شعور للإنسان بها ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يُجَادِلُ فِي اللَّهِ﴾ فى توحيده وصفاته ﴿بِغَيْرِ عِلْمٍ﴾ عقلى ﴿وَلَا هُدًى﴾ هداية من رسول ﴿وَلَا كِتَابٍ مُنِيرٍ﴾ أنزل من الله إرشادا بل بالتقليد كما قال ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اتَّبِعُوا مَا أَنْزَلَ اللَّهُ قَالُوا بَلْ نَتَّبِعُ مَا وَجَدْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا﴾ وهو منع صريح من التقليد فى الأصول قال تعالى ﴿أ﴾ يتبعونه ﴿وَلَوْ كَانَ الشَّيْطَانُ يَدْعُوهُمْ إِلَى عَذَابِ السَّعِيرِ﴾ أى موجباته ؟ لا ، وهو عطف على مدخول الاستفهام توبيخا كما قدرنا والضمير المنصوب لهم أو لآبائهم ﴿وَمَنْ يُسْلِمْ وَجْهَهُ﴾ أى ذاته بالكلية ﴿إِلَى اللَّهِ﴾ أى فوض أمره إليه وحيث عدى أسلم باللام فلإفادة الإخلاص كما فى قوله بلى من أسلم وجهه لله أى جعل نفسه خالصة لله لا شركة فيها لأحد وبإلى كما هنا فلإفادة التفويض كما يسلم الرجل متاعه إلى غيره ﴿وَهُوَ مُحْسِنٌ﴾ فى عمله كأنه يرى ربه ﴿فَقَدِ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَى﴾ بالحبل الأوثق الذى لا يخاف انقطاعه تمثيل لحال المتوكل بحال من أراد الارتقاء إلى شاهق فاستمسك بأوثق حبل مأمون الانقطاع ﴿وَإِلَى اللَّهِ عَاقِبَةُ الْأُمُورِ﴾ مرجعها إذ الكل صائر إليه فيجازيه بما يليق بكرمه ﴿وَمَنْ كَفَرَ فَلَا يَحْزُنْكَ كُفْرُهُ﴾ لأنه لا يضرك فى الدنيا والآخرة إذ ما عليك إلا البلاغ وقد وفيت ويحزنك بضم الياء وكسر الزاى لنافع وبفتح الياء وضم الزاى للباقين ﴿إِلَيْنَا مَرْجِعُهُمْ﴾ فى الدارين ﴿فَنُنَبِّئُهُمْ بِمَا عَمِلُوا﴾ نجازيهم عليه ﴿إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ﴾ بما فيها فمجاز عليه كغيره آثر فى الالتفات لفظ الجلالة لأن الألوهية مستلزمة للإحاطة بالسر الأخفى ﴿نُمَتِّعُهُمْ﴾ فى الدنيا تمتيعا أو زمانا ﴿قَلِيلًا﴾ أيام حياتهم فإن ما يزول بالنسبة إلى ما يدوم قليل ﴿ثُمَّ نَضْطَرُّهُمْ﴾ فى الآخرة ﴿إِلَى عَذَابٍ غَلِيظٍ﴾ يثقل عليهم ثقل الأجرام الغلاظ وهو عذاب النار لا يجدون عنه محيصا شبه إلزامهم العذاب باضطرار المضطر إلى الشىء الذى لا ينفك منه واستعير له الغلظ الذى هو من صفات الأجرام إشارة إلى شدته كأنه تجسد من عظمه ﴿وَلَئِنْ﴾ لام قسم ﴿سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ﴾ لوضوحه لا يقدر أحد على نسبة خلقهما إلى غيره ﴿قُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ﴾ على ظهور الحجة عليهم بالتوحيد واعترافهم بما

يوجب بطلان معتقدهم ﴿ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ أن ذلك يلزمهم إضراب إلى جهل أقوى من الأول إذ المعنى أن جهلهم انتهى إلى أنهم لا يعرفون أن قولك الحمد لله إنما هو لإلحامهم ﴿ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ ﴾ من الجزئيات الخارجة والأجزاء الداخلة ملكا وخلقا فلا يستحق العبادة فيهما غيره ﴿ إِنَّ اللَّهَ هُوَ الْغَنِيُّ ﴾ الغنى المطلق ﴿ الْحَمِيدُ ﴾ المستحق للحمد حمد أولم يحمد فهو محمود بلسان الحال لأن الكل خلقه وملكه ﴿ وَلَوْ أَنَّ مَا فِي الْأَرْضِ مِنْ شَجَرَةٍ أَقْلَامٌ ﴾ أى لو ثبت كون الأشجار أقلاما وتوحيد شجرة لأن المراد تفصيل الآحاد ﴿ وَالْبَحْرُ ﴾ بالرفع للجمهور عطفا على محل أنّ ومعمولها أى وثبت البحر أى كونه مدادا أو الواو للحال وبالنصب لأبى عمرو عطفا على اسم أن أو بفعل يفسره ﴿ يَمُدُّهُ ﴾ والمعنى لو أن أشجار الأرض أقلام والبحر المحيط بسعته مداد يمده ﴿ مِنْ بَعْدِهِ سَبْعَةُ أَبْحُرٍ ﴾ اغتنى عن ذكر المداد بيمده لأنه من مد الدواة وأمدها وكتبت بتلك الأقلام بذلك المداد كلمات الله المعبر بها عن معلوماته ﴿ مَا نَفِدَتْ كَلِمَاتُ اللَّهِ ﴾ ولنفدت تلك الأقلام وذلك المداد وإنما آثر جمع القلة إشارة إلى أن ذلك لا يفى بالقليل من تلك الكلمات فكيف بالكثير كذا قيل لكن إنما يستقيم إذا لم يجعل الجمع المضاف معرفا إذ عند ذلك لا تفاوت بين الجموع نبه على ذلك فى غاية الأمانى ﴿ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ ﴾ لا يعجزه شىء ﴿ حَكِيمٌ ﴾ لا يخرج شىء عن علمه وحكمته والآية جواب لليهود سألوا رسول الله صلى الله عليه وسلم عن قوله وما أوتيتم من العلم إلا قليلا وقد أنزل عليهم التوراة وفيها علم كل شىء قال ابن عطية والآية بحر نظر وفكرة نوّر الله قلوبنا بهداه ﴿ مَا خَلْقُكُمْ وَلَا بَعْثُكُمْ إِلَّا كَنَفْسٍ وَاحِدَةٍ ﴾ خلقا وبعثا إذ لا يشغله شأن عن شأن لاستغنائه عن الأسباب والآلات إذ يكفى لوجود الكل تعلق إرادته وقدرته المراد بكلمة كن فيكون ﴿ إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ ﴾ يسمع جميع المسموعات فى آن واحد ﴿ بَصِيرٌ ﴾ يبصر كل المبصرات كذلك فكما لا يشغل سمعه وبصره شىء عن شىء فكذلك الخلق والبعث ﴿ أَلَمْ تَرَ ﴾ ألم تعلم يا مخاطب ﴿ أَنَّ اللَّهَ يُولِجُ ﴾ يدخل ﴿ اللَّيْلَ فِي النَّهَارِ وَيُولِجُ النَّهَارَ فِي اللَّيْلِ ﴾ فيزيد كل منهما بما نقص من الآخر ﴿ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلٌّ ﴾ منهما ﴿ يَجْرِي إِلَى أَجَلٍ مُسَمًّى ﴾ آخر السنة فى الشمس وآخر الشهر فى القمر أو هو يوم القيامة لانقطاع جريهما حينئذ وإيقاع « إلى » هنا صلة الجرى لأن معناه الانتهاء ومعنى اللام الاختصاص وهو أبلغ فكثر فى القرآن ولم يقع إلى إلا فى هذا الموضع ﴿ وَأَنَّ اللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴾ يعلم بواطن أعمالكم ﴿ ذَلِكَ ﴾ المذكور من سعة العلم وشمول القدرة وعجائب الصنع واختصاص البارى بها ﴿ بِأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ ﴾ الثابت الألوهية التى من لوازمها الكمال المطلق فى كل وصف يليق بكبريائه ﴿ وَأَنَّ مَا تَدْعُونَ ﴾ بالخطاب لنافع وابن كثير وابن عامر وشعبة وبالغيبة للباقين أى تعبدون ﴿ مِنْ دُونِهِ الْبَاطِلُ ﴾ الزائل الألوهية أو المعدوم فى ذاته وتصرفه إلا بجعله ، وترك ضمير الفصل هنا المؤكد به فى سورة الحج إذ الكلام هناك فى نصر المظلوم والمشركون يزعمون أن آلهتهم تنصرهم فلاق المكان هناك بالتأكيد بخلاف ما هنا والله أعلم ﴿ وَأَنَّ اللَّهَ

﴿ هُوَ الْعَلِيُّ ﴾ شأنه ﴿ الْكَبِيرُ ﴾ سلطانه وما عداه حقير صغير تحت قهره ثم أشار إلى استشهاد آخر على باهر قدرته وكمال حكمته وشمول إنعامه بقوله ﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ الْفُلْكَ ﴾ السفن ﴿ تَجْرِي فِي الْبَحْرِ بِنِعْمَةِ اللَّهِ ﴾ بإحسانه فى تهيئة أسبابه والباء للصلة أو الحال ﴿ لِيُرِيَكُمْ ﴾ يا مخاطبين ﴿ مِنْ آيَاتِهِ ﴾ من عجائب البحر كما أراكم بدائع البر من دلائل قدرته وحكمته ﴿ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ ﴾ عبراً ﴿ لِكُلِّ صَبَّارٍ ﴾ مؤمن كثير الصبر على المشاق بالتفكر فى الآفاق والأنفس وعلى البلاء وعن المعاصى ﴿ شَكُورٍ ﴾ على النعماء كناية يراد بها الموصوف وفى إيثار الوصفين إشارة إلى أنهما عمدتا الإيمان لأن الإيمان نصفان نصف صبر ونصف شكر ﴿ وَإِذَا غَشِيَهُمْ ﴾ أى علا الكفار ﴿ مَوْجٌ ﴾ أى أمواج متراكمة عند هيجان البحر ﴿ كَالظُّلَلِ ﴾ جمع ظلة وهى كل ما أظلك من جبل أو سحاب أو غيرهما ﴿ دَعَوُا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ ﴾ لزوال ما ينازع الفطرة من الهوى والتقليد بما دهاهم من شدة الخوف ﴿ فَلَمَّا نَجَّاهُمْ إِلَى الْبَرِّ فَمِنْهُمْ مُقْتَصِدٌ ﴾ مقيم على طريق القصد الذى هو التوحيد أو متوسط بين الكفر والإيمان ومنهم باق على كفره وفى الكلام شائبة إنكار ﴿ وَمَا يَجْحَدُ بِآيَاتِنَا ﴾ ومنها الإنجاء من الموج ﴿ إِلَّا كُلُّ خَتَّارٍ ﴾ غدار ينقض العهد الفطرى أو البحرى ﴿ كَفُورٍ ﴾ لنعم الله . ولما شيد أركان البراهين على الساعة حذر كافة الناس بأن لا يتكل أحد على أحد ولو كان ذا قربى كالوالد والولد بقوله ﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمْ ﴾ ولا تتكلوا على أحد ﴿ وَاخْشَوْا يَوْمًا لَا يَجْزِي ﴾ يغنى ﴿ وَالِدٌ عَنْ وَلَدِهِ ﴾ فيه شيئاً ﴿ وَلَا مَوْلُودٌ هُوَ جَازٍ عَنْ وَالِدِهِ ﴾ فيه ﴿ شَيْئًا ﴾ وإذا لم يقدر أحدهما على نفع الآخر فغيرهما أولى ، وغيّر النظم فى جانب الولد بالجملة الاسمية ولفظ المولود دون الولد مع التأكيد بضمير الفصل لأن المولود لا يقال إلا لمن ولد منك بخلاف الولد فإنه يطلق على الحافد وإذا لم ينفع من ولد منه فالأحفاد من باب أولى ﴿ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ ﴾ بالبعث والثواب والعقاب ﴿ حَقٌّ ﴾ لابد من وقوعه فاستعدوا له ﴿ فَلَا تَغُرَّنَّكُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا ﴾ بالاشتغال بزخارفها عن الإسلام ﴿ وَلَا يَغُرَّنَّكُمْ بِاللَّهِ ﴾ بحلمه وإمهاله ورجاء مغفرته ﴿ الْغَرُورُ ﴾ الشيطان بأن يرجيكم التوبة والمغفرة فيجسركم على المعاصى ﴿ إِنَّ اللَّهَ عِنْدَهُ عِلْمُ السَّاعَةِ ﴾ متى تقوم لا عند غيره ﴿ وَيُنَزِّلُ ﴾ بالتشديد لنافع وابن عامر وعاصم وبالتخفيف للباقين ﴿ الْغَيْثَ ﴾ فى أوانه المقدر له والمحل المعين له فى علمه مسوق لإعلام الاختصاص به لا القدرة على الإنزال لعطفه على المختص به مع قرينة المقام وكذا ما بعد ﴿ وَيَعْلَمُ مَا فِي الْأَرْحَامِ ﴾ من ذكر أو أنثى تام أو ناقص منفرد أو متعدد ﴿ وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ مَاذَا تَكْسِبُ غَدًا ﴾ من خير أو شر وربما عزمت على شىء وتفعل خلافه ﴿ وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ بِأَيِّ أَرْضٍ تَمُوتُ ﴾ ولا أى وقت تموت وفى إيثار الدراية من جانب العبد إشارة إلى أنه لا يعلم ذلك وإن بذل مجهوده فى الحيل إذ فى درى معنى تحيل . روى أن الحارث بن عمرو أتى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال متى قيام الساعة وإنى قد ألقيت حباتى فى الأرض فمتى السماء تمطر ، وحمل امرأتى ذكر أو أنثى ، وماأعمل غداً وأين أموت ؟ فنزلت

﴿ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ ﴾ بكل شيء ﴿خَبِيرٌ﴾ بباطنه كظاهره . روى البخارى عن ابن عمر حديث « مفاتح الغيب خمسة : إن الله عنده علم الساعة ... » إلى آخر السورة .

[تم تفسير سورة لقمان]

سورة السجدة

مكية ـ ثلاثون آية

﴿ بِسْمِ ٱللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ ۝ الٓمٓ ﴾ الله أعلم بمراده به ﴿ تَنْزِيلُ الْكِتَابِ ﴾ القرآن مبتدأ ﴿ لَا رَيْبَ فِيهِ ﴾ خبر أول ﴿ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴾ خبر ثان أو حال من الضمير فى « فيه » لأن المصدر لا يعمل فيما بعد الخبر أو هو الخبر و « لا ريب فيه » حال من الكتاب أو اعتراض والضمير فى فيه لمضمون الجملة ويؤيده قوله ﴿ أَمْ ﴾ بل ﴿ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ ﴾ محمد فإنه إنكار لكونه من رب العالمين ذكر على إنكار الزاعم لذلك والتعجب منه بوجود نافى الشك فيحسن الاعتراض ثم أضرب عن ذلك إلى إثبات كونه هو الحق بعد إماطة الشبهة بقوله ﴿ بَلْ هُوَ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ ﴾ واعلم أن الله أولا أشار إلى إعجازه ثم رتب عليه أن تنزيله من رب العالمين وقرر ذلك بنفى الريب عنه ثم أضرب عن ذلك إلى ما يقولون فيه على خلاف ذلك إنكاراً له وتعجباً منه ثم أضرب عنه إلى إثبات أنه الحق المنزل من الله وفى إضافة الرب إلى النبى بعد إضافته إلى العالمين تخلص إلى إثبات نبوته وإشارة إلى أنه العبد الذى جمع ما فرق فى العالمين وفى أسلوب الترقى إشارة إلى أن الكمال فيه تمّ بما فى كل العالم ثم بيّن المقصود من تنزيل الكتاب فقال ﴿ لِتُنْذِرَ قَوْمًا مَا ﴾ نافية ﴿أَتَاهُمْ مِنْ نَذِيرٍ مِنْ قَبْلِكَ﴾ لأنهم أهل الفترة لم يباشرهم نذير فلا ينافيه « وإن من أمة إلا خلا فيها نذير » وزعمهم أنهم على ملة إبراهيم ﴿لَعَلَّهُمْ يَهْتَدُونَ﴾ بإنذارك أى راجياً أنت هدايتهم ﴿ ٱللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ﴾ أولها الأحد وآخرها الجمعة ﴿ ثُمَّ اسْتَوَىٰ

عَلَى الْعَرْشِ ﴾ استواء يليق به دليل على استحقاقه العبودية دون غيره ﴿ مَا لَكُمْ مِنْ دُونِهِ ﴾ أى غيره ﴿ مِنْ وَلِيٍّ ﴾ ناصر ينصركم إذا جاوزتم رضى الله ﴿ وَلَا شَفِيعٍ ﴾ يدفع عذابه عنكم بل هو الذى يتولى مصالحكم وينصركم فى مواطن نصركم ﴿ أَفَلَا تَتَذَكَّرُونَ ﴾ بمواعظ الله ﴿ يُدَبِّرُ الْأَمْرَ ﴾ كله أى يحكمه أو أمر الدنيا بأسباب سماوية أو ينفذ القضاء أو المأمور به من الطاعات ضمن « يدبر » معنى ينزل ﴿ مِنَ السَّمَاءِ إِلَى الْأَرْضِ ﴾ فى مدة الدنيا وقيل ينزل الوحى مع جبريل من السماء إلى الأرض ﴿ ثُمَّ يَعْرُجُ ﴾ يرجع الأمر والتدبير بعد فناء الدنيا وانقطاع أمر الأمراء ﴿ إِلَيْهِ ﴾ تعالى أو ثم يصعد إليه جبريل ﴿ فِي يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُ أَلْفَ سَنَةٍ مِمَّا تَعُدُّونَ ﴾ هو يوم القيامة وفى سأل خمسين ألف سنة واختلاف ذلك باختلاف شدائده للكفار فمنهم من يكون له مقدار ألف سنة ومنهم من يكون له مقدار خمسين ألف سنة ، وأما المؤمنون فمنهم من يكون له كمقدار يوم وكما بين الظهر والعصر وكمقدار صلاة مكتوبة وعلى القول فى « يدبر الأمر » أى يظهره من اللوح ينزل به الملك إلى الأرض ثم يعرج إليه تعالى أو إلى مكانه الذى أمره الله بالنزول منه فمعناه فى زمان يوم من أيام الدنيا مقداره لو ساره واحد من بنى آدم نزولا وعروجاً مسافة ألف سنة فيقطعه الملك فى مقدار يوم لأن ما بين السماء والأرض مسيرة خمسمائة عام وخمسون ألف سنة مسافة من الأرض إلى سدرة المنتهى والله أعلم ﴿ ذَلِكَ ﴾ الخالق المدبر ﴿ عَالِمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ ﴾ فيدبر الأمر على وفق الحكمة ﴿ الْعَزِيزُ ﴾ الغالب على أمره ﴿ الرَّحِيمُ ﴾ بعباده يراعى مصالحهم تفضلا ﴿ الَّذِي أَحْسَنَ كُلَّ شَيْءٍ خَلَقَهُ ﴾ بفتح اللام فعلا ماضياً صفة كل شىء لنافع والكوفيين وبسكونها بدل اشتمال أى ما يليق به واقتضته حكمته ﴿ وَبَدَأَ خَلْقَ الْإِنْسَانِ ﴾ هو آدم ﴿ مِنْ طِينٍ ثُمَّ جَعَلَ نَسْلَهُ ﴾ ذريته لأنها تنسل عنه أى تنفصل ﴿ مِنْ سُلَالَةٍ ﴾ فعالة بمعنى مفعول أى علقة مسلولة ﴿ مِنْ مَاءٍ مَهِينٍ ﴾ ضعيف أو ممتهن وهو النطفة لأنها مستقذرة أو نجسة ﴿ ثُمَّ سَوَّاهُ ﴾ أى خلق آدم : قوّمه بتصوير الأعضاء فى أحسن تقويم ﴿ وَنَفَخَ فِيهِ مِنْ رُوحِهِ ﴾ فجعله حياً إضافة تشريف إشعاراً بأنه خلق عظيم عجيب له شأن ومناسبة إلى حضرة الربوبية ﴿ وَجَعَلَ لَكُمُ ﴾ أى لذريته ﴿ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَالْأَفْئِدَةَ ﴾ أى آلات الإدراك لتستنبطوا الكليات من المحسوسات والتفت إلى الخطاب مكافحة بقوله ﴿ قَلِيلًا مَا تَشْكُرُونَ ﴾ زيد « ما » لتأكيد القلة أى شكراً قليلا تشكرون ﴿ وَقَالُوا ﴾ أى منكرو البعث ﴿ أَئِذَا ﴾ بالاستفهام للجمهور وبالخبر لابن عامر ﴿ ضَلَلْنَا فِي الْأَرْضِ ﴾ غبنا فيها بأن صرنا تراباً مختلطاً بترابها ﴿ إِنَّا لَفِي خَلْقٍ جَدِيدٍ ﴾ بالخبر لنافع والكسائى وبالاستفهام للباقين والاستفهام فى الموضعين للتعجيب وما دل عليه إنا لفى خلق جديد وهو نبعث أو يجدد خلقنا هو العامل فى الظرف المتقدم ﴿ بَلْ هُمْ بِلِقَاءِ رَبِّهِمْ ﴾ بالبعث وبما بعده ﴿ كَافِرُونَ ﴾ وهو إضراب إلى ما هو أعمّ من إنكار البعث وهو جميع ما يكون بعد الموت من الحشر والحساب والمجازاة ﴿ قُلْ ﴾ لهم ﴿ يَتَوَفَّاكُمْ ﴾ يستوفى نفوسكم لا يترك منها شيئاً ﴿ مَلَكُ الْمَوْتِ الَّذِي وُكِّلَ بِكُمْ ﴾

بقبض أرواحكم وهو عزرائيل لا كما تزعمون «وما يهلكنا إلا الدهر» ولا ينافى هذا قوله تتوفاهم الملائكة لأنهم أعوانه ملائكة الرحمة والعذاب وجعلت له الأرض مثل طست يتناول منها حيث يشاء يتصفح أهل كل بيت فى كل يوم مرتين فمن انقضى أجله ضرب رأسه بحربته وقال الآن يزار بك عسكر الأموات فينزع أعوانه الروح إلى الحلقوم فإذا بلغته قبضه ملك الموت وهو التوفى أى أخذ الشىء بتمامه كالاستيفاء لأن التفعل والاستفعال يلتقيان كثيراً ﴿ ثُمَّ إِلَى رَبِّكُمْ تُرْجَعُونَ ﴾ أحياء للمجازاة ﴿ وَلَوْ تَرَى ﴾ يا محمد أو يامن يتأتى منه الرؤية ﴿إِذِ الْمُجْرِمُونَ﴾ الكافرون ﴿ نَاكِسُو رُءُوسِهِمْ ﴾ من الخجل والخزى لرأيت أمراً فظيعاً والمراد وجود الرؤية فلا يقدر له مفعول ﴿عِنْدَ رَبِّهِمْ﴾ يقولون ﴿ رَبَّنَا أَبْصَرْنَا ﴾ ما أنكرنا من البعث أو ما وعدتنا ﴿ وَسَمِعْنَا ﴾ منك تصديق الرسل فيما كذبناهم فيه أو كنا عمياً وصماً فأبصرنا وسمعنا فلا يقدر مفعول ﴿ فَارْجِعْنَا ﴾ إلى الدنيا ﴿ نَعْمَلْ صَالِحاً ﴾ ترضاه ﴿ إِنَّا مُوقِنُونَ ﴾ الآن إذ لا علم أجلى من المشاهدة ولو وإذ وإن اختصا بالماضى إلا أن المترقب فى كلامه تعالى كالثابت قطعاً ﴿ وَلَوْ شِئْنَا لَآتَيْنَا كُلَّ نَفْسٍ هُدَاهَا ﴾ ما تهتدى به إلى الإيمان بخلق قدرة الطاعة فيها وهو التوفيق ﴿ وَلَكِنْ حَقَّ الْقَوْلُ مِنِّى ﴾ ثبت قضائى وسبق وعيدى وهو ﴿ لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ ﴾ هذا لازم لذلك القضاء أو القول هو ﴿ فَذُوقُوا ﴾ العذاب ﴿ بِمَا نَسِيتُمْ لِقَاءَ يَوْمِكُمْ هَذَا ﴾ بتركيكم الإيمان به صفة يومكم أو مفعول ذوقوا أى ما أنتم فيه من الخزى ﴿إِنَّا نَسِينَاكُمْ﴾ تركناكم من الرحمة أو فى العذاب ترك المنسى وفى الاستئناف وبناء الفعل على إن واسمها إشارة إلى شدة الانتقام ﴿ وَذُوقُوا عَذَابَ الْخُلْدِ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ من الكفر والمعاصى كرر الأمر للتأكيد ولما نيط به من التصريح بمفعوله وعلله بأفعالهم من الكفر والمعاصى كما علله بتركهم تدبر أمن العاقبة دلالة على أن كلا منهما يقتضى ذلك ﴿إِنَّمَا يُؤْمِنُ بِآيَاتِنَا الَّذِينَ إِذَا ذُكِّرُوا﴾ وعظوا ﴿بِهَا خَرُّوا﴾ من خوف عذاب الله ﴿سُجَّداً﴾ لله وفى إيثار التذكير إشارة إلى أن الآيات واضحة لا تحتاج إلى تأمل وفى لفظ الخرور إشارة إلى أنهم لم يتمالكوا حين ذكروا ﴿وَسَبَّحُوا﴾ نزهوه عما لا يليق به كالعجز عن البعث ملتبسين ﴿ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ ﴾ على الإسلام والهدى والتوفيق أو قائلين سبحان الله وبحمده ﴿وَهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ﴾ عن الإيمان والطاعة تصريح بما علم وتعريض بالمشركين ﴿تَتَجَافَى جُنُوبُهُمْ﴾ ترتفع وتبعد ﴿عَنِ الْمَضَاجِعِ﴾ مواضع النوم من الفرش وغيرها مستمرين على ذلك لصلاتهم بالليل تهجداً أو بين المغرب والعشاء أو لصلاة الصبح فى الجماعة والأول أوجه ومنه قول ابن رواحة فى مدح النبى صلى الله عليه وسلم كما فى البخارى :

يبيت يجافى جنبه عن فراشه ٭ إذا استثقلت بالمشركين المضاجع

﴿ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ خَوْفاً ﴾ من سخطه ﴿ وَطَمَعاً ﴾ فى رحمته ﴿ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ ﴾ فى وجوه الخير جمعاً بين أنواع ما يتقرب به ﴿ فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ ﴾ لا ملك مقرب ولا نبى مرسل ﴿ مَا أُخْفِىَ لَهُمْ ﴾ ماض مبنى للمفعول للجمهور ولحمزة «ما أخفى» بسكون الياء مضارع أخفى ﴿ مِنْ قُرَّةِ أَعْيُنٍ ﴾ مما تقر به أعينهم

وأبهم الفاعل فى الأولى وهو الله لعدم ذهاب الوهم إلى الغير وما موصولة والعلم بمعنى المعرفة ﴿جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ أى جوزوا بذلك جزاء أو أخفى لهم ذلك الجزاء لأنهم أخفوا أعمالهم فأخفى الله ثوابهم لم يطلع عليه نبياً مرسلا ولا ملكا مقرباً . وفى البخارى عن أبى هريرة رضى الله عنه عن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال قال الله تبارك وتعالى «أعددت لعبادى الصالحين ما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر» قال أبو هريرة اقرؤا إن شئتم فلا تعلم نفس ما أخفى لهم قال المفسرون للحديث وعين وقعت فى سياق النفى فأفاد الاستغراق أى ما رأت العيون كلها والحديث كالتفصيل للآية لأنها نفت العلم وهو نفى طرق حصوله ونفس نكرة فى سياق النفى فيعم جميع الأنفس ﴿أَفَمَنْ كَانَ مُؤْمِناً كَمَنْ كَانَ فَاسِقاً﴾ خارجاً عن الدين ﴿لَا يَسْتَوُونَ﴾ فى الدنيا والآخرة ردًّا لما كانوا يزعمون أن لو كان بعث فنحن أحسن حالا من هؤلاء الصعاليك وقيل نزلت فى على بن أبى طالب وعقبة بن أبى معيط أو وليد بن عقبة والصواب أنها عامة وفيها دليل على أن المسلم لا يقتل بذمى إذ شرط القصاص المساواة خلافاً لأبى حنيفة فى تخصيصه نفى المساواة فى الآخرة إذ لا دليل على التخصيص وجمع الضمير فى لا يستوون نظراً إلى المعنى ﴿أَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَلَهُمْ جَنَّاتُ الْمَأْوَى﴾ الحقيقى لأنها دار الإقامة والدنيا منزل المسافر وقيل جنة المأوى جنة مخصوصة عن يمين العرش تأوى إليها أرواح الشهداء ﴿نُزُلًا﴾ هو ما يعد للضيف ﴿بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ بسبب أعمالهم ﴿وَأَمَّا الَّذِينَ فَسَقُوا﴾ خرجوا عن الدين بالكفر والمعاصى ﴿فَمَأْوَاهُمُ النَّارُ﴾ بدل جنة المأوى ﴿كُلَّمَا أَرَادُوا أَنْ يَخْرُجُوا مِنْهَا أُعِيدُوا فِيهَا﴾ عبارة عن خلودهم فيها ﴿وَقِيلَ لَهُمْ ذُوقُوا عَذَابَ النَّارِ الَّذِي كُنْتُمْ بِهِ تُكَذِّبُونَ﴾ يقال لهم ذلك زيادة فى العذاب والإهانة والغيظ ﴿وَلَنُذِيقَنَّهُمْ مِنَ الْعَذَابِ الْأَدْنَى﴾ عذاب الدنيا كالجدب سنين والأمراض والقتل والسبى ﴿دُونَ﴾ قبل ﴿الْعَذَابِ الْأَكْبَرِ﴾ عذاب الآخرة ﴿لَعَلَّهُمْ﴾ أى من بقى منهم ﴿يَرْجِعُونَ﴾ إلى الإيمان بالتوبة ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ ذُكِّرَ بِآيَاتِ رَبِّهِ﴾ القرآن ﴿ثُمَّ أَعْرَضَ عَنْهَا﴾ ولم يتفكر فيها وثم لاستبعاد الإعراض مع فرط وضوحها وإرشادها إلى أسباب السعادة أى لا أحد أظلم منه ﴿إِنَّا مِنَ الْمُجْرِمِينَ مُنْتَقِمُونَ﴾ طرا فكيف بأظلمهم ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ﴾ كما آتيناك ﴿فَلَا تَكُنْ فِي مِرْيَةٍ مِنْ لِقَائِهِ﴾ من لقاء الكتاب وأن ما أوتيته نظير ما أوتى موسى أو من لقاء موسى الكتاب أو من لقائك موسى يوم القيامة أو ليلة الإسراء وعنه صلى الله عليه وسلم « رأيت ليلة أسرى بى موسى رجلا آدم طوالا » قال فى غاية الأمانى : والأول أوجه لقوله « فإن كنت فى شك مما أنزلنا إليك فاسئل الذين يقرءون الكتاب من قبلك » وجعل الأخير صاحب الجواهر هو الظاهر والله أعلم ﴿وَجَعَلْنَاهُ﴾ موسى أو الكتاب المنزل عليه ﴿هُدًى﴾ هادياً ﴿لِبَنِي إِسْرَائِيلَ وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أَئِمَّةً﴾ قادة ﴿يَهْدُونَ﴾ الناس إلى ما فيه من الحكم والأحكام ﴿بِأَمْرِنَا﴾ إياهم بذلك أو بتوفيقنا ﴿لَمَّا صَبَرُوا﴾ على دينهم وعلى البلاء من عدوهم بفتح اللام وتشديد الميم للجمهور

ويكسرها وتخفيف الميم لحمزة والكسائى أى لصبرهم على الطاعة وعن الدنيا ﴿ وَكَانُوا بِآيَاتِنَا يُوقِنُونَ ﴾ لإمعانهم فيها النظر فكانوا أحقاء بالإمامة لكمال قوتهم العملية والنظرية وتقديم الأول لكونه المقصود من العلم ﴿إِنَّ رَبَّكَ هُوَ يَفْصِلُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فِيمَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ﴾ من أمر الدين أى يميز بين المحق والمبطل من سائر الأمم أو من بنى إسرائيل ﴿أَوَلَمْ يَهْدِ لَهُمْ﴾ لم يتبين لكفار مكة عطف على منوىّ مثل ينتفى مما كان من جنس المعطوف وفاعل «يهد» ضمير مادل عليه ﴿ كَمْ أَهْلَكْنَا ﴾ إهلا كنا كثيراً ﴿ مِنْ قَبْلِهِمْ مِنَ الْقُرُونِ ﴾ الأمم بكفرهم ﴿ يَمْشُونَ ﴾ حال من ضمير لهم ﴿ فِى مَسَاكِنِهِمْ ﴾ فى أسفارهم إلى الشام وغيرها فيعتبروا ﴿ إِنَّ فِى ذَالِكَ لَآيَاتٍ ﴾ دلالات على قدرتنا ﴿ أَفَلَا يَسْمَعُونَ ﴾ سماع تدبر واتعاظ ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا نَسُوقُ الْمَاءَ إِلَى الْأَرْضِ الْجُرُزِ ﴾ التى انقطع نباتها لعدم المطر من جرز الشىء قطعه لا الأرض التى لا تنبت لقوله ﴿ فَنُخْرِجُ بِهِ زَرْعاً ﴾ المراد كل أرض هذه صفتها وعن ابن عباس هى أرض اليمن لأنها مربع أنعام أهل مكة ولذا قال ﴿ تَأْكُلُ مِنْهُ أَنْعَامُهُمْ﴾ من التبن والأوراق ﴿وَأَنْفُسُهُمْ﴾ من الحب والثمر ﴿ أَفَلَا يُبْصِرُونَ﴾ هذا فيعلمون أنا نقدر على إعادتهم ويعلمون تفضلنا عليهم ﴿وَيَقُولُونَ﴾ للمؤمنين ﴿ مَتَى هَـٰذَا الْفَتْحُ ﴾ النصر أو الحكومة بيننا وبينكم ﴿ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴾ فى الوعد به ﴿قُلْ يَوْمَ الْفَتْحِ﴾ بإنزال العذاب بهم ﴿لَا يَنْفَعُ الَّذِينَ كَفَرُوا إِيمَانُهُمْ وَلَا هُمْ يُنْظَرُونَ﴾ يمهلون لتوبة أو معذرة ﴿ فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ ﴾ بعد ما بلغت الغاية القصوى فى الإنذار ﴿وَانْتَظِرْ﴾ النصر الموعود ﴿ إِنَّهُمْ مُنْتَظِرُونَ ﴾ ما تمنيهم أنفسهم من العافية والغلبة وحوادث الموت بك فيستريحون منك ولا ينالون ذلك بل لك العاقبة.

[تم تفسير سورة السجدة]

سورة الأحزاب

مدنية ـ ثلاث وسبعون آية

﴿ بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ ﴾ ﴿ يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ اتَّقِ اللَّهَ ﴾ دم على تقواه : ناداه بالنبي إذ لم يناده إلا ملقباً له بما يدل على رفعة محله من الرسول والنبي ونحو ذلك بخلاف سائر الأنبياء من قوله يا موسى ويا آدم إجلالا له وحيث ذكر اسمه كـ «محمد رسول الله» «وما محمد إلا رسول» للحكم عليه بالرسالة وأمره بالتقوى تعظيما وتفخيما لشأن التقوى والمراد الأمر بالدوام عليها للازدياد منها إذ المسافة غير متناهية ولتكون مانعة عما نهى عنه بقوله ﴿ وَلَا تُطِعِ الْكَافِرِينَ وَالْمُنَافِقِينَ ﴾ فيما يخالف شريعتك أو يوهنها ﴿ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيماً ﴾ بالمصالح والمفاسد ، قيل نزلت فى كفار مكة قدموا المدينة زمن المهادنة فنزلوا على ابن أبىّ المنافق وأصحابه وأمروا رسول الله أن يدع ذكر آلهتهم بالقبيح ويدعوا له ربه ويعطوه أموالا أو فى منافقى اليهود كان يتجاوز عنهم قبيح ما يأتيه عنهم ﴿ حَكِيماً ﴾ لا يحكم إلا بما فيه حكمة ﴿ وَاتَّبِعْ مَا يُوحَىٰ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ ﴾ لا تعدل عنه تأكيد للنهى ﴿ إِنَّ اللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴾ بالفوقية للجمهور والتحتية لأبى عمرو والضمير للكافرين والمنافقين ﴿ خَبِيراً ﴾ فيوحى إليك ما تصلح به أعمالكم أنت وأمتك ﴿ وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ ﴾ فى جميع أمورك ﴿ وَكَفَىٰ بِاللَّهِ وَكِيلًا ﴾ حافظاً لك موكولا إليه الأمور وأمته تبع له فى ذلك كله ﴿ مَا جَعَلَ اللَّهُ لِرَجُلٍ مِنْ قَلْبَيْنِ فِي جَوْفِهِ ﴾ لأن القلب منبع القوى كلها فلا يتعدد ولا يجتمع فيه الكفر والإيمان والضلال والهدى والإصرار والإنابة : أورد على من يقول من الكفار إن له قلبين يعقل بكل منهما أفضل من عقل محمد ، وذكر الجوف زيادة تصوير وتقوية للإنكار ﴿ وَمَا جَعَلَ أَزْوَاجَكُمُ اللَّائِي ﴾ بهمزة مكسورة مسهلة فى الوصل لورش ويقف بياء ساكنة وبها بلا تسهيل لقالون وقنبل وبياء بعدها ساكنة لابن عامر والكوفيين وبياء ساكنة أو مختلسة الكسر لأبى عمرو والبزى فى جميع المواضع الأربعة : أزواجكم اللاء ، واللاء ولدنهم ، واللاء يئسن ، واللاء لم يحضن ﴿ تَظَّهَّرُونَ ﴾ بفتح التاء والظاء والهاء مشددين بلا ألف نافع وابن كثير وأبى عمرو ، وبفتح الأول وتشديد الظاء وألف بعدها وتخفيف الهاء المفتوحة لابن عامر ، وبضم الأول وتخفيف الظاء وألف بعدها وكسر الهاء لعاصم ، وبفتح الأول وتخفيف الظاء وألف بعدها وفتح الهاء وتخفيفها لحمزة والكسائى فى كل موضع إلا أن حمزة والكسائى شددا الظاء فى المجادلة كقراءة ابن عامر والله أعلم ﴿ مِنْهُنَّ أُمَّهَاتِكُمْ ﴾ أى ما جعل الله الزوجية والأمومية فى امرأة كما

لم يجمع فى جوف رجل قلبين ، وكان الظهار فى الجاهلية طلاقاً كقول الرجل مثلا لزوجته : أنتِ علىّ كظهر أمى فنفى الله كونها أمًّا لكن حرّمها عليه إلى أداء الكفارة وستأتى فى سورة المجادلة إن شاء الله ولتضمن الظهار معنى التجنب عدى بمن ﴿وَمَا جَعَلَ أَدْعِيَاءَكُمْ﴾ جمع دعيٍّ وهو الذى يدعى لغير أبيه ابناً له ﴿أَبْنَاءَكُمْ﴾ حقيقة كزيد بن حارثة الذى تبناه الرسول قبل النبوة لأنه سبى واشتراه حكيم بن حزام فوهبه لعمته خديجة زوج النبى صلى الله عليه وسلم فوهبته له فجاء بعد أيام أبوه وعمه فطلباه من رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال : نخيره فإن اختاركم فهو لكم وإن اختارنى دعوه . فقالا رضينا فاختار رسول الله وقال : إنى رأيت منه شيئاً لم يره أحد من أبويه ، فأخذ رسول الله يده ونادى : يا معشر قريش إن زيد بن حارثة ابنٌ لى . فلما تزوج زينب امرأة زيد كما يأتى قال اليهود والمنافقون كيف يتزوج زوجة ابنه وهو ينهى عن ذلك فأكذبهم الله بأن أدعياءكم ليسوا أبناءكم فى حكم الشرع ﴿ذَٰلِكُمْ قَوْلُكُم بِأَفْوَاهِكُمْ﴾ لا مستند له ﴿وَاللَّهُ يَقُولُ الْحَقَّ﴾ فى ذلك وما سواه باطل ﴿وَهُوَ يَهْدِى السَّبِيلَ﴾ سبيل الحق تأكيد على تأكيد وتمهيد لما بعده من قوله ﴿ادْعُوهُمْ لِآبَائِهِمْ﴾ أى انسبوهم إليهم وهذا إلى آخر السورة تفصيل لقول الحق وهداية السبيل ﴿هُوَ أَقْسَطُ﴾ أعدل ﴿عِندَ اللَّهِ﴾ تعليل له والضمير لمصدر ادعوا ، وأقسط : أفعل تفضيل قصد به الزيادة مطلقاً ومعناه البالغ فى الصدق ، وفى الآية دليل على أنه لا ينسب إلى الأم . وعن ابن عمر : ما كنا ندعو زيداً إلا زيد بن محمد حتى نزل القرآن يعنى فقلنا له زيد بن حارثة ﴿فَإِن لَّمْ تَعْلَمُوا آبَاءَهُمْ﴾ فتنسبوهم إليهم ﴿فَإِخْوَانُكُمْ فِى الدِّينِ﴾ فقولوا يا أخى ﴿وَمَوَالِيكُمْ﴾ أولياؤكم فيه فقولوا يا مولاى ﴿وَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ فِيمَا أَخْطَأْتُم بِهِ﴾ فيما فعلتموه من ذلك مخطئين قبل النهى أو بعده على النسيان أو سبق اللسان ﴿وَلَٰكِن﴾ الجناح فى ﴿مَّا تَعَمَّدَتْ قُلُوبُكُمْ﴾ فيه أو ولكن ما تعمدت فيه الجناح فـ«ما» فى محل جر عطفاً على ما أخطأتم أو مبتدأ خبره محذوف كما قدرنا وعلى الوجهين فالجملة تأكيد لامتثال ما ندبوا إليه . قال السهيلى : ولما نزلت الآية وامتثلها زيد بقوله أنا زيد بن حارثة شرفه الله بتسميته فى القرآن ذكراً مخلداً وتبيين أنه ممن أنعم الله عليه بالإيمان وهذه أيضاً فضيلة هى منتهى أمنية الإنسان ﴿وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا﴾ للمخطئ ﴿رَّحِيمًا﴾ بقبول توبة العامد . وفى الحديث « من ادعى إلى غير أبيه وهو يعلم فالجنة عليه حرام » ﴿النَّبِىُّ أَوْلَىٰ بِالْمُؤْمِنِينَ مِنْ أَنفُسِهِمْ﴾ فيما دعاهم إليه ودعتهم أنفسهم إلى خلافه فيجب عليهم وقايته بالأرواح وإيثار رضاه على رضاهم وأن يحبوه أكثر من أنفسهم . وفى الصحيح « لا يؤمن أحدكم حتى أكون أحب إليه من والده وولده والناس أجمعين » أو المعنى أرأف بهم من أنفسهم لما رواه الأئمة واللفظ للبخارى عن أبى هريرة أن النبى صلى الله عليه وسلم قال « ما من مؤمن إلا وأنا أولى به فى الدنيا والآخرة اقرأوا إن شئتم : النبى أولى بالمؤمنين من أنفسهم . فأى مؤمن ترك مالا فليرثه عصبته من كانوا فإن ترك ديناً أو ضياعاً فليأتنى فأنا مولاه » فذكر عليه السلام ما عليه وترك ماله لوضوحه

من الآية . قال ابن العربي في أحكامه : فهذا الحديث هو تفسير الولاية في هذه الآية ﴿ وَأَزْوَاجُهُ ﴾ اللاتي دخل بهن وقيل عام ﴿ أُمَّهَاتُهُمْ ﴾ أي رجال المؤمنين في الاحترام والتعظيم وحرمة النكاح وهو تشبيه مؤكد وقيل تدخل النساء والصحيح الأول لأن امرأة قالت لعائشة رضي الله عنها : يا أماه . فقالت : لست لكِ بأم إنما أنا أم رجالكم . قاله ابن العربي في الأحكام . ويقال للرسول أبوهم وقيل لا لقوله « ما كان محمد أبا أحد من رجالكم » والصواب الأول قاله في غاية الأماني ﴿ وَأُولُوا الْأَرْحَامِ ﴾ ذوو القرابات ﴿ بَعْضُهُمْ أَوْلَى بِبَعْضٍ ﴾ في الإرث ﴿ فِي كِتَابِ اللَّهِ ﴾ اللوح أو القرآن في آية المواريث أو هذه ﴿ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُهَاجِرِينَ ﴾ أي من الإرث بالإيمان والهجرة الذي كان أول الإسلام فنسخ و « من » صلة لـ « أولى » أو بيان لأولي الأرحام أو ابتدائية أو تبعيضية أي الذين هم هؤلاء أو الكائنين منهم أو هم بعضهم ﴿ إِلَّا أَنْ تَفْعَلُوا إِلَى أَوْلِيَائِكُمْ مَعْرُوفًا ﴾ برًّا وإحساناً ووصية استثناء من أعم ما تقدر فيه الأولوية من النفع أو منقطع أي لكن ذلك جائز ، والمراد بالأولياء المؤمنون والمهاجرون من إقامة المظهر مقام المضمر على تقدير الابتداء أو التبعيض دون البيان لأن الأجانب مدلول عليهم سياقاً إذ ذاك ﴿ كَانَ ذَلِكَ ﴾ الذي ذكر في الآيتين ثابتاً ﴿ فِي الْكِتَابِ ﴾ اللوح أو القرآن ﴿ مَسْطُورًا وَ ﴾ اذكر ﴿ إِذْ أَخَذْنَا مِنَ النَّبِيِّينَ مِيثَاقَهُمْ ﴾ بتبليغ الرسالة والدعاء إلى الدين القيم والنصيحة لقومهم ﴿ وَمِنْكَ وَمِنْ نُوحٍ وَإِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى وَعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ ﴾ هم أولو العزم خصهم بالذكر تنبيهاً على عظم شأنهم فإنهم مشاهير أرباب الشرائع وقدم نبينا صلى الله عليه وسلم وعليهم أجمعين إشارة إلى أنه المقدم رتبة وإن تأخر بعثاً . وعن الزجاج : هو أولهم خلقاً وآخرهم بعثاً ﴿ وَأَخَذْنَا مِنْهُمْ مِيثَاقًا غَلِيظًا ﴾ شديداً بالوفاء بما حملوه هو ذلك الميثاق أو هو العهد المؤكد باليمين وأخذ هذا الميثاق عليهم في عالم الذر ﴿ لِيَسْأَلَ ﴾ الله ﴿ الصَّادِقِينَ ﴾ الأنبياء يوم القيامة ﴿ عَنْ صِدْقِهِمْ ﴾ في تبليغ الرسالة أو عن تصديق الأمم إياهم تبكيتاً لهم ، وضع الظاهر موضع المضمر مدحاً للرسل بالصدق أو هم المؤمنون الذين صدقوا في عهدهم حين أشهدهم على أنفسهم « ألست بربكم » ليشهد لهم الأنبياء بوفاء العهد وأداء الأمانة التي حملوها أو تصديقهم الرسل فإن تصديق الصادق صدق ﴿ وَأَعَدَّ لِلْكَافِرِينَ عَذَابًا أَلِيمًا ﴾ مؤلماً عطف على أخذنا من النبيين معنى لأن التقدير أكد الله العهد على الأنبياء في أداء الرسالة لإثابة المؤمنين وأعد للكافرين أو على ما دل عليه « ليسأل الصادقين » كأنه قال فأثاب هؤلاء وأعد لهؤلاء لأن سؤال الصادقين عن صدقهم إثابة لهم ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ جَاءَتْكُمْ جُنُودٌ ﴾ من الكفار متحزبون أيام حفر الخندق وتقدم ترتيب المغازي وأن الخندق في السنة الخامسة في شوال وهي غزوة الأحزاب وهم قريش وقائدهم أبو سفيان بن حرب وغطفان وقائدهم عيينة بن حصن وبنو النضير من اليهود وهم الذين حزّبوا الأحزاب وسيدهم حيي بن أخطب ونقضت بنو قريظة عهدهم مع النبي صلى الله عليه وسلم وظاهروهم فكانوا زهاء اثني عشر ألفاً وسبب تحزبهم أن رسول الله

أجلى بنى النضير من المدينة إلى خيبر كما يأتى إن شاء الله فذهب أشرافهم إلى مكة وحزبوا قريشاً ومن أطاعهم وفعلوا مثل ذلك فى غطفان فلما سمع النبى صلى الله عليه وسلم اجتماعهم عليه شاور أصحابه فأشار سلمان الفارسى إلى عمل الخندق فحفره حول المدينة وخرج فى ثلاثة آلاف وعسكر بسلع وأسند ظهره إلى ذلك الجبل وحصر الذرارى والنساء فى آطام المدينة وعسكر الكفار ثلاثة عساكر : غطفان من جهة الشرق وقريش من جهة الغرب وبنو النضير مع قريظة والخندق بين النبى وبينهم إذا جاءوا للحرب ومضى قريب من شهر يترامون كل يوم بالنبل والحجارة حتى بعث الله عليهم صبا بارداً فى ليلة باردة كما أخبر بقوله ﴿ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحاً ﴾ سفت التراب فى وجوههم وأطفأت نيرانهم وقلعت خيامهم وماجت الخيل بعضها فى بعض ﴿وَ﴾ أرسلنا ﴿جُنُوداً﴾ ملائكة ألفاً يكبرون حول عساكرهم وقطعوا أطناب خيامهم وألقوا قدورهم ولا يراهم الناس كما قال ﴿ لَمْ تَرَوْهَا ﴾ فنادى سيد كل قبيلة : النجاء النجاء . فانهزموا ورجعوا إلى بلادهم خائبين « وكفى الله المؤمنين القتال » ﴿ وَكَانَ اللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴾ بالتاء للجمهور من حفر الخندق وغيره وبالياء لأبى عمرو أى الكفار من التحزب والمحاربة ﴿ بَصِيراً ﴾ لا يخفى عليه شىء ﴿ إِذْ جَاءُوكُمْ ﴾ بدل من إذ جاءتكم ﴿ مِنْ فَوْقِكُمْ ﴾ من أعلى الوادى من قبل المشرق أى غطفان ومن تابعهم من أهل نجد يذنب نقمى من جانب أحد الشرقى ﴿ وَمِنْ أَسْفَلَ مِنْكُمْ ﴾ أى أسفل الوادى من جهة المغرب أى قريش ومن شايعهم بمجتمع الأسيال من دومة والغابة ﴿ وَإِذْ زَاغَتِ الْأَبْصَارُ ﴾ مالت عن مستوى نظرها حيرة أو مالت عن كل شىء وشخصت نحو العدو ﴿ وَبَلَغَتِ الْقُلُوبُ الْحَنَاجِرَ ﴾ جمع حنجرة وهى منتهى الحلقوم ، وهذا مثل فى اضطراب القلوب من شدة الخوف ، وقيل إذا خاف الإنسان أو غضب انتفخت رئته وارتفعت إلى الحنجرة وارتفع القلب بارتفاعها ﴿ وَتَظُنُّونَ بِاللَّهِ الظُّنُونَا ﴾ المختلفة بالنصر من جهة المؤمنين المخلصين واليأس من جهة المنافقين يظنون أن الكفار يستأصلون النبى ومن معه وبخواطر الشك من جهة ضعفاء المؤمنين حتى قال بعضهم يا نبى الله بلغت القلوب الحناجر فهل من شىء نقوله ؟ قال : قولوا اللهم استر عوراتنا وآمن روعاتنا ، فقالوها فهزم الله الكفار ، ذكره فى الجواهر . « والظنونا » بالألف وصلا ووقفاً لنافع وابن عامر وأبى بكر اتباعاً للرسم وبلا ألف فى الحالين لأبى عمرو وحمزة وبالقصر وصلا والمد وقفاً للباقين ﴿ هُنَالِكَ ﴾ فى ذلك الزمان وذلك المكان ﴿ ابْتُلِيَ الْمُؤْمِنُونَ ﴾ فظهر المخلص من المنافق والثابت من المتزلزل ﴿ وَزُلْزِلُوا زِلْزَالًا شَدِيداً ﴾ من شدة الفزع . روى مسلم بإسناده إلى حذيفة بن اليمان أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قام يصلى تلك الليلة التى هزمت الأحزاب فيها ثم قال : من يأتينى بخبر القوم وتكون له الجنة حتى أعاد الكلام مراراً فلم يجبه أحد ثم قال يا حذيفة فلم أجد بداً من الجواب فقمت ولى من البرد والجوع ما لا يعلمه إلا الله فقال يا حذيفة ادخل فى القوم وانظر ما يفعلون ولا تحدث شيئاً قال فقمت ومشيت كأنما أمشى فى الحمام ولا أرى أثر الجوع فلما دخلت فيهم رأيت أباسفيان

يصلي ظهره بالنار فوضعت سهما فى كبد القوس ثم ذكرت قول رسول الله « لا تحدث شيئا » فرجعت وأخبرته بخبرهم وأخذنى البرد الذى كان بى أولا فألبسنى رسول الله صلى الله عليه وسلم فضل عباءة كان يصلى فيها فنمت حتى الصباح فقال لى رسول الله قم يانومان ﴿وَ﴾ آذكر ﴿إِذْ يَقُولُ الْمُنَافِقُونَ وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ﴾ عداوة المؤمنين من عطف الصفات أى ضعف اعتقاد من المؤمنين ﴿مَا وَعَدَنَا اللَّهُ وَرَسُولُهُ﴾ بالنصر على هذه الأحزاب وغيرها ﴿إِلَّا غُرُورًا﴾ باطلا لاحقيقة له لأنا ما حفرنا إلا للخوف ومحمد يعدنا كنوز كسرى وقيصر وأحدنا اليوم لا يقدر على مجاوزة رحله للغائط وقال بعض الضعفاء لو كان الله أراد نصرنا لما بلغ الأمر هذا المبلغ ﴿وَإِذْ قَالَتْ طَّائِفَةٌ مِّنْهُمْ﴾ من المنافقين ابن أبىّ ومن وافقه ﴿يَا أَهْلَ يَثْرِبَ﴾ اسم المدينة فى الجاهلية ورد النهى عن تسميتها بذلك وسماها النبى صلى الله عليه وسلم طيبة وطابة ﴿لَا مُقَامَ لَكُمْ﴾ بفتح الميم للجمهور وضمها لعاصم لا موضع قيام أولا قيام ولا إقامة مكان أو مصدر ﴿فَارْجِعُوا﴾ من العسكر هاربين إلى منازلكم أولا مقام لكم على دين محمد فارجعوا إلى الشرك وأسلموه إلى العدو لتسلموا أولا مقام لكم بيثرب مؤمنين بمحمد فارجعوا كفارا ليمكن لكم المقام بها ﴿وَيَسْتَأْذِنُ فَرِيقٌ مِّنْهُمُ﴾ أوس بن قيظى وأتباعه ﴿النَّبِيَّ﴾ فى الرجوع إلى البيوت ﴿يَقُولُونَ إِنَّ بُيُوتَنَا عَوْرَةٌ﴾ خالية غير حصينة نخشى عليها العدو وأصل العورة كل عيب وخلل يستحيى منه . وقرئ بكسر الواو أى قصيرة الجدار يسهل دخول السراق عليها فأكذبهم الله بقوله ﴿وَمَا هِيَ بِعَوْرَةٍ إِن﴾ ما ﴿يُرِيدُونَ﴾ شيئا ﴿إِلَّا فِرَارًا﴾ من القتال وخذلانا للمسلمين ﴿وَلَوْ دُخِلَتْ﴾ المدينة أو البيوت ﴿عَلَيْهِم مِّنْ أَقْطَارِهَا﴾ نواحيها حذف الفاعل إيماء إلى أن دخول هؤلاء الأحزاب ودخول غيرهم سيان فى اقتضاء الحكم المرتب عليه ﴿ثُمَّ سُئِلُوا الْفِتْنَةَ﴾ الردة ومقاتلة المسلمين ﴿لَآتَوْهَا﴾ بالقصر لنافع وابن كثير أى لفعلوها وبالمد للباقين لأعطوها ﴿وَمَا تَلَبَّثُوا بِهَا﴾ بالفتنة أى بفعلها ﴿إِلَّا يَسِيرًا﴾ ريثما يكون السؤال والجواب وقيل ما لبثوا بالمدينة بعد الارتداد إلا يسيرا ويقلع الله شأفتهم ﴿وَلَقَدْ كَانُوا﴾ يعنى المنافقين ﴿عَاهَدُوا اللَّهَ مِن قَبْلُ﴾ حين نزل فى الفارين يوم أحد ما نزل ﴿لَا يُوَلُّونَ الْأَدْبَارَ﴾ ولا يعودون لمثل ما فعلوا ﴿وَكَانَ عَهْدُ اللَّهِ مَسْئُولًا﴾ عن الوفاء به للمجازاة وعيد شديد وذم ﴿قُل لَّن يَنفَعَكُمُ الْفِرَارُ إِن فَرَرْتُم مِّنَ الْمَوْتِ أَوِ الْقَتْلِ﴾ إذ الموت لابد منه إما حتف أنف أو قتلا فى وقت معين سبق به القضاء والقلم ﴿وَإِذًا﴾ إن فررتم أو إن نفعكم الفرار بالتأخير على ما ترون ﴿لَا تُمَتَّعُونَ إِلَّا﴾ تمتيعا أوز مانا ﴿قَلِيلًا﴾ بقية آجالكم وهذا لا ينبغى للعاقل الفرار لأجله ﴿قُلْ مَن ذَا الَّذِي يَعْصِمُكُم﴾ يجيركم ﴿مِّنَ اللَّهِ إِنْ أَرَادَ بِكُمْ سُوءًا﴾ هلاكا ﴿أَوْ﴾ يصيبكم بسوء إن ﴿أَرَادَ﴾ الله ﴿بِكُمْ رَحْمَةً﴾ خيرا ويحتمل أن الثانى حمل على الأول لما فى العصمة من معنى المنع وعلى الوجهين فهو تقرير وتوكيد لعدم نفع الفرار ﴿وَلَا يَجِدُونَ لَهُم مِّن دُونِ اللَّهِ﴾ غيره ﴿وَلِيًّا﴾ ينفعهم ﴿وَلَا نَصِيرًا﴾ يدفع الضر عنهم فى حال من الأحوال ﴿قَدْ﴾ للتحقيق ﴿يَعْلَمُ اللَّهُ الْمُعَوِّقِينَ﴾ المثبطين

عن رسول الله صلى الله عليه وسلم وعن القتال بالأقوال والأفعال ﴿مِنكُمْ﴾ وهم المنافقون والتفعيل لتكثير الفعل والمبالغة فيه من العوق وهو المنع ﴿وَالْقَائِلِينَ لِإِخْوَانِهِمْ﴾ فى النسب ﴿هَلُمَّ﴾ تعالوا ﴿إِلَيْنَا﴾ قربوا أنفسكم منا وتمتعوا بظل الأشجار وأكل الثمار ودعوا محمداً وأصحابه فإنا نخاف عليكم الهلاك. روى أن ابن أبيّ رأس المنافقين لما اشتد الأمر أقبل هو وأصحابه إلى المؤمنين من الأنصار يخوّفونهم بأبى سفيان وجنوده ويقولون لئن قدروا عليكم لن يستبقوا منكم أحدا وما ترجون من محمد؟ ما هو إلا أن يقتلنا هاهنا هلم إلينا ننطلق إلى إخواننا اليهود ولم يزد ذلك المؤمنين إلا إيمانا فأبوا ﴿وَلَا يَأْتُونَ الْبَأْسَ﴾ القتال ﴿إِلَّا قَلِيلًا﴾ رياء وسمعة أى إلا إتياناً أو زماناً أو بأساً قليلا وقيل إنه من تتمة كلامهم ومعناه ولا يأتى أصحاب محمد حرب الأحزاب إلا قليلا لا يقاومونهم ﴿أَشِحَّةً﴾ بخلاء ﴿عَلَيْكُمْ﴾ بالمعاونة والإنفاق فى سبيل الله والغنيمة إن حيزت والشح البخل إذا قارنه الحرص ونصبه على الحال من فاعل يأتون أو المعوقين أو على الذم ﴿فَإِذَا جَاءَ الْخَوْفُ رَأَيْتَهُمْ يَنظُرُونَ إِلَيْكَ تَدُورُ أَعْيُنُهُمْ﴾ فى أحداقهم لا تستقر فى مكانها من شدة الخوف ﴿كَالَّذِي﴾ كنظر أو كدوران عين الذى ﴿يُغْشَىٰ عَلَيْهِ مِنَ الْمَوْتِ﴾ أى سكراته خوفا ولواذاً بك ﴿فَإِذَا ذَهَبَ الْخَوْفُ﴾ وحيزت الغنائم ﴿سَلَقُوكُم﴾ ضربوكم وآذوكم ﴿بِأَلْسِنَةٍ حِدَادٍ﴾ ذربة والسلق البسط بقهر باليد أو اللسان قاله البيضاوى أو رفع الصوت ومنه فى الحديث «لعن الله الحالقة والسالقة» قاله فى غاية الأمانى، وفى البغوى عن ابن عباس تناولوكم بالنقص والغيبة. وقال قتادة بسطوا ألسنتهم فيكم وقت قسمة الغنائم يقال للخطيب الفصيح: سلاق اهـ. وفى الجواهر خاطبوكم مخاطبة بليغة يقال خطيب سلاق ومسلاق ولسان أيضا كذلك إذا كان فصيحا مقتدرا ﴿أَشِحَّةً﴾ حال من الضمير فى سلقوكم ﴿عَلَى الْخَيْرِ﴾ أى الغنيمة يطلبونها كأنها عين أموالهم يقولون لولا نحن لم تظفروا بشىء ﴿أُولَٰئِكَ﴾ الموصوفون ﴿لَمْ يُؤْمِنُوا﴾ قط إخلاصاً ﴿فَأَحْبَطَ اللَّهُ أَعْمَالَهُمْ﴾ فأظهر بطلانها إذ لم تثبت لهم أعمال فتبطل أو أبطل ما أرادوا بالتعويق ونحوه ﴿وَكَانَ ذَٰلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرًا﴾ بإرادته وعدم المانع ﴿يَحْسَبُونَ﴾ أى المنافقون ﴿الْأَحْزَابَ﴾ من الكفار بعد انصرافهم ﴿لَمْ يَذْهَبُوا﴾ وذلك من غاية جبنهم يظنون أن انهزامهم كان مكيدة وخدعا وقد رأوا غباراً فانهزموا وفروا إلى داخل المدينة ﴿وَإِن يَأْتِ الْأَحْزَابُ﴾ كرة ثانية ﴿يَوَدُّوا﴾ يتمنوا ﴿لَوْ أَنَّهُم بَادُونَ﴾ اسم فاعل بدا أى خرج إلى البادية ﴿فِي الْأَعْرَابِ﴾ ساكنو البدو بين الأعراب لا يبالون بفراق المال والوطن ﴿يَسْأَلُونَ﴾ كل قادم من المدينة ﴿عَنْ أَنبَائِكُمْ﴾ أخباركم مع الكفار ما جرى بينكم ثم سلى سبحانه المؤمنين بقوله ﴿وَلَوْ كَانُوا فِيكُم﴾ فى جيشكم حاضرين فى هذه الكرة ﴿مَّا قَاتَلُوا إِلَّا قَلِيلًا﴾ رياء وسمعة وخوفا من التعيير يقيمون به عذرهم ثم يفرون ﴿لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ إُسْوَةٌ﴾ بكسر الهمزة للجمهور وضمها لعاصم: خصلة ﴿حَسَنَةٌ﴾ من حقها أن يؤتسى بها كالثبات فى الحرب ومقاساة الشدائد أو هو نفسه قدوة إذ الأسوة ما يؤتسى به ﴿لِّمَن كَانَ يَرْجُو اللَّهَ﴾ يأمل ثوابه أو يخاف عقابه أو أيام

الله ﴿وَالْيَوْمَ الآخِرَ﴾ خصوصاً ولمن كان صلة لحسنة أوصفة لها لا لأسوة لأن المصدر الموصوف لا يعمل أوبدل من لكم بدل بعض أى لمن كان يرجو الله منكم وامتناع الإبدال للظاهر من ضمير المتكلم أوالمخاطب إنما هو فى بدل الكل وأيضا هذا ليس من الضمير بل من الجار والمجرور معا ، انظر غاية الأمانى ﴿وَذَكَرَ اللَّهَ كَثِيرًا﴾ بخلاف من ليس كذلك ﴿وَلَمَّا رَأَى الْمُؤْمِنُونَ الْأَحْزَابَ﴾ من الكفار ﴿قَالُوا هَذَا مَا وَعَدَنَا اللَّهُ﴾ بقوله «أم حسبتم أن تدخلوا الجنة ولما يأتكم مثل الذين خلوا من قبلكم» ﴿وَرَسُولُهُ﴾ من الابتلاء والنصر حيث قال إن الأحزاب سائرون إليكم فى آخر تسع ليالى أوعشر وقوله سيشتد الأمر باجتماع الأحزاب عليكم والعاقبة لكم عليهم فلما رأوهم وزلزلوا زلزالا شديداً أيقنوا بالنصر والعاقبة وقالوا ﴿وَصَدَقَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ﴾ فى الوعد أى ظهر صدقهما فيما وعدا وإيثار المظهر فى الاسمين للاستلذاذ والتعظيم ﴿وَمَا زَادَهُمْ﴾ ذلك الذى رأوا ﴿إِلَّا إِيمَانًا﴾ بالله وبوعده ﴿وَتَسْلِيمًا﴾ لأوامره ومقاديره ولما ذكر صدق وعده أردفه بذكر صدق العهد من عباده الذين تخلقوا بأخلاقه فقال ﴿مِنَ الْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا مَا عَاهَدُوا اللَّهَ عَلَيْهِ﴾ من الثبات مع الرسول بالمقاتلة لإعلاء الدين ﴿فَمِنْهُمْ مَنْ قَضَى نَحْبَهُ﴾ نذره بأن قاتل حتى استشهد فى سبيل الله كحمزة ومصعب بن عمير وأنس بن النضر أو مات على نية ذلك والنحب : النذر استعير للموت لأنه كنذر لازم فى رقبة كل حيوان ﴿وَمِنْهُمْ مَنْ يَنْتَظِرُ﴾ ذلك كأكثر الصحابة وقد استشهد فى هذه الغزوة ستة ﴿وَمَا بَدَّلُوا تَبْدِيلًا﴾ فى العهد وهم بخلاف حال المنافقين ، قال ابن عطية : فقضاء النحب ليس من شرطه الموت لأن النبى صلى الله عليه وسلم كان يقول فى طلحة « هذا ممن قضى نحبه » ﴿لِيَجْزِيَ اللَّهُ الصَّادِقِينَ بِصِدْقِهِمْ وَيُعَذِّبَ الْمُنَافِقِينَ إِنْ شَاءَ﴾ بأن يميتهم على نفاقهم تعليل للمنطوق والمعرض به على طريق النشر ﴿أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ﴾ يوفقهم للتوبة ﴿إِنَّ اللَّهَ كَانَ غَفُورًا رَحِيمًا﴾ لمن تاب ﴿وَرَدَّ اللَّهُ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ أى الأحزاب ﴿بِغَيْظِهِمْ﴾ ملتبسين به لم يفارقهم ﴿لَمْ يَنَالُوا خَيْرًا﴾ مرادهم من الظفر بالمؤمنين أو لم ينالوا خيراً قط بوجه بيان لسبب الغيظ أو هما حالان متداخلان أو متعاقبان ﴿وَكَفَى اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ الْقِتَالَ﴾ بالريح والملائكة كما تقدم زيادة امتنان على المؤمنين حيث أنجاهم من تلك البلية العظمى من غير حول منهم ولا قتال ﴿وَكَانَ اللَّهُ قَوِيًّا﴾ على ما أراد ﴿عَزِيزًا﴾ غالبا على أمره لا يغالب ثم أشار إلى قصة بنى قريظة بقوله ﴿وَأَنْزَلَ الَّذِينَ ظَاهَرُوهُمْ﴾ عاونوا الأحزاب ونقضوا العهد مع رسول الله صلى الله عليه وسلم ﴿مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ﴾ وهم قريظة ﴿مِنْ صَيَاصِيهِمْ﴾ حصونهم جمع صيصية هى ما يدفع به الشىء ويحصن به ولذا يطلق على قرون البقر والظبى وشوكة الديك ﴿وَقَذَفَ فِي قُلُوبِهِمُ الرُّعْبَ﴾ الخوف ﴿فَرِيقًا تَقْتُلُونَ﴾ منهم وهم المقاتلة وكانوا ستمائة أو أكثر ﴿وَتَأْسِرُونَ فَرِيقًا﴾ منهم سبعمائة أوأكثر وذلك أن رسول الله صلى الله عليه وسلم لما رجع عن مقاتلة الأحزاب مع أصحابه ووضع السلاح وشرع يغتسل أتاه جبريل معتجراً بعمامته فقال أوضعت السلاح

والملائكة لم تضع السلاح وهذا أوان رجوع من طلب القوم! إن الله يأمرك بالمسير إلى بنى قريظة وأنا عامد إليهم أزلزلهم فأذن صلى الله عليه وسلم فى الناس ألا يصلوا العصر إلا فى بنى قريظة فقدم علىّ ابن أبى طالب رايته إليهم فحاصرهم بضعاً وعشرين أو أقل حتى جهدهم الحصار فطلبوا منه أن ينزلوا على حكم سعد بن معاذ فأرسل إليه النبىّ وهو بالمدينة يداوى من جرحه فحملوه فجىء به فحكم فيهم بقتل المقاتلة وسبى ذراريهم وقسم أموالهم بين المهاجرين فقط . فقال عليه السلام : حكمت بحكم الله ، فاستنزلوا فقتل منهم ستمائة أو أكثر كما تقدمنا وأسر سبعمائة أو أكثر . وقال عليه السلام بعد إجلاء الأحزاب عنه : الآن نغزوهم ولا يغزوننا ونحن نسير إليهم ﴿ وَأَوْرَثَكُمْ أَرْضَهُمْ ﴾ مزارعهم ﴿ وَدِيَارَهُمْ ﴾ حصونهم ﴿ وَأَمْوَالَهُمْ ﴾ من الصامت والناطق فقسم عقارهم بين المهاجرين ﴿ وَأَرْضًا لَمْ تَطَئُوهَا ﴾ بعد كخيبر ومكة والشام والعراق ومصر وكل أرض تفتح إلى يوم القيامة ﴿ وَكَانَ اللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرًا ﴾ فيقدر على ذلك . ولما كثرت الأموال بكثرة الفتوح سنة تسع اجتمع أزواج النبى صلى الله عليه وسلم عنده فطلبن منه السعة والتنعم فى الدنيا زيادة على النفقة فقلن نريد ما تريده النساء من الحلى والثياب المخططة والسحولية والحلل اليمانية فغضب عليهن لطلب الدنيا وهجرهن شهراً فنزلت عليه آية التخيير وهى ﴿ يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ قُلْ لِأَزْوَاجِكَ ﴾ وهن إذ ذاك تسع : خمس من قريش عائشة بنت أبى بكر وحفصة بنت عمر وأم حبيبة رملة بنت أبى سفيان وسودة بنت زمعة وأم سلمة هند بنت أبى أمية ، وأربع من غير قريش : زينب بنت جحش الأسدية وميمونة بنت الحارث الهلالية وصفية بنت حيي الإسرائيلية وجويرية بنت الحارث المصطلقية ﴿ إِنْ كُنْتُنَّ تُرِدْنَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا ﴾ السعة والتنعم فيها ﴿ وَزِينَتَهَا ﴾ زخارفها من الحلى والثياب وغير ذلك ﴿ فَتَعَالَيْنَ أُمَتِّعْكُنَّ ﴾ أعطيكن متعة الطلاق ﴿ وَأُسَرِّحْكُنَّ ﴾ أطلقكن ﴿ سَرَاحًا ﴾ طلاقاً ﴿ جَمِيلًا ﴾ من غير ضرار ولا بدعة وتقديم المتعة على التسريح المسبب عنه للاهتمام بما هو من محاسن الأخلاق ﴿ وَإِنْ كُنْتُنَّ تُرِدْنَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَالدَّارَ الْآخِرَةَ ﴾ أى الجنة ﴿ فَإِنَّ اللَّهَ أَعَدَّ لِلْمُحْسِنَاتِ مِنْكُنَّ ﴾ بإرادة الآخرة ، و «من» للبيان لأنهن كلهن محسنات ، وإيثار المظهر موضع المضمر للدلالة على أن اختيارهن الله ورسوله إتيان بالحسن ﴿ أَجْرًا عَظِيمًا ﴾ لا يحاط به ولا نسبة بينه وبين زخارف الدنيا . ولما نزلت الآيتان بدأ رسول الله صلى الله عليه وسلم بعائشة رضى الله عنها لفضلها فخيّرها فاختارت الله ورسوله ثم اختارت الباقيات اختيارها فشكر لهن الله ذلك ، واعلم أن الله أمر نبيه بتخيير نسائه والأمر للوجوب عليه عند المالكية وهو المشهور عند غيرهم لكن لا ريب أن تبليغ ذلك واجب عليه ، ومعنى التخيير فى الآية تخييرهن فى المقام معه طلباً للآخرة أو مفارقته طلباً للدنيا لا التخيير الذى يوقعن فيه الثلاث كما ظنه قوم . قال أبو الحسن المالكى : وهو ظن سوء برسول الله صلى الله عليه وسلم أن يخير فى إيقاع الثلاث . اهـ . قال اللخمى : فقوله أسرحكن يقتضى أنه لم يجعل الطلاق إلى زوجاته وإنما هو المطلق . اهـ . وقال القاضى إسماعيل فى كتابه الأحكام :

قد ظن قوم أنه عليه السلام خيّر نساءه فى الطلاق والكون معه وهذا ظن سوء برسول الله أن يخير فى الطلاق فيكون ثلاثاً وإنما خيّرهن بين الدنيا والآخرة فإن اخترن الدنيا ظهر من هذا طلاق السُّنة الذى علمه الله ألا ترى إلى قوله « أمتعكن وأسرحكن سراحاً جميلا » . اهـ . وكذا قال ابن رشد وعياض وقال اللخمى وعياض : ما وقع فى المدونة أن بعض أزواجه اختارت الفراق ليس بصحيح . اهـ . وإنما أمره الله بتخييرهن لئلا يكون لأحد منهن منّة عليه فى الصبر على ما اختاره من خشونة العيش قاله القسطلانى فى شرح البخارى ﴿ يَا نِسَاءَ النَّبِيِّ مَنْ يَأْتِ مِنْكُنَّ بِفَاحِشَةٍ ﴾ كبيرة من كل معصية ﴿ مُبَيِّنَةٍ ﴾ بكسر الياء للجمهور وفتحها لابن كثير وأبى بكر ﴿ يُضَاعَفْ ﴾ بالياء والمد والتخفيف لنافع والكوفيين ﴿ لَهَا الْعَذَابُ ﴾ بالرفع وبالقصر والتشديد لأبى عمرو وبالنون والقصر وكسر العين والتشديد ونصب العذاب لابن كثير وابن عامر ﴿ ضِعْفَيْنِ ﴾ ضعفى عذاب غيرهن أى مثليه إذ الذنب منهن أقبح كما أن ثوابهن يضعف فإن زيادة قبح الذنب تتبع زيادة فضل المذنب والنعمة عليه ولذا جعل حد الحر ضعفى حد العبد وعوتب الأنبياء بما لا يعاتب به غيرهم ﴿ وَكَانَ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيراً ﴾ لا يمنعه عن التضعيف كونكن نساء النبى صلى الله عليه وسلم لأنكن إماء الله واحترامكن إنما هو لطاعة الله ورسوله فإذا خرجتن عن ذلك زال موجبه ﴿ وَمَنْ يَقْنُتْ ﴾ يدم على الطاعة ﴿ مِنْكُنَّ لِلَّهِ وَرَسُولِهِ ﴾ فيما أمر ﴿ وَتَعْمَلْ صَالِحاً ﴾ من الأعمال بالفوقية للجمهور مراعاة لمعنى « من » بعد مراعاة لفظه فى « يقنت » وبالتحتانية لحمزة والكسائى مراعاة للفظ من ﴿ نُؤْتِهَا ﴾ بالنون للجمهور والياء لحمزة والكسائى والفاعل اسم الجلالة ﴿ أَجْرَهَا مَرَّتَيْنِ ﴾ أى مثلى ثواب غيرهن من النساء مرة على فعل الطاعة ومرة لكونها فى شرف محبة رسول الله صلى الله عليه وسلم وطلب رضاه ﴿ وَأَعْتَدْنَا لَهَا رِزْقاً كَرِيماً ﴾ فى الجنة زائداً على ذلك الإيتاء تفضلا ﴿ يَا نِسَاءَ النَّبِيِّ لَسْتُنَّ كَأَحَدٍ ﴾ كجماعة واحدة ﴿ مِنَ ﴾ جماعات ﴿ النِّسَاءِ ﴾ فى الفضل ﴿ إِنِ اتَّقَيْتُنَّ ﴾ مخالفة حكم الله ورضى رسوله . قال فى أنوار التنزيل : أصل أحد وحد بمعنى الواحد والكثير . اهـ . وقال فى غاية الأمانى : همزة أحد أصلية وهو اسم لمن يخاطب مفرداً كان أو أكثر مذكراً أو مؤنثاً والمعنى لستن كجماعة من النساء ليطابق المشبه به لأن الغرض تفضيلهن من حيث كونهن نساء النبى لا تفضيل كل واحدة . اهـ . وقال فى الجواهر : أى كأحد من نساء عصركن فما بعد وإنما خصصنا النساء لأن فيمن تقدم آسية ومريم فتأمله . اهـ. وفى القاموس فى فصل الهمزة : الأحد بمعنى الواحد ويوم من الأيام والجمع آحاد وأحدان أو ليس له جمع وقال فى فصل الواو : الواحد أول عدد الحساب وقد يثنى والجمع واحدون والمتقدم فى علم أو بأس والجمع وحدان وأحدان وبمعنى الأحد وَحُد كعلم وكرم يحد فيهما وحادة ووحودة ووحوداً ووحداً ووحدة وحِدَة : بقى مفرداً كتوحد ووحده توحيداً جعله واحداً . اهـ . ﴿ فَلَا تَخْضَعْنَ بِالْقَوْلِ ﴾ لا ترخمن أصواتكن فى خطاب الأجانب كالمريبات ﴿ فَيَطْمَعَ الَّذِي فِي قَلْبِهِ مَرَضٌ ﴾ فجور وريبة ﴿ وَقُلْنَ قَوْلاً مَعْرُوفاً ﴾ من

غير خضوع ولا لين يبعد عن الريبة ﴿ وَقَرْنَ ﴾ بفتح القاف لنافع وعاصم وكسرها للباقين من القرار فالأولى أمر من قَرَرَ فى المكان يَقْرَرُ كفرح يفرح لغة من قرر يقرر كضرب يضرب ، والثانية أمر منه أو من وقر كوعد وقاراً أثبتن ﴿ فِى بُيُوتِكُنَّ ﴾ ملازمات للطاعة فإنه أفضل وأستر . وفى الحديث : صلاة المرأة فى خدرها خير من صلاتها فى بيتها وصلاتها فى بيتها خير من صلاتها فى حجرتها . قال ابن العربى فى الأحكام : هو إشارة إلى مايلزم المرأة من لزوم بيتها والانكفاف عن الخروج منه إلا لضرورة . اهـ يعنى دينية كتعلم ما لزمها أو دنيوية كضرورات معاشها وصلة أرحامها لأنها مما ندب إليه الشرع ، وليس للزوج أن يمنع الزوجة من زيارة أبويها كدخولهما عليها اتفاقاً فى المتجالة وعلى المشهور فى الشابة المأمونة أعنى فى الخروج إلى زيارتهما لا فى غير المأمونة ولا فى الحج وسائر العبادات . قال مالك : أرى أن يقضى على الزوج إذا أبى شهودها جنازتهما وزيارتهما بالأمر الذى فيه الصلاح والصلة ، وسئل مالك عن المرأة يغيب عنها زوجها فيمرض أخوها أو أمها أو أختها فتريد أن تأتيهم تعودهم ولم يأذن لها زوجها حين خرج ، قال : لا بأس أن تأتيهم وإن لم يأذن لها حين خرج . وسمع ابن القاسم أنه ليس لمن سألته امرأته أن تسلم على أختها أو أبيها منعها من ذلك ما لم تكن الأمور التى يمنعها لها وجوه : ليس كل النساء سواء أما المتجالة فلا أرى له ذلك وأما غيرها فله ذلك فيها . ذكر هذا كله السنهورى فى شرح المختصر . ثم قال ظاهر المذهب لو شرط أن يمنعها عن زيارة أهلها لم يلزم الشرط إذا لم يتعلق بيمين ويدخل فى أهلها من النساء العمات والخالات وبناتهن وبنات الأخ وبنات الأخت ومن الرجال العم والخال وكذا من هى عند النساء من الأهل وإن لم تكن ذات محرم . قال مالك : ممن لا زوج لها منهن ومن لها زوج منهن لا تزورها إلا بإذن زوجها . قيل له : فما حد ما تزور فيه ؟ قال : كل شهر مرتان أما فى كل يوم فذلك تبرج الجاهلية قبل ضرب الحجاب . قيل له : قال قوم فى كل جمعة مرتان فأنكره . اهـ . ﴿ وَلَا تَبَرَّجْنَ ﴾ بترك إحدى التاءين من أصله ﴿ تَبَرُّجَ الْجَاهِلِيَّةِ الْأُولَىٰ ﴾ أى ما قبل الإسلام من إظهار النساء محاسنهن للرجال والخروج فى أى وقت شئن ، وإنما وصفت بالأولى إذ ليس لها صفة غيرها ، وقيل الجاهلية الأولى جاهلية الكفر قبل الإسلام لقوله عليه السلام لأبى ذر : إنك امرؤ فيك جاهلية . قال ابن عطية : والذى يظهر عندى أنه أشار إلى الجاهلية التى لحقنها فأمرن بالنقلة عن سيرتهن فيها وهى ما كان قبل الشرع من سيرة الكفار وجعلها أولى بالإضافة إلى حالة الإسلام وليس المعنى أن ثم جاهلية أخرى . اهـ . ﴿ وَأَقِمْنَ الصَّلَاةَ وَآتِينَ الزَّكَاةَ وَأَطِعْنَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ ﴾ فى سائر ما أمركن به ونهاكن عنه ﴿ إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنكُمُ الرِّجْسَ ﴾ الإثم المدنس لعرضكن تعليل لأمرهن ونهيهن على الاستئناف ولذا عمم الحكم ﴿ أَهْلَ الْبَيْتِ ﴾ نصب على النداء أو المدح ، ولما استعار الرجس الذى هو النجس للإثم لأنه يدنس العرض رشحه بقوله ﴿ وَيُطَهِّرَكُمْ ﴾ عن المعاصى ﴿ تَطْهِيرًا ﴾ مبالغة فى الترغيب والترهيب وهذا نص على أن نساءه

أهل بيته واتفق الكل على أنهن سبب النزول وقوله عليه السلام فى فاطمة ابنته وعلى والحسن والحسين وقد لف عليهم الكساء «اللهم هؤلاء أهل بيتى» لايقتضى الحصر والحق أن كل من حرمت عليه الصدقة من نسائه وآل على وآل جعفر وآل عقيل وآل عباس رضى الله عنهم كلهم داخلون فى أهل البيت على ما رواه زيد بن أرقم ﴿وَٱذْكُرْنَ مَا يُتْلَىٰ فِى بُيُوتِكُنَّ مِنْ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ وَٱلْحِكْمَةِ﴾ أى اشكرن هذه النعمة وهى الكتاب الجامع بين كونه معجزة دالة على النبوة وعلم الشرائع وأنتم ياأهل بيت الرسول قارون فى مهبطه يردد الوحى خلال منازلكم فمن أولى بالشكر منكم ومعنى ذكره التفكر فيه أو حفظه ولزوم تلاوته أو إفشاؤه للناس كما قال ابن العربى أمر الله أزواج رسوله أن يخبرن بما ينزل من القرآن فى بيوتهن وبما يرين من أفعاله وأقواله حتى يبلغ ذلك إلى الناس فيعملوا بما فيه ويقتدوا به . اه والحكمة على هذا هى السنة وبها فسرت فى المكمل ﴿إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ لَطِيفًا﴾ بأوليائه أو دقيق العلم ولذا جعل الكلام معجزا ﴿خَبِيرًا﴾ ببواطن الأمور ولذا جعله مع إعجازه مشتملا على الحكم والشرائع وخيركن ووعظكن وجعلكن ممن يصلح أن يكون أهل بيته ﴿إِنَّ ٱلْمُسْلِمِينَ﴾ المنقادين لأمر الله فى القول والعمل المتوكلين عليه ومثله فى ﴿وَٱلْمُسْلِمَٰتِ وَٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ بما يجب الإيمان به ﴿وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ وَٱلْقَٰنِتِينَ﴾ المداومين على الطاعة والبعد عن المعصية ﴿وَٱلْقَٰنِتَٰتِ وَٱلصَّٰدِقِينَ وَٱلصَّٰدِقَٰتِ﴾ فى القول والعمل ﴿وَٱلصَّٰبِرِينَ وَٱلصَّٰبِرَٰتِ﴾ على الطاعات ﴿وَٱلْخَٰشِعِينَ﴾ المتواضعين لله ﴿وَٱلْخَٰشِعَٰتِ﴾ بالقلوب والجوارح ﴿وَٱلْمُتَصَدِّقِينَ وَٱلْمُتَصَدِّقَٰتِ﴾ بما وجب فى الأموال وغيره ﴿وَٱلصَّٰٓئِمِينَ وَٱلصَّٰٓئِمَٰتِ﴾ الصوم المفروض وغيره ﴿وَٱلْحَٰفِظِينَ فُرُوجَهُمْ وَٱلْحَٰفِظَٰتِ﴾ عن الحرام ﴿وَٱلذَّٰكِرِينَ ٱللَّهَ كَثِيرًا وَٱلذَّٰكِرَٰتِ﴾ بالقلوب والألسنة وفى الصحيح سيروا فقد سبق المفردون فقالوا يارسول الله ما المفردون ؟ قال «الذاكرون الله كثيراً والذاكرات» رواه مسلم والترمذى قلت قال عياض والمفردون ضبطناه عن متقنى شيوخنا بفتح وكسر الراء ﴿أَعَدَّ ٱللَّهُ لَهُم مَّغْفِرَةً﴾ لما فرط منهم من الصغائر أو أعم ﴿وَأَجْرًا عَظِيمًا﴾ على الطاعات قيل لما نزلت الآيات قبل فى أزواج النبى صلى الله عليه وسلم خاصة قالت نساء المسلمين : ماننزل فينا شىء ! فنزلت هذه الآية المعممة وعطف الإناث على الذكور ضرورى لابد منه لاختلاف الجنسين وأما عطف الزوجين على الزوجين لتغاير الوصفين فليس بضرورى ولذلك ترك فى قوله مسلمات مؤمنات وفائدته الدلالة على أن الإعداد المعد لهم للجمع بين هذه الصفات ﴿وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ﴾ ماصح له شرعا ﴿وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ أَمْرًا﴾ ذكر الله للتعظيم وللإشعار بأن قضاء الرسول قضاؤه لأن الآية نزلت فى زينب بنت جحش خطبها رسول الله لزيد بن حارثة فأبت هى وأخوها عبد الله ثم رضيا اللآية أو فى أم كلثوم بنت عقبة وهبت نفسها للنبى عليه السلام فزوجها من زيد بعد فراق زينب فسخطت هى وأخوها سالم ثم رضيا اللآية ﴿أَن تَكُونَ﴾ بالتأنيث لنافع وابن كثير وأبى عمرو وابن ذكوان وبالتذكير للباقين ﴿لَهُمُ ٱلْخِيَرَةُ﴾ الاختيار جمع الضمير نظراً إلى

المعنى لوقوع النكرة فى سياق النفى ﴿ مِنْ أَمْرِهِمْ ﴾ خلاف أمر الله ورسوله قال ابن العربى وهذا نص على أنه لا يعتبر الكفاءة فى الأحساب وإنما يعتبر فى الأديان خلافا لمالك والشافعى وغيرهما . اهـ . قلت مجموع ما ذكره أصحابنا المالكية فى الكفاءة وفاقا وخلافا ستة أوصاف الدين والحرية والنسب واليسار والحرفة والخلو عن العيوب الأربعة واختلف فى الجميع إلا الإسلام ﴿ وَمَنْ يَعْصِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَالًا مُبِينًا ﴾ بينا لا يخفى على أحد ﴿ وَ ﴾ اذكر ﴿ إِذْ تَقُولُ لِلَّذِي أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِ ﴾ بالإسلام وصحبتك ﴿ وَأَنْعَمْتَ عَلَيْهِ ﴾ بالإعتاق وهو زيد بن حارثة ﴿ أَمْسِكْ عَلَيْكَ زَوْجَكَ ﴾ زينب حين شاورك فى فراقها وقلت له هل رابك شىء منها ؟ فقال لا ولكن تفخر علىّ بشرفها ، فقلت له لا تفعل ﴿ وَاتَّقِ اللَّهَ ﴾ فى أمر طلاقها فإن الطلاق من غير ضرورة أنكر المباحات إلى الله ﴿ وَتُخْفِي فِي نَفْسِكَ مَا اللَّهُ مُبْدِيهِ ﴾ وهو نكاحك زينب إن طلقها زيد لإخبار الله لك أنها ستصير زوجتك روى ابن أبى حاتم من طريق علىّ بن الحسن ابن علىّ قال أعلم الله نبيه أن زيداً يطلق زينب وأنه يتزوجها بتزويج الله إياها له فلما أتاه زيد يشكوها إليه وأعلمه أنه يريد طلاقها قال له النبى صلى الله عليه وسلم على طريق الأدب والوصية اتق الله وأمسك عليك زوجك وهو يعلم أنه سيفارقها وهذا هو الذى أخفى فى نفسه وخشى أن يقول الناس تزوج امرأة مولاه زيد فعاتبه الله على هذا القدر من خشية الناس فيما أباحه الله له بقوله ﴿ وَتَخْشَى النَّاسَ ﴾ تعييرهم إياك به ﴿ وَاللَّهُ أَحَقُّ أَنْ تَخْشَاهُ ﴾ فى كل شىء ويزوجكها ولا عليك من قول الناس وهذا الذى ذكرنا من هذه القصة هو ما يعتمد عليه قال القاضى عياض وتأويل على بن الحسن أحسن التأويلات وأصحها ولذا قال القسطلانى بعد إيراده : وذكر ابن جرير وابن أبى حاتم هنا آثاراً لا ينبغى إيرادها وما ذكرته فيه مقنع . اهـ . وقال ابن العربى وأما قول من روى من المفسرين بأن النبى صلى الله عليه وسلم وقع بصره عليها بعد ما زوجها زيدا فوقع فى نفسه حبها فباطل حاشا ذلك القلب المطهر من هذه العلاقة الفاسدة فكيف ينشأ معها وتنشأ معه ولم يقع حبه منها ثم يقع بعد ما كان لها زوج وقد كان قبل ذلك معها فى كل وقت ولم ينزل حينئذ حجاب إلى آخر ما قال ﴿ فَلَمَّا قَضَى زَيْدٌ مِنْهَا وَطَرًا ﴾ حاجة الرجال من النساء فطلقها وانقضت عدتها ﴿ زَوَّجْنَاكَهَا ﴾ فدخل عليها النبى صلى الله عليه وسلم وأشبع المسلمين خبزاً ولحماً بعد أن فرض لها الصداق . وفى البخارى عن أنس أن زينب كانت تفخر على سائر أزواجه تقول زوجنى الله وزوجكن أهالى لكن قال البغوى أعلم الله أنه يبدى ما خبأه الرسول ولم يظهر غير تزويجها منه فلو كان الذى أضمره الرسول محبتها أو إرادة طلاقها لأظهره إذ لا يخبر أنه يظهره ثم يكتمه فدل على أنه عاتبه على إخفاء ما أعلمه من أنها ستكون زوجته فأبداه ﴿ لِكَيْلَا يَكُونَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ حَرَجٌ فِي أَزْوَاجِ أَدْعِيَائِهِمْ إِذَا قَضَوْا مِنْهُنَّ وَطَرًا ﴾ علة للتزويج وهو دليل على أن حكم أمته حكمه إلا ما خصه الدليل ﴿ وَكَانَ أَمْرُ اللَّهِ ﴾ مقضيه ﴿ مَفْعُولًا ﴾ لا محالة ومنه ما أراده من تزويج زينب ﴿ مَا كَانَ عَلَى النَّبِيِّ مِنْ حَرَجٍ فِيمَا فَرَضَ اللَّهُ ﴾ أى أحله ﴿ لَهُ ﴾ أو قسم له وقدر ومنه قولهم فرض له الإمام كذا فى الديوان وفروض العسكر لأرزاقهم ﴿ سُنَّةَ اللَّهِ ﴾ سن ذلك

سنة أو كسنة الله نصب بنزع الخافض ﴿ فِي الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلُ ﴾ من الأنبياء أن لاحرج عليهم فيما أباح لهم من النساء والسرارى ﴿ وَكَانَ أَمْرُ اللَّهِ ﴾ فعله أو إرادته إذا تعلقت بشيء ﴿ قَدَرًا مَقْدُورًا ﴾ شيئا مقضيا أو حكما مبتوتا ﴿ الَّذِينَ ﴾ نعت للذين قبله أو بدل أومدح لهم منصوب أومرفوع ﴿ يُبَلِّغُونَ رِسَالَاتِ اللَّهِ وَيَخْشَوْنَهُ وَلَا يَخْشَوْنَ أَحَدًا إِلَّا اللَّهَ ﴾ وحده وليس فيه تعريض بعد تصريح كما ظن بعض المفسرين لأنه لم يكن ما أضمره مما أمر بتبليغه ولذا قالت عائشة لو كتم رسول الله شيئا لكتم هذه الآية يعنى التى تقدمت كيف وقد قال عليه السلام أنا أخشى الناس وأتقاهم ﴿ وَكَفَى بِاللَّهِ حَسِيبًا ﴾ حافظا لأعمال خلقه أو كافيا المخاوف أومحاسبا فينبغى أن لايخشى إلا منه ﴿ مَا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَا أَحَدٍ مِنْ رِجَالِكُمْ ﴾ حقيقة فليس أبازيد فلا يحرم عليه التزوج بزوجته زينب وأما أولاده الذكور فلم يبلغوا مبلغ الرجال بل ماتوا صغارا وما قيل إنهم لو عاشوا لكانوا أنبياء لايساعده النقل والعقل ، نبه عليه فى غاية الأمانى ﴿ وَلَكِنْ ﴾ كان ﴿ رَسُولَ اللَّهِ ﴾ وكل رسول أبو أمته من حيث أنه شفيق ناصح واجب التوقير والطاعة عليهم وزيد منهم ليس بينه وبينه ولادة ﴿ وَخَاتَمَ النَّبِيِّينَ ﴾ بكسر التاء للجمهور آخرهم الذى ختمهم وبفتحها لعاصم كآلة الختم أى به ختموا وعيسى عليه السلام إن نزل بعده كان على دينه مع أن المراد أنه آخر من نبئ ﴿ وَكَانَ اللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمًا ﴾ منه أن لانبي بعده ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اذْكُرُوا اللَّهَ ﴾ بالقلوب والألسن ﴿ ذِكْرًا كَثِيرًا ﴾ بأنواعه من التسبيح والتحميد فى أغلب الأوقات ﴿ وَسَبِّحُوهُ بُكْرَةً وَأَصِيلًا ﴾ أول النهار وآخره أى خصوصا فى هذين الوقتين الشريفين بهذا الذكر الذى هو التسبيح الذى هو أشرف الأذكار لكونه كمالا يليق بكبريائه وقيل المراد بالتسبيح الصلوات الخمس فى أوقاتها ﴿ هُوَ الَّذِي يُصَلِّي عَلَيْكُمْ ﴾ يرحمكم أو يعتنى بإصلاح أحوالكم ﴿ وَمَلَائِكَتُهُ ﴾ أى يستغفرون لكم ويهتمون بما يصلحكم والمراد بالصلاة المشترك وهو العناية بصلاح أمركم مستعار من الصلو أو المراد الترحم والانعطاف المعنوى مأخوذ من الصلاة المشتملة على الانعطاف الصورى الذى هو الركوع والسجود واستغفار الملائكة ودعاؤهم للمؤمنين ترحم عليهم وهو سبب للرحمة من حيث إنهم مجابو الدعوة ﴿ لِيُخْرِجَكُمْ ﴾ ليديم إخراجه إياكم ﴿ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ ﴾ من الكفر والمعصية إلى الإيمان والطاعة ﴿ وَكَانَ بِالْمُؤْمِنِينَ رَحِيمًا ﴾ حيث اعتنى بصلاح أمرهم واستعمل فى ذلك ملائكته المقربين ﴿ تَحِيَّتُهُمْ ﴾ من إضافة المصدر إلى المفعول أى يحيون ﴿ يَوْمَ يَلْقَوْنَهُ ﴾ بالموت أوبالخروج من القبور أو بدخول الجنة ﴿ سَلَامٌ ﴾ إخبار بالسلامة عن كل مكروه وآفة ﴿ وَأَعَدَّ لَهُمْ أَجْرًا كَرِيمًا ﴾ هو الجنة وما فيها من النعيم ﴿ يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَاهِدًا ﴾ على من أرسلت إليهم بتصديقهم وتكذيبهم حال مقدرة ﴿ وَمُبَشِّرًا ﴾ من صدقك بالجنة ﴿ وَنَذِيرًا ﴾ منذرا من كذبك بالنار ﴿ وَدَاعِيًا إِلَى اللَّهِ ﴾ إلى طاعته ﴿ بِإِذْنِهِ ﴾ بأمره وتيسيره قيد به الدعوة إيذانا بأنه أمر صعب لا يتأتى إلا بمعونة من جناب قدسه ﴿ وَسِرَاجًا مُنِيرًا ﴾ يستضاء به من ظلمات الجهالات وتقتبس من نوره

أنوار البصائر وكما يمد نور السراج الأبصار كذلك أمد الله بنور نبوته أنوار البصائر وإنما وصف السراج بالإنارة لأن من السرج ما لا يضيء كما إذا قل سليطه ودقت فتيلته وقيل السراج هو القرآن أى ذا سراج ويجوز أن يكون عطفا على كاف وأرسلناك أى أرسلناك والقرآن إما على سبيل التبعية وإما من باب متقلدا سيفا ورمحا أى وتاليا سراجا منيرا ﴿ وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ ﴾ عطف على محذوف أى فراقب أحوال أمتك وبشر المؤمنين منهم ﴿ بِأَنَّ لَهُمْ مِنَ اللَّهِ فَضْلًا كَبِيرًا ﴾ على سائر الأمم أو على أجر أعمالهم ﴿ وَلَا تُطِعِ الْكَافِرِينَ وَالْمُنَافِقِينَ ﴾ فيما يخالف شريعتك فائبت على ما أنت عليه تهييج له على مخالفتهم ﴿ وَدَعْ أَذَاهُمْ ﴾ إيذاءهم إياك لا تحتفل به أو إيذاءك إياهم مجازاة لهم مصدر مضاف إلى الفاعل أو المفعول ﴿ وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ ﴾ فإن فيه كفاية ﴿ وَكَفَى بِاللَّهِ وَكِيلًا ﴾ موكولا إليه الأمر فى الأحوال كلها وصف الله خير خلقه بصفات خمس ثم قابل كلا منها بما يناسبه قابل الشاهد بالمراقبة وحذف لأن مابعده دال عليه مفصلا والمبشر بالأمر ببشارة المؤمنين والنذير بالنهى عن طاعة الكفار وعدم المبالاة بهم والداعى إلى الله بتيسيره بالأمر بالتوكل عليه والسراج المنير بالاكتفاء به لأن من جعله نورا أضاء الشرق والغرب جدير بأن يكتفى به ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا نَكَحْتُمُ الْمُؤْمِنَاتِ ثُمَّ طَلَّقْتُمُوهُنَّ مِنْ قَبْلِ أَنْ تَمَسُّوهُنَّ ﴾ بفتح التاء وحذف الألف للجمهور وبضمها وإثبات الألف لحمزة والكسائى فى جميع القرآن أى تجامعوهن ﴿ فَمَا لَكُمْ عَلَيْهِنَّ مِنْ عِدَّةٍ تَعْتَدُّونَهَا ﴾ تحصونها بالأقراء وغيرها وإسناد العدة إلى الرجال للدلالة على أن العدة حق الأزواج كما أشعر به فما لكم وأما إن تبت المس أى الوطء أو سببه وهو الدخول والخلوة فلا بد من العدة وتخصيص المؤمنات والحكم عام للتنبيه على أن من شأن المؤمن أن لا ينكح إلا مؤمنة تخيرا للنطفة وفائدة ثم إزاحة ما عسى أن يتوهم من أن طول المدة يؤثر فى إيجاب العدة ﴿ فَمَتِّعُوهُنَّ ﴾ أعطوهن ما يستمتعن به وتقدم فى البقرة أقوال الأئمة فيه ﴿ وَسَرِّحُوهُنَّ سَرَاحًا جَمِيلًا ﴾ أى أخرجوهن من منازلكم إخراجا جميلا من غير ضرار ولا منع حق إذ ليس لكم عليهن عدة ولا يجوز تفسيره بالطلاق السنى لأنه مرتب على الطلاق والضمير لغير المدخول بهن ﴿ يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِنَّا أَحْلَلْنَا لَكَ أَزْوَاجَكَ اللَّاتِي آتَيْتَ أُجُورَهُنَّ ﴾ مهورهن الكائنات عندك من أى قبيلة كن والتقييد بإيتاء الأجر وإن صح النكاح بدونه إشارة إلى الواقع منه والأفضل اللائق به وبغيره كما فى قوله ﴿ وَمَا مَلَكَتْ يَمِينُكَ ﴾ من السرارى بغير تقييد بعدلك ولأمتك لكن بشرط أن تكون فى حقك ﴿ مِمَّا أَفَاءَ اللَّهُ عَلَيْكَ ﴾ من الكفار بالسبى على وجه القهر إذ ما غنم بالسيف أحل وأطيب من المشتراة من الجلب شرط فى الأفضلية لا فى الحل ﴿ وَ ﴾ أحللنا لك زائدا على من آتيت أجورهن قراباتك ﴿ بَنَاتِ عَمِّكَ وَبَنَاتِ عَمَّاتِكَ وَبَنَاتِ خَالِكَ وَبَنَاتِ خَالَاتِكَ اللَّاتِي هَاجَرْنَ مَعَكَ ﴾ بخلاف من لم يهاجرن من القرابات كأم هانئ فلا تحل له وكذا غير القرابات من المهاجرات وقيل هو من قبيل الأولى كما تقدم ويؤيد الأول ما روى عن ابن عباس قال:

كان النبي صلى الله عليه وسلم يتزوج فى أى الناس شاء فلما نزلت هذه الآية حرم عليه النساء إلا من سمى . اه . وهذا الذى أحل له من القرابات توسط بين الإفراط والتفريط فإن اليهود ينكحون بنت الأخ وبنت الأخت والنصارى لا ينكحون من القرابات إلا ما تباعد إلى سبعة أجداد ، وإفراد العم والخال مع جمع العمة والخالة للتخفيف وأوثرا بذلك للشرف نظيره عن اليمين والشمائل على ماتقدم وقيل لأن العم والخال فى الإطلاق اسم جنس كالشاعر وليس كذلك العمة والخالة والآية نسخ لحكم ما يأتى فى قوله «لا يحل لك النساء من بعد» بإباحتهن لكن إباحة ليست مطلقة فى جملة المهاجرات والمؤمنات ، والكافرات أهل الكتاب لا سبيل إليهن له ﴿ وَٱمْرَأَةً مُؤْمِنَةً ﴾ عطف على ما سبق ولا يمنعه التقييد بإن التى للاستقبال لأن المعنى أعلمناك بحل امرأة مؤمنة ﴿ إِنْ وَهَبَتْ نَفْسَهَا لِلنَّبِيِّ ﴾ لا تطلب مهراً أى إن اتفق ولذا نكرها ﴿ إِنْ أَرَادَ ٱلنَّبِيُّ أَنْ يَسْتَنْكِحَهَا ﴾ شرط للشرط الأول فى إثبات الحل فإن هبتها منه لا تحلها إلا بإرادته نكاحها فإن تلك الإرادة جارية مجرى القبول ، والعدول عن الخطاب إلى الغيبة للفظ النبي مكرراً إشارة إلى أن علة الإحلال هو شرف نبوته وأنه مما خص به لذلك ولذا رجع إلى الخطاب فى قوله ﴿ خَالِصَةً لَكَ ﴾ مصدر مؤكد أى خلص إحلالها لك من غير مهر أو إحلال من أحللنا لك من غير عدد خلوصاً أو صفة لمصدر محذوف أى هبة خالصة لك ﴿ مِنْ دُونِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴾ فلا تحل لهم المرأة بالهبة إلا مع الصداق ويجوز عند المالكية عقد النكاح بلفظ الهبة مع ذكر الصداق خلافاً للشافعية القائلين بأن ذلك من خاصية النبي قلنا لهم لا تشريف فى التخصيص باللفظ بل خصص بإسقاط الصداق لأنه أولى بالمؤمنين من أنفسهم وفى سياق الآية قرينة التشريف باتفاق وخيره الله فى القبول والرد توسعة ورداً لما يظن من أن مكارم الأخلاق قبول الهبة وردها هجنة وإذاية للواهب فأبطل الله ذلك الظن فى هبة المرأة إزالة للضرر ﴿ قَدْ عَلِمْنَا مَا فَرَضْنَا عَلَيْهِمْ ﴾ أى المؤمنين ﴿ فِي أَزْوَاجِهِمْ ﴾ من الأحكام بأن لا يزيدوا على أربع نسوة ولا يتزوجوها إلا بولى وشهود ومهر ﴿ وَ ﴾ فى ﴿ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ ﴾ من الإماء لا يملكون منها شيئاً إلا هبة أو إرثاً أو شراء مع كون الأمة ممن تحل لمالكها بأن تكون مسلمة لا كافرة وأن تستبرأ قبل الوطء ﴿ لِكَيْلَا يَكُونَ عَلَيْكَ حَرَجٌ ﴾ متعلق بخالصة وما بينهما اعتراض يؤكد معنى اختصاصه بما اختص به وأنه مما يليق بمنصبه ناشئاً عن علم تام بحال من فضل عليه من المؤمنين وعلى القول بأن « خالصة » مؤكد للإحلالات الأربع و« لكيلا » متعلق به فالمختص به منها هى أمر الواهبة وعدم الحصر فى أربع نسوة وأمته تساويه فيما عدا ذلك فليس الفرق حينئذ بينه وبين المؤمنين التوسيع عليه فقط بل التفريق بمعان تقتضى التوسيع عليه والتضييق عليهم تارة والعكس أخرى ﴿ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا ﴾ لما يعسر التحرز عنه ﴿ رَحِيمًا ﴾ بالتوسعة فى مظان الحرج ﴿ تُرْجِي ﴾ بالياء لنافع وحمزة والكسائى وحفص وبالهمز للباقين أى تؤخر ﴿ مَنْ تَشَاءُ مِنْهُنَّ ﴾ أى أزواجك عن نوبتها فلا تقسم لها أو تترك مضاجعتها ﴿ وَتُؤْوِي ﴾ تضم ﴿ إِلَيْكَ مَنْ تَشَاءُ ﴾ منهن

فتأتيها أو تضاجعها أو المعنى تطلق من تشاء وتمسك من تشاء ﴿ وَمَنِ ٱبْتَغَيْتَ ﴾ طلبت رجعتها ﴿ مِمَّنْ عَزَلْتَ ﴾ طلقت ﴿ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكَ ﴾ فى شىء من ذلك أى تراجع من تشاء من المطلقات أو من عزلت عن القسمة فلاجناح عليك فى طلبها بعد ذلك : خُيِّر فى ذلك بعد أن كان القسم عليه واجباً. قال ابن عطية : وعلى كل معنى فالآية معناها التوسعة على النبى صلى الله عليه وسلم . اه . وقيل هذه الآية نزلت فى الواهبات أنفسهن له صلى الله عليه وسلم أى تؤخر من تشاء منهن بالرد وتتوى بالقبول ومن ابتغيت فعدت إليها بعد الرد فلا جناح عليك فى ذلك كله لكن أشهر الأقاويل أنها فى القسم بين اللاتى عنده ولم يدخل بواحدة ممن وهبت نفسها له وإن كان مباحاً له لأنه راجع إلى إرادته هذا هو الصحيح المحفوظ ، وأما قول الشعبى دخل ببعض منهن وأرجى بعضاً منهن فشاذ لا يلتفت إليه قاله القسطلانى وغيره ﴿ ذَٰلِكَ ﴾ التفويض إليك ﴿ أَدْنَىٰ ﴾ أقرب إلى ﴿ أَن تَقَرَّ أَعْيُنُهُنَّ وَلَا يَحْزَنَّ ﴾ أى يقل حزنهن ﴿ وَيَرْضَيْنَ بِمَآ ءَاتَيْتَهُنَّ ﴾ مما ذكر المخير فيه ﴿ كُلُّهُنَّ ﴾ تأكيد لفاعل « يرضين » لأن ذلك حكم كلهن فيه سواء ثم إن سويت بينهن علمن أن ذلك تفعله تفضلا منك وإحساناً وإن رجّحت بعضهن علمن أنه بحكم الله فتطمئن نفوسهن ﴿ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ مَا فِى قُلُوبِكُمْ ﴾ من الميل إلى البعض دون البعض فاجتهدوا فى الإحسان . وقد روى عن عائشة رضى الله عنها أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان يقسم بين نسائه ثم يقول « اللهم هذا فعلى فيما أملك فلا تلمنى فيما تملك ولا أملك » ﴿ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيمًا ﴾ بالمصالح وبذات الصدور ﴿ حَلِيمًا ﴾ لا يعاجل بالعقوبة وهو حقيق بأن يُتَّقى ﴿ لَّا يَحِلُّ ﴾ بالياء للجمهور والتاء لأبى عمرو ﴿ لَكَ ٱلنِّسَآءُ مِنۢ بَعْدُ ﴾ بعد التسع اللاتى اخترنك ، هذا قول ابن عباس رضى الله عنهما ، أو من بعد ما أحللنا لك فى الآية المتقدمة قاله أبىّ بن كعب ﴿ وَلَآ أَن تَبَدَّلَ ﴾ بترك إحدى التاءين فى الأصل ﴿ بِهِنَّ مِنْ أَزْوَاجٍ ﴾ بأن تطلقهن أو بعضهن وتنكح بدل من طلقت ، وقيل حرم عليه غير الأجناس المذكورة من الأعرابيات بدل المهاجرات والغرائب بدل القرائب والكتابيات بدل المؤمنات ، ونكاح الإماء بدل الاكتفاء بملك اليمين ، وعن أبىّ بن كعب إنما نهى عن التبدل الذى كان فى الجاهلية كان أحدهم يقول للآخر : انزل عن زوجتك لى وأنزل عن زوجتى لك ، وقد روى البزار بإسناده أن عيينة بن حصن دخل على رسول الله صلى الله عليه وسلم وعنده عائشة فقال له رسول الله : أين الاستئذان يا عيينة ؟ فقال : ما استأذنت على أحد من مضر منذ أدركت يا رسول الله ثم نظر إلى عائشة فقال : ما هذه الجميلة إلى جنبك ؟ فقال له : عائشة أم المؤمنين ؛ فقال : انزل لى عنها وأنزل لك عن أحسن الخلق ، فقال : إن الله حرّم ذلك . فلما أدبر قالت عائشة : من هذا ؟ قال أحمق مطاع فى قومه ﴿ وَلَوْ أَعْجَبَكَ حُسْنُهُنَّ ﴾ حسن الأزواج المستبدلة وهو حال من فاعل « تبدل » أى مفروضاً إعجابك بهن ﴿ إِلَّا مَا مَلَكَتْ يَمِينُكَ ﴾ استثناء من النساء لأنه يتناول الأزواج والإماء ، وقيل منقطع أى لكنها تحل لك وقد ملك بعدهن مارية وولدت له إبراهيم ومات فى حياته والآية على قول ابن عباس قيل

محكمة وقيل منسوخة بما تقدم فى « إنا أحللنا لك » وفى « ترجى من تشاء » على أحد التأويلات لأنه وإن تقدمها قراءة فهو مسبوق بها نزولا ﴿ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ رَّقِيبًا ﴾ حفيظاً ﴿ يَا أَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَدْخُلُوا بُيُوتَ ٱلنَّبِىِّ إِلَّآ أَن يُؤْذَنَ لَكُمْ ﴾ إلا وقت الإذن لكم ، ورده أبو حيان بأن « أن » المصدرية لا يقع موقع الظرف بل هو فى موضع الحال أى إلا مصحوبين بالإذن فى الدخول بالدعاء ﴿ إِلَىٰ طَعَامٍ ﴾ فتدخلوا متعلق بيؤذن لأنه فى معنى يدعى ﴿ غَيْرَ نَٰظِرِينَ ﴾ منتظرين ﴿ إِنَىٰهُ ﴾ إدراكه أو وقته أو نضجه وفى القاموس : أنى الشىء حان وأدرك وبلغ هذا أناه ويكسر غايته أو نضجه أو إدراكه اهـ . و « غير » حال من ضمير « لكم » وقيل من ضمير « لا تدخلوا » والاستثناء وقع على الوقت أو الحال كأنه قيل لا تدخلوها إلا وقت الإذن أو إلا مصحوبين بالإذن غير ناظرين والأول أولى إذ فى تعدد الاستثناء المفرغ كلام قاله فى غاية الأمانى ﴿ وَلَٰكِنْ إِذَا دُعِيتُمْ فَٱدْخُلُوا فَإِذَا طَعِمْتُمْ فَٱنتَشِرُوا ﴾ تفرقوا ، والآية خطاب لقوم كانوا يتحينون طعام رسول الله صلى الله عليه وسلم يدخلون ويقعدون منتظرين لإدراكه مخصوصة بهم وبأمثالهم وإلا لما جاز لأحد أن يدخل بيوته بالإذن لغير الطعام ولا اللبث بعد الطعام لهم ﴿ وَلَا ﴾ تمكثوا ﴿ مُسْتَـْٔنِسِينَ لِحَدِيثٍ ﴾ من بعضكم لبعض أو حديث أهل البيت تسمعاً وتجسساً مجرور معطوف على « ناظرين » أو منصوب على الحال من مقدر كما قدرنا ﴿ إِنَّ ذَٰلِكُمْ ﴾ المكث ﴿ كَانَ يُؤْذِى ٱلنَّبِىَّ فَيَسْتَحْىِۦ مِنكُمْ ﴾ فيتحمله ولا يظهر لكم حيل من إخراجكم ﴿ وَٱللَّهُ لَا يَسْتَحْىِۦ مِنَ ٱلْحَقِّ ﴾ وهو إخراجكم أى لا يترك بيانه ترك من يستحيي ، وقرئ « يستحى » بياء واحدة لغة ، وأكثر المفسرين أن الآية نزلت فى شأن وليمة زينب بنت جحش حين بنى بها رسول الله صلى الله عليه وسلم ذبح شاة وأشبع الصحابة خبزاً ولحماً فخرج القوم بعد الطعام وتخلف ثلاثة يتحدثون فى بيته فثقل ذلك عليه واستحيي منهم فخرج لكى يخرجوا ثم عاد فوجدهم فى الحديث وزينب معهم فى البيت فشق ذلك عليه فأحسوا بذلك فخرجوا فدخل وأرخى الستر فنزلت ، وحرم النظر إلى النساء الأجانب وهى آية الحجاب وكان عمر بن الخطاب قبل ذلك يتمنى الحجاب ويقول : يا رسول الله يدخل عليك البر والفاجر فلو أمرت أمهات المؤمنين بالحجاب فوافقته الآية بقوله ﴿ وَإِذَا سَأَلْتُمُوهُنَّ ﴾ أى أزواج النبى صلى الله عليه وسلم وكذا غيرهن من الأجنبيات ﴿ مَتَٰعًا ﴾ حاجة ما : فتوى أو عارية أو شيئاً من المرافق ﴿ فَسْـَٔلُوهُنَّ مِن وَرَآءِ حِجَابٍ ﴾ ستر وهذا يدل على أن مكالمتهن من وراء الحجاب لا تجوز إلا فى حادثة تعرض أو مسألة يستفتى فيها ﴿ ذَٰلِكُمْ أَطْهَرُ لِقُلُوبِكُمْ وَقُلُوبِهِنَّ ﴾ من الخواطر الشيطانية والهواجس النفسانية الجارية من الإنسان مجرى الدم ، قال فى الأحكام : وهذا يدل على أنه لا ينبغى لأحد أن يثق بنفسه فى الخلوة مع من لا تحل له فإن مجانبة ذلك أحسن لحاله وأتم لعصمته ﴿ وَمَا كَانَ لَكُمْ ﴾ ما صح لكم ﴿ أَن تُؤْذُوا رَسُولَ ٱللَّهِ ﴾ بشىء كرهه فى وقت من الأوقات : توبيخ لهم على عدم احتياطهم والتوجه إلى مراقبة أحواله حتى يتركوا بالقرائن

مايرضى ويبادروا إليه ﴿ وَلَا أَنْ تَنْكِحُوا أَزْوَاجَهُ ﴾ التى دخل بهن ﴿ مِنْ بَعْدِهِ ﴾ بعد وفاته أو فراقه لأنهن أزواجه حيا وميتا ويجوز نكاح من لم يدخل بها على الأصح . قال ابن العربى فى أحكامه : وهذا من خصائصه عليه السلام لم يشاركه فيها احد ولا ينزل فى هذه الحرمة أحد منزلة رسول الله صلى الله عليه وسلم وإن غار وتأذى ﴿ أَبَدًا ﴾ ردّ لمن كان يريد نكاح بعضهن بعده ﴿ إِنَّ ذَٰلِكُمْ ﴾ أى إيذاءه ونكاح نسائه بعده ﴿ كَانَ عِنْدَ اللَّهِ ﴾ ذنبا ﴿ عَظِيمًا ﴾ وفيه تعظيم من الله لرسوله وإيجاب حرمته حيا وميتا ولذا بالغ فى الوعيد عليه بقوله ﴿ إِنْ تُبْدُوا شَيْئًا ﴾ فى نكاحهن بعده على ألسنتكم ﴿ أَوْ تُخْفُوهُ ﴾ فى صدوركم ﴿ فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمًا ﴾ فيعلم ذلك ويجازيكم به وفى هذا التعميم مع البرهان على المقصود مزيد تهويل ومبالغة فى الوعيد . ولما نزلت آية الحجاب وقال الآباء والأبناء والأقارب : يارسول الله ، ونحن لا نكلمهن إلا من وراء حجاب ؟ نزل ﴿ لَا جُنَاحَ عَلَيْهِنَّ ﴾ فى رفع الحجاب ﴿ فِي آبَائِهِنَّ وَلَا أَبْنَائِهِنَّ وَلَا إِخْوَانِهِنَّ وَلَا أَبْنَاءِ إِخْوَانِهِنَّ وَلَا أَبْنَاءِ أَخَوَاتِهِنَّ ﴾ وإنما لم يذكروا العم والخال لأنهما بمنزلة الوالدين ﴿ وَلَا نِسَائِهِنَّ ﴾ أى المؤمنات ﴿ وَلَا مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُنَّ ﴾ من الإماء والعبيد ، وعن سعيد بن المسيب : الإماء لا العبيد ، وقد تقدم فى سورة النور أى يجوز لمن ذكر أن يكلموهن من غير حجاب ﴿ وَاتَّقِينَ اللَّهَ ﴾ فيما أمرتنّ به سرا وعلانية واتركن الاسترسال ﴿ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدًا ﴾ حاضرا لا يخفى عليه شيء تخافوه فى السر كما تخافوه فى العلن . ولما شيد أركان شرف رسول الله بما اختصه به بين عباده المؤمنين من خصائص الأحكام بما عسى يذهب الوهم إلى أنه لا مزيد على هذا فى الإكرام أشار إلى أنه بلغت كرامته إلى أنه تعالى وملائكته مستمرون على إظهار شرفه بقوله ﴿ إِنَّ اللَّهَ وَمَلَائِكَتَهُ ﴾ المقربين من الملإ الأعلى والكروبيين ﴿ يُصَلُّونَ عَلَى النَّبِيِّ ﴾ محمد صلى الله عليه وسلم يعتنون بإظهار شرفه وتعظيم شأنه ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا صَلُّوا عَلَيْهِ وَسَلِّمُوا تَسْلِيمًا ﴾ اعتنوا أنتم بذلك أيضا فإنكم أولى بذلك قولوا : « اللهم صلى على محمد وسلم » ، والآية تدل على وجوب الصلاة والسلام عليه فذلك واجب على كل مكلف مرة فى العمر وكذا عند ذكره وما بقى ففضيلة ، وقد روى البخارى بإسناده إلى كعب بن عجرة . قلنا يارسول الله قد علمنا السلام عليك فكيف نصلى ؟ قال : قولوا : «اللهم صلى على محمد وعلى آل محمد كما صليت على إبراهيم إنك حميد مجيد ، اللهم بارك على محمد وآل محمد كما باركت على إبراهيم إنك حميد مجيد» . اهـ . وفيه طرق يزيد فيها بعض الروايات على بعض . وروى أبو داود والنسائى وابن ماجه والحاكم من حديث أبى مسعود الأنصارى رضى الله عنه عن رسول الله صلى الله عليه وسلم « إن من أفضل أيامكم يوم الجمعة فأكثروا علىّ من الصلاة فيه فإن صلاتكم معروضة علىّ » . وروى أبو داود عن أبى هريرة قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « ما من أحد يسلم علىّ إلا رد الله علىّ روحى حتى أرد عليه السلام » ، وعنه : « صلوا علىّ فإن صلاتكم تبلغنى حيث كنتم » رواه أبو داود أيضا . وعنه : «أولى الناس بى يوم

القيامة أكثرهم علىّ صلاة . رواه الترمذى وابن حبان فى صحيحه ، والحاصل أن الله أمر العالم العلوى والسفلى بالاشتغال بما فيه تبجيل رسوله كلا بما فى وسعه إشارة إلى أنه المقصود والنتيجة وهما المقدمتان اللتان رتبهما العالم الحكيم ولذا كان مقدما خلقا وإن تأخر بعثا ولفظ يصلون يدل على الاستمرار وأما الصلاة على غيره من الأنبياء فالأفضل أن يصلى عند جرى ذكرهم وأما غيرهم من الصحابة والتابعين فلا يجوز إلا تبعا لأنه صار شعار الرسل ، ولذا كره أن يقال محمد عز وجل وإن كان عزيزا جليلا ولأن الصلاة على غير الرسل صار شعار الرافضة ﴿ إِنَّ الَّذِينَ يُؤْذُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ ﴾ ذكر الله توطئة إشعارا بأن إيذاء رسوله إيذاء له ، وقيل إيذاء الله نسبة مالا يليق بجلاله إليه . وإيذاء رسوله بالقول كساحر شاعر وبالفعل كسر رباعيته وشج رأسه إلى غير ذلك وفيه حمل اللفظ الواحد على حقيقته ومجازه والذين يؤذون هم الكفار ﴿ لَعَنَهُمُ اللَّهُ ﴾ أبعدهم عن رحمته ﴿ فِى الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ وَأَعَدَّ لَهُمْ عَذَابًا مُهِينًا ﴾ ذا إهانة وهو النار على إهانتهم رسوله قصدا ، وأما إيذاء المؤمنين فلم يكن كذلك بل عن غفلة ﴿ وَالَّذِينَ يُؤْذُونَ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ ﴾ كالمنافقين وأهل الإفك والزناة ﴿ بِغَيْرِ مَا اكْتَسَبُوا ﴾ بغير جناية توجب ذلك قيده لأن إيذاء المؤمنين قد يكون حقا بخلاف إيذاء الله ورسوله ﴿ فَقَدِ احْتَمَلُوا بُهْتَانًا ﴾ تحملوا كذبا فى رمى البرىء ونحو ذلك ﴿ وَإِثْمًا مُبِينًا ﴾ فى السب والغيبة والتعرض للعفائف إذا خرجن ، ولذا قال ﴿ يَا أَيُّهَا النَّبِىُّ قُلْ لِأَزْوَاجِكَ وَبَنَاتِكَ وَنِسَاءِ الْمُؤْمِنِينَ يُدْنِينَ عَلَيْهِنَّ مِنْ جَلَابِيبِهِنَّ ﴾ جمع جلباب وهو الثوب الذى يستر جميع البدن فوق الخمار والإزار أى يرخين بعضها على الوجوه إذا خرجن لحاجتهن وكانت بيوت المدينة لا كنف لها حين نزول الآية وكانت النساء يخرجن لقضاء حاجة الإنسان إلى المناصع إذا اختلط الظلام وكان الفساق يتعرضون لهن لاشتباههن بالإماء بعدم التلفع بالجلابيب فأمر الله رسوله أن يأمرهن بما ذكر لامتياز سماتهن عن سمات نساء الجاهلية والإماء ﴿ ذَلِكَ أَدْنَى ﴾ أقرب إلى ﴿ أَنْ يُعْرَفْنَ ﴾ بأنهن حرائر ﴿ فَلَا يُؤْذَيْنَ ﴾ بالتعرض لهن لظن أنهن إماء ولذا لما مر عمر بن الخطاب بامرأة قائمة بين أعلاج فى سوق المدينة ضربها فشكت إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال لعمر : ماحملك على جلد ابنة عمك فقال : أنكرتها إذ لم أرعليها جلبابا وظننتها وليدة ﴿ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا ﴾ لما سلف منهن فى ترك الستر ﴿ رَحِيمًا ﴾ بهن إذ سترهن رعيا لمصالح العباد حتى الجزئيات منها .

﴿ لَئِنْ لَمْ يَنْتَهِ الْمُنَافِقُونَ ﴾ عن نفاقهم ﴿ وَالَّذِينَ فِى قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ ﴾ ضعف إيمان أو فجور وحب الزنا ﴿ وَالْمُرْجِفُونَ ﴾ المزلزلون قلوب المؤمنين بالأخبار السوء ﴿ فِى الْمَدِينَةِ ﴾ بقولهم قد أتاكم العدو وسرايا كم قتلوا وهزموا وغير ذلك من الأخبار الكاذبة ﴿ لَنُغْرِيَنَّكَ بِهِمْ ﴾ لنسلطنك على قتلهم وإجلائهم من العراء وهو ما يلصق به الشىء ولذا عدى بالباء ﴿ ثُمَّ لَا يُجَاوِرُونَكَ ﴾ لايساكنونك ﴿ فِيهَا ﴾ فى المدينة ﴿ إِلَّا ﴾ زماناً أو جواراً ﴿ قَلِيلًا ﴾ ثم يخرجون وهو عطف على « لنغرينك » الذى

هو جواب القسم وإيثار ثم للدلالة على أن جلاء الوطن أعظم المصائب عندهم وأحرى مفارقة جوار رسول الله صلى الله عليه وسلم ﴿ مَلْعُونِينَ ﴾ منصوب بما دل عليه لايجاورونك أى يخرجون ملعونين أو على الحال والاستثناء شامل له أى لايجاورونك إلا ملعونين أى مبعدين عن رحمة الله ﴿ أَيْنَمَا ثُقِفُوا ﴾ وجدوا ﴿ أُخِذُوا وَقُتِّلُوا تَقْتِيلًا ﴾ أى الحكم فيهم هذا على جهة الأمر به وإنما لم نجعل ملعونين منصوباً بما بعده لأن ما بعد كلمة الشرط لا يعمل فيما قبلها ﴿ سُنَّةَ اللَّهِ ﴾ مصدر مؤكد أى سن الله ذلك سنة ﴿ فِي الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلُ ﴾ من الأمم الماضية فى قتل منافقيهم المرجفين المؤمنين ﴿ وَلَنْ تَجِدَ لِسُنَّةِ اللَّهِ تَبْدِيلًا ﴾ لأنه لايبدلها ولا يقدر أحد أن يبدلها ﴿ يَسْأَلُكَ النَّاسُ ﴾ أهل مكة استهزاء أو اليهود تعنتا ﴿ عَنِ السَّاعَةِ ﴾ متى تكون ﴿ قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِنْدَ اللَّهِ ﴾ لم يطلع عليها نبيا مرسلا ولا ملكا مقربا ﴿ وَمَا يُدْرِيكَ ﴾ يعلمك ﴿ لَعَلَّ السَّاعَةَ تَكُونُ ﴾ توجد ﴿ قَرِيبًا ﴾ أى عن قريب وانتصابه على الظرف ويجوز أن يكون فى موضع الخبر أو هو خبر على حذف موصوف إن كانت ناقصة أى شيئاً قريباً ولعل معلق عن العمل كما يعلق التمنى . وفى الآية تهديد المستعجل وإسكات الممتحن ﴿ إِنَّ اللَّهَ لَعَنَ الْكَافِرِينَ وَأَعَدَّ لَهُمْ سَعِيرًا ﴾ ناراً شديدة الإيقاد والهيجان واللهيب ﴿ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا ﴾ أى ما لانهاية له ﴿ لَا يَجِدُونَ وَلِيًّا ﴾ يتولى حفظهم ﴿ وَلَا نَصِيرًا ﴾ يدفعها عنهم ﴿ يَوْمَ تُقَلَّبُ وُجُوهُهُمْ فِي النَّارِ ﴾ تصرف من جهة إلى أخرى كاللحم يشوى أو كما ترى البضع من اللحم فى القدر حال غليانها وذكر الوجوه لأنها أشرف الأعضاء ﴿ يَقُولُونَ يَا لَيْتَنَا أَطَعْنَا اللَّهَ وَأَطَعْنَا الرَّسُولَا ﴾ تمنيا وندما على مافات ﴿ وَقَالُوا ﴾ الأتباع منهم ﴿ رَبَّنَا إِنَّا أَطَعْنَا سَادَتَنَا ﴾ ولابن عامر سادتنا بجمع الجمع ﴿ وَكُبَرَاءَنَا ﴾ أشرافنا ﴿ فَأَضَلُّونَا السَّبِيلَا ﴾ طريق الهدى بما زينوا لنا وفى الرسولا والسبيلا ما تقدم فى الظنونا ﴿ رَبَّنَا آتِهِمْ ضِعْفَيْنِ مِنَ الْعَذَابِ ﴾ أى مثلى عذابنا للضلال والإضلال ﴿ وَالْعَنْهُمْ لَعْنًا كَبِيرًا ﴾ عده بالمثلثة للجمهور وبالموحدة لعاصم أى أشد اللعن وأعظمه ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَكُونُوا ﴾ مع نبيكم ﴿ كَالَّذِينَ آذَوْا مُوسَى ﴾ بتحريض امرأة على قذفه بنفسها فعصمه الله وبقولهم مايمنع موسى أن يغتسل معنا إلا أنه آدر ﴿ فَبَرَّأَهُ اللَّهُ مِمَّا قَالُوا ﴾ بأن وضع ثوبه على حجر ليغتسل ففر الحجر به حتى وقف به بين ملإ من بنى إسرائيل فأدركه موسى فأخذ ثوبه واستتر به فرأوه لا أدرة به وهى نفخة فى الخصية . رواه البخارى وغيره عن أبى هريرة ﴿ وَكَانَ عِنْدَ اللَّهِ وَجِيهًا ﴾ ذا جاه جديراً بأن يبرأ مما يشينه ، ومما أوذى به نبينا أنه قسم قسما فقال رجل هذه قسمة ماأريد بها وجه الله فغضب رسول الله صلى الله عليه وسلم وقال « يرحم الله موسى لقد أوذى أكثر من هذا فصبر » رواه البخارى ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ ﴾ فى كل الأمور لاسيما فيما يؤذى رسول الله ﴿ وَقُولُوا قَوْلًا سَدِيدًا ﴾ صوابا مستقيما لااعوجاج فيه ﴿ يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَالَكُمْ ﴾ بقبولها ومجيئها فى المستقبل مرضية ، وهذه الآية مقررة لما تقدمها مع اشتمالها على الوعد كاشتمال تلك على الوعيد فقوى الصارف عن الأذى ﴿ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ ﴾ بجعلها مكفرة باستقامتكم فى

القول والعمل ﴿وَمَنْ يُطِعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ فَازَ فَوْزاً عَظِيماً﴾ فى الدارين يعيش حميداً ويدوم سعيداً . ولما علق الفوز العظيم بالطاعة عظم شأنها وعبر عنها بالأمانة إشارة إلى أنها لازمة الرعاية واجبة الأداء بقوله ﴿ إِنَّا عَرَضْنَا الْأَمَانَةَ ﴾ الصلوات الخمس وغيرها مما فى فعله ثواب وفى تركه عقاب ﴿ عَلَى السَّمٰوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالْجِبَالِ ﴾ حين خلقت وخلق فيها فهم الخطاب ونطق الجواب فعرض تعالى عليها الحمل للأوامر والنواهى ولها الثواب إن أحسنت والعقاب إن أساءت ﴿ فَأَبَيْنَ أَنْ يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ ﴾ خفن ﴿ مِنْهَا ﴾ وقلن نحن مسخرات لما خلقنا له لا نحتمل فريضة ولا نبتغى ثواباً ولا نرضى لأنفسنا عقاباً ﴿ وَحَمَلَهَا الْإِنْسَانُ ﴾ آدم بعد عرضها عليه والتزم القيام بحقها مع ضعف بنيته ورخاوة قوته ﴿ إِنَّهُ كَانَ ظَلُوماً ﴾ لنفسه بما حمله حيث لم يف ولم يراع حقها مع التمكن ﴿جَهُولاً﴾ شديد الجهل بوخامة العاقبة ، وفيه إشارة إلى عظم شأن الطاعة وعلى هذا التأويل للجمهور فالأمر على ظاهره ، وقيل المراد بالأمانة الطاعة حقيقة لكن الأمر مبنى على الفرض والتصوير بأن مثلت حال التكليف فى صعوبته وثقل حمله بما لو عرض على الأجرام العظام لما حملته واحتمله الإنسان ، وقيل الأمر فى الجمادات بالأمانة بحسب مايليق بها وهو كونها مسخرة لما أريد منها وفى الإنسان بالانقياد للأوامر والنواهى فحيث جرت تلك الأجرام على ما سخرت له ولم يف الإنسان بما كان فى وسعه حكم عليه بالخيانة وعلى هذا الإباء والعرض والإشفاق مجازات متفرعة على تمثيل حال الحامد بالمأمور الذى إذا ورد عليه أمر سيده بادر بالامتثال وفيه تعريض بالإنسان وأنه كان أحق بذلك فالعرض مجاز عن نسبة الأمانة إليها وإباء الحمل عن عدم الاستعداد والقابلية وحمل الإنسان عن استعداده وكمال قابليته فى أصل نشأته على ما أشير إليه بفطرة الله التى فطر الناس عليها وكان ظلوماً حيث أفسد تلك الفطرة جهولا بما يترتب على ذلك . والله أعلم ﴿ لِيُعَذِّبَ اللَّهُ الْمُنَافِقِينَ وَالْمُنَافِقَاتِ ﴾ واللام للعاقبة متعلقة بـ « حملها » أو بـ « عرضنا » المترتب عليه حملها ﴿ وَالْمُشْرِكِينَ وَالْمُشْرِكَاتِ ﴾ المضيعين الأمانة ، والتعذيب نتيجة حمل الأمانة مجازاً ، كما أن التأديب نتيجة الضرب حقيقة والمعنى ليعذب الله الخائن الغادر ﴿ وَيَتُوبَ اللَّهُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ ﴾ المؤدين الأمانة ﴿ وَكَانَ اللَّهُ غَفُوراً رَحِيماً ﴾ حيث تاب عليهم من فرطاتهم وأثاب بالفوز على طاعاتهم .

[تم تفسير سورة الأحزاب]

سورة سبأ

مكية أو إلا «ويرى الذين أوتوا العلم» الآية
وهى أربع أو خمس وخمسون آية

﴿بِسْمِ اللهِ الرَّحْمٰنِ الرَّحِيمِ ۝ الْحَمْدُ لِلّٰهِ الَّذِى لَهُ مَا فِى السَّمٰوَاتِ وَمَا فِى الْأَرْضِ﴾ مادخل فى قوامهما وما تكوّن فيهما واستقر فإن كل ذلك نعمة دنيوية يستحق بها الحمد فى الدنيا ﴿وَلَهُ الْحَمْدُ فِى الْآخِرَةِ﴾ على النعم كالدنيا يحمده أولياؤه إذا دخلوا الجنة فكأنه قال هو المحمود على نعم الدارين وكما دل على الاختصاص تقديم الصلة فى «وله الحمد» كذلك دل عليه اللامان أيضاً فى «لله» و «له» ﴿وَهُوَ الْحَكِيمُ﴾ الذى أحكم أمور الدارين ﴿الْخَبِيرُ﴾ ببواطن الأشياء وفى الوصفين إشارة إلى أن كل ذلك إنما هو على وجه الحكمة وعلم تام بموضع الاستحقاق ﴿يَعْلَمُ مَا يَلِجُ﴾ يدخل ﴿فِى الْأَرْضِ﴾ من الأمطار التى تنفذ فى مواضع وتخرج فى أخرى والكنوز والدفائن والأموات وسائر ماله الأرض كفات ﴿وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا﴾ من النبات والعيون والغازات وغير ذلك ﴿وَمَا يَنْزِلُ مِنَ السَّمَاءِ﴾ من الأمطار والثلوج والملائكة والكتب والأرزاق والمقادير والصواعق ﴿وَمَا يَعْرُجُ فِيهَا﴾ يصعد كالملائكة والأبخرة والأدخنة وأعمال العباد وكل هذا تقرير لوصف الخبرة وتفصيل لما أجمله فى قوله مافى السموات وما فى الأرض وتبصير لأنواع النعم الكلية ﴿وَهُوَ الرَّحِيمُ﴾ المتفضل بإفاضتها لهم ﴿الْغَفُورُ﴾ لفرطاتهم وتقصيرهم فى شكرها وتقديم وصف الرحمة لأن الكلام فى الإنعام فذلكه أوفق بالمقام ﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَا تَأْتِينَا السَّاعَةُ﴾ إنكار لمجيئها واستبطاء سخرية بالوعد به ﴿قُلْ بَلَى﴾ ردّ لكلامهم وإثبات لما نفوه ﴿وَرَبِّى لَتَأْتِيَنَّكُمْ﴾ تقرير لإيجابه مؤكدا بالقسم مقرراً لوصف المقسم به بصفة تقرر إمكانه وتنفى استبعاده وهى ﴿عَالِمِ الْغَيْبِ﴾ بالرفع خبر محذوف أو مبتدأ خبره مابعده لنافع وابن عامر وبالجر للباقين صفة ولحمزة والكسائى علام بالمبالغة ﴿لَا يَعْزُبُ﴾ لايغيب ﴿عَنْهُ مِثْقَالُ ذَرَّةٍ﴾ أصغر نملة ﴿فِى السَّمٰوَاتِ وَلَا فِى الْأَرْضِ﴾ وهذا الوصف شاهد على وقوع المقسم عليه من غير ريب وأوثر من بين صفاته لأن العلم بالمغيبات شامل لوقت قيام الساعة ففيه رعاية أحسن الأقسام، وقرأ الكسائى: «لا يعزب» بكسر الزاى ﴿وَلَا أَصْغَرُ مِنْ ذٰلِكَ وَلَا أَكْبَرُ إِلَّا فِى كِتَابٍ مُبِينٍ﴾ بين هو اللوح المحفوظ والجملة مؤكدة لنفى العزوب ورفع «أصغر» بالابتداء لا بالعطف على مثقال لأن الاستثناء يمنعه ﴿لِيَجْزِىَ﴾ فيها ﴿الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ﴾ علة لتأتينكم وبيان لما يقتضى إثباتها كأنه قيل له القدرة التامة والعلم الشامل والحكمة تقتضى جزاء المحسن والمسىء

فقدتم المقتضى وارتفع المانع ﴿أُولَٰئِكَ لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ﴾ حسن فى الجنة لاتعب فيه ولا من عليه ﴿وَالَّذِينَ سَعَوْا فِي﴾ إبطال ﴿ءَايَٰتِنَا﴾ والصد عنها ﴿مُعَٰجِزِينَ﴾ بالمد هنا وفيما يأتى للجمهور مسابقين لنا ليفوتونا لظنهم ألا بعث ولا عقاب وبالقصر لابن كثير وأبى عمرو أى مقدرين عجزنا أو مثبطين عن الإيمان من أراده ﴿أُولَٰئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مِّن رِّجْزٍ﴾ من سيئ العذاب «ومن» للبيان ﴿أَلِيمٌ﴾ مؤلم بالجر للجمهور والرفع لابن كثير وحفص صفة لرجز على الأول «ولعذاب» على الثانى والجر أولى لعدم الفصل ولأنه أمكن معنى ﴿وَيَرَى﴾ يعلم ﴿الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ﴾ وهم الصحابة ومن بعدهم أو علماء أهل الكتاب الذين آمنوا وهو عطف على «وقال الذين كفروا» ﴿الَّذِي أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ﴾ القرآن مفعول أول ﴿هُوَ﴾ للفصل ﴿الْحَقَّ﴾ مفعول ثان ليرى ويجوز عطف الجملة على ليجزى والمعنى وليعلم الذين أوتوا العلم إذا عاينوها علما لا مزيد عليه فى الإتقان فيحتجوا به على من أنكرها أو ليعلم من لم يؤمن بها من الأحبار فيزداد حسرة ﴿وَيَهْدِي إِلَىٰ صِرَاطِ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ﴾ هو دين الإسلام التوحيد والتقوى ﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ أى قال بعضهم على جهة التعجب لبعض ﴿هَلْ نَدُلُّكُمْ عَلَىٰ رَجُلٍ﴾ يعنون محمدا ذكروه متجاهلين به كأنه غريب جاء بأمر بديع لا تقبله العقول ﴿يُنَبِّئُكُمْ﴾ يخبركم أنكم ﴿إِذَا مُزِّقْتُمْ﴾ قطعتم ﴿كُلَّ مُمَزَّقٍ﴾ أى تمزيق على أنه مصدر أى صرتم ترابا أو طرحتم كل مطرح بأن ذهبت بكم السيول وأجواف الطيور وسفت بكم الريح على أنه مكان ﴿إِنَّكُمْ لَفِي خَلْقٍ جَدِيدٍ﴾ ومادل عليه هو العامل فى إذا وتقديمه للدلالة على البعد والمبالغة فيه وإنما قلنا عامل الظروف محذوف لأن ما قبله لم يقارنه وما بعده مضاف إليه . أو محجوب بينه وبينه بإنّ وجديد بمعنى فاعل من جد فهو جديد أو مفعول من جد النساج الثوب إذا قطعه ﴿أَفْتَرَىٰ﴾ بفتح الهمزة للاستفهام واستغنى بها عن همزة الوصل ﴿عَلَى اللَّهِ كَذِبًا﴾ فى ذلك ﴿أَم بِهِ جِنَّةٌ﴾ جنون يلقيه على لسانه حصروا خبره الكاذب فى الكذب قصدا أو غير قصد إذ لا اعتقادلهم فى صدقه والعدول عن الفعل الثانى إيماء إلى أنه الكائن الثابت عندهم إذ لم يجربوا عليه كذبا قبل النبوة وليس فى ذلك دلالة لمن يقول بالواسطة بين الصدق والكذب وهو كل خبر لا يكون المخبر فيه عن بصيرة بالمخبر عنه لما علمت من أن الافتراء أخص من الكذب . ثم أضرب عن حصرهم الباطل إلى ما هو الحق بقوله ﴿بَلِ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ﴾ المشتملة على البعث والعذاب ﴿فِي الْعَذَابِ﴾ فيها ﴿وَالضَّلَالِ الْبَعِيدِ﴾ عن الصواب بحيث لا يرجى الخلاص منه ومن ماهو مؤداه من العذاب الذى قدم عليه فى اللفظ للمبالغة فى استحقاقهم له وتوفر أسبابه ووصف الضلال بالبعد وهو للضال إسناد مجازى . ثم ذكرهم بما يعاينونه محيطا بهم مما يدل على كمال القدرة على الإحياء بقوله ﴿أَ﴾ عموا ﴿فَلَمْ يَرَوْا﴾ ينظروا ولم يتفكروا ﴿إِلَىٰ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ﴾ ما أحاط بجوانبهم فوقا وتحتا يمينا وشمالا سفرا وحضرا ﴿مِّنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ﴾ أهم أشد خلقا أم هما ﴿إِن نَّشَأْ نَخْسِفْ بِهِمُ الْأَرْضَ﴾ كما خسفنا بقارون ﴿أَوْ نُسْقِطْ عَلَيْهِمْ كِسَفًا﴾ بسكون السين للجمهور

وفتحها لحفص قطعاً ﴿ مِنَ السَّمَاءِ ﴾ والأفعال الثلاثة بالنون للجمهور والياء للأخوين حمزة والكسائى والمعنى أنهم علموا ماذكر فهلا استدلوا به على القدرة على الإعادة ﴿ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ ﴾ المرئى ﴿ لَآيَةً ﴾ دلالة ﴿ لِكُلِّ عَبْدٍ مُنِيبٍ ﴾ راجع إلى ربه بالتوبة كثير التأمل فى أمره وآياته يستدل بها على قدرته على البعث وما يشاء ثم ذكر ما يرغب فى الإنابة وما يتفضل الله به على المنيب عما أتبعه من قصة داود لاشتماله على إنابته وما ترتب عليها بقوله ﴿ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا دَاوُۥدَ مِنَّا فَضْلًا ﴾ على الناس بالجمع بين النبوة والملك والكتاب والصوت الحسن الخارق وقلنا ﴿ يَٰجِبَالُ أَوِّبِى ﴾ رجعى ﴿ مَعَهُۥ ﴾ فى التسبيح لقوله «إنا سخرنا الجبال معه يسبحن» والترجيع هو الرجوع إلى الصوت الأول أو معناه سيرى معه حيث سار لأن التأويب سير النهار كله وهو بدل من فضلا أو من آتينا بإضمار قولنا أو قلنا ﴿ وَالطَّيْرَ ﴾ بالنصب عطف على محل «ياجبال» يؤيده القراءة بالرفع عطفا على لفظها أو على فضلا أو معمول مقدر مثل « وسخرنا » أو مفعول معه لـ «أوبى» وفيه دلالة على عظم سلطانه حيث جعل الجبال والطير كالعقلاء المنقادين لأمره تسبح معه ﴿ وَأَلَنَّا لَهُ ٱلْحَدِيدَ ﴾ جعلنا فى يده كالعجين والشمع يصرفه كما يشاء من غير نار وآلة طرق بإلانته أو بقوله وقلنا ﴿ أَنِ ٱعْمَلْ سَٰبِغَٰتٍ ﴾ دروعا كوامل يجرها لابسها على الأرض أو أمرناه بعملها فـ «أن» مفسرة أو مصدرية ﴿ وَقَدِّرْ فِى ٱلسَّرْدِ ﴾ أى انسج الدروع بأن تناسب بين الحلق أواعمل المسامير على قدر الحلق فلاتجعلها دقاقا فتغلق ولا غلاظا فتخرق لكن رد هذا بأن درعه لم تكن مسمرة ويؤيده قوله « وألنا له الحديد » ﴿ وَٱعْمَلُوا ﴾ آل داود معه ﴿ صَٰلِحًا إِنِّى بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴾ فأجازيكم عليه . وعن وهب بن منبه أن داود كان يتنكر ويسأل الركبان عن حال داود وكانوا يثنون عليه فأرسل الله ملكا فى صورة رجل فسأله فقال هو خير الناس لولا أنه يأكل هو وأهله من بيت المال فسأل الله أن يعلمه صنعة يأكل منها هو وأهله فعلمه الله صنعة الدروع فكانت سببا لمعاشه وآلة للجهاد فكان يفرغ من درع فى يوم فيبيعه بأربعة آلاف يتفق على نفسه وأهله ثم يصرف الباقى إلى مصالح بنى إسرائيل . ﴿ وَ ﴾ سخرنا ﴿ لِسُلَيْمَٰنَ ٱلرِّيحَ ﴾ بالنصب للجمهور والرفع لشعبة بتقدير تسخير والريح ﴿ غُدُوُّهَا ﴾ من دمشق إلى الشام أى سيرها من الغداة بمعنى الصباح إلى الزوال ﴿ شَهْرٌ وَرَوَاحُهَا ﴾ إلى بيت المقدس من الزوال إلى الغروب ﴿ شَهْرٌ ﴾ أى مسيرته ﴿ وَأَسَلْنَا ﴾ بمعنى أذبنا ﴿ لَهُۥ عَيْنَ ٱلْقِطْرِ ﴾ النحاس المذاب أجريت له من معدنه ثلاثة أيام بلياليها كجرى الماء ولذا سماه عينا وإسالة وكان ذلك باليمن بصنعاء وعمل الناس إلى اليوم مما أعطى سليمان ﴿ وَمِنَ ٱلْجِنِّ مَن يَعْمَلُ بَيْنَ يَدَيْهِ ﴾ مبتدأ وخبر أو من يعمل عطف على الريح ومن الجن حال قدمت اهتماما لأن كونه من الجن هو المستغرب ﴿ بِإِذْنِ رَبِّهِۦ ﴾ بإرادته أو أمره وتيسيره وفيه إشارة إلى أن تسخيرهم أمر فى غاية البعد لولا تسهيله لما تيسر ﴿ وَمَن يَزِغْ مِنْهُمْ ﴾ يعدل ﴿ عَنْ أَمْرِنَا ﴾ له بطاعته ﴿ نُذِقْهُ مِنْ عَذَابِ ٱلسَّعِيرِ ﴾ الحريق النار فى الآخرة أو سوط نار فى الدنيا يضربه به ملك ضربة تحرقه ﴿ يَعْمَلُونَ لَهُۥ مَا يَشَآءُ مِن مَّحَٰرِيبَ ﴾

قصور مرتفعة حصينة وأماكن شريفة يصعد إليها بدرج . قال ابن العربي في الأحكام : شاهدت محراب داود الذي أتمه سليمان في بيت المقدس بناء عظيما في جواره بلدة طول الحجر خمسون ذراعا وعرضه ثلاثة عشر ذراعا وكلما قام بناؤه صغرت حجارته ﴿وَتَمَاثِيلَ﴾ جمع تمثال وهو كل شيء مثلته بشيء أي صورا الملائكة والأنبياء ليراها الناس على تلك الصور على ما اعتادوا من العبادات فيعبدوا نحو عبادتهم ولم يكن اتخاذ الصور حراما في شريعته وهو حرام في شريعتنا إن كان بصور الحيوان وماعداه مكروه ﴿وَجِفَانٍ﴾ جمع جفنة أي صحاف ﴿كَالْجَوَابِ﴾ جمع جابية وهي حوض كبير يجتمع على الجفنة ألف رجل يأكلون منها ﴿وَقُدُورٍ رَاسِيَاتٍ﴾ ثابتات على الأثافي لها قوائم لاتتحرك عن أماكنها ولاتنزل عن الأثافي لعظمها من الجبال باليمن يصعد إليها بالسلاليم ، وقلنا ﴿اعْمَلُوا﴾ يا ﴿آلَ دَاوُدَ شُكْرًا﴾ لله على ماآتاكم بطاعته نصب على العلة أو على المصدر لأن اعملوا معناه اشكروا أو مفعول به أي اعملوا أنتم ما تشكرون به لأن الجن تعمل لكم ﴿وَقَلِيلٌ مِنْ عِبَادِيَ الشَّكُورُ﴾ المتوفر على أداء الشكر بقلبه ولسانه وجوارحه في أكثر أوقاته القائم به بقدر وسعه ، وعن ابن عباس الشكور من شكر في الأحوال كلها . وقد روى البخاري ومسلم باسنادهما إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال أحب الصلاة إلى الله صلاة داود كان ينام نصف الليل ويقوم ثلثه وينام سدسه وأحب الصيام إلى الله صيام داود كان يصوم يوما ويفطر يوما ﴿فَلَمَّا قَضَيْنَا عَلَيْهِ﴾ على سليمان ﴿الْمَوْتَ﴾ مكث قائما على عصاه حولا ميتا والجن تعمل تلك الأعمال الشاقة على عادتها ومنها المسجد الذي في بيت المقدس الذي أسسه داود وأوصى سليمان بإتمامه فاستعمل فيه الشياطين فلما دنا موته ولم تكمل سأل ربه أن يعمي موته على الجن حتى يتموه فأمرهم فبنوا عليه صرحا من قوارير ليس له باب واتكأ على عصاه يصلي فقبض في الصلاة فأكلت الأرضة عصاه فخر على الأرض فعلموا أنه ميت ولذا قال ﴿مَا دَلَّهُمْ عَلَى مَوْتِهِ﴾ أعاد المظهر لئلا يتوهم عود الضمير إلى سليمان ﴿إِلَّا دَابَّةُ الْأَرْضِ﴾ مصدر أرضت الخشبة بالبناء للمفعول أكلتها الأرضة دابة تسمى سرفة والأرض فعلها ولذلك يقال لها الأرضة ﴿تَأْكُلُ مِنْسَأَتَهُ﴾ بالألف بدل الهمزة لنافع وأبي عمرو وبالهمز المفتوح للباقين إلا أن ابن ذكوان سكنه عن ابن عامر أي عصاه لأنها يطرد بها من نسأت البعير إذا طردته ﴿فَلَمَّا خَرَّ﴾ ميتا ﴿تَبَيَّنَتِ الْجِنُّ﴾ علمت علما جليا بعد التباس الأمر عليهم ﴿أَنْ﴾ مخففة أي أنهم ﴿لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ الْغَيْبَ﴾ كما يزعمون ويوهمون الناس لعلموا موته وقت وقوعه لأنه من الغيب ولو علموه ﴿مَا لَبِثُوا فِي الْعَذَابِ الْمُهِينِ﴾ العمل الشاق له حولا لظنهم حياته وعلم كونه حولا بحساب ماأكلته الأرضة من العصا بعد موته يوما وليلة مثلا مات وعمره ثلاث وخمسون سنة وملك وهو ابن ثلاث عشرة وابتدأ عمارة بيت المقدس لأربع مضين من ملكه ذكره البيضاوي وغيره وفي الجواهر حكى الثعلبي أن الشياطين قالت للأرضة لو كنت تأكلين الطعام لأتيناك بأطيب الطعام والشراب ولكنا سننقل إليك الماء والطين فهم

ينقلون إليها ذلك حيث كانت شكرا لها . اهـ . ثم عقب الله بقصة سبأ الذين نُعِّموا ولم يشكروا فانتقم منهم تنبيها لأولى الألباب بقوله ﴿ لَقَدْ كَانَ لِسَبَإٍ ﴾ بالصرف للجمهور وعدمه لابن كثير وأبي عمرو أي لأولاد سبأ بن يشجب بن يعرب بن قحطان ﴿ فِي مَسْكَنِهِمْ ﴾ بالجمع على التوزيع للجمهور والإفراد مع فتح الكاف لحمزة وحفص وكسرها للكسائي لإرادة البلد أو مسكن كل واحد أي مواضع سكناهم باليمن يقال لها مأرب بينها وبين صنعاء مسيرة ثلاثة ﴿ ءَايَةٌ ﴾ دالة على قدرة الله عاضدة للبرهان السابق في قصتي داود وسليمان عليهما السلام ﴿ جَنَّتَانِ ﴾ بدل من آية أو خبر محذوف أي هي جنتان ﴿ عَن يَمِينٍ وَشِمَالٍ ﴾ لكل رجل بستانان أحدهما عن يمين مسكنه والآخر عن شماله ، أو كانت البساتين على جانبي الوادي متصلة متضامة كأنها جنتان وقيل لهم على لسان أنبيائهم وهم أحد عشر نبيا أو على لسان الحال ﴿ كُلُوا مِن رِّزْقِ رَبِّكُمْ وَاشْكُرُوا لَهُ ﴾ على ما رزقكم من النعم طلبا للمزيد . ومحافظة على العتيد . بلدة سبا التي فيها رزقهم ﴿ بَلْدَةٌ طَيِّبَةٌ ﴾ استئناف لبيان موجب الشكر كانت أخصب البلاد وأطيبها لم تكن فيها عاهة ولا هامة من عقرب أو حية أو برغوث ولا ذباب ولا بعوض ولا قمل ولا سباع يمر الغريب بها وفي ثيابه قمل فيموت لطيب هوائها ﴿ وَ ﴾ ربكم الذي رزقكم وطلب شكركم ﴿ رَبٌّ غَفُورٌ ﴾ فرطات من يشكره ﴿ فَأَعْرَضُوا ﴾ عن الشكر وكفروا ﴿ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ سَيْلَ الْعَرِمِ ﴾ أي الشيء الصعب من العزامة الصعوبة . قال ابن عطية : كأنه صفة للسيل أضيف الموصوف إلى الصفة مبالغة وقيل صفة للمطر الشديد الذي كان منه ذلك السيل أو جمع عرمة وهي كل ما يمسك الماء من بناء وغيره إلى وقت حاجته أو هو اسم واديهم الذي يجيء السيل من قبله الممسوك بما ذكر وذلك أنه كان في اليمن واد عظيم بين جبلين ترجع إليه أوديتهم وكانوا قبل يقتتلون على مائه فسد ماؤه العرم بناه بالصخور والقار « حمير » أبو القبائل اليمنية كلها أو بنته « بلقيس بنت شراحيل » بين الجبلين عند مجتمع سيول الوادي وجعل له أبوابا ثلاثة بعضها فوق بعض تسد وبنى دونه بركة ضخمة جعل فيها اثني عشر مخرجا على عدة أنهارهم يفتحونها إذا احتاجوا إلى الماء وإذا استغنوا سدوها فإذا جاء المطر اجتمع إلى العرم ماء أودية اليمن كلها فاحتبس السيول من ورائه ويصير بحرا عظيما يأخذ الماء جنبيه يرتفع إلى أعلى السد فيفتح الباب الأعلى يجري ماؤه في البركة يسقون منه ثم الأوسط ثم الأسفل فلا ينفد الماء من السنة إلى المقبلة وكانوا يقسمون على أنهارهم فبقوا على ذلك مدة في أرغد عيش فطغوا وكفروا ففتح الله سدهم من تحت وهم لا يدرون فسال الماء وفاض وأغرق جنتيهم وأموالهم وكثيرا منهم ممن لم يمكنهم الفرار ودفن بيوتهم بالرمل ومزقوا حتى صاروا مثلا عند العرب كما يأتي فجعلوا يقولون صار بنو فلان أيادي سبأ قال تعالى ﴿ وَبَدَّلْنَاهُمْ بِجَنَّتَيْهِمْ جَنَّتَيْنِ ذَوَاتَيْ ﴾ تثنية ذوات على الأصل ﴿ أُكُلٍ خَمْطٍ ﴾ ثمر مر بشيع عطف بيان أو صفة على تنوين أكل للجمهور وعلى إضافته لأبي عمرو فالأكل بمعنى المأكول والخمط شجر الأراك وثمره البرير ﴿ وَأَثْلٍ ﴾ هو الطرفاء عطف على أكل لا على

خمط لأن الطرفاء لا ثمر له أو نوع من الطرفاء أعظم منه وأجود عوداً له ثمر قليل الغناء ﴿ وَشَيْءٍ مِنْ سِدْرٍ قَلِيلٍ ﴾ عطف على خمط وهو النبق وله ثمر حسن والحكمة فى إبقائه زيادة العذاب عليهم كما رأوه تذكروا ما فاتهم ولذلك قلله وتسمية ما بدلوا بجنتين تهكم أو مشاكلة ﴿ذَٰلِكَ﴾ التبديل ﴿جَزَيْنَاهُمْ بِمَا كَفَرُوا﴾ لأجل كفرهم النعمة أو الرسل بالتكذيب وتقديم المفعول للتعظيم لا للتخصيص ﴿ وَهَلْ يُجَازِيٓ ﴾ بالياء للجمهور والنون لحمزة والكسائى وحفص مع نصب ﴿ إِلَّا الْكَفُورَ ﴾ أى لا يجازى بمثل ما فعلنا بهم إلا البليغ فى الكفران أو الكفر أو ما يناقش إلا هو وما يصيب المؤمن تمحيص لذنوبه والكافر هو المعاقب بجميع ما فعله من السوء ﴿ وَجَعَلْنَا بَيْنَهُمْ ﴾ بين سبإ وهم باليمن وهذا وما بعده وصف لحالهم قبل السيل وهو أن الله مع ما كان منحهم من الجنتين والنعم الخاصة بهم أصلح لهم البلاد المتصلة وعمرها بينهم ﴿وَبَيْنَ الْقُرَى الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا﴾ بالماء والشجر وهى قرى الشام التى يسيرون إليها للتجارة ﴿ قُرًى ظَاهِرَةً ﴾ يظهر بعضها لبعض أو ظاهرة لأبناء السبيل لكونها على متن الطريق ﴿ وَقَدَّرْنَا فِيهَا السَّيْرَ ﴾ بحيث يقيلون فى واحدة ويبيتون فى أخرى إلى أن يبلغوا الشام لا يحتاجون إلى حمل زاد وماء وهم أربابها كلها فى ذلك الوقت وقلنا لهم بلسان المقال أو الحال ﴿ سِيرُوا فِيهَا لَيَالِيَ وَأَيَّامًا ءَامِنِينَ ﴾ فى ليل أو نهار لا يختلف الأمن فسئموا العافية وبطروا النعمة وسألوا الله خراب تلك القرى بما حكى عنهم بقوله ﴿ فَقَالُوا رَبَّنَا بَاعِدْ﴾ بالمد وتخفيف العين للجمهور وبالقصر والتشديد لأبى عمرو وابن كثير وهشام ﴿ بَيْنَ أَسْفَارِنَا ﴾ إلى الشام : اجعلها مفاوز ، سألوا ذلك ليتطاولوا على الفقراء بركوب الرواحل وحمل الزاد فأجابهم الله بتخريب القرى المتوسطة بينهم ﴿ وَظَلَمُوا أَنفُسَهُمْ ﴾ حيث حملوها الشقاء بعد النعيم والرخاء ﴿ فَجَعَلْنَاهُمْ أَحَادِيثَ ﴾ لمن بعدهم فى ذلك حتى كانوا إذا بالغوا فى وصف القوم بالتفرق قالوا ذهبوا أيدى سبأ ﴿ وَمَزَّقْنَاهُمْ كُلَّ مُمَزَّقٍ ﴾ فرقناهم كل تفريق وهم عشرة قبائل أولاد رجل واحد هو سبأ تيامن منهم ستة وهم حمير وكندة والأشعريون والأزد ومذحج وأنمار ، وتشاءم منهم أربعة : غسان وعاملة ولخم وجذام . فلحق غسان بالشام وجذام بتهامة والأزد بعمان وأنمار بيثرب ، ومنهم الأوس والخزرج وهم بنو حفنة ابن عمرو قدم بهم إليها جدهم عمرو بن عامر وعمرو هذا هو مزيقياء وعامر هو ماء السماء بن حارثة بن امرئ القيس البهلول ابن ثعلبة بن مازن بن الأزد ، يقال له أيضاً بالسين وكلهم ملوك متوجون وهو من ولد كهلان بن سبإ بن يشجب بن يعرب بن قحطان وكان الملك لكهلان بعد حمير ثم عاد فى بنى حمير لأن ملك اليمن منحصر فى سبع قبائل وهى : حمير بن سبإ وهمدان وكندة ولخم ودوس وحفنة ومذحج ، وكان بيت الملك الأعظم فيهم حمير فمنهم الملوك التبابعة منهم الحارث الرايش أول من أدخل الغنائم فى اليمن قد بشر بالنبى صلى الله عليه وسلم ، ومنهم ذو المنار أبرهة كان يمشى بالليل توقد له الجن النيران ، ومنهم ذو الإذعار غزا بلاد النسناس ورجع إلى اليمن بسبيهم وجوههم فى صدورهم ، فذعر الناس منهم ، ومنهم

أفريقش الذى نقل البربر من الشام إلى المغرب وبنى إفريقية ، ومنهم شمر يرعش بانى سمرقند ، ومنهم تبّع الأول الذى ملك الأرض كلها ، ومنهم تبع الأوسط واسمه أسعد يكنى أبا كرب من أعظم ملوك الأرض وهو الذى كسا البيت الحرام وآمن بالنبى صلى الله عليه وسلم بقوله :

شهدتُ على أحمدٍ أنهُ ٭ رسولٌ من الله بارِى النَّسَم

إلى آخر أبياته . ومنهم تبّع الأصغر عمرو بن حسان آخر التبابعة ، ومنهم بلقيس . ثم ملك بعدها ياسر بن عمرو ، ثم أزال الله عنهم الملك بما تقدم من تمزيقهم الذى كان بين عيسى ومحمد عليهما السلام ، وملك اليمن بعدهم الحبشة ثم فارس إلى أن جاء الإسلام ورجع الأمر إلى قريش إلى آخر الدهر وقد وجد حجر عظيم فى دمار وهى اليمن مكتوب فيه بكتاب الزبور :

« لمن ملك دمار . لحمير الأخيار . لمن ملك دمار . للحبشة الفجار . لمن ملك دمار . لفارس الأحرار . لمن ملك دمار . لقريش التجار » .

وأباد الله بدولة الإسلام ملك فارس والروم والقبط والحبش والبربر . لله الأمر من قبل ومن بعد . ﴿ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ ﴾ المذكور ﴿ لَآيَاتٍ ﴾ عبراً ﴿ لِكُلِّ صَبَّارٍ ﴾ عن المعاصى ﴿ شَكُورٍ ﴾ على النعم ﴿ وَلَقَدْ صَدَقَ ﴾ بالتخفيف للجمهور والتشديد للكوفيين ﴿ عَلَيْهِمْ ﴾ على أهل سبأ ومن هو على طريقتهم ﴿ إِبْلِيسُ ظَنَّهُ ﴾ بأنهم بإغوائه يتبعونه ﴿ فَاتَّبَعُوهُ إِلَّا فَرِيقًا مِنَ الْمُؤْمِنِينَ ﴾ « من » للبيان أى هم لم يتبعوه أو للتبعيض يعنى الخالص منهم ﴿ وَمَا كَانَ لَهُ عَلَيْهِمْ مِنْ سُلْطَانٍ ﴾ أى ما كان تسليطنا إياه عليهم ﴿ إِلَّا لِنَعْلَمَ ﴾ علم ظهور وقد كان معلوماً بالغيب ﴿ مَنْ يُؤْمِنُ بِالْآخِرَةِ مِمَّنْ هُوَ مِنْهَا فِى شَكٍّ ﴾ أى لنميز بين المؤمن والشاك أو لنعلمهما موصوفين بالصفتين أو علماً يترتب عليه الجزاء أو ليؤمن من قدر إيمانه ويشك من قدر ضلاله ؛ فالمراد من حصول العلم حصول ماتعلق به مبالغة وفى أسلوب نظم الصلتين إشارة إلى نكتة لاتخفى ﴿ وَرَبُّكَ عَلَى كُلِّ شَىْءٍ حَفِيظٌ ﴾ رقيب فعيل بمعنى الفاعل وعد ووعيد ﴿ قُلْ ﴾ للمشركين ﴿ ادْعُوا الَّذِينَ زَعَمْتُمْ ﴾ أى زعمتموهم آلهة حذف المفعولان لطول الصلة بصفة الثانى الذى هو ﴿ مِنْ دُونِ اللَّهِ ﴾ أى غيره لينفعوكم بزعمكم بجلب نفع أو دفع ضر ثم أجاب عنهم إشعاراً بتعين الجواب وعدم قبوله المكابرة بقوله ﴿ لَا يَمْلِكُونَ مِثْقَالَ ﴾ وزن ﴿ ذَرَّةٍ ﴾ من خير أو شر ﴿ فِى السَّمَاوَاتِ وَلَا فِى الْأَرْضِ ﴾ فى أمر ما وذكرهما للعموم العرفى أو لأن آلهتهم سماوية كالكواكب وأرضية كالأصنام أو لأن الأسباب سماوية وأرضية والجملة استئناف لبيان حالهم وتبكيتهم ﴿ وَمَا لَهُمْ فِيهِمَا مِنْ شِرْكٍ ﴾ لاخلقاً ولا ملكا ﴿ وَمَا لَهُ ﴾ تعالى ﴿ مِنْهُمْ ﴾ من الآلهة ﴿ مِنْ ظَهِيرٍ ﴾ معين على تدبير أمرهما ﴿ وَلَا تَنْفَعُ الشَّفَاعَةُ عِنْدَهُ ﴾ تعالى رد لقولهم إن آلهتهم تشفع عنده ﴿ إِلَّا لِمَنْ أَذِنَ لَهُ ﴾ بفتح الهمزة للجمهور وضمها لأبى عمرو وحمزة والكسائى أى من أذن الله له فى الشفاعة فاعلا أو مفعولا أى أذن له أن يشفع لعلو شأنه أو يشفع لإيمانه ﴿ حَتَّى

﴿ إِذَا فُزِّعَ ﴾ بالبناء للمفعول للجمهور والفاعل لابن عامر أى كشف الفزع ﴿ عَنْ قُلُوبِهِمْ ﴾ الضمير للشافعين أو المشفوع لهم أو الملائكة لتقدم ذكرهم ضمناً وهو غاية لمقدر دل عليه المقام أى يتربصون فزعين فى رداء الهيبة حتى إذا كشف عنهم ذلك الفزع بالإذن فى الشفاعة ﴿ قَالُوا ﴾ يسأل بعضهم بعضاً استبشاراً ﴿ مَاذَا قَالَ رَبُّكُمْ ﴾ فى الشفاعة ﴿ قَالُوا ﴾ القول ﴿ الْحَقَّ ﴾ قد أذن فيها ولا يثار لفظ الرب هنا شأن لايخفى وسوق هذا الكلام فى أمر الشفاعة هو الملائم هنا ولا ينافى ما تظاهرت به الأحاديث . عن أبى هريرة أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : إذا قضى الله أمراً فى السماء ضربت الملائكة أجنحتها خضعاناً كأنه سلسلة على صفوان فإذا فزع عن قلوبهم قالوا : ماذا قال ربكم ؟ قالوا : الحق . وعن ابن مسعود مثله لأن كليهما واقع ، وأما كون ذلك تفسيراً للآية فلا لعدم الارتباط ، قاله فى غاية الأمانى ﴿ وَهُوَ الْعَلِيُّ ﴾ فوق خلقه بالقهر ﴿ الْكَبِيرُ ﴾ شأنه الذى يحق له أن لا يتكلم أحد إلا بإذنه ﴿ قُلْ مَنْ يَرْزُقُكُمْ مِنَ السَّمَاوَاتِ ﴾ المطر ﴿ وَالْأَرْضِ ﴾ النبات : تقرير لقوله لا يملكون مثقال ذرة ﴿ قُلِ اللَّهُ ﴾ إذ لا جواب سواه وإن لم يتكلموا به مخافة الإلزام ﴿ وَإِنَّا ﴾ الموحدين للعبادة لمن توحد بالرزق والقدرة ﴿ أَوْ إِيَّاكُمْ ﴾ المشركين به الجماد ﴿ لَعَلَى هُدًى أَوْ فِى ضَلَالٍ مُبِينٍ ﴾ بيّن وهذا بعد البرهان النير تنزل وإنصاف بترديد الأمر بين الفريقين بأن المحق واحد اتفاقاً فليتأمل من المصيب منا ومن المخطئ ومثله يسمى كلام المنصف لأن من سمعه من موال أو مناوئ يقول للخصم قد أنصفك ولا يرى أشد تمكناً منه للخصم ولا أوصل بالمناظر إلى الغرض منه ولا أدفع لشغب المكابر وأقل لشوكته بالهوينا منه وفيه تلطف بهم داع إلى الإيمان إذا وفقوا وما قيل إن الكلام على اللف والنشر فيه نظر واختلاف الحرفين لأن الهادى كمن صعد مناراً يتطلع على الأشياء كلها أو ركب جواداً يركضه حيث شاء والضال كأنه منغمس فى ظلام لا يرى شيئاً أو محبوس فى مطمورة لا يستطيع أن يخرج منها ﴿ قُلْ لَا تُسْئَلُونَ عَمَّا أَجْرَمْنَا ﴾ أذنبنا ﴿ وَلَا نُسْئَلُ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴾ فإذاً لاغرض لى فى دعائكم إلا النصح وفيه تنزل أدخل فى الإنصاف من الأول حيث أسند الإجرام إلى أنفسهم والعمل إلى الخصم المخاطب ﴿ قُلْ يَجْمَعُ بَيْنَنَا رَبُّنَا ﴾ يوم القيامة للحجاج والخصام ﴿ ثُمَّ يَفْتَحُ ﴾ يحكم ﴿ بَيْنَنَا بِالْحَقِّ ﴾ فيدخل المحقين الجنة والمبطلين النار ﴿ وَهُوَ الْفَتَّاحُ ﴾ الحاكم بالصواب الفيصل فى القضايا المنغلقة ﴿ الْعَلِيمُ ﴾ بما يحكم به لا يحتمل تطرق الخلل إلى حكمه ثم استفسر عن شبهتهم بعد إلزام الحجة زيادة فى التبكيت بقوله ﴿ قُلْ أَرُونِىَ ﴾ أعلمونى ﴿ الَّذِينَ أَلْحَقْتُمْ بِهِ شُرَكَاءَ ﴾ لأرى بأى صفة ألحقتموهم بالله فى استحقاق العبادة المراد تنبيههم على الخطأ ولذا قال ﴿ كَلَّا ﴾ ردع لهم عن المشاركة بعد إبطال المقايسة ﴿ بَلْ هُوَ اللَّهُ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴾ الموصوف بالغلبة وكمال القدرة والحكمة وأين تلك الجمادات من هذه الصفات والضمير لله أو للشأن ﴿ وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا ﴾ رسالة ﴿ كَافَّةً ﴾ عامة ﴿ لِلنَّاسِ ﴾ تكف خروج أحد منهم وكافة على هذا صفة مصدر كما رأيت . وعن الزجاج حال من الكاف والتاء للمبالغة أى كاف لهم أى جامعاً لهم

فى الإبلاغ والإنذار . وعن ابن مالك : حال من الناس قدم للاهتمام به وأباه أكثر النحاة لأنه كتقدم المجرور على الجار ﴿ بَشِيراً ﴾ للمؤمنين بالجنة ﴿ وَنَذِيراً ﴾ للكافرين بالعذاب ﴿ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ ذلك لعدم التدبر فى شأنك فيحملهم جهلهم على مخالفتك ﴿ وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَٰذَا الْوَعْدُ ﴾ المبشر به والمنذر عنه ﴿ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ ﴾ فيه خطاب له ولأمته ﴿ قُل لَّكُم مِّيعَادُ يَوْمٍ ﴾ أى وعده أوزمان وعد وإضافته إلى اليوم للبيان ﴿ لَّا تَسْتَأْخِرُونَ عَنْهُ سَاعَةً وَلَا تَسْتَقْدِمُونَ ﴾ عليه إذا فاجأكم وهو جواب تهديد جاء مطابقا لما قصدوا بسؤالهم من التعنت والإنكار لا الإرشاد فقصد بالجواب التهديد لا الإرشاد وهو يوم القيامة ﴿ وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا ﴾ لما سألوا أهل الكتاب عن بعث الأموات فقالوا : جاء بذلك كتابنا ﴿ لَن نُّؤْمِنَ بِهَٰذَا الْقُرْآنِ وَلَا بِالَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ ﴾ تقدمه من التوراة والإنجيل الدالين على البعث . قال تعالى فيهم ﴿ وَلَوْ تَرَىٰ إِذِ الظَّالِمُونَ مَوْقُوفُونَ عِندَ رَبِّهِمْ ﴾ أى فى موضع المحاسبة فى ذلك اليوم الذى ينكرونه ﴿ يَرْجِعُ بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ الْقَوْلَ ﴾ يتحاورون فى الجواب كل ينسب الذنب إلى الآخر ﴿ يَقُولُ الَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا ﴾ الأتباع ﴿ لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا ﴾ للرؤساء ﴿ لَوْلَا أَنتُمْ ﴾ أى إضلالكم وصدكم عن الإيمان ﴿ لَكُنَّا مُؤْمِنِينَ ﴾ بالرسول ﴿ قَالَ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا لِلَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا أَنَحْنُ صَدَدْنَاكُمْ عَنِ الْهُدَىٰ بَعْدَ إِذْ جَاءَكُم ﴾ لا ﴿ بَل كُنتُم مُّجْرِمِينَ ﴾ بسوء اختياركم وإعراضكم عن الهدى بإيثار التقليد عليه ولذلك أدخلوا همزة الإنكار على الاسم لأن الفرض إنكار كونهم صادين لا إنكار الفعل من أصله وإنما أضيف بعد إلى إذ وهو لازم الظرفية كما يضاف الزمان إلى الجمل آتساعاً ﴿ وَقَالَ الَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا بَلْ ﴾ إضراب عن إضرابهم أى لم يكن إجرامنا الصاد بل ﴿ مَكْرُ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ ﴾ أى مكركم لنا فيهما دائبا حتى غيرتم علينا رأينا ﴿ إِذْ تَأْمُرُونَنَا أَن نَّكْفُرَ بِاللَّهِ وَنَجْعَلَ لَهُ أَندَاداً ﴾ شركاء وإضافة المكر إلى الليل والنهار للملابسة والاتساع وإجرائه مجرى المفعول به أوجعل الليل والنهار ماكرين على الإسناد المجازى ﴿ وَأَسَرُّوا النَّدَامَةَ ﴾ أى أضمرها الفريقان على الضلال والإضلال أو أظهروها وأزالوا سرها إذ همزته تصلح للإثبات والسلب ﴿ لَمَّا رَأَوُا الْعَذَابَ وَجَعَلْنَا الْأَغْلَالَ فِي أَعْنَاقِ الَّذِينَ كَفَرُوا ﴾ أى فى أعناقهم والإظهار للدلالة على الموجب وتشديد الذم والتسوية بينهم ﴿ هَلْ يُجْزَوْنَ إِلَّا ﴾ جزاء ﴿ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴾ وتعدية يجزى لتضمن معنى يقتضى أو لنزع الخافض ﴿ وَمَا أَرْسَلْنَا فِي قَرْيَةٍ مِّن نَّذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتْرَفُوهَا ﴾ رؤساؤها المنعمون ﴿ إِنَّا بِمَا أُرْسِلْتُم بِهِ كَافِرُونَ ﴾ تسلية للرسول بأن كل من قبله من الرسل كابد من الجهلة مثل ما تكابده وخصص المترفين بالتكذيب وإن كان فى غيرهم لاتصافهم بمعظم مايدعو إليه وهو التكبر والتفاخر بزخارف الدنيا والاستهانة بمن لم يحظ بذلك منها كما حكى عنهم ذلك بقوله ﴿ وَقَالُوا نَحْنُ أَكْثَرُ أَمْوَالًا وَأَوْلَاداً ﴾ اللذين هما زينة الدنيا فنحن أولى بما تدعون به إن أمكن ﴿ وَمَا نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ ﴾ فى الآخرة لأن من أكرمنا بالأموال والأولاد لايهيننا وهذا سفه منهم وجهل بأن الدنيا بحذافيرها لاتساوى عندالله جناح بعوضة وتلك الدار دار

أوليائه فكيف تقاس إحداهما على الأخرى ﴿قُلْ﴾ ردًّا لظنهم ﴿إِنَّ رَبِّي يَبْسُطُ﴾ يوسع ﴿الرِّزْقَ﴾ حظوظ الدنيا ﴿لِمَنْ يَشَاءُ﴾ لا لكرامة ولا هوان ﴿وَيَقْدِرُ﴾ يضيقه لمن يشاء لا لهوان ولا كرامة فهما بمقتضى المشيئة لا يلاحظ فيهما المحبة بخلاف الثواب الذي في مقابلة العمل الصالح ﴿وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ﴾ وهم الكفار وأشباههم ﴿لَا يَعْلَمُونَ﴾ فيظنون أن كثرة الأموال والأولاد للشرف والكرامة وكثيرا ما يكون للاستدراج. قال في الجواهر: واعلم أن المال الزائد على قدر الحاجة قل أن يسلم صاحبه من الآفات إلا من عصمه الله، وفي الحديث: «إن الشيطان قال: لن ينجو مني الغني من إحدى ثلاث: إما أن أزين له في ماله فيمنعه أو ينفقه في غير حقه أو يكسبه بغير حقه» اه ﴿وَمَا أَمْوَالُكُمْ وَلَا أَوْلَادُكُمْ بِالَّتِي﴾ أي بالخصلة التي ﴿تُقَرِّبُكُمْ عِنْدَنَا زُلْفَىٰ﴾ تقريبا مفعول مطلق أو التي كناية عن التقوى أي ليست هي التقوى حتى تقربكم عندنا زلفى ولا مقرب سواها ﴿إِلَّا مَنْ آمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا﴾ استثناء على الأول من مفعول تقرب أي لا تقرب أحدا إلا المؤمن الصالح الذي ينفق ماله في سبيل الله ويعلم ولده الخير ويربيه على الصلاح وعلى الثاني استثناء من أموالكم على معنى إلا أموال من آمن وفيه مبالغة حيث جعل مال المؤمن وولده نفس التقوى أو الاستثناء منقطع أي لكن من آمن وعمل صالحا ﴿فَأُولَٰئِكَ لَهُمْ جَزَاءُ الضِّعْفِ﴾ لما يستحقون وأقل الضعف العشر وأكثره لا يعلمه إلا الله والمصدر مضاف إلى المفعول ﴿بِمَا عَمِلُوا﴾ من الحسنات ﴿وَهُمْ فِي الْغُرُفَاتِ﴾ بالجمع للجمهور والإفراد لحمزة لإرادة الجنس: قصور الجنة ﴿آمِنُونَ﴾ من كل مكروه ﴿وَالَّذِينَ يَسْعَوْنَ فِي آيَاتِنَا﴾ القرآن بالرد والطعن فيها ﴿مُعَاجِزِينَ﴾ فائتين لنا أو مقدرين عجزنا على قراءة ابن كثير وأبي عمرو بالقصر مشددا ﴿أُولَٰئِكَ فِي الْعَذَابِ مُحْضَرُونَ﴾ على الدوام لا يغيبون ﴿قُلْ إِنَّ رَبِّي يَبْسُطُ الرِّزْقَ﴾ يوسعه ﴿لِمَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَيَقْدِرُ﴾ يضيقه ﴿لَهُ﴾ بعد البسط يوسع عليه تارة ويضيق عليه أخرى فهذا في شخص واحد باعتبار وقتين وما سبق في شخصين في رد مقالة الكفار وما هنا في الحث على الإنفاق بدليل قوله ﴿وَمَا أَنْفَقْتُمْ مِنْ شَيْءٍ﴾ في الخير قل أو كثر ﴿فَهُوَ يُخْلِفُهُ﴾ عوضا عاجلا أو آجلا. وفي الحديث المشهور «إن لله ملكين ينزلان كل صباح ينادي أحدهما اللهم أعط كل منفق خلفا والآخر ينادي اللهم أعط كل ممسك تلفا» أخرجه البخاري ﴿وَهُوَ خَيْرُ الرَّازِقِينَ﴾ فإن غيره واسطة إنما يكون رازقا مجازا يقال كل إنسان يرزق عائلته من رزق الله أي فقراءه مؤنث عائل اسم فاعل عال افتقر. واذكر ﴿يَوْمَ يَحْشُرُهُمْ﴾ الرؤساء والضعفاء أو العابدين والمعبودين ﴿جَمِيعًا ثُمَّ نَقُولُ لِلْمَلَائِكَةِ﴾ تبكيتا للمشركين وإقناطا لهم عن شفاعة الملائكة ﴿أَهَٰؤُلَاءِ إِيَّاكُمْ كَانُوا يَعْبُدُونَ﴾ وتخصيص الملائكة لأنهم أشرف شركائهم ﴿قَالُوا﴾ متبرئين منهم مواجهة أحوج ما كانوا إليهم ﴿سُبْحَانَكَ﴾ تنزيها لك عن الشريك ﴿أَنْتَ وَلِيُّنَا﴾ الذي والينا ﴿مِنْ دُونِهِمْ﴾ متجاوزين عنهم لا موالاة بيننا وبينهم وهذا تبرئة عن الرضى بعبادتهم ثم أضربوا عن ذلك ونفوا أنهم عبدوهم على الحقيقة بقولهم ﴿بَلْ كَانُوا يَعْبُدُونَ الْجِنَّ﴾ الشياطين حيث أطاعوهم في عبادتهم إيانا وقيل يتمثلون لهم في الأصنام ويخيلون أنهم

الملائكة أو صوّروا صورهم وقالوا هذه صور الملائكة فعبدوهم ﴿ أَكْثَرُهُمْ ﴾ أى الكفار ﴿ بِهِم ﴾ بالجن ﴿ مُّؤْمِنُونَ ﴾ مصدقون فيما يقولون لهم . قال تعالى ﴿ فَٱلْيَوْمَ لَا يَمْلِكُ بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ ﴾ أو بعض المعبودين لبعض ﴿ نَفْعًا ﴾ كشفاعة ﴿ وَلَا ضَرًّا ﴾ إذ الأمر فيه كله لله والدار دار جزاء وهو المجازى وحده وقدم النفع اهتماماً لأنه الغرض من العبادة ﴿ وَنَقُولُ ﴾ عطف على « لا يملك » مبين للغرض من تمهيده ﴿ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا ﴾ بالكفر ﴿ ذُوقُوا عَذَابَ ٱلنَّارِ ٱلَّتِى كُنتُم بِهَا تُكَذِّبُونَ ، وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَاتُنَا ﴾ من القرآن ﴿ بَيِّنَٰتٍ قَالُوا مَا هَٰذَآ ﴾ أى محمد ﴿ إِلَّا رَجُلٌ يُرِيدُ أَن يَصُدَّكُمْ عَمَّا كَانَ يَعْبُدُ ءَابَآؤُكُمْ ﴾ من الأصنام ﴿ وَقَالُوا مَا هَٰذَآ ﴾ القرآن ﴿ إِلَّآ إِفْكٌ ﴾ كذب لا يطابق الواقع ﴿ مُّفْتَرًى ﴾ فى نسبته إلى الله تعالى ﴿ وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا لِلْحَقِّ ﴾ الذى جاء به الرسول من الإسلام أو القرآن ﴿ لَمَّا جَآءَهُمْ ﴾ سموه إفكا باعتبار معناه وقالوا فيه باعتبار لفظه وإعجازه ﴿ إِنْ هَٰذَآ إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ ﴾ ظاهر سحريته ، وفى تكرير الفعل وإيثار المظهر موصولا بالكفر وفى « لما » من معنى المبادرة على التكذيب من غير تأمل إنكار شديد وتعجيب بليغ منه ، قال تعالى ﴿ وَمَآ ءَاتَيْنَٰهُم مِّن كُتُبٍ ﴾ فيها دليل على صحة الإشراك ﴿ يَدْرُسُونَهَا وَمَآ أَرْسَلْنَآ إِلَيْهِمْ قَبْلَكَ مِن نَّذِيرٍ ﴾ يدعوهم إليه وينذرهم على تركه ، فمن أين كذبوك ؟ هذا غاية فى تجهيلهم ولذا وعدهم بقوله ﴿ وَكَذَّبَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ﴾ كما كذبوا ﴿ وَمَا بَلَغُوا ﴾ أى هؤلاء ﴿ مِعْشَارَ مَآ ءَاتَيْنَٰهُمْ ﴾ من القوة وطول العمر والمال ﴿ فَكَذَّبُوا رُسُلِى ﴾ عطف للمقيد على المطلق وما بينهما اعتراض لحين كذبوهم جاءهم إنكارى بالتدمير ﴿ فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ ﴾ إنكارى عليهم بالعقوبة أى هو واقع موقعه فليحذر هؤلاء مثله : نزل الفعل منزلة القول ﴿ قُلْ إِنَّمَآ أَعِظُكُم ﴾ أرشدكم وأنصح لكم ﴿ بِوَٰحِدَةٍ ﴾ خصلة أو صفة هى ﴿ أَن تَقُومُوا ﴾ من المجلس أو المعنى تنهضوا بالرأى والهمة مخلصين ﴿ لِلَّهِ ﴾ لأجله من غير اتباع هوى ولا تقليد ﴿ مَثْنَىٰ ﴾ اثنين اثنين ﴿ وَفُرَٰدَىٰ ﴾ واحداً واحداً لأن الكثرة تشوّش الخواطر وتفرق البال والاثنان كل منهما يعرض رأيه على الآخر ، والواحد يؤامر نفسه ﴿ ثُمَّ تَتَفَكَّرُوا ﴾ فى أمر صاحبكم وما جاء به فتعلموا حقيقته وهى ﴿ مَا بِصَاحِبِكُم ﴾ محمد ﴿ مِّن جِنَّةٍ ﴾ جنون : لما عرفتم من رجاحة عقله وذلك لا يدعه أن يتصدى لادعاء أمر خطير من غير تحقق ووثوق ببرهان فيفتضح على رءوس الأشهاد ويلقى نفسه إلى الهلاك و « ما » نافية ، وللاستفهام وجه حسن : أى أىّ شىء فيه من آثار الجنون ﴿ إِنْ هُوَ إِلَّا نَذِيرٌ لَّكُم بَيْنَ يَدَىْ عَذَابٍ شَدِيدٍ ﴾ أى قدامه كما قال « بعثت فى نسيم الساعة » ﴿ قُلْ ﴾ لهم ﴿ مَا سَأَلْتُكُم ﴾ على الإنذار والتبليغ ﴿ مِّنْ أَجْرٍ فَهُوَ لَكُمْ ﴾ تركته لكم والمراد نفى السؤال عنه أى لا أسألكم عليه أجراً ويجوز كون « ما » موصولة والذى سأله منهم هو المودة فى القربى ، وقوله « إلا من شاء أن يتخذ إلى ربه سبيلا » ولا شك أنه لهم لا له . والحاصل أن هذا إثبات ثان لنفى التبدع لأنه إما لغرض أو لا والثانى جنون والأول لم يكن ﴿ إِنْ أَجْرِىَ ﴾ ما ثوابى ﴿ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِ ﴾ الذى أرسلنى

﴿ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ ﴾ مطلع يعلم صدقى وضميرى ﴿ قُلْ إِنَّ رَبِّى يَقْذِفُ بِالْحَقِّ ﴾ يلقيه على من يجتبيه من عباده أو يرمى به الباطل فيدمغه ، أو يرمى به إلى أقطار الآفاق فيكون وعداً بإظهار الإسلام وإفشائه ﴿ عَلَّامُ الْغُيُوبِ ﴾ بضم الغين للجمهور وكسرها لحمزة وأبى بكر : ما غاب عن خلقه لا يخفى عليه شىء فهو يعلم من يستحق الاصطفاء وما هو جدير بالدمغ والإذهاب و « علام » صفة محمولة على محل إنّ واسمها أو بدل من المستكن فى « يقذف » أو خبر ثان أو خبر محذوف ﴿ قُلْ جاءَ الْحَقُّ ﴾ الإسلام ﴿ وَمَا يُبْدِئُ الْبَاطِلُ ﴾ الكفر ﴿ وَمَا يُعِيدُ ﴾ أى زهق ولم يبق له أثر فهو كناية عن الهلاك كقولهم لا يأكل ولا يشرب كناية عن الميت ، أو الباطل ما عبد من دون الله لا يقدر على الإنشاء ولا على الإعادة اللذين هما من لوازم الألوهية . وعن الزجاج : أن « ما » استفهامية ﴿ قُلْ إِنْ ضَلَلْتُ ﴾ عن الحق ﴿ فَإِنَّمَا أَضِلُّ عَلَى نَفْسِى ﴾ أى إثم ضلالى عليها إذ هى الأمارة بالسوء وبهذا الاعتبار قابل الشرطية بقوله ﴿ وَإِنِ اهْتَدَيْتُ فَبِمَا يُوحِى إِلَىَّ رَبِّى ﴾ من القرآن والحكمة أو بهداية الله وتوفيقه . وهذا وإن كان خطاباً للنبى صلى الله عليه وسلم فقد دخل تحته كل مكلف ﴿ إِنَّهُ سَمِيعٌ ﴾ الدعاء ﴿ قَرِيبٌ ﴾ يدرك قول كل ضال ومهتد وفعله وإن أخفاه ﴿ وَلَوْ تَرَى إِذْ فَزِعُوا ﴾ عند البعث أو عند الموت أو يوم بدر لرأيت أمراً عظيما ﴿ فَلَا فَوْتَ ﴾ لهم منا أى لا يفوتوننا بهرب أو حصن ﴿ وَأُخِذُوا مِنْ مَكَانٍ قَرِيبٍ ﴾ من ظهر الأرض إلى بطنها أو من القبور إلى النار أو من صحراء بدر إلى القليب « وأخذوا » عطف على « فزعوا » أو على « فلا فوت » على معنى فلم يفوتوا وأخذوا والأول أولى لأنه مقتض إعادة « فلا فوت » تقديراً فيفيد تأكيداً والأفعال الواقعة بعد « لو » و « إذ » وإن كانت للمضىّ فالمراد بها الاستقبال ، جاءت بلفظ الماضى لتحققها فهى كالواقع ﴿ وَقَالُوا ﴾ حين أخذوا ﴿ آمَنَّا بِهِ ﴾ أى بمحمد وقد مر ذكره فى صاحبكم ﴿ وَأَنَّى لَهُمُ التَّنَاوُشُ ﴾ بالواو لنافع وابن كثير وابن عامر وحفص وبالهمزة بدلها للباقين : أى تناول الإيمان ﴿ مِنْ مَكَانٍ بَعِيدٍ ﴾ عن محله إذ هم فى الآخرة ومحله فى الدنيا ﴿ وَقَدْ كَفَرُوا بِهِ ﴾ بمحمد أو بالعذاب ﴿ مِنْ قَبْلُ ﴾ فى الدنيا أوان التكليف ﴿ وَيَقْذِفُونَ بِالْغَيْبِ ﴾ يرجون به عطف على « كفروا » والمضارع حكاية للحال أى يتكلمون بما لم يظهر لهم فى الرسول بالطعن وفى العذاب بالنفى ﴿ مِنْ مَكَانٍ بَعِيدٍ ﴾ وذلك كقولهم فيه : ساحر ، شاعر ، كاهن وفى القرآن : شعر ، سحر ، كهانة . مثل حالهم بحال من يقذف شيئاً من بعيد لا يظن لحوقه ، أو هو قولهم إن كان بعث فنكن أحسن حالا من أصحاب محمد قياساً بلا جامع مع ظهور الفارق ﴿ وَحِيلَ بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ مَا يَشْتَهُونَ ﴾ من قبول الإيمان فى ذلك الوقت أو كونهم أحسن حالا ﴿ كَمَا فُعِلَ بِأَشْيَاعِهِمْ ﴾ أشباههم فى الكفر ﴿ مِنْ قَبْلُ ﴾ أى قبلهم ﴿ إِنَّهُمْ كَانُوا فِى شَكٍّ مُرِيبٍ ﴾ موقع فى الريب أو فى شك ذى ريب وكلاهما إسناد مجازى والوجه مختلف. قال أبو حيان : ومريب اسم فاعل من أراب أتى بريبة أو أربته أو قعته فى ريبة . اهـ وقال ابن عطية : والشك المريب أقوى ما يكون من الشك وأشده إظلاماً . اهـ

[تم تفسير سورة سبأ]

سورة فاطر

مكية ـ خمس أو ست وأربعون آية

﴿ بِسْمِ ٱللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ ۝ الْحَمْدُ لِلَّهِ فَاطِرِ السَّمَٰوَاتِ وَالْأَرْضِ ﴾ مبدعهما والإضافة محضة ولذا وصف به المعرفة لأن الوصف بمعنى الماضى ﴿ جَاعِلِ الْمَلَائِكَةِ رُسُلًا ﴾ إلى الأنبياء والأولياء والصالحين بالوحى والإلهام والرؤيا الصالحة ، أو رسلا إلى خلقه يوصلون إليه آثار صنعه ﴿ أُولِي أَجْنِحَةٍ ﴾ أى ذوى أجنحة وأولو جمع ذو من غير لفظه كالمخاض وهى حوامل النوق مفرده : خلفة . أى أجنحة متعددة متفاوتة بتفاوت مالهم من المراتب ينزلون بها ويعرجون . وقوله ﴿ مَثْنَىٰ وَثُلَاثَ وَرُبَاعَ ﴾ نصبها على الوصف غير منصرفة للعدل والوصف ولا دلالة فيه على عدم الزيادة ولذا أردفه بقوله ﴿ يَزِيدُ فِي الْخَلْقِ ﴾ فى الملائكة وغيرهم ﴿ مَا يَشَاءُ ﴾ من الأجنحة وغيرها على ما اقتضته الحكمة وما يتناول كل ماقيل فى تفسير الزيادة كحسن الوجه والصوت والخط والعقل وغيرها من السجايا والمزايا ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴾ فالموجب للتخصيص تعلق الإرادة ﴿ مَا يَفْتَحِ ٱللَّهُ لِلنَّاسِ مِن رَّحْمَةٍ ﴾ أى مايرسله إليهم من نعمة سماوية أوأرضية كمطر ورزق وأمن وصحة وعلم ونبوّة ؛ فعبر عن الإرسال بالفتح تجوّزمن السبب للمسبب ﴿ فَلَا مُمْسِكَ لَهَا ﴾ لا يقدر أحد على منعها ﴿ وَمَا يُمْسِكْ ﴾ من ذلك ﴿ فَلَا مُرْسِلَ لَهُ مِن بَعْدِهِ ﴾ أى بعد إمساكه واختلاف الضميرين لأن الموصول الأول مفسر بالرحمة فحسن التأنيث لذلك وفى تفسيره بها إشارة إلى سبق رحمته ، والموصول الثانى مطلق ليتناولها والغضب أو لدلالة تفسير الأول عليه ﴿ وَهُوَ الْعَزِيزُ ﴾ الغالب على أمره يرسل ويمسك على وفق مشيئته ﴿ الْحَكِيمُ ﴾ لا يفعل إلا بعلم وإتقان ، ثم أمر الناس بالشكر فقال ﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ ٱذْكُرُوا نِعْمَتَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ ﴾ بالقيام بشكرها وصرف القلب والجوارح إلى طاعة مولاها ثم أنكر أن يكون لغيره فى ذلك مدخل بقوله ﴿ هَلْ مِنْ خَالِقٍ ﴾ من زائدة للتأكيد وخالق مبتدأ أى خالق لتلك النعم وغيرها ﴿ غَيْرُ ٱللَّهِ ﴾ بالرفع للجمهور صفة خالق على المحل وبالجر لحمزة والكسائى على اللفظ والاستفهام بمعنى النفى والتبكيت ﴿ يَرْزُقُكُم ﴾ صفة لخالق أو استئناف مفسر له ﴿ مِّنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ ﴾ بالمطر والنبات أى لا خالق رازق غيره ﴿ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ﴾ مستأنف ﴿ فَأَنَّىٰ تُؤْفَكُونَ ﴾ من أى وجه تصرفون عن توحيده مع إقراركم بأنه الخالق الرازق ﴿ وَإِن يُكَذِّبُوكَ ﴾ يا محمد فى التوحيد والبعث والحساب والعقاب فاصبر متأسياً للرسل ﴿ فَقَدْ كُذِّبَتْ رُسُلٌ ﴾ كرام

﴿ مِنْ قَبْلِكَ ﴾ فى ذلك فصبروا فأنت أولى بالصبر لأنك سيدهم المقدم واستغنى بالسبب عن الجواب المسبب وتنكير «رسل» للتعظيم المقتضى زيادة التسلية والحث على المصابرة ﴿ وَإِلَى اللَّهِ تُرْجَعُ الْأُمُورُ ﴾ فيجازيك وإياهم على الصبر والتكذيب ، ولابن عامر وحمزة والكسائى فتح التاء وكسر الجيم ﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ ﴾ بالبعث وغيره ﴿ حَقٌّ ﴾ لا خلف فيه ﴿ فَلَا تَغُرَّنَّكُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا ﴾ التمتع بلذاتها عن طلب الآخرة ﴿ وَلَا يَغُرَّنَّكُمْ بِاللَّهِ ﴾ بحلمه وإمهاله ﴿ الْغَرُورُ ﴾ الشيطان بأن يمنيكم المغفرة مع الإصرار على المعاصى ﴿ إِنَّ الشَّيْطَانَ لَكُمْ عَدُوٌّ ﴾ عداوة قديمة عامة ﴿ فَاتَّخِذُوهُ عَدُوًّا ﴾ بطاعة الله والحذر عن مكايده فى عقائدكم وأفعالكم وجميع أحوالكم ﴿ إِنَّمَا يَدْعُو حِزْبَهُ ﴾ شيعته وأتباعه بالوسوسة وتزيين المعاصى ﴿ لِيَكُونُوا مِنْ أَصْحَابِ السَّعِيرِ ﴾ الملازمين لها واللام للعاقبة وهو تقرير لعداوته وبيان لغرضه فى دعوته إلى اتباع الهوى والركون إلى الدنيا . قال ابن عطاء الله : ينبغى للعبد أن يقلل الدخول فى أسباب الدنيا لحديث : إن قليل الدنيا يلهى عن كثير الآخرة ، وما قل وكفى خير مما كثر وألهى . اهـ . ثم بيّن الله بعد التحذير عن اتباع الشيطان حال حزبه وحزب الله ووصف العذاب والثواب ترهيباً وترغيباً بقوله ﴿ الَّذِينَ كَفَرُوا لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ كَبِيرٌ ﴾ وعيد لمن أجاب دعاءه ووعد لمن خالفه وقطع للأمانى الفارغة وبناء للأمر على الإيمان والعمل الصالح ثم قرر ذلك بقوله ﴿ أَفَمَنْ زُيِّنَ لَهُ سُوءُ عَمَلِهِ ﴾ بعلة هواه على عقله حتى انتكس رأيه ﴿ فَرَآهُ ﴾ أى فبيح عمله الباطل ﴿ حَسَنًا ﴾ فضل به و « من » مبتدأ والخبر كمن هداه الله فرأى الأعمال على ما هى عليه حذف لدلالة ﴿ فَإِنَّ اللَّهَ يُضِلُّ مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِي مَنْ يَشَاءُ ﴾ عليه أو الخبر ذهبت نفسك عليهم حسرة فحذف لدلالة ﴿ فَلَا تَذْهَبْ نَفْسُكَ عَلَيْهِمْ حَسَرَاتٍ ﴾ إذا علمت أن الإضلال والهداية بيده تعالى فلا تتأسف على عدم اهتدائهم فلا تهلك نفسك عليهم للحسرات على غيهم وتفارقك والأولى جعل « حسرات » حالا كأن نفسه صارت عين الحسرات وأوثر الجمع للمبالغة كأنّ له حسرات بعدد كل شخص منهم أو بعدد كل سيئة منهم والجار والمجرور متعلق بتذهب أو بحسرات وتقديم معمول المصدر شائع قاله فى غاية الأمانى خلافاً للبيضاوى . والفاءات الثلاث للسببية غير أن الأولين دخلتا على السبب والثالثة على المسبب ﴿ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِمَا يَصْنَعُونَ ﴾ فيجازيهم عليه ﴿ وَاللَّهُ الَّذِي أَرْسَلَ الرِّيَاحَ ﴾ بالجمع للجمهور والإفراد لابن كثير وحمزة والكسائى ﴿ فَتُثِيرُ سَحَابًا ﴾ المضارع لحكاية الحال الماضية استحضاراً لتلك الصورة البديعة الدالة على كمال الحكمة ولبيان أحداثها بهذه الخاصية ولذا أسندت إليها ﴿ فَسُقْنَاهُ إِلَى بَلَدٍ مَيِّتٍ ﴾ بالتشديد لنافع وحمزة والكسائى وحفص وبالتخفيف للباقين أى الذى لا نبات لها والتفت إلى التكلم الذى هو أدخل فى الاختصاص لما فى هذا السوق والإحياء من مزيد الصنع ﴿ فَأَحْيَيْنَا بِهِ الْأَرْضَ ﴾ أى بالمطر النازل منه وذكر السحاب كذكره ﴿ بَعْدَ مَوْتِهَا ﴾ يبسها وذهاب نضارتها ﴿ كَذَلِكَ النُّشُورُ ﴾ البعث والإحياء ، والكاف فى محل الرفع أى

مثل إحياء الموات إحياء الأموات فى صحة المقدورية أو فى كيفية الإحياء . روى أن الله ينزل ماء من تحت العرش ينبت منه الموتى ﴿ مَنْ كَانَ يُرِيدُ الْعِزَّةَ ﴾ الرفعة والشرف ﴿ فَلِلَّهِ الْعِزَّةُ جَمِيعًا ﴾ فى الدارين فليطلبها منه فإن الشىء لا يطلب إلا من مالكه وعزة رسول الله والمؤمنين عزته بسبب طاعته ومن أرادها فليطعه كما بين ما تطلب به بقوله ﴿ إِلَيْهِ يَصْعَدُ الْكَلِمُ الطَّيِّبُ ﴾ وهو لا إله إلا الله وكل ذكر كسبحان الله والحمد لله ولا إله إلا الله والله أكبر ولا حول ولا قوة إلا بالله والقرآن أفضل من كل ذكر ومعنى صعوده إليه علمه وقبوله على المجاز أو صعود الكتبة بصحيفته . وكذا قوله ﴿ وَالْعَمَلُ الصَّالِحُ ﴾ وهو الموافق للسنة فرضاً أو نفلا ﴿ يَرْفَعُهُ ﴾ الله أو الكلم يرفع العمل إذ لا يقبل الله إلا بالتوحيد أو العمل يرفع الكلم إذ العمل هو الذى ينور الإيمان ويحققه ويقويه ، والأول أرجح التأويلات كما فى الجواهر ، وقال فى الفتوحات المكية : فإن قيل كيف صعود الأعمال مع أنها أعراض فالجواب أنها تتصور ثم تصعد على شاكلة فاعلها وعمله حُسناً وقبحا فتخرج من الهيكل إلى محالها على مزكيها الذى هو روح الحضور اهـ . ﴿ وَالَّذِينَ يَمْكُرُونَ ﴾ المكرات ﴿ السَّيِّئَاتِ ﴾ فى الرياء بالأعمال أو فى إيذاء النبى صلى الله عليه وسلم ونصبه على المصدر لأن «مكر» لازم ﴿ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ ﴾ ينسى عنده مكرهم ﴿ وَمَكْرُ أُولَٰئِكَ هُوَ يَبُورُ ﴾ يهلك ولا ينفذ لأن الأمور مقدرة لا تتغير بمكرهم كما دل عليه بقوله ﴿ وَاللَّهُ خَلَقَكُمْ مِنْ تُرَابٍ ﴾ بخلق آدم منه ﴿ ثُمَّ مِنْ نُطْفَةٍ ﴾ منىّ فى سائر ذريته ﴿ ثُمَّ جَعَلَكُمْ أَزْوَاجًا ﴾ ذكراناً وإناثاً وهذا يدل على أن له الحول الكامل لا لغيره ثم أشار إلى العلم الشامل بقوله ﴿ وَمَا تَحْمِلُ مِنْ أُنْثَىٰ وَلَا تَضَعُ إِلَّا ﴾ ملتبسة ﴿ بِعِلْمِهِ ﴾ وحفظه ثم أشار إلى القضاء والقدر بقوله ﴿ وَمَا يُعَمَّرُ مِنْ مُعَمَّرٍ ﴾ مايمدّ فى عمر طويل العمر ﴿ وَلَا يُنْقَصُ مِنْ عُمُرِهِ ﴾ أى ذلك المعمر أو معمر آخر ﴿ إِلَّا فِي كِتَابٍ ﴾ هو اللوح أو علم الله ، فعلى الأول التعمير والنقص راجعان إلى شخص واحد باعتبار أسباب مختلفة أثبتت فى اللوح مثل أن يكون فيه عمر فلان أربعون إن لم يتصدق بكذا وستون إن تصدق به : لما روى أن الصدقة وصلة الأرحام يزيدان فى العمر أو نقص عمره مايمضى منه ، والكتاب كتاب الحفظة يكتب فيه مضى من عمره يوم ، مضى يومان ، وهكذا ، وعلى الثانى فالمعمر من طوّل عمره ، والمنقوص مقابله وضمير «عمره» له وإن لم يذكر لدلالة مقابله عليه . وعن قتادة : المعمر من بلغ عمره ستين والمنقوص من مات دونه لكن هذا باعتبار غالب الأعمار . والله أعلم ﴿ إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ ﴾ هين والإشارة إلى الحفظ أو الزيد والنقصان ﴿ وَمَا يَسْتَوِي الْبَحْرَانِ هَٰذَا عَذْبٌ ﴾ حلو ﴿ فُرَاتٌ ﴾ كاسر العطش لشدة العذوبة ﴿ سَائِغٌ شَرَابُهُ ﴾ سهل انحداره ﴿ وَهَٰذَا مِلْحٌ أُجَاجٌ ﴾ شديد الملوحة يحرق بملوحته مثل ضربه الله للمؤمن والكافر ، ثم استطرد فى وصف البحرين وما علق بهما من المنافع بقوله ﴿ وَمِنْ كُلٍّ تَأْكُلُونَ لَحْمًا طَرِيًّا ﴾ هو السمك ﴿ وَتَسْتَخْرِجُونَ ﴾ من الملح أو منهما ﴿ حِلْيَةً ﴾ هى اللؤلؤ والمرجان ﴿ تَلْبَسُونَهَا ﴾ وقيل إن هذا ليس استطراداً بل هو من تتمة المثل لفضل المشبه به على المشبه لاشتماله

على فوائد لم توجد فى المشبه بعد دعوى الاشتراك فى الملح خاصة فلا ترشيح وقيل هو من تتمة التمثيل على معنى أن البحرين وإن اشتركا فى بعض الفوائد لكن خالط أحدهما ما أفسد فطرته الأصلية من الملوحة وكذلك المؤمن والكافر وإن اتفقا فى بعض الأخلاق والكلم تفاوتاً فيما هو الأصل لبقاء المؤمن على الفطرة دون الكافر ﴿ وَتَرَى الْفُلْكَ ﴾ السفن ﴿ فِيهِ ﴾ فى كل منهما ﴿ مَوَاخِرَ ﴾ شواق تمخر الماء أى تشقه بجريها فيه مقبلة ومدبرة بريح واحدة وإنما قدم الجار هنا وأخره فى النحل لأن الكلام هناك فى تعداد النعم وكون الفلك ماخرة سبب قريب وهنا وقع استطرادا أو تتمة للغرض ﴿ لِتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ ﴾ تعالى بالسفر للتجارة ، واللام متعلقة بمواخر أو بما دل عليه الأفعال المذكورة ﴿ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴾ الله على ذلك ، وحرف الترجى باعتبار ظاهر حالهم ﴿ يُولِجُ اللَّيْلَ فِي النَّهَارِ وَيُولِجُ النَّهَارَ فِي اللَّيْلِ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلٌّ ﴾ منهما ﴿ يَجْرِي ﴾ فى فلكه ﴿ لِأَجَلٍ مُسَمًّى ﴾ هو تمام دوره أو منتهاه وهو يوم القيامة ﴿ ذَٰلِكُمُ ﴾ الفاعل لهذه الأشياء ﴿ اللَّهُ رَبُّكُمْ لَهُ الْمُلْكُ ﴾ أخبار مترادفة أوجبها تلك الفاعلية ﴿ وَالَّذِينَ تَدْعُونَ ﴾ تعبدون ﴿ مِنْ دُونِهِ ﴾ أى غيره وهم الأصنام ﴿ مَا يَمْلِكُونَ مِنْ قِطْمِيرٍ ﴾ لفافة النواة وهذا دلالة على تفرد الله بالألوهية والربوبية ﴿ إِنْ تَدْعُوهُمْ لَا يَسْمَعُوا دُعَاءَكُمْ ﴾ لأنهم جماد ﴿ وَلَوْ سَمِعُوا ﴾ فرضاً إذ كانوا من جهلهم يعتقدون ذلك ﴿ مَا اسْتَجَابُوا لَكُمْ ﴾ لعدم القدرة وهذا محسوس لا يكابرون فيه أو لتبرئهم من عبادتكم ﴿ وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ يَكْفُرُونَ بِشِرْكِكُمْ ﴾ بإشراككم يقرون ببطلانه ﴿ وَلَا يُنَبِّئُكَ ﴾ بأمر الدارين مخبر ﴿ مِثْلُ خَبِيرٍ ﴾ عليم به أخبرك وهو الله تعالى إذ هو الخبير به على الحقيقة دون غيره من المخبرين وفيه تحقيق ما أخبر به عن حال آلهتهم ﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ أَنْتُمُ الْفُقَرَاءُ إِلَى اللَّهِ ﴾ بكل حال فى ذواتكم وأعراضكم ، وتعريف الفقراء للمبالغة فى فقرهم كأنهم لشدة افتقارهم بضعفهم هم الفقراء وفقر غيرهم كلا فقر من باب « ذلك الكتاب » ﴿ وَاللَّهُ هُوَ الْغَنِيُّ ﴾ عن كل خلقه على الإطلاق ﴿ الْحَمِيدُ ﴾ المحمود العام على سائر الموجودات فاستحق عليهم الحمد ، ومقصود الكلام التنبيه على أن دعاءهم إلى التوحيد والعبادة لنفعهم لا لاحتياجه ﴿ إِنْ يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ وَيَأْتِ بِخَلْقٍ جَدِيدٍ ﴾ بدلكم بأن ينشئ عالماً آخر أو من يوحده ﴿ وَمَا ذَٰلِكَ عَلَى اللَّهِ بِعَزِيزٍ ﴾ بمتعذر أو متعسر ﴿ وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ ﴾ أى لا تحمل نفس آثمة ﴿ وِزْرَ أُخْرَىٰ ﴾ فلا يحمل الرسول وزركم وإنما دعاكم رحمة لكم ﴿ وَإِنْ تَدْعُ ﴾ نفس ﴿ مُثْقَلَةٌ ﴾ بالوزر ﴿ إِلَىٰ حِمْلِهَا ﴾ منه أحداً ليحمل بعضه ﴿ لَا يُحْمَلْ مِنْهُ شَيْءٌ ﴾ نفى أن يحمل عنها ذنبها كما نفى أن يحمل عليها ذنب غيرها فالأولى دلت على كمال العدل والثانية على شدة الهول ﴿ وَلَوْ كَانَ ﴾ المدعو أو الداعى دل عليه « وإن تدع » ﴿ ذَا قُرْبَىٰ ﴾ قرابة كالأب والابن لشدة الهول « يوم يفر المرء من أخيه وأمه وأبيه وصاحبته وبنيه لكل امرئ منهم يومئذ شأن يغنيه » ﴿ إِنَّمَا تُنْذِرُ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ بِالْغَيْبِ ﴾ غائبين عن عذابه أو عن الناس فى خلواتهم أو غائباً عنهم حال من الفاعل أو المفعول أى هؤلاء

المنتفعون بإنذارك لا غيرهم لانتفاء القابلية ﴿ وَأَقَامُوا الصَّلَوٰةَ ﴾ أداموها فحسنوا ظواهرهم بالعبادات كما زينوا بواطنهم بالخشية والإيمان بالغيب والاكتفاء بالصلاة لشمولها سائر العبادات ثم حض على التزكي بالترجية عليه بقوله ﴿ وَمَن تَزَكَّىٰ ﴾ تطهر ظاهراً وباطناً ﴿ فَإِنَّمَا يَتَزَكَّىٰ لِنَفْسِهِ ﴾ إذ نفعه لا يتخطاها فهو اعتراض يؤكد ماتقدم ﴿ وَإِلَى ٱللَّهِ ٱلْمَصِيرُ ﴾ المرجع للجزاء وعد ووعيد ﴿ وَمَا يَسْتَوِي ٱلْأَعْمَىٰ وَٱلْبَصِيرُ ﴾ الكافر والمؤمن أو معبودهم العاجز والله القادر ، فعلى الأول عطف على قوله « وما يستوى البحران » وعلى الثانى من تتمة قوله « ذلكم الله ربكم له الملك » والأول أولى ، مثّل أولا بالبحرين ثم فضل الملح على الكافر ثم بالأعمى والبصير ففيه ترقٍّ ﴿ وَلَا ٱلظُّلُمَاتُ ﴾ شبهات الكفر ﴿ وَلَا ٱلنُّورُ ﴾ للإسلام ﴿ وَلَا ٱلظِّلُّ وَلَا ٱلْحَرُورُ ﴾ الجنة والنار ، والحرور فعول من الحر غلب على السموم ريح النهار وقيل السموم ما يهب نهاراً والحرور ما يهب ليلا ﴿ وَمَا يَسْتَوِي ٱلْأَحْيَاءُ وَلَا ٱلْأَمْوَاتُ ﴾ تمثيل آخر المؤمن والكافر أبلغ من الأول ولذلك كرر الفعل ، وقيل العلماء والجهلاء ، وكلمة « لا » فى « ولا الظلمات ، ولا الظل » مذكورة للنفى مؤكدة له كما فى « ولا الضالين » وأما التى فى « ولا النور ، ولا الحرور ، ولا الأموات » فليست كذلك إذ لا يصح تقدير الفعل بعدها لأن الفاعل بمجموع متقابلين فهى زائدة للتوكيد وقيل قصد بها نفى الاستواء من كل منهما ولم تعد فى البصير لأنه تمهيد للترقى إلى التشبيه بالأحياء والأموات ألا ترى كيف أعاد «وما يستوى» وما بينهما من التمثيلين مقصودان ذاتاً فلذا أعيدت فيهما . والله أعلم ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ يُسْمِعُ مَن يَشَآءُ ﴾ هدايته فيوفقه لفهم آياته فيحييه بالإيمان ﴿ وَمَآ أَنتَ بِمُسْمِعٍ مَّن فِي ٱلْقُبُورِ ﴾ ترشيح لتشبيه المصرين على الكفر بالأموات مبالغة فى إقناطه عنهم ﴿ إِنْ ﴾ ما ﴿ أَنتَ إِلَّا نَذِيرٌ ﴾ منذر وقد أنذرت وليس عليك الإسماع ولا حيلة لك إليه فى المطبوع على قلوبهم ﴿ إِنَّآ أَرْسَلْنَٰكَ بِٱلْحَقِّ ﴾ محقين أو محقاً حال من الفاعل أو المفعول أو منهما أو صفة لمصدر أى إرسالا مصحوباً بالحق الهدى ويجوز أن يكون صلة لقوله ﴿ بَشِيرًا وَنَذِيرًا ﴾ بالوعد الحق والوعيد الحق من أجاب إليه ومن لم يجب إليه ﴿ وَإِن مِّنْ أُمَّةٍ ﴾ أهل عصر ﴿ إِلَّا خَلَا ﴾ مضى ﴿ فِيهَا نَذِيرٌ ﴾ من نبيٍّ أو عالم ينذر عنه والاكتفاء بالنذير لأنه قرين البشارة غالباً يعلم منه ولم يعكس لأن الإنذار هو الأهم ﴿ وَإِن يُكَذِّبُوكَ فَقَدْ كَذَّبَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ جَآءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ ﴾ المعجزات الشاهدة على نبوّتهم ﴿ وَبِٱلزُّبُرِ ﴾ كصحف إبراهيم ﴿ وَبِٱلْكِتَٰبِ ٱلْمُنِيرِ ﴾ كالتوراة والإنجيل فاصبر كما صبروا ، ويحتمل كون الإسناد إلى الكل بمعنى شمول البعض للكل كالبينات واختصاص البعض كالتوراة ﴿ ثُمَّ أَخَذْتُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا ﴾ بالاستئصال ﴿ فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ ﴾ إنكارى عليهم بالعقوبة تعجيب مما صنع بهم ﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَخْرَجْنَا ﴾ فيه التفات عن الغيبة لما مر ﴿ بِهِ ثَمَرَٰتٍ مُّخْتَلِفًا أَلْوَٰنُهَا ﴾ أجناسها أو أصنافها أو الألوان المعروفة كأخضر وأحمر وأصفر وغيرها ﴿ وَمِنَ ٱلْجِبَالِ جُدَدٌ ﴾ جمع جدة طريق فى الجبل وغيره أو ذو جدد أى خطط من الجدّ وهو القطع لانقطاعها

من سائر الألوان ﴿ بِيضٌ وَحُمْرٌ مُخْتَلِفٌ أَلْوَانُهَا ﴾ فى الشدة والضعف يقق وقان ودونهما ﴿ وغرابيب ﴾ عطف على جدد كأنه قيل الجبال ذو جدد مختلفة الألوان ومنها غرابيب متحدة الألوان وهو تأكيد موصوف مضمر فسره ﴿ سُودٌ ﴾ وغرابيب جمع غربيب شديدة السواد ولا يجوز أن يكون سود تأكيداً له بل تفسيرا أو بدلا منه لأن الغربيب تأكيد للأسود لا يتقدمه وفى مثل هذا التركيب مزيد تأكيد لما فيه من التكرير باعتبار الإضمار والإظهار ﴿ وَمِنَ النَّاسِ وَالدَّوَابِّ ﴾ كل ما يدب أو الخيل والبغال والحمير ﴿ وَالْأَنْعَامِ ﴾ الإبل والبقر والغنم من عطف الخاص على العام على الأول صنف ﴿ مُخْتَلِفٌ أَلْوَانُهُ كَذَٰلِكَ ﴾ كاختلاف الثمرات والجبال وهو نصب على المصدر أو رفع أى الأمر كذلك ولما خاطبه بألم تر وعدد عليه دلائل التوحيد بما ذكر من العالم العلوى والسفلى من البسائط والمركبات من الحيوان والنبات وسائر الهيئات من الألوان والصفات قال ﴿ إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ ﴾ مثلك أو من يدانيك فى المعرفة من الذين قدروا الله حق قدره لا الجهلاء كفار مكة إذ شرط الخشية معرفة المخشى والعلم بصفاته وأفعاله فمن كان أعلم به كان أخشى منه ولذا أتبعه بذكر أفعاله الدالة على كمال قدرته وتقديم المفعول لأن المقصود حصر الفاعل ولو أخر لانعكس الأمر . قاله البيضاوى . قال فى الجواهر : إنما فى هذه الآية تحضيض للعلماء فى الخشية لا للحصر . وقال الربيع بن أنس من لم يخش الله فليس بعالم ، وقال الشعبى : إنما العالم من يخشى الله ، وقال ابن عطاء الله : العلم إن قارنته الخشية فلك وإلا فعليك ، وقال فى التنوير : واعلم أن العلم حيث ما تكرر فى الكتاب والسنة إنما المراد به العلم النافع الذى تقارنه الخشية ، وحكاياتهم فى هذا لاتحصى . ﴿ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ ﴾ فى تعذيب من أصر على الطغيان ﴿ غَفُورٌ ﴾ للتائب علة لوجوب الخشية ﴿ إِنَّ الَّذِينَ يَتْلُونَ ﴾ يقرءون أو يتبعون ﴿ كِتَابَ اللَّهِ ﴾ فإن تلاوته من أفضل الأعمال وكذا العمل بما فيه وقيل أريد به جنس الكتب ثناء على المصدقين من الأمم بعد اقتصاص حال المكذبين ﴿ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ ﴾ أداموها بشروطها ﴿ وَأَنْفَقُوا مِمَّا رَزَقْنَاهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً ﴾ أى فى الأوقات كلها ، وقيل السر فى التطوع والعلانية فى الفرض وآثر فى التلاوة المضارع دون التاليين إشارة إلى استغراقهم لما مضى والمستقبل فى الطاعات ﴿ يَرْجُونَ تِجَارَةً ﴾ تحصيل ثواب بالطاعة وهو خبر « إن » ﴿ لَنْ تَبُورَ ﴾ لن تكسد ولن تهلك بالخسران ﴿ لِيُوَفِّيَهُمْ أُجُورَهُمْ ﴾ علة لما دل عليه لن تبور أى نفقت عند الله ليوفيهم بها أجورهم ﴿ وَيَزِيدَهُمْ ﴾ على ما يقابل أعمالهم ﴿ مِنْ فَضْلِهِ ﴾ بتضعيف الحسنات والنظر إلى وجهه تعالى والتشفع فى الإخوان ﴿ إِنَّهُ غَفُورٌ ﴾ لفرطاتهم ﴿ شَكُورٌ ﴾ لطاعاتهم : علة للتوفية والزيادة ﴿ وَالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ مِنَ الْكِتَابِ ﴾ يعنى القرآن ، و « من » للتبيين أو الجنس أو للتبعيض ﴿ هُوَ الْحَقُّ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ ﴾ حال مؤكدة لأن الحق لا ينفك عن هذا التصديق أى أحقه مصدقا لما تقدمه من الكتب السماوية ﴿ إِنَّ اللَّهَ بِعِبَادِهِ لَخَبِيرٌ بَصِيرٌ ﴾ عالم بالبواطن والظواهر فلو لم تكن أهلا لهذا الكتاب المعجز المهيمن على سائر الكتب

لما آثرك به وتقديم الخبير اهتماما لأن الاطلاع على الخفايا والسرائر هو المختص به تعالى وذكر البصير على طريق التتميم أو لأن العمدة فيما ذكر الأمور الروحانية عند أهل الحق ﴿ثُمَّ أَوْرَثْنَا﴾ أعطينا ﴿الْكِتَابَ﴾ القرآن ﴿الَّذِينَ اصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا﴾ وهم أمتك يا محمد ﴿فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِنَفْسِهِ﴾ بالتقصير فى العمل به بترك الأعمال وارتكاب المحرمات بحاسب ما شاء الله ثم تلحقه الرحمة ﴿وَمِنْهُمْ مُقْتَصِدٌ﴾ متوسط خلط عملا صالحا وآخر سيئا لا يحمل به فى أغلب الأوقات فيحاسب حسابا يسيرا ﴿وَمِنْهُمْ سَابِقٌ بِالْخَيْرَاتِ﴾ بالإتيان بالطاعات وترك المنكرات فى كل الأوقات ويضم إلى العمل به التعليم والإرشاد إلى العمل وهذا يدخل الجنة بغير حساب ﴿بِإِذْنِ اللَّهِ﴾ بإرادته وتيسيره وهذا الذى عليه أكثر المفسرين من الصحابة ومن بعدهم ودل عليه التعظيم بالإيراث والاصطفاء، ألا ترى كيف أشار إلى القسم بعده بقوله والذين كفروا لهم نار جهنم ولما فى قوله ﴿ذَلِكَ﴾ أى إيرانهم واصطفاؤهم ﴿هُوَ الْفَضْلُ الْكَبِيرُ * جَنَّاتُ عَدْنٍ﴾ مبتدأ والخبر ﴿يَدْخُلُونَهَا﴾ أى الثلاثة بالبناء للفاعل للجمهور والمفعول لأبى عمرو. روى الترمذى بإسناده إلى أبى سعيد أن رسول الله صلى الله عليه وسلم لما تلا هذه الآية قال «هؤلاء كلهم بمنزلة واحدة وكلهم من أهل الجنة» وقد وافقه رواة أخر يكاد أن يتواتر فلذا عدلنا عن أكثر التفاسير الواردة هنا وبلاغة الترتيب لا تخفى لأن الظالم أكثر والمقتصد كثير والسابق قليل ﴿يُحَلَّوْنَ﴾ خبر ثان ﴿فِيهَا مِنْ﴾ بعض ﴿أَسَاوِرَ مِنْ ذَهَبٍ﴾ من الأولى للتبعيض والثانية للبيان ﴿وَلُؤْلُؤًا﴾ بالنصب لنافع وعاصم عطفا على محل من أى أساور وبالجر لغيرهما على لفظ ذهب والمعنى من ذهب مرصع باللؤلؤ أو من ذهب فى صفاء اللؤلؤ ﴿وَلِبَاسُهُمْ فِيهَا حَرِيرٌ﴾ على الدوام بخلاف الأسورة ربما تنزع كما هو المتعارف فى الدنيا ﴿وَقَالُوا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَذْهَبَ عَنَّا الْحَزَنَ﴾ جميعه مما يشفق منه فى الدنيا والآخرة وعن ابن عمرو أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: «ليس على أهل لا إله إلا الله وحشة فى القبور ولا فى النشور وكأنى بهم ينفضون التراب ويقولون الحمد لله الذى أذهب عنا الحزن» ﴿إِنَّ رَبَّنَا لَغَفُورٌ﴾ كثير الغفران للذنوب ﴿شَكُورٌ﴾ للطاعات ولو قلت ﴿الَّذِي أَحَلَّنَا دَارَ الْمُقَامَةِ﴾ الإقامة ﴿مِنْ فَضْلِهِ﴾ إذ لا يستحق العبد على مولاه أجرا لعمل ﴿لَا يَمَسُّنَا فِيهَا نَصَبٌ﴾ تعب إذ لا تكليف ولا طلب رزق ﴿وَلَا يَمَسُّنَا فِيهَا لُغُوبٌ﴾ كلال وهو فتور يعترى الإنسان من النصب وإنما نفاه صريحا مبالغة ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا لَهُمْ نَارُ جَهَنَّمَ لَا يُقْضَى عَلَيْهِمْ﴾ لا يحكم عليهم بموت ثان ﴿فَيَمُوتُوا﴾ ويستريحوا نصب بإضمار أن ﴿وَلَا يُخَفَّفُ عَنْهُمْ مِنْ عَذَابِهَا﴾ طرفة عين كما أو كيفا ﴿كَذَلِكَ﴾ مثل ذلك الجزاء ﴿نَجْزِي كُلَّ كَفُورٍ﴾ مبالغ فى الكفر ونجزى بالنون للجمهور والياء لأبى عمرو مبنيا للمفعول ﴿وَهُمْ يَصْطَرِخُونَ فِيهَا﴾ يستغيثون بشدة وعويل يفتعل من الصراخ وهو الصياح بجهد ﴿رَبَّنَا أَخْرِجْنَا نَعْمَلْ صَالِحًا غَيْرَ الَّذِي كُنَّا نَعْمَلُ﴾ وتقييد العمل الصالح بالوصف المذكور للتحسر على ما عملوه من غير الصالح والاعتراف به والإشعار بأن استخراجهم لتلافيه وأنهم كانوا يحسبون أنه صالح

والآن تحقق لهم خلافه فيقال لهم ﴿أَوَلَمْ نُعَمِّرْكُمْ مَا﴾ وقتا ﴿يَتَذَكَّرُ فِيهِ مَنْ تَذَكَّرَ﴾ جواب منه تعالى على وجه التوبيخ والإقناط وما يتناول كل عمر تمكن المكلف فيه من التفكر قيل ما بين العشرين إلى الستين. وفى البخارى «من بلغ ستين سنة فقد أعذر الله إليه» ﴿وَجَاءَكُمُ النَّذِيرُ﴾ وهو الرسول الصادق وكذا العقل والشيب وموت الأقارب كل داخل فى النذير ﴿فَذُوقُوا فَمَا لِلظَّالِمِينَ﴾ أى لكم والإظهار للإشارة إلى العلة ﴿مِنْ نَصِيرٍ﴾ يدفع عنهم العذاب ﴿إِنَّ اللَّهَ عَالِمُ غَيْبِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ لا يخفى عليه شىء وقد علم أنهم أهل الطبع لو رُدُّوا لعادوا لما نهوا عنه ﴿إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ﴾ بما فى القلوب فعلمه بغيرها أولى ﴿هُوَ الَّذِي جَعَلَكُمْ خَلَائِفَ فِي الْأَرْضِ﴾ جمع خليفة وهو الذى استخلف على الشىء أى يخلف بعضكم بعضا تقرير لمعنى «أو لم نعمركم ما يتذكر فيه من تذكر» ﴿فَمَنْ كَفَرَ فَعَلَيْهِ كُفْرُهُ﴾ وباله ﴿وَلَا يَزِيدُ الْكَافِرِينَ كُفْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ إِلَّا مَقْتًا﴾ غضبا أو هو أشد البغض ﴿وَلَا يَزِيدُ الْكَافِرِينَ كُفْرُهُمْ إِلَّا خَسَارًا﴾ فى الآخرة لازدياد العذاب بازدياد الآثام والتكرير لإفادة استقلال الكفر باقتضاء كل من الأمرين ﴿قُلْ أَرَأَيْتُمْ شُرَكَاءَكُمُ﴾ أضافها إليهم لأنهم المثبتون لها ﴿الَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ﴾ أخبرونى عن حالها هل تستحق الشركة ﴿أَرُونِي﴾ أخبرونى ﴿مَاذَا خَلَقُوا مِنَ الْأَرْضِ﴾ أى جزء من أجزائها: بدل اشتمال من أرأيتم كأنه قال أخبرونى عن هؤلاء الشركاء أرونى أى جزء من الأرض خلقوه ﴿أَمْ لَهُمْ شِرْكٌ فِي السَّمَاوَاتِ﴾ مع الله فاستحقوا بذلك شركة فى الألوهية ﴿أَمْ آتَيْنَاهُمْ كِتَابًا﴾ ينطق أنا اتخذنا شركاء ﴿فَهُمْ عَلَى بَيِّنَتٍ﴾ بالجمع لنافع وابن عامر وأبى بكر والكسائى وبالإفراد للباقين ﴿مِنْهُ﴾ من ذلك الكتاب بأن لهم شركة ﴿بَلْ﴾ إضراب عن تلك الأقسام إلى ما هو الواقع وهو ﴿إِنْ يَعِدُ الظَّالِمُونَ بَعْضُهُمْ بَعْضًا إِلَّا غُرُورًا﴾ بقول الأسلاف للأخلاف والرؤساء الأتباع هؤلاء شفعاؤنا عند الله ﴿إِنَّ اللَّهَ يُمْسِكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ أَنْ تَزُولَا﴾ يمنعهما من الزوال قبل أوانه دلالة على كمال قدرته بعد إثبات عجز الشركاء وفيه أن الممكن حال بقائه يحتاج إلى ممسك ﴿وَلَئِنْ﴾ لام قسم ﴿زَالَتَا إِنْ﴾ ما ﴿أَمْسَكَهُمَا مِنْ أَحَدٍ مِنْ بَعْدِهِ﴾ أى سواه من الأولى زائدة والثانية ابتدائية والجملة سادة مسد الجوابين ﴿إِنَّهُ كَانَ حَلِيمًا﴾ حيث أمسكهما وكانتا جديرتين أن يهدا وفيه إيماء إلى أن دعوى الشريك له مما يزيل هذه الأجرام عن مقارها لولا حلمه ﴿غَفُورًا﴾ لمن تاب عن الشرك ما قد سلف ﴿وَأَقْسَمُوا﴾ أى كفار مكة لما بلغهم أن أهل الكتاب كذبوا رسلهم فقالوا ما يأتى ﴿بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ﴾ غاية اجتهادهم فيها ﴿لَئِنْ جَاءَهُمْ نَذِيرٌ﴾ رسول ﴿لَيَكُونُنَّ أَهْدَى مِنْ إِحْدَى الْأُمَمِ﴾ اليهود والنصارى وغيرهما أى أى واحدة منها لما سمعوا «قالت اليهود ليست النصارى على شىء وقالت النصارى ليست اليهود على شىء» أو المراد بإحدى الأمم أفضلها كقولهم زيد واحد القوم ﴿فَلَمَّا جَاءَهُمْ نَذِيرٌ﴾ محمد صلى الله عليه وسلم ﴿مَا زَادَهُمْ﴾ مجيئه شيئا ﴿إِلَّا نُفُورًا﴾ بعدا عن الحق ﴿اسْتِكْبَارًا فِي الْأَرْضِ﴾ عن الإيمان مفعول له أو بدل من «نفورا» ﴿وَمَكْرَ﴾ العمل

﴿ السَّيِّئِ ﴾ بتقدير مضاف حذراً من إضافة الموصوف إلى الصفة ، وقيل أصله : وإن مكروا المكر السيئ فحذف الموصوف استغناء بوصفه ثم أبدل أن مع الفعل بالمصدر ثم أضيف : أى مكرهم بالنبى ومن آمن به وبادعاء الشريك ﴿ وَلَا يَحِيقُ الْمَكْرُ السَّيِّئُ ﴾ لا يحيط ﴿ إِلَّا بِأَهْلِهِ ﴾ وهو الماكر ، ومن أمثالهم : من حفر لأخيه قليبا وقع فيه قليباً ﴿ فَهَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا سُنَّتَ الْأَوَّلِينَ ﴾ سنة الله فيهم من تعذيبهم بتكذيبهم رسلهم ﴿ فَلَنْ تَجِدَ لِسُنَّتِ اللَّهِ تَبْدِيلًا وَلَنْ تَجِدَ لِسُنَّتِ اللَّهِ تَحْوِيلًا ﴾ أى لا يبدل بالعذاب غيره ولا يحوّل إلى غير مستحقه فعدبوا ببدر وغيره ﴿ أَوَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ وَكَانُوا أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً ﴾ أى قد ساروا وشاهدوا فى أسفارهم إلى العراق والشام واليمن آثار تلك الأمم ولا يقين أعلى من المشاهدة فكان ينبغى أن يعتبروا ويعلموا بصدق مقالتك ﴿ وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُعْجِزَهُ مِنْ شَيْءٍ ﴾ ليسبقه ويفوته ﴿ فِي السَّمَاوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ إِنَّهُ كَانَ عَلِيمًا ﴾ كامل العلم ﴿ قَدِيرًا ﴾ كامل الاقتدار إشارة إلى أن إمهالهم بعد الإصرار مع كمال الاقتدار لما فى علمه الشامل من الحكم ﴿ وَلَوْ يُؤَاخِذُ اللَّهُ النَّاسَ بِمَا كَسَبُوا ﴾ من المعاصى ﴿ مَا تَرَكَ عَلَى ظَهْرِهَا ﴾ أى الأرض ﴿ مِنْ دَابَّةٍ ﴾ تدب عليها من سائر الحيوانات بشؤم المعاصى ﴿ وَلَكِنْ يُؤَخِّرُهُمْ إِلَى أَجَلٍ مُسَمًّى ﴾ آخر أعمارهم أو يوم القيامة ﴿ فَإِذَا جَاءَ أَجَلُهُمْ فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ بِعِبَادِهِ بَصِيرًا ﴾ فيجازيهم بأعمالهم على حسب أحوالهم .

[تم تفسير سورة فاطر]

وبها تم الجزء الثالث من

ضياء التأويل فى معانى التنزيل

ويليه الجزء الرابع ، وأوله تفسير سورة يس

فهرس

الجزء الثالث

من

ضياء التأويل : فى معانى التنزيل

صفحة		ضفحة	
٢	تفسير سورة الكهف	١٦٦	تفسير سورة النمل
٢٧	» » مريم	١٨٢	» » القصص
٤٢	» » طه	١٩٨	» » العنكبوت
٦٣	» » الأنبياء	٢١٠	» » الروم
٨٣	» » الحج	٢١٩	» » لقمان
١٠٢	» » المؤمنون	٢٢٦	» » السجدة
١١٨	» » النور	٢٣١	» » الأحزاب
١٣٨	» » الفرقان	٢٥٢	» » سبأ
١٥١	» » الشعراء	٢٦٤	» » فاطر